النخب والسلطة السياسيّة من خلال كتب الطبقات

أعمال المؤتمر الدولي الأوّل

(تونس 16-17-18 نوفمبر 2012)

جمع النصوص وأشرف على نشرها: أ.د إبراهيم جدلة

الأطلسية للنشر

2014

الإهداء

إلى روح فقيد الجامعة التونسية
الأستاذ أحمد جدي (عضو مؤسس لمخبر النخب)
ولد في 10 جوان 1951
وتوفاه الأجل المحتوم في 20 جويلية 2012

(الصورة)

فهرس المحتويات

311 3 ـ المجتمعات الإسلاميّة بالمشرق ونخبها من خلال كتب الطبقات

443 Partie en français

توطئة

انطلق نشاط مخبرنا منذ سنة واحدة، وكانت هذه المدّة القصيرة كافية للقيام بعدّة أنشطة متنوّعة ومتميّزة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تنظيم أيام دراسيّة وتقديم إصدارات جديدة وتنظيم ندوة فكرية دوليّة تحت عنوان: "الإنصات إلى التاريخ" (يومي 23 و24 جوان 2012). وأكثر أنشطتنا انتظاما خلال هذه السنة هو تنشيط حلقات بحث شهرية (سمنار) حول مسألة "كتب الطبقات والتراجم ودورها في دراسة التاريخ الإجتماعي في المجال العربي– الإسلامي" وقد توّج هذا النشاط بعقد المؤتمر العلمي الدولي الأوّل للمخبر حول: "المجتمعات الإسلاميّة ونخبها من خلال كتب الطبقات والتراجم" وذلك أيّام 16–17–18 نوفمبر 2012. وقد شارك في هذا المؤتمر مالا يقلّ عن 60 باحثا يمثّلون 19 جامعة (من تونس والجزائر والمغرب وليبيا ومصر والعراق واليمن وفرنسا).

وها نحن نسعى حثيثا إلى نشر الأعمال المقدّمة خلال هذا اللّقاء الكبير الذي كنّا قد دعونا إليه منذ شهر جانفي 2012 تحدونا الرغبة في أن يكون إطار تفكير عام حول أهمّية كتب الطبقات والتراجم كنتاج فكري من جهة وكأداة هامّة لدراسة المجتمعات الإسلاميّة من جهة أخرى.

ونحن نعتقد أنّ هذا المؤتمر الذي جمع العديد من الباحثين في التاريخ الإسلامي من مؤسّسات مختلفة ومدارس فكريّة متنوّعة قد نجح في طرح العديد من المسائل والإشكاليّات الهامّة والجديدة بخصوص: أهمّية كتب الطبقات و التراجم ودورها في دراسة النخب الدّينيّة والسّياسيّة والعسكريّة والفكريّة وغيرها ومن ثمّ دراسة العلاقات الإجتماعيّة و آليّات ومظاهر الإرتقاء الإجتماعي والأسرة والتصاهر والثروة والتراكم....

ولا يفوتنا هنا أن ننبّه أنّ كتب الطبقات تمثّل نمطا من المصادر الإسلاميّة الفريدة من نوعها، فهي لم تظهر في الحضارات الأخرى وجاءت لتلبية الحاجة لتتبع انتقال المعرفة (أو العلم) من جيل إلى جيل. فهو علم الرّجال أوالطّبقات أوالوفيات الذي جاء نتيجة حاجة المسلمين إلى التّعرّف على تواريخ الرّواة في ولاداتهم ووفياتهم علاوة على أحوالهم الأخرى من صحّة العقل والبدن ومدى ارتحالهم في طلب العلم (أي رواية الحديث) حتّى يعرف مقدار الوثوق بهم وبرواياتهم.

وارتبط ظهور صنف الطبقات ضمن الكتابة التاريخية الإسلامية لمّا تأكّدت الحاجة إلى نوع من الفصل بين التاريخ السياسي الذي تطغى عليه أحداث البلاط من جهة و التاريخ الديني الذي يهتمّ بحملة العلم باعتبارهم ورثة النبي من جهة أخرى. يقول هاميلتون جيب: " وبالرغم من أنّ العالم والمحدّث قد تخلّيا للموظف عن دورهما في تدوين التّاريخ السّياسي فقد بقي في أيديهما ميدان أوسع من التاريخ السّياسي وهو التّراجم... فسير العلماء "ورثة النبي" كانت في نظر العلماء هي التاريخ الصحيح لأمّة الله على الأرض على نحو أصدق من تاريخ التّنظيمات السّياسيّة الزّائلة "(التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى، المركز العربي للكتاب، دمشق، د.ت، ص 160). وبصفة عامّة جاءت كتب الطبقات في مرحلة أولى لحصر العلماء حسب الأجيال المتعاقبة والتثبت من الأسانيد وصحّة الأحاديث.

وقد تنوّعت هذه المصنّفات فيما بعد لتشمل مختلف الإختصاصات والعلوم متعدّية ذلك إلى المذاهب والنّحل ثمّ الأقطار والمدن والخطط السّياسيّة والدّينيّة.... وأصبح المؤرّخون يحصون طبقات النحاة والشعراء والأطباء والقضاة... ويكتبون تواريخ الوزراء والكتّاب. واهتم البعض بأعلام تاريخ مدينة معيّنة مثل بغداد أو دمشق أو القيروان أو القاهرة أو فاسأو تلمسان... وبقدر فقر محتوى التواريخ السياسية للسلالات الحاكمة أصبحت كتب الطبقات والتراجم والوفيات مصدرا هاما للتاريخ الإجتماعي من حيث أنها توفّر الكثير من المعلومات التي لا نجدها في المصادر الإخباريّة العاديّة خصوصا تلك التي تركز على البلاط والسلطان والأحداث السياسية فقط.

وقد دارت مختلف المداخلات حول المحاور التالية:

1- حصر كتب الطبقات المعروفة وترتيبها حسب المحتوى والمجال الجغرافي والفترة الزمنيّة.

2 - كتب الطبقات: ظهورها، دورها، محتواها...

3- تصنيف النخب في المجتمعات الإسلاميّة:- النخب الدينية (الفقهاء، الصوفية)– النخب العلميّة(النحاة، الشعراء،الأطبّاء،القضاة)– النخب السياسية (الأمراء،الوزراء،الحجاب،الكتاب)النخب الإداريّة– النخب العسكريّة...

4 - تاريخ الأسر والأنساب (مع إضافة كتب الأنساب والوفيات في هذا المجال).

5- كيفيّة استغلال كتب الطبقات لدراسة المجتمعات الإسلاميّة. غير أنّه أثناء الإعداد لنشر الأعمال ولأسباب عمليّة قسّمنا المداخلات حسب ثلاثة محاور فقط وهي:

أ – التراجم والطبقات: المصطلح والنشأة والمنهج.

ب – المجتمعات الإسلاميّة بالمغرب ونخبها من خلال كتب الطبقات.

ج – المجتمعات الإسلاميّة بالمشرق من خلال كتب الطبقات.

نرجو أن نكون وفقنا إلى ما سعينا إليه وذلك بمحاولة إثراء المعرفة التاريخية بمعطيات جديدة بخصوص المجالات المعرفية الفضاءات الجغرافية

المدروسة وتطويرها بالعمل على طرح تساؤلات وإشكاليات نرتقب منها فتح آفاق أوسع للبحث العلمي.

أ د إبراهيم جدلة
مدير مخبر: النخب والمعارف
والمؤسسات الثقافيّة بالمتوسط

تقديم

في إطار تجديد البحث التاريخي الإسلامي وخاصة دراسة المجتمعات الإسلامية ونخبها وعلاقات هذه النخب بالسلطات الحاكمة أصبح من الضروري الإعتماد على العدد الوافر من كتب التراجم والطبقات المتوفر لدينا والتي وإن كانت في أغلبها معروفة فإن استغلالها في الدراسات الإجتماعية ما زال محدودا وهو ما دفعنا لإقامة هذا المؤتمر الذي جمع ما يزيد عن ستين متدخّل مثّلوا قرابة عشرين جامعة مختلفة. وقد جاءت الأبحاث المقدّمة متنوعة وثرية عاكسة إلمام أصحابها بهذا النوع من القضايا حيث كانت مسالة النخب في المجتمعات الإسلامية وعلاقاتها بالسلطة في شكليها المساند أو المقاوم الخيط الرابط بين مختلف المساهمات.

وقد اشتملت أعمال هذا المؤتمر على العديد من الدّراسات المتنوعة والمختلفة اللغات فبعضها قدّم بالعربيّة والبعض الآخر بالفرنسيّة. وتوزّعت هذه المداخلات على ثلاثة محاور كبرى وهي:

أ) كتب الطبقات: النشأة والتطور والخصوصيات.

ب) المجتمعات الإسلاميّة ونخبها من خلال كتب الطبقات: دراسات حول بلاد المغرب.

ج) المجتمعات الإسلاميّة ونخبها من خلال كتب الطبقات : دراسات حول المشرق العربي.

تناولت أولى الدّراسات في هذا الكتاب التعريف بهذا الصنف من المؤلّفات مع الجرد والتقييم وإبراز إيجابيّاتها وسلبيّاتها. وتعتبر مداخلة الأستاذ عمر بن حمادي (جامعة منوبة): **"كتب التراجم والنخب العلميّة: الوجه والقفا"** من أهم الدّراسات النقديّة التي خصّصت لهذا الصنف الأدبي، فهي تجاوزت كونها مدخلا لدراسة كتب التراجم لتتحوّل إلى محاولة علميّة جادّة لتوجيه الباحثين نحو التعامل مع مصادرنا بكل حذر بعيدا عن التمجيد المفرط أو النقد اللآذع. ونبّه الكاتب من خلال أمثلة مضبوطه أوردها في الغرض إلى ما يمكن أن يسقط فيه الباحث من أوهام نتيجة قراءة المصادر قراءة تفتقر للحسّ النقدي. ولا تخفى علينا أهمّية مثل هذه الدّراسات للباحثين بصفة عامّة والمبتدئين منهم بصفة خاصّة.

وفي مجال التّعريف بهذا الصنف من الكتابات قام الأستاذ محمّد شافعي مفتاح (كلّية الشريعة والقانون– ماليزيا) من خلال دراسة تحليليّة حول:**"كتب الطبقات:ظهورها ودورها ومحتواها وخصائصها"** بإبراز العلاقة بين علم الطبقات وعلم التاريخ مع التّأكيد على أهمّية هذا النوع من المصادر بالنّسبة لدراسة مختلف الميادين الفكريّة والإجتماعيّة والسياسية والعسكريّة. ومثلت مساهمة الأستاذ عمر أنور الزبداني: **"دراسة إحصائيّة"** لمختلف كتب التراجم المعروفة مع التأكيد على تقسيم هذه الكتب حسب المواضيع (مثل

القضاة والنحويين والأطبّاء...) التي تناولتها وحسب الأزمنة والأمكنة... وتعتبر هذه الدّراسة جردا يكاد يكون كاملا لما أنتجته الحضارة العربيّة الإسلاميّة في مجال كتب الطبقات. أمّا الأستاذ محمد عادل لطيّف (جامعة جندوبة) فقد تناول بصفة نقديّة **"أصناف كتب الطبقات من النشأة إلى القرن الرابع هجري"** وقد انطلق بالحديث عن التحوّل من أدب المغازي إلى علم معرفة الرجال مع التأكيد على المعايير التي تم توخيها في كتابة هذه المصنّفات من ذلك: المعيار التفاضلي الديني والأقدمية الزمنية ثم الترتيب على حروف المعجم... وقد تنوعت هذه الآثار لتشمل حتى التصنيف بالصفات أو العاهات أو السلوك أو اللون. وقد أكّد الكاتب على أهمّية هذه المصنّفات في دراسة تاريخ الذهنيات والتاريخ الإجتماعي بصفة عامة. وعند تعرّضه لـ**" الأنساق التنظيميّة والمنزلة الثقافيّة لمعاجم التراجم"** تطرّق الأستاذ شعيب مقنونيف (جامعة تلمسان) إلى التنظيم الداخلي والأهمّية الثقافيّة لمعاجم التراجم كما تناول بالدرس الأنساق التنظيميّة لهذه المصنّفات مع التأكيد على الصعوبات التي تواجه دارس هذه الكتب نتيجة كثرتها وتنوعها واختلاف أساليبها واعتبر أنّها أوّلا وآخرا عبارة عن مرآة تعكس بعض مظاهر التطوّر الفكري والثقافي للحضارة العربيّة الإسلاميّة.

وقد تناول بعض الباحثين أمثلة تخصّ المغرب الإسلامي ودراسة نخبه وعلاقتها بالسلطة من خلال كتب الطبقات، من ذلك ما كتبه الأستاذ إبراهيم جدلة (جامعة منوبة) حول**"المالكيّة وفقهاؤها بإفريقيّة في العهد الفاطمي"** اعتمادا على كتابي رياض النفوس للمالكي والمدارك للقاضي عياض حيث تطرّق الكاتب إلى وضع المالكيّة قبل الحضور الفاطمي ثمّ تناول مسألة المقاومة القيروانيّة للسلطة الفاطميّة وختم البحث في مسألة فقهاء الفاطميّة في العهد الفاطمي مبيّنا أن نشوء المذهب المالكي بصفة فعليّة لم يتمّ إلاّ من خلال مقاومة القيروان للفاطميّين وبروز هذا المذهب دون غيره إثر رحيل هؤلاء عن إفريقيّة. ومن جهة أخرى اهتمّ الأستاذ عبد الواحد ذنون طه (جامعة الموصل) بمسألة **"النخب الإسلاميّة من منظور ابن الأبّار في كتابه الحلّة السّيراء"** وقد انطلق في بحثه بالحديث عن ظهور وتطوّر كتب التراجم بالأندلس انتهى فيه بالتخصيص على ابن الأبّار وعلى كتابه الحلّة السّيراء الذي يعتبر من عيون ما ألّف أهل الأندلس قاطبة في هذا المجال. وقدّم لنا الكاتب خصائص هذا الأثر الهام وطريقة ابن البّر في الكتابة والتحرّي في الروايات مع التنبيه إلى بعض الأخطاء أو الأوهام التي سقط فيها من سبقه وقد استغلّ كل المصنّفات التي وقعت بين يديه ممّا أعطى لكتابه هذا أهمّية بالغة. وفي نفس الإتجاه نضع البحث الذي قدّمه الأستاذ عبد الواحد عبد السلام شعيب (جامعة طرابلس) الموسوم بـ: **"كتب الصّلات الأندلسيّة نهج فريد في فن التراجم"** حيث استعرض الباحث كتب الصلات الأندلسيّة التي واصلت ما قام به ابن الفرضي في كتابه "تاريخ علماء الأندلس" بداية من كتاب " الصلة " لابن بشكوال وانتهاء بـ" عائد الصلة " لابن الخطيب. وقد

استعرض الكاتب مناهج أصحاب الصلات والطرق التي سلكوها في كتابة هذه المصنّفات مختتما عمله بذكر بعض الجوانب الإبداعيّة في تصنيف الصّلات الأندلسيّة والتأكيد على قيمتها الأدبيّة. أمّا الأستاذة نهلة شهاب أحمد (جامعة الموصل) فإنّها قد خصّصت بحثها لـ: **"الإسهامات السياسيّة والعلميّة لأسرة بني خطاب في مرسية"** حيث انطلقت من جذور هذه الأسرة وأصولها الأولى منذ العهد الأموي ثم تتبّعت حضورها بالأندلس وخاصة في مدينة مرسية من خلال كتب التراجم الأندلسيّة وقد تمكّنت من إحصاء عدد هام منهم مع التأكيد على دورهم العلمي والسياسي منذ عصر ملوك الطوائف وحتّى نهايتهم في عصر مملكة غرناطة. ومن جهته حاول الأستاذ فرهاد حاجي عبوش (جامعة دهوك- كردستان العراق) دراسة النخب المغاربية من خلال مصادر شرقية وذلك بتقديم بحث عن: **" النخب المغاربيّة في كتاب درر العقود الفريدة للمقريزي"** وقد تمكّن الباحث من حصر مختلف الأعلام ذات الأصول المغربيّة الذين استقروا في مصر والذين أوردهم المقريزي في كتابه. كما أثرى الكاتب بحثه بإبراز دور هؤلاء على المستوى الإداري والسياسي والعلمي ببلاد مصر والشام والحجاز خلال العهد المملوكي. أمّا الأستاذة صابرة خطيف (جامعة قسنطينة) فإنّها أكّدت في بحثها **"النخب الدّينيّة في العهد الزيّاني خلال القرنين السابع والثامن للهجرة "** على أهمّية مدينة تلمسان والدّور الفكري والدّيني الذي لعبته بالمغرب الأوسط خلال الفترة محل الدرس. وقد استعرضت أهمّ النخب الدّينية الزيانية- التلمسانيّة التي تم تداولها في كتب التراجم محاولة في الآن نفسه معالجة قضايا النخب الدّينيّة في العهد الزياني بين المتوفّر من المصادر والمفقود منها مع التاكيد على دور المؤرّخ في ضبط بيبليوغرافيا النخب. ومن خلال اهتمامه بترجمة واحدة لا غير تناول الأستاذ أحمد الأسود (جامعة جندوبة) في بحثه المخصّص لـ: **"عيسى بن مسكين والتراجم المالكيّة "** مسألة إهمال تراجم هامّة أو طمس بعض الحقائق تخصّ شخصيات فاعلة في المجتمع لأسباب دينيّة أو مذهبيّة أو سياسيّة. وبعد استعراض ما ورد في مختلف كتب الطبقات حول شخصيّة عيسى بن مسكين تساءل عن عدم اهتمام أصحاب كتب الطبقات الأفارقة بمكانة هذا القاضي الكبير، هل يعود ذلك إلى كونه روى أحاديثا لا تتماشى مع المذهب المالكي؟ أم لكونه قبل القضاء في ظلّ أمير جائر؟ أو لكونه كان يتبنّى آراء مخالفة لمذهب مالك؟

بصفة عامّة وإن اختلفت الرّؤى و تنوّعت المقاربات الفكريّة فإن هذا العمل في مجمله يوفّر لنا إطارا عامّا للتفكير حول العديد من المسائل التي لا تزال محلّ جدال أو مازال البحث فيها بكرا ويتعيّن على الباحث اليوم تنويع قراءاته للمصادر واستغلالها الإستغلال الأمثل قصد تجاوز الطرق الكلاسيكية للبحث التاريخي وإعادة النظر في بعض المسائل التي تخص المجتمع والنخب الإجتماعيّة وعلاقة هذه الأخيرة بالسّلطات القائمة.

أما بخصوص الدراسات التي اهتمّت بالمشرق فتتصدّرها مساهمة الأستاذ راضي دغفوس حول:**"نخب المجتمع اليمني في العصر الإسلامي المبكّر" من خلال كتاب "الطبقات الكبرى لابن سعد".** حيث قدّم الباحث ابن سعد والظرفيّة التي كتب فيها ثم تناول بالدرس جملة من الأعلام من محدّثين وإخباريين وغيرهم مع التأكيد على أصولهم الإجتماعية والوظائف التي تقلّدوها ودورهم كنخبة اجتماعيّة ودينيّة. وفي مجال آخر تناول الباحث محي الدّين لاغة بالدرس :**"تحوّل صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم"** حيث تتبّع ترجمة معاوية بن أبي سفيان من خلال ما أوردته كتب التراجم ملاحظا التطورات والإضافات الإيجابيّة كانت أو السلبيّة التي شهدتها صورته في هذه الأدبيّات عاكسة أهمّية شخصيّة معاوية عبر التاريخ. وفي بحثه حول: **"أسرة آل الجنابي القرمطيّة في بلاد البحرين من الحكم إلى الأفول السياسي"** استعرض الباحث محمد الناصر صدّيقي كتب التراجم التي تعرّضت للقرامطة ثم حاول إعادة تركيب أهم مراحل تاريخهم وخاصة فترات سيطرة آل الجنابي مع تقديم قراءة نقديّة لمختلف المصادر التي اعتمدها مبرزا كيفيّة تعاملها مع هذه الفرقة. وقدّم الباحث مجدي فارح دراسة حول :**"مجتمع العلماء بمصر من خلال: "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" للجبرتي"** عرّف فيها أولا بالكتاب وأهمّيته مبرزا عناية الجبرتي بالعلماء ثم تناول بالدّرس مكانة العلماء في المجتمع المصري ومستويات ثرواتهم ثم علاقاتهم سواء بالعامة أو بالسلطة السياسية. أخيرا جاءت دراسة الباحث محمد عبد الحميد سعيد **"كتب الطبقات في اليمن في عهد الدولة الشافعية الكبرى"** لتعطينا فكرة عن الإطار العام الذي وضعت فيه كتب التراجم اليمنيّة في الفترة الممتدّة من 569هـ / 1171م إلى 945هـ / 1538 م. كما تمكّن كاتب المقال من حصر هذه المصنّفات وتحديد خاصّياتها وكيفيّة تعامل الباحثين معها بخصوص كتابة تاريخ اليمن.

أ د إبراهيم جدلة

التراجم والطبقات

المصطلح والنّشأة

كتب التراجم والنّخب العلميّة: الوجه والقفا

عمر بن حمادي
كلية الآداب والفنون والإنسانيات- جامعة منوبة

تستعمل هذه الثنائيّة – ثنائية الوجه والقفا – عادة للتّعبير عن امتلاك شيء ما لوجهيْن؛ وفي أغلب الأحيان لوجهين مختلفين[1]. وهي أقرب إلى الدّلالة، في الخطاب المتداول، على امتلاك وجهيْن مُتناقضيْن. وقد تبيّن لنا أن هذه الثّنائيّة موجودة في شأن كتب التراجم، وذلك خاصّة من حيث استعمال هذه الكتب واستغلالها من طرف الباحثين؛ وكذلك من حيث الصورة التي يمكن التحصّل عليها حول النّخب العلميّة.

I. من حيث استعمال هذه المصادر:

إن ما نلاحظه لدى الباحثين بمختلف أصنافهم، هو المدح الكبير الذي يكيلونه لكتب التراجم. فهم يمدحونها من حيث قيمة المعلومات التي توفّرها وقدرتها على تمكين الباحث من معالجة مواضيع عديدة لا قدرة له على معالجتها من دونها؛ كمواضيع التّعليم وانتقال المعرفة، وكذلك عدد من المواضيع الاجتماعية والانتروبولوجية وغيرها[2]. كذلك هم يمدحونها لما تمتلكه المادّة التي تقدّمها من إمكانية التّطويع لوسائل البحث المعاصر، وذلك سواء من حيث المقاربات الحديثة ذات المنحى العلمي المتين كالمقاربات الكميّة المعتمدة على الأرقام والجداول والرّسوم البيانيّة[3] أومن حيث الوسائل التكنولوجية كاعتماد الإعلاميّة والاستغلال الرّقمي. فهذا الصنف من المصادر

---

[1] - والاستعمال الأكثر في هذا المعنى نجده في ميدان النقود: فالقطع لها: "وجه" (droit) و"قفا" (revers)

[2] - أنظر عامة:
Gilliot (Claude), « Tabakāt », *EI*$_2$, T.X, Leiden, Brill, 1998, pp.7-10 « Ta'rikh », *EI*$_2$, T.X, pp.276-325.
Gibb (Hamilton), « Islamic biographical literature », dans Lewis (Bernard) et Holt (P. M.) (edit.), *Historians of the Middle East*, London 1962, pp.54-58.
Khalidi (T.), « Islamic biographical dictionnaries : a preléminary assessment », *The Muslim World*, LXIII, (1973), pp.53-65.
Hafsi (Ibrahim), « Recherches sur le genre " Tabaqat " dans la littérature arabe », *Arabica*, T. XXIII, (1976), pp.229- 265 et T. XXIV, (1977), pp.1-141 et 150-186.
Urvoy (Dominique), *Le monde des Ulémas andalous du V*e*/ XI*e *au VII*e*/ XIII*e *siècle*, Etude sociologique, Genève 1978.

[3] - أنظر:
Bulliet (Richard W.), « A quantitative approach to médieval muslim biographical dictionnaries », *J.E.S.H.O.*, (1970), pp.195-211.
Urvoy (Dominique), « Quantification des mouvements intellectuels et religieux dans l'Islam », *Etudes Arabes théories et Analyses*, (1979), 2/3, pp.226-237.

هو الأقرب من غيره بكثير إلى ملائمة كل ذلك[1].

وعند التمعّن، نلاحظ أن المستَند الرّئيسي في الجانب الأوّل من المدح هو نوعيّة المعلومات التي تقدّمها هذه المصادر؛ فهي مُنفرّدة عمّا تعطيه المصادر الأخرى. أما المستند الرّئيسي في الجانب الثّاني من المدح فيتمثّل فيما يمكن أن نُسمّيه بالتّواتر في القسم الأكبر من هذه المعلومات، أي تكرارها – من حيث نوعيّتها – من ترجمة إلى أخرى. فالأقسام الرّئيسية هي نفسها تقريبا من ترجمة إلى أخرى (الاسم الكامل، تاريخ الوفاة، تاريخ الولادة إن أمكن، أماكن الدّراسة، الشّيوخ، التلاميذ، المؤلفات...)[2]، وكأننا أمام استمارة تحمل نفس الأسئلة. هذه الأسئلة قد تقع الاستجابة إلى جميعها، بل مع بعض الإضافات أحيانا، ممّا يجعلنا أمام تراجم مطوّلة؛ وقد لا تقع الاستجابة إلاّ لبعضها، ممّا يعطينا تراجم قصيرة لكنها تلتقي مع ذلك في الإجابة على عدد من "الأسئلة" التي تجيب عليها التراجم المطوّلة[3].

وقد استغلّ الباحثون ما تقدّمه كتب التراجم من معلومات في أبحاث عديدة وكانت أبحاثا ناجحة قدّمت إضافات ذات قيمة[4]، وذلك ما قصدناه بـ

---

[1] - أنظر حول موضوع تطبيق الإعلامية: La série Onomasticon Arabicum dans la collection « Documents, Colloques, Tavaux préparatoires » publiée par L'I.R.H.T. (L'Institut de Recherche et d'Histoire des textes) et le C.N.R.S.,

N°1) Collectif, *Documents sur la mise en ordinateur des données biographiques arabes*, Paris 1971.

N°6) Douglas (F.) et Forcade (G.), *The treatment by computer of biographical data*, Paris 1973.

N°8) Gottard (N.) *Mise à jour du traitement informatique des données biographiques arabes de l'onomasticon Arabicum*, Paris 1983.

[2] - حدّد بعض مؤلفي التراجم محتويات الترجمة: أنظر مثلا: الصّفدي، **الوافي بالوفيات**، تحقيق هلموت ريتر، ج.I، ط.2، فيڤسبدن 1974، ص.9-55.

[3] - كتب Urvoy (D.) ما يلي في واحد من بحوثه الهامة والتي استغل فيه التراجم أساسا:

« Le caractère stéréotypé des recueils biographiques permet de considérer chacune de leurs notices comme des reponses à une sorte de questionnaire sociologique, une fois éliminées les anecdotes et tout autre élément qui se retrouve pas dans la totalité de l'ouvrage ».

ورد في مقال: « La structuration du monde des Ulémas à Bougie au VIIIe/XIIIe siècle », *Studia Islamica*, XLIII (1986), p.88.

[4] - أنظر أعمال Bulliet (R.W) وUrvoy (D.) وهي كثيرة ولم نذكر سوى بعضها في الإحالات السابقة، وأنظر مثالا لما تقدّمه التراجم من بحث لمواضيع طريفة وجذّابة:

Cohen (H.J.), « The economic background and the secular occupations of muslims jurisprudents and traditionists in the classical period of Islam until the middle of eleventh century », *J.E.S.H.O*, XIII (1970) pp.16-61.

"الوجه" من حيث استعمال هذه الكتب. لكننا لاحظنا أحيانا انزلاقات وأخطاء لا يخلو العديد منها من تأثيرات سلبيّة على نتائج الأبحاث، وخاصّة منها تلك التي تريد مُسايرة المناهج والمقاربات الحديثة. وقد حاولنا البحث عن مواطن نشوء هذه الأخطاء ومأتاها في هذا الجانب المتعلّق باستعمالها مركّزين أساسا على ما يرتبط بها في حدّ ذاتها، وهو ما سيُمثّل ما نعنيه بـ "القفا".

وقد بيّن لنا البحث أن العدد الأكبر من الأخطاء التي قد يسقط فيها بعض الباحثين عند استعمالهم لهذه الكتب مُتولّد في الواقع عن جملة من النّقائص والقضايا التي تصاحبها والتي نجد فيها ما هو مرتبط بطريقة أصحابها في التّأليف، وبالتالي هو **عضوي** فيها، وهو الأكثر؛ ومنها ما هو **خارج عن نطاقهم** وراجع لأسباب أخرى.

و**القضايا العضويّة** المُلازمة لطريقة التّأليف كثيرة في الواقع، وعدد منها هو من خصائص هذه المؤلّفات ولم يكن أبدا موْضع تساؤل أو نقاش من طرف أصحابها؛ بل هم أحيانا "يتفنّنون" في تعقيد بعضها.

فمن هذه القضايا ما يرتبط مثلا بالكيفيّة التي يورد بها المؤلّفون **أسماء الشخصيات** التي تُذكر في سياق التراجم التي يضعونها. فهي كيفيّة متوّهة ومولّدة لعديد المشاكل.

فمن ذلك أن الشخص الواحد قد يُذكر تحت تسميات مختلفة إلى درجة الظن أن الحديث يتعلّق بشخصيات مختلفة وليس بنفس الشخصيّة، وهذا بالطبع له خطورته عندما نتحدّث مثلا عن المقاربة الكميّة، ونريد اعتماد الإحصاء، ونطمح إلى إقامة الجداول والرسوم ونسعى إلى تقييم التأثيرات، أو تحديد الانتماءات لإبراز أدوار الجهات، إلى غير ذلك.

فالاستعمال التقليدي للتّراجم يهتمّ باستغلال ما تتضمّنه الترجمة المباشرة لشخصيّة ما، وعندما يقع البحث مثلا عن أساتذته – أو عن تلامذته – يقع الاكتفاء بمن ذُكروا ضمن تلك الترجمة. لكنّ الاستغلال الحديث للتّراجم لا يكتفي بذلك. فأساتذة نفس الشخص – أو تلاميذه – قد يُذكرون في تراجم أخرى، لكن تحت تسميات مختلفة، وهو ما يجب التفطّن إليه، لأنّ عدم القيام به قد يُخلّ بعديد الاستنتاجات التي يُراد لها أن تكون علميّة وصلبة.

ففي كتاب "الصّلة" لأبي القاسم بن بشكوال الأندلسي (494هـ/1101م-578هـ/1183م) هناك ذِكر – ضمن شيوخ عدد من المُترجم لهم – لأسماء أبي الليث السمرقندي وأبي الفتح التنكتي، ونصر بن الحسن بن أبي حاتم بن الأشعث الشاشي. فلا علاقة ظاهرة بين هذه الأسماء،

Avila (M.L.), *La sociedad hispano –musulmane al final del califato* (approximación a un estudio demographico), C.S.I.C., Madrid, consejo superior de investigaciones científicas, 1985.

وقد اعتمدت استعمال الحاسوب أساساً.

لكنّها في الواقع تسميّات لشخصيّة واحدة، وهي شخصيّة مشرقيّة زارت الأندلس وكان لها تأثير من النّاحية العلميّة. ونحن لا نتفطّن إلى ذلك إلاّ لأنّ ابن بشكوال وضع ترجمة لها ونبّه إلى هذا الاختلاف[1]، ممّا يدفعنا عندئذ إلى مُراجعة التراجم التي ذُكرت فيها تلك التّسميات لتقييم مدى تأثير تلك الشخصيّة.

كما يتردّد في نفس هذا الكتاب وفي طيّات التراجم – كشيخ من شيوخ هذه الشخصيّة أو تلك– اسم كلّ من محمد بن أحمد، وأبي عبدالله محمد بن أحمد الأندلسي وأبي عبدالله محمد بن أحمد النحوي، وأبي عبدالله الحافظ، وأبي عبدالله النحوي إمام الحرمين الحافظ المرّي؛ لنتفطّن بعد عناء كبير أن المقصود بهذه التّسميات هو شخص واحد وقد ترجم له ابن بشكوال، مُضيفا تسمية أخرى، ليقول أنه «محمد بن أحمد بن عبدالله النحوي، من أهل المريّة ويُكنّى أبا عبدالله ويُعرف بابن اللجالش»[2]. وهذه الشخصيّة محوريّة في ميدان تحمّل العلم ونقل المعرفة وكواسطة بين شيوخ المشرق وطلبة الأندلس؛ إلاّ أن التفطّن إلى أهميّة دورها هذا صعب جدّا بسبب التّسميات التي يذكر بها. وهناك أمثلة كثيرة أخرى لشخصيّات في مثل حالة أبي محمد النحوي هذا.

كذلك، قد تكون العلاقة بين المؤلّف وأحد شيوخه وثيقة جدّا إلى درجة أنه يروي عنه معلومات كثيرة مُتناثرة في طيات كتاب وضعه في التراجم، أو يعمد إلى التذكير بما أخذه عنه من كتب أو مرويّات في كلّ فرصة تُتاح له، إلاّ أن ذلك يتمّ في مناسبات عدّة بالاقتصار في تسميته على ذِكر كنيته فقط.

ففي ثنايا كتاب"جذوة المقتبس" لأبي عبدالله الحميدي الأندلسي (420هـ-488هـ /1021م /1095م) كثيرا ما تعترضنا عبارة "حدّثنا أبو محمد". وهذا هيّن، إذ يجب البحث عندئذ عن الشيخ الذي يحمل هذه الكنية من شيوخ الحميدي، فنجد أن المقصود هو أبا محمد بن حزم الفقيه الظاهري الكبير. لكننا كثيرا ما نجد كذلك عبارة «قال أبو محمد» فهل المقصود دائما هو أبا محمد بن حزم؟

ودائما في إطار هذه القضيّة الأولى من القضايا "العضوية" الملازمة لكتب التراجم، وهي قضيّة طريقتها في إيراد الأسماء، نلاحظ أن المؤلفين لها كثيرا ما يعمدون إلى الاقتصار على اسم الشّهرة لهذه الشخصيّة أو تلك، والذي قد يكون لقبا أو نسبة قبليّة أو جهويّة أو غير ذلك. والأمر هيّن كذلك عندما يكون هذا الاسم قد اشتهر به شخص مُعيّن ولم يُعرف لغيره، أو اشتهر به إلى درجة الانفراد، رغم مشاركة الغير له في حمله. لكن الأمر لا يكون كذلك دائما. فالقول أن أحد كبار منتقدي الغزالي هو المازري مازال

[1] - ابن بشكوال (أبو القاسم)، **كتاب الصّلة في تاريخ أئمّة الأندلس وعلماءهم ومحدّثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، نشر وتصحيح عزّت العطار الحسيني، القاهرة 1955، ج.II، رقم1399، ص.602. (سنكتفي بالاشارة إلى هذا الكتاب بعبارة "الصلة")

[2] - **الصلة**، ج.II، رقم 1235، ص.533.

قولا يُثير النقاش، فقد تعاصرت ما لا يقلّ عن شخصيات ثلاث تشترك في هذه النسبة، بل هي تشترك كذلك في الكنية. وكان ثلاثتهم من كبار العلماء، ولهم اهتمام كبير بالفقه وعلم الكلام والتصوّف وغير ذلك ممّا كتب فيه الغزالي[1].

كذلك القول أن من المالكيّة من درّس كتب القاضي، أو أن فلان كانت له علاقة ما بالقاضي ابن حمدين، هو قول يؤدّي إلى الالتباس. فقد اشتهر اثنان من كبار المالكيّة بلقب "القاضي" وكلاهما وضع كتبا هامّة، وهما: القاضي أبو بكر بن الطيّب الباقلاني (ت.403هـ/1013م)[2] والقاضي عبد الوهاب بن محمد (349هـ/960م-422هـ/1030م)[3]. أما ابن حمدين فهو لقب أسرة برزت في العصر المرابطي وتولّى ثلاثة من أفرادها القضاء بقرطبة واشتهروا به، وهم كل من أبي عبدالله محمد وابنُه أبي القاسم أحمد، وابنه الآخر: أبو جعفر حمدين. وقد تولى الأوّل القضاء بين سنة 480هـ/1096م وسنة 508هـ/1114م، تاريخ وفاته[4]، وتولى الثاني القضاء في مناسبتين كانت الثانية حتى وفاته سنة 521هـ/1127م[5]، وتولى الثالث بين سنة 536هـ/1141م، وسنة 539هـ/1144م حيث كانت له أدوار سياسية خطيرة[6]. فكثيرا ما وقع الخلط بين الشخصيات الثلاث بسبب اقتصار التراجم على استعمال لقب العائلة فقط، وهو خلط ساهم أحيانا في تعقيد معلومات هي في أصلها مُعقّدة[7].

فهذه الكيفيات في إيراد الأسماء تضع مشاكل كثيرة أمام الباحثين عند استعمالهم لهذه الكتب وتتطلب منهم جهودا مضنية كان بالإمكان الاستغناء عنها لو كلّف المؤلفون أنفسهم عناءً بسيطا يتمثّل في إضافة صغيرة ترفع الالتباس كالقول: أبا محمد بن حزم في كلّ مرّة، عوض أبي محمد فقط؛

---

[1] - وهم كل من أبي عبدالله محمد بن علي بن عمر التميمي (المازري المهدوي) وأبي عبدالله محمد بن المسلم (المازري الاسكندراني)، وأبي عبدالله محمد بن أبي الفرج (المازري الذكي). أنظر: عبد الوهاب (حسن حسني)، **الإمام المازري**، دار الكتب الشرقية- تونس 1955؛ وأنظر: عمر بن حمادي، «الغزالي وتلامذته المغاربة»، ضمن **أعمال ملتقى: الغزالي اليوم، لماذا؟**، تنظيم المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون "بيت الحكمة"، قرطاج، أيام 17-18-19-20-21 ماي 2011 بمناسبة المائوية التاسعة لوفاة الإمام الغزالي.

[2] - أنظر: McCarthy (R.J.), «Al-Bakillānī », *EI*$_2$, T.I, p.988.

[3] - أنظر حوله: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، ج.III، دار صادر، بيروت 1970، رقم 400، ص.219.

[4] - **الصلة**، ج.II، رقم 1254، ص.539.

[5] - **الصلة**، ج.I ، رقم 172، ص.81.

[6] - ابن الأبار (أبو عبدالله)، **كتاب التكملة لكتاب الصّلة**، نشر وتصحيح وطبع عزّت العطار الحسيني، ج.I، القاهرة 1955، رقم 771، ص.286. (سنكتفي عند الإشارة إلى هذا الكتاب بعبارة "التكملة").

[7] - أنظر مثلا: ابن سعيد (أبو الحسن)، **المغرب في حُلي المغرب**، تحقيق شوقي ضيف، ج.I، دار المعارف، القاهرة 1964، ص.61. حيث وقعت الإشارة إلى "ابن حمدين" وتدخل المحقق (هامش1) ليوضّح أن المقصود هو الذي تولّى قضاء قرطبة في السنوات 538-539 (أي أبا جعفر بن حمدين) وهذا خطأ إذ المقصود هو والده، أي أبا عبدالله محمد الذي تولّى قضاء قرطبة بين 480هـ/1096م و508هـ/1114 م.

أو القول: كتب القاضي عبد الوهاب، عوض كتب القاضي؛ أو أبا عبدالله بن حمدين، عوض ابن حمدين فقط.

ومع ذلك فإنه لا يُمكننا إنهاء الحديث عن هذا الموضوع دون الإشارة إلى ما فعله ابن عبد الملك المرّاكشي (634هـ/1237م-703هـ/1303م) في كتابه "الذيل والتكملة"، ذلك الكتاب الأساسي في ميدان الترجمة لأعلام الأندلس وحتى غيرهم، والذي أفنى فيه صاحبه جهودا بالغة ورسم لنفسه فيه طموحات كبيرة استعصى عليه استيفاؤها في نهاية الأمر، إذ طالب نفسه بأشياء كان من الصعب تحقيقها، إن لم يكن من المستحيل، وذلك من حيث استقصاء الأسماء، وجمع المعلومات والإكثار من التعقيبات والتعاليق والاستطرادات، والسعي إلى إعطاء تراجم جدّ وافية.

فكان الكتاب ثريّا جدّا، إلاّ أنّه صعب الاستغلال ومعقّد أحيانا؛ والموطن الأوّل للتّعقيد فيه هو بالذات الطريقة التي توخّاها المؤلّف في أحيان عدّة في إيراد الأسماء كلما تعلّق الأمر بشيوخ المُترجم لهم أو تلامذتهم[1].

إلى جانب هذه القضيّة الأولى من القضايا التي وصفناها بالعضويّة والتي تعترض المستعمل لهذه الكتب – وهي قضيّة كيفيات إيراد الأسماء – هناك قضيّة ثانية شائكة في رأينا ولا تخلو من تأثيرات، وهي **قضيّة الضمائر** واستعمالها عند مؤلفي هذه الكتب. ففي حالات عدّة نحن لا نعرف على من يعود الضمير بالفعل، ويجب بذل جهد كبير للتوصّل إلى ذلك. والأمر قد يكون هيّنا أحيانا؛ ولكن في أحيان أخرى هو ليس كذلك. فمن الحالات الهيّنة – والتي يمكن التوصّل إلى حلّها لكن مع شيء من الجهد – ما نجده في ترجمة أبي عبدالله الحميدي -المذكور آنفا- عند أبي العباس المقّري (1000هـ/1041م 1591هـ/1632م). فقد ورد فيها ما يلي – بعد ذكر اسم الحميدي كاملا - «وُلد أبوه قرطبة، وولد هو بالجزيرة بُليدة بالأندلس، قبل العشرين وأربعمائة، وكان يُحمل على الكتف للسماع سنة 425 (كذا)، فأوّل ما سمع من الفقيه أبي القاسم أصبغ. قال: وكنت أفصح من يقرأ عليه؛ وكان قد لقي ابن أبي زيد وقرأ عليه وتفقّه، وروى عنه "رسالته" و"مختصر المدوّنة"، ورحل سنة 448 (كذا) وقدم مصر وسمع بها الضرّاب والقضاعي وغير واحد...»[1].

---

[1] - فهو يجمع مثلا أصحاب الكنية المشتركة فيذكرها مرّة واحدة كقوله: «روى عن أبي بكر بن العربي وأبي جعفر بن الباذش وآباء الحسن: ابن إبراهيم بن فلفل وابن الباذش وابن درّي وابن موهب ويونس بن مغيث (فهم خمسة يكنى كل واحد: أبو الحسن) وأبي عبدالله بن أبي الحفال، وأبويْ القاسم: ابن بقي وابن ورد (فهما اثنان يكنى كل واحد: أبو القاسم)...» وقد اخترنا هذا المثال من أول ترجمة في الكتاب، وهو مثال بسيط جدّا لعشرات الأسماء التي قد تتوالى على هذا الشكل. أنظر: ابن عبد الملك المراكشي، **كتاب الذّيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة**، تحقيق محمد بن شريفة، السفر الأوّل، القسم الأوّل، دار الثقافة، بيروت، د.ت.، ترجمة رقم1، ص.25 (سنشير إلى هذا الكتاب دائما تحت اسم "الذيل والتكملة" مع ذكر القسم والسفر والمحقق إذ اشترك في التحقيق كل من محمد بن شريفة وإحسان عباس).

فسياق الترجمة يفيد أن الحميدي سمع من أبي القاسم أصبغ؛ ولقي ابن أبي زيد، الفقيه القيرواني الكبير وروى عنه كتابين من كتبه؛ ورحل سنة 448هـ/1056م، فدخل مصر حيث أخذ عن شيوخ آخرين. إلاّ أنّه يشدّنا في هذه الفقرة قول المقّري: «وكان قد لَقي ابن أبي زيد». فالسّياق يفيد – كما ذكرنا- أنه الحميدي، وهذا ما فهمه المُحقّق، إذ اجتهد ليضع نقطة وفاصلة عند بداية الحديث عن هذا اللقاء، فاصلا بينه وبين المعلومات السابقة. إلاّ أن ذلك يصبح غير ممكن، بل مستحيلا، عند استحضارنا لتواريخ كلّ من الحميدي وابن أبي زيد. فهذا الأخير توفي سنة 387هـ/997م[2]، في حين ولد الحميدي «قبل العشرين وأربعمائة»، وفي عرف مؤلفي التراجم يفيد ذلك سنوات قليلة قبل التاريخ المذكور، قد لا تتجاوز الخمس سنوات على أقصى تقدير. فالمعلومات المتعلّقة إذن بالتتلمذ على ابن أبي زيد ورواية كتبه لا تعود على الحميدي، بل على شخصية أخرى، هي بالطبع شخصية شيخه أبي القاسم أصبغ. فالضمير في عبارة «كان قد لقي» يعود عليه وليس على الحميدي. وبقيت المعلومة صحيحة في مستوى ذهن المؤلف وليس في مستوى طريقة الكتابة واستعمال الضمير. ويتطلّب التفطّن إلى مثل هذه الحالات يقظة متواصلة عند قراءة التراجم وجهدا ليس بالهيّن أحيانا ويضيع معه وقت طويل. وكل ذلك كان بالإمكان تلافيه لو أضاف المؤلف كلمات قليلة فقط[3].

لكن حالات استعمال الضمير قد تكون أكثر استعصاءً وتعقيدا، وبالتالي محلّ نقاش. ففي دراسة وقع إنجازها حول شخصيّة علميّة أندلسيّة مازالت مغمورة نسبيّا، هي شخصيّة أبي عمر الطلمنكي (ت.429هـ/1037م) قُمت باستغلال ما قدّمه ابن الأبار (595هـ/1199م-658هـ/1260م) من معلومات – أوردها حوله في تراجم متفرّقة – حول قضيّة اتهامه بالبدعة والخروج عن السنّة، وحول المحاكمة التي أقيمت له والتي شهد فيها البعض له والبعض الآخر عليه، وكانت تحت رئاسة القاضي أبي عبدالله محمد بن عبدالله ابن فورتش[4]. فكان من جملة المعلومات القيّمة التي وقع استغلالها حول هذه المحاكمة ما ورد في ترجمة أحد الشهود، وهو الأديب والنحوي الكبير أبو محمد عبدالله بن ثابت السرقسطي، إذ قال فيها ابن الأبار: «شاوره القاضي محمد بن عبدالله بن فورتش فيما شهد به على أبي عمر الطلمنكي من كونه حروريا على خلاف السنّة، في جماعة معه كان

---

[1] - المقّري (أبو العباس)، **نفح الطيب**، تحقيق إحسان عبّاس، ج.III، دار صادر، بيروت 1968، ص.113، ضمن ترجمة الحميدي، رقم63، ص.112.

[2] - أنظر حوله: Idris (H.R.), « Ibn Abī Zayd al-Kayrawānī », *EI₂*, T.III, p.717.

[3] - قد بحثنا عن أبي القاسم أصبغ، فوجدنا خمسة عند ابن بشكوال بهذه الكنية والاسم، تبين في النهاية أن واحدا فقط روى عن ابن أبي زيد ولقيه: **الصلة**، ج.I ، رقم 255، ص.109.

[4] - عمر بن حمادي، «قضيّة أبي عمر الطلمنكي (340هـ/951م-429هـ/1037م)»، **دراسات أندلسيّة** (تونس)، عدد3، ديسمبر 1989، ص.5-21.

رأسهم وصدرهم والمُسمّى فيهم أوّل الجماعة، فأفتوا بإسقاط شهادات المتألّبين على الطلمنكي»[1].

فهذه الفقرة تضمّنت إشكالا – لم أكن أتوقّعه – حول عبارة «في جماعة معه كان رأسهم وصدرهم...». فعلى من يعود الضمير في هذه الجملة. لقد بدا لنا أنه يعود على صاحب الترجمة، أي على ابن ثابت السرقسطي، ممّا يُفيد أنّه وقعت مشاورته – على عادة القضاء في الأندلس – في قضيّة الطلمنكي، لكن مع جماعة آخرين إلاّ أنه كان زعيمهم من حيث المكانة والنفوذ العلمي. غير أن الأستاذة (Maribel) Fierro، شيخة الباحثين الأسبان في الدراسات الإسلامية كان لها رأي آخر. فقد اهتمّت هي الأخرى بأبي عمر الطلمنكي كثيرا. وانصبّ اهتمامها هذا – والأمر بلا شكّ راجع إلى الصدفة – على نفس الجوانب التي أثارت اهتمامي وحاولت بحثها. فقد تعرّضت إلى أبي عمر في إطار المحاكمة المذكورة وأصدرت مقالا يعالج نفس الموضوع[2].

كما كان لي اهتمام بأبي عمر في إطار قضيّة أخرى وهي قضيّة النّقاشات التي وقعت في القيروان وقرطبة حول موضوع كرامات الأوّلياء والتي لعب فيها أبو عمر أدوار هامة وهو ما تعرّضت له في بحث خاصّ[3]. فكان لهذه الباحثة اهتمام بنفس هذا الموضوع وتعرّضت له في مقال هي الأخرى[4]. إنه بلا شكّ وقع الحافر على الحافر كما تقول المأثورات العربية. وليس في الأمر ما يُستغرب له. فأبو عمر شخصية هامة وجذّابة.

وقد تعرّضت الباحثة في واحد من مقاليها إلى الفقرة المشار إليها أعلاه ورأت أني لم أفهمها مُعلّلة ذلك بأن كتب التراجم لها عادات في استعمال بعض التراكيب[5]، وهو ما يعني أن ما ذهبت إليه – في فهمي لهذه الفقرة – لا يتماشى وهذه العادات.

ووفقا للعادات التي استوعبتها أكدت الباحثة أن الضمير في الفقرة المشارة إليها يعود لا على ابن ثابت السرقسطي بل على أبي عمر نفسه جاعلة منه رأس جماعة من الأتباع في آراءه وزعيما لهم. وهو رأي تشبثت به في المقال الذي حرّرته فيما بعد لفائدة الموسوعة الإسلاميّة والذي تضمّن

---

[1] - **نفس البحث**، ص.11.

[2]- Fierro (Maribel), «Al Proceso contra Abū ‘Umar al Talamankī a traves desu vida y su obra», *Sharq al-Andalus* (Alicante), IX, (1992), pp.93-127.

[3]- عمر بن حمادي، «كرامات الأوّلياء: النقاش الحاد الذي أثارته بالقيروان وقرطبة في أواخر القرن الرابع هجري/العاشر ميلادي»، **دراسات أندلسيّة** (تونس) العدد 4 جوان 1990 ص.35-60.

[4]- Fierro (Maribel), « The polemic about the karamat al awliya’ and the development of sūfisme in al-Andalus-Fourth/tenth-fifth/eleven centuries », *B.S.O.A.S.* (Bulletin of the school of oriental and african studies), Vol. LV, 2, (1992), p.248 et Note 107.

[5] - *Id*., « The Polemic », p.248 et Note 7.

ببلوغرافيا لم تشر فيها هذه الباحثة بالطبع إلى مقالي[1]، هذا إضافة إلى أخطاء في الإحالة عليه في عملها المذكور أوّلا، لا ندري إن كانت أخطاءً متعمّدة أم هي من محض الصّدفة[2].

ونحن في حقيقة الأمر نوافق هذه الباحثة كل الموافقة حول التّذكير الذي قامت به والمتعلق بعادات كتب التراجم؛ إذ من الواضح أنّها غير مُلمّة بها، أو على الأقلّ ببعضها. ومن أبرز ما تستلزمه هذه العادات هو قراءة الفقرات بأكملها، والتفطّن إلى كيفيات تركيب الجمل عند مؤلفي التراجم لتقديم ما يريدون تقديمه من معلومات وكذلك كيفيات استعمالهم للضمائر. وكان بإمكان الباحثة تقديم قراءتها على أنها رأي واقتراح. فما من شكّ أن الضمير يعود هنا على صاحب الترجمة كما اعتقدناه – أي على ابن ثابت السرقسطي – وليس على أبي عمر الطلمنكي – كما اعتقدت هذه الباحثة، ونحن نملك دليلا قاطعا لتأييد ما ذهبنا إليه ويتمثّل في عبارة «فأفتوا» الواردة بعد لإتمام المعلومة. فالضمير فيها يعود على «الجماعة»، وبالتالي إذا ما أخذنا بقراءة هذه الباحثة سيكون الطلمنكي رأس جماعة وقعت مشاورتها في شأن شخصه هو، وهذا بالطبع أمر غير ممكن. فرأس الجماعة – جماعة المشاورين – هو ابن ثابت السرقسطي، والقراءة التي تقدّمها الباحثة تنحرف بالمعنى انحرافا خطيرا بنت عليه عدّة استنتاجات ضمّنتها في مقالها المشار إليه والصادر بالموسوعة الإسلامية، وهو مقال في حاجة إلى مراجعة جدّيّة.

إلى جانب قضيّة كيفيات إيراد الأسماء، وقضيّة استعمال الضمائر، هناك قضيّة عضويّة ثالثة تُلازم هذه التراجم في طريقة تأليفها وهي الإهمال شبه الكلّي الذي يُبديه أصحابها إزاء **التواريخ**. نعم هناك حرص – بل حرص شديد لدى هؤلاء المؤلفين – لمدّنا بتواريخ الوفاة، وكذلك الولادة عند توفّرها؛ لكن هذا الحرص يقف في الواقع عند هذا الحدّ مع استثناءات قليلة قد ترد في هذه الترجمة أو تلك حيث نجد تاريخا ما يتعلّق بصاحب الترجمة. فهذه الكتب لا تعتني البتّة بتحديد تواريخ مواضيع كثيرة يحتاجها البحث العلمي الدقيق وتحتاجها المقاربات الحديثة أيّما احتياج، كتواريخ وضع المؤلفات من طرف هذه الشخصيّة أو تلك، وتواريخ تولّي الوظائف، وتواريخ التنقّلات، إلى غير ذلك من المواضيع. وهذا الإهمال له انعكاساته في بحث جوانب كثيرة من حياة النّخب العلميّة، مثل بحث تطوّرات التفكير عندها، وتطوّرات المواقف، أو بحث علاقتها بالسلطة، أو بحث أوضاعها الاجتماعية وغير ذلك من قضايا البحث الهامّة.

---

1 - *Id.*, « Al-Talamankī », *EI*$_2$, T.X, pp.170-171.

2- قمت باستغلال الفقرة المذكورة في المقال بعنوان «قضية أبي عمر...» في حين أحالت هي على المقال حول «كرامات الأوّلياء...». أنظر مقالها « The Plemic »، ص.248، هامش 107، حيث قالت أن المقال مذكور في هامش 4 من عملها في حين أنه في هامش 5، ص.237.

فجهود كثيرة وقع استنزافها لبحث متى وضع عدد من كبار العلماء مؤلفاتهم، ومنهم على سبيل المثال كل من أبي حامد الغزالي (450هـ/1058م-505هـ/1111م)[1]، وأبي الوليد ابن رشد الفيلسوف (520هـ/1126م-595هـ/1198م)[2]. فكم من محاولة قامت لتحديد متى ألّف الغزالي مثلا كتابه الهامّ "إحياء علوم الدين"[3]، لِمَا لذلك التّحديد من تأثير في حسم عدد من القضايا؛ وكم من محاولة قامت كذلك لتحديد متى قام أبو الوليد ابن رشد "بترجمة" كتاب "الجمهورية" لأفلاطون (أو بالأحرى شرحه، وهو يعرف كذلك بـ "كتاب جوامع سياسة أفلاطون"). فقضايا كثيرة مرتبطة بتاريخ هذه "الترجمة"، ومنها ربما قضيّة نكبته[4].

ولا يَقلّ موضوع الاعتناء بتحديد تواريخ تنقّلات النّخب العلميّة وأماكنها خطورة عن موضوع غياب التحديد لتواريخ وضع المؤلفات. والنقائص في هذا الإطار لافتة للانتباه أكثر، إذ هي مُخلّة في الواقع بأحد الدّواعي الرّئيسية لوضع التراجم والاندفاع للتأليف فيها[5]؛ وهذا الدّاعي يتمثّل في احتياج علماء الحديث إلى التثبّت من إمكانيات اللقاء المُباشر بين هذه الشخصيّة أو تلك حتى يكون أحدهما قد سمع حقّا من الآخر وروى عنه الحديث. وهذا الحرص قد ظهر مُبكّرا عند نقاد الحديث ثم تزايد إذ هو قد امتدّ من ناحية إلى كلّ أصناف العلوم الدينيّة الأخرى؛ في حين تزايدت من ناحية ثانية تنقّلات العلماء لأسباب مختلفة لعلّ من أبرزها الأزمات الاجتماعية والسياسية.

وموضوع النقائص في تحديد تواريخ التنقّلات وأماكنها يتجاوز بكثير موضوع التثبّت من حقيقة السّماع المباشر والرّواية – والذي هو في حدّ ذاته ليس بالموضوع الهيّن – ويَمسّ قضايا ذات انعكاسات هامّة، مثل قضايا اللقاء بين شخصيات لها توجّهات فكريّة أو مذهبيّة ذات تأثير، وقضايا اللقاء بين بعض كبار الصوفيّة، أو بين علماء كان لهم تأثير سياسي.

فممّا يشغل بالنا حاليا قضيّة البحث في إمكانيّة اللقاء المُباشر بين أحد فقهاء القيروان المُنجلين عنها عند "خرابها"، والأشعري الكبير إمام الحرمين

---

[1] - أنظر خاصّة: Bouyges (Pons), *Essai de Chronologie des œuvres de al-Ghazali*, édité par Michel Allard, Beyrouth 1959 ; Montgomery Watt, « The authenticity of the works attributed to al Ghazalī », *J.R.A.S.* (Journal of the Royal Asiatic Society), (1952), pp.24-45.

[2] - أنظر خاصّة: العلوي (جمال الدين)، **المتن الرشدي** دار توبقال للنشر،الدار البيضاء، ط1 1986

[3] - أنظر: Bouyges (P.)، **البحث المذكور**، ص.41-44، رقم 28.

[4] - أنظر مثلا: الجابري (محمد عابد)، **المثقفون في الحضارة العربية**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط.1، 1995. وقد كتب مثلا (ص.132-133) «إن تحديد تاريخ تأليف ابن رشد لكتابه جوامع سياسة أفلاطون شيء مهمّ وأساسي فعلا في القضيّة التي نحن بصددها» (أي قضية سبب محنته).

[5] - أنظر مثلا: Abiad (Malak), « Origine et développement des dictionnaires biographiques arabes », *B.E.O.* , XXXI, (1977), pp.7-15.

أبي المعالي الجويني (419هـ/1028م-478هـ/1085م)[1] – ولا يُعطلنا عن الحسم في هذه القضيّة سوى النّقائص في تحديد تواريخ تنقّلات الشخصيتين وضبط أماكنها بدقّة. كذلك من القضايا المستعصية على الباحثين بسبب هذه النقائص قضيّة اللقاء بين أبي مدين شعيب كبير متصوّفة بلاد المغرب (ت.594هـ/1197م) والصوفي الكبير عبد القادر الجيلي (471هـ/1078م-561هـ/1165م)[2]، أما القضيّة الأكثر شهرة فتبقى بلا شكّ قضيّة اللّقاء بين محمد بن تومرت مؤسس حركة الموحّدين وأبي حامد الغزالي.

فكلّ البناء الذي شيّده إ. ڤولدزيهر للتّشكيك في هذا اللقاء، كان قائما على عدم إمكانية حدوثه، لأنه في الوقت الذي وصل فيه ابن تومرت إلى المشرق (المشرق القريب، أي الشام والعراق) كان الغزالي – في رأيه – قد رجع إلى طوس واستقرّ بها نهائيا[3]. وهذا البناء يبقى قائما رغم هشاشته – ورغم محاولتنا الذهاب إلى ما لا يُسايره[4] -لأننا في الواقع لا نجد في التراجم – بل وفي جميع أنواع المصادر الأخرى– تحديدا مضبوطا لتواريخ تنقّلات ابن تومرت وأماكنها عندما قام بالرّحلة، ولا كذلك تحديدا لتواريخ تنقّلات الغزالي وأماكنها. خاصّة منذ دخوله بغداد سنة 484هـ/1091م، فحتى تاريخ خروجه منها ليس محدّدا على وجه الدقّة، وكذاك تواريخ عزلته وخروجه منها وتنقّلاته خلال كلّ ذلك حتى قريبا من وفاته التي كانت سنة 505هـ/1111م[5].

وكما أشرنا آنفا فإن إهمال التّواريخ عند مؤلّفي التراجم يَمسّ كذلك إهمال تواريخ تولّي المناصب والخطط من طرف المُترجم لهم، وهذا بدوره يُساهم في تعطيل البحث في قضايا كثيرة هي محلّ اهتمام مُتزايد عند الدّارسين. وقد اخترنا لتجسيم ذلك مثالا بسيطا. فمن العائلات الهامّة بشرق الأندلس في القرن السادس الهجري هناك عائلة بني نوح. وقد اخترنا من المعلومات حولها ما قيل في شأن أحد أفرادها وهو أبو محمد بن نوح الذي

---

[1] - أنظر حوله: Brockelman (C.) et Gardet (L.), « Al-Djuwaynī », *EI*$_2$, T.II, pp.620-621.

[2] - أنظر مثلا: Farhat (Halima), « Un maître de la mystique maghrébine au XII siècle : Abu Madyan de Telemcen », in Farhat (H .), *Le Maghreb aux XIIe et XIIIe siècles : Les siècles de la foi*, éd. Wallada, Casablanca 1993, pp.55-78 (p.62).

[3] - Goldziher (Ignaz), *Ibn Tūmart et la théologie de l'Islam dans le Nord de l'Afrique au XI^e siècles* , 1903, p.8 et p.9. (وهذه الدراسة تُمثّل مقدمة صاحبت نشر كتاب "أعزّ ما يُطلب" لمحمد بن تومرت)

[4] - أنظر عملنا المشار إليه في الإحالة رقم 10 أعلاه.

[5] - أنظر تفاصيل كثيرة حول هذه القضايا في: Laoust (Henri), *La politique de Ġazālī*, Librairie Orientaliste Paul Geuthner, Paris 1970

عاش بين سنة 486هـ/1093م، وسنة 576هـ/1180م. فهو قد «ولي قضاء جزيرة شقر بعد أبيه محمد بن وهب وصلّى وقتا بالناس بجامع اشبيلية...»[1].

فهذه المعلومات بسيطة في ظاهرها، وقد لا نوليها أهميّة تذكر في دراسات عامة ؛ لكن في دراسات دقيقة قد تهتمّ بتاريخ العائلات، أو بمُنوغرافيات جهوية أو بالبحث في علاقة علماء منطقة ما بالسلطة قد تأخذ مثل هذه المعلومات أهميّة بالغة – فهي جدّ ثمينة – وهذا هو "الوجه" فيها. لكن استغلالها يتطلّب جهودا وتحريّات مُضنية قد لا تصل بنا إلى ما هو مطلوب ليبقى استغلالها في النهاية منقوصا، وهذا هو "قفا" ذلك الوجه.

فمن ناحية أولى نحن لا نعرف هل أن تولّي أبي محمد بن نوح القضاء بجزيرة شقر كان قبل أو بعد الصلاة بالناس وقتا بجامع اشبيلية. فلا يغُرنّنا الترتيب الوارد في الترجمة بين النشاطين إذ أن احترام الترتيب الزمني في ذكر الخطط والأنشطة التي مارستها هذه الشخصيّة أو تلك ليس قاعدة عند مؤلفي التراجم. ثم، ومن ناحية ثانية، علينا البحث لتحديد تاريخ وفاة والد هذه الشخصيّة، والبحث هل أن تولّي الابن مُباشرة اثر هذه الوفاة أم لا؛ فإذا ما كان الأمر يتمثّل في الحالة الأولى، فعلينا البحث عن تاريخ نهاية هذا التولّي للخطة، وكيف كانت هذه النهاية؛ أما إذا كان الأمر يتمثّل في الحالة الثانية، فعلينا البحث متى تمّ ذلك التعيين وكذلك كيف ومتى كانت نهايته

فمثل هذه التدقيقات ضرورية، إذ أنه منذ نهاية القرن الخامس الهجري – أي مع ولادة أبي محمد بن نوح وحتى نهاية حياته – علما وأن وفاة والده كانت سنة 518هـ/1124م[2]، وسنّ أبي محمد حوالي اثنتين وثلاثين سنة – كانت قد تعاقبت على جزيرة شقر سلطات أربعة هي: سلطة المرابطين حتى سنة 539هـ/1144م، وسلطة ابن مردنيش حتى سنة 565هـ/1169م، وسلطة ابن سفيان الصوفي بين سنة 565هـ/1169م، وسنة 567هـ/1171م، ثم سلطة الموحّدين بداية من سنة 567هـ/1171م، وحتى أواسط العقد الثالث من القرن السابع الهجري. ولكل واحدة من هذه السلط مواقف خاصّة وتوجهات فكريّة ومذهبيّة تميّزها[3]. فأي سلطة منها خدم أبو محمد بن نوح بتولّيه القضاء. فهذا المنصب من المناصب الرّئيسية في

---

[1] - أنظر ترجمته: ابن الأبار، **التكملة**، ج.I، رقم 532، ص.199. وجزيرة شقر تقع في شرق الأندلس قرب شاطبة وغير بعيدة عن بلنسية وهي جزيرة في نهر شقر وإليها ينتمي ابن خفاجة الشاعر الكبير. أنظر حولها: الحميري (ابن عبد المنعم)، **الروض المعطار**، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط.2، 1984، ص.349.

[2] - أنظر ترجمته: **نفس المصدر**، ج.I، رقم 1191، ص.418.

[3] - أنظر لمحة شاملة حول تاريخ شرق الأندلس في هذه العهود الأربعة في الدّراسة التالية:
Guichard (Pierre), *Les musulmans de Valence et la reconquête (XI-XIII^{è} siècle)*, T.I,. Damas 1990, pp.81-138.

المؤسسات الإسلامية، ويلعب صاحبه – إلى جانب دوره القضائي والدّيني – أدوار اجتماعية وسياسية.

ماذا الآن عن النقائص و**القضايا** المصاحبة لهذا الصنف من المصادر و**المرتبطة بما هو خارج عن نطاق مؤلفيها** ومسؤوليتهم ولها تأثيرات على استغلالها من طرف الباحثين.

إنها أساسا القضايا المرتبطة **بتحقيق هذه الكتب** وإخراجها من وضع المخطوط إلى وضع الكتاب المنشور؛ وهي عملية تتطلب – كما هو معروف – جملة من الشروط والمهارات نلاحظ أن عدد الحاذقين لها في شيء من التّراجع في الوقت الذي نلاحظ فيه كذلك شيئا من التهافت على التحقيق والنشر وأحيانا شيئا من التسرّع.

وعدم الالتزام بشروط التّحقيق وضوابطه يؤدّي إلى نقائص كثيرة، بل إلى أخطاء؛ وكذلك التسرّع الذي من أبرز علاماته عدم السّعي إلى تقصّي المخطوطات المتوفرة حول نفس الكتاب والتي تكون موزّعة في أماكن عدّة، بل قد يقع الاعتماد أحيانا على نسخة واحدة. ومثل هذا الاعتماد ليس بالنّادر. فقد لا تكون هناك سوى نسخة فريدة مخطوطة لهذا الكتاب أو ذاك، فيتمّ "التحقيق" والنّشر اعتمادا عليها نظرا لأهميته، ورغبة في خدمة البحث العلمي؛ لكن على هذه العمليّة عندئذ أن تكون مصحوبة بجهود مختلفة تسعى إلى تفادي ما يولّده عدم وجود نسخ من مخطوطات أخرى، مثل اعتماد مصادر أخرى أُلّفت بعد المصدر المُراد نشره وتكون قد اعتمدته ونقلت عنه الكثير؛ إلاّ أن هذه الجهود قد لا تُبذل وتبقى الفائدة من استغلال الكتاب "المحقق" جدّ منقوصة؛ فهذا مثلا حال مصدر أساسي في التراجم الأندلسية وقع "تحقيقه" على نسخة فريدة، وهو "كتاب أخبار الفقهاء والمحدّثين" لأبي عبدالله الخشني القيرواني الذي نشر سنة 1992[1]. فالخروم في هذه النسخة كثيرة، وبقيت على حالها في أغلب الأحيان وكان بالإمكان سدّ بعضها بما يوجد في تراجم نفس الشخصيّات التي اهتمّ بها الخشني لكن في مصادر أخرى اعتمدته ونقلت ما كتبه مثلما فعل ابن الفرضي في كتاب تاريخ علماء الأندلس، أو القاضي عياض في كتابه "ترتيب المدارك". كذلك الأخطاء في القراءة فهي كثيرة، وكان من السهل التفطّن إلى عدد لا بأس به منها.

وكما ذكرنا آنفا فإن عمليات التّحقيق تتطلّب مهارات معيّنة. وهي في حقيقة الأمر "صناعة"، وذلك في المعنى الذي يعتبر فيه الفقهاء مثلا، الإفتاء أو القضاء صناعة، إذ ليس كل فقيه قادر على أن يكون مفتيا أو قاضيا. فهذه الأنشطة لا تُجابه فقط بجملة العلوم النظريّة التي يمتلكها الفقيه بقدر ما تجابه بجملة من الخبرات عليه امتلاكها أو اكتسابها.

---

[1] - تحقيق مع دراسة بالاسبانية من إنجاز Avila (Maria Luisa) وMolina (Luis) مدريد 1992. ونحن نلاحظ أنه في نفس السنة وقع تحقيق هذا الكتاب وتقديمه من طرف خالد سقاط في إطار عمل جامعي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي محمد بن عبدالله بقاس.

والتحقيق هو الآخر كذلك، إذ على المحقق أن يكون مكتسبا لجملة من الخبرات تمكّنه من التغلّب على صعوبات التي تقف أمامه في سعيه لجعله النصّ المخطوط مفهوما ومستجيبا لشروط الشروط النّشر، وهي صعوبات تعترضه إجمالا على مستويات ثلاثة: مستوى مؤلّف النصّ، ومستوى ناسخه، ومستوى نشره.

ففي مستويات التأليف هناك ضرورة لأن يكون المحقّق مُتفطّنا مثلا إلى الاختلافات في أساليب الكتابة بين أصحاب الانتماءات العلميّة المختلفة أو حتى بين أصحاب الانتماءات الجهويّة. فأسلوب الكتابة عند الفقهاء يختلف عما هو عليه عند الأدباء. كما أن أهل هذه الجهة أو تلك قد يتميّزون باستعمال بعض العبارات أو التراكيب؛ فهذا مُلاحظ مثلا عند أصحاب التراجم الأندلسية. كذلك عليه التفطّن إلى ما قد يختصّ به أهذا المؤلف أو ذلك من حيث إيراد المعلومات، أو اختصارها أو من حيث استعمال مصطلحات طرق تحمّل العلم، أو من حيث الهاجس الأساسي الذي يشغله في فترة ما...

أما على مستوى النسخ، فإن كان على المحقق امتلاك شيء من القدرة على التمييز بين الخطوط بصفة عامّة فإنه عليه أكثر أن يكون متفطّنا إلى ما يُميز عملية النسخ لكل مخطوط لوحده، وذلك من حيث مميزات الرسم عند الناسخ وخاصّة في كيفية كتابته للحروف المتشابهة، وكيفية وضعه لنقاط الاعجام وكذلك رسم الكلمات المطوّلة والتي قد تنقسم إلى كلمتين لكل واحدة معناها.

كذلك على مستوى النشر، فإن المُحقق مطالب بحذق جملة من المهارات تساعده على انجاز ما يروم التوصّل إليه. وما نقصده من هذه الناحية هو حذقه لكيفية اعتماد المخطوطات المتوفرة عنده والتمييز بين النسخة الأم وغيرها، وحذقه لوضع الهوامش والتمييز بين هوامش الاختلافات بين المخطوطات – وهي الهوامش الأساسية – وهوامش التوضيحات الأخرى والتي هي من اجتهاده. كذلك حذقه لاستعمال الرموز للدلالة على الخروم وحجمها وعن البياضات وعلى ما يضيفه هو شخصيا من عبارات ويُميّز بينها وبين النص الأصلي. هذا إضافة إلى ضرورة امتلاك المحقق القدرة على التفطّن إلى أخطاء المؤلف سواء منها على مستوى التراكيب أو النحو أو الأخطاء المعرفية مع شرط الإبقاء عليها في النصّ الأصلي والإشارة إليها في الهوامش.

وفي كل الحالات يجب الإبقاء على النص كما هو من حيث أخطائه واستعمالاته -حتى وإن احتوت على عبارات نابية- واقتراح الإصلاح في الهوامش[1].

---

[1] - لم نرد التوقّف في كلّ ما سبق حول موضوع التحقيق وقضاياه عند أمثلة من الأخطاء والمزالق الكثيرة التي اعترضتنا ونحن نستعمل كتب التراجم، وقد كان بإمكاننا إعطاء أمثلة حول كل قضية أثرناها. ونكتفي هنا بمثال صغير، ليس بالخطير ومن السهل الوقوع فيه. فقد توقف أبو العباس الغبريني مثلا عند أهمية السند الذي يمتلكه أحد من ترجم لهم من علماء بجاية، وهو الفقيه على بن

ونحن هنا لسنا بالطبع في مجال تعداد الشروط اللازمة لتحقيق المخطوطات. فهي كثيرة ولم نذكر منها سوى القليل، وهو القدر الكافي في نظرنا للفت الانتباه إلى أهمية هذه العمليّة ومدى تأثير نقائصها على استغلال التراجم. فهذه الكتب تعجّ مثلا بالأسماء والتصحيف فيها منزلق سهل: أسماء الأشخاص، والمواقع الجغرافية، والكتب... كذلك هي تعجّ بالمصطلحات وبمختلف أنواع الإسقاطات، هذا إلى عدم خلوّها من التراكيب الملتوية وهو ما يتطلّب من المحقّق التفطن، والحذر والتقصّي.

وما نكتبه هو فرصة لتقدير الجهود الكبيرة التي بذلتها أعداد من المحققين فأخرجت لنا نصوص ثمينة في التراجم لم يكن للبحث العلمي في مجالات عديدة من الدّراسات التاريخية أن يتقدّم بدونها، إلا أنّها فرصة كذلك لنشير إلى أن الكثير من هذه النصوص، حتى تلك التي أشرفت على تحقيقها أسماء كبيرة – محتوية على نقائص وأخطاء لها تأثيرات سلبية إذ لم يقع التفطّن إليها وإصلاحها أو على الأقلّ التساؤل حولها ولفت الانتباه إليها، خاصّة في إطار أبحاث تعتني بمواضيع دقيقة ورئيسية والاعتماد فيها كليّا تقريبا هو على التراجم.

فمن المواضيع الأساسية التي أنجزت حولها جملة من الدراسات، لكنها مازالت في حاجة إلى البحث والتعمّق، هناك مثلا موضوع ظهور المدارس في بلاد المغرب: متى كان هذا الظهور، وكيف، وفي أي منطقة من مناطقه؟ فرغم كل ما قيل حول أهمية الظاهرة بالمغرب الأقصى، فإنRobert Brunschvig بيّن أن ذلك الظهور كان في إفريقية أولا خلال

نصر المتوفى سنة652هـ/1254م، وهو سنده خاصّة في كتاب البخاري، إضافة إلى ما يرويه عامة، ليعرّج إثر ذلك على موضوع رحلة هذا الفقيه إلى المشرق وذكر حادثة اشتهرت عنه، وهو قوله أنه حضي خلال تلك الرّحلة بلقاء شيخ مسنّ جدّا شاهد الرسول محمد الذي دعا له بطول العمر. وقد علّق الغبريني قائلا: «قلت: هذه رتبة عظيمة حصلت لهذا العالم، فإنه يُعدّ من التابعين، وهذه القضية معلومة النقل عن الشيخ (أي المترجم له) رحمه الله، وذكر أن سكنى هذا المعمّر، بلدة «قطنة» وهي آخر بلاد الترك من جهة اليمين عن يمين السدّ، سد اسكندر المحجوب، به يأجوج ومأجوج. وهذا سدّ يعلي المتأخرين ويلحقهم بأكابر المتقدمين نفعنا الله بهم». الغبريني (أبو العبّاس)، **عنوان الدّراية فيمن عرف من العلماء في المائة السّابعة ببجاية**، تحقيق وتعليق عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.2، 1979، ص.141-142.

فموضوع السد لتحديد موقع مدينة هذا المعمّر يثير ملاحظتين: فالفاصلة التي وضعت بعد "المحجوب" تجعل من هذه العبارة صفة للإسكندر ويجب إلغاؤها حتى نتحصل على المعنى ما دونه. أما الملاحظة المطلوب. فسد اسكندر وضع لحجب ياجوج وماجوج ، أي منعهم من إجتياح إلى إستحضار وهذا السد يعلي المتأخرين ..." فنحن في حاجة هنا"الثانية -وهي الأهم- فتتعلق بالقول بعض عادات مؤلفي التراجم في الكتابة، وخاصة في ما يتعلق بإنهاء الاستطرادات والعودة إلى الموضوع الأصلي. فالمؤلف هنا إنتهى من موضوع السد وعاد إلى موضوعه الأصلي و هو علو صاحب الترجمة- في كل ما يرويه عامّة و في كتاب البخاري خاصّة. فالمؤلف يقدم **سند** هذا الشيخ - يُعليه (وهي عبارة - و ليس سد-بهذه الجملة الأخيرة تعليقاً على علوّ سند هذا الشيخ و يرى أنه سند الذين = =رغم أنه من المتأخرين (زمنياً)، وأن ذلك يلحقه بأكابر المتقدمين، أي) تقنيّة عند المحدثين والسند العال هو إجمالاً ما قلّ عدد الأشخاص فيه بين الراوي من .يكبرونه سناً ولهم بتالي سندٌ عالي من ناحية، والرسول أو صاحب كتاب من ناحية ثانية

العهد الحفصي، وذلك مع المدرسة الشماعيّة بين سنة 625هـ/1127م، وسنة 647هـ/1249م؛ ثم ظهرت بعد ذلك في بقية جهات بلاد المغرب. وكانت الأندلس هي آخر مناطق الظهور؛ وتمّ ذلك سنة 750هـ/1350[1].

لكن ماذا نفعل عندما نقرأ في ترجمة شخصيّة علميّة رئيسية من أهل الأندلس في عصر المرابطين – وهي شخصية أبي علي الصدفي، المحدّث الكبير المتوفى سنة 514هـ/1121م، أي قبل قرنين ونصف تقريبا من ظهور المدرسة في الأندلس، وقرن من ظهورها في إفريقية – وهي الترجمة الواردة عند ابن فرحون اليعمري (760هـ/1358م-799هـ/1397م) في كتابه "الديباج المذهب"، فنجد أن صاحب الترجمة رحل إلى المشرق مفتتح سنة 481هـ/1088م «ثم عاد – يقول ابن فرحون – إلى الأندلس واستقرّ بمدرسة مرسيّة ورحل إليه الناس»[2]. وهي عودة كانت في صفر من سنة 490هـ/1096م.

وقد لفتت هذه العبارات القليلة في عددها، والهامة في مضمونها، انتباه عدد من الباحثين وفي مقدّمتهم باحثان كبيران اهتمّا بشؤون المدارس في الحضارة العربية الإسلامية، ونقصد كل من Georges Makdisi ومحمد القبلي، فتوقفا عندها وأثارا جملة من التساؤلات حولها. وهي تساؤلات آلت بهما إلى موقف يحوم في النهاية حول إمكانية هذا التواجد للمدرسة في الأندلس في العهد
المرابطي رغم شكّهم الكبير في ذلك[3].

والأمر غير ممكن قطعا. فابن فرحون مؤلف متأخر للتراجم الأندلسية؛ وأبو علي الصدفي شخصية رئيسية لها تراجم كثيرة؛ بعضها من وضع تلاميذه، كالقاضي عياض السبتي، المتوفى سنة 544هـ/1149م، والذي قصده خصيصا للأخذ عنه في مرسية[4]؛ وبعضها من وضع معاصرين له ولو لفترة قليلة كابن بشكوال (494هـ/1101-578هـ/1189م)[5]؛ وبعضها من وضع مؤلفين كبار خصّصوا له كتابا مُفردا أحصى تلاميذه وتقصى كيفية

---

1 - أنظر: Brunschvig (Robert), « Quelques remarques historiques sur les madrasas de Tunisie », *La Revue Tunisienne*, 1931, pp.261-285.

2 - ابن فرحون (اليعمري)، **الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**، دار الكتب العلميّة، بيروت 1932، ص.105.

3 - Makdisi (Georges), « The Madrasa in Spain : some remarks », *R.O.M.M* (Revue de l'Occident musulman et de la méditerranée), N°15-16, 2e Tri. (1973), pp.153-158.

- القبلي (محمد)، «قضية المدارس المرينية: ملاحظات وتأملات»، ضمن كتابه **مراجعات حول المجتمع والثقافة في العصر الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1987، ص.66-78.

4 - أنظر ما قاله بنفسه عن هذا الموضوع: القاضي عياض السبتي، **الغنية**، دراسة وتحقيق محمد بن عبد الكريم، الدار العربية للكتاب، تونس 1978، ترجمة أبي علي، رقم 47، ص.193.

5 - **الصلة**، ج.I، رقم 330، ص.143.

أخذهم عنه وتعلّمهم عليه كابن الأبار (595هـ/1199م-658هـ/1260م)[1]؛ وغير هؤلاء من أصحاب كتب التراجم وكلهم توفّوا قبل ابن فرحون.

وما نلاحظه هو أنه لا أحد من أصحاب هذه الكتب ذكر مدرسة مرسية واستقرار أبي علي الصدفي للتدريس فيها بعد عودته من المشرق. بل لا أحد من المصادر الأندلسية – ولا غيرها – بجميع أصنافها كانت له إشارة ما حول وجود مدرسة في مرسية في نهاية القرن الخامس الهجري؛ وقد كان لنا إطلاع على عدد كبير من هذه المصادر.

فنحن بلا شكّ أمام قضية نسخ، أو قضية تحقيق، تتعلق بمخطوط أو مخطوطات "كتاب الديباج المذهب"، أي قضية تصحيف وقعت في مرحلة من المراحل؛ تصحيف مسّ عبارة تُشبه – من حيث رسم حروفها – عبارة "مدرسة"؛ وبمقارنة مقاطع التراجم التي تناقلتها المصادر بعضها عن بعض – كما هو عادتها في أغلب الأحيان– وخاصّة منها ما تعلّق بعودة أبي علي واستقراره بمرسية تبيّن لنا أن هذه العبارة هي بلا شكّ عبارة "مدينة" التي تكون قد صحفت إلى "مدرسة".

والأمر في ترجمة أبي علي قد يكون هيّنا إذ هو يتعلّق بعبارة واحدة، رغم أنها تمسّ قضية جوهريّة؛ فماذا عندما يكون متعلّقا بالقسم الأوفر من الترجمة، وتكون هذه الترجمة لشخصية مغمورة لكن كشف الغُبار عنها – بفضل التراجم – يُمكّن من إضافات علميّة هامّة بواسطة المقاربات الحديثة إلى درجة أنها إضافات قد تُغيّر شيئا من بعض الصور النمطية القائمة بقوّة؛ خاصّة وأن هذا الغبار يتجاوز حدود هذه الشخصيّة ليلف كامل الفترة التي عاشت فيها والتي هي في حاجة إلى مُراجعات كثيرة.

إن الفترة المقصودة هي فترة عصر المرابطين، الذي يمتدّ إجمالا بين سنة 430هـ/1038م و541هـ/1156م. والترجمة المقصودة هي ترجمة أبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي الضرير – أصيل مدينة سرقسطة في شمال الأندلس والمتوفى سنة 520هـ/1126م – كما وردت في المصدر الرّئيسي حولها، وهو كتاب "الصلة" لأبي القاسم بن بشكوال المذكور آنفا والمعاصر لهذه الشخصيّة[2]. وهذا الكتاب متداول بين أيدي الباحثين في نشرة جدّ مقبولة، كانت قد صدرت منذ سنة 1955، ومع ذلك فهي نشرة لم تخلو من أخطاء، أحيانا جسيمة، كما هو الحال مع ترجمة أبي الحجاج.

فبعد ذِكر اسم هذه الشخصيّة على النحو الذي أوردناه يواصل ابن بشكوال قائلا في بقيّة الترجمة وقدرها أربعة أسطر لا غير: «له سماع من أبي مروان بن سراج، وأبي على الجبّائي وغيرهما. وكان من أهل التبحّر والتقدّم في علم التّوحيد والاعتقادات وهو آخر أئمة العرب فيه. أخذه عن أبي بكر الرّازي وكان مختصّا به، وله تصانيف حسان وأراجيز مشهورة وانتقل

---

[1] - وسمّى كتابه: **المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي**، نشر إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1989.

[2] - **الصلة**، ج.II، رقم 1509، ص.644.

أخيرا إلى العدوة وسكن حضرة السلطان. توفي فجأة في سنة عشرين وخمسمائة».
هذا هو كلّ الترجمة. وهي ترجمة عظيمة الفائدة نظرا لأهمية هذه الشخصيّة على أكثر من صعيد وأهمية ما يتعلّق بها؛ إلا أن كل ذلك يذهب هدرا إذا ما اكتفينا بما فيها للوقوف على هذه الأهمية، وهو ما كان عليه الحال إلى وقت ليس بالبعيد، أي حتى ظهور تراجم أخرى لأبي الحجاج وأساسا ترجمته عند القاضي عياض السبتي تلميذه[1] وحتى شيوع المقاربات الحديثة في التعامل مع التراجم وهو ما حاولنا تطبيقه في أطروحتنا ومكّننا من التفطّن إلى أهميّة هذه الشخصيّة. والموطن الأوّل للأهميّة فيها يكمن في اختصاصها العلمي المنكب على علم التوحيد والاعتقادات، فهي إذن شخصية ضالعة في علم الكلام[2]، ويكمن كذلك في توجّهها في ذلك وهو توجّه أشعري محض.

ويُساهم في إهدار هذه المعلومات عاملان رئيسيان صاحبا هذه الترجمة، أحدهما مرتبط بالمؤلف والآخر متعلّق بالنشر. فالمؤلف لم يسع إلى تقديم بعض معلوماته في أوضح ما يُمكن من العبارات وإن كان في الواقع أمينا فيما قدّمه. وما نقصده هو قوله أن أبا الحجاج «انتقل أخيرا (أي في آخر مرحلة من حياته) إلى العدوة وسكن حضرة السلطان». فالقول أنه انتقل إلى المغرب الأقصى – وقد استعمل ابن بشكوال ذلك في عدّة تراجم – وأنه سكن مرّاكش حضرة السلطان، كان يكون أوضح وأكثر جلبا للانتباه. ومرّاكش آنذاك هي عاصمة المرابطين وفيها أميرهم علي بن يوسف منذ سنة 500هـ/1106م. وقد لا يكون الأمر بريئا.

أمّا الإهدار بسبب النّشر، فنلاحظه في ثلاثة مواقع من هذه الترجمة على الأقلّ. وأوّل هذه المواقع هو ما نجده فيها من أبا الحجاج له سماع من أبي علي الجبائي، إذ لا يوجد شيخ أندلسي – ولا حتى مغربي – بهذه الكنية والنسبة التي تصاحبها في زمن أبي الحجاج. وقد تقصّينا الأمر طويلا. أما إذا فكّرنا في أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة في البصرة، فهذا بالطبع غير ممكن فأبو الحجاج لم تكن له رحلة إلى المشرق، وحتى وإن كانت فالفارق الزمني شاسع بين الرجلين، إذ عاش أبو علي بين سنة 235هـ/849م، وسنة 303هـ/915م[3]، في حين عاش أبو الحجاج خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري. وتوفي – كما ذكرنا – سنة 520هـ/1126م. فهناك إذن تصحيف في الاسم، ونعتقد أن المقصود هو أبو علي الجيّاني، أحد كبار

---

[1] - عياض، **الغنية**، ذُكر سابقا، رقم 97، ص.282.

[2] - سمّاه عياض في بداية الترجمة «يوسف بن موسى الكلبي، **المتكلّم**، النحوي، أبو الحجاج الضرير».

[3] - أنظر حول أبي علي الجبائي: Gardet (L.), « Al-Djubbā'ī », T.II, pp.584-585.

شيوخ الرّواية بالأندلس والمتوفى سنة 498هـ/1105م[1]. فالتشابه كبير في رسم كلا النسبتين: الجبائي والجيّاني.

ويتعلّق ثاني هذه المواقع بالقول أن أبا الحجاج هو «آخر أئمة العرب» في التبحّر والتقدم في علم التوحيد والاعتقادات. فهذا القول فيه تصحيف كذلك وهو يتعلّق بعبارة «العرب»، والصحيح هو «المغرب»، إذ أن نفس هذه العبارات تقريبا استعملت في ترجمة أبي الحجاج عند القاضي عياض السبتي.

والصيغة التي وردت العبارة في إطارها هي من الصّيغ المستعملة بكثرة في كتب التراجم، وهي صيغة مُبالغة مقصودة للدلالة على مدى تقدم الموصوف بها في علم من العلوم وبروزه فيه في عصره وفي جهته. فأبو الحجاج كان إذن أكبر المتقدّمين في بلاد المغرب في علم التوحيد والاعتقادات. وهذا العلم في جوهره هو كما ذكرنا علم الكلام في الواقع، إلا أن أهل السنة لا يحبّذون هذه التّسمية ويفضلون تجنبها بواسطة تسميات أخرى كالتي استعملت في هذه الترجمة، أو قولهم أصول الدين، أو غير ذلك. وهذا العلم هو من العلوم التي اختلفت إزاءها مواقف المسلمين ولم يحظ أبدا بالإجماع عندهم[2].

فقد عرف عن الأندلسيين عدم اندفاعهم وراء هذا العلم وقلّة اهتمامهم به. فهذا على كل حال ما أكده أبو محمد بن حزم وهو يكتب في فضائل الأندلس ليلة ولادة أبي الحجاج، إذ نجد عنده قوله: «وأما علم الكلام، فإن بلادنا – وإن كانت لم تتجاذب فيها الخصوم ولا اختلفت فيها النحل فقلّ لذلك تصرّفهم في هذا الباب – فهي على كلّ حال غير عريّة عنه»[3].

أمّا الصورة التي ترسّخت حول مواقف المرابطين من هذا العلم فهي صورة الكراهية الشديدة له والعمل على تجنّب علمائه، بل ملاحقتهم. فهذا على كلّ حال ما أشاعه حولهم نصّ مشهور لعبد الواحد المرّاكشي (581هـ/1185م-647هـ/1249م) في كتابه "المعجب"[4] وتبناه قولدزيهر (I. Goldziher) في دراساته[5].

---

[1] - يعرف كذلك باسم أبي علي الغساني الذي نجده بكثرة في طيات التراجم، وهو شخصية محورية في ميدان الرّواية وانتقال المعرفة في الأندلس أواخر القرن الخامس الهجري. ترجم له الكثيرون. أنظر مثلا: عياض، **الغنية**، رقم 48، ص.201؛ **الصلة**، ج.I، رقم 329، ص.141؛ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، تحقيق إحسان عباس، دار صادر- دار الثقافة، بيروت 1969، ج.II، رقم 195، ص.180.

[2] - كتب أبو الحسن الأشعري (ت.324هـ/936م) رسالة **استحسان الخوض في علم الكلام**، وكتب أبو حامد الغزالي (ت.505هـ/1111م) رسالة **إلجام العوام عن علم الكلام**.

[3] - ورد عند المقّري، **نفح الطيب**، ذُكر سابقا، ج.III، ص.176.

[4] - عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبط وتصحيح وتعليق محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، دار الكتاب، الدار البيضاء، ط.7، 1978، ص.252-255.

[5] - راجع الإحالة 34.

وقد جمع أبو الحجاج الأمرين. فهو من ناحية أُولى أندلسي الأصل والتكوين ولم تكن له رحلة إلى المشرق، ومن ناحية ثانية قضى معظم حياته – إن لم يكن كلّها – في ظل المرابطين. فعمّن أخذ إذن هذا العلم وبرع فيه؟ إنّنا نجد إجابة على ذلك في هذه الترجمة. فهي قد ذَكرت في وضوح تام أن أبا الحجاج أخذ علم التوحيد والاعتقادات عن أبي بكر الرازي، وأنه كان مختصا به. فمن هو أبو بكر الرّازي؟ إنه الإهدار الكبير في هذه الترجمة. فالاسم قد لحقه التصحيف وأصبح نكرة فغابت عنا حقيقة هذا الشيخ المتكلم وتغيب بالتالي حقائق أخرى مرتبطة به.

إن المقصود هو أبا بكر المرادي، وليس الرّازي، كما هو واضح عند القاضي عياض السبتي في ترجمة أبي الحجاج، حيث ذكر أن هذا الأخير روى عن «الفقيه أبي بكر المرادي شيخه وعنه كان أخذ كثيرا»[1]. وقد ذكر عياض في هذه الترجمة بعض مؤلفات المرادي التي رواها أبو الحجاج وهي في علم الاعتقادات.

والمرادي شخصيّة ترجم لها ابن بشكوال في الواقع، لكنه جعله في فئة الغرباء وهي تسمية شاملة لغير الأندلسيين القادمين من جهات إسلامية أخرى وكانت لهم إقامة بالأندلس حتى وإن كانت دائمة إذ هم لم يولدوا بها. فنتبين من خلال ترجمته هذه أن المرادي قيرواني، وأنه زار قرطبة سنة 487هـ/1094م، وأنه توفي بالصحراء سنة 489هـ/1096م. وقد ذكر ابن بشكوال أن المرادي كان «عالما بالفقه وإماما في أصول الدين»[2].

فأبو الحجاج اختصّ بالمرادي، وعنه أخذ علم التوحيد والاعتقادات، أو ما يسمّى أصول الدين. وقد زاد القاضي عياض في تحديد توجهات أبي الحجاج في هذا العلم فقال أنه «كان من المشتغلين بعلم الكلام على مذهب الأشعرية ونظّار أهل السنّة»[3]. فأبو الحجاج أشعري، وشيخه المرادي لاشك كذلك؛ والأمر في شأن هذا الأخير غير مستغرب إذ بيّنت الدّراسات أن القيروان كانت من أهم معاقل الأشعريّة في النصف الأوّل من القرن الخامس الهجري[4]، إن لم يكن أهمها في رأينا.

إن كل ذلك لا نتبيّنه في شأن أبي الحجّاج إذا ما اعتمدنا ترجمته عند ابن بشكوال في النشرة الأكثر تداولا لكتابه وذلك بسبب هذا التّصحيف، فتضيع معطيات هامّة حوله وتضيع معها ما يتولّد عنها من استنتاجات. فكونه

---

[1] - **الغنية**، رقم 97، ص.282.

[2] - **الصلة**، ج.II، رقم 1326، ص.572.

[3] - نفس الإحالة 57.

[4] - أنظر دراسات H.R. Idris: « Essai sur la diffusion de l'aš'arisme en Ifriqiya », *Les Cahiers de Tunisie*, N°1, (1953), pp.126-140.
كذلك: الهنتاتي (نجم الدين)، «تطور مواقف علماء المالكية بإفريقية من الخوض في المسائل الكلامية وتبنّيهم للعقيدة الأشعرية»، **مجلة معهد الآباء البيض للغات العربية** *.I.B.L.A* (تونس)، العدد 170، (1992)، ص.297-322.

مثلا مُهتمّا بعلم الكلام، وأشعريا، ثم يختار الانتقال إلى مرّاكش عاصمة المرابطين ليستقرّ بها، أمر لافت للانتباه، و"نتذكر" عندئذ أن المرادي نفسه – والذي يعرف كذلك بأبي بكر الحضرمي – انتقل هو الآخر منذ مدّة إلى عاصمة المرابطين الأولى، وهي مدينة أزكي، بطلب من أمير المرابطين الأسبق، وهو أبو بكر بن عمر، فولاه قضاءها وتوفي بها وهو يمارس هذه الخطة سنة 489هـ/1096م[1]. وتصبح بذلك تساؤلاتنا مشروعة إزاء الصورة التي رسمها عبد الواحد المرّاكشي حول كراهية المرابطين لعلم الكلام والمتكلّمين، بل أن التساؤلات قد تمتدّ إلى الكيفية التي أشار بها ابن بشكوال في ترجمة أبي الحجاج إلى المرابطين وعاصمتهم، وقلنا أنها لم تكن ربما كيفية بريئة.

II-من حيث الصورة العامة التي تعطيها هذه المصادر حول النّخب العلميّة:

يلاحظ المُطالع لتراجم النّخب العلميّة أن الانطباع الذي يحصل له وهو يقرأ أيّة ترجمة كانت تقريبا هو انطباع إيجابي حول صاحبها، وأن الصورة هي إجمالا لمّاعة، ومن النادر أن يحصل له العكس. والأسباب في ذلك كثيرة في الواقع، منها ما هو كامن فيما يمكن أن نُسمّيه لا وعي المؤلفين للتّراجم، ومنها ما هو مقصود وصادر عن وعي تامّ بها؛ هذا إضافة إلى أسباب أخرى هي أقرب إلى الأسباب الأخلاقية.

فمؤلفو التراجم مدفوعون إلى إعطاء صور إيجابية لأنهم يترجمون لحملة العلم عامّة وحملة الدّين خاصّة؛ والدّين يؤخذ خلفا عن سلف، وترسخ بالتالي في لاوعي هؤلاء المؤلفين أن حامله لا يمكن أن يكون إلاّ ثقة، مأمونا، ذا أخلاق عالية، ويجب أن يقتدى به. وفي هذا الجانب الأخير يتدخّل الوعي في رأينا ليعمل على الاحتفاظ فقط بما هو إيجابي في حياة الشخصيّة المُترجم لها والعمل على إبرازه، وحتى على تضخيمه للحثّ على الاقتداء؛ في حين يقع التغافل عن مشاكل أو قضايا يكون قد تعرّض لها أو تسبّب فيها. وقد كان مؤلفو التراجم على وعي تام بهذا الانتقاء وبهذه المقاصد، وقد عبّر العديد منهم عن ذلك بكلّ وضوح.

فهذا أبو العباس الغبريني (644هـ/1246م-714هـ/1314م) ينساق مثلا في كتابه "عنوان الدّراية" إلى الحديث عن محنة أبي الوليد بن رشد الفيلسوف (520هـ/1126م-595هـ/1198م) في ترجمة صديق هذا الأخير وزميله في المحنة أبي عبدالله محمد بن إبراهيم الأصولي الذي كان شخصية دينيّة من طراز رفيع (ت.612هـ/1215م) فأعطى بعض التفاصيل، وهي

[1] - أنظر: De Moraes Farias (Paulo Fernando),« The Almoravides, some questions concerning the caracter of the movement during its periods of closest contact with the western sudan », dans *Bulletin de l'institut Fondamental d'Afrique Noire* (B.I.F.A.N.), serie B, T. XXIX, 3-4, (1967), pp 794-878 (p.847 et sq).

ليست كثيرة في الواقع، وليست مشوّهة لصورة هذين العالميْن، لكن مع ذلك نجده يقول، في اعتذار واضح: «ولولا صورة استطراد الكلام ما ذكرتُ هذا، لأنني مازلت **أنقد** على من يذكر فضل أهل العلم، ثم يغمز في شأنهم، ويشير إلى القادح فيهم؟ فلا أُريد أن أذكر إلاّ الخير إذْ أريد الإصلاح ما استطعت»[1].

فهو يعتبر تلك التفاصيل التي مدّنا بها – وهي كما ذكرنا قليلة – نوعا من زلة لسان، وانسياق في الحديث خرج به إلى ما يجب عليه ذكره وإلى الحياد عن الأهداف التي رسمها لنفسه من الاهتمام بالتراجم والتي تتلخّص في إعطاء صورة معيّنة يقتدى بها.

وما قاله أبو العباس الغبريني، وهو مغربي، يجد تأييدا له عند مؤلف مشرقي إذ يتّفق معه في نفس الرؤية إلى الهدف من التراجم والتي هي في الواقع رؤية مشتركة بين كلّ مؤلّفيها؛ وهذا المؤلف هو تاج الدين السبكي (ت.776هـ/1374م) في كتابه "طبقات الشافعية". فنجد عنده تعبيرا عن نفس الهواجس، بل يزيد بعضها توضيحا.

فالسّبكي انجرّ هو الآخر إلى إعطاء تفاصيل حول محنة عالم شافعي وأشعري كبير، هو أبو بكر بن فورك (ت.406هـ/1015م)، لكنه استرجع في نوع من الاعتذار فقال: «اعلم أنّه يعزّ علينا شرح هذه الأمور لوجهيْن [أحدهما] أن كتمانها وسرّها أولى من إظهارها وكشفها لما في ذلك من فتح الأذهان لما هي غافلة عنه مما لا ينبغي التفطّن له؛ [والثاني] ما يدعو إليه كشفها من تبيين معرة أقوام وكشف أعوارهم وقد كان الصّمت أزين...»[2].

فهذه الكتب تعمل على كتمان – والعبارة للسبكي – كلّ ما تراه مُخلاّ بصورة العالم، وهي صورة مستبطنة لدى مؤلفيها لا ترى في العالم سوى شخصا ممتلكا لصفات عالية وبعيدة عن كلّ ما يُشين لأنه أحد حملة الدين، وأنّ الدين ترك أثره فيه وهذب أخلاقه وبالتالي يجب الإقتداء به.

وقد تضافرت لترسيخ هذه الصورة واستبطانها عوامل كثيرة ووسائل مختلفة اجتهدت في ذلك على مرّ السنين. ولعلّ هذه الوسائل وأكثرها نجاعة هو ميدان الحديث من ناحية، وما يكتبه العلماء أنفسهم من ناحية ثانية. فمن الأحاديث المشهورة في هذا الشأن الحديث القائل أن «العلماء ورثة الأنبياء» والحديث القائل «يَحمل هذا العلم من كل خلف عدوله».

أما العلماء فقد تكررت لديهم التّأكيدات على ادوار العلماء وما يتحلّون به من صفات، من ذلك مثلا ما قاله الخطيب البغدادي (392هـ/1001م-462هـ/1096م) من أن الله «جعلهم خلفاءه في أرضه و حجّته على عباده واكتفى بهم عن بعثة نبي وإرسال نذير. وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة الملائكة، فقال: (شهد الله أن لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو

---

[1] - الغبريني، **عنوان الدراية**، ذُكر سابقا، ص.211.

[2] - السبكي (تاج الدين)، **طبقات الشافعية الكبرى**، المطبعة الحسينية، القاهرة، د.ت.، ج.III، ص.53.

العلم) [1]».
فلا يمكن إذن لورثة الأنبياء، ولمن جعلهم الله حجة على عباده، وجعلهم في مرتبة الملائكة إلا أن يكونوا مكتملي الصفات وذوي سلوك لا غبار عليه يدفع إلى الاقتداء بهم. تبعا لذلك، فإنه إذا امتلك المُترجم له صفات من التي تعتبر سلبيّة، أو شارك في أحداث ملتبسة فإنه على المؤلف عدم تسجيلها في الترجمة وذلك حتى لا يقع التفطّن إليها وتنتشر عند الناس، وحتى يقع نسيانها؛ بل أن الاكتفاء في ذلك حتى بالإشارات الخفيفة مكروه وذلك حتى لا ينساق ذهن القارئ وراء تفسيرات وتأويلات قد تحط من صورة المُترجم له.

لكن علينا أن نتوقف كذلك عند ذلك السبب الثاني الذي يذكره السبكي ويرى أنه دافع هو الآخر إلى عدم ذكر الأحداث المُخلّة بصورة العالم وإلى الإعراض عن كلّ ما هو سلبي في حياته، إذ هو بالذّات السبب الأخلاقي الذي أشرنا إليه آنفا. فإظهار السّلبيات، هو كما قال السبكي كشف لمعرّة الناس وإظهار الأعوار؛ فهي بالتالي نوع من الغيبة، أو نوع من النميمة وفي أفضل الحالات هو كشف وهتك للستر وانتهاك ربما للأعراض. وهذه كلّها رذائل من وجهة نظر أخلاقيّة ودينيّة نهى عنها الدين واعتبرها مُخلّة بأخلاق مرتكبيها، والدين يوصي بالتستّر على عيوب النّاس؛ هذا فضلا عن زاوية أخرى في النظر إلى المُترجم له. فهذا الأخير هو إنسان ميّت، وقد ترسّخ في الضمير العميق للمسلمين – وفي الواقع لكل الشعوب – إذ لا يُذكر الميّت إلاّ بخير.

كلّ هذا يفضي بالطبع إلى القول بأن الباحث يتعامل من خلال التراجم، وفي المجمل، مع **صور مشوّهة من النّاحية التاريخية**. والتّشويه التّاريخي يتمثّل في عدم إظهار الشيء قصدا على حقيقته الكاملة إذ أن هذه الصور وقع تجميلها. فرغم المفارقة في استعمال العبارتين فإن هذا التجميل تشويه عند المؤرخ.

والتّجميل له طرقه الكثيرة، لعلّ من أبرزها في المقام الأوّل هو ما ذكرناه حول الإعراض عن ذكر الصفات السلبية، أو الإشارة إلى السلوكيات المُريبة، أو تفادي الحديث عن المواقف المحرجة، والتي قد لا تتضمّن في الكثير من الأحيان أي حطّ من صورة العالم إلاّ من بعض الزوايا المعيّنة، والتي هي زوايا لا تحظى بالإجماع، ومع ذلك يقع الإعراض عنها.

فنحن نقرأ مثلا **ترجمة أبي عمر الطلمنكي**، المُشار إليه آنفا، وهي ترجمته عند ابن بشكوال في كتاب "الصلة"، فنجد ما يلي حول نهاية حياته: «سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسبا، وأسمعهم الحديث والتزم الإمامة بمسجد مُتعه منها – ثمّ خرج إلى الثّغر فتجوّل فيه وانتفع النّاس بعلمه. وقصد بلده في آخر عمره فتوفي فيها بعد طول التجوّل والاغتراب»[1]. فالانطباع

---

[1] - آل عمران (III)، آية 18.

الذي يحصل لنا هو أنها نهاية عادية، فلا نشعر البتّة أن الشخص تعرّض لمحنة، ولا للمحاكمة والإبعاد عن قرطبة. فجعل ابن بشكوال ذلك خروجا عن طواعية، وجعل الإبعاد تجوّلا واغترابا في منطقة الثّغر، مع العلم أن طلمنكة – بلد أبي عمر والتي توفي بها – هي بالفعل من مواقع الثغور وبالتحديد ما يسمى الثّغر الأوسط. فقد ذكر ابن عبد المنعم الحميري أنها لا تبعد سوى عشرين ميلا عن وادي الحجارة = إحدى مدن الثّغر الرّئيسية = وإن منها أبا عمر الطلمنكي[2]. فابن بشكوال لم يُخط فيما قدّمه من معلومات إلاّ أنّه قام بتجميلها بالاقتصار على جوانب فقط وإخفاء أخرى.

ومع ذلك، فإن ما وقعت مؤاخذة أبي عمر عليه، فتعرّض لتألّب جماعة من الفقهاء ضدّه، قد يُحسب له عند البعض لا عليه، ولو نجح فيه لأدى إلى مدحه والتنويه به؛ فهو قد اتّهم بالدّعوة إلى "سلّ السيوف" ضدّ الحكّام – وهم أمراء الطوائف في الأندلس آنذاك – والثورة ضدّهم[3]. إلاّ أن مثل هذه الدّعوة لم تكن مقبولة عند الفقهاء حتى وإن جار الحكّام وظلموا. فابن بشكوال – الذي هو أقرب إلى الزّاهد منه حتى إلى الفقيه المتوسّط – يرى من واجبه إخفاء مثل هذه المعلومات. فهي إن صحّت في شأن أبي عمر فإنّها تمثّل موقفا غير مقبول منه وقادح فيه من زاوية نظر الفقهاء؛ وإن لم تصحّ فهي سبب "محنة"، تحسب له بلا شكّ، إلاّ أنّه لا مجال للحديث عنها «لما في ذلك – قال السبكي – من فتح الأذهان لما هي غافلة عنه ممّا لا ينبغي التفطّن له»[4].

وكما ذكرنا آنفا فإنّ "التجميل" قد يقع بطرق عديدة، وبإمكاننا التوقّف عند طريقتين أخريين منها. أما الأولى فهي مكمّلة في الواقع للتي كنا بصدد الحديث عنها والمتعلّقة بالإعراض عن ذكر معلومات معيّنة؛ وتتمثّل في العمد إلى استعمال عبارات غامضة، وربّما حتى مُظلّلة – لما لها من إمكانيات التأويل في معاني مختلفة – وذلك عندما يجد المؤلف نفسه أمام حقائق تاريخيّة مشهورة لا يمكنه نكرانها لكنه يرى أنها – أحيانا من وجهة نظر شخصيّة بحتة – مُخلّة بصورة معيّنة للعالم أو أنّها قد تفتح الأذهان لما هي غافلة عنه على حدّ عبارة السبكي الّتي كرّرناها.

فلو عدنا إلى كتاب "الصلة" لابن بشكوال مرّة أخرى وقرأنا فيه ترجمة الفقيه الكبير **أبي محمد بن حزم** (484هـ/994م-456هـ/1069م) فإنّنا لن نجد فيها أيّة عبارة واحدة واضحة تدلّ على أنّه ظاهري المذهب، فضلا عن أنّه المجدّد لهذا المذهب والذي منحه دفعا كبيرا في أندلس القرن الخامس الهجري. فلا نجد إلاّ إكتفاءً بالقول أنه «كان حافظا عالما بعلوم

---

[1] - **الصلة**، ج.I، رقم 92، ص.48.
[2] - الحميري، **الروض**، ذُكر سابقا، ص 393 .
[3] - أنظر مقالنا المذكور في الإحالة 21 أعلاه.
[4] - أنظر الفقرة المنقولة عن السبكي أعلاه، ص26.

الحديث وفقهه مُستنبطا للأحكام من الكتاب والسنّة، مُتفنّنا في علوم جمّة»[1].
فصفات العلم بفقه الحديث، واستنباط الأحكام من الكتاب والسنّة، والمقصود الاستنباط المُباشر، هي بالفعل صفات أساسية يتحلّى بها الظاهريّة لكنها من ناحية هي غير كافية من حيث تعداد صفاتهم، ومن ناحية ثانية هي صفات بإمكان أصحاب أيّ مذهب الإدعاء بانطباقها عليهم إذا ما أُخذت في معانيها العامة. فكلّ العلماء الكبار على اختلاف مذاهبهم لهم علم بفقه الحديث وبإمكانهم الاستنباط من الكتاب والسنّة.

والأمر هيّن في شأن أبي محمد بن حزم لأنه من الشخصيات المشهورة والتي ترجم لها الكثيرون، وكتب هو بدوره الكثير، لكن الأمر له تبعات خطيرة في ميادين البحث الدقيق عندما يتعلّق الحال بشخصيات بقيت مغمورة رغم تأثيرها الكبير. فمن أبرز الأمثلة على ذلك مثال الشيخ **أبي بكر بن بريال الحجاري الأندلسي** (416هـ/1025م-502هـ/1108م). فلا شيء يدلّ على أنه ظاهري في أيّة ترجمة من التراجم التي نعرفها له، بل إن ترجمته عند ابن بشكوال ترجمة باهتة من حيث ما تعكسه حول مكانته في الفقه وفي ميدان الرّواية إذ له في هذين الميدانين مكانة بارزة نكتشفها في ترجمته عند تلميذه أبي محمد بن عطيّة الغرناطي (481هـ/1088م-541هـ/1156م) الذي روى عنه عددا هامّا من الكتب. فقد اكتفى ابن بشكوال بالقول بعد ذكر أسماء بعض أساتذته أنه «كان نبيلا حافظا ذكيا أديبا شاعرا محسنا»[2]. هذه هي صفاته العلميّة عند ابن بشكوال، والتي لم يُضف إليها ابن عطيّة أي شيء سوى قائمة من الكتب رواها عنه[3]. وعلينا التفطّن إلى معلومات عارضة وردت في ترجمة أحد تلاميذه في مصدر مشرقي حتى نكتشف أن أبا بكر الحجاري ظاهري وأنه تلميذ لأبي محمد بن حزم[4].

أما الطريقة الأخرى في التّجميل، والتي نضمّها إلى ما سبق، فهي في الواقع أقلّها خطرا رغم أنّها لا تخلو من انعكاسات سلبية على صعيد البحث؛ وهذه الطريقة تتمثّل في **الإطناب في إغداق الصفات** والألقاب المادحة علميا واجتماعيا، وهو منحى تكثّف عند مؤلفي التراجم مع التقدّم في الزمن إلى درجة التّساؤل عن معنى تلك الصفات وحقيقتها. فكلّ ترجمة تقريبا عند أبي العباس الغبريني تبدأ بوصف صاحبها بأنه "شيخ فقيه"؛ فقد وصف بها 102 من الشيوخ المُترجم لهم من جملة 108[5]. وجلّ الشيوخ عنده

---

[1] - **الصلة**، ج.II ، رقم 891، ص.395.
[2] - **الصلة**، ج.I، رقم 825، ص.366.
[3] - ابن عطيّة (أبو محمد)، **فهرس**، تحقيق محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1980، رقم 22، ص.99.
[4] - إحسان عباس، **أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر لأبي طاهر السلفي**، دار الثقافة، بيروت، ط.2، 1979، ترجمة أبي محمد بن مرزوق، رقم 28، ص.51-52.
[5] - أنظر الغبريني، **عنوان الدراية**، ذُكر سابقا، والستة المتبقون هم أصحاب الأرقام: 4، 5، 15، 26، 35، 39.

هم كذلك علماء مُتّقون وفضلاء...[1]؛ وهذا بالطبع له تأثيره في ميدان البحث الدقيق عندما نريد وضع الجداول وإقامة إحصائيات ورسوم. فهل أن كلّ الشيوخ عند الغبريني في كتابه هم فقهاء حقا، وإلى أيّ درجة؟ أم أن الأمر في إطلاق تلك الصفة عليهم لا يعدو أن يكون "عادة" اجتماعية يتمّ بواسطتها تشريف الشخصيات الحاملة لشيء من العلوم – وخاصّة الدينيّة منها أو ما اتّصل بها – مهما كانت درجتها حتى وإن كانت قليلة.

إلاّ أنّه مع جهود التّجميل هذه ومع ما يُكال لأصحاب التراجم من عبارات المدح وما يقع من سعي لإخفاء نقائصهم، فإن ما يؤدّي إلى شيء من القدح فيهم والتذكير بهذه النقائص قد يقع رغم ذلك، وليس من النّادر أن يتحصّل الباحث على صور فيها الكثير مما يُخالف ما أُريدَ ترسيخه.

إنّنا لن نتحدّث هنا عن الانتقادات الموجّهة إلى النّخب العلميّة بصفة عامّة – أو إلى بعض الجماعات منها، كالفقهاء بصفة خاصّة – والصادرة في كتابات مختلفة عن جهات عديدة كالشعراء والأدباء، وحتى بعض الفقهاء أنفسهم[2].

كذلك لن نتحدّث عن حالات بعض المؤلفين ممن يمكن اعتبارهم "متطفّلين" على التراجم فجعلوا منها وسيلة ارتزاق بابتزاز معاصريهم، فتلاعبوا بها، كما فعل الفتح بن خاقان (ت.525هـ/1130م) مثلا في كتابيْه: "قلائد العقيان"، و"مطمح الأنفس" عندما ترجم للفيلسوف أبي بكر بن باجة[3].

كما لا يمكن الحديث كذلك عمّا تضمّنته بعض المؤلفات المشهورة والتي هي من صنف التراجم إلاّ أن أصحابها سلكوا فيها مسلك أصحاب الحديث في الجرح والتعديل أكثر من مسلك أصحاب التراجم الملتزمين بمُحدّدات الترجمة كما استقرّت عند عامّتهم[4].

فحديثنا هو بالتالي حول هذا الصّنف الأخير من المؤلفين أساسا، فرغم جهد التّجميل الذي نلاحظه لديهم، فإن "وجه" التراجم، في أحيان عدّة، له "قفا". هذا القفا يلوح لنا من خلال بعض المظاهر في تعاملهم مع التراجم. وخاصّة منها مظهران.

أمّا **المظهر الأوّل** فيتمثّل في ذلك **الاقتضاب المُحيّر** الذي يكتفي به بعض مؤلفي التراجم في التعريف بشخصيّات مشهورة، بل أحيانا هي شخصيّات عاصروها وعرفوها جيّدا، وكان بالإمكان أن يتحدّثوا عنها طويلا

---

[1] - ذكر الغبريني 13 صفة لأحد المترجمين لهم. **نفسه**، أنظر رقم 92، ص.298.

[2] - ومن أشهرها نقد أبي حامد الغزالي للفقهاء – وهو الفقيه أوّلا ثم الفيلسوف والمتصوف – في كتابه الشهير "**إحياء علوم الدين**".

[3] - فقد ذكره في الكتاب الأوّل فانتقده انتقادا لاذعا (أنظر: **قلائد العقيان**، نشر محمد العنابي، تونس 1966، ص.346.) ثم ذكره في الكتاب الثاني – بعد أن أرسل إليه ابن باجة مالا – فمدحه. أنظر: **مطمح الأنفس**.

[4] - ونقصد خاصّة مؤلفات الذهبي (748هـ/1348م) وخاصّة: كتاب "**تاريخ الإسلام**"، وكتاب "**ميزان الاعتدال**".

بما هي أهل له. ونظرا لما في الاقتضاب – والذي يكون أحيانا مُبالغا فيه – من إخلال بصورة المُترجم له إذ ستكون صورته منقوصة وفاقدة لما من شأنه أن يلفت النّظر إلى قيمته أو يزيد في إبرازها – فعلينا أن نرى فيه تعبيرا عن موقف ما من صاحب الترجمة، والذي لا يمكنه أن يكون إلاّ موقفا مُحترزا أو ناقدا أو غير ذلك من المواقف السلبيّة. فهناك مثلا اقتضاب مُحيّر جدّا في ترجمة أبي محمد بن عطيّة الغرناطي (481هـ/1098م-543هـ/1149م) عند مُعاصره أبي القاسم بن بشكوال (494هـ/1101م-578هـ/1183م) في كتاب "الصلة". فهذه الترجمة لم تتجاوز – على وجه الدقّة – الثلاثة أسطر، منها سطر ونصف في ذكر الاسم كاملا، وسطر ونصف نجد فيهما ما يلي: «روى عن أبيه، وأبي علي، ومحمد بن فرج، وأبي محمد بن عتّاب وغيرهم، وكان واسع المعرفة قوي الأدب مُتفننا في العلوم. أخذ الناس عنه. وتوفي رحمه الله في سنة اثنتين وأربعين وخمس مائة»[1].

إنّ الذي لا يعرف أبا محمد بن عطيّة لن تفيده هذه الترجمة في شيء. وقد يمرّ أمامه الاسم فلا يتفطّن له. فأين التنويه بانتساب هذه الشخصيّة إلى بيت جليل يُروى فيه العلم أب عن جدّ؟ وأين التّذكير بتولّيه منصب القضاء بواحدة من مدن الأندلس الرّئيسية – وهي مدينة المريّة – لما يناهز العشر سنوات امتدّت بين سنة 529هـ/1134م-539هـ/1144م؟ وأين الإشارة إلى الميادين العلميّة التي برز فيها وهي كثيرة؟ والقول أنه كان ينظم الشعر كذلك، وهو شعر جيّد. ثمّ وخاصّة أين التوقّف عند كتابه المشهور، كتاب "المحور الوجيز" الذي ألّفه في أهمّ العلوم عند المسلمين، وهو علم التفسير، والذي سيصبح عمدة أهل السنّة المغاربة وجماعات من الصوفيّة في هذا العلم؟[2].

إن هذا الاقتضاب هو في حقيقة الأمر "قفا" حالك لترجمة -هي ترجمته عند ابن بشكوال- تتمتّع بـ "وجه" حامل لكلّ علامات البراءة.

ومثل ذلك قد نقوله في شأن الترجمة التي يوردها أحد مؤلفي التراجم في العهد الموحّدي، وهو أبو جعفر أحمد بن عميرة الضبّي المتوفى سنة 599هـ/1202م في كتابه "بغية الملتمس"، في شأن معاصره الفقيه والفيلسوف والقاضي الموحدي الكبير أبي الوليد بن رشد، صاحب المؤلفات الكثيرة، المتوفى سنة 595هـ/1198م. فقد جاء فيها ما يلي، بعد ذِكر الاسم: «فقيه حافظ مشهور مُشارك في علوم جمّة وله تواليف تدلّ على معرفته. وتوفي بحضرة مرّاكش سنة 595هـ»[3]. هذا كلّ ما جاء في هذه الترجمة والتي تجعل ابن رشد، الفيلسوف، أقرب إلى النّكرة. إلاّ أن هذا المظهر في

[1] - **الصلة**، ج.II ، رقم 828، ص.367.

[2] - أنظر حول كل هذه المعلومات مقدمة المحققان لـ**فهرس بن عطيّة**، ذُكر سابقا.

[3] - الضبي (ابن عميرة)، **بغية الملتمس**، مدريد 1885، رقم 39.

تعامل المؤلفين مع التراجم يبقى محدودا من حيث نتائجه "السلبية" على صعيد البحث في قضايا النّخب العلميّة وصورها. نعم، هو يحرم الباحثين من معلومات كثيرة كان بإمكان المؤلف أن يوفّرها لنا. كذلك هو مظهر يبعث على وضع التساؤلات حول أسباب هذا الإقتضاب، إلا أنّ هذه التساؤلات تدور في الواقع حول المؤلف أكثر منها حول المُترجم له، والذي لا يتغيّر شيء في صورته بسبب ذلك الاقتضاب، لأنه في نهاية الأمر ليس سوى تلخيص شديد لحياته، لكنه تلخيص أمين.

لذلك نجد في **المظهر الثاني** من مظاهر تعامل المؤلفين مع التراجم أهمية أكبر من حيث التأثير على الأبحاث، إذ هو يُمكننا من "قفا" حقيقي لـ "الوجه" الذي تُعطيه لنا التراجم، وهو "الوجه" الذي يقع تجميله عادة. ويتمثّل هذا القفا في الانسياق، في ترجمة من التراجم، وراء **الحديث عن معطيات أو مواقف تتعلّق بأحد العلماء فيها كثير ممّا يتناقض أو يناقض ما قيل عنه في ترجمته المباشرة** سواء كانت تلك الترجمة في نفس المصدر أو في مصدر آخر، وهي قد تفضي إلى وجه آخر في صورته، أي "قفا" لها. ونحن نلاحظ أن هذا الانسياق مقصود إلاّ أن هذا القصد يأتي دائما في إطار تمجيدي وتجميلي أريد به صاحب الترجمة الحقيقي وليس للحطّ من قيمة من وردت تلك المعطيات في شأنه.

وغني عن القول أن ملامح هذا "القفا" تزداد وضوحا كلّما وسّعنا دائرة المصادر التي نستغلّها، فجمعنا حول الشخص الواحد كلّ ما قد يرد عنه في تراجم غيره في نفس المصدر الذي يحتوي ترجمته أوّلا، ثم في كتب التراجم الأخرى ثم كذلك في اصناف المصادر الأخرى غير التراجم؛ أي إذا طبّقنا ما ينتهج في المقاربة البروزوبوغرافية من تكوين ملف حول الشخص الواحد يقع فيه جمع كل ما يعترضنا حوله من معلومات جلّت قيمتها أو دقّت، فتزداد عندئذ كلّ ملامح "الوجه" عنده وُضوحا، وقد يَزداد "القفا" عنده انكشافا؛ وفي كلّ ذلك يغنم المؤرّخ اقترابا أكثر من الحقائق التاريخية. **والأمثلة التالية** من شأنها أن تُبيّن لنا أهمّية هذا المسلك في تحقيق ذلك والكشف عن وجوه أخرى لشخصيات عملت التراجم المباشرة على أن لا تُبرز منها سوى وجه واحد.

المثال الأول نأخذه من كتاب ابن عبد الملك المرّاكشي – الذي أشرنا إليه آنفا – والذي يمثّل أهمّ كتاب يمكن التعرّف من خلاله على النّخب العلميّة في العهد الموحّدي. فقد امتدّ هذا العهد من سنة 541هـ/1156م حتى سنة 668هـ/1269م، وعاش المرّاكشي بين سنة 634هـ/1237م، وسنة 703هـ/1303م وقد كنّا أشرنا إلى مدى اهتمام هذا المؤلف بالتفاصيل وجمع المعلومات حول الشخصيات التي ترجم لها.

فمن التراجم التي تعترضنا عنده **ترجمة شخص باسم أبي جعفر أحمد بن أبي غالب الداني**. فبعد أن ذكر اسمه كاملا أضاف ابن عبد الملك

قائلا: «داني، روى عن أبيه وروى عنه ابنه أبو الرّبيع»[1]. هذا هو كلّ الترجمة. فلا شيء فيها يُثير الاهتمام؛ ويمكن الاعتقاد أن الشخص قد "تمتّع" بترجمة لأنه من الشخصيات التي احتفظت بها الذاكرة الجماعية لأنه يحمل شيئا من المعرفة – نبقى في حقيقة الأمر جاهلين لنوعيتها – رواها عن والده، وقام ابنه بروايتها عنه. فالشخص يبقى نكرة تقريبا بالنسبة إلينا ولم يعتن ابن عبد الملك حتى بتحديد تاريخ وفاته فضلا تاريخ ولادته. ونحن نلاحظ أنه وضعه بين شخصيتين توفيت الأولى – وهي التي قبله – سنة 635هـ/1238م والثانية سنة 624هـ/1227م.

لكن عندما نوسّع دائرة البحث في التراجم، نكتشف أن أبا جعفر هذا شخصية جدّ هامّة على أكثر من صعيد، وذلك بفضل معلومات أخرى نكتشفها حوله، لكنها وردت في ترجمة ابنه أبي الربيع، فنكتشف أن أبا جعفر تولّى القضاء للموحدين، وأنه كان له اتصال وثيق بأحداث ثورة قامت ضدّهم – وبالتحديد في عهد أبي يوسف يعقوب المنصور الذي حكم بين 580هـ/1184م و595هـ/1198م وكانت له مساهمة في هروب زعيم هذه الثورة من السجن ممّا أدّى إلى اعتقاله والأمر بضربه ألف سوط، توفي من جرائها عند بلوغ الخمسمائة.

وكما ذكرنا آنفا وردت هذه المعلومات في ترجمة لولد أبي جعفر هذا ويُسمى أبو الربيع سليمان لكن في كتاب تراجم آخر، رغم أن ابن عبد الملك ترجم كذلك لهذا الابن، فأورد الاسم كاملا ثم أضاف معلومات قليلة، جاء فيها «روى عن أبيه، وكان كاتبا محسنا، شاعرا مطبوعا» ليمدّنا بأمثلة من شعره، نلاحظ أن بعضه في سفرجلة و الآخر في شمعة[2]. وصفة الشعر هذه هي التي جعلت أحد مؤلفي التراجم يهتم بأبي الربيع هذا ويخصّه بترجمة قدّم لنا فيها تلك المعلومات الثمينة حول والده فكشف لنا عن وجه آخر لهذه الشخصية[3]؛ وهو وجه لم نكن لنرتاب في وجوده ولو للحظة باعتماد ما قاله ابن عبد الملك المرّاكشي.

ويتعلّق **المثال الثاني** الذي نريد التوقف عنده بأحد أكبر الشخصيات الأولى المؤسسة للتوجهات الثقافية التي ستسود بالأندلس طوال تاريخها، وهي شخصية **يحي بن يحي الليثي** المتوفى سنة 234هـ/848م. فهو تلميذ مالك ابن أنس (ت.179هـ/795م)، وصاحب الرواية الأشهر والأكثر انتشارا لكتاب "الموطأ" والتي عليها اعتماد المالكية، وهو كذلك أحد أكبر فقهاء الأندلس على الإطلاق[4]. فأي صورة نخرج بها حوله عند عدم الاكتفاء بما

---

[1] - ابن عبد الملك المراكشي، **الذيل والتكملة**، ذُكر سابقا (إحالة 17)، ج.I، تحقيق محمد بن شريفة، رقم 433، ص.344.

[2] - **نفسه**، ج.IV، تحقيق إحسان عباس، رقم 133، ص.57.

[3] - ابن سعيد الأندلسي، **اختصار القدح المعلى**، تحقيق إبراهيم الأبياري، ترجمة رقم 21، ص.123.

[4] - أنظر حول يحي بن يحي: Fierro (M.), « Yahya b. Yahyā al-Layyhī », *EI*$_2$, T.XI, pp.268-269.

تقوله التراجم المباشرة التي وضعت له؟ إنها صورة فيها الكثير مما لا يتماشى وما تضمنته هذه التراجم، بل فيها ما يناقض الانطباع العام الذي عملت على ترسيخه لدينا حوله.

واستقصاء كل المصادر التي تحدثت عن يحي بن يحي أمر غير ممكن في نطاق هذه الدراسة، لذلك رأينا الاكتفاء بعيّنة تتمثّل في ثلاث مصادر مشهورة لكنها مختلفة من حيث نوعيتها. أوّل هذه المصادر هو كتاب التراجم الذي يقع البدءُ به كلما تعلق الأمر بالنّخب الثقافية الأولى في الأندلس للتعرّف عليها، وهو "كتاب تاريخ علماء الأندلس" لأبي الوليد بن الفرضي (ت.403هـ/1012م) الذي اهتمّ إجمالا برجال القرون الهجرية الأربعة الأولى. وثاني هذه المصادر هو أشهر كتب التاريخ الأندلسية التي اهتمت بتفاصيل نفس هذه الفترة من حيث الأحداث السياسية لكن مع إيلاء أهمية بالغة للشخصيات العلميّة وأدوارها فيما يشبه التراجم التي تتخلل سرد الأحداث، ونقصد كتاب "المقتبس" لأبي مروان بن حيان (ت.469هـ/1076م). أما المصدر الثالث فهو أحد المصادر المتأخرة نسبيا التي اهتمت بتاريخ بلاد المغرب عامّة، لكنه أشهرها وأوْعبها على الإطلاق، ونقصد "كتاب البيان المغرب" لأبي العباس بن عذاري (يكتب سنة 712هـ/1312م) والذي اهتم بالتفاصيل السياسية لهذا التاريخ لكن مع عدم إهمال الإشارة إلى وفيات الشخصيات العلميّة الهامّة مع مصاحبة هذه الإشارة ببعض العبارات القليلة جدّا أحيانا لكنها تلخّص ما يرى المؤلف أن تحتفظ به الذاكرة الجماعية حول هذه الشخصية أو تلك.

فقد حاول ابن الفرضي على عادته تلخيص ما يراه مُعطيات رئيسيّة حول المُترجم له عنده فأتت ترجمة يحي بن يحي في صفحتين تقريبا تضمنت التعرّض إلى نسبه وإلى شيوخه بالأندلس ثم الإشارة إلى رحلته إلى المشرق وتتلمذه المباشر على مالك ابن أنس وعلى عدد من كبار الشيوخ كالليث بن سعد. كما تعرّضت هذه الترجمة إلى بعض مواقف يحي الفقهية وإلى مكانته في الأندلس وما حظي به، مُلخِّصةً في ذلك عددا من الآراء فيه؛ من ذلك أن يحي انصرف «إلى الأندلس فكان إمام وقته [و] واحد بلده، وكان رجلا عاقلا» وأنه «لم يُعط أحد من أهل الأندلس منذ دخولها الإسلام من الحظوة وعظم القدر وجلالة الذكر ما أُعطيه يحي بن يحي»[1]. فيحي هو واحد عصره علمًا، ويتميّز بعقل راجح، وفاق الجميع بعظمة القدر بين رجال عصره، وكذلك هو لا يُذكر إلا بخير وإجلال.

وموضوع عظمة القدر والمكانة من ناحية، وجلالة الذكر من ناحية ثانية، هو الذي نريد فقط مُتابعته في بقية المصادر، لأن هذه الترجمة تثير في الواقع عديد القضايا الأخرى وذلك سواء بما ذكرته أو أشارت إليه أو بما سكتت عنه وأغفلته في حياة هذه الشخصيّة.

---

[1] - ابن الفرضي، **تاريخ**، ذُكر سابقا، ج.II ، رقم 1557، ص.176-177.

فنحن نُطالع ما ورد في شأن يحي بن يحي عند ابن حيان فنجد بالفعل ما يؤكّد هذه المكانة وما يؤكّد عظمة القدر وذلك على حدّ سواء عند رجال السياسة وعند رجال العلم؛ وقد كان ذلك خاصّة مدّة الأمير عبد الرحمن الأوسط (حكم بين سنة 206هـ/821م، وسنة 238هـ/852م)، إلّا أنّ كلّ ذلك ليس في اتجاه "المضمون" الايجابي الذي يوحي به استعمال هذه العبارات عند ابن الفرضي إذ أن الأمر أقرب – من خلال ما نجده عند ابن حيان – إلى التسلّط، من جهة يحي وإلى الخوف منه، من جهة الأمير وجهة أعداد من العلماء، وركيزة ذلك تكمن أساسا فيما توصّل إليه يحي من نسج لشبكة علاقات مع عدد من الفقهاء أصبحوا يمثلون نوعا من البطانة المُطيعةً له والملتفة حوله والتي يقوم أفرادها بمساندة بعضهم البعض مما جعل تأثيرهم – وخاصّة تأثير زعيمهم – قويّا جدّا. فلا أحد يُعيّن مثلا في منصب ديني أو قضائي إلاّ ليحي وجماعته رأي فيه. فيأمرون بمن يريدون تعيينه ويتوصلون إلى عزل من يريدون، «فكان الأمير عبد الرحمن – يقول ابن حيان – يكره تألبهم، ويقلق منهم، ويسميهم " سلسلة السوء"»[1]. فقد نظر البعض إذن إلى يحي بن يحي في زمنه على أنه زعيم لنوع من "العصابة". فأين نحن من جلالة الذِّكر التي أكّد عليها ابن الفرضي في ترجمته له. فهذا "الوجه" لا يظهر له بالمرّة.

وبهذا الدور كان يحي بن يحي إذن عبئاً على الكثير من أهل عصره. وصفة العبء هذه، هي التي نلاحظ أن مصدرنا الثالث – وهو ابن عذاري – أراد الاحتفاظ بها وترسيخها في الذاكرة الجماعية دون غيرها من الصفات، فقال حول سنة 234هـ/848م، وفيها «توفي يحي بن يحي فاستراح القضاة من همّه»[2].

ونريد مع **<u>المثال الثالث</u>** التوقّف عند مدى الاختلاف الذي نتحصّل عليه في صورة أحد الأفراد البارزين ضمن النّخبة العلميّة في الحضارة العربية الإسلامية على العموم؛ وذلك بين "وجه"، عملت جلّ التراجم على الاحتفاظ فيه فقط بكلّ ما هو جميل وعلى إبراز خصال صاحبه، ليتعدى الأمر عند بعض المصادر التاريخية فتَنسب لصاحب هذا الوجه أدوار سياسية؛ و"قفا" يكشف عنه تتبع عدد من التراجم الأخرى واقتناص المعلومات العرضية التي تحتويها حول نفس هذه الشخصية، مما يجعل الشكّ يساورنا حول معالم ذلك "الوجه" وخصاله وحول الدور السياسي المسند لصاحبه. **<u>ويتعلّق الأمر بالفقيه المالكي الكبير القاضي أبي بكر بن العربي الاشبيلي</u>** الذي عاش بين سنة 468هـ/1075م، و543هـ/1148م وهو المعروف بغزارة مؤلفاته وخاصّة منها كتابه المشهور "أحكام القرآن"، وكتابه الأشهر في تفسير سنن الترمذي

---

[1] - ابن حيان (أبو مروان)، **كتاب المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، تحقيق محمود علي مكي، السفر الثاني، دار الكتاب العربي، بيروت 1973، ص.66-67.

[2] - ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق و مراجعة ج. س. كولان وإ. ليڤي بروڤنصال، دار الثقافة، ج .II، ط.2، بيروت- لبنان 1980، ص.89.

والمعروف باسم "عارضة الأحوذي" وكتابه الرّائج كثيرا بين أيدي الباحثين، وهو كتاب "العواصم من القواصم"[1]. كما يحتلّ أبو بكر بن العربي موقعا بارزا على صعيد أدب الرّحلة عند المسلمين، بل هو يمثّل علامة فارقة فيه. إذ معه تمّ الانتقال في هذا الأدب من مرحلة حديث العلماء عن رحلاتهم شفويا – وربما التقاط أشخاص آخرين لذلك ثُمّ القيام بتدوينه – إلى مرحلة التدوين لما شاهدوه[2]. فقد كانت لابن العربي رحلة شرع فيها صحبة والده أبي محمد عبدالله -الذي كان أحد رجال دولة بني عباد باشبيلية[3]، وحملتهما من الأندلس إلى المشرق ودامت ما يُناهز العقد. وقد كانت بداية هذه الرّحلة فاتح ربيع الأوّل من سنة 485هـ/1092م[4] أي بعد أشهر قليلة من سقوط دولة بني عبّاد وعدد من الممالك الطائفية على يد يوسف بن تاشفين أمير المرابطين، وعاد منها أبو بكر بمفرده – إذ توفي والده أثناءها سنة 493هـ/1099م[5] - فوصل إلى الأندلس في تاريخ أُختلفت حوله، قد يكون سنة 493هـ/1099م[6]، أو سنة 495هـ/1101م[7]، وقد دوّن أبو بكر بن العربي تفاصيل هذه الرّحلة في كتاب سمّاه "ترتيب الرّحلة للتّرغيب في الملّة"؛ إلاّ أن هذا الكتاب ضاع – حسبما صرّح به هو نفسه – فقام بتلخيص شيء منه في كتاب آخر سمّاه "شواهد الجلّة والأعيان في مشاهد الإسلام والبلدان"[8].

فنحن نقرأ ترجمة أبي بكر بن العربي عند ابن بشكوال في كتاب "الصلة" – الذي يُمثّل مصدرنا الرّئيسي للتعرّف على النّخبة العلميّة الأندلسيّة في القرن الخامس الهجري، مُكمّلا بذلك كتاب ابن الفرضي – فنجد مدحا كبيرا له، وهو مدح ساهم فيه بلا شكّ تتلمذ ابن بشكوال عليه ومعرفته له عن قرب. فإلى جانب المدح للصفات العلميّة، هناك مدح للأخلاق العالية ومدح كذلك للكيفيّة التي مارس بها أبو بكر القضاء وما تركه ذلك من أثر.

فإلى جانب التّأكيد على رحلته الواسعة، وتعداد أسماء الشيوخ الكبار الذين التقى بهم - والذين نتبيّن فيهم أبا حامد الغزالي (450هـ/1058م-505هـ/1111م) – وصف ابن بشكوال أبا بكر بن العربي علميا بأنه «كان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، مُتقدّما في المعارف كلّها،

---

[1] - أنظر حول أبي بكر بن العربي عامة: Robson (J.), « Ibn al-ʻArabī, Abu Bakr », *EI₂*, T.III, p.72.

[2] - أنظر: Touati (Houari), *Islam et voyage au Moyen Âge*, Seuil, Paris 2000. (stt : Chapitre VIII, « Le voyage et son écriture », p.259 et sq.).

[3] - أشار إلى ذلك القاضي عياض تلميذ أبي بكر. أنظر: **الغنية**، ذُكر سابقا، ترجمة أبي بكر، رقم 10، ص.133-139.

[4] - أنظر: **الصلة**، ج.II ، ترجمة أبي بكر، رقم 1297، ص.558.

[5] - أنظر: عياض، **الغنية**، ص.135.

[6] - هذا هو التاريخ الذي يعطيه ابن بشكوال. أنظر الإحالة 92.

[7] - هذا هو التاريخ الذي يعطيه القاضي عياض. أنظر: **الغنية**، ذُكر سابقا، ص.135.

[8] - أنظر: إحسان عباس، «الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق»، **أبحاث** (بيروت)، السنة 16، حزيران 1963، ص.217-236.

مُتكلّما في أنواعها، ناقدا في جميعها، حريصا على أدائها ونشرها، ثاقب الذّهن في تمييز الصواب». كما وصفه أخلاقيا فقال أنه جمع «آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة، ولين الكتف، وكثرة الاحتمال، وكرم النّفس، وحسن العهد، وثابت الوعد». أما خلال المدّة التي مارس فيها أبو بكر القضاء – وكان ذلك باشبيلية بلده – فقد ذكر ابن بشكوال أن الله نفع «به أهله لصرامته وشدّته ونفوذ أحكامه. وكان له في الظالمين سورة مرهوبة. ثم صرف – يُضيف ابن بشكوال – عن القضاء وأقبل على نشر العلم»[1].
فالصورة لا مزيد عليها من حيث التأكيد على المكانة العلميّة التي تمتّع بها أبو بكر، والأخلاق العالية التي كان عليها وقبول الناس له، ونجاحه في مهمّة القضاء وانتفاع أهل بلده به لتحلّيه بصفات متميّزة، نلاحظ أنّها تدور خاصّة حول صرامته. وقد أضاف ابن خلدون بُعدا آخر لهذه الصورة عندما أكّد أن خروج أبي محمد عبدالله صحبة ابنه أبي بكر إلى المشرق كان في الواقع في إطار مُهمّة سياسية هدفها التحصّل على عهد من الخليفة العباسي لفائدة يوسف بن تاشفين. وهو أمر أنجزه – دائما حسب ابن خلدون – وأضاف إليه رسائل تأييد مختلفة، وخاصّة فتويين في التنويه بيوسف وتأييده، واحدة لأبي حامد الغزالي والأخرى لأبي بكر الطرطوشي الأندلسي، الفقيه المالكي الكبير المستقرّ آنذاك بالإسكندرية (451هـ/1049م-520هـ/1126م)[2].

لكن هذه الصورة تأخذ في الاهتزاز شيئا فشيئا – على الأقلّ في بعض ملامحها – مع البحث في تراجم آخرين ممن عاصرهم ابن العربي ومع تراكم المعلومات المتناثرة هنا وهناك حوله، وهذا بقطع النظر عن بعض التساؤلات التي تُثيرها الترجمة ذاتها عند ابن بشكوال[3]. بل أن هذا الاهتزاز يتأكّد عندما نراجع هذه الترجمة من حيث بعض تأكيداتها، وذلك على ضوء "تصريحات" أبي بكر نفسه في بعض مؤلفاته.

فنحن نطالع مثلا كتابا رئيسيّا آخر من كتب التراجم الأندلسية، وهو كتاب "التكملة" لأبي عبدالله بن الأبار البلنسي (595هـ/1199م-658هـ/1260م) – والذي يكمّل كتابيْ ابن الفرضي وابن بشكوال – وذلك في ترجمة فقيه اشبيلي آخر، لكنه مال أكثر للزّهد، وهو أبو بكر بن مجاهد، فنلاحظ أن هذا الفقيه سعى إلى التتلمذ على أبي بكر بن العربي فـ «لازم مجلسه – يقول ابن الأبار – نحوا من 3 أشهر، ثمّ تخلّف عنه. فقيل له في ذلك؟ فقال: كان يُدرّس وبغلته عند الباب ينتظر الركوب إلى السلطان»[4]. فهذا النّوع من الوصف

---

[1] - أنظر الإحالة 92.

[2] - ابن خلدون (عبد الرحمان)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، منشورات الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت 1959، جVI ، ص.386.

[3] - من ذلك مثلا التساؤل لماذا ذكر أن أبا بكر لقي في رحلته أبا حامد الطوسي، وهي نسبة أخرى للغزالي وأقل شهرة منها؟

[4] - ابن الأبار، **التكملة**، ذُكر سابقا، ترجمة ابن مجاهد، ج.II ، ص.522، رقم 1423.

خطير في شأن العلماء الكبار، إذ هو منطوي على تهمة التملّق للسّلطة والانصياع لأوامرها، وهي نقيصة من النّقائص المتّفق على خطورتها في سلوك العلماء ومُخلّة إخلالا كبيرا به.

كما نتوقّف مع بعض المعلومات التي نلتقطها عند موضوع ممارسة أبي بكر للقضاء فيؤول بنا الأمر إلى صورة مغايرة لتلك التي نتحصّل عليها من خلال كلام ابن بشكوال والتي تدفعنا إلى الاعتقاد في أن أبا بكر نجح في ذلك إلى حدّ بعيد وأنّ أهل اشبيلية انتفعوا به.

فنحن نلاحظ أوّلا أن ابن بشكوال لم يُحدّد لنا المدّة التي بقي فيها أبو بكر على رأس هذه الخطّة والتي نكتشف أن كتاب تعيينه فيها كان «بتاريخ يوم الخميس منسلخ جمادى الآخرة سنة 528هـ (1138م)»[1]. أما تاريخ نهايتها فلم يمدّنا به أي مصدر بصفة واضحة ودقيقة لكننا نفهم أنها كانت خلال سنة 529هـ/1139م[2]. فالمدّة إذن كانت قصيرة، ولم تتجاوز في أقصى الحالات السنة ونصف السنة. إلاّ أن ذلك ليس بالأمر الهامّ في حدّ ذاته بقدر أهمّية الكيفية التي انتهت بها هذه المدّة. فقد كانت نهايتها "كارثيّة" بالنسبة لهذا القاضي، إذ ثار الناس ضدّه ولاحقوه وكاد الأمر يأتي على حياته، وذلك أساسا بسبب الكيفية التي مارس بها القضاء، «وذلك – يقول ابن عذاري – أنه كان له في عقاب الجناة اختراعات مهلكات ومُضحكات» وأنه «ظلّ يُوالي التشدّد والتسلّط حتى ثقل على الفساق والأشرار فهاجوا»[3]. «فأوذي في ذلك – يقول أبو الحسن النباهي في تراجمه للقضاة – بذهاب كتبه وماله. فأحسن الصبر على ذلك كلّه»[4].

إلاّ أنّنا لن نجد أفضل من أبي بكر نفسه ليحدّثنا عن هذا الموضوع عندما أشار في بعض مؤلفاته إلى تولّيه القضاء وشدّته فيه وما آل إليه أمره، فقال: «واشتد الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألّموا وألّبوا وثاروا إلي، فاستسلمت لأمر الله، وأمرت كل من حولي ألاّ يدفعوا عن داري وخرجت على السطوح بنفسي، فعاثوا عليّ، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدّار»[5]. فالرجل هرب من العامّة، ولجأ إلى السطوح، وكاد أن يُقتل. وهذا بالطبع وجه آخر – مُغاير – للصّورة التي تترسّخ لدينا من خلال حديث ابن بشكوال عن ممارسة أبي بكر بن العربي للقضاء.

ورغم أن موضوع المُهمّة السياسية التي يكون أبو محمد بن العربي قد كُلّف بها، ثم أكملها ولده أبو بكر هو موضوع لم يرد في كتب التراجم و

---

[1] - ابن عذاري، **البيان المغرب،** ذُكر سابقا، ج IV، ص.92.

[2] - **نفسه،** ص.93.

[3] - نفس الإحالة.

[4] - النباهي (أبو الحسن)، **كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا** (المعروف بتاريخ قضاة الأندلس)، تحقيق إ. ليڤي بروڤنصال، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط.5، 1983، ص.106.

[5] - أنظر: ابن العربي (أبو بكر)، **العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم،** تحقيق وتعليق محبّ الدين الخطيب، 1371هـ، ص.137-138.

تفرّد ابن خلدون بالإشارة إليه. ورغم تشكيك بعض الدّراسات في هذا التّكليف[1]، فإنّه علينا التوقّف عنده قليلا لأن التراجم تمدّنا بصفة غير مباشرة بما يُثري النّقاش حول هذا الموضوع، وهو أمر لم تتفطّن إليه الدّراسات، وبالتالي لم تستغلّه.

فرحلة أبي بكر بن العربي انتهت – في أقصى تواريخها – سنة 495هـ/1101م – ويكون هذا الفقيه قد عاد عندئذ بالعهد العباسي المُعترف بسلطة يوسف بن تاشفين وتوسّعاته، وعاد بعدد من الرسائل وبفتوى كل من أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي؛ وبالتالي علينا أن نعتقد بالضرورة أنه منذ ذلك التاريخ أصبح أبو بكر بن العربي شخصا مُقرّبا من السلطة وفي خدمتها وبإمكانه تولّي المناصب، وهو على مشارف الثلاثين من عمره، وكان قد تحصّل على زاد علمي أصبح ينقل شيئا منه إلى الطلبة[2]. إلاّ أن تقدّمه في التراجم يجعلنا في حيرة أمام قضيتين على الأقلّ تدخلان في هذا السياق.

القضيّة الأولى تتمثّل فيما نلاحظه من أن أبا بكر بن العربي لم يتولّ أي منصب للمرابطين حتى سنة 528هـ/1134م – حين تولّى منصب القضاء باشبيلية – كما أشرنا آنفا – أي بعد ما يفوق الثلاثين سنة من عودته من المشرق وقد بلغ بعد الستين من عمره. وهو أمر داع إلى التساؤل، إذ كيف يمكن للسلطة أن تتجاهل هذه الشخصية، إن كانت حقا قد خدمتها سياسيا ونجحت في ذلك؛ فعياض السبتي تلميذ أبي بكر، والذي يصغره سنّا – إذ ولد سنة 476هـ/1083م – ولم يقم بأية رحلة إلى المشرق فضلا عن التكفّل بمهمة سياسية – إن كانت لأبي بكر ووالده بالفعل مهمّة – تولى القضاء بسبتة منذ سنة 515هـ/1121م وهو لم يبلغ الأربعين بعد[3].

لكن **القضيّة الثانية** أدعى إلى الحيرة أكثر في رأينا فيما يتعلّق بموضوع هذه المهمّة السياسية. فنحن نكتشف في ترجمة أحد تلاميذ أبي علي الصدفي (ت.514هـ/1120م) في كتاب "المعجم" الذي ألّفه أبو عبدالله بن الأبار خصّيصا لإحصاء هؤلاء التلاميذ والترجمة لهم – وهذا التلميذ ليس سوى أحد كبار ولاة المرابطين وهو أخو الأمير نفسه ويُسمّى إبراهيم بن يوسف، ويعرف بابن تاعيّشت، وقد ولي مرسية حيث سمع على أبي علي ثم ولي اشبيلية بلد أبي بكر – نكتشف أن أملاك بني العربي – والتي كانت واسعة بلا شكّ – اعتقلها المرابطون عند دخولهم اشبيلية، وأنها بقيت كذلك حتى تاريخ قدوم هذا الوالي إلى إشبيلية، فتدخل عندئذ أبو علي الصدفي لدى كاتب الوالي حتى يُخاطبه ويتوسّل إليه «في – يقول ابن الأبار – ردّ أملاك أبي محمد بن

---

[1] - أنظر دراسة إحسان عباس أعلاه (إحالة 96).

[2] - ذكر عياض أبا بكر بن العربي فقال أنه: «اجتاز ببلدنا عند انصرافه من المشرق فكتبت عنه حينئذ فوائد من حديثه وناولني كتاب...وحدثني بكتاب...وقرأت عليه: "مسألة الإيمان اللازمة" من تأليفه. و أجازني جميع رواياته». **الغنية**، ذُكر سابقا، ص.136.

[3] - أنظر حوله: Talbi (M.), « ‘Iyaḍ b. Musā », *EI₂*, T.IV, pp.302-303.

العربي المعتقلة على ابنه القاضي أبي بكر...فتمّ ذلك لما استقر هناك»[1].
وكان استقرار الوالي الجديد
باشبيلية بداية من سنة 511هـ/1118م[2].

فأملاك أبي بكر بن العربي التي ورثها عن والده بقيت محتجزة حتى هذا التاريخ على الأقلّ، أي بعد خمس عشرة سنة من عودته من المشرق و"نجاح مهمّته"، وكأن أبا بكر هو أحد أعداء السلطة وليس أحد أعوانها والعائد بذلك العهد وتلك الرسائل والفتاوى المؤيدة لها، مما يشكّك كثيرا في تلك المهمّة السياسية ويجعلها مُستبعدة. فالتراجم تمدّنا هنا بمؤشرات قويّة تُساهم في الحسم أكثر في شأن موضوع يثير النقاشات.

نعم، إن علاقة أبي بكر بن العربي بالمرابطين ستعرف تطورات كبيرة بعد هذا التاريخ وستسير نحو تقارب شديد، وهو موضوع هام لكنه خارج عن نطاق بحثنا، و نكتفي حوله بالقول أنه منذ سنة 515هـ/1121م حفّت ظروف جديدة بأوضاع السلطة المرابطية، ظروف أوجدتها بداية تحرّكات محمد بن تومرت العائد من المشرق بعد رحلة شابهت كثيرا رحلة أبي بكر بن العربي في مدّتها وفي بعض الأساتذة الذين التقى بهم، والذين من بينهم ربما أبو حامد الغزالي[3]. وكما هو معروف أخذت هذه التحركات شكل الانتفاضة القبليّة والدعوة إلى قتال المرابطين، ولكن كذلك شكل المنظومة الدعائية القائمة على تفكير يُثير عديد القضايا العقديّة والفقهية. وقد كان على السلطة القائمة مواجهة كل ذلك، أي إعداد الجيوش للقتال لكن كذلك تجنيد العلماء للردّ على ما تثيره الدعاية التومرتية[4]. وقد كان أبو بكر بن العربي من العلماء الأنسب لمثل هذا التجنيد، ومن الذين لا يمكن التغافل عنهم في ظل تلك الظروف الجديدة.

خاتمة: إن القارئ للأسطر السابقة – ولو على وجه السرعة الشديدة – ينتبه بلا شكّ إلى ملاحظتين بارزتين. أولاهما، وهي عابرة، أن جلّ أمثلتنا المذكورة وحالات العلماء التي اخترناها، مأخوذة من كتب التراجم الأندلسيّة، وهذا راجع فقط لقلّة جهلنا بها ولعدم إلمامنا بالقضايا العميقة لكتب التراجم المشرقية. أما الثانية، فهي أن اهتمامنا في هذا البحث كان موجّها إلى "القفا" أكثر منه إلى "الوجه". وهذا كذلك من السهل تفسيره.

---

[1] - ابن الأبار، **المعجم في أصحاب القاضي الصدفي**، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، بيروت 1989، ص.63 ضمن ترجمة إبراهيم بن يوسف بن تاشفين (رقم 40).

[2] - أنظر حول هذا التاريخ: ابن عذاري، **البيان المغرب**، ذُكر سابقا، ج.VI، ص.106.

[3] - أنظر: عمر بن حمادي، «الغزالي وتلامذته المغاربة»، ذُكر سابقا.

[4] - أنظر حول هذه الدعاية: عمر بن حمادي، «الصراع الدعائي أثناء الثورات: التراشق بالألقاب بين المرابطين والموحدين»، صدر ضمن **أشغال الملتقى الدولي حول الحركات الاجتماعية في العالم العربي الإسلامي**، تنظيم مخبر تاريخ العالم العربي الإسلامي الوسيط، تونس 10-12 أفريل 2008، جامعة تونس 2011، ص.357-390.

ففضلا على أن "الوجه" في تراجم النّخب العلميّة معروف، سواء كان ذلك على مستوى الاستعمال، إذ أن كل الباحثين يُمجّدون استعمال التراجم والعودة إليها واستغلالها في بحث عديد القضايا؛ أو على مستوى الصورة التي تعطيها هذه النّخب، فهي صورة مُشرقة وتجسّم أمثلة يجب الاقتداء بها. فضلا عن هذا كلّه، يمثّل الاهتمام بـ "القفا" مسلكا مفضلا عند المؤرخ، بل هو المسلك الطبيعي، إذ هو في سعي دائب للكشف عمّا هو خافٍ، وغير مُعلن، أو قيل بصفة ملتبسة. وهذا السعي لا يُمثّل استجابة إلى هواية عنده أو ميل إلى تتبّع العيوب أو الكشف عن الأعوار؛ بل لمحاولة الاقتراب من الحقيقة التاريخية في كلّ مكوّناتها؛ والاقتراب منها، لا كما تُقال له، بل كما يصل إليها بأدواته، وبالتالي يصبح اللجوء عنده إلى كتب التراجم ليس بحثا **عن** تراجم بل بحثا **في** التراجم، لأن من جملة قناعات المؤرخ أن الترجمة هي نوع من الخطاب، يتوجه فيه المؤلف إلى الآخرين، أي إلى الأجيال اللاحقة، ويعمل من خلاله على تثبيت صورة. هذه الصورة فيها الكثير مما يَفصل المُترجم له – في إطار ترجمته المباشرة – عن مجتمعه وعن واقعه المُعاش لتجعل منه "أنموذجا" يُقتدى به، واهتمام المؤرخ بـ "قفا" هذه الصورة يمكّن إلى حدّ كبير من إرجاع المُترجم له إلى مجتمعه وإلى واقعه المُعاش، أي جعله أقرب إلى حقيقته التاريخية، وهو ما يريده المؤرخ.

إلا أن تحقيق ذلك بصفة علميّة أمر صعب ومُضن ومُتطلّب لوقت كثير إذ هو يستدعي فيما يستدعيه قيام الباحث بالتجريد الكلّي للمصادر التي يهتمّ بها، حتى وإن كان بحثه يتعلّق بشخصيّة واحدة. وهذا الأمر، إن كان الحاسوب يُذلّل الكثير من صعوباته بتكوين قاعدة معلومات تعتمد التجريد الكلّي للمصادر، إلا أن ذلك يتطلّب تضافر الجهود في إطار فرق بحث ويتطلّب مرونة كبيرة في استغلال ما يقع تخزينه من معلومات وسهولة في النفاذ إليها في كل وقت. هذا مع الإشارة إلى أن استغلال الحاسوب فيه هو الآخر "وجه" و"قفا". فالمعلومات التي تحتويها الترجمة ليست كلّها مثلا قابلة لأن تُخزّن فيه. فالتّخزين لا يقع إلا لما قيل فيها صراحة سواء في ترجمة المعني بالأمر أو في ترجمة غيره. أما ما قيل ملتويا، أو مُلتبسا في عباراته أو في تراكيبه، أو تلك المعلومات التي لا تأخذ معناها إلا في سياق الجمل أو الفقرات الّتي أتت فيها أو باجتهاد من الباحث، فذلك مما لا يستطيع الحاسوب تخزينه أو التفطّن إليه.

كتب الطبقات: ظهورها ودورها ومحتواها وخصائصها دراسة تحليلية

محمد شافعي مفتاح بوشية
كلية الشريعة والقانون/ ماليزيا

المقدمة

إنّ تاريخ الأمة الإسلامية يزخر بطائفة متنوعة من العلوم المختلفة المجالات والعلماء النابغين النابهين الذين قدموا للبشرية نتاجًا علميا باهرًا امتلأت به مكتبات الشرق والغرب، وقد أسهم كل علم من هذه العلوم بنصيبيه في تقدم الأمة ونهضتها، وذلك لأن العلوم حلقة متصلة يخدم كل علم منها الآخر لاسيما العلوم الشرعية واللغوية. ومن بين تلك العلوم علم الطبقات والذي يعنى بدراسة أحوال الشخصيات الشهيرة في الفنون المختلفة وفي العصور المختلفة، حيث يقدم صورة واضحة عن حياتهم وإنجازاتهم التي قدموها للأمة.

وتمثل كتب الطبقات نمطا من المصادر الإسلاميّة الفريدة من نوعها، فهي لم تظهر في الحضارات الأخرى، وجاءت لتلبية الحاجة لتتبع انتقال المعرفة أو العلم من جيل إلى جيل. وقد ظهر هذا العلم في مرحلة مبكرة من تاريخ الامة الإسلامية، وكانت بداية ظهوره مرتبطة بعلوم السنة إلا أنه توسع فيما بعد وشمل علوما أخرى، وقد برزت جهود العلماء في هذا المجال بشكل واضح نتج عنه مكتبة تراثية ضخمة من المصنفات ظهر بعضها للوجود محققًا، ولا زال الكثير منه حبيس أدراج خزانات المخطوطات في الشرق والغرب تحتاج لمن ينقب عنها ويستخرج دررها.

<u>المبحث الأول: التعريف بعلم الطبقات ونشأته وأهميته</u>

علم الطبقات عبارة عن مركب من كلمتين" علم" و"طبقات"، ويجدر بنا في بداية البحث أن نلقي الضوء على تعريف كل كلمة على حدة لنخلص إلى تعريف عام للمركب. فالعلم له تعريفات عديدة، أشهرها أنه في اللغة نقيض الجهل، وفي الاصطلاح: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكاً جازماً. أو هو الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل[(1)]. والطبقات: جمع طبقة، وبالرجوع إلى كتب اللغة والتعريفات لبيان هذه اللفظة يتضح الآتي: أن الطَّبَقُ (بفتح الباء) هو الغِطاءُ لكلِّ شيءٍ، وجمعه:أطْباقٌ وأطْبِقَةٌ، والطَّبَقُ أيضاً من كلِّ شيءٍ: ما ساواهُ، ويطلق أيضًا على القَرْنُ من الزمانِ، ويطلق على مدة عشرين سنة أيضًا، والجذر المتعلق بهذه الكلمة هو"طبق" وهو

---

(1) التعريفات:ص199.للإمام علي بن محمد بن علي الجرجاني، تحقيق.إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي– بيروت- الطبعة الأولى، 1405هـ.

مستخدم في الآية القرآن بمعنى الحال قال تعالى (لتركبُنَّ طبقاً عن طبق)[1].
والطبقة هي الجيل بعد الجيل أو القوم المتشابهون في سن أو عهد والحال والمنزلة والمرتبة والدرجة [2].
ولا غرو أن يكون مصطلح "الطبقات" مصطلح إسلامي بحت تطور في بدايات القرن الثاني من الهجرة مع تطور نقد علم الحديث للإسناد، وأن الطبقة لم تستعمل وحدة زمنية محددة أو ثابتة، بل كانت تعتمد على اللقيا في المقام الأول، وهذا ما جعل مفهوم الطبقة يختلف من مؤلِف لآخر، بل ومن كتاب لآخر عند المصنِّف الواحد [3].

وأشهر إطلاقات الطبقة في اللغة هي:

1 – ما يغطي الشيء ويغشيه.
2- القوم المتشابهون في شيء معين.
3- المرتبة والمنزلة والدرجة [4].

وفي الاصطلاح لها معانٍ:

1 - القوم المتشابهون أو المتقاربون في الإسناد أو لقاء المشايخ.
2-الجيل بعد الجيل: كجيل الصحابة وجيل التابعين.

---

(1) سورة الإنشقاق: الآية(19) وقد وردت مادة طبق بتصريفاتها المختلفة في القرآن الكريم أربع مرات في ثلاث آيات؛ منها مرتان في آية الانشقاق السابقة، ومنهـــا قوله تعالى في الآية 15, سورة نوح:(ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقًا). والثالثة في قوله تعالى في الآية 3, سورة الملك:(الذي خلق سبع سموات طباقًا).

وفي لسان العرب "طبق": (وطبق كل شيء : ما ساواه, وتطابق الشيئان تساويًا ,والمطابقة الموافقة... وعن الزجاج أن معنى قولـه تعالى" طباقًا", مطبق بعضها على بعض؛ وقال الزمخشري في أساس البلاغة "طبق": والناس طبقات: منازل ودرجات بعضها أرفع من بعض).

ولا يتسع هذا البحث الموجز للتوسع في بيان معنى الطبقة واشتقاقها أكثر من ذلك، وحسبنا هنا أن ملخص كلام مفيد لبعض الباحثين المعاصرين، وهو الباحث جهاد المجالي، حيث قال معقبا على الكلمة في الآيات السابقة: ومعنى لفظة طبقة بتصريفاتها المختلفة في الآيات السابقة, كما هو واضح موافق لمعنى التطابق الرأسي..، بمعنى آخر أن الطباق معناه:أن تجعل الشيء فوق آخر بقدره، وكلمة طبقة بشتى تصرفاتها وردت في كتب الحديث الستة ومسند أحمد بن حنبل تسعًا وتسعين مرة في سبعة وسبعين حديثًا, وبمعانٍ مختلفة. أ هـ.

وقال أيضًا:ومن المعاني التي تدل عليها كلمة "طبقة" معنى الحال, فلقد أطلقوا على أحوال الناس كلمة "طبقات", وبالتالي أصبحت كل حال مفردة" طبقة". فقالوا: "فلان من الدنيا على طبقات شتى"؛ أي أنه ذو أحوال ومذاهب مختلف.

أ هـ كلامه بتصرف من كتابه: طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب حتى نهاية القرن الثالث الهجري.- بيروت: دار الجيل؛ عمان - الأردن : مكتبة الرائد العلمية،1412هـ/1992م, ص:18: 19: وص 21:25. وينظر: التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي-دراسة تاريخية وصفية- المقدمة: محمد خير محمود البقاعي- مقال مجتزء من مقدمة الكتاب منشور بموقع أهل الحديث.

(2) المعجم الوسيط:551/2 مادة(طبق) إصدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة، د.ت.

(3) طبقات علماء الحديث: ص58 – لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي(ت744هـ) مقدمة المحققين(أكرم الشبلي وإبراهيم الزيبق)- ط: مؤسسة الرسالة- الثانية: 1417هـ-1996م.

(4) فتح المغيث بشرح ألفية الحديث: 308/3، للإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي، ط:دار الكتب العلمية- الأولى: 1403هـ.علم الطبقات:بحث للشيخ سيد نوح، منشور بموقعه الإليكتروني (alsayednooh.com).

وذكر بعض المعاصرين تعريفا لعلم الطبقات بأنه *العلم الذي يجمع المسائل المتعلقة بالقوم المتشابهين في صفة ما أو أكثر نسبا ومولدا وعطاء بصورة تميزهم عن غيرهم ممن لا يشابهونهم*[1].

قلت: والذي أراه مناسبًا للإطلاقات اللغوية، ومن خلال تتبع بعض كتب الطبقات، يمكن أن نعرف هذا العلم بأنه: علم يعنى بالتعريف والترجمة لجيل من الأجيال أو فئة متشابهة من الناس في علمٍ أو سنٍ أو منزلةٍ معينة، مع ذكر شيء من جهودهم ونتاجهم.أو نقول إن مصطلح "طبقة" يعني المرتبة التي تحتلها جماعة من الأشخاص الذين كان لهم حضور في التاريخ في سياق أو آخر، مرتبين حسب معايير محددة، دينية كانت، أو ثقافية، أو علمية، أو فنية،... إلخ[2]. وتكون كتب الطبقات بهذه المعاني السابقة هي الكتب التي تشتمل على هذا العلم. **وبيان ذلك:** أن كتب الطبقات في الأعم الأغلب تتناول التعريف بالشخص اسمًا ونسبًا ومولدًا وشيوخًا وتلاميذا ومذهبا ومنهجا، وتعرض كذلك لنماذج من جهود الشخص ونتاجه العلمي والفكري إن كان عالمًا، وتتعرض لذكر صفاته وأخلاقه إن كان من غير العلماء، كالحكماء والأولياء والصوفية وغيرهم. وتعد كتب الطبقات تراثًا علميًا زاخرًا بالمعلومات التي تخدم فروعًا أخرى من العلوم، وتعطي صورة واضحة عن حياة أهل الطبقة المترجم لهم في الكتاب. وليس بالضرورة أن يحمل الكتاب المصنف في هذا العلم اسم "طبقة" أو" طبقات" بل قد يكون الاسم صريحًا، وقد يكون غير صريح، ويكون المضمون في داخل الكتاب شيء واحد.

وبالمثال يتضح ذلك:فأكثر الكتب المصنفة في الطبقات تحمل الاسم الصريح مثل:طبقات المفسرين، طبقات القراء، طبقات الحفاظ، طبقات فحول الشعراء، طبقات الفقهاء، طبقات المحدثين، طبقات الصوفية ... وهكذا، حيث يزخر التراث الإسلامي بعشرات المصنفات في هذه الموضوعات.

وثمت طائفة أخرى من المصنفات مليئة بالتراجم لفئات معينة، ولكن لا تحمل اسم الطبقات، مثل:

1- "تاريخ علماء الأندلس"، للإمام محمد بن جعفر بن محمد بن هشام الحلبي المتوفي في نهاية القرن4هـ[3].

2 – " رجالات العلم العربي في سوس" للعلامة محمد المختار السوسي، وهو على شكل فهرس لعلماء سوس مرتب على الطبقات، وهو يشتمل على تراجم موجزة لأكثر من 1815 عالم وعالمة، بما فيهم كبار الصوفية والقراء، في الفترة من القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الرابع عشر[4].

---

(1) سيد نوح في بحثه: علم الطبقات.

(2)التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي لمحمد البقاعي- م سابق.

(3)توجد منه نسخة في الخزانة العامة بالرباط 6916 ورقة 192، 483هـ.

(4) دليل مؤلفات ومخطوطات العلامة محمد المختار السوسي:ص11، نشره نجل المصنف عبد الوافي السوسي، الطبعة الثانية- د. ت.

علم الطبقات وعلم التاريخ(علاقة الخاص بالعام):

قد يبدو للبعض أن علم الطبقات يشبه علم التاريخ،أو أنه يمكن الاستغناء بأحدهما عن الآخر، ولكن بإمعان النظر يتضح أنهما علمان مختلفان، وأن بينهما خصوص وعموم، مع الأخذ في الاعتبار احتياج علم الطبقات إلى علم التاريخ. فعلم التاريخ وعلم الطبقات يتفقان في التعريف بالرواة (وهذا في كتب طبقات أهل الحديث)، وينفرد علم التاريخ بذكر الحوادث، وينفرد علم الطبقات بذكر الحال. **فعلى سبيل المثال**:إذا كان في البدريين(من شهد بدرًا من الصحابة) مثلا من تأخرت وفاته عمن لم يشهدها؛ فإنه يذكر في علم الطبقات؛ لاستلزامه تقديم المتأخر الوفاة[1]. ولذلك عرف السخاوي علم التاريخ بأنه:التعريف بالوقت التي تضبط به الأحوال في المواليد والوفيات ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع التي ينشأ عنها معان حسنة مع تعديل وتجريح ونحو ذلك.

وعرف علم الطبقات بأنه اشتراك المتعاصرين في السن ولو تقريبا وبالأخذ عن المشايخ، قال:وربما اكتفوا بالاشتراك في التلاقي، وهو غالبا ملازم للاشتراك في السن[2]. فالتاريخ يركز في البداية على ولادة الشخص ووفاته ثم يتطرق إلى أحواله، أما علم الطبقات فيركز على الأحوال في المقام الأول ثم يتطرق إلى المولد والوفاة. وذكر السخاوي أنه قد فرق بينهما بعض المتأخرين بأن التاريخ ينظر فيه بالذات إلى المواليد والوفيات وبالعرض إلى الأحوال، والطبقات ينظر فيها بالذات إلى الأحوال وبالعرض إلى المواليد والوفيات ولكن الأول أشبه.

ولذلك فإن علم الطبقات يحتاج إلى علم التاريخ، كما قال الإمام ابن الصلاح: والباحث الناظر في هذا الفن يحتاج معرفة المواليد والوفيات ، ومن أخذوا عنه ومن أخذ عنهم ونحو ذلك ، ورب شخصين يكونان من طبقة واحدة لتشابههما بالنسبة إلى جهة ، ومن طبقتين بالنسبة إلى جهة أخرى لا يتشابهان فيها. فأنس بن مالك الأنصاري وغيره من أصاغر الصحابة مع العشرة رضي الله عنهم، وغيرهم من أكابر الصحابة من طبقة واحدة إذا نظرنا إلى تشابههم في أصل صفة الصحبة، فعلى هذا فالصحابة بأسرهم طبقة أولى، والتابعون طبقة ثانية، وأتباع التابعين طبقة ثالثة، وهلم جرا[3]. وبهذا تتضح العلاقة الكبيرة بين علم التاريخ وعلم الطبقات، مما يمكن القول معه بأن الطبقات يحتاج إلى التاريخ بصورة أكثر، والتاريخ قد يحتاج إلى الطبقات بصورة أقل، ولكن لكل علم منهما قُصّادُهُ من الباحثين والمنقبين عن تراجم العلماء وأحوالهم، وربما افتقد الباحث المعلومة في كتاب الطبقات فيجدها في كتاب من كتب التاريخ، وربما يحدث العكس.

---

(1) فتح المغيث:308/3 بتصرف يسير.

(2) فتح المغيث:308/3(تعريف التاريخ)، 388/3 (تعريف الطبقات).

(3) مقدمة ابن الصلاح:ص241، للإمام/ أبي عمرو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزوري، ط: مكتبة الفارابي- الأولى 1984م، فتح المغيث:388/3.

الفرع الثاني: لمحة عن نشأة كتب الطبقات وتطورها

فكرة تقسيم الناس في المجتمعات المختلفة إلى طبقات ومراتب أمر معروف في عصور التاريخ المختلفة، وذلك بهدف تمييز الناس عن بعضهم البعض، ومعرفة مكانة كل شخص بين أقرانه ومماثليه[1]. ولذلك فإن الناظر إلى نشأة كتب الطبقات وتطورها ليجد انها قد ابتدأت في مرحلة تاريخية مبكرة من تاريخ الأمة الإسلامية، وتحديدًا خلال القرن الثالث الهجري؛ حيث بدا الاهتمام واضحًا بالحديث النبوي وعلومه، وتنقيته مما ألحقه به المندسون والمغرضون.

وإذا كان الغرض في البداية من التصنيف في علم الطبقات هو الحفاظ على السنة النبوية، نظرًا لاتصالها بعلم الرجال وأحوالهم قوة وضعفًا وضبطا ونحو ذلك، فقد كان على علماء الحديث الاهتمام بوضع المعايير التي تسمح بقبول وتصحيح نص حديث الرسولρ، وقد انصبَّتْ تلك المعايير على الجانب الخُلُقي في الراوي، وعلى مدى صدقه وتقواه، وأضافوا إليها تقصيًا عن البيئة الأسرية للرواة، وطبيعة ارتباطهم بالنبيρ، والمدة التي قضوها معه، وعلاقاتهم بصحابته المقربين، أو بخلفائه الراشدين، كما ركزوا على حدوث لقاء فعليّ أو محتمل، وحرصوا على معرفة تاريخ الولادة والوفاة لكل واحد من الأعلام المذكورين في سلسلة الإسناد. ومن ثَمَّ كان الإسناد في الحديث سببًا في ظهور التراجم التي تضم تفصيلات عن كل واحد من رجال السند، ولما كان ينبغي ترتيب أولئك الرجال على طبقات متتالية، والتركيز على المُعاصَرة، والعلاقات المشتركة، وطبيعة تلك العلاقات؛ سعيًا لتسلسل الإسناد إلى النبع الذي هو النبيρ، كانت ولادة فكرة الطبقات، والتي قدَّمتْ رجال السند تحت تصنيفات متعددة[2].

إلا أن الفكرة امتدت بعد ذلك لتشمل ميادين عديدة كالتفسير والفقه واللغة، حيث برزت جهود واسعة في تلك الميادين وغيرها، واتخذت أشكالا ومناهج وطرق تصنيف مختلفة على نحو ما سيتضح بعد ذلك. وفي نفس الوقت تقريبا برزت للوجود كتب التراجم، وهي المصنَّفَات التي تَعْرِضُ لسير حياة مشاهير الناس الذين تجمعهم صفة الشهرة في مجال تخصُّصِهِمْ وبشكل موسوعي، وتتناول العلماء، والأدباء، والقادة، والخلفاء، وهناك ارتباط وثيق بين كتب الطبقات وكتب التراجم، حيث يكمل كل منهما الآخر.

---

(1) وهذا بالنظر إلى أن الطبقة تعني الطبقة الاجتماعية أو الرتبة الاجتماعية، حيث نجد الجاحظ مثلا في كتابه التاج في أخلاق الملوك، يقسم المجتمع الفارسي إلى أربع طبقات، ويوضح أن أزدشير الأول بن بابك حدَّد الذين ينتمون إلى كل طبقة على هذا النحو: الطبقة الأولى هم الأساورة، والطبقة الثانية هم سدنة بيوت النار، والطبقة الثالثة هم:الأطباء، والكتبة، والفلكيون، والطبقة الرابعة هم: المزارعون وأصحاب المهن.وتحدث عن قواعد اللياقة التي ينبغي على زائري الملك التقيد بها في حضوره. أهـ بتصرف من: التاج في أخلاق الملوك:ص58، لأبي عمرو الجاحظ، ط:دار الفكر-1955م.

(2) التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي.. دراسة تاريخية وصفية ص258، 259، لمحمد خير محمود البقاعي.

ويعد محمد بن سعد بن منيع الزهري(ت230هـ)، ومحمد بن سلام الجمحي(ت231هـ) من أوائل من استخدموا مصطلح "طبقة" بالمعنى الأصلي له والمشار له سابقا بأنه(المرتبة التي تحتلها جماعة من الأشخاص الذين كان لهم حضور في التاريخ في سياق أو آخر). فابن سعد يقول: الطبقة الأولى على السابقة في الإسلام ممن شهد بدرًا[1] ويستند تصنيفه الصحابة والتابعين إلى معيار السبق إلى اعتناق الإسلام، وكلما كان الرجل مخلصاً للنبي ρ كان انتسابه للطبقة الأولى مستحقاً.

وابن سلام يستخدم "طبقة" بمعنى الانتساب لطبقة يقوم مفهومها على تحليل قائم على الشبه، والقياس، وتماثل القيمة، وتساوي الأحقية بين الشعراء الذين ينتمون لتلك الطبقة على أنهم أشعر العرب طبقة[2]. وبتدرج تاريخي موجز نجد أن أول من صنف في الطبقات هو ابن سعد صاحب الطبقات الكبير، وكان ابن سعد يعمل كاتبًا للواقدي(ت230هـ). وقد كتب الواقدي كتابا في الطبقات، ولكنه مفقود كما ذكره بعض المحققين [3].

ومن الإنصاف أن ننفي عن ابن سعد تهمة استقاء مادة كتابه كلها من كتابات أستاذه الواقدي، لأنه في حقيقة الأمر استقاها من مصادر كثيرة مثل كتابات الفضل بن دكين، وعفان بن مسلم، ومعن بن عيسى الأشجعي، وكتب ابن إسحاق وأبي معشر وموسى بن عقبة، حيث جعل هذه الكتب مصدرًا لمعلوماته. هذا مع وجود فوارق واضحة بين الرجلين، فالواقدي كان قليل الاهتمام بالتاريخ الجاهلي، ولكن ابن سعد لم يغفل ذلك، وابن سعد يهتم بضبط الأعلام جيدا وبضبط مواقع البلدان ضبطا دقيقا[4]. يعد كتاب ابن سعد أول كتاب وصل إلينا في الطبقات، وهو أيضا من أوسع الكتب في هذا المجال وأحفلها وأدقها، وذلك حيث أتيح لابن سعد فرصة الاطلاع على ما سبقه من كتب التاريخ والتراجم والأنساب، واستطاع أن يلم بها ويعتصرها، ويستخلص منها صورة كاملة مترابطة. ولأن كتابه له فضل السبق والريادة في هذا المجال، فقد ظل ابن سعد من ألمع الوجوه الفكرية في عصره وما تبعه من العصور، واعتمد عليه المؤرخون الذين جاءوا بعده كالذهبي وابن كثير وابن حجر وغيرهم[5]. ولأهمية كتاب الطبقات لابن سعد ووجود نسخ عديدة من مخطوطاته في مكتبات الشرق والغرب[6]،فقد تلقفته أياد المستشرقين بالطبع مرات عديدة، واهتمت المطابع العربية بطباعته والعناية

---

(1)"الطبقات الكبير:6/3، لمحمد بن سعد بن منيع الزهري، تحقيق د.علي محمد عمر- مكتبة الخانجي بالقاهرة- طبعة أولى:421هـ-2001م.

(2) التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي لمحمد البقاعي م سابق.

(3) د. علي محمد عمر في مقدمة تحقيق كتاب"طبقات ابن سعد" :5/1.

(4) المرجع السابق:7/1 : 8 بتصرف.

(5) مقدمة تحقيق كتاب"طبقات ابن سعد" :5/1 د. علي محمد عمر.

(6) تنتشر مخطوطات كتاب طبقات ابن سعد كاملة أو مجزئة في مكتبات شهيرة مثل: شستر بتي، والظاهرية بدمشق، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ودار الكتب الوطنية، والمكتبة الأحمدية

به مرارا، ففي كثير من المرات طبع كاملا، وفي مرات قليلة طبعت منه أجزاء مستقلة، كأهل الطبقة الرابعة،وأهل الطبقة الخامسة، غير أنه قد وجد تباين كبير في طبعاته المختلفة في كل عصر طبع فيه [1].

ثم تبعه في التصنيف في الطبقات أبو زكريا يحيي بن معين الذي ولد سنة 150هـ وتوفي سنة223هـ، وقد عاصر يحيى بن معين مدرستين كبيرين في الحديث هما: الكوفة والمدينة وما كانتا تعجان بهما من رجال أفذاذ وعلماء عظام، ولذلك تاثر بهما يحيى كثيرًا، ففي مرة يجنح لرأي الكوفيين، وفي أخرى يجنح لرأي المدنيين، ومرة ثالثا يختار لنفسه منهجا وسطا بينهما[2]. وقد ألف ابن معين كتابه أو روايته وسماها "التاريخ" وهي في الواقع تاريخ، وأحوال رجال أو معرفة الرجال. وقد اشتهر الكتاب برواية الدوري له عن ابن معين، حيث دونه عنه الدوري في المجالس المختلفة، ودونه أشخاص آخرون غير الدوري، ولكن تدوين الدوري هو الأشهر، لدرجة جعلت البعض يظن أنها من تصنيف الدوري، وهو في الحقيقة من تصنيف ابن معين، ونسبته إليه ثابتة[3]. قسم ايبن معين روايته على طبقات حسب الأمصار بعد طبقة الصحابة، فبدأ بالصحابة ثم بدأ بالتابعين ومن بعدهم في الأمصار المختلفة، ونقله عنه الدوري[4]. ولكتاب ابن معين أو

بتونس، ومكتبة الملك عبد العزيز، والمكتبة المحمودية بالمدينة المنورة، ومركز الملك فيصل بالرياض.

(1) طبع الكتاب في ليدن في 8 مجلدات ثم أضيفت إليه الفهارس في مجلد تاسع، ثم طبع في بيروت على ضوء طبعة ليدن، وجرد من التحقيقات والشروح. وطبع في دار التحرير بمصر اعتمادًا على الطبعة الأولى أيضًا.وطبع في دار صادر – بيروت، سنة (1968م) بتحقيق: إحسان عباس، في 8 مجلدات. وطبع القسم المتمم لتابعي أهل المدينة ومن بعدهم، في رسالة علمية بتحقيق: د. زياد منصور، ونشرته مكتبة العلوم والحكم، سنة (1408هـ، وطبع القسم الذي يتضمن الطبقة الرابعة من الصحابة بتحقيق: د. عبد العزيز عبد الله السلومي، ونُشِر في مكتبة الصديق. وطبعت الطبقة الخامسة من الصحابة بتحقيق: د. محمد السلمي سنة (1993م، وطبع الكتاب في دار الكتب العلمية سنة (1990 غير أنها طبعة مليئة بالسقط والتحريف. وطبع في مكتبة الخانجي بالقاهرة بتحقيق: د. علي محمد عمر، سنة (1421هـ) وصدر في (11)جزءًا. ينظر بحث "دراسة عن ابن سعد وكتابه "الطبقات الكبرى" منشور بموقع الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها (www.sunnah.org.sa/ar/sunnah-sciences) بتاريخ:2011/5/13م.

وتعتبر الطبعة الأخيرة هي أكمل طبعات الكتاب وأجودها، وهي التي لدينا، ونشير إليها من خلال عرضنا لتاريخ الطبقات في هذا المطلب، وخصائص الكتاب كمنوذج تحليلي في المبحث الثالث.

(2) يحيى بن معين وكتابه التاريخ- دراسة وترتيب وتحقيق: المقدمة:32/1: 34 –د. أحمد محمد نور سيف. ط: 1399هـ- 1979م. مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي- جامعة الملك عبد العزيز

(3) نسبه إليه على سبيل الجزم والتأكيد غير واحد من العلماء في مواضع مختلفة من كتبهم:ابن عبد البر في الاستيعاب:185/1، وابن حجر في الإصابة:148/2 ، 51/6، والخطيب البغدادي في تاريخ بغداد:312/13، 437/13، وابن خير الإشبيلي في ترجمته:ص126 ،حيث ذكره وذكر راويه وذكر مرتبه على حروف المعجم فقال(تَارِيخ يحيى بن مَعِين رِوَايَة عَبَّاس بن مُحَمَّد الدوري تبويب أبي سعيد بن الْأَعرَابِي رتبه على حُرُوف المعجم)،وينظر كذلك/ هدية العارفين:515/2، لإسماعيل البابانى البغدادي –طبعة أعادت طبعه بالأوفست: دار إحياء التراث العربي بيروت مصورة بالأوفست عن طبعة وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية استانبول 1951، والرسالة المستطرفةص126. وينظر مقدمة تحقيق تاريخ ابن معين:160/1 بتصرف يسير.

(4) يحيى ابن معين وكتابه التاريخ:152/1.

روايته مكانة كبيرة عند العلماء، حيث لا تخلو صفحة من صفحات كثير من كتب الرجال من نقل عنها، وذلك نظرا لغزارة مادتها وكثرة فوائدها، ونظرا لاحتياج الناس لها فقد رتبها ابن الأعرابي (أحمد بن محمد بن زياد ت340هـ) على حروف المعجم، وكان لهذا الترتيب أثره في انتشاراها وشهرتها في الأمصار الكبرى، واعتمد عليها علماء كبار كابن عبد البر والإشبيلي.

ثم توالى التصنيف في الطبقات بعد ذلك، وسار معه في نفس الوقت التصنيف في كتب التراجم في العصور المختلفة وحتى الوقت الحالي، واتخذت كتب الطبقات والتراجم أنماطا شتى من التصنيف والتقسيم والأهداف والمناهج، على نحو ما سنورده في المبحث الثاني بشيء من التفصيل. واعتنى العلماء قديما وحديثا بشأن كتب الطبقات والتراجم في المجالات المختلفة، ولقيت اهتماما واسعا لدى العرب ولدى المستشرقين،وصنفت فيها وعنها الدراسات والبحوث المعاصرة، وكتبت فيها المقالات المختلفة سواء كانت باللغة العربية أو بغيرها من اللغات[(1)]، وما ذلك إلا نظرا لأهميتها الكبيرة في النواحي المختلفة، وهو ما نعرض له في المطلب التالي:

المطلب الثاني: أهمية كتب الطبقات ودورها في الميادين المختلفة

ما من شك أن كل علم من العلوم وما يصنف فيه من كتب، يمثلان أهمية قصوى في تاريخ الأمة الإسلامية، وذلك لأن كل علم يخدم صنوفا مختلفة من المجتمع، وعلم الطبقات وما صنف فيه من كتب مختلفة يمثل أهمية كبيرة في الميادين المختلفة،وهذا ما نلقي الضوء عليه في هذا المطلب من خلال الفروع التالية:

الفرع الأول: دورها في الناحية العلمية والفكرية

لا يسع أحد إنكار الدور الكبير الذي لعبته كتب الطبقات في الناحية العلمية والفكرية في شتى الميادين، ومن ذلك ما يلي:

أولا: أنها تمثل مادة ثرية خصبة يستطيع المرء أن يستحلب منها فوائد واسعة

---

(1) أذكر من هذه المصنفات معظم مقدمات تحقيق كتب الطبقات المختلفة، حيث اعتنى المحقق بتناول الكلام عن علم الطبقات وكتب الطبقات كمدخل عام للكتاب الذي يحققه، ثم يسهب في الكلام عن الكتاب موضع التحقيق وعن مصنفه وقد أوردنا في حواشي هذا البحث طرفا من هذه المقدمات لبعض الكتاب، واستفدنا منها في مواضع عدة، في المبحث الحالي والمبحثين التاليين.

ومن البحوث القيمة في ذلك "نظرات في نوع الطبقات في الأدب العربي" للباحث الجزائري إبراهيم حفصي في مجلة أرابيكا ـ ، المجلد 23، الإصدار الأول، والمجلد 24، الإصداران الأول والثاني- عام 1976 - 1977م. وقد تعذر علي الوقوف على هذا البحث أو على ترجمته نظرًا لمضي مدة طويلة على نشره.

ومن الكتب: كتاب التأليف في طبقات المالكية في التراث العربي- دراسة تاريخية وصفية، لمحمد خير محمود البقاعي -دمشق - 1980م.

ومادة جديدة وفوائد إضافية مختصة بتاريخ الإسلام السياسي والاجتماعي والاقتصادي.
ثانيًا: أوجدت بعض كتب الطبقات تشابكا وارتباطا قويًا بين العلوم المختلفة، بما قدمته من معلومات متنوعة، وظهر هذاالتشابك جليا بحيث أصبح يلجأ إليها بعض أرباب العلوم الأخرى، نظراًلما اختصت به من خصائص التوسع في بعض المعلومات. فاحتاجها في الحديث أهل التخريج والحكم على الرجال، واحتاجها في الوعظ الخطباء والوعاظ والقصاص، لما فيها من القصص والكرامات المختلفة(طبقات الصوفية والأولياء نموذجًا). ولو شئنا تتبع أهمية كتب الطبقات في كل علم من العلوم على حدة- لما وسعنا عشرات الصفحات،نظرا لأن كل العلوم استفادت من هذه الكتب، فعلى سبيل المثال لا الحصر: تجلت أهمية الطبقات عند المحدثين الذين أبدعوا في هذا الفن في التحقق من صحة السند حيث يعرف المتقدم على المتأخر، كما يعرف به التحقق من اسم الراوي ونسبه من غير التباس بغيره. وتجلت أهميتها عند الفقهاء: في أنها أبرزت من يعتمد قوله ويرجح، ومن يترك ويصحح،عند تعارض الأقوال وتضاربها، وتباين الآراء واختلافها.
ثالثا: من فضل كتب الطبقات على أرباب هذه العلوم (الفقه والحديث مثالين) أنها تحصن المشتغلين بهذه العلوم وتقيهم من الخطأ والالتباس في معرفة أحوال العلماء ونحوهم.ولذلك فإن الجهل بكتب الطبقات يوقع البعض في حرج شديد وخطأ كبير، فمن الممكن أن يُدخل فقيه مذهب في مذهب آخر، أو ينسب له ما ليس من كلامه بسبب التباسه بشخص مثله في الاسم.
يقول السخاوي: "وكم مرة أو وقتا مصنفٌ من حفاظ الأئمة يغلط أو كم يلغط مصنف فيها لسبب الاشتباه في المتفقين حيث يظن أحدهما الآخر أو بسبب أن الشياع روايته عن أهل طبقة ربما يروي عن أقدم منها كما تقدم في آخر التابعين أو لعدم تحقق طبقته فيذكره تخمينا على وجهه التقريب". وذكر أمثلة من هذه الأخطاء فقال: "... كما اتفق للمتقيدين في إدخال من ليس من الشافعية مثلا كابن هبيرة الحنبلي وأبي بكر الطرسوسي المالكي وكذا من الظن الغالب كونه مجتهدا كالبخاري فيهم وفي إدخال مصنف طبقات الحنفية الفخر الرازي الشافعي فيهم"[1]. ولذا قال ابن الصلاح مبينا اهمية كتب الطبقات:وذلك من المهمات التي افتضح بسبب الجهل بها غير واحد من المصنفين وغيرهم [2].
رابعًا: استطاعت كتب الطبقات التي أخذت شكل أعمال موسوعية كبيرة، أن تكون محاور ارتكاز في التوثيق لكثير من الآراء الفقهية والروايات الحديثية المختلفة التي ربما كانت مفتقدة أو متعذر الحصول عليها أو مغلوطة في الكتب المختصة بها، ولذلك تدعم كتب الطبقات المعلومة

(1) فتح المغيث:389/3 بتصرف يسير، .
(2) مقدمة ابن الصلاح:ص241 ط، فتح المغيث:389/3 بتصرف يسير، .

تصحيحا وتفنيدا، أو تثبتها إن كانت مفقودة. وهذا ليس مقتصرا على كتب الطبقات في العلوم الشرعية فقط، بل كذلك كتب الطبقات في العلوم التجريبية كالطب(ينظر كتاب طبقات الأطباء نموذجًا تحليليًا مذكورًا في المبحث الثالث، وما احتواه من معلومات طبية قيمة منقولة عن بعض الأطباء المترجم لهم).

خامسًا: تقدم بعض كتب الطبقات تعريفا واسعا ، أو فهرسة للكثير من المصنفات العلمية في الميادين المختلفة، نظرا لحرص المصنفين على ذكر كتب الأشخاص المترجم لهم، ويتجلى هذا بوضوح في كتب الطبقات المصنفة على حسب العلوم المختلفة، مثل طبقات فقهاء المذاهب، وطبقات المحدثين، والنحاة ونحوهم.

الفرع الثاني: دورها في الناحية الاجتماعية

تقدم كتب الطبقات معلومات وافرة عن الأشخاص المترجم لهم في النواحي الاجتماعية المختلفة، ومن أبرز الجوانب الاجتماعية التي برزت فيها أهمية كتب الطبقات ما يلي.

أولا: أن كتب الطبقات تعطي صورة اضحة عن المجتمع الذي عاش فيه الشخص المترجم له، وما اكتنف هذا المجتمع من مظاهر اجتماعية،وسلوكيات وعادات تركت بصماتها على الشخص.

ثانيًا: أن هذا النوع من الكتب يقدم في معظم الحالات وصفا دقيقا لحالة الشخص المترجم له، فتذكر صفاته الخِلْقية والخُلُقية، وما كان يتمتع به من مظاهر ترف أو تقشف، لدرجة أن بعض كتب الطبقات تتعرض لأخص خصائصه(ملابسه عطره نقش خاتمه هيئته العامة).

وأصرح مثال على ذلك ما صنعه ابن سعد في طبقاته، حيث كان يذكر مثل هذه الأشياء(انظر كلامه عن سيدنا عبد الله بن عباس وهو يتكلم عن صفة ملابسه، وأين يلبس خاتمه،وصفة دخوله للحمَّام)[1].

ثالثا: ومنها أيضًا اهتمام كثير من كتب الطبقات بالمرأة التي تمثل نصف المجتمع، حيث أفردت لهن فصول مطولة في بعض كتب الطبقات، مما يعني مراعاة حال المرأة وإبراز دورها في المجتمع في الميادين المختلفة. ومن الكتب التي أفردت لهن أقساما واسعة من التراجم: طبقات ابن سعد (المجلد العاشر من كتاب المشار إلى طبعته سابقا مشتمل على طبقات النساء)، وكتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم، حيث أورد ترجمات واعة لطبقات النساء نساء النبي ρ ونساء الصحابة رضوان الله عليهم .

رابعًا: قدمت بعض كتب الطبقات تصويرا واضحًا عن أفكار بعض المجتمعات واعتقاداتهم وعادتهم وأعرافهم المختلفة، لا سيما فيما يتعلق بأمور الأضرحة وكرامات الأولياء وشطحات بعض المنتسبين إلى الصوفية،

---

(1) طبقات ابن سعد:343/6.

وما دار حولها من أحاديث الناس في المجتمعات التي نشأ وعاش فيها هؤلاء الأشخاص المترجم لهم(تنظر كتب طبقات الصوفية نموذجًا).

الفرع الثالث:دورها في الناحية السياسية

قد لا يظهر دور كبير لكثير من كتب الطبقات في الناحية السياسية، ولكن لبعض هذه الكتاب دور في إبراز بعض الجوانب السياسية في عصور مختلفة، ومن ذلك ما يلي:

أولا: أبرزت بعض كتب الطبقات الصراعات السياسية والمذهبية التي نشأت في دول مختلفة، وفي عصور مختلفة، وذلك من خلال تناولها لجانب من السير أو التواريخ في بعض أجزائها، أو من خلال ترجمة شخص (عالم أو سياسي أو شاعر أو أديب) ارتبط بهذه الصراعات(ككونه عاصرها، أو كان طرفا فيها،أو تأثر بها). ومن أمثلة ذلك: كتاب"تاريخ قضاة الأندلس" [1] لأبي الحسن بن عبد الله النُباهي المالقي الأندلسي(من علماء القرن الثامن الهجري)[2]، وهو يترجم لعدد من القضاة ومع وقع بينهم وبين بعض الخلفاء من صرعات، وشد وجذب، وما وقع بين بعضهم وبين بعض أهل الكتاب من مناظرات ومساجلات.

ثانيًا: تلقي بعض كتب الطبقات - التي تهتم بتراجم الولاة والحكام- الضوء على جوانب هامة من الحياة السياسية لهؤلاء الولاة والحكام بشيء من الإنصاف ربما تفتقده كتب التاريخ، ولعل مرجع ذلك إلى أن بعض كتب التاريخ تنافق بعض الولاة والحكام، أو تنقل الصور الطيبة عن حاكم بعينه وتغفل الصور السيئة عنه. وهذا ما قد يفسر المقولة الشائعة" إن التاريخ يكتبه الأقوياء"، ففي بعض العصور يكون كتاب التاريخ هو لسان الخليفة أو الوالي.

أما كتب الطبقات فهي بعيدة إلى حد كبير من سطوة الولاة والحكام، لأن مؤلف كتاب الطبقات يبتعد ظاهريا عن الخوض في النواحي السياسية لعصره أو العصور القريبة منه، ولكن يستطيع أن يبث في ثنايا كتابه طرفا من الحقائق التي أغفلتها كتب التاريخ، أو يفند بعض الأكاذيب التي اشتهرت فيها.

وفي هذا المعنى يقول بعض الكتاب الغربيين: هاميلتون جيب: " وبالرغم من أنّ العالم والمحدّث قد تخلّيا للموظف عن دورهما في تدوين التّاريخ السّياسي فقد بقي في أيديهما ميدان أوسع من التاريخ السّياسي و هو التّراجم...فسير العلماء "ورثة النبيρ" كانت في نظر العلماء هي التاريخ الصحيح لأمّة اللّه على الأرض على نحو أصدق من تاريخ التّنظيمات

1- "تاريخ قضاة الأندلس" أو " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النُبَاهي المالقي الأندلسي. دار الآفاق الجديدة بيروت- الطبعة الخامسة:1403هـ- 1983م.

(2) لأن تاريخ وفاته على وجه التحديد مجهول حسبما ذكر محققو الكتاب في مقدمته : ص(ي).

السّياسيّة الزّائلة[1]. ولا يفهم من هذا الكلام أنه اتهام لكتب التاريخ، أو تفضيل لكتب الطبقات عليها، ولكن هذا من باب ضرب الأمثلة فقط، فليست كل كتب الطبقات تفعل ذلك.

المبحث الثاني طرق التصنيف في كتب الطبقات

يزخر التراث العربي بأنواع متعددة من كتب الطبقات والتراجم، تختلف فيما بينها في طريقة تصنيفها، وعلى رأسها طريقة التصنيف بحسب العلوم المختلفة، حيث يجمع المصنف المتشابهين في الفنون والعلوم المختلفة (علوم القرآن والسنة والفقه) فيذكر أحوالهم،ومناقبهم، ومراتبهم ويترجم لهم ترجمة وافية، ويعد هذا هو النوع الأشهر من كتب الطبقات. ثم يليه في الشهرة والانتشار كتب الطبقات التي تتناول أهل بلد بعينهم، وبعضها يتناول عموم المشاهير في هذا البلد، وبعضها يتناول فئات مختلفة من علماء البلد، كعلماء كذا، وفقهاء كذا، وهناك كتب الطبقات التي تتناول الخواص من الناس دون التقيد بعلم أو صنعة أو بلد، مثل طبقات الأنبياء والصحابة والتابعين والأولياء والخلفاء والمعبرين. ثم التصنيف في الطبقات على جهة العموم، التي لا تتقيد بفن معين ولا ببلد معين، بل تنحو المنحى الزمني فقط، فتترجم للأعلام بحسب ترتيبهم الزمني، وهذا القسم أقرب ما يكون إلى كتب التراجم منه إلى الطبقات.

ولهذا فقد تجد الشخص الواحد يترجم له في أكثر من كتاب من كتب الطبقات بطريقة مختلفة، فقد يكون قارئا مشهورا أو حافظًا للحديث، فيذكر في كتاب طبقات عام، ويذكر في كتاب طبقات القراء، أو طبقات الحفاظ، وقد يذكر في طبقات أهل بلده إن كان من بلد أفرد لها كتاب في الطبقات،ولا يمنع ذلك أن يكون من الصوفية؛ فيذكر في كتاب عن طبقات الصوفية على سبيل المثال.

ونتناول في هذا المبحث محتوى كتب الطبقات أو طرق المصنفين في التأليف في الطبقات على النحو السابق في التقسيم وهو بمثابة تناول لأنواع كتب الطبقات، وذلك من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: التصنيف بحسب العلوم والفنون المختلفة

وهو يشتمل على مصنفات في طبقات أصحاب الفنون والعلوم المختلفة، سواء كانت علوما شرعية، كالقراءات وتفسير القرآن، والسنة وعلومها، والفقه وأصوله، أو علومًا لغوية، كالنحو والكتابة والأدب والشعر، أو علومًا تجريبية كعلم الطب، وبيان ذلك على النحو التالي:

أولا: القرآن الكريم وتفسيره وعلومه: وأشهر ما صنف فيه قسمان:

القسم الأول:طبقات القراء:

وهو يعتني بالترجمة لمشاهير القراء، وبيان نبذة عن الحياة الشخصية لكل قارئ منهم من حيث اسمه ونسبه وسنة ولادته، ووفاته، ورحلاته في طلب

---

1 هاميلتون جيب في:التاريخ الإسلامي في العصور الوسطى:ص160، طبعة المركز العربي للكتاب، دمشق.

العلم، ونشأته العلمية، ونشاطاته العلمية في التأليف والتدريس، وذكر أهم المواقف المؤثرة في حياته[1]. وأبرز صور التصنيف في هذا العلم ثلاث صور هي:

الصورة الأولى: التأليف المتخصص في هذا الفن، حيث يقوم المصنف بإفراد تراجم القراء في كتب خاصة، ومن أمثلة ما صنف في ذلك:

1 –"معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار" للإمام الحافظ الذهبي(ت748هـ). وقد ترجم فيه لسبعمائة وأربعة وثلاثين قارئًا منذ عصر الصحابة وحتى عصر الإمام الذهبي.

2-"غاية النهاية في طبقات القراء" لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري(ت833هـ)، وقد اختصره من كتابه الكبير الذي سماه "نهاية الدرايات في أسماء رجال القراءات"، واستوعب فيه جميع التراجم التي وردت في كتابي أبي عمرو الداني والذهبي، وزاد عليهما نحو الضعف، ورتبه على حروف المعجم[2].

الصورة الثانية: التأليف في القراء الكبار فقط، كالقراء السبعة، حيث يتناول ذكر أحوالهم ومناقبهم وأسانيدهم.

ومن أمثلة ذلك: "طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم"، للإمام عبد الوهاب بن يوسف بن إبراهيم، ابن السَّلَّار الشافعي (ت 782هـ).وهو مشهور ومطبوع[3]. وهناك صورتان أخريان للترجمة للقراء، **إحداهما:** الترجمة لهم في كتب التراجم والأعلام العامة، وكتب الطبقات على جهة العموم،مثل الدرر الكامنة، وسير أعلام النبلاء....

والثانية: الترجمة لبعض القراء باستفاضة في مقدمات تحقيق كتب القراءات ونحوها، وهناك أمثلة معاصرة لذلك منها:الترجمة المستفيضة للإمام مكي بن أبي طالب، للدكتور أحمد حسن فرحات، في تحقيقه لكتاب"الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة". وكذلك ترجمة الإمام نفسه في مقدمة كتاب "الإبانة عن معاني القراءات"، تحقيق د.عبد الفتاح إسماعيل شلبي،والترجمة الوافية للإمام أبي عمرو الداني، للدكتور غانم قدوري الحمد، في تحقيقه لكتاب"التحديد في الإتقان والتجويد"[4].

القسم الثاني: طبقات المفسرين:

وهو يعنى بدراسة أحوال ومراتب مفسري القرآن الكريم، نظرًا لأهمية علم التفسير ومكانته، وقد وجدت مصنفات رائدة في هذا الفن، من أمثلتها ما يلي:

---

(1) مقدمات في علم القراءات:ص204، محمد أحمد القضاة، أحمد خالد شكرى، محمد خالد منصور، دار عمار بالأردن- الأولى، 1422هـ-2001م.

(2) كشف الظنون:1105/2، ط: دار إحياء التراث العربي- د. ت، أبجد العلوم:362/2،مقدمات في علم القراءات:ص:205، 208 بتصرف يسير.

(3) طبقات القراء السبعة وذكر مناقبهم وقراءاتهم، لابن السلار،ط: المكتبة العصرية، صيدا بيروت ، الأولى1423 هـ - 2003 م.

(4) مقدمات في علم القراءات: ص213، 214.

- "طبقات المفسرين" للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي (ت 911هـ)، وقد ترجم للمفسرين من الصحابة والتابعين، وتابعيهم، كما أورد فيه بعض المفسرين من المعتزلة، والشيعة، ولكن الكتاب لم يكتب له التمام؛ حيث ترجم لـ(136) مفسرًا فقط[1].
- "طبقات المفسرين" للإمام محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (ت 945هـ)، جمع فيه تراجم أعلام المفسرين حتى أوائل القرن العاشر من كافة المصادر والمراجع التي توفرت لديه، ورتبهم على حروف المعجم[2].

ثانيًا: السنة النبوية وعلومها: والتصنيف في علم الطبقات المتعلق بالسنة النبوية مجاله واسع وصوره متعددة، بل إن الذهن ينصرف إليه مباشرة بمجرد ذكر كتب الطبقات، وأشهر ما صنف في طبقاتها ثلاث فئات من الكتب:

الفئة الأولى: طبقات المحدثين.

ومن أمثلة ذلك وفق الترتيب الزمني كتاب"طبقات المحدثين" للقاسم بن فيرة بن خلف الشاطبي (ت590هـ)، وتوجد منه نسخة بمكتبة عارف حكمت بالمدينة المنورة [3]. وكتاب"طبقات علماء الحديث" للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي (ت744هـ). وهو من أشهر الكتب في هذا المجال حيث تناول فيه المصنف ترجمات عديدة لنخبة من علماء الحديث متناولا حياتهم ومصنفاتهم وشيوخهم وتلاميذهم، وقد نشرته مؤسسة الرسالة في أربع مجلدات كبار بتحقيق أكرم الشبلي وإبراهيم الزيبق[4]، وكتاب "طبقات المحدثين" لسراج الدين عمر ابن علي بن الملقن الشافعي(ت804هـ)، وقد تناول فيه المحدثين من زمان الصحابة حتى زمانه[5].

الفئة الثانية: طبقات الرواة.

وتشمل مصنفات في طبقات الرواة على جهة العموم، ومصنفات في طبقات الرواة عن إمام من الأئمة بعينه.

---

(1) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي:ص400، طاهر سليمان حمودة، ط:المكتب الاسلامي – بيروت، الأولى، 1410 هـ - 1989م، مقدمة كتاب طبقات المفسرين للداودي: ص 2، بقلم لجنة من العلماء، ط: دار الكتب العلمية.

(2)مقدمة كتاب طبقات المفسرين للداودي: ص 2.

(3) كشف الظنون:1106/2، فهرسة مكتبة عارف حكمت بالمملكة العربية السعودية.

(4) تاريخ التراث العربي:37/16، لفؤاد سزكين، ترجمة د.محمود فهمي حجازي، ومراجعة د. عرفة مصطفى وسعيد عبد الرحيم، إدارة الطبع والنشر بجامعة الملك محمد بن سعود- 1411هـ-1991م، وينظر الكتاب المذكور ط: مؤسسة الرسالة:1997م.

(5)صلة الخلف بموصول السلف:ص:159 لشمس الدين محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي السوسي المكيّ المالكي ت 1094هـ، تحقيق/محمد حجي، ط:دار الغرب الإسلامي،الأولى، 1408هـ، 1988م، كشف الظنون:1106/2.

فمن أمثلة النوع الأول وفقا للترتيب الزمني:"طبقات الرواة" للإمام خليفة بن خياط بن خليفة أبي عمرو الشيباني العصفري التميمي المحدّث المؤرخ النسابة المعروف بالشباب البصري (ت240،أو242هـ)، وهو كتاب مشهور، وقد طبع في بغداد ودمشق والرياض(1)، و"طبقات الرواة" للإمام/مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب الصحيح (ت261هـ) (2). بخلاف ما صنف في المحدثين ونحوهم من أهل بلد بعينه، على نحو ما سنقف عليه في التصنيف في طبقات اهل بلد بعينهم. **ومن أمثلة النوع الثاني** وفقا للترتيب الزمني: "طبقات الرواة عن شعبة" للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي(ت303هـ)(3)، و"طبقات الرواة عن مالك"، لعبد الله بن محمد بن عبد الله بن أبي دليم القرطبي(ت351هـ) (4)، و"معجم الرواة عن شعبة" لأحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي أبي بكر الخطيب البغدادي (ت463هـ)(5).

الفئة الثالثة: طبقات الحفاظ.

ومن أمثلتها: "طبقات الحفاظ" لأبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت748هـ)، وهو من أشهر ما صنف في هذا ، ولذا اهتم به غير واحد من المصنفين، بالنظم وبالتلخيص وبالتكملة،فصنف عليه ابن الدباغ وابن المفضل والسيوطي ذيل طبقات الذهبي، وابن فهد المكي صنف"لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ" (6).

ثالثًا: علم الفقه والأصول:

ويشتمل التصنيف فيه على مجموعة من كتب الطبقات حسب تقسيم معين، فبعضها يترجم للفقهاء على جهة العموم، وبعضها يترجم لفقهاء مذهب بعينه، وبعضها يترجم للمجتهدين أو لرواة الفقه، وهكذا ونورد هنا أمثلة لطائفة من كتب الطبقات المتعلقة بعلم الفقه، وفق التقسيم التال**أولا: طبقات الفقهاء** (على جهة العموم أو الفقهاء والمحدثين معًا).ومن أوائل ما صنف فيها كتاب"طبقات الفقهاء والمحدثين " للهيثم بن عدي (ت207هـ) (7)

---

(1)صلة الخلف:ص392، كشف الظنون:80/2،

(2) صلة الخلف:ص292، فهرسة ابن خير الإشبيلي:ص:193، الفهرست لابن النديم:ص282، تحقيق إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت، الطبعة: الثانية 1417 هـ - 1997 مـ وتوجد من الكتاب نسخة بمكتبة أحمد ثالث مجموعة رقم 26/624 ورقة 279-297؛ 628هـ؛ ونسخة بجامعة الكويت ب/20/75 م.ك نسخة مصورة.

(3) نسبه إليه مغلطاي في إكمال تهذيب الكمال: 85/6، و265/6،تحقيق/ عادل محمد وأسامة إبراهيم، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر،الطبعة: الأولى، 1422 هـ - 2001 م.

(4) تاريخ الإسلام:26/ 58 لشمس الدين الذهبي،تحقيق د. عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي،بيروت- الطبعة الأولى:1407هـ - 1987م، صلة الخلف:ص249 .

(5) تاريخ الإسلام للذهبي:99/31، وذكره الصفدي في الوافي بالوفيات في ترجمة الخطيب البغدادي- طبعة دار إحياء التراث العربي- بتحقيق تركي مصطفى وأحمد الأرناؤوط- تالطبعة الأولة:1420هـ-2000م.

(6)صلة الخلف:ص392، كشف الظنون:1097/2.

(7) كشف الظنون:1105/2، وذكر أنه أربعة أجزاء مجلدات، وذكره من المعاصرين د.إحسان عباس في مقدمة تحقيق طبقات الفقهاء للشيرازي:ص23، طبعة دار الرائد العربي- بدون تاريخ

و"طبقات الفقهاء من أصحاب الأئمة الخمسة" لابن حبيب الأندلسي المالكي (ت238هـ)[1] وطبقات الفقهاء وعلماء الآثار" لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي (ت476هـ)، وقد جعله قسمين: القسم الأول: فقهاء التابعين بالأمصار المختلفة (المدينة- مكة – اليمن- الشام والجزيرة- مصر- الكوفة – البصرة) والقسم الثاني لفقهاء المذاهب الأربعة والظاهرية. وهو مطبوع بتحقيق إحسان عباس[2].

ثانيًا: طبقات فقهاء كل مذهب: ومن أمثلتها في المذاهب الفقهية:

1- طبقات فقهاء الحنفية: ممن صنف فيها أبو الوفاء القرشي وابن قطلوبغا السودوني.

أ- الجواهر المضية في طبقات الحنفية" لمحيي الدين أبي محمد عبيد القادر بن محمد بن نصر الله بن سالم بن أبي الوفاء القرشي الحنفي(ت775هـ). وهو مشهور ومطبوع في خمس مجلدات[3].

ب-"تاج التراجم" لأبي العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني(ت879هـ)،وهو على حروف المعجم [4].

2- طبقات فقهاء المالكية: صنف فيها ابن فرحون ومحمد بن مخلوف وغيرهما ومن أمثلتها:

أ – "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب" للإمام إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (ت799هـ)،وهو مرتب على حروف المعجم، وقد تناول فيه المصنف طائفة من فقهاء مذاهب مالك في جميع الأمصار الإسلامية، وهو مطبوع في مجلدين[5].

ب- " شجرة النور الزكية في طبقات علماء المالكية"للعلامة الجليل محمد بن محمد مخلوف، ويتميز هذا الكتاب بخروجه عن التقيد بعلماء المالكية، بل تناول مقدمة واسعة عن القرآن والسنة، وتناول طبقات أخرى من الصالحين والزهاد والعلماء، وقد قسمه مصنفه إلى 27 طبقة، بدأها بالنبيρ، ثم ثنى بالصحابة وهكذا...، وهو مطبوع ومشهور في مجلد كبير يشتمل على جزأين[6].

3- **طبقات فقهاء الشافعية**:

صنف فيها السبكي والإسنوي وابن قاضي شهبة وابن كثير وغيرهم.

أ - "طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي بن

---

(1) كشف الظنون:1105/2هدية العارفين:624/1.

(2) طبقات الفقهاء للشيرازي- الطبعة المشار إليها سابقًا. وينظر:كشف الظنون:1105/2.

(3) الكتاب المذكور تحقيق د. عبد الفتاح الحلو، دار هجر . وينظر:هدية العارفين:596/1.

(4) الكتاب المذكور تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار القلم- دمشق، الطبعة:الأولى، 1413 هـ - -1992م. وينظر:هدية العارفين:380/1.

(5) الكتاب المذكور ط: دار التراث بالقاهرة، بتحقيق د. محمد الأحمدي أبو النور. وينظر: كشف الظنون:1106/2.

(6) الكتاب المذكور ط: دار الكتاب العربي- بيروت.

عبد الكافي السبكي (ت771هـ). وهو مطبوع بمصر في 10 مجلدات[1]، ولدي نسختين مصورتين من مخطوطاته بالمكتبة الأزهرية، وللسبكي أيضا "الطبقات الوسطى" ولدي نسخة مصورة من مخطوطتها التي بالأزهرية.

ب-"طبقات الشافعية" لجمال الدين عبد الرحيم الإسنوي(ت 772هـ)، وهو مطبوع في مجلدين[2].

ج – "طبقات الشافعية" لأبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد ، تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي(ت 851هـ) وهو مشهور ومطبوع في الهند[3].

4 – **طبقات فقهاء الحنابلة**: من أمثلتها:

أ -" طبقات الحنابلة" للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلي الفراء البغدادي الحنبلي(ت526هـ)، وهو مشهور ومطبوع في المملكة العربية السعودية في ثلاث مجلدات[4].

ب- "ذيل طبقات الحنابلة" لابن رجب الحنبلي(ت 795ه)، وهو مطبوع في مجلد، سنة 1952 بمطبعة السنة المحمدية، وعلى طبقات الفراء أيضًا"مختصر طبقات الحنابلة" لشمس الدين محمد بن عبد القادر بن عثمان النابلسي (ت797ه) وهو من أصحاب ابن القيم، وهو مطبوع في دمشق في مجلد[5]..

ج – "السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة" لمحمد بن عبد الله بن حميد المكي (ت1295هـ)، وهو مشهور على الرغم من كونه متأخرًا، وقد طبع في ثلاث مجلدات بمؤسسة الرسالة[6].

5 – طبقات فقهاء الزيدية" وقد صنف فيه غير واحد من علمائهم:

1 – "طبقات الزيدية الكبرى" ويسمى بلوغ المراد إلى معرفة الإسناد، للسيد العلامة إبراهيم ابن القاسم بن المؤيد بالله، وهو مرتب على حروف المعجم.

2- مطلع البدور ومجمع البحور، لأحمد بن صالح ابن أبي الرجال ، وهي منشورة باليمن [7].

---

(1) الكتاب المذكور ط فيصل عيسى البابي الحلبي ،بتحقيق محمود الطماحي وعبد الفتاح الحلو، وينظر: كشف الظنون:1099/2-1100.

(2) الكتاب المذكور ط: دار الكتب العلمية سنة:1407-1997م- بتحقيق كمال يوسف الحوت، وينظر: كشف الظنون:1101/2.

(3) الكتاب المذكور طبعه للمرة الأولى: مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن:1399 ط-1979م، بتحقيق الحافظ عبد الحليم خان، وينظر: كشف الظنون:1101/2.

(4) الكتاب المذكور ط: الامانة العامة للاحتفال بتأسيس مائة عام على تأسيس المملكة، بتحقيق د. عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، وينظر: كشف الظنون:1097/2.

(5) الكتاب المذكور ط: مطبعة الاعتدال في دمشق بتحقيق أحمد عبيد.

(6) الكتاب المذكور ط:مؤسسة الرسالة-الأولى:1416هـ- 1996م، وينظر: معجم التراث الإسلامي:114/19.

(7) من منشورات مركز التراث والبحوث اليمني، بتحقيق/عبدالسلام عباس الوجيه ومحمد يحيى سالم عزان- في 4 أجزاء.

ثالثا: طبقات المجتهدين والرواة في الفقه:
ومن أمثلة النوع الأول: رسالة"طبقات المجتهدين" لأحمد بن سليمان المعروف بابن كمال باشا(ت940هـ)، وهي رسالة صغيرة تناول فيها طبقات المجتهدين من فقهاء الحنفية من دون التعرض لتراجمهم وأحوالهم [1].
أما النوع الثاني(رواة الفقه) فالتصنيف فيها نادر جدا، حيث لم نقف فيه إلا على كتاب "نسمات الأسحار في طبقات رواه الفقه والآثار" لإبراهيم بن القاسم بن المؤيد بالله, الشهاري الزيدي (ت1143هـ) وتوجد من مخطوطاتها نسخًا باليمن وبالرياض[2]. وهكذا نجد ثراء واسعًا في التصنيف في طبقات علماء الفقه، بما لا يقل شهرة وانتشارا عن علم الحديث، مع مراعاة أن هناك ارتباط وثيق بين العلمين، لاسيما وأن كثيرا من علماء الفقه كانوا بارعين أيضا في علوم السنة.
رابعًا: طبقات علماء الأصول:
يلاحظ أن هناك ندرة شديدة جدا في التصنيف في طبقات الأصوليين في العصور القديمة، ويبدو أن السبب في ذلك هو أن كثيرا من الأصوليين ترجم لهم في كتب طبقات المذاهب التي يتبعونها، ولكن على أية حال فقد وجدت جهود نادرة قديما، وجهود حديثة في هذا المجال. فمما صنف في طبقات الأصوليين قديما: "طبقات الأصوليين" للسيوطي[3].
ومما صنف حديثًا: الفتح المبين في طبقات الأصوليين للأستاذ عبد الله المراغي، ومعجم الأصوليين (أعلام أصول الفقه ومؤلفاتهم) للدكتور محمد مظهر بقا، في3 مجلدات، ويتناول فيه مؤلفه تاريخ ميلاد ووفاة الأصولي بالهجري والميلادي غالبا، ونشأته وشيوخه وتلاميذه ومصنفاته، ويشير لأماكن بعض مؤلفاته المخطوطة[4].
رابعًا: علوم اللغة والأدب والشعر:
يشمل التصنيف في طبقات أهل اللغة فئات كثيرة من العلماء وأصحاب المهن ذات الصلة الوثيقة باللغة والأدب والبلاغة، حيث يزخر التراث الإسلامي بمصنفات في طبقات النحاة واللغويين والأدباء والكتاب والشعراء، على نحو ما هو آت في الأمثلة التالية:
أولا: طبقات النحاة واللغويين.
يعد المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد المبرِّد النحوي (ت285هـ) أول من صنف في هذا الفن، وإن كان كتابه قد خصصه للنحويين بالبصرة، ثم تبعه أبو سعيد حسن بن عبد الله السيرافي (ت368هـ)، حيث صنف فيه كتابًا،

(1) كشف الظنون:1106/2، هدية العارفين:141/1، 142.
(2) نسخة جامعة الملك سعود رقم الحفظ 1571- ونسخة اليمن محفوظة بأرقام:124, 125, 224 – 226.
(3) كشف الظنون:1096/2.
(4) ينظر الكتاب المذكور من مطبوعات سلسلة بحوث الدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى الجزء الأول والثاني 1414هـ، والجزء الثالث1420هـ.

وصنف فيه ابن قاضي شهبة، وصلاح الدين الصفدي وأبو جعفر النحاس، وجمال الدين ابن القفطي وغيرهم الكثير. ولكن أشهر ما صنف فيه هو كتاب جلال الدين السيوطي الذي جمع فيه كل ما كتبه السابقون في طبقات النحاة[1]. **ومن أمثلته أيضًا:** طبقات اللغويين والنحاة، لأبي بكر محمد بن حسن الزبيدي الأشبيلي (ت379هـ)، وقد جمع فيه النحاة واللغويين من عهد أبي الأسود الدؤلي وحتى عصره[2]. ومنها كذلك "إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين" لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني(ت743هـ) [3].

ثانيًا: طبقات الأدباء والبلاغيين:

أ- " نزهة الألباء فى طبقات الأدباء" لأبي البركات كمال الدين بن عبد الرحمن ابن الأنباري (ت577هـ) وقد ذكر فيه مصنفه- كما قال في مقدته-: معارف أهل هذه الصناعة الأعيان، ومن قاربهم في المعرفة والإتقان، وبينت أحوالهم وأزمانهم على غاية من الكشف والبيان، والكتاب مشهور ومطبوع[4].

ب – معجم الأدباء" أو"إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب" لياقوت الحموي الرومي (ت626هـ) وهو مرتب على حروف المعجم، ومشهور ومطبوع[5].

ج- ومن المصنفات المعاصرة " معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة 2002م " لكامل سلمان الجبوري، وهو جيد في موضوعه، ومرتب على حروف المعجم، ويورد خلف كل شخص مصادر ترجمته[6].

رابعا: طبقات الشعراء:

وأشهر ما فيها كتاب" طبقات فحول الشعراء" لمحمد بن سلام الجمحي(ت231 هـ)، وهو مطبوع ومشهور بتحقيق الشيخ أحمد شاكر، دار المعارف بمصر. و"طبقات الشعراء" لابن عبد الرحيم البغدادي، و"طبقات الشعراء" لعبد الله بن مسلم بن قتيبة، أبي محمد الدينوري (ت280هـ) [7].

خامسًا:طبقـات الكُتَّاب.

الكتابة صنعة أدبية ذات أهمية كبيرة، وأهلها ينبغي أن يكونوا على دراية واسعة بصنوف من الآداب والمعارف، ولذلك فإن منزلتهم أعلى من منزلة الشعراء على حد قول الثعالبي في مقدمة رسائله:ولم تزل ولا تزال طبقات الكتاب مرتفعة عن طبقات الشعراء، فان الكتاب وهم السنة الملوك،

---

(1) كشف الظنون:1107/2، أبجد العلوم:364/2.

(2) كشف الظنون:1105/2.

(3) حققه د عبد المجيد دياب في 574صفحة، ونشره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية 1406هـ-1986م ، وطبعته شركة الطباعة العربية السعودية.

(4) الكتاب منشور بمكتبة المنار بالأردن-طبعة ثالثة- سنة 1405 م-1985م بتحقيق إبراهيم السامرائي، وينظر:كشف الظنون:1095/2-1096.

(5) بتحقيق /إحسان عباس، طبعة دار الغرب الإسلامي-1993م، وينظر: كشف الظنون: 1096/2، هديةالعارفين:513/2،

(6) مطبوع في 7 مجلدات بدار الكتب العلمية- بيروت1424هـ-2003م.

(7) تاريخ الإسلام للذهبي:565/6، كشف الظنون:1102/2.

إنما يتراسلون في جباية خراج، أو سد ثغر، أو عمارة بلاد. أو إصلاح فساد، أو تحريض على جهاد، أو احتجاج على فئة، أو تعزية في رزية، أو ما شاكلها من جلائل الخطوب، ومعاظم الشؤون، التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة، وقد وسمتهم خدمة الملوك بشرفها. وبوأتهم منازل رياستها، واخطارهم عالية بحسب علو الخطر مما يفيضون فيه، ويذهبون إليه [1]. وقد صنف في هذا غير واحد من العلماء منهم: عبد الله بن طاهر (ت290هـ) له كتاب"طبقات الكُتَّاب[2]، وأحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الخصيب، له كتاب"طبقات الكتاب" ذكره ياقوت الحموي، وكتاب"طبقات الكتاب بالأندلس" لمحمد بن عاصم النحوي الشهير بالأفشتين[3].

خامسًا: علم الكلام:

وهو علم معروف ومشهور له كتبه ومصنفاته العديدة، وله رجاله في عصور الإسلام المختلفة، وقد صنف في طبقات وتراجم علماء الكلام غير كتاب نذكر منها ما يلي:

1 - "طبقات المتكلمين" لأبي بكر محمد بن فورك (ت406هـ).

2- "أخبار المتكلمين" لأبي عبد الله محمد بن عمران بن موسى البغدادي المرزباني(ت384هـ)[4].

3-"طبقات المعتزلة" للقاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمدان أسترابادي ت415هـ)[5].

سادسا: علم الطب والحكمة:

الأطباء طبقات مختلفة، سواء كانوا من العرب أو من غيرهم، وكذا الحكماء، وأشهر ما صنف في طبقاتهم ما يلي:

1-"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" للإمام موفق الدين أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة (ت668هـ)[6].

2 -"طبقات الأطباء" لأبي داود سلمان بن حسان المعروف بابن جلجل الاندلسي(ت327هـ) [7].

3- "صوان الحِكم" في طبقات الحكماء" للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد القرطبي(ت250هـ)[8].

---

(1) رسائل الثعالبي: مقدمة الكتاب.

(2) هدية العارفين:54/1 .

(3) ، تاريخ التراث العربي، لسزكين:29/1، تاريخ الأدب الأندلسي: ص309، إحسان عباس، مؤسسة الثقافة- بيروت-1960م.

(4) كشف الظنون:1106/1.

(5) كشف الظنون:1107/1.

(6) كشف الظنون:1096/2، أبجد العلوم:364/2.

(7) كشف الظنون:1096/2.

(8) كشف الظنون:1083/1.

4- "طبقات الحكماء وأصحاب النجوم والأطباء"، للوزير علي بن يوسف القفطي(ت646هـ)، وقد اختصره ابن أبي جمرة عبد الله بن سعد الأزدي [1].

وبهذا يمكن القول إن أشهر المصنفات في الطبقات، سلك أصحابها طريق التصنيف بحسب العلوم والفنون المختلفة، خدمة لهذا الفن وإبرازًا لمكانة وجهود رجاله فيه.

المطلب الثاني: التصنيف في الطبقات بحسب بلاد بعينها

وتهدف الكتب المصنفة في هذا القسم إلى التعريف بعلماء بلاد بعينها، أو المشاهير من أهل هذه البلاد في العلوم المختلفة، أو علم بعينه، كعلم الفقه وعلم الحديث على سبيل المثال، وكذا الأدباء والقضاة ونحوهم ، وأمثلة هذا القسم كثيرة نورد بعضها على النحو التالي:

أولا: في التراجم العامة للمشاهير:

1 - كتاب"بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس"للإمام الضبي، أحمد بن يحيى بن عميرة، (ت599هـ)، وهو كتاب مشهور، قال عنه مؤلفه: إنه شامل يؤرخ ويترجم ، حيث يلاحظ أنه لا يستثني في ترجمته ما دام المترجم له شخصا ملحوظًا في أي ناحية من النواحي الفكرية أو الأدبية أو السياسية أو الاجتماعية، سواء كان من أهل الأندلس أو وفد إليها واستقر بها، وقد رتبه ترتيبا زمنيا منذ فتح الأندلس، ورتب الأعلام فيه على حروف المعجم[2].

2- كتاب"الحلة السيراء" لابن الأبَّار(أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي ت658هـ) وهو كتاب نفيس يضم تراجم ابتداء من أهل المائة الأولى حتى المائة السابعة للهجرة، وقد صدر في القاهرة عن دار المعارف سنة 1962 في مجلدين بتحقيق د. حسين مؤنس[3].

وابن الأبَّار هذا يعد من عيون العلماء الذين صنفوا في التاريخ والتراجم حيث قاربت مصنفاته فيهما الأربعين كتابا، منها هذا الكتاب ومنها " التكملة لكتاب الصلة، وكتاب "المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي" على حسب ما ذكره بعض المحققين[4].

3 - كتاب"نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" وهو يتضمن تراجم علماء الهند وأعيانها من القرن الاول الهجري إلى القرن السابع، مقسمة على سبع طبقات، وهو للعلامة الشريف عبد الحي بن فخر الدين الحسني (ت1341ه) – مدير ندوة العلماء – بلكهنؤ- الهند[5].

---

(1) كشف الظنون:1096/1.

(2) بغية الملتمس: 17/1 مقدمة المحقق، و1/ 20 مقدمة المؤلف، والكتاب بتحقيق إبراهيم الإبياري، وصادر عن دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني سنة 1990م.

(3) الكتاب المذكور طبعة دار المعارف ضمن سلسلة ذخائر العرب،الطبعة الثانية 1985م. وينظر:تاريخ التراث العربي، لسزكين:31/1.

(4) د. حسين مؤنس في مقدمة تحقيق كتاب "الحلة السيراء" 45:46/1 بتصرف.

(5) ينظر الكتاب المذكور في الطبعة الثانية بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن- الهند:1382هـ-1962م.

4- ومن الكتب الجامعة النافعة التي خرجت لحيز النور في العصر الحاضر كتاب"موسوعة أعلام المغرب" وهي تشتمل على نشر تسع نصوص تراثية في التراجم ينشر بعضها للمرة الأولى، وتترجم هذه الموسوعة لأبرز الشخصيات في بلاد المغرب منذ عهد صدر الإسلام إلى نهاية القرن الرابع عشر الهجري.

والكتب والرسائل المنشورة فيها هي:

1 – تذكرة المحسنين بوفيات الـأعيان وحوادث السنين" لعبد الكبر بن المجذوب الفاسي.

2 – شرف الطالب في إِنى المطالب لأحمد بن قنفذ المسمطيني.

3 – وفيات الونشريسي " لأحمد بن يحيي الونشريسي.

4 –لقط الفرائد من لفاظة حُقق الفوائد" لأحمد بن القاضي.

5 –"دوحة الناشر بمحاسن من كان في المغرب في القرن العاشر"لمحمد بن عسكر الشفشاوني.

6- "إتحاف المطالع بوفيات أعلام القرن الثالث عشر والرابع" لعبد السلام بن عبد القادر بن سوداة.

7 –"سل النضال للنضال بالأشياخ وأهل الكمال" لعبد السلام بن عبد القادر بن سوداة.

8 –"نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني" لمحمد بن الطيب القادري.

9- "الإعلام بمن غبر من أهل القرن الحادي عشر" لعبد الله الفاسي[1]

وحظيت إفريقية بنصيب وافر من المصنفات في تراجم علمائها ونذكر من ذلك غير ما سبق:

طبقات علماء إفريقية لمحمد بن أحمد بن بن تميم التميمي، و"كتاب "قضاة قرطبة وعلماء أفريقية" لأبي عبد الله محمد بن الحارث بن أسد الخشني (ت361هـ)، وهومشهور ومطبوع بمكتبة الخانجي بالقاهرة[2]. ومن ذلك " فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور" لأبي عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي، وهو من منشورات دار الغرب الإسلامي سنة 1401هـ[3]. وهذا الكتاب على الرغم من صغره إلا أنه على درجة كبيرة من الأهمية، حيث يشتمل على مائتي ترجمة لعلماء عاشوا في هذه المنطقة مدة تقرب من مائة وستين سنة(1056-1215هـ/1650-1800م) والكتاب يتضمن كثير من هذه التراجم تاريخ مولد المترجم، وأحياناً بتعيين اليوم والساعة،

---

(1) تنظر الموسوعة المذكورة كاملة 10 مجلدات بتحقيق وتنسيق محمد حجي، وطبع" دار الغرب الإسلامي 1996م.

(2) ينظر الكتاب المذكور طبعة الخانجي الأولى 1372هـ- 1953م. بتحقيق السيد عزت العطار الحسيني.

(3)ينظر الكتاب المذكور بتحقيق محمد إبراهيم الكتاني ومحمد حجي- من منشورات الجمعية المغربية للتألبف والترجمة والنشر –دار الغرب الإسلامي:1401هـ-1981.

ومكان ولادته وتاريخ وفاته وتسمية أشياخه وما درسه عليهم من كتب وعلوم، وأحياناً أسانيده عنهم إلى مؤلفي هذه الكتب، ولأن منطقة بلاد التكرور هذه لا يكاد المختصون يعرفون عنهما إلا قليلاً، ولهذا فالكتاب يسد بذلك فراغا كبيرا في التعريف بأهلها[1].

ثانيًا: في تراجم وطبقات فقهاء ومحدثي بلاد بعينها:

1- طبقات فقهاء تونس، لعبد الله بن ابراهيم بن أبي العباس بن خلف التميمي التونسي [2].

2 - طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات ورؤساء الزمن" وشهرته"طبقات فقهاء اليمن"، لعمر بن علي بن سمرة بن الحسين ابن سمرة بن الهيثم بن أبي العشيرة أبو الخطاب الجعدي المؤرخ اليماني(ت586هـ). وهو كتاب مشهور، وقد نشر في القاهرة 1957م، وفي بيروت 1968م[3].

3 –"رياض النفوس في علماء مدينة القيروان وإفريقية" لأبي بكر عبد الله بن محمد القيرواني (ت453هـ).

4 –" طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها " لأبي محمد عبد الله بن محمد بن جعفر، المعروف بأبي الشيخ الأصبهاني(ت369هـ) وهو كتاب مشهور ومطبوع.

ثالثا: في تراجم وطبقات قضاة بلاد بعينها:

1- "تاريخ قضاة الأندلس" أو " المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا" لأبي الحسن بن عبد الله بن الحسن النُبَاهي المالقي الأندلسي، وقد سبقت الإشارة إليه[4].

2-"الولاة والقضاة" للكندي(أبي عمر محمد بن يوسف الكندي المصري ت350هـ)، قد تناول فيه من تولى مصر من الولاة والقضاة منذ الفتح الإسلامي لها، وقد طبع الكتاب بتصحيح وتهذيب رفن كَاست [5].

رابعًا: في تراجم وطبقات أدباء بلاد بعينها:

الوسيط في تراجم أدباء شنقيط" لأحمد بن الأمين الشنقيطي،وقد تناول أدباء شنقيط وتناول الكلام على بلادهم وتاريخهم وعاداتهم، وهو مطبوع بالمطبعة الجمالية بمصر سنة 1339هـ [6].

المطلب الثالث

التصنيف في طبقات خواص الناس والمشهورين بصفة أو مهنة

---

(1) نبذة مختصرة عن " فتح الشكور" من موقع النيل والفرات(www.neelwafurat.com)

(2) تكملة الصلة: 302/2، لأبي عبد الله القضاعي، بتحقيق عبد السلام الهراس، ط: دار الفكر:1415هـ 1995م.

(3) ينظر: كشف الظنون2/ 1105؛ الأعلام للزركلي 215/5؛ معجم المؤلفين لكحالة: 300/7.

(4) ينظر في مطلب :أهمية كتب الطبقات.

(5) ينظر الكتاب المذكور طبعة مطبعةالآباء اليسوعيين – بيروت 1908م.

(6) ينظر الكتاب المذكور مطبوعا في 551صفحة طباعة حجرية قديمة

وهذا المجال مجال رحب السعة أيضًا، حيث صنفت فيه العديد من المصنفات التي تتناول فئات من الناس بعينها، لصفة جامعة فيهم أو صنعة، وشمل ذلك الأنبياء والصحابة والتابعين والأولياء والصوفية والخلفاء والوزراء ونحوهم، وشمل كذلك الفرسان والمعبرين والخطاطين والفرضيين والنسابين. وطرف من هذه المصنفات يتناول حياة هؤلاء بالترجمة سواء بترتيب أبجدي أو بترتيب زمني، وطرف آخر يقسمهم إلى طبقات مختلفة، ويكفينا في هذا المقام أن نشير إلى أمثلة من الكتب المصنفة في خواص الناس وفئابهم المتعددة، مراعيا جع الشبيه مع شبيهه أو القريب منه، على النحو التالي:

أولا: الأنبياء صلوات ربي وسلامه عليهم:

ومن أمثلتها أرجوزة"طبقات الأنبياء عليهم السلام"، وهي لشمس الدين أبى الفتح محمد بن احمد بن يوسف، وتوجد منها نسخة مكونة من 14 ورقة بمكتبة بلدية الإسكندرية.

ثانيًا: الصحابة والتابعين وآل البيت رضوان الله عليهم:

صنف في الصحابة رضوان الله عليهم، كتب تراجم عامة وكتب طبقات، وكتب مناقب، ومن أمثلة ذلك:

1- الإصابة في تمييز الصحابة" لشيخ الإسلام شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد الشهير بابن حجر العسقلاني (ت852هـ)، وهو مرتب على حروف المعجم، والكتاب مطبوع ومشهور، وكانت أولى طبعاته بكلكلتا سنة 1853 في تسع مجلدات.

2- "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لأبي الحسن علي بن محمد ابن الجزري الشهير بابن الأثير(ت630هـ)، وهو مطبوع ومشهور.

ومن كتب الطبقات:

1 – " الطبقات الكبير" أو الطبقات الكبرى" لابن سعد(محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت230هـ)، وهو من أشهر ما صنف في هذا الشأن، والكتاب موسوعة مفصلة حيث تناول طرفا من السيرة النبوية، وقسم الصحابة إلى خمس طبقات، وتناول أيضا التابعين، بالإضافة لطبقات النساء، وقد سبق الكلام عليه.

2- طبقات الصحابة لأبي عروبة الحراني (ت311هـ)، وذكر بعضهم أن هذا الكتاب لأبي بكر عمرو محمد بن ابراهيم العاصمي تلميذ أبي عروبة[1].

ومن كتب المناقب " الرياض النضرة في مناقب العشرة " لمحب الدين أحمد بن عبد الله الطبري( )، وقد تناول فيه مناقب العشرة المبشرين بالجنة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم [2]. ومنها"مناقب الصحابة" لعبد الغني بن عبد الواحد بن علي الجمَّاعيلي،الشهير بعبد الغني المقدسي

---

(1) صلة الخلف بموصول السلف:293/1.

(2) مطبوع بدار المعرفة 1997م في ثلاث مجلدات، بتحقيق عبد المجيد طعمة حلبي.

(ت600هـ)، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الظاهرية بدمشق.
ومما صنف في التابعين:"جنة الناظرين في معرفة التابعين" لمحب الدين محمد بن النجا البغدادي ت643هـ. وتوجد منها نسخة كاملة بمكتبة دار العلوم الألمانية، بألمانيا الشرقية(سابقًا)، أو ما سميت بعد ذلك باسم مكتبة كارل ماركس في مدينة لايبزج جنوب ألمانيا الشرقية [1].
ومما صنف في آل البيت رضي الله عنهم كتاب" طبقات الطالبيين" لمحمد بن أسعد الحسيني (ت588هـ)[2].
ثالثا: الأولياء والنساك والصوفية: ومن أمثلتها:
1. - " طبقات الأولياء" لأبي عمر بن الملقن(ت804هـ)، مكتبة الخانجي بالقاهرة.
2. – "طبقات الأولياء لمحمد بن ابراهيم بن عبدالرحمن المناوي(ت 746هـ).
3. – "طبقات الصوفية" وذكر النسوة المتعبدات الصوفيات" لأبي عبد الرحمن محمد بن الحسين السُلمي(ت412هـ)، وهو مطبوع في دار الكتب العلمية 1412هـ.
4. "طبقات الخواص أهل الصدق والخلاص" لأبي العباس أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي (ت893هـ) [3]، وهو في طبقات الصوفية من أهل اليمن، والكتاب مطبوع في الدار اليمنية للنشر والتوزيع سنة 1406هـ-1986م.
5. "البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان" لأبي أحمد الملقب بابن مريم الشريف المليتي المديوني التلمساني، وهو مطبوع في الجزائر سنة 1336هـ-1908م.
رابعا: الخلفاء والولاة والفرسان: ومن أمثلتها:
1 - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك" للملك الأشرف إسماعيل بن العباس الغسّاني **(ت**803هـ)، وهو بتحقيق/شاكر محمود عبد المنعم، ونشرته دار البيان- بغداد ودار التراث الإسلامي،سنة: 1395هـ - 1975م.
2- "طبقات الفرسان" لأبي عبيدة معمر بن المثنى اللغوي(ت210هـ) [4].
خامسًا: البارعين في فن أو صنعة أو فرع من فروع العلم: ويشمل ذلك في تقديري:النسابين والمعبرين والخطباء والفرضيين(المواريث) والمغنين.
أ - "طبقات النسابين" لمحمد بن أسعد الحسيني (ت588هـ) [5].
ب - "طبقات المعبرين"لحسن بن الحسين الخلال، وقد استوعب فيه 7500 من الذين برعوا في تعبير الرؤى ، وقسمهم خمسة عشر قسمًا ابتدأهم

---

(1) صورة فوتغرافية لفهرس هذه المكتبة متوفرة لدى الباحث، يحتوي على بيانات (30 مخطوطة تاريخية-26 مخطوطة في أسماء الرجال-24 كتاب في التفسير وأسباب النزول -92 كتابا في الحديث وشروحه).
(2) كشف الظنون:1104/1.
(3) هدية العارفين:136/1.
(4) كشف الظنون:1105/1.
(5) كشف الظنون:1107/1.

بالأنبياء ثم الصحابة وهكذا [1].
ج - "طبقات الخطباء" لأحْمَد بن مُحَمَّد بن يُوسُف ابْن مَرَدَة الأصبهاني الأديب[2].
د - "طبقات الخطاطين لجلال الدين السيوطي (ت911)[3]، و"طبقات الخطاطين"لإبراهيم بن السَّيِّد مصطفى بن نفس الخطاط الرُّومِي الْحَنَفِيّ (ت1060هـ) [4].
هـ- "طبقات الفرضيين" لجلال الدين السيوطي[5].
و- "طبقات المغنين" لعمر بن بحر الجاحظ (ت255هـ)[6]، ومثله لأبي أيوب أيوب سُلَيْمَان بن ايوب بن احْمَد المدنى(ت400هـ) [7].

المطلب الرابع: التصنيف في الطبقات بحسب أزمنة بعينها

وهذا الصورة من صور كتب الطبقات يركز فيها المصنف على ترجمة قرن بعينه، أو قرون عديدة، بغض النظر عمن يترجم لهم ، بحيث يعد ترجمة فقط لا تخضع لأي تصنيف آخر سوى التصنيف الزمني. ولا يكاد يخلو قرن من القرون الزمنية من كتاب في تراجم مشاهير هذا القرن من العلماء والأعيان وغيرهم، ويتضح ذلك جليا في القرون الهجرية المتأخرة، أو بالأحرى من فوق القرن السابع الهجري. ولعل أبرز ما يميز هذا القسم من التصنيف أنك تجد المصنف فيه قد عاش خلال هذا القرن أو بعده بقرن أو قرنين على الأكثر. ونورد هنا ما وقفنا عليه من الكتب المطبوعة والمخطوطة في هذا القسم وفق الترتيب الزمني:

من مصنفات القرن السابع: "طبقات لمشاهير القرن السابع" للبرزاني (ت739هـ، ومثله للأدفوي(ت 748 هـ) [8].

من مصنفات القرن الثامن:

" الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني(ت852هـ)، وهو كتاب مشهور، وقد طبعته دار الجيل ببيروت سنة1414هـ- 1993م.

من مصنفات القرن التاسع: " الضوء اللامع في اعيان القرن التاسع" لمحمد بن عبدالرحمن بن محمد, السخاوي(ت902هـ)، وهو كتاب مشهور، وتتوافر منهه نسخ مخطوطة في معظم مكتبات العالم، وقد نشرته مكتبة القدسي بالقاهرة سنة 1353هـ. وعليه مختصر اسمه " البدر الطالع من الضوء اللامع

---

(1) كشف الظنون:1106/1-1107.
(2) هدية العارفين:72/1، مقدمة كتاب :طبقات الفقهاء الشافعيين:6/1.
(3) كشف الظنون:1099/1.
(4) هدية العارفين:31/1-32.
(5) كشف الظنون:1105/2.
(6) هدية العارفين:72/1.
(7) هدية العارفين:396/1، ومعجم التراث الإسلامي في مكتبات العالم:417/2، لعلي الرضا بلوط بلوط - أحمد طوران قره بلوط، ، وكتاب الجاحظ نشر في القاهرة 1324 وفي بغداد بمجلة المورد البغدادية 1978.
(8) ينظر: جلال الدين السيوطي :عصره وحياته: ص81.

لأهل القرن التاسع" لأحمد بن محمد بن محمد, ابن عبدالسلام (ت 931هـ)، وتتوافر منه نسخ بالمكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة بتونس، وبمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة، وبمخطوطات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
من مصنفات القرن العاشر: "الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة" للشيخ نجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي (ت1061هـ) [1].
من مصنفات القرن الحادي عشر: " لطف السمر وقطف الثمر من تراجم أعيان الطبقة الأولى من أعيان القرن الحادي عشر"لنجم الدين محمد بن محمد الغزي الدمشقي(ت1061هـ) [2].
من مصنفات القرن الثاني عشر: "سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر" لأبي الفضل محمد بن خليل بن علي المرادي (ت1206هـ)، وهو من منشورات دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة د.ت
من مصنفات القرن الثالث عشر:
أ-" حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر" للشيخ عبد الرزاق البيطار(1335هـ)، وقد نشره مجمع اللغة العربية في بغداد، وطبعته دار صادر في مجلد يحتوي ثلاث أجزاء سنة 1961م، 1993م [3].
ب- "المسك الإذفر في مزايا القرن الثاني عشر والثالث عشر" للسيد محمود شكري الألوسي[4].
من مصنفات القرن الرابع عشر:
أ-"المبتدأ والخبر لعلماء في القرن الرابع عشر وبعض تلاميذهم" لإبراهيم بن محمد بن ناصر السيف(معاصر)[5].
ب- "نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر" ومعه"عقد الجوهر في علماء الربع الأول من القرن الخامس عشر" د. يوسف المرعشلي[6].
وحيث انتهينا من إلقاء الضوء على طرق التصنيف وتقسيمات كتب الطبقات، فلنشرع بعون الله تعالى في بيان خصائصها وسماتها، وذلك من خلال سرد بعض أمثلة كتب الطبقات وتناولها بالدراسة والتحليل في المبحث التالي:

المبحث الثالث: خصائص كتب الطبقات ومنهجها- دراسة وتحليل[7]

---

(1) ينظر الكتاب المذكور مطبوعا في ثلاث مجلدات بدار الكتب العلمية – الأولى:1418هـ-1997م.
(2) ينظر الكتاب المذكور مطبوعا في مجلدين بتحقيق محمود الشيخ- من منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي بدمشق-د.ت.
(3) ينظر الكتاب المذكور والطبعة المذكورة.
(4) ينظر الكتاب المذكور مطبوعا في المكتبة العربية ببغداد – 1398هـ1930م.
(5) ينظر الكتاب المذكور مطبوعا في 5 مجلدات طبعة دار العاصمة بالرياض- الأولى:1426هـ2005م.
(6) ينظر الكتاب المذكور طبعة دار المعرفة – الأولى:1427هـ2006م ويقع في 2199 صفحة.
(7) **ملاحظة هامة:** هذا المبحث يعتمد بأكمله على الرجوع إلى جميع المراجع المذكورة في الأمثلة، دراسة وتحليلا لها، ولهذا آثرت أن لا أثقله بالحواشي التي أذكر فيها هذه الكتب، وهي جميعها متوفرة بفضل الله تعالى لدي، حيث لم أذكر شيئا عن كتاب منها إلا بعد وقوفي عليه، وتصفحي له في مواضع

سبق بيان أهمية كتب الطبقات ودورها الرائد في التراث الإسلامي، وكيف أنها تقدم صورة رائعة عن حياة وإنجازات عظماء هذه الأمة في شتى الميادين، ورأينا كيف أن طرق تصنيفها قد تنوعت، واتخذت أقساما مختلفة على نحو ما سبق في المبحث الثاني. وبناء على التنوع في طرق تصنيف كتب الطبقات، فإننا نجد بينها اختلافا ملحوظًا في الخصائص والسمات، حيث يتسم بعضها بالإسهاب في جانب والاختصار في آخر، ويهتم بعضها بذكر أشياء بينما يغفلها الآخر، وإن كانت هناك خصائص وسمات مشتركة في جميعها، وسمات أخرى تنفرد بها بعض كتب الطبقات، ولا توجد في غيرها.

ولا يمكن أن تكون الموازنة بين كتب الطبقات بإضفاء النقص على بعضها في مقابل الكمال للبعض الآخر، أو نقول إن خصائص هذا الكتاب إيجابية، وخصائص الأخرى سلبية، ولكن نقول من باب الإنصاف: إن كل كتاب له ظروفه ومنهجه في التصنيف، بل كل فن له ظروفه، ولهذا قد نجد المؤلف الواحد يصنف كتابين أو أكثر في الطبقات والتراجم، ومع ذلك يختلف أسلوبه في كل كتاب. وفي تناولي للخصائص حاولت قدر جهدي أن أختار طريقة مناسبة للتناول، فوجدت أن أفضلها طريقتان: الأولى: تقسيم الخصائص إلى خصائص عامة(موجودة في كل كتب الطبقات) وخصائص خاصة ببعض الكتب دون الأخرى، والطريقة الثانية: طريقة التجزئة لمضمون الترجمة للشخص(حيث إن الصورة الوافية للترجمة وذكر الشحص في كتاب الطبقات في تقديري ينبغي أن تتضمن ما يلي: اسم الشخص ونسبه مضبوطين، وتاريخ مولده ووفاته وموضع ذلك إن أمكن، ومناقبه ومآثره، وما قيل فيه أو عنه مدحًا أو قدحًا، وشيوخه وتلاميذه، ومؤلفاته التي خلَّفها، ومناصبه أو وظائفه التي تقلدها، وطرفا مما وقع معه من محن أو بلايا، وجهوده في الحياة السياسية والعسكرية إن كان خليفة أو قائدًا، وطرفا من كلامه إن كان من الحكماء أو العلماء أو الصوفية أو الأدباء أو الشعراء، وطرفًا من آرائه، إن كان فقيها، أو طبيبًا، أو مروياته إن كان محدِّثًا). وكانت طريقة التجزئة هي الأقرب لتوضيح الصورة وإبراز خصائص وسمات كتب الطبقات، ومناهج المؤلفين فيها، لاسيما حين ندعمها بذكر الأمثلة من الكتب المختلفة، ثم نعقبها بذكر خصائص معينة اتصفت بها طائفة من كتب الطبقات، لا تخضع – في تقديري – لتلك التجزئة، وذلك من خلال مطلبين على النحو التالي:

المطلب الأول: الخصائص المتعلقة بمحتوى ترجمة الشخص وجزئياتها في كتب الطبقات

عديدة، ولا أورد حواشٍ إلا فيما أذكره منسوبًا لغيري من تحليل أو دراسة أو نقد لبعض هذه الخصائص، أو توثيقا لنص منقول من بعض هذه الكتب.

ويشمل ذلك ذكر(الاسم والنسب، وتاريخ المولد والوفاة، والشيوخ والتلاميذ والمصنفات، والبلاد التي ارتبط بها الشخص المترجم له، ومناقبه ومآثره، ومصادر ترجمته أو التعريف به).

أولا: الاختلاف في طريقة عرض الاسم والنسب.

هذا أول ما يميز كتب الطبقات، حيث نجد اختلافا ملحوظا بين كتب الطبقات- وفق التقسيمات المختلفة التي ذكرناها- في طريقة عرض كل منها لاسم الشخص المترجم له ونسبه؛ ففي بعض المصنفات يعمد المصنف بداية إلى ذكر اسم الشخص وضبطه وضبط نسبه بالشكل جيدًا في الأعم الأغلب، ويورد ما في الاسم والنسب من الاختلاف، وفي بعضها الآخر يكتفي المصنف بذكر الاسم والنسب الأشهر ضبطا. ولا شك أن الطريقة الأولى أكثر فائدة من الثانية، حيث تقدم معلومات وافرة عن الاسم والنسب، لاسيما إذا ذكر المصنف مستنده في الاسم والنسب، سواء كان كتابا متقدما على كتابه، أو عالما نقل عنه ذلك.

فمن أمثلة الطريقة الأولى: "طبقات الشافعية" لجمال الدين الإسنوي(اهتم بالضبط بالشكل في مواضع كثيرة، واختصر في مواضع قليلة)

ومن أمثلة الطريقة الثانية: "طبقات علماء الحديث" لابن عبد الهادي، حيث لا يعرض لاختلاف في اسم الشخص ولا في نسبه.

ثانيًا: الاختلاف في ذكر تاريخ الميلاد والوفاة:

الناحية التاريخية في كتب الطبقات على درجة قصوى من الأهمية، وأهم شيئين في تاريخ الشخص المترجم له هما: متى ولد؟ ومتى توفي؟ فضبط هذين التاريخين يعطي صورة واضحة عن حياة الشخص ونشأته، ويختلف منهج المصنفين في ذلك، بما يجعل لكل كتاب سماته التي ليست في الآخر.

* فبعض المصنفين في الطبقات يذكر التاريخين(تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة)، بل ويورد ما فيهما أو في إحداهما من اختلاف تاريخي. **ومن أمثلة ذلك:**" المقفي الكبير" لتقي الدين المقريزي، حيث أورد في مواطن كثيرة من كتابه تاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة، و"ذيل طبقات الشافعية" للعبادي.

* بينما يكتفي البعض الآخر بذكر تاريخ الوفاة فقط، وغالبا يذكر التاريخ الأشهر، وهذه السمة تجدها غالبا في كتب الوفيات، ونجدها أيضا في بعض الكتب المؤلفة في الطبقات تبعًا للعلوم والفنون المختلفة.

ومن أمثلة ذلك:"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"لابن حجر العسقلاني، و"الوافي بالوفيات "للصفدي" وبعض كتب طبقات فقهاء المذاهب، كـ"طبقات الحنفية"، و"طبقات الشافعية"،و"بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" للسيوطي،و"طبقات علماء الحديث"لابن عبد الهادي. وثم بعض ثالث لا يذكر تاريخ ميلاد ولا وفاة، وهو في تقديري نوعان:

النوع الأول: كتاب لا يذكر أي شيء عن تاريخ الميلاد والوفاة، على الرغم من إسهابه في ذكر مآثر الشخص وما صدر عنه من أقوال، وما حصل له من مواقف، وما تولاه من مناصب، وأبرز مثال على ذلك كتاب" الحلة

السيراء" لابن الأبار، وفي تقديري أنَّ منهجه في ذلك إنما مرده إلى أنه قسم كتابه تبعا للقرون الزمنية بدءًا من المائة الأولى وانتهاء بالسابعة، وهذا الذي أغناه عن ذكر تاريخ الميلاد أو تاريخ الوفاة بالضبط.

والنوع الثاني: لا يذكر التواريخ، ولا يذكر أي معلومة أخرى سوى الصفة والاسم، وذلك لقيامه بتقسيم طبقاتهم إلى مراحل زمنية قد تكون ربع قرن أو ثلث قرن، وهذا واضح جلي في "المعين في طبقات المحدثين" للحافظ الذهبي، حيث ذكر حوالي 2443 شخصا في حوالي 29 طبقة منذ عصر الصحابة وحتى سنة سبعمائة وبضعة وعشرين من الهجرة، مما يجعل كتابه مجرد قاموس لأسماء المحدثين وطبقاتهم فقط.

ثالثا:الاختلاف في عرض أسماء شيوخ الشخص وتلاميذه ومؤلفاته.

يحرص بعض المصنفين في الطبقات على تقديم صورة واسعة لشيوخ الشخص المترجم له وتلاميذه، لما للشيوخ من الآثار الطيبة في حياته، وللتلاميذ من دلالة على جهوده وإنجازته المختلفة، وبعض كتب الطبقات تذكر الشيوخ فقط، وتشير إلى أنه سمع منه أو تتلمذ عليه عدد من التلاميذ على جهة العموم، وبعض ثالث من كتب الطبقات لا يذكر هذا ولا ذاك.

فمن أمثلة النوع الأول: "سير أعلام النبلاء" للذهبي، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لمخلوف، و"طبقات الشافعية"لابن قاضي شهبة.

ومن أمثلة النوع الثاني: "السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة" لمحمد بن حميد النحدي، حيث يشير في مواطن كثيرة للشيوخ فقط، وبإيجاز.

ومن أمثلة النوع الثالث:"المعين في طبقات المحدثين" للحافظ الذهبي، و"أصحاب الفتيا من الصحابة والتابعين"لابن حزم الأندلسي.

أما عن إنجازات الشخص المترجم له في كتب الطبقات من مؤلفات وغيرها، فإننا نجد تباينا واضحا في ذكرها كاملة أو ذكر بعض ما وقف عليه المصنف من أسمائها، أو عدم ذكرها مطلقًا، وعلى جهة العموم فإن ذكر مؤلفات الشخص تبدو جلية في كتب طبقات المحدثين والحفاظ والمفسرين والفقهاء واللغويين ونحوها مما يتعلق بعلوم معينة، وبالطبع فإن تعداد مؤلفات الشخص نابع من إنجازاته التي خلفها من المؤلفات كثرة وقلة، ونورد هنا أمثلة لكتب الطبقات التي اهتمت بذكر المؤلفات.

1 – "الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب"لابن فرحون، حيث يسرد طائفة كبيرة من مؤلفات العالم الذي يترجم له، ويثني أو ينقل ثناء العلماء على بعض هذه المؤلفات.

2- "درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة" لتقي الدين المقريزي (ت845هـ)، حيث يهتم بإيراد الكتب التي ألفها الشخص إن كان من العلماء في فن من الفنون.

رابعًا: الاختلاف في ذكر البلاد التي عاش فيها الشخص(ولادة ونشأة ترحالا ووفاة).

تحرص بعض كتب الطبقات على ذكر البلاد التي ارتبط بها الشخص نشأة وسفرا وترحالا، وذكر مكان ولادته ومكان وفاته، والبلاد التي حلَّ عليها طالبا للعلم أو معلِّمًا، بينما تغفل بعض الكتب ذكر ذلك أو تذكره نادرًا، ولا شك أن ذكر البلاد التي ارتبط بها الشخص لها أهمية كبيرة في التعرف على جانب هام من حياته. فمن أمثلة الكتب التي ذكرت ذلك: "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة" للسيوطي، و"شجرة النور الزكية في طبقات المالكية" لمخلوف و" السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة"للنحدي. ومن أمثلة الكتب التي تغفل ذلك: "المعين في طبقات المحدثين" للحافظ الذهبي.

خامسًا: الاختلاف في عرض مناقب الشخص ومآثره ومناصبه التي تولاها.

بينما نجد طائفة من كتب الطبقات والتراجم تذكر مناقب الشخص وصفاته وأخلاقه، وتورد شيئا مما قيل فيه مدحا وثناء، فإننا نجد طائفة أخرى تذكر المناصب التي تولاها الشخص أو تقلدها في مكان ما أو زمان ما، ونجد طائفة ثالثة لا تتعرض لشيء من ذلك بل تكتفي فقط بمجرد ترجمة عامة للشخص.

فمن أمثلة النوع الأول:"طبقات الصوفية" لمحمد بن الحسين السلمي، "وطبقات الخواص اهل الصدق والإخلاص" للزبيدي،و"طبقات المفسرين " لأحمد بن محمد الأدنه وي.

ومن أمثلة النوع الثاني:" الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"لابن حجر العسقلاني، و"طبقات الشافعية"لابن قاضي شهبة، "المقفي الكبير" لتقي الدين المقريزي، فهذه النماذج تناولت بالذكر مناصب الشخص المترجم له، وما تعرض له من فتن ومحن، وحط وترحال.

ومن أمثلة النوع الثالث:"المعين في طبقات المحدثين" للحافظ الذهبي، و"أصحاب الفتيا من الصحابة والتابعين"لابن حزم الأندلسي.

سادسًا: الاختلاف في ذكر مصادر المصنف التي ترجمت للشخص وعدم ذكرها.

تحرص بعض كتب الطبقات على ذكر المصادر التي ترجمت للشخص أو تكلمت عن طرف من حياته، وهذا في حد ذاته يعد توثيقًا وتأكيدًا للمعلومة التي يوردها، حيث يقول مثلا: ذكره فلان في كذا، أو أورده في كذا، وهذا نجده واضحًا في كتب التراجم والطبقات التي صنفت في الفقهاء، أو التي صنفت في عصور متأخرة، أو التي تتميز بإسهاب في الترجمة للشخص.

ومن أمثلة ذلك: "الجواهر المضية في طبقات الحنفية" لابن أبي الوفاء القرشي(ت775هـ)، حيث ينقل عن الحاكم النيسابوري، والذهبي، والخطيب البغدادي وغيرهم، و" السحب الوابلة على ضرائح النابلة" لمحمد بن عبد الله بن حميد النحدي المكي.بينما نجد عددا كبيرًا من كتب الطبقات لا تذكر مصادرها التي اعتمدت عليها، ولا تشير إلى من نقلت عنه، وهذا نجده واضحًا في كتب طبقات العصور المتقدمة، وفي كتب الطبقات التي تتميز بالاختصار. وبهذا يمكن القول بأن الاختلاف الملحوظ بين كتب الطبقات،

ومناهج المؤلفين فيها، ليعطي لكل كتاب منها خصائصه التي تميزه عن الآخر، بما يعد كل كتاب منها فريدًا في منهجه نافعًا في موقعه، موردًا للمعلومات المناسبة لحال الكتاب.

المطلب الثاني: الخصائص التي تميزت بها بعض كتب الطبقات- نماذج تحليلية

بدراسة طائفة من كتب الطبقات المصنفة تبعا للعلوم والفنون المختلفة، أو المصنفة في بعض خواص الناس، نجد أنها أفردت لبعض الأشخاص عشرات الصفحات، بحيث لم تقتصر على ذكر المعلومات الأساسية عنه، وفقا للتجزئة السابق ذكرها. بل تعدى دورها كتب الطبقات فأصبحت ترجمة الشخص فيها بمثابة موسوعة علمية كاملة عن الشخص، فذكرت معظم أو أكثر آرائه، إن كان فقيهًا من فقهاء السلف، أو فقهاء المذاهب، أو عالمًا من علماء اللغة، وطائفة كبيرة من مروياته إن كان صحابيا أو محدثًا أو حافظًا، وجملة نافعة من آرائه ونظرياته وإنجازاته الطبية إن كان طبيبًا، وإسهابا واسعا في ذكر كراماته ومناقبه سواء ما يقبله العقل منها أو ما لا يقبله،أو تمثل اعتدالا أو شطحًا، وما قيل فيه مدحًا وإطراءًا إن كان من الأولياء أو الصوفية، وطائفة من شعره ونثره إن كان شاعرًا أو أديبًا.

ولا يفهم من هذا أن جميع من ترجم له في هذه الكتب قد أخذ هذا الاهتمام الواسع، بل التوسع مبني على شهرة الشخص وجهوده، وإلا ففي بعض هذه الكتب ترجمات لأشخاص لا تزيد على سطر أو سطرين. وهذا النوع من كتب الطبقات-أعني الكتب الموسوعية- واسع المنفعة غزير الفائدة، لأن الشخص المترجم له قد تكون بعض كتبه أو مصنفاته أو أكثرها مفقودًا، فيكون الوصول إلى آرائه وإنجازاته عسيرًا، فيقدم كتاب الطبقات الذي تناوله ضالتنا المنشودة، وقد ينسب له من الآراء أو يتقول عليه ما لم يقل، فيكون كتاب الطبقات الذي ترجم له بهذا الشكل الواسع بمثابة الشاهد المثبت لما نسب إليه، أو النافي عنه ذلك.

ونحمد الله تعالى أن وصل إلينا طائفة من هذه الكتب الموسوعية التي أسهمت إلى حد كبير في تجلية الصورة وتقديم الرؤية الواضحة عن بعض الشخصيات التي أثرت في حياة البشرية في المجالات المختلفة.
وأكتفي هنا بأربعة نماذج من هذه الكتب من عصور مختلفة، بين كل كتاب والثاني منها أكثر من قرنين من الزمان،حيث ألقي الضوء عليها، وأبرز ما فيها من خصائص واسعة ميزتها عن غيرها من كتب الطبقات.

النموذج الأول "الطبقات الكبير"أوالطبقات الكبرى" لمحمد بن سعد بن منيع الزهري (ت230هـ)

تقدم الكلام عن كتاب طبقات ابن سعد ونسبته إليه، والكتاب يتكون هذا الكتاب من أجزاء، فالجزأين الأول والثاني خصصهما المؤلف للسيرة النبوية، .... وخصص الجزء الأخير للنساء.

والملاحظ في منهج الكتاب أن لابن سعد منهجه وخصائصه في قسم السيرة، ومنهجه وخصائصه في قسم الطبقات، والذي يعنينا هنا هو منهجه في الطبقات، ونلخصه في العناصر التالية:

- يُطلق المؤلف في طبقات من بعد الصحابة أحكام الجرح والتعديل على الرواة كقوله: ثقة ثبت مأمون،أو: ثقة ثبت حجة، أو ليس بذاك.
- يلاحظ تفاوت التراجم طولا وقصرًا في سائر الطبقات بحسب مكانة وأهمية المُترجم، فبعض التراجم فيها إطالة واضحة، وبعضها لا يتجاوز ذكر اسم المترجم دون ذكر أي معلومات تتعلق به.
- يلتزم ابن سعد الحيادية والاعتدال في الجرح والتعديل، فهو ينقل عن غيره ويقول رأيه بكل أمانة وحياد.
- يلتزم المؤلف سوق الإسناد للروايات المختلفة التي يذكرها في كتابه هذا في سائر الطبقات.
- يُقدِّم معلومات دقيقة عن المترجم من حيث صفاته الخَلقية أو الخُلُقية أو أحواله الدالة على مكانته العلمية أو على عقيدته كما يذكر بعض شيوخه وتلامذته،هذا بالإضافة إلى المعلومات الأساسية عن الاسم والنسب والنشأة. ونحوها[1].

النموذج الثاني "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم الأصفهاني (ت430هـ)

كتاب جليل النفع عظيم القدر صنفه صاحبه في المهاجرين وأهل الصُّفة من الصحابة والنساء من الصحابيات، والتابعين والنساك والعبَّاد، فأكثر من ذكر أحوال كثير منهم ومناقبه، ومروياته وأقواله، مما يعد معه الكتاب موسوعة علمية للأحاديث والآثار التي رووها والأقوال التي قالوها، وأبرز خصائصه ما يلي:

1 – الإطناب في ترجمة كثير من الصحابة الأجلاء، وإيراد طرف كبير من مناقبهم ومآثرهم وأقوالهم.

(ينظر ترجمته لكبار الصحابة، وزوجات النبي ρ وغيرهم).

2- إيراد طرف كبير من مروياتهم عن رسول الله ρ، والحكم على الكثير منها صحةً وضعفًا، لدرجة أن الكتاب اعتمد عليه كثير من العلماء القدامى في تخريج بعض الأحاديث والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم. (ينظر حكم أبي نعيم على طائفة كبيرة من الأحاديث والآثار التي أوردها في

---

(1) ينظر الكتاب المذكور، وينظر بحث: دراسة عن ابن سعد وكتابه"الطبقات الكبرى" منشور بموقع الجمعية العلمية السعودية للسنة وعلومها.

كتابه). وينظر: قيام الغزالي بتخريج ما يقرب من 50 حديثا وأثرًا منه في الإحياء، وابن الملقن في بضعة مواضع في البدر المنير، وابن حجر في الدراية، والسيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة).

3- إطراء الكتاب على كثير من الزهاد والعباد والنساك، ووصفهم بصفات رقيقة، تبين عن نقائهم وصفائهم وشدة زهدهم وعبادتهم، وقد التزم أبو نعيم في هذا الإطراء أسلوب السجع البلاغي الرقيق.

(ينظر ذلك واضحا في القسم الأخير من الكتاب الذي ذكرَ فيه طوائف من جماهير النساك والعباد).

النموذج الثالث"عيون الأنباء في طبقات الأطباء" لابن أبي أصيبعة (ت668هـ).

وقد صنفه ابن أبي أصيبعة الطبيب العربي المشهور باذلًا فيه جهدًا كبيرًا وعناء بالغًا، وترجم فيه لأربعمائة طبيب من كبار أطباء العالم المشهورين منذ بدء التاريخ وحتى عصره. فلم يكتف بأطباء العرب أو أطباء المسلمين، بل ترجم لأطباء الهند والرومان ، وقسم كتابه إلى عدة أقسام بلغت خمسة عشر قسمًا، وأهم ما يتسم به هذا السفر الضخم ما يلي:

1 – الإسهاب الواسع في ترجمة الأطباء المشهورين من الإغريق والهنود والعرب،بحيث يعطي صورة كاملة عن حياتهم وأساتذتهم وتلاميذهم ورحلاتهم المتعددة والمناصب التي تولوها(انظر ترجمته لجالينوس طبيب اليونان).

2- عرض طائفة كبيرة من إنجازات بعض الأطباء المشهورين، مثل نظرياتهم واكتشافاتهم الطبية، واختراعاتهم للآلات المختلفة، وطرفا من العمليات الجراحية والعلاجية الصعبة التي قاموا بها لبعض الناس كالحكام والولاة بشيء من التفصيل الواسع، بحيث يبرز مهارة هذا الطبيب وبراعته(انظر ترجمته للطبيب جبرائيل بن بختيشوع بن جورجس، ومواقفه وبراعته في علاج الرشيد والمأمون ومعاصريهم).

3- اشتمال الكتاب على معلومات طبية بالغة الأهمية، وعلى تعريف واسع بعلم الطب وخصائصه، وقواعده، مما يجعل الكتاب كتابا في الطب والطبقات في آن واحد(ينظر الباب الأول من الكتاب).

4- تقديم الكتاب لمفاجآت عن بعض العلماء والأدباء والشعراء، لم يُعرف عنهم خبرة أو اهتماما بالطب،إلا من خلال كتاب ابن أبي أصيبعة، حيث يورد معلومات عن براعتهم في الطب على الرغم من كونهم أدباء أو فقهاء أو شعراء، ويستشهد على ذلك بذكر بعض الكتب التي قرأوها أو درسوها.

(ينظر على سبيل المثال تراجمه لأبي الحجاج يوسف بن موراطير الأندلسي، وأبي جعفر أحمد بن حسان الغرناطي، وسليمان أبي بكر بن تاج، وموفق الدين عبد العزيز) حيث ذكر عنهم اشتغالهم بالفقه والأدب والحديث ونحوها من العلوم الشرعية واللغوية.

5 – لا يهتم الكتاب بذكر التواريخ(لا الميلاد ولا الوفاة إلا فيما ندر) ولعل ذلك يعود في تقديري إلى أنه قسَّمه حسب العصور والبلدان المختلفة، فلم يكن للاهتمام بالتواريخ فائدة، أو لكون كثير من الأطباء عاصروا دولا بعينها أو حكامًا بعينهم، فيسهل حينئذ الوقوف على تاريخ حياتهم من خلال معرفة تاريخ ذلك الحاكم أو تلك الدولة. ولأهمية الكتاب اهتم الغرب به حيث قام المستشرق الألماني"مولر" بنشره بعد عثوره على نسختين خطيتين له في سنة 1884م، وفي سنة1299ه طبع في مصر نقلا عن الطبعة الألمانية،وتعد طبعته المصرية نادرة الوجود حاليا [1]. وتلقفه أحد الأطباء المعاصرين بتأليف ذيل عليه أو تكملة له من سنة 650هـ إلى بدايات القرن العشرين الميلادي، وهو الطبيب المصري أحمد عيسى بك الذي ألف كتابه"معجم الأطباء من سنة 650 إلى يومنا هذا " أو "ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء، وقد رتبه على حروف المعجم.وقد طبع الكتاب بمطبعة فتح الله إلياس نوري وأولاده بمصر في سنة 1361هـ-1942م ، وهو الكتاب رقم 18 من منشورات كلية الطب بجامعة فؤاد الأول(جامعة القاهرة حاليا)[2].

النموذج الرابع "طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص" للزبيدي (ت893هـ)

تتسم الكتب المصنفة في طبقات الصوفية بالتوسع الكبير في ذكر مناقب ومآثر الشخصيات الذين وردوا فيها، حيث يجد القارئ فيها إسهابا في ذكر أقوالهم وكراماتهم وما جرى لهم أو وقع منهم سواء اتفق مع العقل أو بعُد عنه، وما قيل فيهم مدحا وإطراء. ومن ذلك طبقات الصوفية للسلمي (ت412هـ) الذي جمع فيه- على حد قوله- خمس طبقات من أئمة الصوفية ومشايخهم وعلمائهم، وذكر في كل طبقة عشرين شخصًا، موردًا كلامهم وشمائلهم وسيرتهم وحالهم وعلمهم[3]. ومنها"طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص"للزبيدي(ت893هـ) والذي أورد فيه حكايات عن الأولياء والصوفية من الكرامات والمقامات ونحوها، وفيها الكثير من الأمور، التي يتوقف عندها المرء، إما لغرابتها، وإما لأنها تتنافى مع الشرع، ويأباها العقل. ولكن على أية حال أكتفي هنا بذكر أمثلة مما ورد في كتاب الزبيدي لتكون دلالة على انفراد كتب طبقات الصوفية والأولياء بخصائص قلما توجد في غيرها.

1– ذكر الزبيدي في ترجمة أبي الحسن علي بن قاسم العليف بن هيش بن عمر بن نافع الحكمي: أن من قرأ عند قبره سورة يس 41مرة متصلة بلا

---

(1) مقدمة كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء:ص5، للدكتور نزار رضا- منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت- بدون تاريخ.

(2) ينظر الكتاب المذكور، وهو يقع في 532 صفحة.

(3) ينظر كلام السلمي في مقدمة كتابه الكتاب المذكور:ص21، بتحقيق مصطفى عبد القادر عطا- ط:دار الكتب العلمية:1419هـ-1998م.

فصلٍ بينها، قضيت حاجته كائنة ما كانت[1].
2- ذكر الزبيدي في ترجمة الشيخ طلحة بن عيسى بن إبراهيم بن أبي بكر(ابن الشيخ عيسى بن إقبال الهتار) أن القاضي أحمد التهامي الحاكم بزبيد دخل عنده ليكلمه في أمر فمكث عنده ساعة وخرج لم يتكلم معه، فسأله بعض الناس لم لم تسأله؟ فقال: والله ما قعدت عنده إلا رأيت النبي ρ عنده (وهذا عند من يعتقد برؤية النبي ρ في اليقظة) [2]. وهكذا نجد انفراد كتب طبقات الصوفية والأولياء ونحوهم بخاصية التوسع في سرد أقوال وكرامات وحكايات الأشخاص الذين وردت تراجمهم فيها.
وبنظرة تحليلية لما سبق ذكره من الأمثلة يمكننا استخلاص النتائج التالية:
أولا: تختلف ترجمة الشخص في كتب الطبقات إطنابًا واختصارًا تبعًا لشهرة الشخص وجهوده في المجال الذي تخصص فيه أو برع فيه، ويبدو ذلك جليًا في كتب الطبقات التي تناولت الفقهاء والمفسرين والمحدثين واللغويين ونحوهم من أرباب العلوم.
ثانيًا: يمكن اعتبار بعض كتب الطبقات المتشابهة سلسلة متواصلة تكمل بعضها بعضًا، فما أغفله مصنف في كتابه ، أتى به مصنف آخر، وما اختصره واحد أسهب فيه غيره، ولهذا فمن أراد أن يجمع معلومات وافرة عن محدث أو فقيه أو مفسر، فليبحث في أكبر عدد من كتب الطبقات في نفس الفن، فإنه يجد ضالته المنشودة.
ثالثًا: أن لكل كتاب من كتب الطبقات ظروفه الخاصة وخصائصه التي تجعل منه مصدرًا نافعًا في موضوعه، بغض النظر عن اختصاره أو إطنابه، أو صغره أو ضخامته، فالكتاب قد يكون موجزًا في عرضه لكن معلوماته دقيقة وموثوقة يعتمد عليها.
رابعًا: أن التنوع في طرق عرض المعلومات في كتب الطبقات، لا شك يحقق أهدافًا مختلفة لطالب المعلومة والباحث عنها، لأن أفكار الباحثين ومشاربهم تختلف من شخص لآخر، فبعضهم يريد اختصارًا، والبعض الآخر يريد إطنابًا، وهناك من يهتم بالتواريخ، وهناك من لا يهتم بها، ولكن يهتم بالشيوخ والتلاميذ والمصنفات، فهذا التنوع في الخصائص يحقق لكل صاحب غرضٍ غرضه.
خامسًا: أن بعض كتب الطبقات اتسمت بالحيادية في نقل المعلومات والدقة والتحري فيها، والتعرض لبعض المعلومات بالنقد والتحليل والإثبات والنفي. بينما نجد بعضها الآخر اعتمدت على المبالغات المفرطة، متأثرة في ذلك بالمجتمع الذي عاش فيه الشخص المترجم له، فنقلت كل ما نسب إليه أو أثر عنه أو وُصِف به غثًا كان أو سمينًا، وكان موقف مصنف الكتاب من تلك المعلومات والمبالغات موقف الناقل فقط، فلم يتدخل بنقد أو تحليل

(1) طبقات الخواص" للزبيدي: ص201.
(2) طبقات الخواص" للزبيدي: ص164.

التراجم والطبقات: دراسة إحصائية

عمر أنور الزبداني
جامعة الدوحة/قطر

مقدمة

تعد كتب الطبقات والتراجم من أهم مصادر التراث الإسلامي؛ لما حوته من معلومات قيمة، تتعلق بتاريخ الأمة الإسلامية، وجهود علمائها، وعطاءات مفكريها، وأخبار قادتها، ومسيرتها العلمية والثقافية. وتنبع أهميتها أيضاً من خلال ما تقدمه تلك المصادر للباحثين من معلومات مهمة عن أحوال المجتمعات الإسلامية، تقدماً وتأخراً، وإقبالاً وإدباراً.
تهدف هذه الورقة إلى رصد كتب التراجم والطبقات التي أُلفت عبر التاريخ الإسلامي، ومن ثم تصنيفها وترتيبها وفق ثلاثة معايير، هي وفق التالي: المعيار الموضوعي، المعيار الزماني، المعيار المكاني. وقد رتبت عناوين الكتب داخل كل صنف ترتيباً أبجديًّا. وغضضت الطرف عن كتب التاريخ التي تضمنت تراجم للعديد من الأعلام، ككتاب "الكامل" لابن الأثير، وكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير، وكتاب "تاريخ الإسلام" للذهبي، ونحو ذلك من كتب التاريخ؛ لأنني أرى أنها ألصق بالمادة التاريخية منها بالمادة التراجمية. هذا، ولا تدعي هذه الورقة أنها جمعت فأوعت كُتب التراجم والطبقات، ولكنها محاولة لتصنيف هذه الكتب وَفْق المعايير المختارة في هذا البحث. وقد ارتأيت أن أتناول موضوع هذه الورقة بحسب العناوين الفرعية التالية:
أولاً: تصنيف كتب التراجم والطبقات موضوعيًّا.
ثانياً: تصنيف كتب الطبقات والتراجم مكانيًّا.
ثالثاً: تصنيف كتب الطبقات والتراجم زمانيًّا.
أولاً: المعيار الموضوعي :الذي أقصده بالمعيار الموضوعي أن عناوين الكتب المدرجة تحت هذا المعيار لم تلحظ في عناوينها جانب الزمان والمكان في ترجمة الأعلام، وإنما جاءت تحت عنوان عام من عناوين التراجم والطبقات، وقد تكون مادتها معالجة وفق المعيار الزماني أو المعيار المكاني. وأشهر الكتب التي جاءت وفق هذا المعيار الكتب التالية:
- أحسن الوديعة في تراجم أشهر مشاهير مجتهدي الشيعة: محمد مهدي بن محمد الكاظمي (1391هـ). جزءان، تتمة لكتاب "روضات الجنات". طبع ببغداد (1347هـ).
- أحوال الرجال: إبراهيم بن يعقوب بن إسحاق السعدي الجوزجاني، أبو إسحاق (259هـ). المحقق: عبد العليم عبد العظيم البَستوي. باكستان- فيصل آباد: حديث أكادمي.

- أخبار أبي حنيفة وأصحابه: الحسين بن علي بن محمد بن جعفر، أبو عبد الله الصَّيْمَري الحنفي (436هـ)، بيروت: عالم الكتب، الطبعة الثانية، (1405هـ-1985م)، جزء واحد.
- أخبار القضاة: أبو بكر محمد بن خلف بن حيان بن صدقة الضبي البغدادي، الملقب بـ (وكيع) (306هـ)، المحقق: عبد العزيز مصطفى المراغي.
- اختصار القِدح المعلى في التاريخ المحلى: علي بن موسى ابن سعيد المغربي (685هـ). تحقيق: إبراهيم الأبياري. اختصره أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل. ضم الكتاب (72) ترجمة. جزء واحد، طبع في مصر (1959م).
- اختصار تهذيب الكمال: أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي المتوفى سنة (765هـ)، المجلد الثاني منه، بخطه، يبدأ من "شبل بن العلاء"، وينتهي بـ "ليث بن أبي المساور". دمشق: المكتبة العربية.
- اختصار وفيات الأعيان لابن خلكان: أبو القاسم بن محمد بن طركاط العكي. مخطوط.
- إرشاد القاصي والداني إلى تراجم شيوخ الطبراني: أبو الطيب نايف بن صلاح بن علي المنصوري. قدم له: د.سعد بن عبد الله الحميد. مراجعة: أبو الحسن مصطفى بن إسماعيل السليماني المأربي. الرياض: دار العبيكان. الإمارات: مكتبة ابن تيمية. جزء واحد.
- أُسْد الغابة في معرفة الصحابة: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (630هـ). بيروت: دار الفكر، (1409هـ-1989م).
- إسعاف المبطأ برجال الموطأ: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). مصر: المكتبة التجارية الكبرى. جزء واحد.
- أسماء الصحابة الرواة: ابن حزم (456هـ).
- أسماء المدلسين: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). المحقق: محمود محمد محمود حسن نصار. بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى. جزء واحد.
- أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام وأسماء من قتل من الشعراء: محمد بن حبيب (245هـ). طبع الكتاب في مصر سنة (1954م).
- أسماء من يُعرف بكنيته: أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (374هـ). المحقق: أبو عبد الرحمن إقبال. الهند: الدار السلفية، الطبعة الأولى، (1410هـ-1989م).
- إعجام الأعلام: محمود مصطفى (1941م). طبع في مصر سنة (1935م). جزء واحد.
- أعلام المهندسين في الإسلام: أحمد تيمور باشا (1930م). ترجم لـ (107) مهندساً. جزء واحد، طبع في مصر 1957.
- أعلام النساء: عمر رضا كحالة. ثلاثة مجلدات. طبع في دمشق (1359هـ).

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام: لسان الدين ابن الخطيب (776هـ). القسم الثاني الخاص بتاريخ إسبانيا المسلمة هو أهم أقسام الكتاب. تحقيق: المستشرق الفرنسي ليفي بروفنسال. طبع في بيروت، ط2، (1956م).
- أعيان الشيعة: محسن بن عبد الكريم بن علي بن محمد الأمين، الحسيني العاملي (1371هـ). طبع منه (35) جزءاً في دمشق، ابتداء من سنة (1353هـ-1935م). ولم يتم، وطبع منه بعد وفاته إلى السادس والخمسين.
- أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (764هـ). المحقق: الدكتور علي أبو زيد، الدكتور نبيل أبو عشمة، الدكتور محمد موعد، الدكتور محمود سالم محمد. تقديم: مازن عبد القادر المبارك. بيروت: دار الفكر المعاصر. دمشق: دار الفكر، الطبعة الأولى (1418هـ-1998م). خمسة أجزاء.
- إكمال الإكمال (تكملة لكتاب الإكمال لابن ماكولا): محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (629هـ). المحقق: د.عبد القيوم عبد ريب النبي. مكة المكرمة: جامعة أم القرى، الطبعة الأولى. (1410هـ). خمسة أجزاء.
- الإرشاد في معرفة علماء الحديث: أبو يعلى الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني (446هـ). المحقق: د.محمد سعيد عمر إدريس. الرياض: مكتبة الرشد.
- الأسامي والكنى للإمام أحمد رواية ابنه صالح: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (241هـ). المحقق: عبد الله بن يوسف الجديع. الكويت: مكتبة دار الأقصى، الطبعة الأولى (1406هـ-1985م).
- الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (463هـ). المحقق: علي محمد البجاوي. بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى (1412هـ-1992م). أربعة أجزاء.
- الأسماء المفردة: أحمد بن هارون ابن روح، البرديجي (300هـ). رسالة مخطوطة في المكتبة الخالدية بالقدس.
- الإصابة في تمييز الصحابة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية.
- الإعلام بما وقع في مشتبه الذهبي من الأوهام: جردها من توضيح المشتبه مؤلفهما محمد بن أبي بكر عبد الله بن محمد، المعروف بابن ناصر الدين (842هـ). مخطوط كتب سنة (829)، وطرته بخط مؤلفه. في المكتبة العربية بدمشق.
- الأغاني: علي بن الحسين (أبو الفرج الأصفهاني) (356هـ). يتضمن الكتاب تراجم نحو (500) شاعر...وفيه أخبار الخلفاء والأمراء، والقواد...طبع عدة طبعات.

- الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط: برهان الدين الحلبي أبو الوفا إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الشافعي، سبط ابن العجمي (841هـ). المحقق: علاء الدين علي رضا، وسمى تحقيقه (نهاية الاغتباط بمن رمي من الرواة بالاختلاط) وهو دراسة وتحقيق وزيادات في التراجم على الكتاب. القاهرة: دار الحديث، الطبعة الأولى (1988م). جزء واحد.
- الإفادة في تاريخ الأئمة السادة: للإمام الزيدي يحيى بن هارون. مخطوطة كتبت سنة (1047هـ) في (الفاتيكان 1159 عربي).
- الإكليل والتاج في تذييل كفاية المحتاج: محمد بن الطيب بن عبد السلام الحسني القادري (1187هـ). في تراجم علماء المالكية. ذكره الزِّركلي.
- الإكمال في ذكر من له رواية في مسند الإمام أحمد من الرجال سوى من ذُكر في تهذيب الكمال: شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي (765هـ). تحقيق: د.عبد المعطي أمين قلعجي. كراتشي: منشورات جامعة الدراسات الإسلامية. (يطبع لأول مرة عن نسختين خطيتين مع استدراكات الحافظ ابن حجر عليه). جزء واحد.
- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (475هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1411هـ-1990م). سبعة أجزاء.
- الألقاب = منتخب الألقاب: ابن الفرضي (403هـ).
- الانبساط بتلخيص الاغتباط بتراجم أعلام الرباط: محمد بن محمد بن عبد الله المسفيوي المراكشي، ابن الموقت (1369هـ). رسالة استخلصها من كتاب الاغتباط لمحمد أبي جندار.
- الإيثار بمعرفة رواة الآثار: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). المحقق: سيد كسروي حسن. بيروت: دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى (1413هـ). جزء واحد.
- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (1250هـ). بيروت: دار المعرفة.
- البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (817هـ). تحقيق: محمد المصري. يضم الكتاب (422) ترجمة. الناشر: دار سعد الدين للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (1421هـ-2000م). جزء واحد.
- التاريخ الأوسط (مطبوع خطأ باسم التاريخ الصغير): محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (256هـ). المحقق: محمود إبراهيم زايد. القاهرة: دار الوعي. حلب: مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى، (1397هـ-1977م). جزءان.

- التبيين لأسماء المدلسين: برهان الدين الحلبي أبو الوفا إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الشافعي سبط ابن العجمي (841هـ)، المحقق: يحيى شفيق حسن، بيروت: دار الكتب العلمية.
- التحبير في المعجم الكبير: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (562هـ). المحقق: منيرة ناجي سالم، بغداد: رئاسة ديوان الأوقاف، الطبعة الأولى (1395هـ- 1975م).
- التراجم الساقطة من الكامل في معرفة ضعفاء المحدثين وعلل الحديث، مؤلف الكامل في الضعفاء: أبو أحمد عبد الله بن عدي بن عبد الله بن محمد ابن مبارك بن القطان الجرجاني (365هـ). استدراك وتحقيق: أبو الفضل عبد المحسن الحسيني. القاهرة: مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى (1413هـ-1993م). جزء واحد.
- التراجم الساقطة من كتاب إكمال الكمال، من ترجمة (الحسن البصري) إلى ترجمة (الحكم بن سنان): مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، أبو عبد الله (762هـ). تحقيق ودراسة: طلاب وطالبات مرحلة الماجستير (1424هـ-1425هـ). جامعة الملك سعود. إشراف: د.علي بن عبد الله الصياح، تقديم: د.محمد بن عبد الله الوهيبي. المملكة العربية السعودية: دار المحدث، ط1، (1426هـ). جزء واحد.
- التشوف إلى معرفة رجال التصوف: يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن التادلي، المعروف بابن الزيات (627هـ). مخطوط في جزء لطيف في الرباط. والنسخة حديثة الخط، جاء في مقدمة مؤلفها: شرعت في تصنيف هذا الكتاب في شهر شعبان المبارك سنة (617هـ)، ولم أتعرض فيه لأحد من الأحياء.
- التعديل والتجريح لمن خرَّج له البخاري في الجامع الصحيح: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي القرطبي الباجي الأندلسي (474هـ). المحقق: د.أبو لبابة حسين. الرياض: دار اللواء للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1406هـ-1986م). جزء واحد.
- التعليقات السنية على الفوائد البهية: محمد عبد الحي اللّكْنَوِي (1304هـ). اقتصر فيها على كبار التراجم الواردة في الكتاب.
- التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد: محمد بن عبد الغني بن أبي بكر بن شجاع، أبو بكر، معين الدين، ابن نقطة الحنبلي البغدادي (629هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م). جزء واحد.
- التكملة لكتاب الصلة: ابن الأبَّار (658هـ).
- التكملة لوفيات النقلة: إملاء الحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري (656هـ). مخطوط في إجزاء صغيرة، قُرئت عليه.

- التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ: أحمد رافع بن محمد الحسيني القاسمي الطهطاوي الحنفي (1355هـ). عني بنشره: القدسي. دمشق: مطبعة الترقي، ط1 (1348هـ). جزء واحد.
- الثقات: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (354هـ). طبع بإعانة: وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، تحت مراقبة: الدكتور محمد عبد المعيد خان مدير دائرة المعارف العثمانية. الهند حيدر آباد الدكن: دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى (1393هـ-1973م). تسعة أجزاء.
- الجواهر المضية في طبقات الحنفية: عبد القادر بن محمد بن نصر الله القرشي، أبو محمد، محيي الدين الحنفي (775هـ). كراتشي: مير محمد كتب خانه. جزءان.
- الحافل: أحمد بن محمد بن مفرج الأشبيلي، أبو العباس النباتي العشاب، ويُعرف بابن الرومية (637هـ). سفر ضخم، جعله ذيلاً لكتاب "الكامل في الضعفاء" لابن عدي. واختصر "الكامل" في مجلدين. ذكر الزِّركلي.
- الحُلَّة السيراء: محمد بن عبد الله ابن الأبَّار (658هـ). تحقيق: حسين مؤنس. يضم الكتاب (216) ترجمة. جزءان، يتناول الأول: تراجم أهل المئات: الأولى، والثانية، والثالثة، والرابعة. ويتناول الثاني: الخامسة، والسادسة، والسابعة. طبع في مصر (1963-1964م).
- الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: زينب بنت علي بن حسين بن عبيد الله بن حسن بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز العاملي (1332هـ). مصر: المطبعة الكبرى الأميرية، الطبعة الأولى (1312هـ). جزء واحد.
- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب: إبراهيم بن علي بن محمد، ابن فرحون، برهان الدين اليعمري (799هـ). تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. القاهرة: دار التراث للطبع والنشر. جزءان.
- الذيل التابع لإتحاف المطالع: عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة: مخطوط، جعله ذيلاً لكتابه "إتحاف المطالع". بدأه بوفيات (1371هـ)، انتهى بها إلى السنة (1377هـ).
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (703هـ). هو ذيل وتكملة لكتابين: (الموصول) وهو كتاب (تاريخ العلماء والرواة للعلم والأندلس) لابن الفرضي، و(الصلة) لابن بشكوال، وهذا الأخير ذيل لكتاب ابن الفرضي. فالكتاب تتمة لكتاب ابن بشكوال، واستدراك لما فاته وفات ابن الفرضي. يتضمن الجزء الذي نشر منه بقيه السِّفر الرابع، وفيه (407) ترجمات. وهو جزء واحد، حققه إحسان عباس، الطبعة الأولى (1964م)، بيروت: دار الثقافة. ثم صدر السِّفر الخامس في جزأين، وفيه (1299) ترجمة، طبع سنة (1965م)، ثم صدر السِّفر الأول في جزأين، وفيه (871) ترجمة، تحقيق: محمد بن شريفة.

- الرد الوافر: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين (842هـ). المحقق: زهير الشاويش. بيروت: المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى (1393هـ). حزء واحد.
- الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردهم: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: محمد إبراهيم الموصلي. بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى (1412هـ-1992م). جزء واحد.
- الروض الباسم في حوادث العمر والتراجم: عبد الباسط بن خليل الملطي (920هـ). قطعة منه في 51 صفحة.
- الروضة الريا فيمن دفن بدرايا: عبد الرحمن بن علي بن عبد الرحمن بن علي أفندي العمادي الدمشقي الحنفي (1223هـ). المحقق: عبده علي الأشعث. دمشق: دار المأمون للتراث، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م).
- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة: محمد بن عبد الله بن علي بن عثمان ابن حميد العامري، النجدي، الحنبلي (1295هـ). مخطوط في الخزانة التيمورية بمصر. طبع حديثاً.
- السلوك في طبقات العلماء والملوك، ويعرف بـ (طبقات الجندي): محمد بن يوسف بن يعقوب، أبو عبد الله، بهاء الدين الجُنْدي اليمني (732هـ). صنعاء: مكتبة الإرشاد، (1995م)، الطبعة الثانية، تحقيق: محمد بن علي بن الحسين الأكوع الحوالي. جزءان.
- الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية: أحمد بن مصطفى بن خليل، أبو الخير، عصام الدين طاشْكُبْري زَادَهْ (968هـ). بيروت: دار الكتاب العربي.
- الضعفاء الصغير: محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ). ويليه كتاب "الضعفاء والمتروكين" للإمام أحمد بن علي بن شعيب النسائي (303هـ). تحقيق: محمد إبراهيم زايد. بيروت: دار المعرفة، ط1، (1406هـ-1986م).
- الضعفاء والمتروكون: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدار قطني (385هـ). المحقق: د.عبد الرحيم محمد القشقري، أستاذ مساعد بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية. المدينة المنورة: مجلة الجامعة الإسلامية.
- الضعفاء والمتروكون: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (303هـ). المحقق: محمود إبراهيم زايد. حلب: دار الوعي. الطبعة الأولى (1396هـ). جزء واحد.
- الضعفاء والمتروكون: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (597هـ)، المحقق: عبد الله القاضي. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1406هـ). ثلاثة أجزاء.

- الضعفاء: أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (430هـ). المحقق: فاروق حمادة. الدار البيضاء: دار الثقافة، الطبعة الأولى (1405هـ-1984م). جزء واحد.
- الطبقات السنية في تراجم الحنفية: تقي الدين بن عبد القادر التميمي الداري الغزي (1010هـ).
- الطبقات الصغرى: تاج الدين عبد الوهاب السبكي. مخطوط في جزء واحد، مرتب على الحروف.
- الطبقات الكبرى = لوافح الأنوار في طبقات الأخيار: عبد الوهاب بن أحمد بن علي الحَنَفي، نسبه إلى محمد ابن الحنفية، الشَّعْراني، أبو محمد (973هـ). مصر: مكتبة محمد المليجي الكتبي وأخيه، (1315هـ). جزءان.
- الطبقات الوسطى: محمد بن إبراهيم المناوي. مخطوط في جزء صغير، كتب سنة (1196هـ). وفيه تراجم لرجال، قال: إنهم سيأتون من بعده! ترجم لهم على سبيل الكشف.
- الطبقات: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (303هـ). المحقق: مشهور حسن، عبد الكريم الوريكات. الزرقاء: مكتبة المنار. الطبعة الأولى (1408هـ-1987م).
- العقيق اليماني في وفيات وحوادث المخلاف السليماني: عبد الله بن علي بن النعمان الشقيري الضمدي. مخطوط في مجلد ضخم في مكتبة نصيف بجدة. وهو ذيل لكتاب "غربال الزمان" ليحيى بن أبي بكر العامري الحرضي.
- الفتح المبين في طبقات الأصوليين: عبد الله مصطفى المراغي (معاصر). كتاب تراجم خاص بعلماء أصول الفقه من مختلف المذاهب والأقطار. رتبه المؤلف على طبقات من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر الهجري، ورتب علماء كل طبقة بحسب الأسبقية بالوفاة. ثلاثة أجزاء، طبع أولاً بمصر، ثم طبع ببيروت سنة (1394هـ-1974م).
- الفكر السامي في تاريخ الفكر الإسلامي: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي. ابتدئ طبعه بمطبعة إدارة المعارف بالرباط عام (1340هـ)، وكمُل بمطبعة البلدية بفاس في ربيع عام (1345هـ). أربعة أجزاء.
- الفوائد البهية في تراجم الحنفية: محمد عبد الحي اللّكْنَوِي (1304هـ). لخصه من (طبقات الكفوي) المسماة (كتائب أعلام الأخيار) للكفوي. الكتاب جزء واحد، وقد طبع بمصر (1324هـ).
- ألقاب الشعراء ومن يُعرف منهم بأمه: محمد بن حبيب. طبع بمصر (1374هـ-1954م).
- ألقاب الصحابة والتابعين في المسنَدَين الصحيحين: أبو علي الحسين بن محمد الغساني الجياني (498هـ). المحقق: د محمد زينهم محمد عزب، ومحمود نصار. القاهرة: دار الفضيلة. جزء واحد.
- الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: محمد عوامة أحمد

محمد نمر الخطيب. جدة: دار القبلة للثقافة الإسلامية-مؤسسة علوم القرآن، الطبعة الأولى (1413هـ-1992م).
- الكشف الحثيث عمن رمي بوضع الحديث: برهان الدين الحلبي أبو الوفا إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي الشافعي سبط ابن العجمي (841هـ). المحقق: صبحي السامرائي. بيروت: عالم الكتب, مكتبة النهضة العربية، الطبعة الأولى (1407هـ-1987م). جزء واحد.
- الكنى والأسماء: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (261هـ). المحقق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري. المدينة المنورة: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى (1404هـ-1984م).
- الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية: محمد عبد الرؤوف بن تاج العارفين ابن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (1031هـ). الجزء الأول. طبع في مصر (1357هـ).
- الكواكب النيرات في معرفة من الرواة الثقات: بركات بن أحمد بن محمد الخطيب، أبو البركات، زين الدين ابن الكيال (929هـ). المحقق: عبد القيوم عبد رب النبي. بيروت: دار المأمون، الطبعة الأولى، (1981م). جزءان.
- اللباب في تهذيب الأنساب: علي بن محمد، ابن الأثير (630هـ). معجم تراجم مرتب على الأنساب أو الألقاب، أكثر عنايته برواة الحديث والمحدثين، وهو تهذيب لأنساب السمعاني. الكتاب ثلاثة أجزاء، طبع في مصر أولاً، ثم طبع في بيروت.
- المؤتلف والمختلف = الأنساب المتفقة في الخط المتماثلة في النقط: أبو الفضل محمد بن طاهر بن علي بن أحمد المقدسي الشيباني، المعروف بابن القيسراني (507هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى. (1411هـ). جزء واحد.
- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم: أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (370هـ). المحقق: الأستاذ ف.كرنكو. بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى (1411هـ-1991م). جزء واحد.
- المؤتَلِف والمختَلِف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (385هـ). تحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (1406هـ-1986م). خمسة أجزاء.
- المتفق والمفترق: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (463هـ). تحقيق: محمد صادق آيدن الحامدي. دمشق: دار القادري للطباعة، الطبعة الأولى (1417هـ-1997م). ثلاثة أجزاء.
- المجد الشامخ فيمن اجتمعت بهم من أعيان المشايخ: فتح الله بن أبي بكر البناني (1353هـ). مخطوط. أربعة أجزاء في مجلدين. رتبه تلميذه محمد بن

أحمد سباطة، وصدره وختمه باستطرادات وأخبار من سيرة مصنفه، وسماه "الفتح الرباني في التعريف بالشيخ فتح الله بن أبي بكر البناني".
- المجمع المفنن بالمعجم المعنون: عبد الباسط بن خليل الملطي (920هـ). (تراجم على حروف المعجم). مخطوط ذكره الزِّركلي.
- المحمدون من الشعراء وأشعارهم: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (646هـ).تحقيق: حسن معمري. راجعه: حمد الجاسر. الناشر: دار اليمامة، (1390 هـ-1970م). جزء واحد.
- المختلطين: صلاح الدين أبو سعيد خليل بن كيكلدي بن عبد الله الدمشقي العلائي (761هـ). المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب، علي عبد الباسط مزيد. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (1417هـ-1996م). جزء واحد.
- المختلف فيهم: أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي، المعروف بـ ابن شاهين (385هـ). المحقق: عبد الرحيم بن محمد بن أحمد القشقري. الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (1420هـ-1999م). جزء واحد.
- المدلسين: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (826هـ). المحقق: رفعت فوزي عبد المطلب، نافذ حسين حماد. الناشر: دار الوفاء، الطبعة الأولى، (1415هـ-1995م). جزء واحد.
- المستظرف من أسماء الجواري: السيوطي (911هـ). رتبه المؤلف على الحروف. فيه تراجم (47) جارية. نشره صلاح الدين المنجد. الكتاب جزء واحد، طبع في بيروت سنة (1963م).
- المعجم الصغير لرواة الإمام ابن جرير الطبري: أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري. تقديم: علي حسن عبد الحميد الأثري. الناشر: الأردن: الدار الأثرية، القاهرة: دار ابن عفان. جزءان.
- المعجم المختص بالمحدثين: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). تحقيق: محمد الحبيب الهيلة. الطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م). جزء واحد.
- المعجم في أسامي شيوخ أبي بكر الإسماعيلي: أبو بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن العباس بن مرداس الإسماعيلي الجرجاني (371هـ). المحقق: زياد محمد منصور. المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى (1410هـ). ثلاثة أجزاء.
- المعجم في مشتبه أسامي المحدثين: عبيد الله بن عبد الله بن أحمد بن يوسف الهروي (405هـ). المحقق: نظر محمد الفاريابي. الرياض: مكتبة الرشد. الطبعة الأولى (1411هـ). جزء واحد.

- المعمرون والوصايا: سهل بن محمد السجستاني (255هـ). فيه تراجم الذين عمروا من الرجال في الجاهلية وفي عصر صدر الإسلام. جزء واحد، طبع في مصر سنة (1961م).
- المعين في طبقات المحدثين: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: همام عبد الرحيم سعيد، عمَّان: دار الفرقان، الطبعة الأولى (1404هـ) جزء واحد.
- المغني في أسماء رجال الحديث: محمد طاهر الصديقي الهندي الفتني، كان يلقب بـ (ملك المحدثين)، (986هـ). طبع في دهلي، على هامش "تقريب التهذيب" (1290هـ).
- المغني في الضعفاء: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: الدكتور نور الدين عتر.
- المقتضب من كتاب تحفة القادم: إبراهيم بن محمد البَلْفيقي (القرن الثامن). تحقيق: إبراهيم الأبياري. يضم (104) ترجمة قصيرة. جزء واحد، وقد طبع في مصر (1957م).
- المقتنى في سرد الكنى: شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: محمد صالح عبد العزيز المراد. المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، الطبعة الأولى (1408هـ). جزءان.
- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين (884هـ). المحقق: د.عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (1410هـ-1990م). ثلاثة أجزاء.
- المنتخب من ذيل المذيل: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (310هـ). بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- المنتخب من شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الرحيم بن مصطفى بن أحمد الدمشقي الصالحي، يُعرف بـ (ابن شقدة) (1160هـ). مخطوط. كان في المكتبة الظاهرية بدمشق.
- المنتخب من معجم شيوخ السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (562هـ). دراسة وتحقيق: موفق بن عبد الله بن عبد القادر. الرياض: دار عالم الكتب، الطبعة الأولى (1417هـ-1996م). جزء واحد.
- المَنْهَج الأحمد في طبقات الإمام أحمد: عبد الرحمن بن محمد العمري العليمي (928هـ). مخطوط في مجلدين.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (874هـ). تحقيق: محمد محمد أمين. تقديم: سعيد عبد الفتاح عاشور. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. سبعة أجزاء.

- الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: محمد بن عمران المرزباني (384 هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي. فيه تراجم لشعراء جاهلين، وعددهم (20)، وإسلاميين، وعددهم (39)، ومحدثين، وعددهم (38). جزء واحد، طبع في مصر سنة (1965م).
- الهداية والإرشاد في معرفة أهل الثقة والسداد: أحمد بن محمد بن الحسين بن الحسن، أبو نصر البخاري الكلاباذي (398هـ). المحقق: عبد الله الليثي. بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى (1407هـ). جزءان.
- الوافي بالوفيات: خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي (764هـ). أوفى الكتب المؤلفة في تراجم الرجال. ترجم فيه للأعيان، فلم يغادر أحداً إلا ذكره. رتبه على الحروف، لكنه بدأ بالمحمدين، وأتم بعدهم حرف الميم، ثم عاد إلى الألف. طبع من الكتاب أجزاء عديدة على التوالي.
- الوجيز في ذكر المُجَاز والمُجِيز: صدر الدين، أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (576هـ). المحقق: محمد خير البقاعي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (1411هـ-1991م). جزء واحد.
- الوفيات: تقي الدين محمد بن هجرس بن رافع السلامي (774هـ). المحقق: صالح مهدي عباس, د.بشار عواد معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (1402هـ). جزءان.
- الولاة والقضاة: محمد بن يوسف الكندي (350هـ). طبع في بيروت (1908م)، وفي آخره ذيل لأحمد بن عبد الرحمن بن برد، من الصفحة (477) إلى (500)، وملحق في أخبار القضاة بمصر بين سنتي (237هـ) و(419هـ).
- اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة: محمد البشير ظافر الأزهري (بعد1329هـ). الجزء الأول. طبع في مصر (1324هـ).
- أمل الآمل: محمد بن الحسن الحر العاملي (1104هـ). أوسع كتب التراجم الشيعية انتشاراً، وقد حفظ لنا أسماء كادت تنسى، وأثبت تراجم عديدة مفصلة ومختصرة من العامليين وغيرهم، كدنا نفقدها لولا هذا الكتاب. جزءان، طبع في بغداد ط1 سنة (1385هـ).
- إنباء الغمر بأبناء العمر: ابن حجر العسقلاني (852هـ). قال المؤلف: "هذا الكتاب يحسن من حيث الحوادث أن يكون ذيلاً على ذيل تاريخ الحافظ عماد الدين ابن كثير؛ فإنه انتهى في ذيل تاريخه إلى هذه السنة، ومن حيث الوفيات أن يكون ذيلاً على الوفيات التي جمعها الحافظ تقي الدين ابن رافع؛ فإنها انتهت أيضاً إلى أوائل هذه السنة".
- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (646هـ). بيروت: المكتبة العصرية، الطبعة الأولى (1424هـ). أربعة أجزاء.

- أوصاف الناس في التواريخ والصلات، تليها الزواجر والعظات: لسان الدين ابن الخطيب السلماني (776هـ). تحقيق: محمد كمال شبانة. يضم الكتاب نحو مائة وخمسين (150) ترجمة. طبع تحت إشراف اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة.
- بحر الدم فيمن تكلم فيه الإمام أحمد بمدح أو ذم: يوسف بن حسن بن أحمد بن حسن ابن عبد الهادي الصالحي، جمال الدين، ابن المِبْرَد الحنبلي (909هـ). تحقيق: روحية عبد الرحمن السويفي. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1413هـ-1992م).
- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم. صيدا: المكتبة العصرية. جزءان.
- بهجة الناظرين إلى تراجم المتأخرين من الشافعية البارعين: محمد بن أحمد بن عبد الله الغَزِّي الشافعي الدمشقي (864هـ). مخطوط في الظاهرية بدمشق.
- تاج التراجم في طبقات الحنفية: أبو الفداء زين الدين أبو العدل قاسم بن قُطلُوبغا السودوني (نسبة إلى معتق أبيه سودون الشيخوني) الجمالي الحنفي (879هـ). المحقق: محمد خير رمضان يوسف. دمشق: دار القلم، الطبعة الأولى (1413هـ-1992م). جزء واحد.
- تاريخ أسماء الثقات: أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي، المعروف بـ ابن شاهين (385هـ). المحقق: صبحي السامرائي. الكويت: الدار السلفية، الطبعة الأولى (1404هـ-1984م). جزء واحد.
- تاريخ أسماء الضعفاء والكذابين: أبو حفص عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي، المعروف بـ ابن شاهين (385هـ). المحقق: عبد الرحيم محمد أحمد القشقري. الطبعة الأولى (1409هـ-1989م). جزء واحد.
- تاريخ الثقات: أبو الحسن أحمد بن عبد الله بن صالح العجلى الكوفى (261هـ). الناشر: دار الباز، الطبعة الأولى (1405هـ-1984م). جزء واحد.
- تاريخ الحكماء: أصل اسم الكتاب (إخبار العلماء بأخيار الحكماء): جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (646هـ). لم يصل هذا الكتاب إلينا إلا في مختصر، أكمله محمد بن علي الزوزني، وسماه (المنتخبات الملتقطات)، أو (تاريخ الحكماء). وهو يشتمل على (414) ترجمة لعلماء اليونان والعرب. والكتاب يعد مصدراً من المصادر الأساسية في تاريخ العلم العربي. المحقق: إبراهيم شمس الدين. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1426هـ-2005م). جزء واحد.

- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم: أبو المحاسن المفضل بن محمد بن مسعر التنوخي المعري (442هـ). تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة: هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية (1412هـ-1992م). جزء واحد.
- تاريخ حكماء الإسلام، أو تتمة صوان الحكمة: أبو الحسن ظهير الدين علي بن زيد بن محمد بن الحسين البيهقي، الشهير بابن فندمه (565هـ). تحقيق: محمد كرد علي. فيه (111) ترجمة موجزة، ليس بينها موضع لغير النابهين البارزين. ونجد في هذه التراجم المختصرة، ما لا نجده في كتب السِّيَر المطولة. طبع في دمشق (1946م). جزء واحد.
- تاريخ فلاسفة الإسلام: محمد لطفي جمعة (1953م). فيه اثنا عشرة ترجمة مطولة لكبار فلاسفة الإسلام. جزء واحد، طبع في مصر سنة (1927م).
- تاريخ مولد العلماء ووفياتهم: أبو سليمان محمد بن عبد الله بن أحمد بن ربيعة بن سليمان بن خالد بن عبد الرحمن بن زبر الربعي (379هـ). المحقق: د.عبد الله أحمد سليمان الحمد. الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى (1410هـ). جزء واحد.
- تالي تلخيص المتشابه: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (463هـ). المحقق: مشهور بن حسن آل سلمان, أحمد الشقيرات. الرياض: دار الصميعي، الطبعة الأولى (1417هـ). جزاءن.
- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). تحقيق: محمد علي النجار. مراجعة: علي محمد البجاوي. بيروت: المكتبة العلمية. أربعة أجزاء.
- تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري: علي بن الحسن (ابن عساكر) (571هـ). فيه ترجمة للإمام الأشعري، وتراجم مشاهير الأشاعرة من قرون متطاولة على طبقاتهم، فيه زهاء ثمانون ترجمة. جزء واحد، طبع في دمشق سنة (1347هـ)، نشره حسام الدين القدسي.
- تتمة الأعلام للزِّركلي، وفيات (1396-1415هـ)، (1976-1995م)، يليه المستدرك الأول والثاني: محمد خير رمضان. بيروت: دار ابن حزم، ط2 (1422هـ-2002م). جزءان.
- تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل: أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين الكردي الرازياني ثم المصري، أبو زرعة ولي الدين، ابن العراقي (826هـ). المحقق: عبدالله نوارة، الرياض: مكتبة الرشد. جزء واحد.
- تحفة القادم: ابن الأبَّار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (658هـ). تحقيق: د.إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (1406هـ-1986م). جزء واحد.
- تذييل سلافة العصر: عبد الله بن علي نور الدين بن نعمة الله الموسوي الجزائري التستري (1173هـ). تحقيق: السيد هادي باليل الموسوي. الناشر: المكتبة الأدبية المختصة.

- تراجم إسلامية شرقية وأندلسية: محمد عبد الله عنان. ترجم فيه لـ (28) من أعلام التاريخ الإسلامي. جزء واحد، طبع في مصر، ط2 (1970م).
- تراجم رجال الدار قطني في سننه الذين لم يترجم لهم في التقريب ولا في رجال الحاكم: مقبل بن هادي بن مقبل بن قائدة الهمداني الوادعي (1422هـ). صنعاء: دار الآثار، الطبعة الأولى (1420هـ-1999م). جزء واحد.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، المشهور بـ (المدارك): أبو الفضل القاضي عياض بن موسى اليحصبي (544هـ). تحقيق: أحمد بكير محمود. بيروت: دار مكتبة الحياة، (1387هـ-1967م). خمسة مجلدات.
- تسمية فقهاء الأمصار من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (303هـ). المحقق: محمود إبراهيم زايد. حلب: دار الوعي، الطبعة الأولى (1369هـ). جزء واحد.
- تسمية مشايخ أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي النسائي وذكر المدلسين: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (303هـ). المحقق: الشريف حاتم بن عارف العوني. مكة المكرمة: دار عالم الفوائد، الطبعة الأولى (1423هـ). جزء واحد.
- تسمية من أخرجهم البخاري ومسلم وما انفرد كل واحد منهما: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري، المعروف بابن البيع (405هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، الطبعة الأولى (1407هـ). جزء واحد.
- تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). المحقق: إكرام الله إمداد الحق. بيروت: دار البشائر، الطبعة الأولى (1996م). جزء واحد.
- تعريف الخلف برجال السلف: أبو القاسم محمد الحفناوي بن أبي القاسم الديسي ابن إبراهيم الغول. قسمان في مجلد واحد. طبع في الجزائر (1324هـ-1906م).
- تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). المحقق: عاصم بن عبدالله القريوتي. عمَّان: مكتبة المنار، الطبعة الأولى (1403هـ-1983م). جزء واحد.
- تعليقات الدار قطني على المجروحين لابن حبان: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدار قطني (385هـ). تحقيق: خليل بن محمد العربي. القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة، دار الكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى (1414هـ-1994م). جزء واحد.

- تقريب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). المحقق: محمد عوامة. سوريا: دار الرشيد، الطبعة الأولى (1406هـ-1986م). جزء واحد.
- تقريظ للحافظ ابن حجر العسقلاني على الرد الوافر: محمد بن أحمد بن محمد بن خير الله، أبو الفضل، صفي الدين الحنفي الأثري الحسيني البخاري (1200هـ). المحقق: محمد بن إبراهيم الشيباني، الكويت: مكتبة ابن تيمية. جزء واحد.
- تقييد المهمل وتمييز المشكل (شيوخ البخاري المهملون): الحسين بن محمد الغساني الجياني (498هـ). المحقق: محمد أبو الفضل. المغرب: وزارة الأوقاف (1418هـ-1997م). جزء واحد.
- تكملة إكمال الإكمال في الأنساب والأسماء والألقاب: ابن الصابوني, محمد بن علي بن محمود، أبو حامد، جمال الدين المحمودي (680هـ). تحقيق: مصطفى جواد. يضم الكتاب (378) ترجمة لأناس في مختلف الطبقات، وقد اهتم المؤلف بالمحدثين؛ لأنه من صنفهم. وترجم كثيراً من معاصريه من الذين يندر العثور عليهم في الكتب الأخرى، وجماعة من النساء يصعب الوقوف على سيرهن في غيره. الكتاب جزء واحد، طبع في بغداد سنة (1957م).
- تكملة معجم المؤلفين، وفيات (1397-1415هـ) = (1977-1995م): محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف. بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى (1418هـ-1997م). جزء واحد.
- تلخيص مجمع الآداب في معجم الألقاب: عبد الرزاق بن أحمد ابن الفوطي (723هـ). تحقيق: مصطفى جواد. أجزل كتب الألقاب فائدة. طبع من الكتاب الجزء الرابع بأقسامه الأربعة في دمشق سنة (1962-1967م).
- تنـزيل الرحمات على من مات: أحمد القطان، من رجال القرن الثالث عشر. مخطوط جزءان في مكتبة الحرم المكي.
- تهذيب الأسماء واللغات: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (676هـ). عنيت بنشره: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية. أربعة أجزاء.
- تهذيب التهذيب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). الهند: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الطبعة الأولى (1326هـ). اثنا عشر جزءاً.
- تهذيب الكمال في أسماء الرجال: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي المزي (742هـ). المحقق: بشار عواد معروف. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (1400هـ-1980م). خمسة وثلاثون مجلداً.

- تهذيب مستمر الأوهام على ذوي المعرفة وأولي الأفهام: سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (475هـ). المحقق: سيد كسروي حسن. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1410هـ). جزء واحد.
- توشيح الديباج: بدر الدين محمد بن يحيى بن عمر القرافي (1008هـ). رسالة مخطوطة في التراجم، ذيَّل بها "الديباج" لابن فرحون.
- توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، الشهير بابن ناصر الدين (842هـ). المحقق: محمد نعيم العرقسوسي. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى (1993م).
- جزء الأوهام في المشايخ النبل: ضياء الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسي (643هـ). المحقق: بدر بن محمد العماش. المدينة: دار البخاري، الطبعة الأولى (1413هـ-1992م). جزء واحد.
- جنة الناظرين في معرفة التابعين: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن، أبو عبد الله، محب الدين ابن النجار (634هـ). ذكره الزِّرِكلي[1].
- حديقة الأفراح لإزاحة الأتراح: أحمد بن محمد الأنصاري الشرواني (1256هـ). تشتمل على لطائف لطفاء اليمن، ونبغاء الحرمين، وبلغاء مصر، ومحاسن ظرفاء الشام والعراق، ونبهاء الروم والمغرب، وأذكياء البحرين وعُمان، وأدباء الهند والعجم. جزء واحد، طبع في مصر سنة (1282هـ).
- حساب العقود: علي بن خليل بن إبراهيم بن محمد علي الرازي الطهراني ثم النجفي (1269هـ). مخطوط في التراجم، ذكره الزِّركلي.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أحمد بن عبد الله الأصفهاني، أبو نعيم (340هـ). يشتمل على زهاء (800) ترجمة. يقع الكتاب في عشرة أجزاء، وطبع عدة طبعات. منها طبعة دار الكاتب العربي ببيروت (1387هـ-1967م). (اختصره ابن الجوزي في "صفة الصفوة"، انتقد أنه بالغ في الاختصار والإيجاز. ثم جاء محمد بن الحسن الحسيني، فاختصره اختصاراً وسطاً مع زيادة تراجم فيه).
- خلاصة تذهيب تهذيب الكمال في أسماء الرجال (وعليه إتحاف الخاصة بتصحيح الخلاصة للعلامة الحافظ البارع علي بن صلاح الدين الكوكباني الصنعاني): أحمد بن عبد الله بن أبي الخير بن عبد العليم الخزرجي الأنصاري الساعدي اليمني، صفي الدين (بعد923هـ). المحقق: عبد الفتاح أبو غدة. حلب: مكتب المطبوعات الإسلامية. بيروت: دار البشائر، الطبعة الخامسة (1416هـ).
- درة الحجال في أسماء الرجال: أحمد بن محمد المكناسي، الشهير بابن القاضي (1025هـ). تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور. طبع في القاهرة (1970-1971م). ثلاثة أجزاء.

[1] يُنظر: الأعلام: 86/7.

- دستور الإعلام بمعارف الأعلام: شمس الدين محمد بن عمر ابن عزم التونسي (891هـ). مخطوط في مكتبة الحرم بمكة، كتب سنة (1171هـ) نقلاً عن نسخة كتبت في دمشق سنة (1091هـ). جديد في أسلوبه، جمع فيه على صغر حجمه تراجم أشهر الرجال، ولا تتجاوز الترجمة ثلاثة أسطر، وجعله على خمسة أقسام، ورتب كل قسم على الحروف، فالقسم الأول فيمن اشتهر باسمه، والثاني فيمن اشتهر بكنيته، والثالث فيمن اشتهر بنسب أو سبب أو لقب، والرابع فيمن اشتهر بـ (ابن)، والخامس فيمن اشتهر بـ (صاحب).
- ديوان الإسلام: شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي (1167هـ). المحقق: سيد كسروي حسن. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1411هـ-1990م). أربعة أجزاء.
- ذكر أسماء التابعين ومن بعدهم ممن صحت روايته عن الثقات عند البخاري ومسلم: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدار قطني (385هـ). المحقق: بوران الضناوي، كمال يوسف الحوت. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى (1406هـ-1985م). أربعة أجزاء.
- ذكر أسماء من تُكلم فيه وهو موثَّق: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: محمد شكور بن محمود الحاجي أمرير المياديني. الزرقاء: مكتبة المنار، الطبعة الأولى (1406هـ-1986م). جزء واحد.
- ذكر من اختلف العلماء ونقاد الحديث فيه: عمر بن أحمد بن عثمان بن أحمد بن محمد بن أيوب بن أزداذ البغدادي، المعروف بـ ابن شاهين (385هـ). المحقق: حماد بن محمد الأنصاري. الرياض: مكتبة أضواء السلف، الطبعة الأولى (1419هـ-1999م). جزء واحد.
- ذيل الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين: أحمد العلاونة. جدة: دار المنارة، ط1 (1418هـ-11998م).
- ذيل التقييد في رواة السنن والأسانيد: محمد بن أحمد بن علي، تقي الدين، أبو الطيب المكي الحسني الفاسي (832هـ). المحقق: كمال يوسف الحوت. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1410هـ-1990م). جزءان.
- ذيل الشقائق النعمانية: محمد (عطاء الله) بن يحيى بن بير علي ابن نصوح، المتلخص على الطريقة التركية، بعطائي، المعروف بنوعي زاده (1044هـ). جزءان، بالتركية. سماه (حدائق الحقائق في تكملة الشقائق) في التراجم، أخذ عنه المحبي كثيراً. استكمل بهما أعلام دولة السلطان مراد خان الثالث ابن أحمد خان. وختمه بقوله: "كمل بعون الله في أول ربيع الآخر سنة (1044هـ) حرره الفقير عطاء الله القاضي بأسكوب غفر له"، وفي نهاية النسخة المطبوعة ما معناه: كمل كتاب "حدائق الحقائق في تكملة الشقائق" في غرة ذي الحجة (1268هـ).

- ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم: عبد العزيز بن أحمد بن محمد بن علي التميمي، أبو محمد الكتاني الدمشقي (466هـ). المحقق: عبد الله أحمد سليمان الحمد. الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى (1409هـ). جزء واحد.
- ذيل تذكرة الحفاظ: شمس الدين أبو المحاسن محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني الدمشقي الشافعي (765هـ)، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1419هـ-1998م). جزء واحد.
- ذيل ذيل تاريخ مولد العلماء ووفياتهم: هبة الله بن أحمد بن محمد بن هبة الله، أبو محمد، الأمين، الأنصاري الدمشقي، ابن الأكفاني (524هـ). المحقق: عبد الله بن أحمد بن سلمان الحمد. الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى (1409هـ). جزء واحد.
- ذيل طبقات الحفاظ للذهبي: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). المحقق: الشيخ زكريا عميرات. بيروت: دار الكتب العلمية. جزء واحد.
- ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (795هـ). المحقق: عبد الرحمن بن سليمان العثيمين. الرياض: مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى (1425هـ-2005م. خمسة أجزاء.
- ذيل مرآة الزمان: موسى بن محمد اليونيني (726هـ). جزءان. طبع بحيدر آباد (1374-1375هـ).
- ذيل ميزان الاعتدال: أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم العراقي (806هـ). المحقق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1416هـ-1995م). جزء واحد.
- رجال الحاكم في المستدرك: مقبل بن هادي بن مقبل بن قائدة الهمداني الوادعي (1422هـ). الناشر: مكتبة صنعاء الأثرية، الطبعة الثانية (1425هـ-2004 م). جزءان.
- رجال صحيح مسلم: أحمد بن علي بن محمد بن إبراهيم، أبو بكر ابن منجويه (428هـ). المحقق: عبد الله الليثي. بيروت: دار المعرفة، الطبعة الأولى (1407هـ). جزءان.
- روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات: محمد باقر الخوانساري (1313هـ). في تراجم الرجال. أربعة أجزاء في مجلد واحد ضخم. الطبعة الثانية (1367هـ).
- رونق الألفاظ بمعجم الحفاظ: يوسف بن شاهين، سبط ابن حجر (899هـ). مخطوط في مجلدين كبيرين، الثاني بخط ابن قطلوبغا، نقلاً عن نسخة المصنف، في المكتبة الخالدية بالقدس. أوله حرف الغين، وآخره الياء، ثم الكنى، وفصل النساء. والكتاب ذيل على طبقات الحفاظ للذهبي.

- ريح النسرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (911هـ). المحقق: عدنان أحمد مجود. جدة: دار الوفاء، الطبعة الأولى (1405هـ-1985م). جزء واحد.
- ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا: أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي (1069هـ). المحقق: عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، الطبعة الأولى (1386هـ-1967م). جزء واحد.
- زعماء الإسلام: حسن إبراهيم حسن. ترجم فيه لواحد وثلاثين زعيماً من المسلمين. جزء واحد، وقد طبع في مصر (1953م).
- سلافة العصر في محاسن الشعراء بكل مصر: صدر الدين المدني، علي بن أحمد بن محمد معصوم الحسني الحسيني، المعروف بعلي خان بن ميرزا أحمد، الشهير بابن معصوم (1119هـ).
- سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي: عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامي المكي (1111هـ). المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1419هـ-1998م). أربعة أجزاء.
- سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). أشرف على تحقيقه: شعيب الأناؤوط، حسين الأسد. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة التاسعة (1413هـ-1993م). خمس وعشرون جزءاً.
- سير السلف الصالحين: إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، الملقب بـ قوام السنة (535هـ). تحقيق: كرم بن حلمي بن فرحات بن أحمد. الرياض: دار الراية. جزء واحد.
- شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام: بشير يموت. بيروت: المكتبة الأهلية، الطبعة الأولى (1352هـ-1934م). جزء واحد.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية: محمد بن محمد بن عمر بن علي ابن سالم مخلوف (1360هـ). القاهرة: الدار السلفية (1349-1350هـ). جزاءن.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي (1089هـ). تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط. بيروت: دار ابن كثير. رتبه على السنين بحسب الوفيات، لا على الأسماء، وترجم فيه للأعيان من سنة (1-1000هـ). وهو من أهم كتب التراجم وأفيدها. ثمانية أجزاء.
- شعراء النصرانية: رزق الله بن يوسف بن عبد المسيح بن يعقوب شيخو (1346هـ). بيروت: مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين، عام النشر (1890م).
- ضبط الأعلام: أحمد تيمور باشا (1930م). جزء واحد طبع في مصر سنة (1947م).

- ضوء المشكاة الكاشف عن وجوه الرواية والرواة: مخطوط في مصطلح الإمامية ورجالهم، استنفد زهاء مئة صفحة في مصطلح الحديث، وابتدأ بالرجال من "آدم بن إسحاق الأشعري القمي" إلى "جعفر بن محمد بن سماعة". وجملته (548) صفحة. وفيه تراجم لبعض المتأخرين من رجال القرن الثالث عشر للهجرة. قال الزِّرِكلي: "علي بن خليل الرازي الطهراني ثم النجفي، نهاية إجازة بخطه في ثلاث صفحات، ابتدئت بها مخطوطة "ضوء المشكاة عن وجوه الرواة".
- طبقات أعيان الشيعة: محسن (أو محمد محسن) بن علي بن محمد رضا الطهراني (1389هـ). (عالم بتراجم المصنفين، مع كثير من التحقيق والتحري). جزءان في 3 مجلدات، الأول قسمان في القرن الرابع عشر. والثاني في القرن الثالث عشر. طبع بالنجف (1373-1374هـ-1954م). ثم طبعت أجزاء القرون الرابع والخامس والسادس والسابع في بيروت سنة (1970-1971م). وذكر الزِّرِكلي من كتبه: "نقباء البشر في القرن الرابع عشر"، قال: "وهو واحد من 11 كتاباً في التراجم في وفيات المائة الرابعة الهجرية فما يليها إلى الآن. أفرد كل كتاب منه بقرن وباسم، وسمى الجميع "طبقات أعلام الشيعة". صدر منه ستة مجلدات.
- طبقات الأسماء المفردة من الصحابة والتابعين وأصحاب الحديث: أبو بكر أحمد بن هارون بن روح البرديجي (301هـ). تحقيق: سكينة الشهابي. سوريا: طلاس للدراسات والترجمة والنشر. الطبعة الأولى (1987م). جزء واحد.
- طبقات الأطباء والحكماء: سليمان بن حسان ابن جُلْجُل (بعد384). تحقيق: فؤاد سيد. يضم (57) ترجمة. طبع في مصر (1955م). جزء واحد.
- طبقات الأمم: صاعد بن أحمد الأندلسي (462هـ). ترجم فيه لمشاهير العلماء من كل أمة. طبع في بيروت سنة (1912م). جزء واحد.
- طبقات الأولياء: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (804هـ). تحقيق: نور الدين شريبه. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية (1415هـ-1994م). جزء واحد.
- طبقات الحفاظ: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1403هـ). جزء واحد.
- طبقات الحنابلة: أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (526هـ). المحقق: محمد حامد الفقي. بيروت: دار المعرفة.
- طبقات الحنفية: أحمد بن سليمان ابن كمال باشا (940هـ). مختصر. مخطوط. في خزانة حسن حسني عبد الوهاب بتونس. وذكر الزِّرِكلي أن له كتاباً اسمه "طبقات الفقهاء"، فهل هو نفسه هذا الكتاب؟
- طبقات الخواص من أهل الصدق والإخلاص: أحمد بن أحمد الشرجي الزبيدي (893هـ). طبع بمصر (1321هـ).

- طبقات الشاذلية الكبرى، المسمى جامع الكرامات العلية في طبقات السادة الشاذلية: الحسن بن محمد الكوهن الفاسي (1347هـ). طبع بمصر (1347هـ).
- طبقات الشافعية الكبرى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (771هـ). المحقق: محمود محمد الطناحي، عبد الفتاح محمد الحلو. القاهرة: هجر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية (1413هـ).
- طبقات الشافعية الوسطى: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (771هـ). مخطوط في المكتبة العربية بدمشق. مرتب على الحروف في مجلد ضخم، تمت كتابته سنة (811هـ).
- طبقات الشافعية: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، ابن قاضي شهبة (851هـ). المحقق: الحافظ عبد العليم خان. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى (1407هـ). أربعة أجزاء.
- طبقات الشافعية، يُعرف بـ (طبقات المصنف): أبو بكر بن هداية الله الحسيني، الملقب بالمصنف (1014هـ). طبع في جزء واحد في بغداد (1356هـ). (مطبوع مع كتاب آخر اسمه طبقات الفقهاء).
- طبقات الشافعيين: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (774هـ). تحقيق: د.أحمد عمر هاشم، د.محمد زينهم محمد عزب. القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، تاريخ النشر (1413هـ-1993م). جزء واحد.
- طبقات الشعراء: عبد الله بن محمد ابن المعتز العباسي (296هـ). المحقق: عبد الستار أحمد فراج. القاهرة: دار المعارف. الطبعة الثالثة.
- طبقات الشعراء: محمد بن سلام الجمحي، طبع في ليدن (1913م).
- طبقات الصوفية: محمد بن الحسين بن محمد بن موسى بن خالد بن سالم النيسابوري، أبو عبد الرحمن السلمي (412هـ). المحقق: مصطفى عبد القادر عطا. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1419هـ-1998م). جزء واحد.
- طبقات الفقهاء الشافعية: عثمان بن عبد الرحمن، أبو عمرو، المعروف بابن الصلاح (643هـ). المحقق: محيي الدين علي نجيب. بيروت: دار البشائر الإسلامية، الطبعة الأولى (1992م). جزءان.
- طبقات الفقهاء الشافعية: محمد بن أحمد العبادي (458هـ). أدار الأعلام فيه على ست طبقات. جزء واحد، نشره كوستا فيتسام، وطبع في ليدن سنة (1964م).
- طبقات الفقهاء: أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي (476هـ). هذبه: محمد بن مكرم ابن منظور (711هـ). المحقق: إحسان عباس. بيروت: دار الرائد العربي، الطبعة الأولى (1970م).
- طبقات المدلسين تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: ابن حجر العسقلاني (852هـ). تحقيق: عاصم بن عبد الله القريوني. وفي آخر الكتاب: ملحق بأسماء المدلسين، ومنظومين بأسماء المدلسين.

- طبقات المفسرين العشرين: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). المحقق: علي محمد عمر. القاهرة: مكتبة وهبة، الطبعة الأولى (1396هـ). جزء واحد.
- طبقات المفسرين: أحمد بن محمد الأدنه وي، من علماء القرن الحادي عشر. المحقق: سليمان بن صالح الخزي. السعودية: مكتبة العلوم والحكم، الطبعة الأولى (1417هـ- 1997م). جزء واحد.
- طبقات المفسرين: محمد بن علي بن أحمد، شمس الدين الداوودي المالكي (945هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر. جزءان.
- طبقات النحاة واللغويين: أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر الأسدي الشهبي الدمشقي، ابن قاضي شهبة (851هـ). مخطوط في مجلد كبير. مرتب على الحروف.
- طبقات النحويين واللغويين: محمد بن الحسن بن عبيد الله بن مذحج الزبيدي الأندلسي الأشبيلي (379هـ). طبع في مصر (1373هـ-1954م).
- طبقات النسابين: بكر بن عبد الله أبو زيد بن محمد بن عبد الله بن بكر بن عثمان بن يحيى بن غيهب بن محمد (1429هـ). الرياض: دار الرشد، الطبعة الأولى (1407هـ-1987م). جزء واحد.
- طبقات خليفة بن خياط: أبو عمرو خليفة بن خياط بن خليفة الشيباني العصفري البصري (240هـ). من أقدم ما وصل إلينا من كتب الطبقات. يضم الكتاب تراجم (3375) من الصحابة والتابعين وتابعيهم رجالاً ونساء. المحقق: سهيل زكار. دمشق: دار الفكر. سنة النشر (1414هـ-1993م). جزءان.
- طبقات فحول الشعراء: محمد بن سلام (بالتشديد) بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (232هـ). المحقق: محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني. جزءان.
- عبقرية العرب في العلم والفلسفة: عمر فروخ. فيه ترجمة لعدد من العلماء العرب وفلاسفتهم. جزء واحد، طبع في بيروت، الطبعة الثانية (1952م).
- عجائب الآثار في التراجم والأخبار: عبد الرحمن بن حسن، ويُعرف بتاريخ الجبرتي (1241هـ). تحقيق: حسن محمد جوهر، عبد الفتاح السرنجاوي، السيد إبراهيم سالم. طبع بمصر (1297هـ). سبعة أجزاء.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء: أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي، أبو العباس ابن أبي أُصَيْبِعة (668هـ). في الكتاب فوائد اجتماعية وأدبية واقتصادية هامة. المحقق: نزار رضا. مجلد ضخم. بيروت: دار مكتبة الحياة (1965م).
- غاية النهاية في طبقات القراء: شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، محمد بن محمد بن يوسف (833هـ). وهو أجمع كتاب وأنفعه في تراجم القراء والرواة عنهم، ومن تولى إقراء القرآن وتحفيظه من الصحابة والتابعين

والعلماء بعدهم حتى القرن التاسع. اختصره ابن الجزري من كتابه الكبير "نهاية الدرايات في أسماء رجال القرآن"، وجمع فيه أسماء القراء من كتابي أبي عمرو الداني، والحافظ أبي عبد الله الذهبي، وزاد عليهما نحو الضعف، واشتمل الكتاب على أكثر من (3955) ترجمة مرتبة على حروف المعجم. حقق الكتاب وعني بنشره لأول مرة عام (1351هـ) المستشرق الألماني جوتهلف برجستراسر، ومات قبل أن يتم طبعه، فأتم فهارسه المستشرق الألماني أوتو برتزل، وطبع الكتاب في جزءين كبيرين، ط1، (1351هـ-1932م)، ط2 مصورة في لبنان (1400هـ-1980م). الناشر: مكتبة ابن تيمية. ثلاثة أجزاء.

- غنية الرائض في طبقات أهل الحساب والفرائض: أحمد بن محمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي المكناسي (1025هـ).

- غنية الملتمس إيضاح الملتبس: أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (463هـ). المحقق: يحيى بن عبد الله البكري الشهري. الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (1422هـ-2001م). جزء واحد.

- غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة: خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال الخزرجي الأنصاري الأندلسي (578هـ). المحقق: عز الدين علي السيد, محمد كمال الدين عز الدين. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الأولى (1407هـ). جزء واحد.

- فتح الباب في الكنى والألقاب: محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (395هـ). المحقق: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي. الرياض: مكتبة الكوثر، الطبعة الأولى (1417هـ-1996م). جزء واحد.

- فلاسفة الشيعة حياتهم وآراؤهم: عبد الله نعمة. فيه أكثر من (60) ترجمة مرتبة على حروف المعجم. جزء واحد، وقد طبع في بيروت من غير تاريخ.

- فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات: محمد عبد الحق بن عبد الكبير ابن محمد الحسني الإدريسي، المعروف بعبد الحي الكتاني (1382هـ). المحقق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية (1982م).

- فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين (764هـ). المحقق: إحسان عباس. بيروت: دار صادر.

- فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان: محمد غرِّيط الأندلسي (1364هـ). طبع في فاس (1347هـ).

- قادة فتح الأندلس: محمود شيت خطاب (1419هـ). الناشر: مؤسسة علوم القرآن، منار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى (1424هـ-2003 م).

- قبول الأخبار ومعرفة الرجال: أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن محمود (الكعبي) البلخي (319هـ). مخطوط. ستة أجزاء صغيرة في مجلد واحد. منه نسخة في دار الكتب المصرية.

- قلائد العقيان: الفتح بن خاقان بن أحمد بن غرطوج (247هـ). طبعة: مصر (1284هـ-1866م).
- كتاب الكنى لمن لا يُعرف له اسم من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (374هـ). المحقق: إقبال أحمد بن محمد إسحاق بسكوبري. بومباي: الدار السلفية، الطبعة الأولى (1410هـ-1989م). جزء واحد.
- كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين: محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التيميمى البستى (354هـ) الجزء الأول تحقيق: محمود إبراهيم زايد. ثلاثة أجزاء.
- كتاب المعمرين: سهل بن محمد بن عثمان الجشمي السجستاني (248هـ). طبع بمصر (1323هـ).
- كتاب ذكر اسم كل صحابي روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً أو نهياً ومن بعده من التابعين وغيرهم ممن لا أخ له يوافق اسمه من نقلة الحديث من جميع الأمصار: محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (374هـ). المحقق: أبو شاهد ضياء الحسن محمد السلفي. مراجعة: نظام يعقوبي. بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى.
- كشف الأستار عن رجال معاني الآثار: الطحاوي. تلخيص رشد الله شاه السندهي. طبع على الحجر في دهلي (1349هـ).
- كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج: أحمد بابا بن أحمد بن أحمد بن عمر التكروري التنبكتي السوداني (1036هـ). في تراجم المالكية.
- كمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال: مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي (762هـ). المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن محمد، أبو محمد أسامة بن إبراهيم. بيروت: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، الطبعة الأولى (1422هـ-2001 م). اثنا عشر جزءاً.
- الكمال في معرفة الرجال: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن، أبو عبد الله، محب الدين ابن النجار (634هـ). كتاب في التراجم. ذكره الزِّرِكلي[1].
- كنوز الأجداد: محمد كرد علي (1953م). يضم الكتاب (52) ترجمة، كلها للقدماء، خلا واحدة منها هي للشيخ (طاهر الجزائري). الكتاب جزء واحد، وقد طبع في دمشق سنة (1950م).
- كنى البخاري: محمد بن إسماعيل البخاري (256هـ). حيدر آباد الدكن: مطبعة جميعة دائرة المعارف العثمانية بعاصمة الدولة الآصفية، الطبعة الأولى.

[1] يُنظر: الأعلام: 86/7.

- كنى الشعراء ومن غلبت كنيته على اسمه: محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي، بالولاء، أبو جعفر البغدادي (249هـ). رسالة. طبعت بمصر (1374هـ-1954م).
- لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ: محمد بن محمد بن محمد ابن فهد الهاشمي العلوي الأصفوني ثم المكي الشافعي (871هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1419هـ-1998م).
- مجمع اللغة العربية في ثلاثين عاماً (المجمعيون): محمد مهدي علام. جزء واحد، طبع في مصر سنة (1966م).
- مختصر الكامل في الضعفاء: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي (845هـ). المحقق: أيمن بن عارف الدمشقي. القاهرة: مكتبة السنة، الطبعة الأولى (1415هـ-1994م).
- مختصر مرآة الزمان: موسى بن محمد اليونيني (726هـ). جزءان، في أحدهما حوادث سنة (493هـ-499هـ)، وفي الثاني حوادث سنة (590هـ-654هـ). ذكره الزِّرِكلي.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان: عبد الله بن أسعد اليافعي (768هـ). مرتَّب على السنين، يتضمن مشاهير الأعيان إلى سنة (750هـ). وصفه صاحب "مفتاح السعادة" بأنه: "من أصح التواريخ، وأحسنها، وألطفها؛ لوروده بعبارات عذبة، وأنفعها للناس؛ لاشتماله على المهمات". أربعة أجزاء. طبع في حيدر آبا الدكن الهند سنة (1337-1339هـ).
- مرآة الزمان في تاريخ الأعيان: يوسف بن قزُأوغْلي -أو قزُغْلي- ابن عبد الله سبط ابن الجوزي (654هـ). المجلد الثامن وهو الأخير منه. طبع في حيدر آباد (1370هـ-1951م).
- مرآة العصر في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر: جمعه إلياس زخُّوره (1350هـ). ثلاثة أجزاء في مجلدين. طبع في مصر (1897-1916م).
- مراتب النحويين: عبد الواحد بن علي الحلبي، أبو الطيب اللغوي (351هـ). طبع في مصر (1375هـ).
- مسامرات الظريف بحسن التعريف، تاريخ فقهاء الدولة الحسينية بتونس: محمد بن عثمان بن محمد السَّنُوسي، أبو عبد الله (1318هـ). النصف الأول منه مطبوع في تونس.
- مشاهير شعراء العصر: القسم الأول، شعراء مصر. أحمد عبيد. طبع في دمشق (1341هـ-1922م).
- مشاهير علماء الأمصار أعلام فقهاء الأقطار: أبو حاتم محمد بن حبان بن احمد التميمي البستي (354هـ). تحقيق: مرزوق علي إبراهيم. المنصورة: دار الوفاء، الطبعة الأولى (1411هـ-1991م).

- مشاهير علماء نجد وغيرهم: عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله بن عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب. الرياض: دار اليمامة، الطبعة الأولى (1392هـ-1972م). جزء واحد.
- مشتبه النسبة: عبد الغني بن سعيد الأزدي (409هـ). طبع في الهند مع "المؤتلف والمختلف" له (1327هـ).
- مشيخة أبي المواهب الحنبلي: محمد بن عبد الباقي الحنبلي البعلي الدمشقي (1126هـ).
- مطلع الأنوار ونزهة البصائر والأبصار: أبو بكر محمد بن محمد بن علي بن خميس المالقي (بعد639هـ). اعتنى به: عبد الله المرابط الترغي. بيروت: دار الغرب الإسلامي. الرباط: دار الأمان، الطبعة الأولى (1420هـ-1999م. جزء واحد.
- معجم أدباء الأطباء: محمد بن صادق بن الباقر الخليلي (1388هـ). جزءان. طبع في النجف (1365هـ-1946م).
- معجم أصحاب القاضي أبي علي الصدفي: ابن الأبَّار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي (658هـ). مصر: مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى (1420هـ-2000 م). جزء واحد.
- معجم أعلام الجزائر: عادل نويهض. بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر، ط1، (1971م).
- معجم أعلام شعراء المدح النبوي: محمد أحمد درنيقة. تقديم: ياسين الأيوبي. الناشر: دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى. جزء واحد.
- معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب: ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (626هـ). المحقق: إحسان عباس. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (1414هـ-1993م). أربعة أجزاء.
- معجم الأطباء: أحمد عيسى (1946م). هو ذيل لـ (عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة) فيه (231) ترجمة مرتبة على الحروف. جزء واحد، طبع في مصر (1942م).
- معجم السفر: أبو طاهر السِّلَفي أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سِلَفَه الأصبهاني (576هـ). المحقق: عبد الله عمر البارودي. مكة المكرمة: المكتبة التجارية. جزء واحد.
- معجم الشعراء: محمد بن عمران المرزباني (384هـ). تحقيق: عبد الستار أحمد فراج. وقد طبع في مصر (1960م).
- معجم الشيوخ الكبير: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: محمد الحبيب الهيلة. الطائف: مكتبة الصديق، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م). جزءان.
- معجم الشيوخ المسمى رياض الجنة أو المدهش المطرب: عبد الحفيظ بن محمد الطاهر بن عبد الكبير الفهري، أبو الفضل الفاسي (1383هـ). طبع في الرباط (1350هـ). جزءان.

- معجم الشيوخ: تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي (771هـ). تخريج: شمس الدين أبي عبد الله ابن سعد الصالحي الحنبلي (759هـ). المحقق: بشار عواد، رائد يوسف العنبكي، مصطفى إسماعيل الأعظمي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى (2004م).
- معجم الشيوخ: أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله، المعروف بابن عساكر (571هـ). المحقق: وفاء تقي الدين. دمشق: دار البشائر، الطبعة الأولى (1421هـ-2000م)، ثلاثة أجزاء.
- معجم الشيوخ: سماه (رياض الجنة) أو (المدهش المطرب): أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن جُمَيْع الغساني الصيداوي (402هـ). المحقق: عمر عبد السلام تدمري. بيروت: مؤسسة الرسالة. طرابلس: دار الإيمان، الطبعة الأولى (1405هـ).
- معجم الصحابة: أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز بن المَرْزُبان بن سابور بن شاهنشاه البغوي (317هـ). المحقق: محمد الأمين بن محمد الجكني. الكويت: مكتبة دار البيان.
- معجم المؤلفين: عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشقي (1408هـ). بيروت: مكتبة المثنى، دار إحياء التراث العربي. ثلاثة عشر جزءاً.
- معجم حفاظ القرآن عبر التاريخ: محمد سالم محيسن (1422هـ). بيروت: دار الجيل، الطبعة الأولى (1412هـ-1992م). جزءان.
- معجم شيوخ الطبري الذين روى عنهم في كتبه المسندة المطبوعة: أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري. تقديم: الشيخ باسم بن فيصل الجوابرة، الشيخ سليم بن عيد الهلالي، الشيخ علي بن حسن الحلبي، الشيخ محمد بن عبد الرزاق الرعود، الشيخ مشهور بن حسن سلمان. الأردن: الدار الأثرية. القاهرة: دار ابن عفان، الطبعة الأولى (1426هـ-2005م).
- معرفة أخبار الرجال: محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي (نحو340هـ). طبع في بمبي.
- معرفة الصحابة: محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه العبدي (395هـ). تحقيق: عامر حسن صبري. الإمارات العربية: جامعة الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الأولى (1426هـ-2005م). جزء واحد.
- معرفة الصحابة: أبو نُعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (430هـ). تحقيق: عادل بن يوسف العزازي. الرياض: دار الوطن، الطبعة الأولى (1419هـ-1998م)، سبعة أجزاء.
- معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1417هـ-1997م). جزء واحد.
- مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار: محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (855هـ).

تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1427هـ-2006م). ثلاثة أجزاء.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة: أحمد بن مصطفى (طاش كبري زاده) (968هـ). ترجم فيه لأهم المؤلفين.
- من أعلام التصوف الإسلامي: طه عبد الباقي سرور. فيه ترجمة لـ اثنين وعشرين متصوفاً إسلاميًّا. جزءان صغيران. طبع في مصر (1959م).
- من تُكلِّم فيه وهو موثوق أو صالح الحديث: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (748هـ). المحقق: عبد الله بن ضيف الله الرحيلي، الطبعة الأولى (1426هـ-2005م).
- من وافق اسمه اسم أبيه: أبو الفتح محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (374هـ). المحقق: د.باسم فيصل أحمد الجوابرة. الناشر: مركز المخطوطات والتراث، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م).
- من وافق اسمه كنية أبيه: محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الموصلي الأزدي (374هـ). المحقق: باسم فيصل أحمد الجوابرة. الناشر: مركز المخطوطات والتراث. (طبع مع كتاب: من وافق اسمه اسم أبيه للأزدي)، الطبعة الأولى (1408هـ-1988م).
- مناقب الحضيكي: محمد بن أحمد الحضيكي (1189هـ). في التراجم، ويقال له "طبقات الحضيكي". طبع في الدار البيضاء (1357هـ). جزءان.
- منتخب التاريخ: محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود الحنفي النهروالي[1] (988هـ). كتاب مخطوط في التراجم، ذكره الزِّرِكلي.
- منتخب المختار من ذيل تاريخ ابن النجار: محمد بن أحمد بن علي، أبو الطيب المكي الحسني (832هـ). منتخب من كتاب المختار المذيل على تاريخ ابن النجار. الكتاب جزء واحد، طبع في بغداد سنة (1938م).
- منهج المقال في تحقيق أحوال الرجال، ويُعرف بـ (الرجال الكبير): محمد بن علي بن إبراهيم الفارسي الأسترابادي (1028هـ). طبع على الحجر في طهران (1304هـ).
- مورد اللطافة في من ولي السلطنة والخلافة: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، جمال الدين (874هـ). المحقق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد. القاهرة: دار الكتب المصرية. جزءان.
- نزهة الألباء في طبقات الأدباء: عبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبو البركات، الأنباري (577هـ). المحقق: إبراهيم السامرائي. الزرقاء: مكتبة المنار، الطبعة الثالثة (1405 هـ-1985م).

[1] (النهروالي) باللام، كما ضبطه في "إعلام الأعلام" وغيره، نسبة إلى قرية من الهند، لا إلى النهروان. الأعلام: 7/6.

- نزهة الألباب في الألقاب: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). المحقق: عبد العزيز محمد بن صالح السديري. الرياض: مكتبة الرشد، الطبعة الأولى (1409هـ-1989م).
- نظم العقيان في أعيان الأعيان: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (911هـ). المحقق: فيليب حتي. بيروت: المكتبة العلمية. جزء واحد، وقد طبع في نيويورك (1927م).
- نَكْتُ الهِمْيان في نُكَت العُميان: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (764هـ). تعليق: مصطفى عبد القادر عطا. يضم (310) ترجمات. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1428هـ-2007م). جزء واحد.
- نيل الابتهاج بتطريز الديباج: أحمد بابا التنبكتي (1036هـ). إشراف وتقديم: عبد الحميد عبد الله الهرامة. طرابلس الغرب: منشورات كلية الدعوة الإسلامية. جزءان.
- هادي المسترشدين إلى اتصال المسندين، الملقب بـ (تقريب المراد في رفع الإسناد): محمد عبد الهادي ابن الحاج محمد عبد الكريم. طبع في حيدر آباد (1355هـ).
- وفيات المشهورين: أحمد بن خيري (باشا) بن يوسف الحُسَيْني (1387هـ). مخطوط.
- يتمة الدهر في محاسن أهل العصر: عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي (429هـ)، المحقق: مفيد محمد قمحية. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1403هـ-1983م). أربعة أجزاء.
ثانياً: المعيار المكاني: أقصد بالمعيار المكاني عناوين الكتب التي ترجمت للأعلام وَفْقاً لمكان محدد، أو بقعة إسلامية معينة، دون غيرها من بقاع الإسلام. فمادة الكتب المدرجة تحت هذا المعيار قائمة في الأساس على الترجمة لأعلام مكان محدد دون غيره من الأماكن. وأشهر الكتب التي جاءت وَفْق هذا المعيار ما يلي:
- إتحاف المطالع: عبد السلام ابن سُوَدة: مخطوط في تراجم المتأخرين من أعيان المغرب، انتهى فيه إلى وفيات (1370هـ).
- أخبار الأعيان في جبل لبنان: طنوس بن يوسف بن منصور الشدياق الحدثي الماروني (1276هـ).
- أخبار النحويين البصريين: الحسن بن عبد الله بن المرزبان السيرافي (368هـ). المحقق: طه محمد الزيني، ومحمد عبد المنعم خفاجي. القاهرة: مصطفى البابي الحلبي. (1373هـ-1966م). جزء واحد.
- أخبار وتراجم أندلسية (مستخرجة من معجم السفر): أحمد بن محمد السِّلَفي. تحقيق: إحسان عباس. يضم المطبوع من الكتاب (104) ترجمة. طبع في بيروت، ط1، (1963م).
- أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر: قسطاكي بن يوسف بن بطرس بن يوسف بن ميخائيل الحمصي. طبع بحلب (1925م).

- إعلام السائلين عمن أقبر بمصر من صحابة سيد المرسلين: الحسن بن محمد الكوهن الفاسي (1347هـ). ذكره الزِّرِكلي ضمن مؤلفات الكوهن، وذكر أنه مطبوع، ولم أقف على مكان طبعه.
- الإحاطة في أخبار غرناطة: محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني اللوشي الأصل، الغرناطي الأندلسي، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (776هـ). تحقيق: محمد عبد الله عنان. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1424هـ). أربعة أجزاء.
- الإعلام بأعلام بيت الله الحرام: محمد بن أحمد بن محمد بن قاضي خان محمود الحنفي النهروالي (988هـ). طبع بمصر (1305هـ) على هامش "خلاصة الكلام" لابن زيني دحلان. وطبع منفرداً باسم "تاريخ القطبي" بمصر (1370 هـ).
- الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام: عباس بن محمد بن محمد بن إبراهيم المراكشي (1378هـ). خمسة مجلدات منه، طبعت بفاس ابتداء من سنة (1936م)، وجاء على كل جزء منها أنه "جزء من ثمانية".
- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر): عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (1341هـ). بيروت: دار ابن حزم، الطبعة الأولى (1420هـ-1999م). ثمانية أجزاء.
- الاغتباط بتراجم أعلام الرباط: محمد بن مصطفى بوجندار الرباطى، أبو عبد الله (1345هـ). مخطوط، جزءان في مجلد واحد.
- البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان: محمد بن محمد المليتي المديوني التلمساني الملقب بـ (ابن مريم). طبع في الجزائر (1326هـ-1908م).
- البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب: محمد (أو أحمد) بن محمد ابن عذِاري المراكشي، نحو (695هـ). الكتاب ثلاثة أجزاء، طبع الأول والثاني في بيروت سنة (1950م)، وطبع الثالث في باريس سنة 1930، وعني بنشره ليفي بروفنسال.
- ذيل تاريخ بغداد: محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن، محب الدين ابن النجار (643هـ). وهو ذيل على تاريخ بغداد للخطيب.
- التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (902هـ)، بيروت: الكتب العلمية، الطبعة الأولى، (1414هـ-1993م). جزءان.
- تاريخ درعة: محمد بن الحبيب، أبو عبد الله الدرعي (1363هـ)من أهل درعة في سوس المغرب. قال الزِّرِكلي: "ترجم به علماءها في مجلد، فرغ منه سنة (1355هـ)، ورآه المختار السوسي صاحب المعسول".

- تعطير البساط بتراجم قضاة الرباط: محمد بن مصطفى بوجندار الرباطى، أبو عبد الله (1345هـ). كتاب مخطوط، ذكره الزِّركلي[1].
- الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنه: محمد بن محمد بن محمد بن صالح ابن محمد خانجيج الحنفي البوسنوى، ويقال له: الخانجي، وفاته نحو (1365هـ). طبع بمصر (1349هـ).
- الدر الكمين في علماء دمشق سنة (1340هـ): محمد جميل الشطي: رسالة بخطه، اشتملت على (40) ترجمة. دمشق: المكتبة العربية.
- الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة: عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ابن علي ابن زيدان بن إسماعيل بن الشريف، الحسني العلوي السجلماسي (1365هـ). طبع في الرباط (1356هـ-1937م).
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة: علي بن بسام الشنتريني (524هـ). المحقق: إحسان عباس. الكتاب أوفى مرجع نملكه في تراجم شعراء الأندلس وأدبائه من أواخر القرن الرابع للهجرة حتى القرن السادس. والتراجم فيه مسهبة، وغنية بالأخبار والمختارات. لم يرتب المؤلف كتابه على السنين، بل رتبه على مكانة المترجَم في رأيه هو. ليبيا-تونس: الدار العربية للكتاب. الكتاب ثمانية أجزاء.
- السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية: محمد بن محمد بن عبد الله المسفيوي[2] المراكشي، ابن الموقت (1369هـ). ذكره الزِّركشي، وذكر أنه مطبوع، واختصره المؤلف نفسه[3].
- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس: خلف بن عبد الملك بن بشكوال (578 هـ). عني بنشره: السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية (1374هـ-1955م). جزء واحد.
- الطالع السعيد الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد: جعفر بن ثعلب الأُدْفُوي (748هـ). تحقيق: سعدد محمد حسن. مراجعة: طه الحاجري. جزء واحد ضخم، طبع في مصر (1966م).
- العِقْد الثمين في تاريخ البلد الأمين: محمد بن أحمد الحسني المكي (832هـ). ترجم فيه لأعيان أهل مكة، ومن سكنها، أو مات فيها، من الأعلام والأعيان، والنساء، على مدى ثمانية قرون. ابتدأ بترجمة المحمدين، ثم عرض بقية التراجم على حروف المعجم، وبلغت تراجم الكتاب (3548) ترجمة. اختصره المؤلف بنفسه في "عجالة القرى للراغب في تاريخ أم القرى"، وكتب بعض العلماء ذيلاً عليه. وطبع الكتاب في ثماني مجلدات في مطبعة السنة المحمدية بمصر سنة (1379هـ-1959م).

---

[1] يُنظر: الأعلام: 102/7.
[2] (مسفيوة) إحدى القبائل المقيمة في ناحية مراكش. يُنظر: الأعلام: 84/7.
[3] السابق: 84/7.

- العناية الربانية في التعريف بشيوخنا في الحضرة المراكشية: محمد بن محمد بن عبد الله المسفيوي المراكشي، ابن الموقت (1369هـ). ذكره الزِّركشي[1].
- القضاة الشافعية: عبد القادر بن محمد النعمي (927). ألفه في قضاة دمشق.
- الكتيبة الكامنة فيمن لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين ابن الخطيب، محمد بن عبد الله (776هـ). المحقق: إحسان عباس. فيه (103) ترجمة، الطبعة الأولى (1963م). بيروت: دار الثقافة.
- المختار المذيل على تاريخ ابن النجار: محمد بن رافع السلامي (774هـ). ويضم (201) من التراجم. جزء واحد، طبع في بغداد (1938م).
- المُغْرب في حلى المَغرب: علي بن موسى ابن سعيد المغربي (685هـ). في القسم الخاص بمصر فيه (647) ترجمة. طبع الجزء الأول الخاص بمصر سنة (1953م) في مصر. تحقيق: زكي محمد حسن، وشوقي ضيف، وسيدة إسماعيل كاشف. وطبع القسم الأخير الخاص بالأندلس في جزأين: الأول والثاني في مصر (1953-1955م). تحقيق: شوقي ضيف.
- المقتبس في تاريخ رجال الأندلس: حيان بن خلف ابن حيان (469هـ)[2]. لم يبق من هذا الكتاب إلا ثلاثة أجزاء. القسم الثالث منه. طبع في باريس 1937. وقد طبعت القطعة الثانية منه في بيروت 1973 مع أوفى تعريف بالكتاب).
- الوسيط في تراجم أدباء شنقيط: أحمد بن الأمين الشنقيطي (1331هـ). طبع في مصر (1329هـ-1911م).
- أمراء دمشق في الإسلام: خليل بن أيبك صلاح الدين الصفدي (764هـ). دمشق: المجمع العلمي العربي (1374هـ-1955م).
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس: أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة، أبو جعفر الضبي (599هـ). القاهرة: دار الكاتب العربي، عام النشر (1967م).
- تاريخ العلماء والرواة للعلم والأندلس: عبد الله بن محمد ابن الفرضي (403هـ). تحقيق: عزة العطار الحسيني. ترجم فيه لفقهاء الأندلس، وعلمائهم، ورواتهم، وأهل العناية منهم. يتضمن (1651) ترجمة مرتبة على حروف المعجم. وهو أقدم معجم رجال عام بين أيدينا، بلغ فيه الغاية من الأمانة والإتقان. طبع في مصر سنة (1954م). جزءان.
- تاريخ جرجان: حمزة بن يوسف بن إبراهيم السهمي القرشي الجرجاني

---

[1] السابق: 84/7.
[2] قال صاحب عيون المؤلفات: "يمتاز ابن حيان بأسلوب صافٍ جميل، ولسنا نجد بين مؤرخي العرب إلا القليل ممن نستطيع أن نقارنهم به، على أننا لم نجد بينهم من نقدمه عليه. ولا نعرف مؤرخاً من مؤرخي المشارقة من يقوم لابن حيان في قوة التصوير، وبراعة التلوين، مع الأصالة والطرافة". يُنظر: عيون المؤلفات: 180/1.

(427هـ). عناية: محمد عبد المعيد خان. بيروت: عالم الكتب، الطبعة الرابعة (1407هـ-1987م). جزء واحد.
- تاريخ علماء الأندلس: عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي (403هـ). عنى بنشره: السيد عزت العطار الحسيني.القاهرة:مكتبة الخانجي، الطبعة الثانية (1408هـ-1988م). جزاءن.
- تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا): علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن الحسن الجذامي النباهي المالقي الأندلسي نحو (792هـ). المحقق: لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة. بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة (1403هـ-1983م). جزء واحد.
- تحفة الدهر ونفحة الزهر في أعيان المدينة من أهل العصر: عمر بن المدرس عبد السلام الداغستاني المدني (بعد1201هـ). مخطوط أكثره أسجاع في وصف بعض معاصريه من أهل المدينة في القرن الثاني عشر، وفيه مختارات من نظمهم ونثرهم.
- تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب: عبد الرحمن بن عبد الكريم الحنفي المدني الشهير بالأنصاري (1195هـ). المحقق: محمد العرويسي المطوي. تونس: المكتبة العتيقة، الطبعة الأولى (1390هـ-1970م).
- تذكرة موسى بن أيوب: موسى بن أيوب الأنصاري[1]. يضم تراجم رجال مشهورين. (هذه الكتب الثلاثة: (القضاة الشافعية، الثغر البسام، تذكرة موسى بن أيوب) مجموعة في كتاب واحد، سماه ناشره (قضاة دمشق).
- تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري (1301-1350هـ): محمد جميل الشطي. طبع في دمشق (1367هـ).
- تراجم بعض أعيان دمشق: عبد الرحمن بن شاشو (1128هـ). طبع في بيروت (1886م).
- تراجم علماء طرابلس وأدبائها: عبد الله حبيب نوفل (1366هـ). طبع في طرابلس (1929م).
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر: جرجي زيدان (1914م). جزءان. طبع في مصر (1922م).
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: محمد بن فتوح بن عبد الله بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحَمِيدي أبو عبد الله بن أبي نصر (488هـ). تصحيح: محمد بن تاويت الطنجي. فيه (987) ترجمة، مرتبة على حروف المعجم. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والنشر (1966م). جزء واحد.
- حُسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة: عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (911هـ). كتاب تاريخ وتراجم. ذكر فيه الوافدين على مصر، ومن

[1] لم أقف على تاريخ وفاته.

نبغ فيها من أصحاب المذاهب، ومن عاش بها من الحفاظ والمؤرخين والقراء والقصاص والشعراء والأطباء. طبع الكتاب عدة طبعات، منها طبعة دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة (1387هـ-1967م). تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. مجلدان.

- در الحبَبَ في تاريخ أعيان حلب: محمد بن إبراهيم ابن الحنبلي (971هـ). تحقيق: محمود الفاخوري، يحيى عبَّارة. ترجم لرجالات القرن التاسع وأوائل القرن العاشر في حلب وغيرها. "وربما ذكر فيه بعض التراجم بما لا تُعلق له بالمرام، وليس له بفن التاريخ التئام". يتضمن الكتاب (637) ترجمة، للحلبيين منها (330) ترجمة. طبع الجزء الأول، القسم الأول في دمشق سنة (1972م).

- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر: محمد بن علي بن عمر الحسني (986هـ). رسالة طبعت على الحجر بفاس (1309هـ). وصفه الزِّركلي بأنه "صغير مفيد"[1].

- رفع الإصر عن قضاة مصر: أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (852هـ). تحقيق: الدكتور علي محمد عمر. القاهرة: مكتبة الخانجي، الطبعة الأولى (1418هـ-1998م). جزء واحد.

- روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر: محمد جميل الشطي. طبع في دمشق (1367هـ).

- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية: عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (بعد453). طبع في مصر سنة (1951م). جزءان[2].

- سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس، فيمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس: محمد بن جعفر الكتاني (1345هـ). ثلاثة أجزاء. طبع بفاس (1316هـ).

- سيدات البلاط العباسي: مصطفى جواد. ترجم فيه المؤلف لـ (27) سيدة، أكثرهن زوجات للحلفاء. الكتاب جزء واحد، وقد طبع في بيروت سنة (1950م).

- شهيرات التونسيات: حسن حسني عبد الوهاب (1388هـ). طبع في تونس (1353هـ).

- صدور الأفارقة: حسن حسني عبد الوهاب (1388هـ). وهو فصول في التراجم، ذكر الزِّركلي أن اسمه "كتاب العمر"[3].

- صفوة العصر في تاريخ ورسوم مشاهير رجال مصر: زكي فهمي. طبع الجزء الاول طبع بمصر (1344هـ-1926م).

---

[1] يُنظر: الأعلام: 292/6.

[2] قال صاحب عيون المؤلفات: "الكتاب ثروة جديدة، تعيننا على فهم تاريخ المغرب الإسلامي إلى منتصف القرن الرابع الهجري فهماً جديداً". يُنظر: عيون المؤلفات: 179/1-180.

[3] يُنظر: الأعلام: 188/2.

- صلة الصلة: أحمد ابن الزبير (708هـ). الكتاب ناقص يبدأ بحرف العين، وينتهي بحرف الياء. فيه تراجم رجال الأندلس وعددها (434) ترجمة، وهو ذيل لـ "صلة" ابن بشكوال. جزء واحد، طبع في الرباط (1937م).
- طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها: عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأنصاري، المعروف بأبِي الشيخ الأصبهاني (369هـ). المحقق: عبد الغفور عبد الحق حسين البلوشي. بيروت: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية (1412هـ-1992م). أربعة أجزاء.
- طبقات علماء إفريقية، وكتاب طبقات علماء تونس: محمد بن أحمد بن تميم التميمي المغربي الإفريقي، أبو العرب (333هـ). بيروت: دار الكتاب اللبناني. جزء واحد.
- طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن: عمر بن علي ابن سمرة الجعدي (بعد586هـ). من أقدم كتب الطبقات اليمنية. طبع بمصر (1957م)، نشره فؤاد السيد. جزء واحد.
- علماء إفريقية: محمد بن حارث الخشني القروي (361هـ). تحقيق: عزة العطار الحسيني. فيه (208) ترجمة. طبع في مصر سنة (1372هـ)، مع كتاب آخر للمؤلف اسمه قضاة قرطبة.
- عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أحمد بن أحمد الغبريني (704هـ). طبع بمدينة الجزائر (1328هـ-1910م).
- قضاة دمشق (الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام): محمد بن علي (ابن طولون) (953هـ). هذا الكتاب هو (القضاة الشافعية)، مضافاً إليه قضاة الحنفية، والمالكية، والحنابلة، ففي هذا الكتاب تراجم قضاة دمشق على اختلاف مذاهبهم من الفتح الإسلامي إلى أيام ابن طولون. دمشق: المجمع العلمي العربي (1956م).
- قضاة قرطبة: محمد بن حارث الخشني القروي (361هـ). تحقيق: عزة العطار الحسيني. طبع في مصر سنة (1372هـ)، مع كتاب آخر للمؤلف اسمه علماء إفريقية.
- كتاب السيرة وأخبار الأئمة: يحيى بن أبي بكر الوارجلاني الإباضي، أبو زكريا (474هـ). أقدم ما ألف في تاريخ الإباضية. تعرض المؤلف لتاريخ مشايخ الإباضية في المغرب، وفي الجزء الثاني عرض توثيق الأخبار للشيوخ المنتمين لطبقات الإباضية من الطبقة السابعة حتى العاشرة، وسيرة بعضهم. ثم جاء أحمد بن سعيد الدرجيني الإباضي أبو العباس (حوالي 670هـ) وصهر الكتاب السابق في كتابه "طبقات المشايخ بالمغرب"، نشره إبراهيم طلاي بالجزائر سنة (1974م). وقام الأستاذ عبد الرحمن أيوب فحقق كتاب أبي زكريا، وطبعته الدار التونسية بتونس سنة (1405هـ).
- كنوز الذهب في تاريخ حلب: أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، موفق الدين، أبو ذر سبط ابن العجمي (884هـ). حلب: دار القلم، الطبعة الأولى (1417هـ). جزءان.

- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: عبد الرحمن بن محمد الدباغ (699هـ)، مع استدراكات عليه قاسم بن عيسى بن ناجي (837هـ). أربعة أجزاء. طبع في تونس 1320هـ).
- معجم المؤلفين السوريين: عبد القادر عياش. دمشق (1985م).
- نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف إلى سنة (1357هـ): محمد بن محمد بن زبارة الحسني الصنعاني. مجلدان. طبع في مصر (1359-1376هـ).
- نوابغ المغرب العربي: حسن حسني عبد الوهاب (1388هـ). الجزء الأول "الإمام المازري" طبع في تونس (1955م).
- نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر: محمد بن محمد زبارة الحسني اليمني الصنعاني. طبع في مصر (1348هـ-1350هـ). جزءان.
- وفيات الشيوخ: إبراهيم بن سعيد الحبال (482هـ). جزء منه مخطوط في الظاهرية بدمشق. نُشر أخيراً بعنوان "وفيات المصريين في العهد الفاطمي" في مجلة معهد المخطوطات (2: 286-337).
- وفيات قوم من المصريين ونفر سواهم من سنة (375هـ): إبراهيم بن سعيد النعماني المصري الْحَبَّال (482هـ). المحقق: محمود بن محمد الحداد. الرياض: دار العاصمة، الطبعة الأولى (1408م).
- ولاة مكة بعد الفاسي: عبد الستار بن عبد الوهاب بن خدايار بن عظيم حسين يار بن أحمد يار المباركشاهوي البكري الصديقي الحنفي الدهلوي (1355هـ). رسالة طبعت في مصر (1956م)، مع "شفاء الغرام" للفاسي.
ثالثاً: المعيار الزماني: أقصد بالمعيار الزماني عناوين الكتب التي ترجمت للأعلام وَفْقاً لزمان محدد وتاريخ معين. فمادة الكتب المدرجة تحت هذا المعيار قائمة في الأساس على الترجمة لأعلام زمان محدد دون غيره من الأزمنة. وأشهر الكتب التي جاءت وَفْق هذا المعيار ما يلي:
- أحسن الأثر فيمن أدركناه في القرن الرابع عشر: محمد صالح الكاظمي (بعد 1352هـ). طبع ببغداد (1352هـ-1933م).
- أعلام السيرة النبوية في القرن الثاني للهجرة: فاروق بن محمود بن حسن حمادة. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف. جزء واحد.
- أعلام العرب في العلوم والفنون: عبد الصاحب بن عمران بن موسى الدجيلي النجفي (1362هـ)، طبع في النجف الجزء الأول (1373هـ).
- أعلام الكلام[1]: محمد بن سعيد بن أحمد بن شرف الجذامي القيرواني (460هـ). طبع في مصر (1344هـ-1926م).

[1] ذكر الزِّرِكلي من مؤلفات ابن شرف كتاباً له تحت عنوان (مقامات) عارض بها بديع الزمان، نشرها السيد حسن حسني عبد الوهاب، في مجلة المقتبس، باسم (رسائل الانتقاد) ثم نشرت في رسالة منفردة باسم (أعلام الكلام) وهذا من كتبه المفقودة، ولو سميت (رسالة الانتقاد) لكان أصح؛ لقول ياقوت في

- إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء: محمد راغب الطباخ الحلبي (1951م). سبعة مجلدات. طبع في حلب (1342هـ). القسم الثاني فيه تراجم أعيان حلب، من القرن الثاني للهجرة إلى سنة (1345هـ). التزم المؤلف ألا يذكر في كتابه إلا من كانت ولادته في حلب، أو كان ممن توفي فيها.
- أعلام دمشق في القرن الرابع عشر الهجري: محمد عبد اللطيف الفرفور. دمشق (1987م).
- أعمار الأعيان: عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي (597هـ). رسالة مخطوطة، كتبت سنة (592هـ)، وقرئت على مؤلفها، وعليها خطه.
- أعيان البيان من صبح القرن الثالث عشر الهجري: حسن السُّنْدُوبي. طبع بمصر (1332هـ-1914م).
- أعيان القرن الثالث عشر (في الفكر والسياسة والاجتماع): خليل مردم بك. بيروت (1977م).
- الأعلام الشرقية: زكي محمد مجاهد. ترجم فيه لأعلام القرن الرابع عشر الهجري. تضمن الكتاب (1108) ترجمة. من حسنات هذا الكتاب ذكر المصادر وراء كل ترجمة. طبع من الكتاب أربعة أجزاء في مصر سنة (1946-1963م).
- التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر في أخبار أعيان أهل المائة الحادية والثانية عشر: محمد بن الطيب بن عبد السلام الحسني القادري (1187هـ). جعله ذيلاً لكتاب (لقط الفرائد) لابن القاضي. مخطوط في الخزانة العامة بالرباط، ذكره الزِّرِكلي. واختصره في جزء مرتب على السنين.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني (852هـ). أهم كتاب في بابه. فيه تراجم الذين توفوا بين سنة (701-780هـ) من العلماء والملوك والأمراء. يمتاز هذا الكتاب بأنه أول كتاب يُترجم فيه لأعلام قرن بأكمله، ويمتاز أيضاً باهتمامه بنساء عصره. ورتب المؤلف التراجم على حروف المعجم. الكتاب أربعة أجزاء، طبع في حيدر آباد (1348هـ).
- السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر: محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني الشلي الخضرمي، جمال الدين (1093هـ). مخطوط في الخزانة التيمورية. في مجلد ضخم صفحاته (800) أضاف إليها أحمد تيمور فهارس في (51) صفحة.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (902هـ). بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة. ستة أجزاء.

أسماء تصانيفه: (ورسالة الانتقاد، وهي على طرز مقامة) أما الذي سماها (مقامات) فهو ابن بسام، في الذخيرة. يُنظر: الأعلام: 138/6.

- الضياء المنتشر في أعيان القرن الأول إلى الرابع عشر: محمد بن محمد بن عبد الله المسفيوي المراكشي، ابن الموقت (1369هـ). ذكره الزِّركلي[1].
- عقد الجواهر والدرر في أخبار القرن الحادي عشر: محمد بن أبي بكر بن أحمد الحسيني الشلي الخضرمي، جمال الدين (1093هـ). ذكر الزِّرِكلي أنه مخطوط في مكتبة شيخ الإسلام بالمدينة[2].
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة: ابن سعيد، أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي (685هـ). تحقيق: إبراهيم الأبياري. يضم (26) ترجمة. جزء واحد، وقد طبع بمصر (1945م).
- الغُنية: عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي (544هـ). وهو فهرسة شيوخه ومن لقيهم من علماء عصره وتراجمهم وما أخذ عنهم أو عن جلهم. مخطوط، في جزء لطيف. ابتدأه بالمحمدين، وختمه بيوسف بن عبد العزيز ابن عديس، ثم بما لهم من فهارس.
- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة: لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله (776هـ). المحقق: إحسان عباس. فيه (103) ترجمة، الطبعة الأولى (1963م). بيروت: دار الثقافة.
- الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة: نجم الدين محمد بن محمد الغزي (1061هـ). المحقق: خليل المنصور. بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1418هـ-1997م). ثلاثة أجزاء.
- النور السافر عن أخبار القرن العاشر: محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العَيْدَرُوس (1038هـ). بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى (1405هـ). جزء واحد.
- الوفيات (معجم زمني للصحابة وأعلام المحدثين والفقهاء والمؤلفين): أبو العباس أحمد بن حسن بن الخطيب الشهير بابن قنفذ القسنطيني (810هـ). المحقق: عادل نويهض. بيروت: دار الآفاق الجديدة، الطبعة الرابعة، (1403هـ-1983م). جزء واحد.
- تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر: أحمد تيمور باشا (1930م). جزء واحد، طبع بمصر (1359هـ-1940م). توفي قبل أن يكمله، فلم يستوعب أعيان القرن الثالث عشر، وأوائل الرابع عشر. وفات المؤلف رجال أشهر من الذين ترجم لهم. تضمن الكتاب (24) ترجمة، إضافة إلى ترجمة المؤلف.
- تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري (1301-1350هـ): محمد جميل الشطي. طبع في دمشق (1367هـ).
- تراجم الأعيان من أبناء الزمان: الحسن بن محمد البوريني (1024هـ).

[1] يُنظر: الأعلام: 84/7.
[2] يُنظر: الأعلام: 60/6.

ترجم فيه أبناء عصره. مخطوط في دار الكتب المصرية (بدئ بطبعه).
- تراجم رجال القرن السادس والسابع: عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة (665هـ)، وهو ذيل لكتاب (الروضتين) للمؤلف نفسه. فيه تراجم من سنة (550-665هـ). وقد ذكر في هذه الفترة ما فاته ذكره في كتاب الروضتين. جزء واحد، طبع في مصر (1947م).
- تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر: جرجي زيدان (1914). جزءان. طبع في مصر (1922م).
- حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر: عبد الرزاق بن حسن بن إبراهيم البيطار الميداني الدمشقي (1335هـ). تحقيق: محمد بهجة البيطار. بيروت: دار صادر، الطبعة الثانية (1413هـ-1993م). جزء واحد.
- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي الحموي الأصل، الدمشقي (1111هـ). بيروت: دار صادر. أربعة أجزاء.
- در الحبَبَ في تاريخ أعيان حلب: محمد بن إبراهيم ابن الحنبلي (971هـ). تحقيق: محمود الفاخوري، يحيى عبَّارة. ترجم لرجالات القرن التاسع وأوائل القرن العاشر في حلب وغيرها. "وربما ذكر فيه بعض التراجم بما لا تُعلق له بالمرام، وليس له بفن التاريخ التئام". يتضمن الكتاب (637) ترجمة للحلبيين منها (330) ترجمة. طبع الجزء الأول، القسم الأول في دمشق سنة (1972م).
- دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشاهير القرن العاشر: محمد بن علي بن عمر الحسني (986هـ). رسالة طبعت على الحجر بفاس (1309هـ).
- ذيل العبر: الذهبي (748هـ). أحد مختصرات (تاريخ الإسلام). رتبه على السنوات من (701هـ) إلى (740هـ). وبينما هو يترجم للمشاهير -في الغالب- نراه يترجم لبعض المغمورين، ممن لا نجد لهم ذكراً في المراجع الأخرى.
- ذيل العبر: محمد بن علي الحسيني (765هـ). تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب. سار فيه على طريقة الذهبي). بدأه بسنة (741هـ)، ووقف عند سنة (764هـ). أكثر تراجمه مقتضب، لكنه مفيد. جزء واحد، طبع في الكويت سنة (1970م).
- ذيل تاريخ بغداد[1]: محمد بن سعيد بن يحيى، أبو عبد الله بن الدُّبَيْثي (637هـ). المجلد الأول منه. مخطوط، كتب سنة (635هـ) ابتدأ بالمحمدين، فكتب (310) صفحات، ثم بالأحمدين، وانتهى بأواخر حرف الجيم. والجزء كله (490) صفحة.

[1] قال الزِّركلي: اختصره الذهبي في كتاب (المختصر المحتاج إليه)، وذكر أنه كتاب مخطوط، طبع الجزء الأول منه. يُنظر: الأعلام: 139/6.

- روض البشر في أعيان دمشق في القرن الثالث عشر: محمد جميل الشطي. طبع في دمشق (1367هـ).
- سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: محمد خليل بن علي بن محمد بن محمد مراد الحسيني، أبو الفضل (1206هـ). بيروت: دار البشائر الإسلامية، دار ابن حزم، الطبعة الثالثة (1408هـ-1988م). أربعة أجزاء.
- صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر: محمد (الصغير) بن محمد بن عبد الله بن علي الأفراني الأصل المراكشي الموطن (بعد1155هـ). طبع على الحجر بالقاعدة المغربية. وليس عليه تاريخ الطبع ولا مكانه[1].
- عقود الجمان، في شعراء هذا الزمان (أي عصر المؤلف): ابن الشعار، من أهل أواخر القرن السادس وأوائل السابع. مخطوط.
- عنوان الدراية فيمن عُرِف من العلماء في المائة السابعة ببجاية: أحمد بن أحمد الغبريني (704هـ). طبع بمدينة الجزائر (1328هـ-1910م).
- لقط الفرائد: أحمد بن محمد بن أبي العافية الشهير بابن القاضي المكناسي (1025هـ). مخطوط مختصر، جمع فيه من كان أول الثامنة إلى آخر العاشرة. ويذكر أنه وضعه "كالذيل لشرف الطالب أسنى المطالب، لابن الخطيب القسمطني". قال الزِّرِكلي: "ذيَّل به وفيات ابن قنفذ"[2].
- ملحق البدر الطالع بمحاسن من القرن السابع = (ذيل البدر الطالع): محمد بن محمد ابن زبارة. يتضمن (441) ترجمة لمشاهير رجال اليمن الذين أهملهم الشوكاني من بعد القرن السابع إلى أثناء القرن الثاني عشر. الكتاب جزء واحد، وقد طبع بمصر ملحقاً بكتاب "البدر الطالع"، صنفه المؤلف في القاهرة سنة (1348هـ).
- نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان: إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر (807هـ). تحقيق: محمد رضوان الداية. يضم الكتاب (31) ترجمة، قصرها على أعلام المائة الثامنة. آخرها ترجمة للمؤلف نفسه بقلمه. طبع في بيروت (1967م). جزء واحد.
- نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف إلى سنة (1357هـ): محمد بن محمد بن زبارة الحسني الصنعاني. طبع في مصر (1359-1376هـ). مجلدان.
- نشر المثاني لأهل القرن الحادي عشر والثاني عشر: محمد بن الطيب بن عبد السلام الحسني القادري (1187هـ). جزءان في مجلد. طبع بفاس (1315هـ).
- نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن

---

[1] قال الزِّركلي في هامش الأعلام: "هكذا ورد اسمه على النسخة المطبوعة منه. ثم رأيته في مخطوطة "الدرر المرصعة" بلفظ "صفوة ما انتشر" وهذا أصح". الأعلام: 318/8.
[2] الأعلام: 236/1.

الرابع عشر: ويسمى أيضاً بالدر الفاخر المكنون (أو الميمون) في تراجم أهل الخمسة قرون. عبد الله بن أحمد أبي الخير بن عبد الله بن محمد، ابن ميرداد (1343هـ). مجلد ضخم. مخطوط في مكتبة الحرم بمكة.
- نظم الدرر في اختصار نشر النور والزهر في تراجم علماء مكة وأفاضلها من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر: عبد الله بن محمد غازي الهندي (1365هـ). مخطوط في مكتبة نصيف بجدة.
- نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر: محمد بن محمد زبارة الحسني اليمني الصنعاني. طبع في مصر (1348هـ-1350هـ). جزءان.

الخاتمة

على ضوء ما تقدم من رصد وتتبع لكُتب التراجم والطبقات في التراث الإسلامي، نستطيع أن نسجل الملاحظات الختامية التالية:
أولاً: أغلب كُتب الطبقات صُنفت تصنيفاً موضوعيًّا، بمعنى أنه لم يتقيد مؤلفو الكتب المصنفة بحسب هذا المعيار بالترجمة لأعيان مكان معين، ولم يقتصروا على الترجمة لأعلام زمن محدد، بل ترجموا لأعلام الإسلام منذ فجر الإسلام إلى قبيل تاريخ وفاة مؤلفيها بقليل، والكتاب الأبرز المصنف وَفْق هذا المعيار هو كتاب "سير أعلام النبلاء".
ثانياً: تأتي الكتب التي ترجمت للأعيان وَفْق المعيار المكاني في المرتبة الثانية بعد مرتبة الكتب المصنفة بحسب المعيار الموضوعي. والكتاب الأبرز المصنف وَفْق هذا المعيار هو كتاب "الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة".
ثالثاً: جاءت الكتب المصنفة بحسب المعيار الزماني في المرتبة الثالثة. والكتاب الأبرز المصنف وَفْق هذا المعيار وَفْق هذا المعيار هو كتاب "الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة".
رابعاً: بعض كتب التراجم ترجمت للأعلام وَفْق معياري الزمان والمكان. والكتاب الأبرز بحسب هذا التصنيف هو كتاب "تراجم أعيان دمشق في نصف القرن الرابع عشر الهجري".
خامساً: ثمة العديد من الكتب التي جمعت بين المادة التاريخية والمادة التراجمية، وكثيراً من تراجم الرجال والأعلام جاءت ضمن كتب التاريخ، معتبرة أن كلاً منهما مكمل للآخر ومتمم له. والكتاب الأبرز المصنف على هذا النحو هو كتاب "تاريخ الإسلام".
هذا، ومما يوصى به في هذا الصدد تكثيف الجهود لتصنيف كتب التراجم والطبقات المطبوعة، وبذل الجهود لتحقيق كتب التراجم المخطوطة، ووضعها بين أيدي الباحثين للاستفادة منها. كما يُوصى بحثِّ الدارسين والباحثين على دراسة أمهات كتب التراجم وفهرستها فهرسة علمية، وبيان ما لها وما عليها؛ لتذليل الصعاب التي تحول بينها وبين استفادة الباحثين منها. كما أقترح في هذا المقام بمتابعة عقد المؤتمرات وإقامة الندوات التي تُعنى بكتب التراجم والطبقات. والله الموفق.

كتب الطبقات : نشأتها وأصنافها إلى أواخر القرن الرابع للهجرة ودورها في البحث التاريخي.

محمد العادل لطيّف
جامعة جندوبة/تونس

تمهيد

خلّف لنا التراث العربي الإسلامي إرثا هاما من الأدبيات المكتوبة في مختلف ميادين المعرفة[1] ،وتعددت الكتابات ذات الصبغة التاريخية بكيفية يستحيل معها أن نلمّ بها بإسهاب أو أن نحلّل محتوياتها دون اللجوء إلى تصنيفها والتحرّي في أطرها المعرفيّة التي أدّت إلى ظهورها وانتشارها واستعمالها بصفة مكثفة.من خلال هذه الدراسة، سأحاول المساهمة والانخراط في ميدان البحث حول دور كتب التراجم والطبقات في الكتابة التاريخية بالمجال العربي والإسلامي بالنظر في الفرق بين مصطلحات المعارف التي تمثل مَعينا لكتابة الطبقات، مثل المغازي والسير والتراجم وعلم معرفة الرجال والأنساب، متطرّقا إلى ظروف نشأة كتب الطبقات وتطوّرها إلى أواخر القرن الرابع للهجرة. وسأعمل على تصنيف بعضها حسب توجّهاتها المذهبية ومحتوياتها المعرفيّة كي أخْلُص إلى كيفيّة استعمالها في الدراسات التاريخيّة الحديثة ومدى أهميتها في دراسة التاريخ.

لم يكن المؤرّخ أو الكاتب العربي المسلم خلال فترة القرون الوسطى بمنأى عن التوجّهات المذهبية والصراعات السياسية التي شهدها المجال العربي الإسلامي. والعديد منهم كان على وعي بهذه الانحرافات والتشوّهات التي تلحق التأليف[2]. لذلك تصبح القراءات الموازية لهذا الصنف من المصادر التاريخيّة ومقارنة المعطيات ببعضها البعض، ضرورة علمية تفرض نفسها على الباحث المعاصر، إذ من شأنها أن تكشف لنا الأهداف المخفية والمطمورة التي تمّ التستّر عنها، واستجلاء كيفيّة توظيفها ضمن مسار الكتابة التاريخيّة. إنها قراءة لما بين السطور في محاولة لإبراز الفجوات التي

1- يعترف كلاّ من جان سوفاجيي وكلود كاهين أن « المؤرّخ الإسلامي ... لديه قدرا من المصادر الأدبية أكبر مما أنتجته أية حضارة أخرى حتى العصر الحديث.» *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، ترجمة عبد الستار الحلوجي وعبد الوهاب علوب، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998. ص 49.(صدر الكتاب في لغته الأصلية (الإنجليزية) سنة 1965، تحت عنوان : *Introduction to the history of the Muslim east*, by Jean Sauvaget & Claude Cahen.

2- أنظر تاج الدين السُّبكي، *طبقات الشافعية الكبرى*، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، 1976، 2/ 22-24، حيث يقول : « ***... : فإن أهل التاريخ ربما وضعوا من أناس ورفعوا أناسا، إما لتعصّب أو لجهل، أو لمجرد اعتماد على نقل من لا يوثق به، أو غير ذلك من الأسباب. والجهل في المؤرخين أكثر منه في أهل الجرح والتعديل. وكذلك التعصّب قلّ أن رأيت تاريخا خاليا من ذلك*** ».

خلّفها المصنّف عند تحريره للترجمة متمسكا بنوع من الحريّة في التصرّف في معطياته[1]، لا سيما وإن أغلبها قد تم تدوينها في ظروف سياسية وعقائدية متأزّمة، فاصطبغت رواياتها بصبغة منحازة ضيقة يمكن أن تعيق البحث إن لم يكن الباحث واعيا بمختلف هذه الاتجاهات والمؤثرات.

I. من المغازي والسير وعلم معرفة الرجال والأنساب إلى كتب الطبقات والتراجم :

1. المغازي والسير[2] :

لقد انبثقت الكتابة التاريخية في الحضارة العربية الإسلامية من جملة تطوّرات فكرية شهدتها مجالس الخاصة من الأعيان والولاة والأشراف بالمدينة ودمشق منذ العقود الأولى لوفاة الرسول. فمن أحاديث لبعض الروّاة[3] التي تحوّل بعضها إلى كتب في المغازي، تمّ تدوين كتب السّيرة[4] التي ضاع أغلبها ولم تصلنا منها سوى :

- المغازي النبويّة لابن شهاب الزهري (124هـ).
- سيرة محمد ابن إسحاق بن يسار(151هـ).
- كتاب السير، لأبي إسحاق الفَزَاري (186 هـ).[5]
- مغازي الواقدي[6] محمد بن عمر(208هـ).[7]
- السيرة النبوية لعبد الملك ابن هشام (218هـ). وهي نسخة "مهذبة"

---

1 Joana Jean, Les usages de la méthode biographique en sciences sociales, In: [*Revue de science politique de l'Europe méridionale*, semestrielle *Pôle Sud*, soutenue par le CNRS **(**Centre d'Etudes Politiques de l'Europe Latine) et la Faculté de droit et de science politique de l'Université Montpellier 1.], N°1, 1994, p, 91.

2 نذكّر أن المغازي تدلّ على غزوات الرسول وحروبه رفقة صحابته، وسرايا قادته، رغم إنها قد تناولت عصر الرسالة بكامله، ويكون ذلك حسب الموضوعات؛ في حين أن كتب السيرة قد اشتملت، إضافة إلى الغزوات والسرايا، شمائل النبي ومولده وصفاته وخصائص البعثة ومعجزاته ووفاته... وتَرِدُ الروايات مرتبة على السنين حسب وقوع الحوادث.

3 من بين هؤلاء نذكر: **عروة بن الزبير بن العوام،** (حوالي 94هـ). كان جدّه العوّام خال خديجة بنت خويلد، وأمه أسماء بنت أبي بكر، أخت عائشة زوجة الرسول. كان صديقا لعبد الملك بن مروان، رحل إلى مصر حيث قضّى سبع سنوات ثم إلى دمشق مرّة أولى في رعاية صديقه الخليفة، ومرّة ثانية في عهد الوليد بن عبد الملك، كما كان يتردّد على عمر بن عبد العزيز والي المدينة والخليفة اللاحق. ثم أبان بن عثمان بن عفان: (105هـ)، كان واليا على المدينة لمدة سبع سنوات في عهد عبد الملك بن مروان. ثم وهب بن مُنبه(114هـ)، و**عاصم بن عمر بن قتادة**(120هـ) و**شُرحْبيل بن سعد**(123هـ) و**ابن شهاب الزهري**(124هـ) و**عبد الله بن أبي بكر بن حزم**(≈ 130-135هـ) وهو من شيوخ ابن اسحاق. أنظر حول هؤلاء: يوسف هوروفيتس(Josef Horovitz)، *المغازي الأولى ومؤلفوها*، ترجمة حسين نصّار، القاهرة، 1949.

4 المرجع السابق، ص 2.

5 دراسة وتحقيق فاروق حمادة، مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة أولى، 1987، 420 ص.

6 تحقيق مارسدن دجونس، (Marsden Jones)، منشورات جامعة أكسفورد، لندن، 1965، ج1، و1966، ج2، وصدرت عن دار عالم الكتب بالرياض سنة 1984 في طبعتها الثالثة، جزآن. ويشير المحقق في آخر الجزء الثاني، إلى جزء ثالث سيتم نشره لاحقا، لكننا لم نعثر عليه.

7 هاملتون جب، *دراسات في حضارة الإسلام*، بيروت، دار العلم للملايين، ط 3، 1979، ص 149.

ومختصرة من سيرة ابن إسحاق.
وسنحاول في هذا البحث استعراض الكتب الأولى لهذه المغازي والسير، والتي أصبحت في متناول الباحثين :

- المغازي النبويّة لابن شهاب الزهري : أخذ عنه العديد ممن أتى بعده ولا سيما مالك بن أنس والأوزاعي وابن إسحاق. ويربط المحقق (سهيل زكار) في مقدمته بين ظروف كتابة الزهري لمغازيه وبين السياسة الأموية التي كانت تهدف إلى القضاء على بقية المصادر المحتملة لمسيرة النبيّ قبل فتح مكة وذلك من خلال التصفية الجسدية (واقعة الحرّة سنة 63هـ في عهد يزيد بن معاوية) لجل علماء المدينة. « *وعلى الرغم من علاقاته ببني أميّة، هنالك إجماع لدى المحدثين على توثيق الزهري واعتماد رواياته.*»[1]
- سيرة ابن إسحاق المسماة بالمبتدأ والمبعث والمغازي[2] : واجه ابن إسحاق عدة اتهامات استنقاصا من مقدرته ومعرفته لمجرّد أن كتاباته لم تكن تتوافق مع غايات المحدثين والمفسّرين، فلم يرو عنه الطبري، واتهمه مالك بن أنس بالدجّال. وقد أُجبر على الهجرة إلى العراق سنة 132هـ (749م).[3] وفي الثلث الأوّل من القرن الثامن، نجد ابن سيد الناس اليعمري(734هـ) قد لخّص أقوال ومواقف الفقهاء الأوائل في ابن إسحاق ضمن كتابه "عيون الأثر"، مدافعا عنه مستعرضا جلّ الروايات التي أُتّهم من أجلها بالكذب.[4]
- كتاب السير، لأبي إسحاق الفَزَاري (ت: 186هـ) : وُضع في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة. وتتجلى أهميته في أن شيوخ المصنف هم من أتباع التابعين كالأوزاعي والثوري وهشام بن عروة. نوّه به الشافعي وفضّله عن كل ما كُتب في عصره، كما مجّده ابن تيميّة لما يحتويه الكتاب من معلومات حول الغزو والجهاد خلال فترة صدر الإسلام. ويفيدنا بنوعية العلاقات التي كانت تربط بين علماء القرن الثاني. كما نجد به عديد النصوص التي تم توظيفها لصالح الأحكام الفقهية مثل الربا ونبش القبور والبيع والشراء والخيانة وبيع الأحرار والإمارة في الحروب والبيعة وما تستلزمه من طاعة والضرورة الشرعيّة...
- كتاب المغازي للواقدي : لقد كانت للواقدي علاقات وطيدة بالبرامكة.[5] ورغم تضعيف المحدثين الأوائل لرواياته، مثل البخاري

1 الصفحة 30 من مقدمة المحقق. دار الفكر، دمشق، 1981.
2 أنظر حول هذه الكلمات: "المبتدأ"، "المبعث"، "المغازي"؛ هاملتون جب، *علم التاريخ*، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981، ص 55-56.
3 كتاب المغازي للواقدي، تحقيق مارسدن دجونس، دار عالم الكتب، الرياض، 1984، 26/1. وأنظر وأنظر كارل بروكلمان، ***تاريخ الأدب العربي*****، القاهرة، دار المعارف، ط5، ، 6 أجزاء.**، 11/3.
4 ابن سيد الناس اليعمري، *عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير*، **مكتبة دار التراث – دار دار ابن كثير، المدينة المنوّرة، دمشق بيروت، د. ت.، (جزآن).1**/59-67.
5 **فيقول : « صار إليّ من السلطان ستمائة ألف درهم، ما وجبت عليّ فيها الزكاة.» ويظل الواقدي الواقدي ببغداد حيث جعله المأمون قاضيا لعسكر المهدي** *كتاب المغازي* للواقدي، تحقيق مارسدن دجونس، 7/1.

والنسائي والدارقطني، فقد وثقه ومدحه غيرهم.[1]
اعتمد الواقدي على من سبقه في تدوين السيرة وخاصة الزهري[2] لكنه أعرض عن الرواية عن ابن إسحاق نظرا لعدم توثيق علماء المدينة له.[3] ولعل هذا الكتاب قد يفيد الباحث في عدّة ميادين أخرى، مثل *الأدب الجغرافي*.[4] كما « *يلقي الضوء على مشاهد كثيرة من الحياة في فجر الإسلام، مثل الزراعة والأكل والأصنام والعادات في دفن الموتى ...، وبالجملة على جميع مظاهر الحياة في المجتمع الإسلامي في الفترة بين الهجرة وموت النبيّ.*»[5]

- سيرة ابن هشام الحميري : يشير ابن هشام صراحة إلى أنه قد قام بـ " تهذيب " سيرة ابن إسحاق.[6] ويبدو أنه لم يغيّر في صلب النص الأصلي، بل قام بحذف بعض المقاطع مباشرة، ويمْكننا بسهولة الوصول إلى محذوفاته بفضل الأزرقي (أخبار مكة) والمطهر بن طاهر البلخي (البدء والتاريخ)،[7] كما أضاف ابن هشام عدّة تصحيحات في الأنساب واللغة، يشير إليها دائما إنها من عنده.[8]

رغم كل الإيجابيّات التي تجلّت من خلال معطيات كتب السيرة والمغازي، فإنها تظلّ مرتبطة بمناخها وأطرها السياسية والتاريخيّة والثقافية؛ فهي قد تولّدت من علم الحديث الذي اعتمد على الإسناد،[9] وبما أن الرواية تستمد قوّتها أو ضعفها من أسانيدها أساسا، فيكون من الضروري التحرّي من كل هذه الكتابات واستعمالها بنظرة ناقدة،[10] لاسيما وإن كل المؤرخين، قد تساهلوا كثيرا في تدوين الروايات التاريخية،[11] إضافة إلى

---

1 مص، ن، ص 30/1.

2عبد العزيز الدوري، *بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب*، **العين، الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ، 2000.** ص27.

3 *كتاب المغازي* للواقدي، تحقيق مارسدن دجونس، 30/1.

4 مر، ن، ص 31/1-32.

5 مر، ن، ص 34/1.

6 « ***... وأنا – إن شاء الله تعالى – مبتدئ هذا الكتاب بذكر ... وترك ما ذكره ابن إسحاق في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله*** ρ ***فيه ذكر ولا نزل فيه من القرآن شيء، وليس سببا لشيء من هذا الكتاب ولا تفسيرا له ولا شاهدا عليه، لِما ذكرت من الاختصار، وأشعارا ذكرها لم أر أحدا من أهل العلم بالشعر يعرفها، وأشياء بعضها يشنع الحديث به، وبعض يسوء بعض الناس ذكره، وبعض لم يقرّ لنا البكّائي (183هـ/799م) بروايته.*** » ابن هشام الحميري، *سيرة النبيّ ρ*، تحقيق مجدي فتحي السيّد، دار الصحابة للتراث، طنطا، 1995، 5 أجزاء، 40/1-41.

7 كارل بروكلمان، *تاريخ الأدب العربي*، 11/3.

8 يوسف هوروفيتس(Josef Horovitz)، *المغازي الأولى ومؤلفوها*، ص 82-83.

9 أنظر حول الإسناد: أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة*، المدينة المنورة، مكتبة العلوم والحِكَم، ط 5، 1994، ص 44-58.

10 مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*،ج1، بيروت، دار العلم للملايين، طبعة 1983، 79/1.

11 انظر: بشّار عوّاد معروف، *مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين*، مجلة الأقلام، السنة الأولي، شعبان 1384 ، ج 5، ص 22-41. [24-27.]

اتهام المحدثين لبعضهم إما بالجهل أو بالتحيّز المذهبي أو بقضاء مآرب شخصيّة. كما لا يغيب عن إدراكنا أن المصنّف قد يكون منجذبا بوعي أو بغير وعي، نحو من هو بصدد الترجمة له قاصدا تبرير سيرته وإثباتها أو لرفع مظلمة يعتقد أنها قد سُلّطت عليه، وبالتالي فسيكون تأليفه إنتقائيّا بالضرورة.[1] لذلك، فمن بين الأهداف التي يمكن أن يرسمها الباحث المعاصر المعاصر عند استغلاله لهذه المصنفات، هو ضرورة الكشف عن هذه الكتابات والفرضيّات اللاواعية، وإبراز نتائج الضغوطات الموضوعيّة المهيمنة على سيرة الشخص المترجم له من ناحية، وعلى صاحب التصنيف من ناحية ثانية، ومدى تماهي أو انزياح كل منهما مع تطوّر هذه الضوابط التي تتحدّد بمقتضاها موازين القوى.[2]

إن هذا الصنف من الكتب قد سبق التدوين الحولي، بل يمكن أن نقول أن هذا الأخير قد تولّد منها، نظرا للارتباط الوثيق للمغازي والسير بعلم الحديث الذي جُمِعت مواده قصد نقد الأحاديث وتمحيصها.[3] ورغم أن روّاد المغازي هم أصلا محدّثين، فقد سعى البعض إلى تجاوز الاعتبارات الروحية والتشريعيّة كي يبحث في الأحداث التاريخية التي واكبت حياة الرسول والصحابة دون التخلي عن سلسلة الإسناد.

لذلك لا يمكننا دراسة السيرة النبوية والأحداث التاريخية الأولى في صدر الإسلام إلا بالقيام بدراسات وقراءات موازية لمحتوى المغازي والسير، والسعي إلى اكتشاف كيفيّة وضعها، ومقارنتها ببعضها البعض، مع النظر في ما يمكن الاستفادة منه ضمن أشعار فترة صدر الإسلام،[4] لعلّها تنير لنا بعض الأحداث والوقائع التي ضخّمتها وحاكتها كتب السيرة، مع اعتبار أن القرآن الكريم هو المصدر الأساسي لدراسة فترة البعثة المحمدية إلى وفاة الرسول.[5]

2. **كتب علم معرفة الرجال** :

ظهرت كتب "علم الرجال" بصفة موازية لعلوم الحديث، فهي فرع من

1 Knecht Robert J., La biographie et l'historien, In: *Cahiers de l'Association internationale des études françaises*, 2000, N°52, p 181.

2 Joana Jean, Les usages de la méthode biographique en sciences sociales, In: .94In: *Pôle Sud*, N°1, 1994, p,

3 هاملتون جب، *علم التاريخ*، ص 58.

4 أنظر: تيودور نولدكه، *تاريخ القرآن*، تعديل: فريديريش شفالي، نقله إلى العربية جورج تامر، كولونيا (المانيا) منشورات الجمل2008،ص405-409.[عنصر:الأشعاربوصفها مصدرا تاريخيّا.]

5 يشير هشام جعيط في كتابه الأخير باللغة الفرنسية، حياة محمد : **مسيرة الرسول بالمدينة ونصر الإسلام**' إلى ضرورة اتّباع هذه المنهجية في البحث التاريخي، والتي طبّقها بدقة متناهية، وخرج بعديد الاستنتاجات المنطقيّة وغير المسبوقة ضمن الدراسات المحمدية، والتي يصعب مخالفتها. أنظر Hichem Djaït,*La vie de Muhammad :Le parcours du Prophète à Médine et le triomphe de l'islam*, CERES,Tunis,2012 pp 130.,188. 198

فروعه،[1] وقد دعت الحاجة إليه ضرورة النظر في عدالة الروّاة ودرجة ضبطهم أو للطعن في رواياتهم، أي «البحث عن رجال الإسناد فيما يشينهم أو يزكّيهم»،[2] وهو ما انبثقت عنه كتب معرفة الصحابة وكتب الطبقات وكتب علم الجرح والتعديل،[3] بغية التأكّد من سلسلة الروّاة وبلدانهم وتنقلاتهم وشيوخهم... والتمييز بين الأحاديث[4]... التي روى بها كل المحدّثين والمصنّفين لأحاديث الرسول وسيرته، « *لحلّ الإشكالات التي نجمت عن عدم تدوين السنّة*[5] *في العصر الإسلامي الأوّل، وقد اتخذها رجال الفقه الإسلامي كمصدر ثانٍ للشريعة الإسلاميّة*.»[6] وأوّل من اعتنى بالكتابة في هذا المجال « شعبة بن الحجاج(160هـ)، ثم تبعه يحيى بن سعيد القطّان (198هـ).»[7] لكن هذه المدوّنات الأولى لم تصلنا. ولا يمكن الاعتماد إلا على"كتاب التاريخ الكبير" لإسماعيل البخاري(256هـ) كأوّل مصنّف تمّ حفظه،[8] وقد وضعه البخاري من أجل تحقيق أسماء الروّاة الذين ذكرهم في "صحيحه".

وقد انتقلت طريقة وضع الكتب التاريخية بالاعتماد على الإسناد، إلى المؤرّخين، ولعلّ ابرز هذه النماذج يتجلى لدى المحدّث والفقيه والمؤرّخ،

---

1 إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، منشورات رياض الريس، لندن، ط 2، 1995، ص 145-169.

2 مر، ن، ص 147.

3 أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنّة المشرّفة*، [ص 91-99].

4 مثل الأحاديث الصحيحة والموضوعة والضعيفة والحسنة والمتّصلة والمرسلة والمسندة والموقوفة والمقطوعة... والحديث الموصول عندما يكون الراوي صحابيّا، والمرسل عندما يكون الراوي تابعيّا، أما الموقوف فهو قول الصحابي وفعله، والمقطوع يعود للتابعي وفعله. أنظر: كتاب *علوم الحديث* لابن الصلاح. وأنظر السخاوي، *فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث*، دراسة وتحقيق عبد الكريم بن عبد الله الخضير ومحمد بن عبد الله بن فُهيد آل فُهيد، مكتبة دار المناهج، الرياض، 1426ه، (2005م)، 4 أجزاء + جزء 5 للفهارس، [ج 1 و 2.]. وأنظر مقدمة تحقيق كتاب *الكامل في ضعفاء الرجال* لابن عُديّ الجرجاني، تحقيق : عادل أحمد عبد الموجود وآخران، بيروت، دار الكتب العلميّة، (4 أجزاء)، 8/1-12. وأنظر: إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 171-186.

5 حول إشكاليّة تحديد بداية تدوين الحديث النبوي، نلاحظ عدة اختلافات عميقة بين الباحثين، فهنالك من يرى إن بداية تدوين السنة كان متأخرا (منتصف القرن الثالث) وهنالك من يعتقد إنها قد بدأت قبل ذلك بكثير (بداية القرن الثاني). أنظر في هذا الصدد: إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية*، دار المؤرّخ العربي، بيروت، 1995، ص14-16. وهاملتون جب، *علم التاريخ*، ص60. ومحمد فتحي عثمان، *المدخل إلى التاريخ الإسلامي*، بيروت، دار النفائس، ط 2، 1992، ص 119. وصالح أحمد العليّ، التدوين وظهور الكتب المصنّفة في العهود الإسلامية الأولى، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 31، 1980، ص 03-46. وأنظر خاصة: أيمن فؤاد سيّد، *الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات*، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1997، 73/1-76. وإبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 49-64.

6 إبراهيم فوزي، *تدوين السنة*، ص 146.

7 حاجّي خليفة، *كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت. ص 582.

8 طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، 1360ه/1941م، 05 أجزاء.

الطبري(309هـ) في كتابه "تاريخ الرسل والملوك".[1]
لقد شمل التدوين في علم الرجال مختلف أصناف الروّاة بداية من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، إلى الثقات والضعفاء والمدلسين، وأصبح ينقسم بدوره إلى عدّة فروع من بينها "علم الثقات والضعفاء من رواة الحديث".[2]
وتتوزّع المصنّفات في هذا المجال على أربعة أصناف كبرى[3] وهي :

- مصنفات يتداخل فيها معياران: تفاضلي ديني، وفي نفس الوقت تسلسلي زمني؛ فتخضع لتقييمات ذاتية عند إدراج المترجم له ضمن طبقة دون أخرى.
- مصنفات تخضع لمعيار القرابة الدموية بالنبيّ وبرهطه ثم بعشيرته وبقبيلته.
- مصنفات اعتمدت الترتيب الزمني للطبقات بتفاوت في المدة الزمنية لكل طبقة بين 10 و50 سنة حسب الأجيال المتعاقبة وحسب مفهوم المصنف لكل جيل.
- مصنفات اعتمدت أساسا الترتيب على حروف المعجم.

وإضافة إلى هذه الأصناف الأربعة الكبرى، يمكن أن نجد مصنفات تمزج بين الترتيب الزمني لمدة الطبقة، وداخل كل طبقة يتمّ اعتماد الترتيب الألفبائي.

أ. المصنّفات في طبقات الصحابة : وُضِعت أصلا لتبيان درجة الصُّحبة من بين المهاجرين والأنصار.[4] ومن أهم المؤلّفات في هذا المجال نذكر :
كتاب الطبقات الكبير، لابن سعد (ت: 230هـ/845م)[5]. وكتاب : طبقات

1 تم رصد رواة الطبري ضمن كل كتبه التي وصلت إلينا ضمن كتاب حديث من تأليف أكرم بن محمد زيادة الفالوجي الأثري، "*معجم شيوخ الطبري*"، الدار الأثرية-دار ابن عفّان، عمّان-القاهرة، 2005، 828 ص.

2 **عرّفه حاجي خليفة في كشف الظنون قائلا : «*وهو من أجلّ نوع وأفخمه من أنواع علم أسماء الرجال، فإنه المرقاة إلى معرفة صحّة الحديث وسقمه، وإلى الاحتياط في أمور الدين وتمييز مواقع الغلط والخطأ... وللحفّاظ فيه تصانيف كثيرة.*» ويضيف في شرحه لعلم الجرح والتعديل: « *هو علم يبحث فيه عن جرح الروّاة وتعديلهم بألفاظ مخصوصة وعن مراتب تلك الألفاظ. وهذا العلم من فروع علم رجال الأحاديث... وكما جاز الجرح في الشهود، جاز في الرواة.*»** 582/1.

3 Ibrahim HAFSI, Recherches sur le genre « *Ṭabaqā*t » dans la littérature arabe, in : *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 235-236.

4 أنظر حول اختلافات علماء المسلمين لمفهوم الصحبة والصحابة ودرجات التابعين : عدنان عبد الرحمان الدوري، أسماء التابعين ومن بعدهم (للدارقطني)، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 32، ج 1-2، 1981، ص 403-405.

5 **يُعدّ هذا التأليف من أقدم المصادر التي وصلتنا** أنظر : أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة*، ص 83-87. **يتناول السيرة والمغازي في جزئين، ثم يتناول ابن سعد توزيعا للصحابة حسب المراتب اعتمد فيه على معيار السابقة في الإسلام.** أنظر دراسة :
Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 243.

خليفة بن خيّاط (ت:240هـ/854م)[1] ويعتبر هذان الكتابان من بين الكتب المتداولة والمستعملة بغزارة في البحث التاريخي. غير إننا سنشير هنا إلى بعض الكتب الأخرى المغمورة والتي لا يتم إستغلالها إلا ضمن الدراسات ذات الطابع الفقهي والديني عموما. ومن أهم هذه الكتب حسب رأي أذكر :

- طبقات مسلم بن الحجّاج النيْسابوري،[2] (ت: 261هـ/874م): يتميّز بخاصيّة جديدة في ذلك العصر تتمثّل في وضع تراجم الروّاة على أساس التسلسل الزمني، فهو أوّل من قام بها في مثل هذه الكتب، فوزّع الصحابة إلى صنفين : أولائك الذين لازموا النبيّ وعاشروه من قرب، أما الصنف الثاني فهم الذين لم يروه ولم يكن لهم به اتصال مباشر، ومن مزاياه أنه أصبح مصدرا لضبط أسماء كثير من الروّاة وأنسابهم، وتصويب بعض أوهام البخاري في كتابه التاريخ الكبير، كما ميّز مسلم بين الصحابيّ والتابعي وحدّد بلدانهم.[3]
- الطبقات في الأسماء المفردة من أسماء العلماء وأصحاب الحديث،[4] لأبي بكر محمد بن هارون بن روْح البرديجي، (301هـ/913م) : يعتبر البرديجي من كبار محدثي عصره، أثنى عليه العديد، فوثقوه، من بينهم الدارقطني والخطيب البغدادي وابن عساكر والذهبي.[5] وهو الأوّل من بين

---

1 تحقيق أكرم ضياء العمري، تقديم أحمد صالح العليّ، بغداد، مطبعة العاني، 1967. **كان خليفة بن خيّاط معاديا للمعتزلة، « *كما عانى الكثير من الحسد بسبب سعة علمه وثقته* »، وخلافا لكاتبه في التاريخ، حيث كان دقيقا في الإسناد، نراه أكثر تساهلا في الطبقات الذي وضعه أصلا لعلم الرجال، « *فيكشف فيه عن علم واسع بالأنساب، ولكنه يضيف إليها الأخبار.* »** مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 234/1-236. وتقدم لنا طبقات خليفة حوالي 3375 ترجمة لرجال ونساء من الصحابة والتابعين، وضعها على أساس القرابة العائلية من النبيّ الذي يبدأ بسيرته كي ينتقل مباشرة إلى عمه العباس جدّ خلفاء الدولة العباسية، ثم يصل إلى بقية أفراد العائلة الهاشمية، =مؤصّلا بذلك طريقة عمر بن الخطّاب عند وضعه لديوان العطاء. Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 247.

ويفيدنا أكرم ضياء العمري بنتيجة هامة استخرجها من دراسة الكتاب تتمثل في حفظ المصنّف لعديد الروايات التي دُوِّنت سابقا لكنها فُقدت. وقد اعتمد عليه كل من أتى بعده وحتى من معاصريه مثل ابن سعد في الطبقات الكبرى، نظراً لغزارة المادة التي يقدمها خليفة *طبقات خليفة*، ص (30م) من مقدمة المحقّق. **وهي معلومات ثرية تمكّننا من استخراج عديد المعطيات التي ظلّت جانبية لم يحسن استغلالها، وبالتالي فإنها تطرح عدّة تساؤلات أخرى وتفتح آفاقا جديدة في البحث، مثل أهميّة المدينة لدى القبائل العربية وكيفيّة تأقلمها مع المحيط العمراني الجديد، أو دور الرحلة لدى المحدثين والروّاة والأخباريين، وما هي الأبعاد الجغرافيّة ومراكز طلب العلم في المجال العربي الإسلامي خلال القرن الثاني للهجرة...**

2 تقديم وتعليق أبو عبيدة مشهور بن حسن بن محمود بن سلمان، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، 1991، جزآن وأنظر: أكرم ضياء العمري، *بحوث في تاريخ السنة المشرّفة* ص 87-88

3 المهندس أسعد سالم تيم، *علم طبقات المحدثين : أهميته وفوائده*، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض، 1994، ص 159.

4 تحقيق سكينة الشهابي، دار طلاس، دمشق، 1987، 167 ص.

5 *طبقات الأسماء المفردة من الصحابة والتابعين وأصحاب الحديث*، تحقيق سكينة الشهابي، دمشق، دار طلاس للنشر،1987، ص 9.

المصنفين الذين أفردوا للصحابة بهذه الطريقة في كتاب واحد[1] تسهيلا للبحث والتنقيب في أسماء الصحابة التي قسّمها على خمس طبقات. والإسم المفرد هو من لا يوجد له نظير من الأسماء ضمن موضوع التصنيف. فالمترجم له، هو فرد في طبقته، ولا نظير له في غيرها من الطبقات.[2] ويعتقد إبراهيم حفصي في دراسته أن المصنّف قد عبّر بهذا الكتاب عن مدى إنشغال محدّثي العصر بإمكانيّة تداخل أسماء الروّاة، فكان من الضروري غربلتها والتركيز على بعض الأشخاص الضامنة لمصداقية المتن.[3] وهذه الطريقة لم تلق الصدى المطلوب بعد البرديجي، لأننا نلاحظ تضاعف عدد الصحابة عشرات المرّات بين القرن الثالث والثامن للهجرة، وما محاولة المصنّف في هذا الكتاب سوى تعبيرا عن إرادة إقصاء لبعض الروّاة الذين اعتبرهم البعض من الضعفاء والمدلسين، ونظر إليهم الآخرون كثقات. وسيتم تثبيت هذا التوجه في الانتقاء والإقصاء بظهور عديد كتب الجرح والتعديل خلال نفس الفترة الزمنيّة.

- معجم الصحابة[4] لابن البغوي أبو القاسم عبد الله بن محمد (317هـ) :

أُتِّهم البغوي بالتقصير والكذب وبسرقة الأحاديث وبوضع بعضها.[5] لكن الذهبي دافع عنه في "سير أعلام النبلاء".[6] ورغم التجريح والهنات التي آخذها البعض من المصنفين على ابن البغوي، إلاّ أن العديد منهم قد استفاد من كتابه هذا، من بينهم ابن عبد البرّ في "الاستيعاب"، والعسقلاني في "الإصابة" وفي "فتح الباري".[7]

ب. المصنفات في الثقات :

- كتاب "معرفة الثقات"، لأبي الحسن أحمد بن عبد الله العجلي الكوفي (261هـ) نزيل طرابلس الغرب. (مع زيادات ابن حجر العسقلاني).[8]

---

1 مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 231/1.

2 *طبقات الأسماء المفردة من الصحابة*، مقدمة المحقق، ص 14.

3 Ibrahim HAFSI, Recherches… *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 250.

4 تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، الكويت، 2000، 5 أجزاء. وأنظر : أكرم ضياء العمري، بحوث، ص 73.

5 **قال فيه ابن عُديّ :** ***«كان صاحب حديث، وكان ورّاقا من ابتداء أمره، يُورّق على جدّه، وعمّه وغيرهما، وكان يبيع أصل نفسه في كلّ وقت... ووافيت العراق سنة سبع وتسعين ومائتين، والناس أهل العلم والمشايخ معهم، مجتمعين على ضعفه، وكانوا زاهدين من حضور مجلسه... وتكلم قوم فيه عند عبد الحميد الورّاق ونسبوه إلى الكذب... وكان بذيء اللسان، يتكلم في الثقات.»*** ابن عدي الجَرَجاني، *الكامل في ضعفاء الرجال*، دار الفكر، بيروت، 1984،(7 أجزاء)، 1578/4-1579.

6 ***«قد أسرف ابن عُديّ، وبالغ، ولم يقدر أن يخرّج له حديثا غلط فيه، سوى حديثين، وهذا مما يقضي له بالحفظ والإتقان، لأنه روى أزيد من مائة ألف حديث، لم يَهِم في شيء منها.»*** معجم *الصحابة* لابن البغوي، مكتبة دار البيان، الكويت، 2000، 5 أجزاء، 30/1-31.

7 مص، ن، 35/1-36.

8 صدر الكتاب بتحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوي عن مطبعة المدني بالقاهرة في جزئين، دون تاريخ للنشر، لكن مقدمة المحقق تشير إلى سنة 1984، وقد قام بنقد وتصحيح طبعة دار الكتب العلمية ببيروت التي صدرت تحت عنوان "تاريخ الثقات" سنة 1984.

- كتاب "الثقات" لابن حبّان البَستي(354هـ/965م).

ت. المصنفات في الضعفاء والمتروكين:

لقد اعتمد المصنفون في هذا الباب نفس المنهجية المتّبعة عند الكتابة في "الثقات"، فأفردوا وجمعوا بين مختلف الصحاح والمجاميع والمسانيد. وكثر التنقيب عن هؤلاء منذ الفتنة الكبرى.[1] وبالتالي فإن عمليّات التنقية والتصنيف والقبول والرفض قد بدأت منذ العقود الأولى للتدوين فظهرت عديد الكتب في هذا المجال. والتي يفوق عددها 32 تأليفا،[2] نذكر من بينها :

- مولفات يحيى بن معين(233هـ)،[3] وهي عبارة عن مجموعة من المرويات التي تختلف بين هذا وذاك من الروّاة. لكن أهل السنّة والجماعة اعتبروه العُمدة في رواية الحديث والمُزكّي لبقية الروّاة، والذي لا يمكن التشكيك في شخصه وفي أحكامه، إلى أن جعله بعضهم من المقربين من الذات الإلاهية في الجنة!![4] والجدير بالتذكير أن ابن معين معاصر وصديق لأحمد بن حنبل.
- كتاب "الضعفاء الصغير" وكتاب "الضعفاء" للبخاري.(255هـ).
- "الشجرة في أحوال الرجال" للجوزجاني أبو إسحاق السعدي نزيل دمشق(259هـ).

حدّث عن الجوزجاني العديد ممن أتى بعده مثل أبي داود السجستاني، والترمذي، والنسائي، والطبري، وآخرين. اشتهر هذا الكتاب، أيضا باسم "الضعفاء"، وذلك لأن الجوزجاني ألّفه لبيان حال من لا ينبغي الرواية عنه حسب اعتقاده، إما "لضعفه أو بدعته أو لعدم صدقه وأمانته في الرواية." ولم يُرتِّب كتابه ترتيبًا مُعيَّنا، وإنما راعى في تصنيفه الفِرَق والمذاهب : " أهل البدع والأهواء". كما نسبه بعضهم إلى التحامل على أهل الكوفة.

---

1 ذكره مسلم في صحيحه والبغدادي في "الكفاية في علم الرواية"، نقلا عن : عدنان عبد الرحمان الدوري، أسماء التابعين ومن بعدهم، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 32، ج 1-2، 1981، ص 402.

2 الدارقطني، *الضعفاء والمتروكين*، تحقيق موفّق بن عبد الله بن عبد القادر، الرياض، مكتبة المعارف، 1984، ص 13-16.

3 « يحيى بن معين بن عون بن زياد (233ه/848م)، المري بالولاء، البغدادي، أبو زكريا : من أئمة أئمة الحديث ومؤرخي رجاله. نعته الذهبي بسيّد الحفاظ. وقال العسقلاني : إمام الجرح والتعديل. وقال ابن حنبل : أعلمنا بالرجال. ومن كلامه : كتبت بيدي ألف ألف حديث. له "التاريخ والعلل" في الرجال، رواية أبي الفضل العباس بن محمد بن حاتم الدوري عنه. و"معرفة الرجال". أصله من سرخس. ومولده بقرية " نقيا " قرب الانبار. وكان أبوه على خراج الري، فخلف له ثروة كبيرة، فأنفقها في طلب الحديث. وعاش ببغداد. وتوفي بالمدينة حاجّا، وصلى عليه أميرها.» الزركلي، *الأعلام*، بيروت، 1969، الطبعة 3، 218/9-219. وأنظر مقدمة تحقيق كتاب : "*موسوعة أقوال يحيى بن معين في الجرح والتعديل*"، جمعها وحققها بشار عواد معروف، دار الغرب الاسلامي، 2009، 5 اجزاء. [10/1-32].

4 **قال عنه أحدهم :** « ***رأيت يحيى بن معين في النوم فقلت : ما فعل الله بك؟ قال أعطاني وحباني وزوّجني ثلاث مئة حوراء، ومهّد لي بين المصراعين... وأدخلني عليه مرتين.*** » *موسوعة أقوال يحيى بن معين في الجرح والتعديل*"، 31/1-32.

- الضعفاء والمتروكين لأحمد بن شعيب النسائي(303هـ). وقد اعتبره البعض من المتشددين في الحكم على الرجال.
- "الضعفاء الكبير" لمحمد بن عمر العقيلي(322هـ). حفظ لنا هذا الكتاب آراء علماء الحديث في بعض الروّاة، منبّها إلى الأحاديث التي "أخطأ فيها بعضهم"، والتي كانت سببًا في تجريحهم ودحض مروياتهم. وليس كل الرواة الذين ذكرهم العقيلي قد تمّ الاتفاق على تضعيفهم، بل أن العديد منهم قد تمّ الاختلاف حولهم، ومنهم من اعتبرهم الذهبي في "ميزان الاعتدال"، من الثقات.
- "المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين" : لمحمد بن حبّان البستي، (ت: 354ه). يشير محقق الكتاب إلى أن ابن حبّان قد « *وقع في صراع مع الأحناف، وكاد لهم وكادوا له في كل مكان تواجدوا به. وهذا هو التعليل الوحيد لتحامله على أبي حنيفة...*»[1]
- الكامل في ضعفاء الرجال[2] لابن عُديّ الجرجاني(365هـ).
- "الضعفاء والمتروكين" للدارقطني علي بن عمر بن أحمد(385هـ).

ث. المصنفات في المدلسين :

إن الحديث النبوي خاضع لمعطيات تظل تاريخيّة بالأساس، فالمفاهيم الأوّليّة التي حدّدها الجدال وأفرزها الصراع المادّي والفكري بين المسلمين قد سمح بظهور الأحاديث المنسوبة للرسول ولأبي بكر وعمر؛ إحداها تمجّد العرب وقريش، وأخرى تمجّد الفرس وثالثة تمجّد المغاربة[3] وأخرى تحطّ من شأن هذه المجموعة أو غيرها. فتراكم الأحاديث وتضخّم عددها عبر سنوات التجميع والتدوين أدّى إلى تنافس المحدثين والرواة والمدوّنين. كما ضعّف

---

1 *المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين*، تحقيق محمود إبراهيم زايد، بيروت، دار المعرفة، 1992، 3 أجزاء، 01/الصفحة (ه) من مقدمة التحقيق.

2 أنظر : زهير عثمان علي نور، *ابن عُدي ومنهجه في كتاب الكامل في ضعفاء الرجال*، مكتبة الرشد، الرياض، 1997، جزآن.

3 أنظر خاصة : أبو العرب، (ت : 333ه)، *طبقات علماء إفريقيّة وتونس*، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي، تونس، الدار التونسيّة للنشر،1968، ص 43-53. [فصل : ما جاء من الفضائل في إفريقيّة]. كما يشير ابن ناجي في معالم الإيمان إلى عديد الأحاديث المنسوبة للرسول ويعلّق عليها قائلا : «*... وسمعت شيخنا أبا الفضل، أبا القاسم بن أحمد البرزلي* (ت: 821ه) *قول عن شيخه وشيخنا أبي عبد الله محمد بن محمد بن عرفة الورغمّي : أنه يغلب على الظن أن هذه الأحاديث موضوعة، ... ويدلّك على هذا أن فيها رونق الأحاديث الموضوعة.*» [*معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان*،ج 1، (تصحيح وتعليق إبراهيم شبّوح)، صنّفه الدبّاغ أبو زيد عبد الرحمان الأسيدي، (ت : 696ه)، أكمله وعلّق عليه بن ناجي، تونس، المكتبة العتيقة، ط 2، 1993، 6/1.] كما يشير إبراهيم حركات لحديث «*لم يتورّع عنه البعض لإظهار أفضليّة هذه المدينة أو تلك من مدن المغرب الإسلامي، بل إن إفريقيّة الأمازيغيّة قيل عنها : « ينقطع الجهاد من البلدان كلها فلا يبقى إلا في موضع في المغرب يُقال له إفريقيّة.*»»، *المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط*، الدار البيضاء، منشورات إفريقيا-الشرق، 1998. ص 29.

الفقهاء بعضهم البعض مثل الدارقطني[1] الذي استخرج في كتابه"الاستدراكات والتتبع"، حوالي مائتي حديث اعتبرها ضعيفة من صحيحي البخاري ومسلم.[2] ويشير البيروني إلى أن أحد المحدثين، بعد أن وضع الآلاف من الأحاديث في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور (136-158ه/754-775م) افتضح أمره «... *فلمّا أيقن أنه مقتول، قال : أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث، أحرّم فيها الحلال وأحلّ بها الحرام، ولقد فطّرتكم في يوم صومكم وصوّمتكم في يوم فِطركم*...»[3] أي أن الفقهاء والعلماء كانوا على وعي تام بإمكانيّة تدليس الأحاديث والكذب على الرسول، لذلك عمل كل منهم حسب اعتقاداته ومذهبه على استقصاء سلسلة الأسانيد خاصّة، لكن نظرتهم إلى متن الحديث لم تكن بنفس المستوى النقدي باعتبار أن نقد المتن لا يجوز البحث فيه متى صحّ الإسناد.

وقد أشار عدد من المؤرخين والفقهاء[4] في مصنفاتهم إلى مجموعة كبيرة ممّن اعتبروهم من واضعي الحديث، ويُقال أن عددهم يفوق 350 كذّابا،[5] جلّهم اتهموا بالتشيّع أو بالزندقة، أو بالاعتزال أو بالانتماء إلى السبئية.[6] فالكلّ يتّهم الكلّ. «*لذلك يجب التدقيق في أخبار هذه المرحلة التي لم*

---

1 الدارقطني : (ت: 385ه)، أبو الحسن علي بن عمر البغدادي الشافعي، انتقل إلى مصر وساعد كافور الإخشيدي على تأليف مسند كان يصنّفه. كارل بروكلمان *تاريخ الأدب العربي*،3/210-212.

2 مر. ن.، ص 212.

3 البيروني، *الآثار الباقية عن القرون الخالية*، (وضع حواشيه خليل عمران المنصور)، بيروت، دار الكتب العلميّة، ط 1، 2000.ص 68.

4 أنظر في هذا الصدد : خالد كبير علال، *مدرسة الكذّابين في رواية التاريخ الإسلامي وتدوينه*، الجزائر، دار البلاغ، 2003، 139 ص.

5 **من بينهم : عمرو بن عبيد(144هـ)، ومحمد بن السائب الكلبي(146هـ)، ومحمد بن إسحاق (151هـ)، وسيف بن عمر** التميمي **(180هـ)، وهشام بن محمد بن السائب الكلبي (204هـ)، والواقدي (208هـ)، وأبو الهذيل العلاّف(235هـ)، والجاحظ (255هـ)**، مر، ن، ص 10. **وابن النديم(380هـ)**، (يقول عنه ابن حجر العسقلاني: «عمرو بن بحر الجاحظ صاحب التصانيف ... قال ثعلب ليس بثقة ولا مأمون. قلت : وكان من أئمة البدع... فسبحان من أضله على علم... وقال إسماعيل بن محمد الصفار سمعت أبا العيناء يقول أنا والجاحظ وضعنا حديث فدك وأدخلناه على الشيوخ ببغداد فقبلوه إلا بن شيبة العلوي فإنه أباه وقال هذا كذب... وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنه كان يرمى بالزندقة... قال بن خشبة في اختلال الحديث... ثم نصير إلى الجاحظ ... فنجده مرة يحتج للعثمانية على الرافضة ومرة للزندقة على أهل السنة ومرة يفضل عليا ومرة يؤخره ... وقال بن حزم في الملل والنحل : كان أحد المجان الضلال، غلب عليه الهزل... وقال ثعلب كان كذابا على الله وعلى رسوله وعلى الناس.» *لسان الميزان*، تحقيق عبد الفتاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، 2002، 189/6-190 ترجمة عدد (5780.) **والتوحيدي (414هـ).** (يقول عنه ابن حجر العسقلاني: « أبو حيان التوحيدي صاحب التصانيف ... نفاه الوزير المهلبي لسوء عقيدته وكان يتفلسف ... كان أبو حيان كذاب قليل الدين والورع مجاهرا بالبهت، تعرض لأمور جسام من القدح في الشريعة والقول بالتعطيل، وقال ابن الجوزي كان زنديقا. قلت بقي الى حدود الأربع مائة ببلاد فارس وكان صاحب زندقة وانحلال.» *لسان الميزان*، 55/9، ترجمة عدد (8825).

6 أنظر في هذا الشأن : عزيز رشيد محمد الدّايني، *أسس الحكم على الرجال حتى نهاية القرن الثالث الهجري*، (تدقيق ومراجعة بشار عوّاد معروف)، بيروت، دار الكتب العلمية، 2006، 200 ص.

تخْلُ أخبارها من تعاطف مع هذا الاتجاه السياسي أو ذاك.»[1] فنلاحظ بالتالي أن هذه المصنفات تفتقر لكل حسّ تاريخيّ موضوعي، وتخضع لتوجهات مذهبية واضحة، فوجب التعامل مع محتوياتها بكلّ حذر، والعمل على استغلالها بصفة تجعلنا نفرّق بين الكتابة الإيمانيّة والمعرفة التاريخيّة.

3. دور كتب الأنساب :

لقد ساهم كُتّاب الأنساب في حتميّة انبلاج كتب الطبقات، إذ كان لعلم لأنساب أهميّة لدى العرب منذ ما قبل الإسلام حفاظا على أصالة وتماسك القبيلة كوحدة اجتماعية يفتخر الأفراد بالانتماء إليها.[2] وقد تمّ تدعيم هذا التوجّه منذ عهد الرسول الذي كان مع أبي بكر الصديق أكثر الناس معرفة بالأنساب،[3] لأن هذه المعرفة تنزّل الناس منازلهم، ثم أن قسما من أعمال الشرع يحتاج تطبيقها إلى معرفة الأنساب، مثل معرفة نسب النبي كفرض على المسلمين، ومعرفة عدم جواز الخلافة إلا للقريشيّ الأصيل، وضرورة التثبت من الأرحام المحرّمة لإبرام عقود النكاح وتثبيت المواريث.[4] بل يذهب شاكر مصطفى أبعد من ذلك كي يؤكّد على أن أوّل خطّ تاريخي كُتب في الإسلام، إنما كان في النسب على يد ثلاثة أنفار بدعوة من عمر بن الخطّاب الذي عهد إليهم بوضع سجلات الأنساب للدواوين التي أنشأها.[5]
فمنذ أواخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة، ساهمت هذه الكتب في بلورة الكتابة التاريخية كنسيج أدبي ما فتئ يرنو نحو الاستقلالية.[6]
ونتيجة للانتشار الإسلامي خارج الجزيرة العربية ونظرا للإشكاليات الجديدة المطروحة، السياسية (الخلافة) والاقتصادية (أراضي السواد والغنائم)

---

1 إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج في الكتابة التاريخية العربية*، بيروت، دار المؤرّخ العربي، 1995. ص 22. وأنظر : أيمن فؤاد سيّد، *الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات*، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1997، جزآن. ص 75.

2 أنظر جان سوفاجيي و كلود كاهين، *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، حيث يقول الكاتب : «... ولم يكن كل فرد يحفظ نسبه فحسب، وإنما كان يحفظ أيضا أمجاد أجداده القتالية التي تجلّت من خلال الحروب القبلية. وفي ظل البناء الاجتماعي قبل الإسلام لم يكن الفرد يُعتبر سوى عضو في جماعة – عشيرة أو قبيلة – لها شرفها وشهرتها.» ص 50.

3 أنظر : محمد عبد الحي محمد شعبان، *صدر الإسلام والدولة الأمويّة*، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، 1987. حيث يقول : « كان نسابة خبيرا، وهي معرفة ستكون مفيدة سياسيا في فترة الردّة حين كانت معرفة الصلات القبلية المتشابكة أمرا حيويّا.» ص 28.

4 أنظر مقدمة : كتاب *طبقات خليفة بن خيّاط*، ص 34م.

5 **وهؤلاء الأشخاص هم : جبير بن مطعم القرشي وعقيل بن أبي طالب (شقيق علي) ومخرمة بن نوفل الزهري القرشي، فأصبحت سجلاتهم أساسا لكتب النسب** مصطفى شاكر، *التاريخ العربي*، 190/1. وأنظر : الطبقات الكبرى لابن سعد، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2001، 275/3.

6 يشير جان سوفاجي إلى أن علم التاريخ قد استقلّ عن التراجم والأنساب والحوليات، «*إلا أنه ظلّ دائما ينزع إلى اصوله الأولى ويحمل طابعها. حتى أن بعض الكتب التي تسمى "كتب تاريخ"، لا تخرج عن كونها مجموعات من تراجم المحدثين تم اختيارهم لما رووا من أحاديث.*» *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، ص 56. وانظر : إبراهيم بيضون، *مسائل المنهج*، ص 25.

والاجتماعية (الشعوبيّة) التي واجهتها الدولة[1]، ظهرت فئة جديدة من بين الإخباريين وهم النسّابة[2] الذين وضعوا سلالات القبائل والأفراد منذ العهد الأموي. وقد علمنا من خلال كتب الفهارس والتراجم أن العديد من النسّابين الأوائل قد كتبوا في مجال كُتب الطبقات مثل كتاب "طبقات أهل العلم والجهل" للمعتزلي واصل بن عطاء الغزّال (وُلد سنة 80 للهجرة وتوفّي سنة181هـ)،[3] ثم كِتابيْ الهيثم بن عدّي(207هـ) : "من روى عن النبيّ وأصحابه" و"طبقات الفقهاء والمحدثين".[4] وقد سبق له أن وضع كتابين في الأنساب بعنوان: "تاريخ الأشراف الكبير" وتاريخ "الأشراف الصغير"،[5] إضافة إلى مجموعة كبيرة أخرى من الكتب التي تنحو نفس منحى الطبقات.
لقد اهتمّت كتب الأنساب بتسجيل سنة وفاة الشخص المترجم له، وبنسبه لأبيه وأمه، ويعود ذكر النسب أحيانا إلى ما قبل الإسلام، كما يتمّ ذكر كنيته، ومسقط الرأس ومكان السّكن والمهنة التي تقلّدها وأحيانا عقيدته، وتنقّلاته بين الأمصار. كما اعتمدت على الأشعار لاستخراج مناقب ومثالب القبائل والعشائر، لكنها مزجت كل ذلك بالأخبار والأحداث المتعلقة بالمترجم له.
ومن بين أهم المصنّفات في طبقات النسابين نذكر :

- ابن قتيبة (276ه/889م)، المعارف.[6]
- أحمد بن يحيى البَلاذُري(279هـ)، أنساب الأشراف.[7]

ويجدر بنا لفت نظر القارئ إلى ضرورة الاطلاع على الدراسات النقدية التي قام بها كلاً من مصطفى شاكر ضمن الجزء الأوّل من كتابه التاريخ العربي والمؤرخون (ص 243-245)، وعبد الستار فرّاج ضمن الجزء الأوّل من كتاب أنساب الأشراف تحقيق محمد حميد الله (ص 14- 28) تحت عنوان : "قيمة البلاذري وكتاب أنساب الأشراف" ، حيث يستعرض خاصة مفهوم مصطلح "الأشراف" وطريقة المؤلف في تأليفه.[8]

---

1 مر، ن، ص 151. و مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 65/1-68.

2 محمد بن السائب الكلبي : (146هـ) وابنه هشام (204هـ)، وأبو اليقظان (190هـ) الذي اعتمد عليه خليفة بن خيّاط (240هـ) في طبقاته، والبلاذريّ (297هـ) في أنساب الأشراف. أنظر : *كتاب طبقات خليفة بن خيّاط*، ص 15م – 25م.

3 ابن خلكّان، *وفيات الأعيان*، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، 1994. 11/6.

4 ابن النديم، *الفهرست*، دار الكتب العلمية، بيروت، 1996، ص 160.

5 مص، ن، نفس الصفحة.

6 أنظر مقال مصطفى جوّاد، المعارف، *مجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 9، 1961، ص 433-459.[***المعارف*، تحقيق: ثروت عكاشة، دار الكتب المصريّة، القاهرة، 1960، 667 ص. ويعرفنا ابن قتيبة بكتابه وبالهدف من وضعه.]**

7 تم تحقيقه عديد المرات على مراحل، [مصطفى شاكر، التاريخ العربي، 243/1-245.]. نذكر من بينها : تحقيق محمد حميد الله، دار المعارف، القاهرة، 1959 (الجزء الأوّل فقط). و**تحقيق إحسان عباس، جمعية المستشرقين الألمانية، بيروت، 1979. و تحقيق: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، 1996، 13 ج. وأنظر** *صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلاميّة في مدريد*، مج 7-8، 1959-1960، ص 361-364.

8 *أنساب الأشراف*، تحقيق محمد حميد الله، **(الجزء الأوّل) دار المعارف، القاهرة، 1959،** 28/1.

كما يمكن الإشارة إلى كتاب بكر بن عبد الله أبو زيد، جمع ضمنه مؤلفه كل ما كُتب في الأنساب، مع دراسة مطوّلة هامة في الموضوع. وهو بعنوان : طبقات النسّابين، دار الرشد، الرياض، 1987، 289 ص.
وقد تمّ تأليف ردّ على كتاب بكر بن عبد الله، وهو عبارة عن ملاحظات وتنبيهات على مواضع في كتاب "طبقات النسابين"، تحت عنوان : الإيضاح والتبيين للأوهام الواردة في كتاب "طبقات النسابين" ويليه مستدرك بعض ما فاته من النسابين، لكاتبه محمد بن عبد الله آل رشيد، صدر عن دار الحنان، دمشق، 528 ص. وعن الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2004، ط1، و2007، ط2، 384 ص.

4. كتب الطبقات :

سبق أن أشرنا إلى أن كتب الطبقات قد تزامن تدوينها مع ما كُتِب في المغازي والسير، وقد تجسّدت الفكرة انطلاقا من عمليّة التفاضل في صلب النخبة الأولى من الجماعة الإسلامية على أساس السابقة في الإسلام والبلاء فيه والدفاع عنه، وعلى درجة القرابة الدموية من الرسول ومن آل المطلب وبني هاشم ثم قريش... لا سيما بعد إقرار الخليفة عمر بن الخطّاب لديوان العطاء.[1]
إذا، انطلاقا من سيرة الرسول ومغازيه، ومن مشاركة أصحابه في بناء الدولة الإسلاميّة، ومن إرادة البحث في التأسيس لنموذج إسلامي متعالٍ، تشكّلت أولى الكتابات في الطبقات والتراجم، « *وكانت محتوياتها متباينة جدا تبعا لموضوع البحث والناحية التي يعالجها المؤلف منه*»،[2] وهي كمنهجية في الكتابة، تعتبر استنباطا عربيا إسلاميا بحتا ضمن المعارف الإنسانيّة.[3]
ومع انتصار الدعوة العباسية، كانت الحاجة ماسة لدى رجال الدولة ومنظّريها وفقهائها وعلمائها ومؤرّخيها ومعارضيها وخصومها لمعرفة الرجال الأوائل الذين ساهموا في نشر الإسلام وبناء الدولة، معرفة دقيقة تمكنهم من تأييد توجهاتهم، أو بالعكس من تفنيد المقولات السابقة لهم، خاصة تلك التي كانت برعاية رجال الدولة الأموية بداية من معاوية.[4] وزاد الإقبال على التأليف في علم الطبقات « *بالتزامن مع حاجة المذاهب والنحل الدينية المتنافسة إلى الاحتفاء بمآثر الصفوة من أجيال العلماء المنتسبين إليها*»[5] لا سيما خلال القرن الرابع للهجرة، حيث أصبحت قائمات الأشخاص المترجم

---

1 أنظر : الطبري، *تاريخ الأمم والملوك*، بيروت، دار صادر، 2003، ط 2، 661/2-662. (أحداث السنة 15 للهجرة).
2 فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ترجمة صالح أحمد العلي، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ط 2، 1983.ص 143.
3 مر، ن، ص 133-134.
4 أنظر في هذا الشأن حول البعض من مؤرّخي مدرسة الشام وعلاقتهم بالسلطة الأموية : عبيد بن شرية الجرهمي وعروة بن الزبير بن العوّام والزهري وعوانة بن الحكم الكلبي. مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 126/1-128.
5 لطفي عيسى، *كتاب السّير*، تونس، دار المعرفة، 2007، ص 31.

لهم تخضع لمزيد من الفحص والتمحيص، وبرزت لأوّل مرّة كتب الطبقات الخاصّة بالأقاليم. وقد ساعد على تراكم هذه الكتابات التاريخية حدث هام تمثّل في تأسيس مركز لصناعة الورق بسمرقند ثم ببغداد منذ سنة 178 للهجرة.[1]

يمكن اعتبار أن كلّ كتب الطبقات هي كتب تراجم، وليس العكس صحيحا. فالتمييز الجوهري بين كتب التراجم والطبقات هو اعتماد الأولى على الترتيب الألفبائي، في حين أن الثانية اعتمدت أساسا على الترتيب الطبقي. فبعض المصنفين الأوائل لم يستعملوا الطبقة كوحدة زمنية ثابتة، إذ كان لكل واحد منهم فهم للطبقة وغـــاية يريد تبليغها، فاستعملها البعض في معنى الجيل.[2]ويقدّم لنا السخاوي تلخيصا مهما لهذا الصنف من الكتابة التاريخية في مجال الطبقات، مقارنا بينها وبين الكتابة في التأريخ.[3]

فنستنتج إختلافا في هم كلمة "طبقة" من قبل من ألّف في الفكر الإسلامي من القدماء، وتبدو عموما إنها قد تم إستيعابها على أساس الترتيب والمفاضلة بالمقدرة والقيمة والأهليّة، ويبرز ذلك جليّا لدى الجاحظ في "البيان والتبيين"[4] وفي فصل من صدر رسالته في طبقات المغنّين.[5]

---

1 أنظر : هاملتون جب، *"علم التاريخ"*، ص 63. و*"الدراسات في حضارة الإسلام"*، ص 151. وألكسندر ستيبتشفيتش،" *تاريخ الكتاب"*، ترجمة محمد م. الأرناؤوط، سلسلة عالم المعرفة، عدد 169، الكويت، 1993. 220/1. وأنظر كذلك : أيمن فؤاد سيّد، *"الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات"*، 147/1. و مصطفى شاكر، *التاريخ العربي والمؤرخون*، 1/69-72، وأسامة ناصر النقشبندي، الورق وصناعته في التاريخ العربي، *مجلة الذخائر*، ع 9، 2002، ص 33-36.

2 *سير أعلام النبلاء*، الذهبي، مقدمة المحقّق بشّار عوّاد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1996، 1/ 98-99.

3 السخاوي، *فتح المغيث بشرح ألفيّة الحديث*، 4/398-399

4 *عندما يصنّف الشعراء فيقول : «... ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولا كريتا، وزمنا طويلا، يردّد فيها نظره، ويُجيل فيها عقله، ويقلّب فيها رأيه، اتهاما لعقله، وتتبُّعا على نفسه، فيجعل عقلَه زِماما على رأيه، ورأيَه عِيارا على شعره، إشفاقا على أدبه، وإحرازا لما خوّله الله تعالى من نعمته. وكانوا يُسَمُّون تلك القصائد : الحوليّات والمُقلَّدات، والمنقّحات والمحكّمات، ليصير قائلها فحلا خِنذيذا وشاعرا مُفْلقا. وفي بيوت الشِّعر الأمثال والأوابد، ومنها الشواهد، ومنها الشوارد. والشعراء عندهم أربع طبقات : فأولهم الفحل الخنذيذ. والخنذيذ هو التامّ. قال الأصمعي : قال رؤبة : الفُحولةُ هم الرواة. ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق، ودون ذلك الشاعر فقط. والرابع الشُّعْرُور. ولذلك قال الأول في هجاء بعض الشعراء :*

يا رابع الشعراء كيف هجوتني وزعمت أني مُفْحَمٌ لا أنطِقُ.

فجعله سُكَّيتًا مخَلَّفا، ومسبوقا مُؤَخَّرا. وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاث : شاعر، وشويْعِر، وشُعْرُور. قال : والشويعر مثل محمد بن حُمران بن أبي حُمران، سماه بذلك امرؤ القيس بن حُجْر. *البيان والتبيين*، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل 1990 4 أجزاء.9/2-10.

5 **حيث يقول : « ... *وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي* (ت:235ه/849م) *أوّل من حذا حذوه* (الخليل بن أحمد البصري) *وامتثل هديه واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله، منها : معرفته بالغناء وكثرة استماعه إيّاه، وعلمه بحَسَنه من قبيحه، وصحيحه من سقيمه. ومنها حذقه بالضرب والإيقاع، وعلمه بوزنها... فصنع الغناء بعلم فاضل وحذق راجح ووزن صحيح وعلى أصل مستحكم، له دلائل واضحة، وشواهد عادلة... وصنع كثير من أهل زمانه أغاني كثيرة بهاجس طبعهم والاتّباع لمن سبقهم، فبعض أصاب وجهل صوابه، وبعض أخطأ، وبعض قصّر في بعض وأحسن في بعض ... فحملني الكلف بهم والمودة لهم والسرور بتخليد ذكرهم ... على تمييز*

لقد ظهرت الكتابة في صنف الطبقات وشاعت لدى الفقهاء والمحدثين، وهم الذين مكّنوها من مختلف أبعادها عند استعمالهم لها، واستوعبها مَن أتى مِن بعدهم بمعنى المراتب والمنازل في باب التوازن والتفاضل،[1] إلى أن اتخذت تأويلا جديدا يبرز المذاهب والمناهج، وفي هذا الاتجاه كان تفسير ابن منظور لكلمة "الطبقات"،[2] كما سبق له تفسير كلمة "درج".[3] فنستنتج ان ابن منظور لم ينفِ التفضيل عن الترتيب، بل أن ذلك مكمّل لهذا التميّز الذي يمكن أن يكون في أي باب من أبواب المعرفة ضمن الانتماء المذهبي أو الفقهي، أو في باب التفسير والرواية والحفظ أو في باب اللغة والنثر والشعر...[4] فالمهمّ هو محاولة البحث في مختلف العلاقات والمجالات التي تربط الشخصيات المترجم لها وتنسجم بواسطتها المصنّفات، لذلك يمكن أن يصنّف الشخص الواحد ضمن طبقات أخرى بالنظر إلى نوع العلاقة التي تربطه بكل طبقة.[5]

أخيرا يمكن أن نُحوْصل مفهوم الطبقات بأنها كانت تحمل في الأصل مغزى الاستمرارية في صلب أجيال متتابعة غير منقطعة، تحملت مسؤولية رواية مشاهداتها انطلاقا من تجربتها الروحية والتاريخيّة، كي تسلمها للأجيال اللاحقة؛ فتصبح الطبقة هي "المرتبة" التي تُسند إلى مجموعة من الأشخاص الذين ساهموا في التاريخ الإسلامي، بصفة أو بأخرى، في بلورة مجال من مجالات حضارته تبعا لمقاييس محددة ذات بُعد ديني أو لغوي أو علمي أو أدبي أو فنّي.[6]

لن أقوم في هذا البحث برصد كتب الطبقات، رغم ما لهذه الدراسة من أهمية، والتي يمكن إعدادها انطلاقا من كتب الفهارس والتراجم الحديثة مثل كتب

طبقة طبقة منهم، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التي نَسبوا إليها أنفسهم واحتملهم إخوانهم عليها...» مجلة *المورد*، (بغداد) مج 7، ع 4، 1978، عدد خاص بالجاحظ، فصل من صدر كتاب الجاحظ في "طبقات المغنّين"، تحقيق حاتم صالح الضامن، ص 159-160.

1 عادل سليمان جمال، "حاشية على مفهوم محمود شاكر لنظريّة ابن سلام النقدية"، القاهرة، *مجلة معهد المخطوطات العربية*، مج 42، ج 1، ماي 1998، [ص 95-140.] ص 124.

2 « ***طَبَقات الناس كل طَبَقة طَبَقت زمانها، والطَّبَقة: الحال، يقال: كان فلان من الدنيا على طَبَقات شَتَّى أي حالات،(ابن الأَعرابي) : الطَّبَقُ الحال على اختلافها، والطَّبَقُ والطَّبَقة: الحال.»*** *لسان العرب*، بيروت، دار صادر، ط 6، 1997، 211/10، مادة : طبق.

3 قائلا : « ***...الدَّرَجَةُ واحدةُ الدَّرَجات، وهي الطبقات من المراتب. والدَّرَجَةُ: المنزلة، والجمع دَرَجٌ. ودَرَجاتُ الجنة: منازلُ أَرفعُ من مَنازِلَ.»*** مص، ن، 266/2، مادة : درج،

4 أنظر كذلك : عادل سليمان جمال، مر، ن، ص 130.

5 المهندس أسعد سالم تيم، *علم طبقات المحدثين : أهميته وفوائده*، ص 8. « ***والذي لا شك فيه أن هذا اللفظ (طبقة وطبقات) من كلام العرب قد درج على ألسنتهم (العرب) قديما للدلالة على معان مختلفة، ولما جاء عصر التدوين صار له مجاز آخر عند المؤلفين... فسموا مراتب الناس ومنازل بعضهم فوق بعض (طبقات).»*** منير سلطان، *ابن سلام وطبقات الشعراء*، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط 2، 1986، ص 145-147. وأنظر: مفهوم الطبقة بين كتب الحديث وكتب النقد، ص 137-145.

6 Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica*, Tome XXIII, 1976, p 229.

كارل بروكلمان[1] وميكلوش موراني،[2] وجان سوفاجيي وكلود كاهين،[3] وآنجل بالنثيا ڤونزاليس[4] وعمر رضا كحّالة[5] وخير الدين الزركلي[6] ومحمد محفوظ[7] محفوظ[7] وفؤاد سزكين[8] ومصطفى شاكر[9] ومحمد حجّي[10] وعبد السلام بن بن سودة[11] ومحمد المنوني[12]... لكنني سأشير هنا إلى إحدى النماذج الأولى والهامة ضمن المصنّفات في طبقات الشعراء، وهو كتاب طبقات فحول الشعراء، لمحمد بن سلام الجمحي، (ت: 232هـ/ 847م)، الذي صدّر فيه برسالة في الشعر القديم وفي روّاة هذا الشعر.
تتجلّى أهمية الكتاب بالنسبة للمؤرّخ في مدى إمكانية التمييز والإحاطة بكل ما كُتِب في الشعر والشعراء ضمن إطار تاريخي وجغرافي محدّد. وقد استعمل ابن سلاّم ترتيبه الطبقي للشعراء اعتمادا على رؤيته النقدية لأشعارهم التي تتقارب وتتشابه من حيث قيمتها اللغوية والتعبيرية، بغض النظر عن مواقعهم الزمنية (شعراء الجاهلية والمخضرمين وشعراء الفترة الإسلامية) مع النظر في تعدّد أغراض الشعر لدى الشعراء (الرثاء، الهجاء، المدح، الغزل...) منقّبا عن المنحول والمصنوع بسبب العصبية القبلية والزيادات الموضوعة. وهكذا فإنه يستنتج "أشعر شعراء الطبقة"،[13] محقّقا في أشعارهم ومحللا لها، مقصيا ما «*لا خير فيه، ولا حجة في عربيّة، ولا*

---

1 *تاريخ الأدب العربي*، بين سنتي 1898 -1902 (ج1و2) ثم بين سنتي 1937-1942 (ج3-4-5)، وترجمه إلى العربية عبد الحليم النجّار ورمضان عبد التواب ويعقوب بكر، بين سنتي 1959 و1962. وصدر بالقاهرة عن دار المعارف في 5 أجزاء.

2 *دراسات في مصادر الفقه المالكي*. (نقله عن الألمانية : سعيد بحيري وآخرون)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988. (أنظر خاصة : كتب طبقات المالكية المبكّرة، ص 234-244).

3 *مصادر دراسة التاريخ الإسلامي*، القاهرة، منشورات المجلس الأعلى للثقافة، 1998.

4 *تاريخ الفكر الأندلسي*، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955، 718 ص.(أنظر خاصة عنصر : التراجم وفهارس الكتب، ص 267-285).

5 *معجم المؤلفين*، دمشق، المكتبة العربية، ط 1، 1957.

6 *الأعلام*، منذ سنة 1927 في طبعته الأولى (3 أجزاء)، المطبعة العربية، القاهرة، ثم في 10 أجزاء أجزاء سنة 1957.

7 *تراجم المؤلفين التونسيين*، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1982، 5 أجزاء.

8 *تاريخ التراث العربي*، صدر عن مطبعة بريل في لايدن بهولاندا بين سنتي 1967، 1984، ثم صدر مجلد الفهارس عن جامعة فرانكفورت سنة 1995 التي نشرت المجلد 10 والمجلد 11 سنة 2000، وقام محمود فهمي حجازي بترجمة بعض أقسام الجزء 1 و2 إلى العربية، وصدر بالقاهرة بين سنتي 1974 – 1975.

9 *التاريخ العربي والمؤرخون*، 4 أجزاء، بين سنتي 1979 و 1994 عن دار العلم للملايين، بيروت

10 *موسوعة أعلام المغرب*، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1980، 10 أجزاء.

11 *دليل مؤرخ المغرب الأقصى*، بيروت، دار الفكر، 1997.

12 *المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى العصر الحديث*، ج1، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 1983. [نشر الجزء الثاني في مجلة كلية الآداب بالرباط ابتداء من ع. 12، 1986.]

13 *طبقات فحول الشعراء*، تحقيق محمود محمد شاكر، دار المدني، جدّة، المقدمة الثانية للمحقق 65/1 [المقدمة الأولى تمتد من ص 01 إلى ص 179، ثم يعود الترقيم من جديد للمقدمة الثانية من ص 01 إلى ص 72، ثم يبدأ كتاب ابن سلاّم بترقيم جديد أيضا.]

أدب يُستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يُضرب، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف.» [1] ودون شك، فإن ابن سلام قد تأثر بطريقة المحدثين في استقصاء معلوماته، ويبدو ذلك جليّا في مقدمته عندما يطرح منهجيته الساعية إلى التثبّت من صحّة ومصداقيّة المعطيات، سواء بسماعها مباشرة من مصادرها الأصلية لدى أفراد القبائل والعشائر الذين انتقل لمقابلتهم مباشرة واستفسارهم، أو من خلال الكتب التي جمعها واطّلع عليها بكل حذر، مقارنا بينها وبين المصادر الشفوية.
وانطلاقا من طبقات ابن سلام وقياسا على منهجيته، نتسائل : هل بالإمكان وضع مقاربة نقدية مماثلة لتقصّي الكتابات النثريّة الأخرى بما فيها روايات الحديث النبوي والمغازي والسير؟

أ. المصنّفات في طبقات القضاة :[2] من أوائل الكتب التي وُضعت في هذا المجال :

- كتاب : أَخْبَارُ القضاة : لوَكِيع القاضي أبو بكر محمد بنِ حَيَّان الضَّبِّيّ البغدادي، (306هـ/918 م). وهو من أقدم ما وصلنا في أخبار القضاة، ويضم تراجم العديد ممن تولى القضاء في جميع البلاد الإسلامية منذ عهد الرسول والخلفاء الأربعة الأوائل، ثم ينتقل إلى ذكر قضاة بني أمية وبني العباس بالمدينة ومكة والطائف والبصرة، ثم يستعرض قضاة العراق وخرسان ومصر وإفريقية والأندلس... مصدّرا الكتاب بتعريف لجوهر هذه المؤسسة ودورها مشدّدا على صفات القاضي خلال القرون الثلاثة الأولى، مع ذكر مذاهبهم في ولايتهم، وتحقيق أنسابهم وقبائلهم، ومن روى الحديث منهم، والإشارة إلى البعض من رواياتهم ونوادرهم، وتنتهي قائمته إلى سنة 301ه/914م.[3] واشتمل الكتاب أيضا على وثائق رسمية حول الدعاوى والقضايا التي تصدّرت مواضيع القضاء الإسلامي الأول، معتبرا أن أجلّ القضاة هو علي بن أبي طالب الذي ترجم له في بداية الكتاب.
- الولاة وكتاب القضاة : للكندي المصري، (ت: بعد 355هـ /966م).[4]

---

1 مص، ن، 04/1 من ترقيم كتاب ابن سلام.

2 حول القضاء والقضاة خلال التاريخ الوسيط نحيل على كتاب عصام محمد شبارو، قاضي القضاة في الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، 1992، 369 ص. حيث يقوم بتحليل متميّز عن بعض النماذج المشهورة من القضاة مثل قاضي الرشيد أبو يوسف، ويحيى بن أكثم وابن خلكّان وأحمد بن أبي داؤد المعتزلي والنعمان المغربي الإسماعيلي والماوردي...كما نشير إلى دراسة هامة قام بها صالح أحمد العلي تحت عنوان "قضاة بغداد في العصر العباسي"، وردت *بمجلة المجمع العلمي العراقي*، مج 18، 1969، ص 145-208.

3 **قائلا في بداية التصنيف** : « ***... وقد جمعت كتابا في أخبار قضاة الأمصار من عهد رسول الله*** ρ ***إلى زماننا هذا على قدر ما انتهى إليّ من أخبارهم وأحكامهم ومذاهبهم في ولايتهم، ومعرفة أنسابهم وقبائلهم وطرائقهم ومن رُوِي عنه الحديث منهم...***». *أَخْبَارُ القضاة*، دار عالم الكتب، الرياض، ص 17.

/966م).[1]

- قضاة مصر : ترجم فيه لمن ولي القضاء في مصر، ورتبه على تسلسلهم التاريخي في ولاية القضاء، وانتهى به إلى سنة 246ه/860م، وهو نفس التاريخ الذي توقّف فيه ابن عبد الحكم (ت: 257ه/871م) ضِمنَ كتابه "فتوح مصر وأخبارها". وقد أفاد منه المقريزي في "الخطط" كما نقل عنه العسقلاني(ت: 852هـ/1448م)، في "رفع الإصر عن قضاة مصر ".
- قضاة قرطبة وعلماء إفريقيّة، الخشني القيرواني الأندلسي،(ت361هـ/972م). وقد تم تاليفه بطلب من الحكم الثاني المستنصر بالله ثاني خلفاء الدولة الأموية بالأندلس (ت:366هـ/977م).[2]

ب. المصنّفات في طبقات القرّاء.[3]

استقرّت قراءة القرآن تواترا ونقلا على سبع أو عشر قراءات، واختصّت كل واحدة منها بالانتساب إلى من اشتهر بروايتها وصارت أصولا لأصحابها. لكن تاريخ ظهور القرءات وتعددها وتطوّرها يتجاوز هذه الأرقام المتفق عليها، وتكون في أغلب الأحيان متناقضة، كما أُعتبر بعضها شاذا، وقوائمها المشهورة ليست إلا انتقاءً متواضعا من مجموع القراءات المتنوعة آنذاك.[4]

ت. المصنّفات في طبقات المتصوّفة والزهّاد والنسّاك والمرابطين.

نعلم جميعا أن الخطّ الصوفي قد ظلّ على مدى القرون الستة الأولى للهجرة في صراع مع الخط السائد المهيمن سياسيا وفكريا ودينيّا.[5] فحالة الصراع

---

1 طبع سنة 1908 بمطبعة الآباء اليسوعيين ببيروت، من تحقيق رفن كَست (Rhuvon Guest)، كما تمت ترجمته إلى اللغة الأنجليزية وطبعه سنة 1912 ونشره بليدن (هولاندا) ولندن. **ورغم استقلال كل كتاب عن الآخر (الولاة) – (القضاة)، إلا أنه قد جرت العادة على طبعهما ضمن نشرة واحدة.** أنظر حول هذا الكتاب : حسن أحمد محمود، *الكندي المؤرخ وكتابه الولاة والقضاة*، الدار المصرية للترجمة والنشر، القاهرة، د. ت، سلسلة "أعلام العرب" عدد 55، 203 ص.

2 **يقدّم كتابه قائلا :** « ***فلما أمر الأمير أبقاه الله بتأليف كتاب القضاة مقصورا على من قضى للخلفاء رضي الله عنهم، بأرض المغرب في الحاضرة العظمى قرطبة، ذات الفخر الأعظم، ولعمالهم بها من قبل، هززت روّاة الأخبار عن أخبارهم، وكاشفت أهل الحفظ عن أفعالهم، وسألت أهل العلم عما تقدّم من سيرهم، قولا وفعلا، فألفيت من ذلك فصولا تروق المستفهمين، وقصصا تبهج السامعين وأخبارا تدل الناظرين ... وعلى من استقضاهم من الخلفاء ... وقد رأيت أن ... ذكرهم، ووصف مقاماتهم ... ثم أسير إلى وُلاّة القضاء، قاضيا فقاضيا ...*** » *قضاة قرطبة*، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط 2، 1989، ص 25-26.

3 أنظر حول القرّاء، دراسة هاني حسين حمّود، القرّاء والحركة الفكريّة في العهود الإسلاميّة الأولى، *مجلة الذخائر*، ع 01، السنة 2000، ص 39-66.

4 أنظر في هذا الصدد : تيودور نولدكه، *تاريخ القرآن*، ص 555-675 وخاصة العنصر : " ج " حول تطوّر نظام القراءات السبع الكلاسيكيّة، ص 641-651. وأنظر : جولدتزيهر إينياس، *مذاهب التفسير الإسلامي*، ترجمة : عبد الحليم النجّار، القاهرة ـ بغداد، مكتبة الخانجي ـ مكتبة المثنى، 1955، ص 53-70.

5 هنالك العشرات من الدراسات التي استعرضت تاريخ وفلسفة التصوّف الإسلامي، لكننا نشير هنا إلى بعضها فقط :

ـ **جولدتزيهر إينياس** (Ignaz Goldziher): *العقيدة والشريعة في الإسلام*، (نقله إلى العربية وعلّق عليه: محمد يوسف موسى، عبد العزيز عبد الحق، علي حسن عبد القادر)، بيروت، دار الرائد العربي، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتاب المصري، 1946، ص388

ووضع الدفاع المستمر الذي وجد فيه المتصوّفة أنفسهم، أجبرهم على اتخاذ مواقف مهادنة ومرنة حاولوا بواسطتها إبعاد الشبهة عن أنشطتهم والتعبير عن انضمامهم إلى المنظومة السائدة. وقد تجلّى ذلك من خلال تبنّي كتاباتهم لنفس المنهجية التي وضعها المحدّثون الأوائل من أهل السنّة. لذلك سنلاحظ أن عديد الكتب المصنفة في طبقاتهم قد أثبتت جدارتها في بناء سلسلة متّصلة من رُوّاتها ومن مؤسّسي الاتجاه الصوفي عبر الأجيال، فيزعمون الانتماء أصلا إلى الحسن البصري (ت: 110ه/728م) وعلي بن أبي طالب، ثم إلى النبيّ مباشرة؛ المالك للحقيقة النورانية الروحانية اللدنية التي تسلمها "رجال الغيب" جيل بعد جيل وطبقة إثر طبقة، عبر النقباء والنجباء والأبدال والأمناء والأولياء والأقطاب.[1] ولتجسيد أسانيدهم، تمّ اصطناع سلسلة وهميّة من الروّاة، على شاكلة منظومة الحديث بغية الذود عن قضيتهم. ورغم أن مصنّفي كتب الفهارس قد أشاروا إلى أن بداية الكتابة في طبقات الصوفية قد كانت منذ أواخر القرن الثالث هجري، مع محمد بن علي بن الحسن الترمذي الخراساني المشهور بالحكيم (ت:285هـ/898م)، يليه محمد بن عاصم بن يحيى الإصفهاني الشافعي (ت:299هـ /911م)، ومحمد بن زياد العربي (ت:340هـ /952م) تلميذ أبي القاسم الجُنيد (ت:297هـ /910م)،[2] إلا إننا لا نستطيع إبداء أي رأي في محتويات ما كتبوه نظرا لفقدان مصنّفاتهم. وأوّل الكتب التي حُفظت وتمّ تحقيقها ونشرها تلك التي ظهرت مع بداية القرن الخامس للهجرة، مثل كتاب السُّلمي النيسابوري، (ت:416هـ/1025م)، *طبقات الصوفية ويليه ذكر النسوة المتعبّدات الصوفيّات*،[3] برّر فيه وضع كتابه ومفسّرا الطريقة المتّبعة عند تأليفه.[1]

.[أنظر القسم الرابع: الزهد والتصوّف، ص 119-166.] وفي كتابه الثاني : *مذاهب التفسير الإسلامي*، ترجمة هبد الحليم النجّار، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1955، [عنصر: التفسير في ضوء التصوّف الإسلامي، ص 201-285.]

- جورج شحاتة قنواتي، الفلسفة وعلم الكلام والتصوّف، مقال ضمن كتاب جماعي بعنوان : *تراث الإسلام*، ج 2، عالم المعرفة عدد 234، الكويت، 1998، ص 62-91. (ترجم المقال : محمد عبد الهادي أبو ريدة).

- بنسالم حميش، *التشكلات الإيديولوجيّة في الإسلام* : الإجتهادات والتاريخ، بيروت، دار المنتخب العربي، 1993، ص 66-86.

- ماسينيون ومصطفى عبد الرازق، *التصوّف*، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلاميّة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1984، 132

- آن ماري شيمل، *الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوّف*، منشورات الجمل، كولونيا، 2006، 519 ص.

1 أنظر حول هذه المراتب : *موسوعة مصطلحات التصوّف الإسلامي*، رفيق العجم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، 1999.

2 Ibrahim HAFSI, Recherches …, *Arabica*, Tome XXIV, fasc. 1, Février 1977, p 28-29.

3 **تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003، 503 ص. جمع به 104 ترجمة لكبار المتصوّفة.**

ث. المصنّفات في طبقات فقهاء المدارس السنيّة :
تجدر الإشارة إلى أن مصنفات القرون الأربعة الأولى قد كُتبت لدى المالكيّة مع أبي العرب محمد، (ت: 333ﻫ/944م)، ضمن كتابه *طبقات علماء إفريقيّة وتونس*، يليه الخشني (ت: 361ﻫ/971م)، في *طبقات علماء إفريقيّة*.
أما طبقات الحنفية والشافعية والحنبلية فلم تظهر إلا مع منتصف القرن الخامس.[2] وبالنسبة لطبقات الظاهرية فلم نتوصل لأي مصدر كُتِبَ في تراجم هذه المدرسة السنية، ويبدو أن هنالك كتاب مفقود بعنوان "أخبار أهل الظاهر" لمصنفه القاضي أبو بكر بن الأخضر (ت: 429هـ/1038م)، ذكره أبو إسحاق الشيرازي الشافعي الفيروز أبادي (ت: 476 هـ/1083م) في كتابه "طبقات الفقهاء"[3] والقاضي عياض في "ترتيب المدارك".[4] لذلك قام أحد الكتّاب بجمع تراجم علماء أهل الظاهر ضمن كتاب حديث تحت عنوان : طبقات أهل الظاهر،[5] يمكن العودة إليه لما يحتوي عليه من معطيات هامة لمعرفة تراجم هذا المذهب بداية من المؤسس داوود بن علي الأصبهاني(270هـ/883م)، إلى تراجم "الطبقة السابعة"، أي الجماعة التي عاصرت القرن التاسع للهجرة.
ج.المصنّفات في طبقات الأباضيّة: من الأكيد أن كتب المذهب الأباضي قد أتلفت وضاعت خلال القرون الأولى للهجرة، ولم يحفظ لنا التاريخ إلا النادر والمتأخّر منها، فأصبحت ذات قيمة تاريخية وعلمية كبيرة، ومن أهمها نذكر:

- كتاب السير : لأبي العباس أحمد الشماخي، (أواخر القرن التاسع للهجرة).[6]

---

1 السّلمي، *طبقات الصوفية*، **تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، 2003**،ص 20-21.

2 مثل **طبقات الفقهاء الشافعية لأبي عاصم محمد العبادي (ت:458ﻫ)**، وطبقات الحنابلة، لمحمد بن القاضي أبي يعلى بن الفراء (ت521هـ/1127م)، و**الجواهر المضية في طبقات الحنفيّة لمحي الدين، أبو محمد عبد القادر بن أبي الوفاء القرشي (775ﻫ/1373م).**

3 *طبقات الفقهاء*، تحقيق وتقديم إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، 1970، 231 ص. (ص 178-179).

4 القاضي عياض، *ترتيب المدارك*، ضبط وتصحيح محمد سالم هاشم، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1998، جزآن.7/2. وهنالك نسخة علميّة متميّزة من تحقيق محمد بن تاويت الطنجي (ج1)، عبد القادر الصحراوي، (ج2-3-4)، محمد بن شريفة (ج5)، سعيد أحمد أعراب، (ج6-7-8)، تحت إشراف وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، بالمملكة المغربية، مطبعة فضالة، المحمدية، ط2، 1983.

5 أبو معاوية مازن بن عبد الرحمان البُحَصْلي البيروتي، مؤسسة الريّان، بيروت، 2009، 21.

6 ضمن كتاب : ***دراسات شمال إفريقية*، تأليف : تادياوش ليفيتسكي**، Tadeusz Lewicki ، **ترجمة أحمد بومزكو، مؤسسة تاوالت الثقافية، الولايات المتحدة الأمريكيّة، 2005، ج1، 109 ص، ج 2، 41 ص. وأنظر خاصة : ليفتسكي تاديوس، *المؤرخون الأباضيون في شمال إفريقيا*، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000.**

- **تحقيق أحمد بن سعود السيابي، وزارة التراث القومي والثقافة، مسقط، 1987، جزآن. وأنظر حول الكتاب مقدمة المحقق (ص : ج- ط).**
- **الجزء الخاص بتراجم عُلماء المغرب إلى نهاية القرن الخامس، تحقيق محمد حسن، كُلّية**

ج)	المصنّفات في طبقات المعتزلة : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة،[1] وهو مؤلف ضمن ثلاثة كتب في التاريخ والرجال وذكر المعتزلة، وهو كتاب مشهور متداول.

ح)	المصنّفات في طبقات أعلام الشيعة :

تختلف مصنفات الشيعة اختلافا كليّا عن مصنفات السنّة، سواء بالنسبة للإمامية الإثنا عشرية أو الزيدية، لاختلاف مرجعيّاتهم المذهبية والعقائدية. فمصنّفو الطبقات في الفكر الشيعي يعودون بالحديث إلى أئمتهم بدرجة أولى ثم إلى بعض الصحابة والتابعين المعروفين بولائهم لعلي بن أبي طالب، أو لبعض كبار الصحابة المساندين لعلي منذ وفاة النبيّ وخاصة إثر مقتل عثمان بن عفّان. فتنقسم الطبقات في كتبهم إلى طبقة سلمان الفارسي ثم طبقة أصحاب علي بن أبي طالب، تليها طبقة أصحاب الحسن ثم طبقة أصحاب الحسين... إلى أن نصل إلى طبقة آخر الأئمة الإثنى عشر وهو محمد بن الحسن المهدي المنتظر(اختفى سنة 261ه/874م). كما نجد تقسيما آخر يميّز الطبقات إلى أصفياء، وأولياء، وشرطة الخميس الذين وعدهم علي بالجنة،[2] وأخيرا الأصحاب.

ونظرا لتجاهل المؤلفين من أهل السنّة لتصانيف الشيعة، فإن أغلب المعلومات والمعطيات يمكن أن نستقيها من كتاب نصير الدين الطوسي (ت:460ه/1068م) وهو "الفهرست"[3] الذي يحتوي على تراجم ذات محتوي قصير جدا في أغلبها. ثم من كتاب أساسي وهو "الذريعة إلى تصانيف الشيعة" من تأليف محمد محسن نزيل سامراء، الشهير بالشيخ آقا برزك الطهراني.[4] ومن كتابه الثاني بعنوان "طبقات أعلام الشيعة: نوابغ الروّاة في

العلوم الإنسانية والإجتماعية، تونس، 1995، 466 ص. (كما صدر عن دار المدار الإسلامي، بيروت، 2009، 3 أجزاء.)

1 **تحقيق فؤاد السيد، الدار التونسية للنشر، تونس، والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، 451 ص.**

- الأول بعنوان ذكر المعتزلة لأبي القاسم البلخي،(ت: 319ه/931م)، تناول فيه نشأة الاعتزال وأصل الكلمة والاختلاف الذي نشأ حولها. وقدّم المجموعة الأولى من معتزلة المدينة ومكة واليمن والطائف والبصرة والشام والكوفة، مشيرا إلى المناطق والكور التي سيطر فيها الفكر المعتزلي.

- والثاني فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ومباينتهم لسائر المخالفين، للقاضي عبد الجبار، (ت: 415ه/1025م)، أرّخ فيه لعشر طبقات من المعتزلة، مبرزا ترتيب علماء المتكلمين، ومؤكّدا وشارحا لمبادئ الاعتزال ومدافعا عنها.

- والثالث عيون الأخبار للحاكم الجُشميّ البيهقي (ت: 494ه/1101م)، قدّم لنا من خلاله الطبقتان الحادية عشرة والثانية عشرة من المعتزلة، ويصل بنا إلى حوالي منتصف القرن الخامس للهجرة.

2 يقول ابن النديم: « ومعنى شرطة الخميس أن عليّا عليه السلام قال لهذه الطائفة تشرطوا فإنما أشارطكم على الجنة، ولست أشارطكم على ذهب ولا فضة، إن نبيّا من الأنبياء، فيما مضى، قال لأصحابه تشرطوا فإني لست أشارطكم الاّ على الجنة.» *الفهرست*، ص 307.

3 تحقيق: جواد القيومي، منشورات مؤسسة نشر الفقاهة، قم، (إيران)، 1417ه(1996م) ص 343

4 طبعة : شركة طهرانية، النجف، 1936، 26 ج.

رابعة المئات".[1] أو من كتاب عبد الله شرف الدين في كتابه "مع موسوعات رجال الشيعة"[2] الذي يحتوي أيضا على ثمانية أبحاث في كتب الرجال. كما يمكن أن نشير إلى كتاب محسن الأمين الموسوم بــ "أعيان الشيعة"،[3] يستعرض فيه الكاتب تاريخ نشأة المذهب الشيعي بصفة عامة وانتشاره، وما لقيه الشيعة من عدم إنصاف الناس لهم، وتحامل أهل السنة عليهم من أمثال ابن قتيبة[4] وابن حزم والذهبي وغيرهم، كما يذكّر بعقائد الشيعة وفقهائهم ومحدّثيهم ومؤرخيهم وكلّ مؤلفاتهم. ومن بين الكتب المنشورة نذكر خاصة :

- رجال الكَشّي، أو"معرفة الناقلين عن الأئمّة الصادقين"، لأبي عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز، (ت: 350ه/961م)، أحد كبار علماء الشيعة في القرن الرابع الهجري. من أصدقاء الكليني (ت:329ه/941م) مؤلف كتاب "الكافي". كتب الكَشّي في علم الرجال كتابه "معرفة الرجال"، المعروف بــ "رجال الكشي"، الذي أملاه الشيخ الطوسي (460ه/1068م -) على طلّابه، وسمّاه «اختيار معرفة الرجال».[5] يذكر في كتابه رجال الشيعة ومعلومات متفرقة تتعلق بفرق الشيعة وأخبار أخرى.[6]

5. كتب التراجم :

تختلف كتب التراجم[7]عن كتب الطبقات في عدم اهتمامها بفئة بعينها، بل إنها تترجم على حدّ السواء لمجموعة من الأشخاص الذين يعتبرهم المصنّف ذو أهميّة في المجتمع مهما كان موقعهم مثل الملوك والسلاطين والخلفاء والوزراء والقضاة والفقهاء... فيعرّف بهم تعريفا مسهبا إن كان العلم مشهورا، أو موجزا إن كان مغمورا، حسب أهميته ومشاركته وتأثيره في

---

1 مؤسسة إسماعيليان، قم، ط 2، جزآن، د.ت.(تحقيق : علي نقي منزوي، وهو إبن المصنّف، وتشير مقدمة المحقق إلى سنة 1971.)

2 دار الإرشاد للطباعة والنشر، بيروت، 1991، 690 ص.

3 تحقيق وتخريج حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، 1984، 10 أجزاء.

4 أنظر الردّ الذي قام به القاضي النعمان المغربي الإسماعيلي (ت: 363ه/974م) على ابن قتيبة. تحت عنوان : رسالة ذات البيان في الردّ على ابن قتيبة، حيث يقول : «... إنه ليس بالثقة ولا بالمأمون عند العلماء بالفقه ولا هو من أهله، وهو مع ذلك عدو من أعداء الله وأعداء أوليائه، شديد النصب والطعن على الحقّ وأهله، حشويّ عاميّ ويدفع إمامة أهل بيت رسول الله وعليهم ويثبت إمامة أعدائهم ويخرج في ذلك عن حدود أكثر العامة، حتى إنه ذكر في كتابه الذي سماه "كتاب المعارف..."»

Al-Qanṭara (AQ), XXXI 1, enero-junio 2010, pp. 77-102. [p 100.].

5 صدر هذا الكتاب الأخير سنة 2009 عن مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بكربلاء، تحقيق :أحمد الحسيني في 448 ص.

6 يقول عنه آقا بزرك الطهراني في الذريعة إلى تصانيف الشيعة : «*أحد الأصول الأربعة الرجالية ... و"كش" على مراحل من سمرقند، ويظهر من معالم العلماء لابن شهر آشوب أن اسم الكتاب "معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين هذبه الشيخ الطوسي ورتبه سنة 456 وأخرج منه بعض الأغلاط وتراجم العامة،... أما أصل رجال الكشي فلا نعلم بوجوده.*» الذريعة، 141/10.

7 أنظر في هذا الصدد : فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ص 141-148. محمد الصادق عفيفي، *تطوّر الفكر العلمي عند المسلمين*، ص 309-310. بشّار عوّاد معروف، *مظاهر تأثير علم الحديث في علم التاريخ عند المسلمين*، ص 22-41.

الحركة الاجتماعية أو الفكريّة أو السياسية؛ ذاكرا الاسم واللقب وتتالي النسب وتاريخ الولادة والوفاة إن أمكن، ومكانها، كما يستعرض سيرته والبعض من أخبارِه ورحلاته، وشيوخه ومناهجهم الدينية أو الفكرية، وآراء البعض من نظرائه في شخصه، وعناوين البعض من كتبه مقحما مقتطفاتٍ من شعره إن كان شاعرا أو البعض من أقواله... وتحوّل ترتيب التراجم من الزمني الكرونولوجي إلى الألفبائي، وذلك ما يميّز عمليّا كتب التراجم عن كتب الطبقات.

لقد عبّرت الكتابة في التراجم عن رغبة المؤرخين والمصنفين في استقلاليّتهم عن المجال الديني واهتمامهم بالشؤون الدنيوية حتى إن ظلّت الغاية ذات بعد أخلاقي، للاعتبار والاقتداء بالسلف الصالح. وقد نوّه وبرّر العديد منهم الكتابة في هذا الميدان وخاصة منهم شمس الدين السخاوي (902هـ)[1] الذي سرد عدّة مقولات ممن سبقه.

كما نوّه بكتابة التراجم أيضا أبو الفرج بن الجوزي(597هـ) في كتابه "المنتظم في تاريخ الملوك والأمم"[2] حيث قام بوضع الشروط التي يجب أن تتوفّر في الترجمة. لكننا نلفت الانتباه إلى أنه ليس هنالك مقوّمات ومنهج متفق عليه في كتابة التراجم لدى المصنفين في هذا المجال، فكلّ حسب اجتهاداته وشغفه.

لقد ظهر هذا الصنف من الكتابة التاريخية في التراجم منذ القرن الثالث للهجرة لكنها انتشرت وتراكمت خاصة خلال القرن السابع والثامن حيث أصبحت أكثر تنوّعا، فتوزّعت على أربع مجموعات كبرى اعتمدت ضمنها الكتابة على :

1-التصنيف بالصفات أو العاهات أو السلوك أو اللون : (البخلاء، البرصان والعرجان،[3] المجانين، المتطفلين، الأذكياء، الظرفاء...).

2-التصنيف الإقليمي حيث يتم التأكيد على أعلام البلاد (إفريقية، مصر، العراق، الشام، الأندلس، الحجاز، نيسابور، جرجان،...) أو المدينة (بغداد، دمشق، أصبهان، القيروان، فاس، غرناطة...).

3-التصنيف حسب الاسم أو اللقب أو الكنية (من سُمّي عمرا، المحمدون، من ينسب إلى أمه...).

4-التصنيف بالترتيب الزمني للأعلام حسب سنة الوفاة، من الأقدم إلى الأحدث.

تعتبر أغلب كتب التراجم كأنها تكملة لما سبقها أو انتقاء لبعض الشخصيّات

---

1 *الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ*، تحقيق وتعليق فرانز روزنتال وترجم التعليقات والمقدّمة وأشرف على نشر النص صالح أحمد العليّ، بيروت، دار الكتب العلمية، د. ت.، 460 ص.

2 *المنتظم في تاريخ الملوك والأمم*، بيروت، دار الكتب العلمية، 1992، 18ج + ج 19 للفهارس. 117/1.

3 مثل كتاب الجاحظ *البرصان والعرجان والعميان والحولان*، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، 1990، ص644.

الواردة بكتب الطبقات والحوليّات وتواريخ الأسر والحكّام الذين كانوا يكلّفون من يكتب لهم سيرتهم ويقومون بالإشراف بأنفسهم على هذه المصنّفات، لذلك يكون أحيانا من الصعب التمييز بين سيرة الحاكم وبين مذكرات المصنّف.[1]

II. مصنفات السيرة الذاتية والمذكرات :[2]

إن كل من كان يروم الكتابة للتعريف بنفسه لدى قرّائه وتلامذته وعلى أولياء الأمر، كان يريد إقناع الآخرين بأنه حلقة من سلسلة متواصلة من العلماء والفقهاء[3] وليس كذات عالمة منفردة خارج المسار التقليدي، أو قائمة بذاتها. فمفهوم وأهداف ومضمون الترجمة الذاتيّة خلال القرون الوسطى تختلف اختلافا جوهريّا عن مفهومها وطريقة وضعها في العصر الحديث.[4] ويؤكّد هذا الاختلاف الباحث صالح المغيربي في دراسة قيّمة[5] حيث يقول : « التعريف في مفهومه الأصلي هو الإعلام[6] أو الوسم ومن عرّف بنفسه من الأعلام المسلمين قديما اكتفى غالبا برسم خطوط حياته الكبرى من ولادة ودراسة ومناصب وبتعداد مؤلفاته دون تحليل أو كشف عن باطنه.»[7] وبالعودة إلى بحث بروكلمان نجده قد ذكر العديد ممن قاموا بالترجمة لأنفسهم سواء عبر مؤلفاتهم العامة أو بإفراد كتاب مخصص لسيرتهم. ومن بين هؤلاء نذكر : ابن الداية (ت: 340ه/952م) أحمد بن أبي يعقوب البغدادي، وأبو الفرج ابن الجوزي (ت: 597ه/1201م)، والتوحيدي من خلال كتابه "الصداقة والصديق"، وابن سيناء... ثم تتضخّم الكتابات في هذا الصنف

---

1 فرانز روزنتال، *علم التاريخ عند المسلمين*، ص 146.

2 أنظر في هذا الصدد الدراسات التالية :

- صلاح الدين المنجد، *المنتقى من دراسات المستشرقين*، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1955، ج1، ص 3-23. (بحث لكارل بروكلمان : "ما صنّف علماء العرب في أحوال أنفسهم".

- بكر بن عبد الله ابو زيد، *العلماء الذين ترجموا لأنفسهم* : السيرة الذاتية، مطبعة دار الهلال، الرياض، 1405هـ (1985م)، 63 ص.

- شوقي ضيف، *الترجمة الشخصية*، دار المعارف، القاهرة، 1987، ط 4، 126 ص.

- إحسان عباس، فن السيرة، دار صادر، بيروت، دار الشروق، عمّان، 1996، 157 ص.

3 يقول كلود كاهين في هذا الصدد: « Il faut se rappeler qu'en islam, la valeur d'un enseignement, oral ou écrit, repose essentiellement sur la valeur que l'on attribue à la chaine de ses informateurs. » CAHEN, C, Notes sur l'historiographie dans la communauté musulmane médiévale, *Revue des Etudes islamiques*, N°44, 1976, p 87

4 عن الترجمة الذاتيّة، أنظر يحيى إبراهيم عبد الدايم، *الترجمة الذاتيّة في الأدب العربي الحديث*، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1975، الفصل 2، لمحة عن الترجمة الذاتيّة في التراث العربي، ص 30- 42.

5 صالح المغيربي، الترجمة الذاتية وفن الرحلة في التعريف بابن خلدون ورحلته شرقا وغربا، *حوليات الجامعة التونسية*، تونس، ع 10، (1973)، ص 73-86.

6 لسان العرب، مادة : ع . ر. ف. 111/10.

7 صالح المغيربي، مرجع مذكور سابقا، ص 73.

بداية من القرن السادس للهجرة.

الخاتمة

من خلال الجرد الذي قمنا به حول أصناف كتب التراجم والطبقات تبين لنا منذ الوهلة الأولى أن هذا الصنف قد اعتنى بفئات محددة من الخاصّة؛ أما بقيّة الناس، المستهدفة بالابتزاز وإرادة الخضوع، أو بالإبادة الجماعية من العامّة والفصائل الممانعة، فلا مترجم لها ولهمومها ولمصيرها.[1]

وتبرز هذه الملاحظة من خلال عناوين الكتب التي لا تهتم إلا بهذا الصنف من الشخصيّات مثل الصحابة، وفقهاء المذاهب والمدارس الدينية(الحنابلة، الشافعية، المالكية، الحنفية)، وروّاة الحديث (الحفاظ، الثقات، الضعفاء، المدلسون)، وعلماء الدين والشريعة (القرّاء، المفسرون) وأعيان الدولة أو المدينة (الخلفاء، الوزراء، النبلاء، الفضلاء، الأطباء، القضاة)، والمتصوّفة (الأولياء، الأصفياء، العبّاد). كما تمّ الاهتمام أيضا بالأدباء والشعراء والنحويين واللغويين؛ ووضع المعتزلة[2] والشيعة[3] والخوارج الإباضية[4] أعلامهم... فكأن إشكاليّات المجتمع والبشر والدولة لا تحوم إلا حول سيرة حياة هؤلاء، في حين أنها من الأكيد قد غيّبت ما هو أعمق من ذلك بكثير.[5] وإن سمحت ثقافة النّخب بوضع أعلامها ضمن طبقات، « *فلأن أنظمة السياسة والاجتماع قد شكّلت الناس وضبطتهم في طبقات مُقفلة... طبقة الخاصة وطبقة العامة، فتفرّع من كل طبقة طبقات وأتباع وفروع تتشعّب*

---

1 يشير مصطفى شاكر إلى أن كتب التراجم قد تناولت أيضا حياة« بعض التجّار وكُتّاب الدواوين، بل تحتوي أخبار بعض المجاذيب والمدلسين والمفلوكين ومشاكل الناس اليومية... »*.التاريخ العربي والمؤرخون*، طبعة 1990. (طبعة أولى). 23/3. لكننا لم نعثر على أي كتاب في التراث الإسلامي قد تعرض لحياة الفقراء والمهمشين في المجتمعات الإسلاميّة قبل سنة 1210هـ / 1795م وهو تاريخ وفاة أحمد بن علي الدّلجي المصري صاحب كتاب "*الفلاكة والمفلوكون*"، الذي نشرته دار الكتب العلمية، (بيروت)، سنة 1993. وهذا الكتاب لا يستعرض تراجم لشخصيّات مغمورة من العامة، بل يترجم لــ 132 من رجال الفلسفة والشعر والأدب والفقه المعروفين والمشهورين الذين «تقلّصت عنهم دنياهم ولم يحظوا منها بطائل»[ص 66.] مثل: مالك بن أنس والترمذي، والسيرافي، وواصل بن عطاء، وسيبويه، وابن حزم والشاطبي والمسعودي...

2 أنظر : *فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة*، البلخي أبو القاسم: (ت: 319ه)، القاضي عبد الجبّار (ت: 415ه)، الحاكم الجشمي (ت: 494ه)، تحقيق فؤاد السيد، تونس/ الجزائر، الدار التونسية للنشر/ المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 2، 1986، 451 ص.

3 أنظر : *طبقات أعلام الشيعة* : آقا بزرك الطهراني، *نوابغ الروّاة في رابعة المئات*، مؤسسة إسماعيليان، قم، ط 2، جزآن، د.ت.

4 أنظر : *كتاب السير*، لأبي العباس أحمد الشماخي، ضمن كتاب : *دراسات شمال إفريقية*، تأليف : تادياوش ليفيتسكي، Tadeusz Lewicki ، ترجمة أحمد بومزكو، مؤسسة تاوالت الثقافية، الولايات المتحدة الأمريكيّة، 2005، ج1، 109 ص، ج 2، 41 ص. كما صدر سنة 2009 عن دار المدار الإسلامي ببيروت في 3 أجزاء. وأنظر : *طبقات المشائخ*، لأبي العباس أحمد بن سعيد الدرجيني. وأنظر : ليفتسكي تاديوس، *المؤرخون الأباضيون في شمال إفريقيا*، ترجمة ماهر جرار وريما جرار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 2000.

5 Levi Giovanni, Les usages de la biographie, In: *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*, 44e année, N° 6, 1989, pp, 1325-1336.

وتنتهي إلى الدائرة الكبيرة، خاصة أو عامة...»[1]
ومن هذا المنطلق العام يمكن النظر إلى موضوع البحث في الكتابة ضمن صنف الطبقات والتراجم والسير، ولهذه الأسباب، يصبح لمنهجيّة إعادة قرائتها دور أساسيّ في الكشف عن دواليب الدولة والنّخب عند إدارتها لشؤون المجتمع، وفي تماسكها وتوالدها وتركيبتها وسيرورة نظامها الاجتماعي والمعرفي، والتخلّي عن النظر إلى الترجمة الشخصية كمسار أحاديّ، متواصل، غير منقطع، وغير منفصل عن مجالاته ومؤثراته الاجتماعية؛ لأن القبول بهذه القراءة التي تتبّع حياة المترجم له كجملة مسار موّجه نحو غاية مسبقة ببداية ونهاية، مع محطّات مكانية محدّدة؛ يعني القبول بنظرة القرون الوسطى لفلسفة التاريخ، والتي اعتمدت على اعتبار الحضارة الإنسانية كتعاقب للمراحل في شكل دورة[2] تنتهي بالانحطاط. هذه النظرة لا تعبّر عن منهج في التفكير والكتابة فحسب، بل تعبّر أيضا عن تصوّر للعلاقات الذاتيّة وعن منهج متعارف عليه لدى كل مفكّري العصور القديمة والوسطى سواء في المجال الإغريقي أو الروماني أو المسيحي الأوروبي أو العربي والإسلامي عموما. ولتجاوز هذه العقبة وفتح آفاق البحث، يمكن النظر إلى مشروع إعادة قراءة التراجم والطبقات من خلال شرح الهيكلة الخاصة بكل ترجمة، كنتيجة تكوّنت على مستوى أفقي من نقطة انطلاقها إلى نهايتها، وكفعل اجتماعي ساهم في تثبيت أو في إقحام تحوّلات للهياكل الاجتماعية والسياسية والثقافية الأخرى.[3] إنه مجال شاسع للبحث لا يكتفي باستغلال هذا الصنف من الكتابات كمصدر للكتابة التاريخيّة فحسب، بل يجب البحث في طبيعته الأولى التي رُسِم من أجلها، وفي كل ما يُمكن استنتاجه منها على كل مستويات العلوم الإنسانيّة وخاصة منها مجال تاريخ الذهنيّات والعقليّات.
لقد استخدمت كتب الطبقات والتراجم لاستخراج علوم مولّدة مثل أصول الفقه والحديث والتشريع، ويمكن اليوم استخدامها لأغراض جديدة ضمن مجالات معرفية متعددة تتشكّل موازاة مع بقيّة أصناف المصادر مثل كتب الرحلات والجغرافيا والفهارس وبرامج الشيوخ والنوازل والفتاوى وكتب المناقب[4] التي وُضِعت أساسا للتمجيد بالنسبة لأهل السنة، أو تعبيرا عن الولاء بالنسبة للشيعة. ومن هذا المنطلق يمكن أن تفتح لنا مجالات أخرى للبحث لا يمكننا

1منير سلطان، *ابن سلام وطبقات الشعراء*، ص

2 Bourdieu Pierre, L'illusion biographique, In: *Actes de la recherche en sciences sociales*, Vol. 62-63, juin 1986, pp, 69-72.
3 Passeron Jean-Claude, Biographies flux itinéraires trajectoires, p 20.
4 Méouak Mohamed, Les méthodes biographiques et prosopographiques: leur application pour l'histoire sociale d'al-Andalus (milieu IIe / VIIIe - fin IVe/Xe siècles), In: *Mélanges de la Casa de Velázquez*, Tome 28-1, 1992, pp. 199-208. [p 206.].

تخيّلها،[1] فهي لا تقلّ أهمية عن بقيّة كتب التراث العربي، التي تزخر بمعطيات ثمينة تسمح للباحث المعاصر في التاريخ الوسيط الإسلامي بترصّد المعلومات التي لا نجدها في الحوليّات التي تركّز بصفة خاصة على الأحداث السياسية والصراعات المذهبية.

الأنساق التنظيمية والمنزلة الثقافية لمعاجم التراجم

شعيب مقنونيف
جامعة تلمسان /الجزائر

تمهيد منزلة كتب الطبقات ومعاجم التراجم وخدمتها لفن كتابة التراجم

---

1 Klapisch Zuber Christiane, Du pluriel au singulier ou de la collaboration entre histoire quantitative et prosopographique, In: *Mélanges de l'Ecole française de Rome*. Moyen-Age-Temps modernes, T. 100, N°1, 1988, pp, 241-245.

غير خاف أنّ التباين في الأفكار يؤدي إلى التَّنوع والكثرة في أُسلوبِ الكتابة. وقد تردد صَدَى هذا التَّنوع وهذه الكثرة في مُختلفِ الْمُصَنَّفات التي كُتبت في مَجال التاريخِ، والسِّيَرِ، وتراجم الأفراد، إضافة إلى كُتب المَعاجم، و الفهارس، والأنساب. ولقد أخذت هذه الْمُصَنفات تسميات متنوعة تبعاً للأهداف التي كُتبت من أجلها، واشتقت لِنَفْسِها طُرُقاً ومسالكَ متنوعة عبر العصور.

إنَّ الكتابات التاريخية بأنماطها المتنوعة قد أسهمت بنصيب وافر في بناء التُّراث العربي والإسلاميّ خاصة، والتراث العالمي عامة. ولا يُمكننا القول إنَّ هذه الْمُصَنَّفات تتساوى من حيث القيمة في البناء الإيجابي للتُّراث، أو لِمُستقبل الأُمم وأفكار الشُّعوبِ. فبعض الكتابات التاريخية، وسير الأفراد اكتسبت أهمية تجاوزت حدود الاختصاصات، وغَدت مصدراً أساسياً في دراسة ماضي الأُمم، وأضحت مَصدراً لِعُلَماء الاجتماعِ والاقتصاد إضافة إلى الْمُشتغلين بالعربية والأدبِ، بل والْجُغرافيينَ وعُلَماء الطبيعة، ولا نكونُ مُبالغينَ إذا قُلنا إنَّ في وسع بعض هذه الْمُصَنَّفات تقديم موضوعات لدراسة الطِّبِّ ومعرفة الأطباء. يُنضاف إلى هذا أنَّ بعضَ كُتُبِ "مَعاجم الشُّيُوخِ والْمَشْيَخات"، أصبحت هي المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة مُعينة لبلدٍ ما، أو أنَّها الوعاء الذَّهبيّ للمعاجم الجغرافية[1].

وموازاة لهذا الاتجاه وُجِدَ اتجاه آخر خَضَعَ لاعتبارات متنوعة، وطغت عليه المؤثرات الشَّخصية. فهنالكَ الكثير من الْمُصنَّفَات التاريخية، وكُتب التراجم لَم يَتَنكب أصحابُها الصَّواب في كتاباتهم، حيثُ طغت عليهم المؤثرات الْخَاصَّة، أو الانتماءات العَقَديَّةِ، أو الدِّينية، أو الفئوية الضَّيقة، فانكمشت كتاباتهم في حُدود التَّقَاليد والعادات، وبقيت تلكَ المؤلَّفَات لَها طابعها الفئوي الخاص به، فقلَّ نفعها أو انعدم. كما أنَّ حرص السَّلاطين عَلَى تدعيم سُلطانهم عبر القرون أدَّى إلى ظهور كُتَّاب ولّوا وجوههم شطر تلكَ الرُّموزِ، وداروا في فَلَكِهم، فكتبوا في مُحيطهم، وقدَّموا مَعلومات غير دقيقة أو مُحقَّقَةٍ عن الكثير من الوقائع والحوادثِ والأشخاص، بل عن البلدانِ والأقطار.

ولَقَد حاولَت بعض الفِرَقِ والطَّوائفِ إبداعَ شخصيات خالدة، فسطَّرَ كُتَّابُها عَجائبَ وغرائبَ، وقصصاً وأخباراً ابتعدت عن العُنصر الواقعيّ، ولَم تَتَّصف بِالْمِصْداقية، وتسربلت بأكاذيبَ وطرائف لا تسموا بتلكَ الفِرقِ، فضلاً عن الأُمم والشُّعوب التي تتعايش مَعها عَلَى أرضٍ واحدةٍ عبر الزَّمان، ودَفَعت بالرَّذيلة إلى الأمَام، بل تَركت أثرها السَّيئ في تشويه الْحَقائقِ، وتَمزيقِ وحدةِ البلدانِ والشُّعوبِ [2].

---

[1] ينظر: موفق بن عبد الله بن عبد القادر، المنتخب من معجم شيوخ الإمام أبي سعد السَّمعاني، تحقيق و دراسة، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. المقدمة.

[2] ينظر على سبيل المثال لا الحصر: كتاب " الخرائج والجرائح" لقطب الدين، أبي الحسن، سعيد بن هبة الله بن الحسن الرَّاوَنْدي الشيعي القُميّ (ت573هـ)، مؤسسة الأعلمي: بيروت

إنَّ كتابة معاجم التَّراجمَ قد أصابها الْعُقم لدَى الكثير من الباحثينَ الْمُعاصرينَ، سيما تلكَ الكتابات التي تُكتب كمقدمات لرسائل عِلْميَّةٍ، سواء في مَجال التأليف أو التَّحقيق، حيثُ يكتفي بعضهم بتقليد البعض فيما عدا بعض التَّعديلات التي تتفق في مَضمونها مَعَ مُقْتضيات تلكَ الرسائل، فلَم تنتج أيّ صورة نافعةٍ عن الْمُترجَمينَ، فلا تقرعُ تلك الكتابات آذانَ القرَّاء، فضلاً عن قُلوبهم، فتضاءلت الأهداف من كتابة التَّراجم، وصدقَ أميرُ المؤمنين عليٌّ رضي اللهُ عنهُ حينَ قال: << قيمة كل امرئ ما يحسن>>[1]، وقال: << اَلْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ>>[2] . إنَّ الْمُطالبة الْمُتزايدة لِجَمهرةٍ واسعة من طُلاَّبِ الْعِلْمِ والْمُثَقَّفِينَ إلَى إفْرادِ فنٍّ كتابة معاجم التَّراجم، وأثرها عَلَى صياغة الأفكار، وتَقريبها إلَى أذهانهم بعيداً عن الأنماط السَّابقة هو الآخر سببٌ من الأسباب الدَّافعة للكتابة في هذا المجال.

أولا - **معاجم التراجم تنظيمها الداخلي وأهميتها الثقافية**

كُتب التراجم والمعاجم وموسوعات الأعلام هي كُتب تعرف بحياة عدد كبير من الأفراد اللامعين والبارزين في المجتمع من العلماء والمؤرخين والأدباء والمهنيين ورواد الفكر والمشاهير من الساسة والأعيان...إلخ، وترتب بطريقة محددة هجائية أو بحسب تاريخ الوفاة أو الميلاد...إلخ.

كان الاهتمام في البدء ينصب في الترجمة للأموات، ثم شمل الترجمة للأحياء والمعاصرين. ومن التراجم ما هو عام مثل: "الأعلام: قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين" لخير الدين الزركلي (10 مجلدات). ومنها المتخصص الذي يترجم للأعلام حسب الحقبة التاريخية أو حسب الموضوعات أو الجغرافية/ المكانية أو حسب تخصص معين، ومن نماذج ذلك " الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة" لابن حجر العسقلاني، و" تاريخ قضاة الأندلس" للنبهاني، و" معجم أدباء مصر"، لمسعود شومان، 2004 م. ومن نماذج الموسوعات العامة، موسوعة دائرة المعارف الإسلامية.

عندما اتسع نطاق المعرفة في تاريخنا كان طبيعياً أن يُعنَى بعض العلماء بالكتابة عن الأعلام الذينَ كانتْ لهم جهودٌ في كل الميادِيْن، ومن أهم هذه الكتب التِي ربَّما كانت المكتبة العربية من أغنَى مكتبات العالم بِها كتب الطبقات وكتب التراجم، والفرق بينهما هو أنَّ كتب الأعلام تترجم غالباً لأعلامٍ اتحدت مشاربُهم واختصاصاتُهم، كاشترِاكهم في العناية بالأدب مثلاً، ولذا نَجدُ كتباً باسم " طبقات الأدباء"، و" طبقات المفسِّرِيْن"، و" طبقات

حيث ذُكر فيه المعجزات النبوية، ومعجزات الأئمة الاثني عشر، -كما جاء في الكتاب.

[1] الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج 05، نشر وتحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة الخانجي: القاهرة، 1931، وطبعة دار الكتاب العربي: بيروت (مصورا)، ص35.

[2] الإعجاز والإيجاز، لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، دار الغصون: بيروت 1405هـ - 1985م: (ص: 27)، البصائر والذخائر لأبي حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي، ج 02 ، تحقيق: د.وداد القاضي، دار صادر: بيروت، لبنان، ط 04، 1419هـ، ص 230.

الشعراء"، وهكذا، وأمَّا كتب التراجم فغالباً لا تَختصُّ بفئةٍ معينةٍ وإنَّما تترجم للأعلام بعامةٍ من ملوكٍ وسلاطيْن وعلماء وأدباء وظرفاء وغيْر ذلك، **ونشبه العلاقة** بيْن كتب التراجم والطبقات بالعلاقة بيْن **الكناية والمجاز**، فكل **كنايةٍ مجازاً بالضرورة** وليس كل **مجازٍ كنايةً**، فكتب التراجم تشتمل على كتب الطبقات وليس العكس صحيحاً.

وتُعنَى الترجَمة للأعلام بالتعريف بِهم، فتشتمل على ما يُعرِّفُ المتلقي بِهم، كأسمائِهم وألقابِهم وكناهم وأنْسابِهم وتواريخ ولاداتِهم ووفاتِهم وأماكن ذلك، وكذلك سيْرتُهم وأبرز أخبارِهم من حيثُ الأماكنُ التي نشأ فيها العَلَمُ ورحل إليها أو زارها، والعلماء الذي درس عليهم ومن درسوا عليهِ، وربَّما صفاتُهم أو أخلاقهم ومناهجهم الدينية أو الفكرية أو السلوكية، وآراء بعض العلماء وغيْر ذلك. وآثارهم: حيثُ يذكر كثيْرٌ من المترجِميْنَ على إنْهاء التَّرجَمة بذكر أبرز أعمالهم، فيذكرون أسماء كتبهم وعرَّفوا بالمشهور منها، أو ذكروا مقتطفاتٍ من أشعارهم إذا كانوا شعراء، وليس هناك منهجٌ واضحٌ لمادة الترجَمة، فقد يتعدَّى المترجِم العناية ببعض ما جَرَى بيْنَ العَلَمِ المترْجَمِ له وبيْن غيْرهِ ممن التقاهم، فيذكر القصة وتفصيلاتِها، وربَّما أغفل بعضاً من المفردات التِي ذكرنا أنَّها من مقوِّمات مفردة الترجَمة، كما أنَّ شهرة العَلَم تؤثرُ في عنايةِ المترجِم له، فإذا كان العالم مشهوراً كان اهتِمامِ المترجِم له على قدر شهرته فيسهب في ترجمته عنه، ولو كانَ مغموراً فيُترجِم له بإيْجازٍ شديدٍ.

وتَجدرُ الإشارةُ أنَّ **باعث التأليف الأول في كتب الطبقات والتَّراجِم** اهتمام أصحابها بالعلماء المحدِّثيْنَ أو رجالِ الحديثِ النبويِّ الشريفِ، الذينَ يشكِّلونَ أسانيدَ الأحاديث النبويةِ، فيتحرونَ صدقهم أو عدمه، وحسن سلوكهم أو عدمه، وصحة سماعهم فيمن يروون عنه. وممّا تقدّم يمكننا القول إن الكتب التي نرومها بالدراسة تتوزعها المجموعات التالية:

1/الكتب المصنفة في تراجِم الشعراء.

2 / الكتب المصنفة في تراجِم اللغوييْنَ والنحاة.

3 / الكتب المصنفة في تراجِم الأدباء عامةً دون تَمييز اختصاصاتِهم.

و اعتمدوا في ترتيب الأعلام المترجَم لهم على واحدٍ أو أكثَر من هذه الأسس الأربعة الآتية:

أولا- الأساس الزمنِي: بِحسب سني وفاتِهم من الأَقدمِ إِلَى الأحدث إلى الزمنِ الذي يقفُ عنده المؤلف، ككتاب " **الشعر والشعراء**" لابن قتيبة الدينوري.

ثانيا- الأساس الإقليمي: بِحسب الأقاليْم التِي ينتمونَ إليها، ككتاب " **أخبار شعراء مصر**" لأبي بكرٍ الصولِي، و" **شعراء أصبهان**" لحمزة الأصفهانِي.

ثالثا- أساس الاسم أو اللقب أو الكنية: بِحسبِ ألقاب أصحابِها أو كُناهم، ككتاب "**من سُمِّيَ عمراً من الشعراء** " لابنِ الجراح، وكتاب " **المحمَّدون من الشعراء** " للقفطي، وكتاب " **من يُنسبُ إِلَى أمه من الشعراء**" للسكري.

رابعا- **أساس الصفات أو العاهات أو السلوك أو اللون**: في الكتب التِي تعتمدُ هذا الأساس، وربَّما كان الجاحظ أول من اعتمد ذلك في "**البخلاء**"، و"**البرص والعرجان**"، وألف النيسابوري "**عقلاء المجانيْن**"، والخطيب البغدادي "**المتطفليْنَ**"، وابن الجوزي " **الأذكياء**"، و" **الظرفاء والمتماجنون**".

1/ **كتبُ تراجِم الشعراء:** وأهمها " طبقات الشعراء الجاهليْنَ والإسلاميِّنَ" لابن سلاَّمٍ الجمحي (ت 231 ﻫ)، و" الشعر والشعراء"، لمحمد بن قتيبة الدينوري (ت 276 ﻫ)، و" الأغانِي" لأبي الفرج الأصفهانِي (ت 356 ﻫ)، و" معجم الشعراء" للمرزبانِي (ت 384 ﻫ)، و"المؤتلف والمختلف" للآمدي (ت 370 ﻫ)، و" يتيمة الدهر" للثعالبِي (ت 429 ﻫ)، و" الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة" لابن بسَّام (ت 542 ﻫ).

2/ **كتبُ تراجِم اللغوييْنَ والنحاة:** وأهمها " طبقات النحوييْن واللغوييْن" لأبِي بكرٍ الزبيدي (ت 379 ﻫ)، و" نزهة الألباء في طبقات الأدباء" لأبي البَركات الأنبَاري (ت 577 ﻫ)، و" إنباه الرواة على أنباه النحاة " للقفطي (ت 636 ﻫ)، و" بغية الوعاة في طبقات اللغوييْنَ والنحاة" لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت 911 ﻫ).

3/ **كتبُ تراجِم الأدباء بعامةٍ:** وأهمها " معجم الأدباء" أو " إرشاد الأريب إلَى معرفة الأديب" لياقوت الحموي (ت 626 ﻫ) .

ثانيا- النسق التنظيمي لكتب معاجم التراجم و الأعلام في التراث العربِي

تعد معاجم التراجم بالنسبة إلى الباحثين في المكتبتين العربية والإسلامية نعمة ونقمة في آن واحد، ذلك أن الباحث عندما يحتاج إلى أن يتعرف على شخص غير معروف نسبيا، ويعثر على ترجمته في أحد معاجم التراجم فان ذلك يحقق له راحة وسعادة لا حدود لها . أما إذا لم يعثر على تلك الترجمة فانه يصاب بإحباط شديد، وتتضاءل أمامه فرص التوصل إلى نتائج يطمأن إليها، وتتأخر تلك النتائج ربما إلى اجل غير معلوم. ومن المحتمل جدا ألا يظفر الباحث بما يبحث عنه، لا لأن معاجم التراجم العربية أو ما وصلنا منها لا تضم تراجم لكل الشخصيات، التي ورد ذكرها في مصادر تاريخ الشعوب الإسلامية عبر العصور فحسب، وإنما لأن ما نتصوره من فائدة عظيمة لهذه المعاجم يضاعف من أمل الباحث وطموحه، ويخلق لديه صورة غير واقعية.ولو أننا نبحث عن شاعر اسمه "محمد" فقد نفشل في العثور على ترجمته في جميع كتب تراجم الشعراء الموجودة، وقد نجده آخر الأمر في المعجم الذي جمعه جمال الدين القفطي (المتوفى 646ﻫ / 1248 م) وعنوانه: "المحمدون من الشعراء وأشعارهم" لأنه يضم الشعراء العرب الذين سمّوا بمحمد. وقد لا نجده في هذا الكتاب أيضا لأنه لم يصلنا كاملا.

وثمة مشكلة أخرى تواجهنا في التعامل مع كتب التراجم وهي الكثرة الهائلة لهذه المؤلفات التي تعد "بالمئات أو الألوف" كما ذكر ستيفن

همفريز[1]. وقد ينسى الإنسان الرجوع إلى معجم مناسب، وقد يكون هناك معجم جديد نشر ولم يعلم به. وكل من يستخدم معاجم التراجم العربية استخداما مكثفا يواجه تلك الصعوبة، لأن التعامل مع تلك المعاجم يلقي بصاحبه في خضم مجال من المجالات الرئيسية لإنتاج الكتب الإسلامية في العصور الوسطى. والتأليف في مجال التراجم نوع من التأليف التـاريخي[2]، وتلك حقيقة وعاها القدماء من علماء المسلمين[3] وما زال صداها يتردد في

[1] R.S.Humphreys :Islamic History :A Framework for Inquiry ،طبعة منقحة، برنستون، 1991، ص 188.

[2] يقول المستشرق الأمريكي فرانز روزنثال: << لا شكَّ أن كمية المؤلفات التاريخية الإسلامية كبيرة، وأن الحوليات البيزنطية وثيقة الصلة بالحوليات الإسلامية، غير أن التاريخ الإسلامي تميز عنها بتنوعه الكبير وكميته الهائلة. والواقع أننا قد نشك في وجود أي مكان في التاريخ الأول كانت فيه المؤلفات التاريخية تعادل في كثرتها ما للمسلمين. إن مؤلفات المسلمين التاريخية قد تعادل في العدد المؤلفات الإغريقية واللاتينية، ولكنها بالتأكيد تفوق في العدد مؤلفات أوربا والشرق الأوسط في العصور الوسطى، ولا شكَّ أنه لم يكن بالإمكان إخفاء مكانتها الممتازة في الحركة الأدبية الإسلامية عمّن اتصل بالعرب من علماء الغرب، غير أن هؤلاء العلماء اهتموا بالعلوم والفلسفة واللاهوت، وهم كأقرانهم من المسلمين الاعتياديين لم يسيغوا الرضوخ إلى درجة الإقرار بأية معرفة عن وجود مؤلفات تاريخية >> (علم التاريخ= = عند المسلمين، دار الكتاب اللبناني: بيروت، والدار العربية للكتاب: بيروت، د.ت، د.ط، ص ص 269، 270).

[3] الواقع أن الارتباط الوثيق بين" الطبقات"، والتاريخ" قديم جدا، ويرجع إلى عصور الإسلام الأولى. فعناوين عدد كبير من معاجم التراجم تبدأ بكلمة " تاريخ" مثل " التاريخ الكبير" للإمام البخاري، و"تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر، كما أن كثيرا من مؤلفي معاجم التراجم يعدّون مؤلفاتهم من كتب التاريخ. فابن خلكان، مثلا، يقول في مقدمة كتابه " وفيات الأعيان في أخبار أهل الزمان"<< **هذا مختصر في التاريخ** >> (تحقيق د. إحسان عباس، ج 1، دار بيروت للنشر والتوزيع: بيروت، 1971 – 1975، ص 19).وهناك جدل حول كتاب الوفيات وهل هو كتاب التاريخ الكبير نفسه أم لا؟ (ينظر: نفسه، ج 8 ص 69 -71).والأهم من ذلك أن مؤرخي أواخر العصور الوسطى الإسلامية يضعون مختلف أنواع كتب التراجم مع كتب التاريخ، وعلى رأسهم شمس الدين الذهبي(المتوفى 784 ه – 1347 م)، وقد نقل عنه السخاوي (المتوفى 902 ه – 1496م) في كتابه " الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ" (طبعة القاهرة، 1396 ه، ص ص 84 – 108) و ورد النص مترجما عند فرانز روزنتال في كتابه A History of Muslim Historigraphy " (ينظر: - تاريخ التأريخ الإسلامي، طبعة ليدن، 1952، ص ص 316 – 358 – شمس الدين السخاوي، الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ، ص ص 104 – 169- طاشكبري زاده(ت 968 ه)، مفتاح السعادة، ج 1، طبعة حيدر آباد، 1977، ط 2، ص ص 231- 248 و ص ص 263 – 266 تحت عنوان علم التواريخ _ حاجي خليفة(ت 1067 ه – 1657 م) ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج 1(طبعة بالأوفست عن طبعة اسطنبول، منشورة في بغداد، د.ت)، ص ص 271 – 333 (تحت عنوان: علم التأريخ)، و ج 2، ص ص 1095 – 1107 (تحت عنوان: علم الطبقات).

أسماع المعاصرين [1]. وهي حقيقة تصدق أيضا على الثقافات الأخرى التي لها تراث تاريخ [2].
وان كانت كتب التراجم في التراث الإسلامي وخاصة تلك التي ألّفت في شكل معجمي قد بلغت درجة من الشهرة [3] لا نظير لها وذلك لأسباب تاريخية [4].
ونظراإلى أهمية هذا النوع من التأليف، فقد تناوله عدد كبير من الدراسات، بعضها عرض موجز أو مفصل للإنتاج الفكري [5]. وبعضها الآخر دراسات تحليلية [6].
وهذه الفئة الأخيرة تناقش قضايا مثل الدوافع لتأليف معاجم التراجم[7]، وبدايات هذه المعاجم [8]، وأصولها [1] ، ومصادرها، وتنظيمها، والمعايير التي

---

[1] كثير من المؤلفات عن التاريخ والتأريخ الإسلامي تذكر معاجم التراجم (ينظر: - هاملتون جب: مادة " تاريخ" في دائرة المعارف الإسلامية، ط1، الملحق ص ص 233- 245.

-Sir hamilton Gibb :Islamic Biographical Literature,in Historians of the Middle east,ed.B.Lewis and P.M. Holt(London, 1962).

يقول في الصفحة 54 ما نصه << إن تأليف معاجم التراجم في اللغة العربية ارتبط بالتلأليف التاريخي، وتطور معه في آن>>، ويذهب روزنتال إلى أبعد من ذلك حينما يقول << في أذهان كثير من المسلمين أصبح التاريخ مرادفا للتراجم>>(تاريخ التأريخ الإسلامي، ص89).

[2] يذكر روزنتال المادة التراجمية في المؤلفات التاريخية اليونانية والرومانية(نفسه).

[3] إن << كتب التراجم شاركت في التأريخ الإسلامي منذ البداية، وأنها احتلت مكانة بارزة فيه >> (نفسه: ص 89).

[4] من بين تلك الأسباب يقول روزنتال: << الاهتمام بسيرة النبي محمد، صلى الله عليه وسلم، والصراع المذهبي في الإسلام، والقناعة الكاملة بأن كل التيارات السياسية كانت نتاج أفراد وينبغي أن تفهم في ضوء سيرهم، بل إن تاريخ مختلف فروع المعرفة كان يُنظر إليه على أنه مجموعة تراجم للعلماء البارزين في تلك الفروع >> (نفسه: ص ص 89، 90).

[5] بالنسبة إلى الدراسات الموجزة ينظر:

- مادة " طبقات" التي كتبها هفننج في دائرة المعارف الإسلامية الطبعة الأولى، الملحق، ص 214، 215

-M.Abiad : « Origine et développement des dictionnaires biographiques arabes », Bulletin d'Etudes Orientales, N : 31 (1979 – 1980) p.p : 7- 10.

وبالنسبة إلى الدراسات المفصلة ينظر: I.Hafsi«Recherches sur le genre tabaqat», in Arabica,N :23 (1976), p.p : 227 -265, N : 24 (1977) , p.p : 1- 41, 150 – 186.

[6] مثل كتابات جب وروزنتال وهمفريزر، وقد تضمنت المقالة التي كتبها حفصي نظرات تحليلية كثيرة.

[7] لأن << الهدف النهائي لكل هؤلاء المؤلفين هو التهذيب الأخلاقي وإكساب المهارة التي تمكن المسلم من فهم دينه وممارسته على وجه أفضل>>

T.khaldi : « Islamic Biograpuical Dictionaries :A Prelimenary Assessment » , in Muslim Word,n: 64 , p.p : 53-65).

في حين هناك من يرى << الفكرة التي تسيطر على معاجم التراجم القديمة هي أن تاريخ الأمة الإسلامية هو، أساسا، من صنع أفراد أسهموا في تشكيل ثقافتها الخاصة، وهؤلاء الأفراد(ليس الحكام السياسيون) هم الذين يمثلون القوى الفاعلة في المجتمع الإسلامي، وإسهاماتهم الفردية جديرة بأن تسجل للأجيال التالية>>(جب هاملتون مرجع سابق، ص 54).

[8] هناك اتفاق بين العلماء على أن معاجم التراجم محلية وليست مستوردة، وإنها نتاج عربي سلامي . (ينظر: المصادر السابقة الذكر: جب هاملتون..، ص 54، ت. خالدي..، ص 53، وم.أبيض..، ص 9).

التي طبقها مؤلفوها، وعناصر الترجمة فيها وغير ذلك. وقليل من تلك الدراسات
هو الذي تجرأ على الكتابة بالتفصيل عن تطور هذا النوع من المؤلفات، وأقل منه من حاول أن يوضح العلاقة بين هذا التطور ومراحل تطور المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية عبر العصور[2]، ومع أنها من المسلمات [3] ، ولذا فقد ظلت هذه الجوانب من دراسة معاجم التراجم غائبة تقريبا. وعلى الرغم من وجود بعض الدراسات الجيدة عن هذا النوع من التأليف، إلا أنها لا تربطه بالتطورات الاجتماعية والثقافية.

و ذلك الأمر هو الذي تحاول هذه الورقة تظهيره وتستقصيه من منطلق أن معاجم التراجم هي في الحقيقة مرآة تنعكس عليها بعض المظاهر المهمة للتطور الفكري والثقافي للمجتمع الإسلامي في القرون التسعة الأولى من تاريخ الحضارة الإسلامية على أقل تقدير. و لسوف تحاول هذه الدراسة أن تلقي الضوء على تلك الجوانب من خلال التركيز أساسا، وليس كليا، على أسلوب التنظيم الداخلي للكتب التي ألفت خلال القرون الأولى من تاريخ الإسلام.

ما المقصود بمصطلح معاجم التراجم؟

ماذا يقصد " بمعاجم التراجم"، فمثل هذا التحديد مهم لأن المصطلح لا يستخدم كثيرا في الكتابات العربية و إنما يستخدم عوضا عنه تعبير " كتب الطبقات" [4] أو"كتب التراجم"، ولأن هناك أنواعا من التآليف تصنف مع معاجم التراجم مع أنها ليست كذلك. ويجب ألا ننسى هنا ما سبق أن ذكرناه

---

[1] يرى العلماء المحدثون أن هناك فروعا من المعرفة مهدت لمعاجم التراجم أهمها: التاريخ وعلم مصطلح الحديث(ينظر: المصادر السابقة الذكر: جب هاملتون..، ص 54، ت. خالدي..، ص 53 وص ص 59 ، 60 ، وحفصي..، ص 227).

[2] ذكر همفريز مظهرا من مظاهر هذه العلاقة، وذلك في دراسته لتطور المعيار الخاص بما تضمه معاجم التراجم من شخصيات. ففي معرض مقارنته بين المعاجم الأولى وتلك التي ألفت في القرن الرابع الهجري- العاشر الميلادي، يقول في كتابه السابق الذكر<< إن المعاجم الأولى حاولت أن تقدم تغطية شاملة لمجالات واسعة كالمحدّثين أو الشعراء، لكننا في القرن الرابع الهجري- العشر الميلادي نجد ميلا متزايدا إلى الاقتصار على فئات معينة يحدّها مكان الإقامة أوالفرقة الدينية أو المذهب الفقهي...إلخ . ومثل هذا التغير في معايير السعة(مَن يدخل ومن لا يدخل) له دلالات ثقافية مهمّة، فلم يعد إسلام المرء يقاس بالتزامه بالكتاب والسنة، وإنما بالطريقة التي يفسرهما بها، أو بالمكان الذي يمكن أن يوضح هويته الثقافية(وإن لم يكن ذلك أمرا حتميا)>>(ص 189).

[3] يرى جب هاملتون، على سبيل المثال، في مقاله السابق الذكر أن معاجم التراجم تحتاج إلى دراسة دلالتها على تغير الاتجاهات والتيارات الاجتماعية والثقافية أو ثباتها.

[4] إن التعريفات التي قدّمها الباحث حفصي والمستلهمة من مقالة هفننج واضحة تماما وتظهر المعاني المتعددة االتي استخدم فيها المصطلح عبر العصور، يقول<< إن مصطلح " طبقة" المفرد يبين درجة مجموعة من الشخصيات أدت دورا في التاريخ، وتشترك في صفة معينة.. إن الطبقة كانت عبر الزمن تدل على فئة أو قيمة أو جيل أو ميزة أو درجة أو فرقة .. إن الطبقة تعكس أيضا فكرة التدرج>>(حفصي، مرجع سابق، ص ص 229 – 223)

من أن معاجم التراجم قد ارتبطت بالتاريخ بصفة خاصة ويمكن تعريف معجم التراجم بأنه كتاب نثري يضم مجموعة من التراجم بغضّ النظر عن طريقة ترتيبها.
ووفقا لهذا التعريف، فان المؤلفات العربية الإسلامية التي تندرج تحت هذا المسمى يمكن أن تكون أحد نوعين: أولهما "**معاجم التراجم العامة**"، وهي التي تضم: تراجم الأشخاص في مختلف مناحي الحياة، ومن مختلف المهن والعصور والأماكن والطبقات والمعتقدات...الخ. ومن أمثلتها كتابان ضخمان هما كتاب "**الوافي بالوفيات**" لصلاح الدين الصفدي (المتوفى 764هـ /1362م)، وكتاب"**شذرات الذهب**" لابن العماد الحنبلي (المتوفى 1089هـ /1687م). والنوع الثاني هو ما يمكن أن نطلق عليه "**معاجم التراجم المقيدة أو المحدودة**" لأنها تشمل تراجم أفراد يشتركون في سمة معينة، وغالبا ما ينتمون إلى مدرسة علمية واحدة، ومن أمثلتها: "**طبقات المفسرين**" لجلال الدين السيوطي (المتوفى 911هـ /1505 م) و"**تهذيب الكمال**" لجمال الدين المزي (المتوفى 742هـ /1341م) وهو خاص برواة الحديث، و"**طبقات الفقهاء**" لأبي اسحق الشيرازي (المتوفى 476هـ /1083م)، و"**أسد الغابة في معرفة الصحابة**" لعز الدين ابن الأثير (المتوفى 630هـ /1232م)، وهو يترجم لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم، و" **الشعر والشعراء**" لابن قتيبة (المتوفى 272هـ /989م)، و " **انباه الرواة** " للقفطي وهو عن النحاة واللغويين، و" **منتخب صوان الحكمة** " للكذاب أبي سليمان المنطقي السجستاني (المتوفى حوالي 380هـ /990م) وهو خاص بالفلاسفة اليونانيين والمسلمين، و"**معجم الأدباء**"(المعروف ب إرشاد الأريب الى معرفة الأديب) لياقوت الحموي (المتوفى 626هـ /1668م). وكثيرا ما تترجم تلك المعاجم المتخصصة لمن يشاركون بدور معين في التبصير بأمور الدين والعقيدة مثل كتاب "**طبقات المعتزلة**" لابن المرتضى (المتوفى840هـ/1436م) فهو يترجم لفلاسفة المعتزلة في المجتمع الإسلامي حتى عصر المؤلف، وكتاب"**حلية الأولياء**" لأبي نعيم الأصفهاني (المتوفى430هـ/1038م)الذي يترجم للزهاد والمتصوفة حتى عصر المؤلف.

وهناك مؤلفات أخرى تضم تراجم لأفراد عاشوا في مدينة بعينها، أو رحلوا إليها أو مرّوا بها، كما فعل الخطيب البغدادي (المتوفى 463هـ /1070م) في " **تاريخ بغداد** " الذي يترجم فيه لكل من ارتبط اسمه بمدينة بغداد، وكما فعل حمزة بن يوسف السهمي(المتوفى 427هـ /1035م)في كتابه " **تاريخ جرجان**" الذي يقتصر فيه على العلماء الذين ارتبطوا بمدينة جرجان. ومن المؤلفات ما يقتصر على من ينتمون إلى مهنة معينة ككتاب " **أخبار القضاة** " لمحمد بن خلف وكيع (المتوفى 306هـ /918م) الذي يقتصر على القضاة، وكتاب "**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**" لابن أبي أصيبعة (المتوفى 668هـ /1270م) الذي يختص بالأطباء والمشتغلين بالأمور الطبية

وما يتصل بها [1]. ومنها ما يترجم لمجموعة من الأفراد الذين يتفقون في سمات معينة بغضّ النظر عن أهمية تلك السمات أو عدم أهميتها، ومثال ذلك كتاب " **المعمرون والوصايا**" لأبي حاتم السجستاني (المتوفى 247هـ/862 م) فهو يضم تراجم لأشخاص عاشوا فترات طويلة من العمر، وكتاب " **نكت الهميان في نكت العميان**" لصلاح الدين الصفدي وهو خاص بالمكفوفين، وكتاب" **البرصان والعرجان والعميان والحولان**" وهو كتاب ضخم ترجم فيه الجاحظ (المتوفى 255هـ /868م) لأدباء أصيبوا بآفات البرص أو العرج أو العمى أو الحول.

وهذا التعريف الذي سقناه يستبعد المؤلفات التي لم ترتب أساسا على التراجم، حتى وإن تضمنت عددا كبيرا منها، أو كانت التراجم تمثل عنصرا أساسيا من مكوناتها، أو كانت تقدم مادة علمية مفيدة للباحثين. فكتب الأنساب، مثلا، تبدو وكأنها معاجم تراجم مع أنها ليست كذلك في الواقع نظرا إلى أن المعيار الأول فيها هو القبيلة والعشيرة. ولذا فان كتابا يزخر بالتراجم مثل كتاب " **أنساب الأشراف**" للبلاذري (المتوفى 279هـ /892 م) لا يعدّ من معاجم التراجم لأنه أساسا تاريخ غير مباشر للمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام، كما أن عددا كبيرا من الحوليات التاريخية مثل كتب الطبري (المتوفى 310هـ / 922 م) وابن تغري بردي (المتوفى 874هـ /1470 م) التي تضم تراجم للأفراد في نهاية كل بضع سنين ليست من معاجم التراجم،

---

[1] من أجلّ المؤلفات التي تناولت تاريخ الطب وسير أعلامه في القرون الوسطى. ألفه ابن أبي أصيبعة في " قلعة صرخد" جنوب دمشق، وكان قد انتقل إليها عام 634 ه بدعوة من صاحبها الأمير "عز الدّين أيبك المعظمي". وخصّ خزانة الوزير أمين الدولة أبي الحسن بن غزال، بنسخة منه في أربعة مجلدات سنة643 ه. طالع قصة إهدائه هذه النسخة في ترجمة أمين الدولة في الكتاب، وفيها قوله من قصيدة ختم بها الإهداء:

وقد أرسلت تأليفاً ليبقى	على اسمك لا تغيره الدهور
فريد ما سبقت إليه قدماً	ومولانا بذاك هو الخبير
ولكن في علومك فهو يهدى	كما تهدى إلى هجر التمور

وسمّى في أثناء كتابه ما يزيد عن خمسين مرجعاً رجع إليها لجمع مادته، وعرض في بعضها للتعريف بمحتوياته، ومعظم هذه المراجع في عداد الكتب المفقودة، ما يعطي أهمية كبرى لنقول الكتاب، وذلك عدا التراجم التي أنشأها لأساتذته ومعاصريه. وهي أهم مواد الكتاب، حيث أفرغ في هذه التراجم طائفة كبيرة من مشاهداته ومعايناته لسير شيوخه في تشخيص الأمراض ووصف الأدوية المناسبة، ومعذرة من أخطأ وبراعة من أصاب، وطرائفهم في حياتهم الخاصة. ويضم أكثر من (400) ترجمة. وبنى الكتاب على = = (15) باباً مع موجز لتاريخ الطب قبل الإسلام، وطبقات الأطباء عند الأمم القديمة، وأفرد باباً لطبقات المترجمين من الأطباء الذين قاموا بتعريب كتب الطب القديمة، وأتبع ذلك بمادة الكتاب الأساسية، وهي: ترجمة مشاهير الأطباء، مرتبة حسب الأقاليم. ومنهجه في تراجمه أنه يذكر اسم الطبيب ونسبه، وفضله في الصناعة، والجهة التي خدمها بصناعته، والمكانة التي أحرزها، ثم يذكر نوادر أعماله الطبية، وربما ذكر بعد ذلك تاريخ مولده ووفاته، ويختم الترجمة بذكر مؤلفاته وآثاره، وأشعاره فيما إذا كان طبيباً شاعراً. (ينظر: د.علي أحمد الكعوان، ابن النفيس وإسهاماته الطبية، دار القلم: بيروت، ط 02، 1976، ص ص 30-35 . – د. إدريس محمود العون: أطباء العرب وتاريخهم، دار الكتاب المصري: القاهرة، دار الكتاب اللبناني: بيروت، ط 02، 2002، ص ص 54- 49).

مثلها في ذلك مثل المعاجم الجغرافية التي تحتوي على كثير من الترجمات" **كمعجم البلدان"** لياقوت الحموي، لأن المدينة أو الضاحية أو الموضع هو الأساس الذي بني عليه الكتاب. كما أننا نجد في بعض المعاجم اللغوية قدرا كبيرا من المعلومات التي تدخل في باب التراجم، ومثال ذلك ما تضمنه " تاج العروس" للمرتضى الزبيدي (المتوفى 1205هـ / 1790 م) من تراجم ترد غالبا في المستدرك الذي يأتي في ختام المواد اللغوية، ونجد مثل تلك البيانات في بعض المؤلفات المتخصصة في توثيق الأسماء وتدقيقها وبيان هجائها وطريقة نطقها الصحيح مثل كتاب **" الإكمال"** لابن ماكولا (المتوفى 475هـ /1082 م) و**" تبصير المنتبه"** لابن حجر العسقلاني (المتوفى 756هـ / 1447 م)، ولكن هذه الكتب ليست معاجم تراجم لأنها رتبت بشكل يختلف عن ترتيب معاجم التراجم بالمعنى الدقيق للكلمة.

وختاما يمكننا أن نخلص إلى**:**

إن معاجم التراجم لم تظهر إلا عندما بدأت **تتضح معالم الحضارة الإسلامية ومقوماتها**، وأول هذه **المقومات أنها حضارة تقوم أساسا على الدين، وتعتمد على اللغة العربية والشعر العربي، ومع أنها تمثلت التراث العربي قبل الإسلام، واعتبرت نفسها وريثا للتراث الديني في منطقة الشرق الأدنى، إلا أنها تميزت بشخصيتها الإسلامية**. وهذا هو ما يفسر لنا أن أول كتاب وصلنا في التراجم، وهو طبقات ابن سعد، يبدأ بسيرة للنبي صلى الله عليه وسلم تشغل ربع حجم الكتاب بأجزائه المتعددة. وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يمثل الرمز الأساسي والمثل الأعلى لهذه الحضارة الجديدة، فهناك آخرون أسهموا في بنائها وقدموا بسيرتهم وسلوكهم ومواقفهم النموذج والقدوة للمجتمع الجديد. وقد اختيرت تلك الرموز، قبل كل شيء، على أساس قربها الزمني من مصدر الدعوة الجديدة، ولذا طبق معيار **"السابقة"** في القسم الأول والأساسي من الكتاب. أما القسم الثاني الذي بني على أساس المكان فقد ارتبط أيضا بتطور الدولة الجديدة واتساعها بعد الفتوح لتشمل مناطق شاسعة، تمتد من مصر غربا إلى خراسان شرقا.وهذه الحقائق المادية الجديدة التي تثير الإعجاب، صاحبتها حقائق أخرى توضحها طريقة ترتيب طبقات ابن سعد، وهي حقائق قد لا تكون يقينية كالحقائق الأولى التي سبق ذكرها، ونعني بها أن الحكومات الإسلامية عاشت منعزلة عن بعضها البعض مما ولّد رؤى مختلفة للدين الجديد، وأن ابن سعد ألف كتابه في زمن كانت الطبقات بمنزلة إرهاص بالأوضاع الجديدة للمجتمع الإسلامي. ولقد تتابع ظهور معاجم التراجم، ومضت تجنح نحو التخصص الذي يعكس هوية الفرق الإسلامية داخل المجتمع. ومع أن معاجم التراجم العربية الإسلامية قد ظهرت في عصر نضج الحضارة الإسلامية، إلا أنها **في مراحلها الأولى كانت معقدة في طريقة تنظيمها، وكان السبب في ذلك هو حرصها على الشمول في التغطية** .

المجتمعات الإسلاميّة بالمغرب
ونخبها من خلال
كتب الطبقات

المالكية وفقهاؤها بافريقية في العهد الفاطمي

إبراهيم جدلة
جامعة منوبة/تونس

تمهيد

تطرح قضية المالكية في العهد الفاطمي التساؤل عن مدى حضور هذا المذهب بافريقية في العهد الأغلبي وعن مدى انتشاره، لكي نتمكّن بصفة موضوعية من تقييم موقعه أثناء العهد الفاطمي وتحديد أوجه مقاومته للشيعة إن وجدت هذه المقاومة سواء على المستوى المذهبي أو السياسي. وعمادنا في هذا البحث أقرب كتب الطبقات إلى تلك الفترة وهي أساسا: كتاب رياض النفوس للمالكي[1] والمدارك للقاضي عياض[2] وبصفة ثانوية بقية النصوص الإخبارية التالية لتلك المرحلة. والغرض من هذا البحث هو محاولة الإجابة عن عدّة تساؤلات مازالت محلّ جدال أهمّها :

- هل كانت المحنة التي تعرض لها أنصار هذا المذهب أيام الفاطميين عامل تراجع أم دافع لأكثر تبلور وانتشار ؟
- ما هي فترة الاكتمال الفعلي للمدرسة المالكية القيروانية ؟

I/- وضع المالكية قبل الحضور الفاطمي :

كما نعرف قامت الدولة الفاطمية على أنقاض الدولة الأغلبية اثر معركة الأربس 296هـ/909 م. وكانت المالكية في حدود نهاية القرن الثالث هجري قد بدأت في الانتشار لكنها لم تكن تمثل المذهب المهيمن ويظهر ذلك بوضوح من خلال ما جاء في تراجم بعض كبار الأعلام المنسوبين إلى المذهب المالكي. وتتعدّد الإشارات التي تفهم ضمنيا منها عدم تمسّك هؤلاء الأعلام التام واللامشروط بمذهب مالك بل إنها توحي بأنّهم كانوا يأخذون عن أكثر من مذهب. فعبد الله بن فرّوخ (تـ 176هـ) حسب قول المالكي: "كان اعتماده على مالك لكنّه يميل إلى طريقة أهل النظر والاستدلال[3] " ويروى عن محمد بن سحنون أن المعتزلة تدّعي بأن ابن فرّوخ منهم[4] . وان كان هذا الأمر شبه مستحيل بالنسبة لخبر اعتزاله فمن المؤكّد في المقابل انه كانت له روايات مباشرة عن أبي حنيفة منها كونه سأله عن امتناعه عن

---

[1] - أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي (تـ حوالي 484هـ)، **رياض النفوس**، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983.

[2] - القاضي عياض بن موسى بن عياض السبتي (تـ سنة 544هـ)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، وزارة الأوقاف المغرب، 1981-1983 (8 أجزاء)

[3] -**رياض النفوس**،I ، 177

[4] - ن م ، I ، 186

ولاية القضاء[1]. ووصف البهلول بن راشد (تـ 183هـ) بان " الغالب عليه مذهب مالك وربّما مال إلى قول الثوري"[2]. ويبدو الأمر أكثر وضوحا عند أسد بن الفرات (تـ213هـ) فالمشهور عنه أنه :" كان يلتزم من أقوال أهل المدينة وأهل العراق ما وفق الحد عنده، ويحق له ذلك لآستبحاره في العلوم وبحثه عنها وكثرة من لقي من العلماء والمحدّثين..."[3] وربما كان له تمسّك بمذهب أبي حنيفة أكثر من مذهب مالك وقد ذكر أبو جعفر القصري أن أسدا كان " إمام العراقيين بالقيروان كافة... ودينه ومذهبه هو السنة"[4]. ولا يشك إثنان في أن رمز المالكية بافريقية في ذلك العهد هو سحنون بن سعيد (ت240هـ) حتى اعتبر البعض أنه هو الذي " قدم " بالمذهب حسب رواية محمد بن حارث :" ثم قدم سحنون بذلك المذهب، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والانقباض..."[5] ورغم ذلك فقد وردت رواية تشكك في منزلته جاءت على لسان أشهب حين سأل عن سحنون " فقال : مالي لا أسمع له ذكرا في بلدكم؟ " فقيل له: " إنه رجل قليل ذات اليد، وإنما لزومه البادية أكثر أيامه".[6] ولعل ما أعطى لسحنون صورة المؤسس الفعلي الفعلي للمدرسة المالكيّة القيروانية ما قيل عنه من تمسّكه الشديد بمذهب مالك وتعصبه له فهذا عيسى بن مسكين يقول: " لم يكن بين مالك وسحنون أفقه من سحنون"[7] ويروي سليمان بن سالم أن سحنون أخذ : "بمذهب أهل المدينة المدينة في كل شيء حتّى في العيش..."[8]. لكن هل أسّس سحنون فعلا هذه المدرسة ؟ يذكر لنا أبو العرب رواية مفادها أن "الذين يحضرون مجلس سحنون من العباد أكثر ممن يحضره من طلبة العلم"[9]. ونفهم ضمنيا من ذلك أن الذين يمثلون الطبقة الموالية لطبقة سحنون ستغلب عليهم صفة العابد لا صفة الفقيه وأشهر هؤلاء دون شك يحي بن عمر (تـ289هـ) الذي قال عنه أبو بكر اللبّاد " كان من أهل الصيام والقيام وكان مجاب الدعوة، وكانت له براهين"[10]. هذا بخصوص النخبة العلمية والدينية أما بقية مكوّنات المجتمع فنحن لا نستطيع الجزم بان المالكية كانت مذهبهم فرجالات الدولة من جند وغيرهم كانوا معتزلة وأثناء وفاة سحنون بن سعيد " استعفى رجالات ابن الأغلب من الصلاة عليه، وقالوا لأميرهم قد علمت ما بيننا وبينه، وانه يكفّرنا

---

[1] - ن م ، I ، 184
[2] - ن م ، I ، 201
[3] - ن م ، I ، 263
[4] - ن م ، I ،264
[5] - **المدارك**، IV ،51
[6] - **رياض النفوس**،I ، 370
[7] - **المدارك**، IV،52
[8] - ن م، IV، 53
[9] -**رياض النفوس**، I، 443، **المدارك**، IV، 73
[10] - المدارك، IV ، 358

ونكفّره – لأن أكثرهم كانوا معتزلة – وإنما خرجنا طاعة لك فان صلينا عليه رأى الناس أنّا رضينا حاله"[1].

ولم يكن الإعتزال منتشرا في جهاز الدولة فقط بل أيضا لدى العامّة وبخصوص أحداث سنة 234هـ يذكر لنا إبن عذاري أنه :" فيها مات عبد الله بن أبي الجواد في سجن سحنون.. فشنّع الناس على سحنون أنه قتله وكان يقول بخلق القران"[2]. وربما كان ذلك يعني ضمنيا تعاطف العامة مع المعتزلة وقد تواصل حضور الاعتزال إلى أواخر القرن الرّابع للهجرة حيث سجّلت المصادر وفاة أبي طالب " شيخ المعتزلة ولسانهم.."[3]. لكن لا شك في في أنّ هذا المذهب كان أقل انتشارا وحضورا من المالكية والحنفية بافريقية في تلك الفترة حيث أن مختلف هذه المذاهب كانت أساسا من اهتمامات النخبة القيروانية لا أكثر.

ويقول العلامة حسن حسني عبد الوهاب " ويمكن أن نعد أسد ابن الفرات أول مؤسس للمدرسة الفقهية القيروانية بيد أن هذه المدرسة لم تكن تنسب إلى مذهب معين بل كانت تروي أقوال كبار المجتهدين مع إيضاح ما بينها من فروق وإنما كان ذلك لان المذاهب السنية لم تكن قد تعيّنت بعد، واستقل كل منها بنفسه"[4].

وحسب ما أوردته بعض المصادر كان المذهب الحنفي يوازي المذهب المالكي حضورا وانتشارا فأثناء حديثه عن بلاد المغرب والأندلس قال المقدّسي : "وأما المذاهب فعلى ثلاثة أقسام أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف إلا كتاب الله وموطأ مالك فان ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه وان عثروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ربما قتلوه، وسائر المغرب إلى مصر لا يعرفون مذهب الشافعي رحه إنما هو أبو حنيفة ومالك رحهما الله... وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل تعصبا منهم وسمعتهم يحكون عن قدمائهم في ذلك حكايات عجيبة حتى قالوا انه كان الحاكم سنة حنفي وسنة مالكي ..."[5] وبصفة عامة يمكن القول انه حتى نهاية نهاية القرن الثالث هجري وبداية القرن الرابع هجري أي مع بداية انتصاب الدولة الفاطمية لا يمكن الجزم بهيمنة واضحة للمذهب المالكي ولا بتشكل مدرسة قيروانية واضحة المعالم. وهو ما يجعلنا نتساءل عن وضع فقهاء المالكية في العهد الفاطمي، كيف تطوّر وكيف تمكّن من تجاوز الصراع المذهبي ضد الشيعة.

II/- السلطة الفاطميّة والمقاومة القيروانية

---

[1] - ن م، IV، 85

[2] - ابن عذاري، **البيان المغرب**، بيروت 1980، I، 110.

[3] - ابن عذاري، I ، 256

[4] - حسن حسني عبد الوهاب، **الورقات**، تونس 1972، ج III، 43

[5] - المقدّسي (شمس الدين ابو عبد الله بن محمّد)، **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، بريل، ليدن ، 1906 ، 236-237

يمكن اعتبار الدولة الفاطمية في الأصل مجرّد إمارة استيلاء تحوّلت إلى خلافة موازية للخلافة الشرعية الموجودة ببغداد. وبحكم منطلقاتها العقائدية باعتبار مؤسسيها من الشيعة الإسماعيلية فان السلطة الفاطمية كانت عبارة عن جسم غريب (النصوص تعرّفهم بالمشارقة) مزروع في المجتمع المحلّي وقد عمّق هذه الوضعية تصرّفهم في أغلب الأحيان كنحلة (secte) تعمل على حماية مصالحها بالتنظيم والالتزام أكثر من العمل على نشر مذهبها. دامت هذه الدولة ستّون سنة لا أكثر. ولم يكن البقاء في افريقية من مشاريع الفاطميين. بل هدفهم الأول هوّ الرحيل إلى الشرق. وقد عبّر المعز عن ذلك بصفة واضحة عندما قال للقاضي النعمان:" وقد ابتلانا الله برعي الحمير الجهال فإنّا لم نزل نتلطّف في هدايتهم ومسايرة أحوالهم إلى أن يختم الله لنا بالحسنى والخروج من بين أظهرهم على أحمد حال.."[1]

هل قام الفاطميون في هذه المدة الوجيزة من حضورهم بافريقية بحمل "الناس على القول بآرائهم قهرا"[2] وهل حاول فعلا ملوك بني عبيد " القضاء على مذهب أهل السنة ...، وقاسى علماء القيروان من جرّاء ذلك ألوان الاضطهاد والمناواة، فأخفت صوتهم ومنع نشر تعاليمهم مدّة ستين عاما أو أكثر...."[3] في الحقيقة لا شيء يثبت في المصادر الإسماعيلية والمصادر السنية أن الفاطميين قد وجهوا جهودهم لمحاربة السنّة أو منع نشر تعاليمهم. وعند مراجعتنا لما جاء في كتابات القاضي النعمان المعاصرة للأحداث نلاحظ أن الدولة الفاطمية، ربّما بحكم أن قيادتها كانت مجرّد أقلّية عربية اعتمدت على مجموعة قبائل كتامة المحلية- اتجهت منذ البداية نحو سياسة إئتلاف القلوب. وحسب ما ورد في " افتتاح الدعوة " كان وجوه من بقي من بني الأغلب وأكابرهم: "يدخلون فيمن يدخل إليه (المهدي) إذا جلس فيقرّبهم، ويدنيهم، ويؤنسهم، ويحسن إليهم واستعمل جماعة منهم. واخرج في البعوث والعساكر من كان يصلح لذلك.."[4]وإن كان هذا موقفهم بالنسبة للنخبة السياسية والعسكرية فإنّه لم يكن يختلف عن ذلك بخصوص بقية مكوّنات المجتمع الذين كثيرا ما تصفهم المصادر بكلمة "عامّة" بما في ذلك الفقهاء. وكان خلفاء الفاطميين وخاصة المعزّ منهم يحاولون مناظرتهم واستمالتهم بالحسنى أو بالحجّة كما جاء على لسان المعزّ: " ولقد فاوضت فلانا – وذكر رجلا من علماء العامّة (بمعنى أهل السنّة) عندهم وأكابرهم. وبسطته في القول وما زلت به إلى أن أقرّ بحقنا... قلت : أنت رجل ترأسّت في العامّة وذكرت بالعلم فيهم... فإذا أنت فارقتهم وصرت إلينا نبذوك ... "[5].

---

[1] - القاضي النعمان ، **المجالس والمسايرات**، تونس 1978، 396-397

[2] - حسن حسني عبد الوهاب، **مجمل تاريخ الأدب التونسي**، مكتبة المنار، تونس 1986، 76

[3] - الورقات، III،51

[4] - القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، تونس 1975، 305

[5] - **المجالس والمسايرات**، 365

ومما ورد في هذه المصادر يجعلنا نميل إلى القول بوجود نوع من الحرية المذهبية حيث تواصلت تقاليد المناظرات بين المعتزلة وأهل السنة، كما أن كلام المعز عن " التلطّف في هدايتهم (أهل السنة)[1] ومسايرة أحوالهم "[2] يؤكد هذا التوجّه الذي كان موجودا منذ عهد المنصور الذي أمر القاضي النعمان بمحاولة مجادلة أهل السنة وإقناعهم بقوله : " يا نعمان استخرج من كتاب الله ما رفضته العامة وأنكرته..."[3]

هذا ما ورد في المصادر الإسماعيلية، فهل نجد في المصادر السنية ما ينفي ذلك؟ في الحقيقة لو نستثني حادثة قتل عروس المؤذن بمسجد ابن عياش الفقيه سنة 307 هـ حين شهد عليه قوم من المشارقة بأنه أذّن ولم يقل: " حيّ على خير العمل".[4] فإننا لا نعثر على حالات واضحة للاضطهاد المذهبي والتقتيل أو التصفية الجسدية لأسباب عقائدية أو حتى التضييقات حول أشكال العبادة. بالعكس نجد في الكثير من الحالات إشارات مختلفة تدل على التعامل بين الجهاز الفاطمي والنخبة السنّية. فهذا خلف بن معمر بن منصور الذي تنسبه المصادر إلى الفقهاء العراقيين (أي حنفي) و"كان يروي عن أبيه، عن أسد بن الفرات... كان قد تشرّق أول دخول الشيعة افريقية..."[5].وهذا أبو الفضل محمد بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد السلام السلام كلّف بتولي جباية طرابلس وتونس " ليلج مع القوم (الشيعة) ويبقى معهم ..."[6] وتولّى لهم القضاء محمد بن محفوظ القمودي الذي ذكرت المصادر بأنه كان "ضعيف الرأي جائر الحكم "[7]. كما ولي لهم على دار السكّة أبو بكر القمّودي[8] المتكلّم والملقب بالفيلسوف وقد كان من أنصار سعيد سعيد بن الحدّاد. هذه الأمثلة المتعدّدة لا تدل بأن الأوضاع كانت تتميّز دائما بالهدوء وبالتعايش السلمي بين الجهاز الفاطمي والمجتمع القيرواني لان التناقضات وان لم تكن حادة على مستوى التباينات المذهبية فإنها أصبحت عميقة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي وأخيرا السياسي.

وقد انطلقت الأزمة الفعلية لا بسقوط القيروان في أيدي الفاطميين الشيعة بل بتأسيس عاصمة جديدة نقيضة لها : المهدية التي استفادت من اقتصادها الخاص (فهي المركز الجديد للثروات) ومن خلق مجتمعها الخاص من الانفراد بعلمها وعلمائها (من الشيعة طبعا) مما سمح ببروز عوامل تنافس غير متكافئ جعل العلاقات تتّسم بالتوتر بين السلطة الفاطمية

---

[1]- ن م ، 380 يذكر القاضي النعمان :" وذكرت له (أي المعزّ) في هذا المجلس قول بعض من تسمىّ بالعدل من العامة في الردّ على بعض المجبرة".

[2] - ن م، 395-396

[3] -ن م ، 135

[4] -**البيان المغرب**، I، 182-183

[5] - ن م ، I، 173

[6] - ن م ،I ، 180

[7] - ن م ،I ، 182

[8] - ن م ،I ، 151

والمجتمع القيرواني. ولم يكن هذا المجتمع هو الذي أعلن الحرب على الفاطميين بل: أبو يزيدمخلد بن كيداد الزناتي الخارجي (النّكاري) واكتفى تجار القيروان وعبادها وفقهاؤها بمساندته وقبول قيادته رافعين شعار "نصر من الله وفتح قريب على يدي الشيخ أبي يزيد..."[1] كانت هذه المحاولة الأولى والأخيرة للقيروانيين لمقاومة القمع السياسي والضغط الجبائي بالقوّة. أثناء هذه المحاولة يقول ابن عذاري" فقتل من صلحاء القيروان وفقهائها من أراد الله بسعادته وشهادته"[2] ورواية الرقيق هذه لم تذكر كم قتل ؟ كيف تمّ ذلك ؟ ونجد بعض الإضافات الهامّة عند المالكي أثناء حديثه عن أحداث سنة 333 هـ / 944م ووفاة أبي الفضل عبّاس بن عيسى بن عباس الممّسي الذي " استشهد معه خمسة وثمانون رجلا كلهم فاضل خيّر في حرب بني عبيد – لعنهم الله- مع أبي يزيد..."[3] أمّا أثناء حديثه عن استشهاد ربيع القطّان فهو يضيف " أنّ الذين ماتوا في دار البحر بالمهدية من حين دخل عبيد الله...أربعة آلاف رجل في العذاب، ما بين عالم وعابد ورجل صالح..."[4] ويمكن تلخيص هذه الوضعية العدائيّة بين المجموعتين بما قاله أحد الشعراء القيروانيين في هجاء بني عبيد :

لو قيل للروم أنتم مثلهم لبــكوا   أو اليهود لسدّوا صمخ أسماع
ولوعزينا إلى إبليس ما مكر   وا لقال إبليس ما هذا من أطبـاعي[5]

III/- فقهاء المالكية في العهد الفاطمي

رأينا أعلاه كيف أن القيروان قد فقدت السلطة السياسية وكانت تعوزها القوة العسكرية وهو ما جعلها تحاول المقاومة فكريا ومذهبيّا. ولم تحاول القيروان الدفاع عن الأغالبة المهزومين ولا عن خلافة العباسيين البعيدة بل كان محور دفاعها : المالكية التي أيضا كما رأينا أعلاه لم تتبلور بعد كمذهب رسمي ولا عام للبلاد. وكان زعماء هذه المقاومة الفقهاء أو من نعتبرهم فقهاء : فمن هم هؤلاء الفقهاء ؟ ما هي أصولهم الجغرافية والاجتماعية ؟ وما هي مؤهّلاتهم العلمية ؟

من الناحية المنهجية قمت انطلاقا ممّا أورده القاضي عياض ضمن الطبقات: الثالثة والرابعة والخامسة (أي المعاصرة للفاطميين) بحصر 90

---

[1] - ن م، I ، 217
[2] - ن م، I ، 218
[3] **- رياض النفوس ،** II، 292
[4] - ن م، II، 345
[5] - ن م، II، 346

فقيها تتالت ترجماتهم ضمن هذه الطبقات كما وردت في المدارك[1] وبالتحديد في الجزئين الخامس والسادس. وهي كما يلي ملخّصة ضمن الجدول التالي :

الطبقـــة الثـالثـــة

رقم الترجمة	الاسم	اللقب/الكنية/ النسبة	تاريخ الوفاة	التعريف العلمي	الملاحظات	ص
1	عبد الله بن محمّد بن سويد	الربعي	308هـ/ 920م	صالحا، ثقة، فقيها		V، 106
2	سعيد	ابن حكمون	308هـ/ 920م	الغالب عليه العبادة	أصله يهودي	V، 106
3	محمد بن سعد	أبو الوليد القيرواني		ذاعلم وعناية وبصر		V، 107
4	عبد الله بن محمد	أبو القاسم الزواوي	304هـ/ 916م	كان ثقة		V، 107
5	محمّد بن محمّد بن سحنون	أبو سعيد	306هـ/ 918م	كان منسوبا للعلم	غلبت عليه العبادة كان يرى الخضر	V، 107
6	ميمون بن عمرو	أبو عمرو بن المعلوف	310هـ/ 922م	له دين وفضل	تولى القضاء	V، 110
7	محمد بن بطام	أبو عبد الله، السويسي	313هـ /925م	ثقة كثير الروايات		V، 111
8	أحمد بن أحمد بن زياد	الفارسي	319هـ/ 931م	كان فقيها	مذهبه النظر	V، 112
9	نفيس (عبد رومي)	الغرابلي، أبو الغصن، السوسي	309هـ /921م	فقيه، ثقة	مولى لامرأة	V، 114
10	إبراهيم بن محمّد	أبو إسحاق بن البرذون	297 هـ	فقيه، عالم	قتله الشيعي	V، 117
11	ابن هذيل	أبو بكر	297هـ	من الورعين	قتله الشيعي	V، 121

[1] - يعتبر المدارك من أهم كتب الطبقات على الإطلاق وحسب رأي الأستاذ محمّد الطالبي :" إن فائدة المدارك ليس فقط كونها متأكّدة بل إنها تتجاوز كثيرا كلّ الكتب الشبيهة التي ظهرت في الغرب الإسلامي، وهذا يرجع إلى عدّة أسباب منها المصادر المستعملة ... وأيضا طريقة استغلالها.." M. TALBI, **Biographies Aghlabides**, Tunis 1968, 34 .

12	محمّد بن علي	بن عبد الرحيم		من الحفاظ		V، 123
13	محمّد بن قعنب	أبو عبد الله	310هـ /922م	فقيه		V، 123
14	حمّود بن سهلون	أبو عبد الله		فقيه، زاهد		V، 124
15	مالك بن عيسى بن نصر	أبو عبد الله، القفصي	305هـ/ 917م	فقيه	ألف كتاب الأشربة	V، 124
16	أحمد بن يحي بن خالد	أبو جعفر، السهمي	310هـ /922م			V، 125
17	عمر بن يوسف بن عبدوس	اشبيلي	290 هـ /902م	كان صالحا ثقة	يسكن سوسة	V، 125
18	محمد بن أحمد بن يحي	بن مهران	309هـ /921م			V، 126
19	محمّد بن فتح	شفون، الرقادي	310هـ/ 922م	الجدل والمناظرة		V، 126
20	سالم بن حماس		307هـ/ 919م	فقيهه		V، 126
21	حمود بن حماس	أبو جعفر	309هـ/ 921م	يغلب عليه النسك والورع		V، 128
22	محمد بن محبوب	أبو عبد الله الزناتي	307هـ /919م	يحفظ المسائل يناظر فيها		V، 129
23	حسين بن مفرج	أبو القاسم	308هـ/ 920م	له عناية بالعلم	مولى	V، 130
24	نصر بن فتح	الشورى، أبو حبيب	306هـ/ 918م	من أهل الفتوى	مولى	V، 131
25	عبد الله بن محمّد	العتمي، أبو محمّد	310هـ/ 922م	من أهل الصيام والقيام	من بنزرت	V، 131
26	سعدون بن أحمد	أبو عثمان،الخولاذ	325هـ/ 936م	من أهل العبادة	مرابط بالمنستير	V، 134

	ي					
27	أحمد بن محمّد	أبو جعفر، المغرياني، القرشي		كان ثقة		V، 136
28	محمّد بن أحمد	بن أبي زاهر	316هـ/ 928م	غلبت عليه الرواية	قبطي	V، 137
29	يونس بن محمّد	أبو محمّد	300هـ /912م			V، 137
30	أحمد بن محمّد	أبو جعفر القصري	322هـ/ 933م	كان ثقة	مولى	V، 138
31	محمّد بن سليمان	القطّان		معدود في الفقهاء		V، 139
32	محمد بن هشام بن الليث	اليحصبي	338هـ/ 949م	من أهل العلم والحفظ	هاجر إلى قرطبة	V، 140
33	عبد الله بن محمد	أبو محمد، الرعيني	307 /919م	قليل الرواية		V، 141
34	محمد بن مسرور	أبو عبدا لله، الابزاري	295هـ/ 907م	متعبد، صالح		V، 141
35	جعفر بن مسرور	أبو القاسم، ابن المشاط	349هـ/ 960م	يحسن الرد على الملحدين		V، 143
36	مطر بن يسار	أبو البشر	326هـ/ 937م	فقيه	مولى	
37	يوسف بن مسرور	أبو الفضل	325هـ/ 936م	صالح فاضل	مولى	V، 143
38	حمدون بن مجاهد	الكلبي	312هـ/ 932م	زاهد، عابد	سكن الرباط	V، 147
الطبقـــة الرابعـــة						
39	محمد بن محمد	أبو بكر، ابن اللباد	333هـ 944م	فقيه	جدّه كان حائكا وهومولى	V، 286
40	لقمان بن يوسف	أبو سعيد، الغساني	319هـ/ 931م	من أهل العبادة والصيام		V، 296
41	العبّاس بن عيسى	أبوالفضل، الممسي	333هـ/ 944م	فقيه، عابد		V، 297
42	ربيع بن سليمان	أبوسليمان، القطان	333هـ/ 944م	فقيه، عابد	كان يجتمع مع	V، 310

					الخضر	
43	محمّد بن عباس	أبو بكر الكتاني	327هـ/ 938م	يتكلّم في المسائل		V، 321
44	محمّد بن عباس	النحّاس	325 هـ /936م	فقيه		V، 321
45	محمّد بن مسروق	أبو عبد الله، النجار	329هـ/ 940م	الدرس والحفظ والمناظر ة		V، 322
46	عبدا لله بن محمد	أبو الحسن العسّال	324هـ/ 935م	من أهل العلم والفقه		V، 323
47	محمد بن احمد	أبو العرب، التميمي	333هـ/ 944م	عالم بالسنن والرجال		V، 323
48	أحمد بن إبراهيم	أبو جعفر، المتعبد	324هـ/ 935م	صالح متعبّد	من الاربس	V، 326
49	قائد بن سعدون	أبو قحطان، الاربسي		من أهل العلم بالجدل	من الاربس	V، 327
50	أحمد بن موسى	أبو جعفر التمار	329هـ 940م	من أهل العلم بالجدل	من قبط تونس	V، 328
51	إبراهيم بن أبي حفص	أبو قنة		يميل إلى النظر		V، 329
52	محمد بن عبد الله	أبو عبد الله، الأنصاري	337هـ/ 948م	ترك العلم، اشتغل بالتجر	مولى أصله من الأندلس	V، 329
53	عبد الله بن سعيد	أبو محمّد، ابن الحدّاد	320هـ/ 932	عاقل حصيف		V، 330
54	عبد الله بن أبي هاشم	ابن الحجام	346هـ/ 957م	الجمع والرواية	مولى	V، 330
55	حبيب بن الربيع	أبو نصر	339هـ/ 950	فقيه، عابد	مولى	V، 334
56	حبيب بن نصر	أبو نصر		غني بالمسائل	مولى	V، 336
57	إسحاق بن مسلم	أبو إبراهيم		يتكلّم في الفقه	مولى	V، 336

58	محمّد بن العبّاس	أبو عبد الله، دعدع	329هـ/ 940م	عالم، فقيه	مولى	V، 336
59	محمّد بن عبد الله	المرقشاني	333هـ 944م	له سماع		V، 337
الطبقة الخامسة						
60	محمد بن غليون	الصنهاجي الوقاد	329هـ/ 940م	من أهل الفقه والعلم		VI، 9
61	عبد الله بن احمد	أبو العباس، الابياني	352هـ/ 963م	عالم افريقية		VI، 10
62	تميم بن خيران	أبو محمد، السرتي	346هـ/ 957م	فقيه إخباري		VI، 18
63	ابن مسلم بن يزيد	أبو يوسف الحضرمي		من أهل العلم والعبادة		VI، 19
64	ليث بن محمد	أبو الحارث		منقطع للعبادة		VI، 20
65	مطر بن يسار	أبو البشر	326هـ/ 937م	فقيه	مولى	VI، 20
66	محمد بن احمد	أبو البشر، السويسي	331هـ/ 942م	كان له سماع من الخاشعين		VI، 20
67	محمد بن عبد الرحيم	أبو عبد الله ابن عبد ربه	346هـ/ 957م	لازم الرّباط		VI، 21
68	علاء بن محمّد	أبو سهل	347هـ/ 958م	صالح، فقيه	سكن بونة	VI، 22
69	محمد بن صامت	أبو عبد الله	332هـ/ 943م	له عناية بالحديث	من تونس	VI، 22
70	نصر	أبو حبيب، الرومي	332هـ 943م	كان أمّيا لا يقرأ ولا يكتب	مولى من تونس	VI، 23
71	عبد الله بن سعيد	أبو محمّد، اللجام	331هـ/ 942م	كان رجلا صالحا		VI، 24
72	يوسف بن عبد الله	التميمي، القفصي	332هـ/ 943م	من أعلم أهل زمانه وأفقههم		VI، 25
73	عبد الرحمان بن تمام	أبو القاسم، القطان	332هـ/ 943م	من اهل الفضل والورع		VI، 25

74	محمّد بن عمرو	أبو عبد الله، الملاح	335هـ/م 946	كان صالحا، فقيها	لم يكن يحسن التقييد	VI، 25
75	محمّد بن إبراهيم	ابن أبي صبيح	337هـ/ 945م	كان رجلا فاضلا	تولّى القضاء	VI، 26
76	موسى بن احمد	أبو عبد الله الغرابلي السويسي	333هـ/ 944م	كان رجلا صالحا، فقيها		VI، 26
77	أحمد بن نزار	أبو ميسرة	337هـ/ 948م	من الفقهاء العباد	له كرامات	VI، 26
78	عبد الله بن إسماعيل	أبو محمد، البرقي	317هـ/ 928م	من أهل الفقه والأدب		VI، 33
79	تميم بن أحمد	أبو علي، ابن الشامة	357هـ /967م	حامل علم كثير		VI، 33
80	عتيق بن أبي صبيح	أبو بكر الجزيري		فقيه	مفتي أهل الجزيرة	VI، 34
81	الحسن بن نصر	أبو علي، السويسي	341هـ/ 952م	شيخ صالح ورع	مولى	VI، 34
82	حسن بن محمّد	أبو الحسن، الكانشي	347هـ/ 958م	صالح مشهور بالعلم متعبّد	يسكن المنستير	VI، 40
83	عمر بن عبد الله	أبو حفص، ابن الإمام الصدفي	350هـ/ 961م	لزم العبادة والتبتل		VI، 50
84	سحنون بن أحمد	ابن ملول، التنوخي	343هـ 954م	صالح، ورع	من قصطيلية	VI، 52
85	عبد الله بن حمود	السلمي، ابن الحقنة	357هـ/ 967م	صالح، فاضل	من سوسة	VI، 52
86	إبراهيم بن احمد	أبو إسحاق، السبائي	356هـ/ 966م	من أولياء الله	له كرامات	VI، 54
87	محمد بن منصور	أبو عبد الله، العسال	343هـ/ 933م	فقيه		VI، 76
88	عمر بن محمد	أبو حفص، العسّال	343هـ/ 954م			VI، 77

89	أحمد بن أبي رزين	الخياط	321هـ/ 933م	فقيه		VI، 80
90	قمود بن مسلم	القابسي		يروي عن يحي بن عمر		VI، 80

بعد قراءة هذه الجداول نلاحظ أولا المكانة المركزية للقيروان، العاصمة التاريخية لافريقية وامتدادها الطبيعي: جهة الساحل(سوسة المنستير). وبينما كان العنصر العربي يغلب على الفقهاء في العهد الاغلبي، نلاحظ أنّه بالنسبة للمجموعة المدروسة لا نجد سوى 17 فقط من 90 لهم نسب عربي واضح مقابل بروز الفئات الاجتماعية والعرقية الأخرى حيث كان عدد الموالي 20 منهم 3 من الرّوم (الأرقام: 9-58-70) و3 من الأقباط (الأرقام:28–50-65) وفارسي (رقم 8) وواحد أبوه من مسالمة اليهود(رقم 2). بصفة عامة نلاحظ أن العنصر العربي بدأ يفقد دوره السياسي والاجتماعي وحتى العلمي. ويرجع ذلك أولا إلى كون السلطة الجديدة كانت عربية وقد تمكّنت من ائتلاف ولاء العديد من الأسر العربية وثانيا إلى كون المقاومة المسلّحة الأولى التي قادها أبو يزيد ضد الفاطميين تسبّبت في القضاء على الكثير من هؤلاء. وتحمّل مصادرنا المسؤولية المباشرة لأبي يزيد الذي لمّا رأى الظفر على الفاطميين "ولم يشك في غلبته أظهر ما أكنّه من الخارجيّة، فقال لأصحابه : إذا لقيتم القوم، فانكشفوا عن علماء القيروان حتى يتمّكن أعداؤهم منهم... ففعلوا ذلك فقتل منهم من أراد الله ..."[1]

وهنا نصل إلى طبيعة هذه المقاومة (التي كما أسلفنا اتخذت الشكل العنيف أو المسلّح مرّة واحدة انتهت بمأساة كبيرة) إنها لم تكن مقاومة قبليّة ولا عرقيّة بل أساسا عقائدية – مذهبية قادتها شريحة اجتماعية لم تكن قد استفادت سابقا من الأغالبة ولا تنتظر شيئا من الفاطميين. هذه المقاومة المذهبية تخفي أيضا مقاومة اجتماعية واقتصادية. وفي ترجمة ربيع القطان (رقم42) تورد المصادر بأن السلطان (أي الخليفة الفاطمي) رمى "على القطانين قطنا كان عنده وحسبه عليهم بدينارين القنطار وكان يسوي دينارا ونصفا .."[2] يمكن القول أن الفئات المتضرّرة في المجتمع هي التي قاومت الفاطميين وهذه الفئات نجد لها صدى من خلال التراجم التي نحن بصدد درسها فان اختفت شيئا فشيئا النسب القبلية وخاصة العربية منها، نلاحظ ظهور كنى كثر جديدة أو نسب مهنية أساسا تعكس الانتماء إلى وسط اجتماعي متواضع أحيانا وتوحي بظهور أنساب مغمورة ليس لها اتصال بالفئات المتنفّذة اجتماعيا أو أصحاب الجاه.

---

[1] - **المدارك**، V، 306

[2] - **رياض النفوس**، II، 328-329، المدارك، V، 316

نجد 17 كنية لها تعبيرة مهنية وردت في هذه التراجم ونذكر منها :

- القطان (رقم 31-42)
- الابزاري(رقم 34 -35)
- الكتاني (رقم43)
- النخاس (رقم 44)
- الغرابلي (رقم 76)
- الخياط (رقم 89)
- العسّال (رقم 46-87-88)
- التمّار (رقم 50)
- الحدّاد (رقم 53)
- الحجام (رقم54)
- الوقاد (رقم 60)
- اللجام (رقم 71)
- الملاح (رقم74)

نحن هنا في وسط حضري خالص تراجعت فيه الانتماءات القبلية والمجموعات العرقية. فمن جهة يظهر "الفرد" المنعزل وتقابله قوّة الدولة بمضامينها العقائدية والاقتصادية والاجتماعية. انه فرد ضعيف لكنّه سيحاول البحث عن مصادر قوة جديدة لتعويض محدوديته. وقد تمّ ذلك أساسا عبر وسيلتين الانطواء واللامعقول. نلاحظ بالنسبة لللتسعين حالة المدروسة تراجع نعت "فقيه" وظهرت كلمات أخرى لتعريف المترجم لهم وهي: عابد – تقيّ– فاضل – زاهد– يطغى عليه الخوف– لا يغادر الرباط – كان يتكلّم – يعرف الأجوبة– من أهل المعرفة – يصوم ويصلي- يقرأ القران ... إلى حدّ أن البعض ممّن ترجم لهم كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة (ترجمة رقم 70) وحتى الفقهاء المشهورين منهم لم يتركوا لنا آثارا تذكر (إذا ما استثنينا كتاب السماسرة للابياني وأحكام السوق ليحي بن عمر وكتابي الطبقات والمحن لأبي العرب). وكان الانزواء طاغيا على الكثير من المترجم لهم معبّرا عن سلوك اجتماعي يتّجه نحو الاستثناء (أو الخارق للمألوف) في الممارسة العبادية. هذا الانزواء كان يعني أساسا موقف الرفض: رفض الرافضة، رفض الآخرين، رفض العالم، رفض السلطة، رفض المال...هنا نتساءل لماذا حفظت لنا كتب الطبقات تراجم هؤلاء واعتبرتهم من " حملة العلم " بل أن هذه الكتب جعلت لهم أحيانا تصنيفا موازيا لطبقات الفقهاء وهو ما نجده مثلا في رياض النفوس حيث تمّ وضع طبقات " لأهل العبادة والنسك"[1] موازاة لأهل العلم. ويبدو الشرخ واضحا بين الفقهاء أو العلماء والعباد، فهذا ربيع القطان في حديثه عن المدوّنة يقول: " إنها طالما منعتني من رؤية ربّي ..."

[1] -انظر مثلا : **رياض النفوس،**I ، 193، 300، 408

ويضيف المالكي: " إنّه " أقبل على العبادة وترك دراسة العلم"[1]. هذا يعكس تراجع العالم أمام العابد (تراجع المعقول أمام اللامعقول وربما تجرّأ العابد على إهانة العالم (الفقيه) كما فعل أبو جعفر القمودي حين دخل عليه ابو بكر بن اللباد حيث: " لم يقبل عليه كما ينبغي أن يقبل على العلماء، فخرج ابن اللباد مغضبا وهو يقول :" عالم عند الله أفضل من سبعين عابد "[2] وأبو جعفر القمودي هذا هو الذي قال عنه أبو القاسم محمد كرّو: " رجل لم يكن عالما ولا فقيها ولا قاضيا أو أديبا، بل رجل من عامّة الناس ومن أضعفهم مالا وعلما ومنزلة اجتماعية، ومع ذلك بلغ في عصره والعصور الموالية أعلى درجات الاحترام والتقدير والإجلال..."[3]

هنا نعود إلى تساؤلنا المبدئي حول الظهور الفعلي للمذهب المالكي بافريقية، إن كنّا قد أثبتنا انّه حتى نهاية العهد الاغلبي لم توجد مدرسة مالكية مهيمنة على المنطقة وإن كان دور فقهاء المالكية في العهد الفاطمي محدودا أمام سلطة الفاطميين من جهة وأمام السلطة المعنوية للعباد والزهاد من جهة أخرى. لا بدّ من الملاحظة أن الإيجابي في ذلك العهد هو أنّه في تلك الفترة لم تكن الهيمنة السياسية والاقتصادية الشيعية متبوعة بهيمنة ثقافية / فكرية / مذهبية بل إنها كانت تلاقي مقاومة مختلفة المستويات لعب فيها العباد والزهاد دورا أهم من الفقهاء لكنها كانت عاملا مهمّا في اتساع دائرة المالكية التي ستصبح المذهب المهيمن اثر خروج الفاطميين مباشرة.

الخاتمــة

إن "العلم" بالمفهوم العقلاني أو المنطقي في تلك الفترة أصبح "علما رسميا " مركزه المهديّة وينتجه علماء الدولة الفاطمية مثل "القاضي النعمان" وفي المقابل وقفت القيروان برجالها محاولة إنتاج خطاب جديد ذات صبغة شعبية وهو خطاب يستجيب للأوضاع الجديدة التي تتميّز بذلك التناقض الحاد بين السلطة الجديدة(الشيعية، المشرقية، العربية) والمجتمع المحلي (المالكي، المغربي، البربري).

إن المقاومة التي ولدت عن هذه الوضعية هي التي واكبت النشوء الفعلي للمدرسة المالكية الإفريقية (القيروانية) حيث اندثرت إثرها بقايا المذاهب الأخرى وبرزت على الساحة العلمية أسماء لامعة مثل : عبد الله بن أبي زيد القيرواني (مالك الأصغر) وأبي الحسن القابسي وغيرهما....[4] ومنذ

---

[1] - **رياض النفوس**،II ، 325

[2] - ن م،II ، 215

[3] - أبو القاسم محمد كرو، **حصاد العمر**، تونس 1998، المجلّد IV، القسم الثالث:مدن وأعلام ص121

[4] - لمزيد الإثراء نحيل القارئ على بعض المقالات التي كتبها : هادي روجي إدريس Hadi – Roger Idris والمتعلّقة بهذه المرحلة من تاريخ المالكية :

ذلك الحين يمكن التأكيد دون تردّد بأن المذهب المالكي قد أصبح المذهب الغالب على افريقية بل أصبح المذهب الوحيد المقبول سياسيا واجتماعيا.

- Le crépuscule de l'école malikite kairouanaise (fin du XIè siècle), *les Cahiers de Tunisie*, IV, 16, 1956,pp 494-507.
- Une des phases de la lutte du malikisme contre le Šicisme sous les Zirides (XIè siècle), *les Cahiers de Tunisie*, IV, 16, 1956,pp 508-517
- Deux juristes kairouanais de l'époque Ziride : Ibn Abi Zayd et alqabisi (Xè-XI è siècle), *A.I.E.O*, XII, Alger, 1954, pp 122-198.

النخب الإسلامية من منظور ابن الأبار في كتابه *الحلة السيراء*

عبدالواحد ذنون طه
جامعة الموصل/العراق

ظهرت كتب الطبقات كمظهر من مظاهر التاريخ الاجتماعي لتلبية الحاجة لانتقال العلم من جيل إلى آخر، نتيجة حاجة المجتمع لمعرفة علم الرجال ، والتعرف على تواريخ الرواة في ولادتهم ووفياتهم، فضلاً عما يمكن أن يرد على الذهن، بدءً من نسب الفرد إلى حالته الاجتماعية، وإلى وضعه في الإسلام ودوره فيه، وتحديد زمن حياته قدر الإمكان، وذلك من أجل الوثوق بت وبرواياته. وكانت المواد المتعلقة بالشخصيات البارزة موضوعاً منذ القدم لمجموعات قائمة بذاتها، إلى جانب طبقات المحدثين والفقهاء، وهذه الطبقات تقوم على عمل فني، وتتناول في أغلب الأحيان فريقاً أو طبقة بأسرها من الناس. ويمكن تمييز كتب التراجم التي ترجمت للصحابة الكرام، مثال ذلك كتاب **الطبقات الكبير**، لابن سعد المتوفى ت 230هـ/844م[(1)] فالذي يقرأه يقف بإجلال أمام المنهجية التي أوجدها علم دراسة الإسلام في دراسة الفرد المسلم.

وتدريجياً أوجد علم دراسة الإسلام اتجاهاً آخر عندما بدأ مفكروه في دراسة المشتغلين بعلم الحديث النبوي في السعي للتثبت منهم، ومن درجة أهليتهم للعمل في حقل الحديث. فظهرت الكتابات الأولى في دراسة الرجال، ومن أشهرها كتاب **العلل ومعرفة الرجال**، للإمام أحمد بن حنبل المتوفى (ت 240هـ/854م)، ثم **كتاب الطبقات** لخليفة بن خياط (ت 241هـ/855م)، وكتاب**الثقات**،و**مشاهيرعلماءالأمصار**،لابن حيان البستي (ت354هـ/965م). ويميز هذه الحقبة أيضاً ظهور معاجم لتراجم العلماء ومشاهير الرجال الذين خرجوا من إقليم واحد، أو مدينة واحدة. والمألوف أن تكون هذه المعاجم

---

[1] محمد بن سعد بن منيع الزهري،**كتاب الطبقات الكبير**، تحقيق، علي محمد عمر، القاهرة، مكتبة الخانجي، 2001.

كبيرة وضخمة يؤلفها علماء من نفس المدينة أو الإقليم. ومن هذا القبيل معجم الخطيب البغدادي، (ت 463هـ/1071م)، **تاريخ بغداد، وتاريخ دمشق الكبير**، لابن عساكر (ت571هـ/1176م).([1])

ولقد تطور هذا الاتجاه في الكتابة التاريخية، وبلغ أوجه في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، حيث بلغ الذهبي (ت747هـ/1347م) في **تذكرة الحفاظ**، الكمال في هذا العلم. وتظهر القيمة التاريخية لعلم الرجال عموماً في مجالين؛ الأول هو التاريخ الثقافي، وكان يمثل أحد أركانه الأساسية، والثاني هو القيمة التاريخية الغنية، من حيث الخبر التاريخي الملازم للترجمة، والنقل عن مصادر قديمة لم يصل إلينا بعضها. وتتضح هذه الناحية بشكل كبير في المزاوجة التي ظهرت بين الترجمة والأحداث في كتب التاريخ العام في شكل ذكر من توفى في كل سنة، تُذَيّل بها أخبار تلك السنة بدءاً من خليفة بن خياط في كتابه **التاريخ** إلى آخر المؤلفين.([2])

وإذا ما عدنا إلى الغرب الإسلامي، نجد مؤلفات متعددة في هذا المجال، فقد كتب أبو العرب (333هـ/944م) كتاباً مهما في التراجم، وهو الموسوم ب **طبقات علماء إفريقية وتونس**،([3]) كما يعد كتاب **رياض النفوس**، لمؤلفه أبي بكر عبد الله بن محمد المالكي (ت بعد453هـ/1061م) من أحسن كتب التراجم الخاصة بشمال إفريقيا. ففضلاً عن معلوماته المفصلة عن العلماء والفقهاء والقضاة في شمال إفريقيا حتى سنة 356هـ/966م، فإنه يروي قصة الفتح العربي لهذه البلاد من سنة 21هـ/642م إلى حدود سنة85هـ/705م.([4])

أما بالنسبة للأندلس، فقد كان محمد بن حارث الخشني (ت361ه/971-972م)، أحد العلماء الأوائل الذين كتبوا في موضوع التراجم في الأندلس. فلقد صنَّف كتاباً عن **قضاة قرطبة**،([5]) البارزين. كما ألّف كتاباً آخر عن العلماء في إفريقية، يسمى **تاريخ علماء إفريقية**.([6]) ويوجد في مكتبة القصر الملكي في الرباط مخطوط يحمل رقم (6916) يعود إلى هذا المؤلف، يسمى **طبقات المحدثين**،([7]) وهو يحتوي على مئة واثنتين وثمانين ورقة، مكرسة للحديث عن مختلف المحدثين المشهورين في الأندلس، وفي ثنايا هذا الكتاب مادة

---

[1] ينظر: هاملتون كب، **علم التاريخ**، ترجمة إبراهيم خورشيد ورفاقه، مستل من دائرة المعارف الإسلامية، نشر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1981 :79-81 .

[2] ينظر: نزار عبد اللطيف الحديثي،**علم التاريخ عند العرب: فكرته وفلسفته**، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، 2001 :112-114.

[3] أبوالعرب محمد بن أحمد التميمي ، **طبقات علماء إفريقية وتونس**، تحقيق، علي الشابي ونعيم اليافي، تونس، 1968 .

[4] أبو بكر عبد الله بن محمد المالكي، **رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية**، تحقيق، بشير البكوش، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1983 :1/10-57 .

[5] نُشر كتاب **قضاة قرطبة** مع ترجمة إسبانية من قبل خوليان رايبيرا، تحت عنوان : **historia de las Fueces de Cordoba**، مدريد، 1914 .

[6] تم نشر الكتابين معاً تحت عنوان : **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية**، من قبل عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1952 .

[7] نشر هذا الكتاب بتحقيق، ماريا لويسا آبيلا ولويس مولينا، مدريد، 1992 .

قيمة تخص الاستقرار الإسلامي المبكر في شبه الجزيرة الآيبيرية.([1]) وكتب أبو الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي (ت403هـ/1012م) كتاباً آخر في التراجم بعنوان: **تاريخ علماء الأندلس**،([2]) وقام بالتذييل عليه أبو القاسم خلف بن بشكوال (ت578هـ/1182م) بكتاب اسمه : **الصلة**، ضمنه معلومات كثيرة عن تراجم العلماء في الأندلس، حتى القرن السادس للهجرة/ الثاني عشر الميلادي.([3]) ثم استتم ما فاته في كتاب لم يصل إلينا، هو كتاب " **ذيل التكملة** "، الذي ذكره ابن الأبار في "**المعجم** ". وشرع محمد بن عبد الله ابن الأبار (658هـ/1260م) بعمل ملحق أو ذيل لكتاب ابن بشكوال، أسماه : **التكملة لكتاب الصلة**،([4]) وفيه استمر بعرض تراجم العلماء الأندلسيين، إلى منتصف القرن السابع للهجرة/الثالث عشر الميلادي. أما أبو عبد الله محمد الأنصاري المراكشي (ت703هـ/1303-1304م)، فقد ذيَّل هو الأخر على كل من كتابي ابن الفرضي، وابن بشكوال، بكتاب ثالث أسماه: **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**.([5]) وأخيراً فإن هذه السلسلة من الكتب الملحقة أو المذيّلة بلغت منتهاها في القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر الميلادي، وذلك حينما قام أبو جعفر أحمد بن الزبير (ت708هـ/1308م) بتأليف كتاب جديد أطلق عليه اسم **صلة الصلة**.([6]) وختمها لسان الدين ابن الخطيب (ت 776هـ/1374م) بكتابه **عائد الصلة**.

ولم يكتف بعض علماء الغرب الإسلامي بما ألفوه في موضوع هذه السلسلة وغيرها من التراجم، فاختاروا نخباً معينة من العلماء أو الشعراء أو النحويين أو المقرئين، للتأليف عنهم، منهم على سبيل المثال لا الحصر، ما ألفه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (ت379هـ/989م) في **طبقات النحويين واللغويين**،([7]) و**طبقات الأمم**، للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الأندلسي (ت462هـ/1070م)،([8]) كما كتب أبو يعقوب يوسف بن

---

[1] ينظر: عبد الواحد ذنون طه، **الفتح والإستقرار العربي الإسلامي في شمال إفريقيا والأندلس**، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004 : 34-35 .

[2] نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة، 1966 .

[3] نشر الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، 1966 .

[4] نشر بجزأين باعتناء عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1955-1956 . ونشرت قطعة أخرى باعتناء الأركون وكونثاليث بالنثيا:

. Alarcon.M,Y Palencia C.A.G: **Apendice a al edicion Codera de la Tecmila de Aben al- Abbar en Miscelanea de Estudios Y Textos Arabes** , Madrid,1915.

[5] نشر الجزء الأول من هذا الكتاب بقسميه في بيروت، بتحقيق، محمد بن شريفة. وحقق إحسان عباس أقساماً من الجزء الرابع والخامس والسادس، ونشرها في بيروت، سنة 1973،1965،1964 . ونشر السفر الثامن بقسميه الأول والثاني، محمد بن شريفة، الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 1984 .

[6] نشره ليفي بروفنسال، الجزائر، 1937.

[7] حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، دار المعارف، 1973 .

[8] تحقيق حياة العيد بو علوان، بيروت،دار الطليعة، 1985 .

يحيى التادلي المعروف بابن الزيات (617هـ/1220م) مصنفاً عن رجال التصوف في المغرب بعنوان: **التشوف إلى رجال التصوف**،([1]) وألف أبو العباس أحمد بن سعيد بن سليمان الدرجيني في النصف الثاني من القرن السابع للهجرة/الثالث عشر الميلادي، كتاباً عن طبقات علماء الأباضيين المشهورين، بعنوان: **كتاب طبقات المشايخ بالمغرب**،([2]) كذلك هناك كتاباً عن **طبقات المقرئين**، لأبي عبد الله محمد بن عبد السلام الفاسي الفهري،([3]) وآخر عن **طبقات علماء سوس**، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي الجزولي.([4])

ويهم في هذا المجال إسهامات مؤرخنا الأديب والشاعر والمحدث أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار، الذي تدور هذه المداخلة حول منظوره في دراسة النخب الإسلامية في أحد كتبه المشهورة. ففضلاً عن جهوده في سلسلة التراجم الأندلسية المشار إليها آنفاً، فقد كتب مصنفات أخرى في معاجم الرجال، جعلته يُعد من أشهر مصنفي معاجم الرجال الذين أنجبتهم الأندلس. تحدث فيها عن نخبٍ مختارة من المجتمع الأندلسي. ولكن الذي يُميِّز مصنفه **الحلة السيراء**، الذي تم اختيارنا له ليكون أنموذجاً لدراسة النخب الإسلامية، أنه ضمّ نخباً من الشعراء النابهين بالمغرب والمشرق من الأمراء والوزراء والكتّاب والأعيان والعلماء، في حقبة زمنية تمتد من المئة الهجرية الأولى، إلى النصف الأول من المئة السابعة.([5]) فضلاً عن ذلك، فهو يُعد مصدراً هاماً للتاريخ الاجتماعي،لأنه يوفر الكثير من المعلومات التي لا نجدها في المصادر الإخبارية العادية، لاسيما تلك التي تركز على البلاط والسلطان والأحداث السياسية فقط.

ولابد في البداية من التعريف بهذا العالم الموسوعي، فأصله من مدينة أندة موطن بني قضاعة بالأندلس. ولد في مدينة بلنسية Valencia سنة 595هـ/1199م.([6]) ومعلوماتنا قليلة عن أسرته، ونشأته الأولى، باستثناء ما أشار إليه في ترجمة والده في **كتاب التكملة**، الذي كان من بيت علم ودين

---

[1] تحقيق، أحمد التوفيق، ط2، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الرباط، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 2010 .

[2] تحقيق، إبراهيم طلاي، قسنطينة، مطبعة البعث (د.ت) .

[3] ينظر: عبد السلام بن عبد القادر ابن سودة، **دليل مؤرخ المغرب الأقصى**، ط2، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1960 : 267/1 .

[4] **المرجع نفسه** : 266/1 .

[5] ينظر: عبد القادر بوباية، **المؤنس في مصادر تاريخ المغرب والأندلس**، الجزائر، دار كوكب للعلوم، 2008 : 133 .

[6] شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق، مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، 2005 : حوادث ووفيات 651-700هـ ، المجلد 14/ 176-177؛ محمد بن شاكر الكتبي، **فوات الوفيات**، تحقيق، إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1973-1974 :404/3.

وعفاف. وقد أجاز لهذا الوالد الكثيرون من شيوخ عصره، رواية كتبهم ومروياتهم. وكان ذا مكانة مرموقة عند أهل بلنسية مُعَدَّلاً عند حكامها.([1])، وقد أثر هذا الجو العلمي كثيراً في ابن الأبار، الذي عكف منذ صغره على الدرس والتحصيل، وطلب مختلف ألوان المعرفة، الأمر الذي أهَّله فيما بعد لتولي ما يطمح إليه من مناصب رفيعة، فقرأ القرآن الكريم على والده بقراءة نافع، وسمع منه أخباراً وأشعاراً، وتناول جميع كتبه، وشاركه في أكثر مروياته. وتتلمذ فضلاً عن والده على عدد كبير من الشيوخ في علوم القرآن الكريم، والقراءآت، والفقه، والحديث، والمسائل، وعقد الشروط، والأخبار، والتاريخ، والنحو، والأدب.([2])

تنقل ابن الأبار في مدن الأندلس المختلفة، تحصيلاً للعلم، أو طلباً للوظائف، فتولى قضاء دانية (Denia)، ولكن أهم وظائفه الإدارية كانت في بلنسية، حيث تولى خطة الكتابة لحاكمها الموحدي السيد أبي عبد الله بن أبي حفص، ثم لابنه السيد أبي زيد. كما عمل كاتباً لأبي جميل زيّان ابن مردنيش في بلنسية أيضاً. ([3]) وترأس سفارة إلى سلطان تونس، أبي زكرياء يحيى الأول الحفصي،(625-647هـ/1228-1249م) يستغيثه من ازدياد خطر النصارى على بلنسية، وقد ألقى أمام السلطان قصيدته السينية المشهورة، التي مطلعها:

أدرك بخيلك، خيل الله، أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درســـا

ولقد دفع استفحال الخطر النصراني على شرق الأندلس ابن الأبار للتفكير في الهجرة إلى إفريقية، حيث ربطته بسلطانها الحفصي علاقة طيبة منذ سفارته إليها، فتوجه إلى بجاية أولاً ، ثم استدعاه أبو زكرياء الحفصي لكتابة الإنشاء والعلامة في صدر رسائله.([4]) ولكن الأمور لم تستقم لابن الأبار في إفريقية بسبب الصراع بين المهاجرين الأندلسيين وشيوخ تونس، الذين نقموا على ابن الأبار لتوليه الوظائف العالية، فشوهوا صورته أمام السلطان أبي زكرياء وابنه المستنصر من بعده. وقد ساعدت صفات ابن الأبار أعداءه للنيل منه، فقد تميز بشدة الاعتداد بنفسه، وببلده الأندلس، فضلاً عن ضيق الخُلُق، والأنفة، والكبرياء، وهذه كما يقول ابن سعيد، **"أخلاق لا**

[1] ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر، عزت العطار الحسيني، القاهرة، 1955-1956: 888/2-891 .

[2] ينظر: أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني، **عنوان الدراية فيمن عُرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق، عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، 1979: 309-311 ؛ عبد العزيز عبد المجيد، **ابن الأبار: حياته وكتبه**، تطوان، 1954: 103-139 .

[3] عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت، 1968 : 253/6 ؛ أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق، إحسان عباس،بيروت، 1968 : 590/2 ؛ أحمد بن محمد المقري، **أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض**، المحمدية، 1980 : 205/3 .

[4] ابن خلدون، **العبر** : 253/6 ؛ المقري، **أزهار** : 205/3 .

تعين على الوفاء بأسباب الخدمة".([1]) وقد أدت تلك الوشايات إلى غضب المستنصر عليه، فأمر بقتله في العشرين من محرم سنة 658هـ/يناير-كانون الثاني1260م.([2])

ألف ابن الأبار نحو 45 كتاباً، فقد معظمها باستثناء ثمانية، وهي تندرج جميعاً ضمن موضوعات مختلفة كالحديث، والأدب، والشعر، والتاريخ والتراجم. وهو في كتبه التاريخية متزن يعتمد على وثائق ذات قيمة عالية. وأسلوبه في هذه المؤلفات أسلوب علمي رفيع ، مع المحافظة على السهولة و الوضوح. ويتمثل أسلوبه الأدبي في رسائله الإخوانية، وفي بعض كتبه مثل **" درر السمط في خبر السبط"،** و**"مرائي الحسين".**([3])

ولم يصل إلينا شيء من كتبه في الحديث. وربما كان أهم مؤلفاته في هذا المجال كتاب**" المأخذ الصالح في حديث معاوية بن صالح"** الذي ذكره في كتابه **المعجم**.([4]) أما كتبه في الأدب فلم يبق منها إلا **" مقتضب تحفة القادم"،** الذي عمله إبراهيم بن محمد البلفيقي، و**" درر السمط"،** ورسائل وأشعار كثيرة أورد بعضها من أرخ له، لا سيما الغبريني والمقري، فضلاً عن **" ديوانه"** الذي حقق ونشر حديثاً. وهذه المؤلفات تدل على ثقافة ابن الأبار الموسوعية، فضلاً عن كونه أحد كبار شعراء المغرب والأندلس.([5])

ولكن نبوغ ابن الأبار الحقيقي يتجلى بشكل أوضح في ميدان التاريخ والتراجم، لا سيما في **"الحلة السيراء"،** التي يرى المستشرق الإسباني بوينس بويجس،([6]) أنها غرة كتبه دون جدال. فهو تراجم غاية في الفائدة لعدد لعدد من الشخصيات التاريخية في المشرق والمغرب والأندلس، الذين عرفوا بقرض الشعر من القرن الأول إلى منتصف السابع الهجري. ويبدو ابن الأبار في الكتاب متمكناً غزير المادة، ناقداً يقظاً، يرتفع بأسلوبه إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية.([7]) ويرجع الفضل في اكتشاف القيمة التاريخية والأدبية لهذا الكتاب، إلى المستشرق الهولندي رينهارت دوزي، الذي نشر بين عامي 1847-1851م، فصولاً مستخلصة منه، تتعلق بالتاريخ

---

[1] ابن سعيد المغربي، **اختصار القدح المعلى في التاريخ المحلى،** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن خليل، تحقيق، إبراهيم الأبياري، ط2، بيروت، 1980 .

[2] ابن خلدون، **العبر** : 654/6 ؛ الكتبي، **فوات الوفيات**: 405/3 ؛ أبو محمد عبد الله بن أسعد اليافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان،** ط2، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1970 :150/4 .

[3] ينظر: عبد الواحد ذنون طه، **ابن الأبار المؤرخ الأندلسي،** منشور ضمن كتاب: **مصادر في تاريخ المغرب والأندلس،** بيروت، دار المدار الإسلامي، 2011 :159 – 165

[4] ابن الأبار، **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي،** القاهرة 1967.

[5] طه، **المرجع السابق** : 161 .

[6] Pons Boigues. F,Los Historiadores Y Geografos Arabigo-Arabigo-EspanolesAmsterdam,1972,reprintof Madrid edition,1898:294-295.

[7] حسين، مؤنس في مقدمته لتحقيق: **الحلة السيراء،** القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،1963: 53/1 .

السياسي والأدبي للمسلمين في شبه الجزيرة الآيبيرية.([1]) وقصد ابن الأبار في كتاب " **التكملة لكتاب الصلة**"، كما أسلفنا، استتمام ما بدأ به ابن الفرضي لمعجمه " **تاريخ علماء الأندلس**" ، الذي ذيّله ابن بشكوال بكتابه " **الصلة**"، ، ثم أكمل ابن الأبار العمل، ليكون خاتمة لكتب التراجم الأندلسية حتى عصره. ويعد كتاب " **المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي**" من أكمل الكتب الأندلسية التي وصلت إلينا من هذا النوع فقد أكمل فيه ابن الأبار عمل القاضي عياض (ت554هـ / 1149م)، الذي ألف معجماً في شيوخ أستاذه أبي علي الصدفي (ت 514هـ/م1120). فتناول ابن الأبار ، تلاميذ هذا الشيخ ومعاصريه ممن تبادل العلم معهم، وعددهم 315 رجلاً، فترجم لهم، وذكر نبذاً عنهم فاتت عياضاً في معجمه. ويتميز الكتاب بالدقة في رسم الأسماء ، وتواريخ الميلاد ، وتعداد الشيوخ. ومن كتب ابن الأبار الأخرى التي وصلت إلينا " **أعتاب الكتاب**"، الذي ألفه للسلطان أبي زكرياء، وقد احتوى على أخبار وتراجم لكتّاب من المشرق والمغرب والأندلس، وهو مصدر تأريخي مهم.([2])

وإذا ما عدنا إلى كتاب **الحلة السيراء**، الذي هو دون شك أحسن كتب ابن الأبار وأعظمها فائدة، بل هو كما يقول محققه حسين مؤنس،([3]) **"من عيون ما ألف أهل الأندلس قاطبة ومن المراجع التي لا يستغني عنها من يؤرخ له أو يكتب في أي ناحية من نواحي الحياة فيه"**. وقد اختار له ابن الأبار عنواناً جميلاً نادر الاستعمال، لكنه ينطبق على محتواه. فلفظ **"السيِّراء"**، حسب ما جاء في **لسان العرب**،([4]) يعني الحُلَّة التي تمتاز بخطوط مسَّيرة من الحرير وقد تكون هذه الخطوط صفراء فتشبه الذهب. وهذا المعنى كناية عن مادة الكتاب، وما فيه من عيون الشعر، الذي بمجمله جيد، الأمر الذي يشير إلى ملكة ابن الأبار كناقد للشعر، عارف بالجيد منه وغير الجيد. ولكن الكتاب لايقتصر على الشعر بل يتميز أيضاً بنثره الذي يأتي في سياق تراجم في غاية الفائدة لعدد كبير من الشخصيات التاريخية في المغرب والأندلس من القرن الأول للهجرة إلى منتصف القرن السابع، مع مادة تاريخية لابأس بها عن أعلام مشارقة من أهل القرن الأول للهجرة، ساهموا في فتوح المغرب والأندلس. ومادة التراجم كلها تقريباً متعادلة من حيث القيمة والأصالة والغزارة، وابن الأبار ليس غزير المادة حسب، بل ناقداً يقظاً لا يمر بخطأ في تاريخ أو اسم إلاّ استدرك عليه. وتبدو منه ملاحظات هنا وهناك تدل على أنه كان بالفعل من أعلم الناس بتاريخ المسلمين السياسي والأدبي. وقد جاء أسلوبه في الكتاب قويماً رصيناً بليغاً

---

[1] عبد الرحمن بدوي، **موسوعة المستشرقين**، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1993 : 261 .

[2] طه، **المرجع السابق** : 162 .

[3] **الحلة السيراء**، مقدمة التحقيق :51/1 .

[4] ينظر: محمد بن مكرم الأنصاري المعروف بابن منظور، **لسان العرب**، القاهرة، دار الحديث، 2003 : م4 /772-773 ، مادة (سير).

يرتفع إلى أحسن مستويات الأساليب العربية الصافية، لاسيما بعد أن تخلى عن السجع بعد فراغه من فاتحة الكتاب([1]).

ونسخة **الحلة السيراء** التي اعتمدها حسين مؤنس في التحقيق، هي الوحيدة لمخطوط هذا الكتاب، المحفوظة في مكتبة دير الإسكوريال El-Escorial برقم (1654). وقد اطلع عليها كاتب هذا البحث سنة 1976 ، وهي تنقص ورقتين أو ثلاث، فيها خطبة الكتاب وشيء من فاتحته، ونماذج من شعر أمراء بني حفص. وفي بداية المخطوط هناك ثلاث ورقات أضيفت إليه خطأً تعود للمؤرخ الأندلسي أحمد بن سعيد بن أبي الفياض المعروف بابن الفشاء ت459هـ([2]) ونسخة **الحلة** هذه نسخة جميلة مكتوبة بخط مغربي واضح، ولولا خرماً صغيراً في أولها، وبعض ثغرات قليلة الأهمية في سياق النص، لكانت من أكمل ما وصل إلينا من مخطوطات.([3]) وقد بدأ ابن الأبار في فاتحة كتابه، بالحديث عن شعر للسلطان أبي زكرياء يحيى وولي عهده، وكانا يقرضان الشعر بين الحين والحين. وقد صنَّفه ابن الأبار، تمجيداً لشاعرية السلطان وابنه، وتدليلاً على أن قول الشعر هو من خصال النخب، وكبار السلاطين والخلفاء والأمراء. ولهذا فالكتاب يعّد نمطاً من التأليف يعمد إلى التعريف بمن لهم أشعار من الأمراء والوزراء والكتّاب، وأصحاب الجاه والعلماء، ويبين كيف أن فئات مختلفة من مجتمع الغرب الإسلامي، أولت الشعر اهتمامها.

ولكن ابن الأبار لم يكتف ببيان شعر وشاعرية الذين ترجم لهم، بل سلّط الضوء على جانب مهم من جوانب التكوين الثقافي للأمراء والوزراء والكتَّاب ، وغيرهم ممن تناولهم بالتعريف في **الحلَّة السيراء**.، والأمر الذي يجلب الانتباه في عمل ابن الأبار، أنه تجاوز التوجه المحلي في الكتابة، عن منطقة جغرافية معينة، فعرَّف بشخصيات متعددة من الأندلس والمغرب، والمشرق الإسلامي على حد سواء، وإن كان تركيزه بالدرجة الأولى قد انصرف إلى الأندلسيين والمغاربة. كما أنه وهو يترجم للمشارقة ، اختار منهم بعض الصحابة، وأبنائهم، ممن كان لهم دور في الفتوح الإسلامية في شمال إفريقية والأندلس. ويوضح ابن الأبار هذه المعلومة في مقدمته للكتاب بالقول: **" ... قصرته على ملوك إفريقية وبلاد المغرب المضافة إليها، وقدمت القادمين في المائة الأولى من السلف عليها، لأنها من أوائل فتوح الإسلام، ثم من منازل بدر التمام مولانا الخليفة الإمام أدام الله لهم نصر الألوية والأعلام. "**.([4])

---

[1] مؤنس، مقدمة **الحلة السيراء**: 53 .

[2] تمت دراستها وتحقيقها من قبل كاتب هذا البحث، ينظر: عبد الواحد ذنون طه، **" نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض"، مجلة المجمع العلمي العراقي**، ج1، م34 ، بغداد، 1983 ، وأعيد نشره ضمن كتاب **دراسات في التاريخ الأندلسي**، بيروت، 2004: 125-158 .

[3] مقدمة مؤنس، **الحلة السيراء** : 55 .

[4] ابن الأبار، **الحلة السيراء**: 11/1 .

تناول ابن الأبار النخب التي ترجم لها حسب القرون الهجرية، ابتداءً من القرن الأول إلى القرن السابع. وخص كل قرن بعنوان حسب الترتيب الزمني، على الشكل التالي: **" المائة الأولى "، "المائة الثانية"، "المائة الثالثة "، "المائة الرابعة "، " المائة الخامسة "، "المائة السادسة "، والمائة السابعة". وفي هذا يقول في مقدمته للكتاب: " وأبرزتُه مَسوُقاً على الحِقَب، منسوقاً بحسب الرُّتَب؛ أعيِّن للصدور صدرَ كل مائة، وأبيِّن من تميَّز في جماعة أو تحيَّز إلى فئة ليستوفي المتأدبين، حتى من المتوثبين ".**([1]) وقد اختلف عدد المترجم لهم في كل قرن، فنجد أنه في القرن الأول قد اكتفى بستة تراجم فقط، تناول فيها الحديث عن كل من عمرو بن العاص، وابنه عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وعبد الملك بن مروان. ويجمع هؤلاء كلهم أنهم غزوا إفريقية، أو دخلوها، وأورد لهم أشعاراً، ربما يكون بعضها منسوباً أو منحولاً. وقد أدرك ابن الأبار ذلك، فحاول أن يتبرأ من عهدته إليهم، بقوله : **" والذي أوردته من أبيات فمنقول عن إثبات، ومجموع من تصنيفات أشتات، وما كان مقولاً عليهم ومنحولاً إليهم، فأنا بريء من عهدته".**([2])

وتحدث في القرن الثاني للهجرة عن أربع وثلاثين شخصية، مبتدأً بأبي جعفر المنصور عبد الله بن محمد، الخليفة الثاني العباسي، ومن بعده عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، المعروف بالداخل. ثم توالت التراجم لأمراء وشخصيات مختلفة لاسيما من الأندلس، التي ابتدأ بالحديث عن نخبها في هذا القرن، معللاً ذلك بقوله : **" وفي المائة الثانية صارت الأندلس دار إيمان، فواليتُ ذكر ولاتها من ذلك الزمان، ليوقَفَ على جلالة شأنهم، ويُعرف تمكن محلهم من البلاغة ومكانهم، وذكرتُ أبناءهم، واختصرت أنباءهم، هرباً من التطويل، ورهباً للتثقيل ".**([3]) وهنا يشير ابن الأبار إلى منهجه في تناول الشخصيات ليس بالنسبة إلى رجال الأندلس حسب، بل لكل النخب التي تناولها، ولكنه يستدرك فيضع استثناءً لذلك في حالات تتطلب الإسهاب، فيقول: **" إلا نُكتاً لها بانتخابها أحسن المواقع، وعيوناً هي باقتضابها أجْوَلُ في المحافل وأوْلَجُ في المسامع. وربما عرض ما يدعو إلى البسْط فانتقض حُكم هذا الشرط، ولا غرو أن أواقع المحذور، فللكلام اضطرار يبيح المحظور ".**([4])

وتناول من رجال القرن الثالث للهجرة خمسة وثلاثين ترجمة، مبتدأً برابع أمراء بني أمية في الأندلس، عبد الرحمن الثاني ابن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، ومنتهياً بأبي عبد الله الشيعي ، داعية عبيد الله المهدي. وتضم هذه القائمة أيضاً أمراء ووزراء، وشخصيات بارزة من الأندلس

---

[1] **المصدر نفسه** : 11/1 .
[2] **المصدر نفسه** :32/1 .
[3] **المصدر نفسه** : 11/1 .
[4] **المصدر نفسه** : 11/1 .

والمغرب، منهم سبعة من أمراء الدولة الأغلبية. وقد خصص ابن الأبار القرن الرابع للتعريف بستة وثلاثين من النخب البارزة، ويأتي في مقدمتهم الخليفة الأندلسي عبد الرحمن بن محمد الناصر لدين الله، وابنه الحكم الثاني المستنصر بالله، وأمراء ووزراء متعددين من الأندلس، فضلاً عن اثنين من الخلفاء الفاطميين، وهما محمد القائم أبو القاسم بن المهدي عبيد الله، وتميم بن معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله، الذي اعتبره ابن الأبار **"شاعر أهل بيت العبيديين غير منازَع ولا مدافَع، وكان فيهم كابن المعتز في بني العباس غزارة علوم ومَعَانة أدب، وحسن تشبيه وإبداع تخييل ..."**.([1]) وختم هذا القرن بالترجمة لثلاثة من رجال الدولة العبيدية.

وترجم في **" المائة الخامسة "**، لثمان وعشرين من الحكّام والأمراء، غالبيتهم من ملوك الطوائف، أو كما أسماهم **،" أمراء الفتنة "**،([2]) أمثال أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله، رئيس قرطبة، ومحمد بن إسماعيل بن عباد اللخمي، وابنه عباد بن محمد المعتضد بالله، وحفيده محمد بن عباد المعتمد على الله، حكام اشبيلية، ومحمد بن معن بن صمادح التجيبي، حاكم المرية، والمتوكل عمر بن المظفر بن المنصور، من بني الأفطس، حاكم بطليوس، وإدريس بن يحيى العلوي الحمودي، الذي أعلن خلافته في مدينة مالقة. كما ترجم ابن الأبار لأحد أمراء إفريقية، وهو تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بُلقين. وختم تراجم نخب هذا القرن بشخصية الأديب والوزير أبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري.

أما تراجم **" المائة السادسة "**، فبلغت تسعة عشر ترجمة ، استمر فيها بعرض تراجم شخصيات هذا القرن من الأمراء والكتّاب، مبتدأً بأمير إفريقية يحيى بن تميم بن المعز الصنهاجي، ثم بقية الأمراء في الأندلس، لاسيما الذين كان لهم دور بارز في أحداث هذا القرن، أمثال أحمد بن الحسين بن قسي، وأحمد بن يوسف بن هود الجذامي، والوزير أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد الوقشي.

وفي **" المائة السابعة "**، أورد اثنتا عشرة ترجمة، خصصها لشخصيات متعددة، منها بعض الأمراء الحفصيين. ونلاحظ أن ابن الأبار لايخفي ميوله إلى هذه الأسرة، لاسيما وأنه، وكما أسلفنا، قد صنَّف هذا الكتاب تمجيداً لشاعرية السلطان الحفصي أبي زكرياء، وابنه، ولهذا فقد ابتدأ حديثه بالقول: **" نبدأ بالذين يُبدأ بهم الذكر الجميل أو يُختم، ومن منثور حِكمهم ومنظومها يُنثر في أوصافهم ويُنظم، أهل البيت المبارك الحفصي، المستولي بأدنى السعي على الأمد القَصِيّ، بيت الخلافة السعيدة، والإمارة التليدة، ذاتِ المحاتد الظاهرة، والمحامد المتظاهرة، لازالت مِنحُها صوراً مجلوة، ومدحها سوراً متلوة، فأوَّلهم وأولاهم بالتقديم للاشتراك في شرف**

---

[1] **المصدر نفسه** : 291/1 .
[2] **المصدر نفسه** :30/2 .

الأبوة، والإنفراد بكرم الأخوة : أبو زيد عبد الرحمن بن الشيخ المجاهد المقدَّس أبي محمد ..."،([1]) أمير إفريقية التي وليها سنة 618هـ/1221م، ثم أردف هذه الترجمة بترجمتين أخريتين، لكل من أبي زيد عبد الرحمن بن الشيخ المكرّم أبي موسى، وأخيه أبو علي عمر. وفي نهاية هذه الترجمة يختم بالقول:**" وهؤلاء خاتمة الشعراء والأمراء وأبنائهم، على الشرط الذي لا يسوغ معنى التزامه لفظ أسمائهم"**.([2])

ثم يعتذر عن إيراد تراجم لنخب من رجال الأندلس في هذا القرن، بسبب سيطرة النصارى على معظم أجزائها، نتيجة الفتنة المبيرة وعدم توحد كلمة المسلمين، الذين أصبح غاية اهتمامهم هو ترك ديارهم والهجرة نحو العدوة المغربية. ولنقرأ ما كتبه ابن الأبار، بأسلوبه المعبر عن حالة الأندلس المأساوية في ذلك الحين : **" ولو نُسئت بالأندلس إيالةُ الإسلام لنَسَّقت على العادة محاسن الكلام. ولكن في هذه المائة الأخيرة، أدرك مرامهم الروم في الجزيرة، واستحكمت إبارتُهم لها بحكم الفتنة المبيرة، حتى ملكوها وجزائرَها بين الصلح والعنوة، وغايةُ أهلها إلى هذه الغاية أن يتساقطوا على العدْوَة، وكل منهم مفلت بجُرَيْعَة الذقن ومسلم لعدوه الكافر محبوب الوطن. كم تركوا من جنَّاتٍ يدوسون غلالها، وديارٍ يجوسون خلالَها، وعيونٍ يُفجِّر تغويرُها دماً، وزروعٍ ما عدا وُجودُها أن عاد عَدَماً، ثم لا انتصارَ بغير العبرات، ولا اقتصارَ إلا على الزفرات والحسرات، ولم يبق الآن إلا اشبيلية، أمُّ القواعد والمدائن، ومَأمُّ الركائب والسَّفائن، وقد أشْفَت على الذهاب، واستوفت على الخراب..."**.([3])

وبعد أن أكمل الحديث عن تراجم النخب التي اشتهرت بقول الشعر، والتي بلغ عددها مئة وسبعين ترجمة، التفت للكلام عن شخصيات أخرى، لم يعثر لهم على شعر، ويشير في مقدمة كتابه إلى هذا منوهاً أنه استبعد الذين لم يحظوا برضا الدولة الحفصية، فقال: **" والذين ما عثرت على أشعارهم، أفردت باباً لأخبارهم، ولم أعرض لمن أعْرَضَت عنهم الدولة الحفصية بالخُلْعان، وانتزعت ما كان بأيديهم تراثاً لها من الملك والسلطان "**.([4]) وقد أفرد لهذه الشخصيات الجديدة باباً بعنوان: **" باب في الذين ما عثرت على أشعارهم فاقتصرت على نكت من أخبارهم "**.([5])

ويعرض ابن الأبار في هذا الباب لشخصيات عاشت في القرون الهجرية الأربعة الأولى. ففي **المائة الأولى** ترجم لعشرة من الصحابة والتابعين، وهم بقية من اشترك في فتوح المغرب، ممن لم يؤثر عنهم الشعر، مبتدأً بعبد الله بن سعد بن أبي سرح، ومنتهياً بوالي إفريقية إسماعيل بن عبيد الله بن أبي

---

[1] **المصدر نفسه** : 279/2-280 .
[2] **المصدر نفسه** : 292/2 .
[3] **المصدر نفسه** : 292/2 .
[4] **المصدر نفسه** : 11/1 .
[5] **المصدر نفسه** : 321/2 .

المهاجر. وفي **المائة الثانية**، ترجم لخمسة عشر شخصية سياسية وأدبية، منها عشرة خاصة بالمغرب، وخمسة من الأندلس، ختمها بترجمة فُطَيْس بن سليمان الكاتب قائلاً: **" وفُطَيْس هذا خاتمة الذين أبقيت في هذه المائة على ما شرطت، ولم أذكر فيها إلاّ من كان بالشعر مذكوراً، أو على فن من فنون الأدب مقصوراً، وكذلك فيما بعد "**.([1]) واستمر في **المائة الثالثة** في عرض تسعة عشر ترجمة، أربعة عشر منها عن أمراء من الأسرة الأموية بالأندلس، وبعض موالي هذه الأسرة. ثم ترجم لأحد أمراء الأغالبة، وهو أحمد بن أبي الأغلب، وأعقبه بترجمة أربعة من رجال هذه الدولة، أولهم فاتح صقلية، القاضي أسد بن الفرات. واكتفى في **المائة الرابعة** بترجمتين فقط، خصصهما لإثنين من حكام الدولة الفاطمية، وهما : إسماعيل المنصور بن القائم بن المهدي، وابنه المعز لدين الله ، أبو تميم معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيد الله.

ومجموع تراجم هذا الباب يبلغ ست وأربعين ترجمة، وبهذا يكون المجموع الكلي للنخب التي عرضها ابن الأبار هو مئتين وستة عشر . وتراجم هذه المجموعة الأخيرة يغلب عليها بشكل عام الاختصار فهي لا تزيد في الجزء المطبوع من الكتاب عن اثنتين وسبعين صفحة، خص بعضهم بما لايزيد عن سطرين فقط، أمثال عبد الله بن سعد بن أبي سرح،([2]) ومحمد بن يزيد مولى قريش،([3]) ومحمد بن يزيد القرشي،([4]). وغالبة هذه التراجم ، لاسيما من دخل إفريقية من أمراء الصحابة، هي عبارة عن فقرات منقولة عن كتاب **فتوح مصر والمغرب والأندلس**، لعبد الرحمن بن عبد الحكم.

وإذا ما عُدنا إلى النخب الأساسية الأولى التي ركَّز عليها ابن الأبار، نجد أن هناك تبايناً في حجم التراجم، فقد خص يحيى بن الفضل بن النعمان التميمي بسطرين، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر،([5]) كما اختص على سبيل المثال لا الحصر،كلاً من مروان بن الحكم،([6]) ويعقوب بن المضاء بن بن سوادة بن سفيان بن سالم بن عقال التميمي،([7]) بصفحة واحدة فقط، والأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل بصفحتين.([8]) في حين أسهب في تراجم أخرى، مخالفاً شرطه الذي وضعه في مقدمة كتابه بالتزام الاختصار، فخص حاكم اشبيلية عباد بن محمد المعتضد بالله بأربعة عشر صفحة،([9])

---

[1] **المصدر نفسه** : 365/2 .
[2] **المصدر نفسه** :321/2 .
[3] **المصدر نفسه** : 335/2
[4] **المصدر نفسه** : 336/2
[5] **المصدر نفسه** : 101/1 .
[6] **المصدر نفسه** : 28/1 .
[7] **المصدر نفسه** : 182/1 .
[8] **المصدر نفسه** :43-42/1 .
[9] **المصدر نفسه** : 52-39/2 .

وابنه محمد بن عباد المعتمد على الله بستة عشر صفحة،([1]) والشاعر والوزير في دولة بني عباد محمد بن عمار بن الحسين بخمسة وثلاثين صفحة.([2]) وقد سبق لابن الأبار، وكما أسلفنا، أن برر هذا الإسهاب بقوله " **وربما عرض ما يدعو إلى البسْط فانتقض حُكم هذا الشرط، فلا غرو أن أواقع المحذور، فللكلام اضطرار يُبيح المحظور** ".([3])

ومن مزايا منهج ابن الأبار في تناوله للنخب الإسلامية التي تحدث عنها، أنه كان يتحرى الدقة، ويتجنب التطرق إلى الأمور الحساسة التي قد تثير مشاعر المسلمين، مثال ذلك إشارته إلى أنه **تَرَكَ ذِكر رجز** قاله مروان بن الحكم حين وصول رأس الحسين بن علي رضي الله عنهما إلى دمشق.([4]) وكان لايقبل بالروايات، التي يوردها من مختلف الموارد، كما هي، بل يرجح أحياناً بعض الروايات على غيرها، فقد أيَّد رواية ابن عبد البر في صحة عدم مشاركة عبد الله بن عمرو بن العاص في القتال في معركة صفين،([5]) ونبه إلى غلط القائل بدخول إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب في خلافة أبي جعفر المنصور، وأكد أن دخوله كان في خلافة الهادي العباسي.([6]) كذلك نفى ما يقال عن عدم نسبة القصيدة الشعرية المشهورة لعبد الرحمن الداخل، والتي مطلعها:

تَبَدْت لنا وَسْطَ الرُّصافَةِ نَخْلَةٌ   تناءتْ بأرض الغرب عن بلدِ النَخْلِ

بقوله: " **ومما يرد هذا القول ويقوي نسبتها لعبد الرحمن بن معاوية، ما حكى الحافظ أبو القاسم بن خلف بن عبد الملك بن بشكوال في تاريخه، وقرأته على القاضي أبي الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي بمدينة بلنسية عنه قراءة عليه بقرطبة قال...**"،([7]) ثم يورد رواية ابن بشكوال التي التي أوردها في ترجمة سعيد بن عثمان بن أبي سعيد، وفيها ما يؤيد أن عبد الرحمن بن معاوية أول من اتخذ البستان الذي توالدت فيه من هذه النخلة كل نخلة بالأندلس، وهو القائل للشعر المذكور،([8]) الأمر الذي يشير إلى محاولة ابن الأبار لتعزيز صحة ما أورده بالاستناد إلى سماعه لكتب معروفة بقيمتها العلمية في الأندلس.

وضمن هذا السياق أيضاً نسوق أمثلة أخرى على استدراكه لأخطاء كتاب وأدباء سبقوه في إيراد معلومات أو نسبة أشعار إلى غير قائليها

---

[1] **المصدر نفسه** : 52/2-68 .

[2] **المصدر نفسه** :131/2-165 .

[3] **المصدر نفسه** : 11/1 .

[4] **المصدر نفسه** :29/1 .

[5] **المصدر نفسه** :19/1-20 ؛ وينظر: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري، **كتاب الاستيعاب في أسماء الأصحاب**، طبع بهامش **كتاب الإصابة في معرفة الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، الطبعة الأولى ، مصر، دار العلوم الحديثة، 1328هـ :348/2-349 .

[6] **الحلة السيراء** : 51/1 ، 55 .

[7] **المصدر نفسه** : 38/1 .

[8] ينظر **كتاب الصلة** :208/1-209 .

الحقيقيين. فهو يشير إلى بيتين من الشعر قالهما الأمير محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر:

ألسنا بني مروان كيف تبدلتْ   بنا الحالُ أو دارت علينا الدوائـر؟
إذا وُلد المولودُ منا تهللــتْ   له الأرضُ واهتزت إليــه المنائـرُ

ولكن أبا منصور الثعالبي نسب هذا الشعر خطأً إلى الخليفة الحكم المستنصر، وزعم أن ذلك من قصيدة أرسلها مفتخراً إلى صاحب مصر. ويعلق ابن الأبار على خطأ الثعالبي قائلاً: **" وهذا من أغلاط أبي منصور وأوهامه الفاحشة: حكى - لبعد مكانه – ما لم يحقق، وروى عمن لا علم له بشأنه ما لم يضبط ...".**([1]) ومن أوضح الأمثلة على تدقيق ابن الأبار، وقدرته على استدراك الأخطاء، ما ساقه عن نسبة أبي نصر الفتح بن خاقان لأبيات من الشعر إلى أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور رئيس قرطبة، **" غلطاً منه ووهماً لا خفاء له، إنما هي لجده جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة ".** ويضيف ابن الأبار، بأن ابن خاقان **" أعقب غلطه بغلط آخر أفحش منه "**، فأورد أبياتاً لأحمد بن فرج الجياني صاحب **كتاب الحدائق** المتوفى سنة 366هـ/976م، يرثي فيها جهور بن عبيد الله، وهذا لايجوز، لأن الأخير وُلد قبل سنتين من وفاة ابن فرج، فكيف يلتقيان؟. وهذا الخطأ يعود في رأيه إلى عدم المبالاة وقلة التأكد، فيقول: **" وعدم المبالاة بضبط المواليد والوفيات كثيراً ما يوجد الزلل ".**([2])

وفضلاً عن المعلومات الشخصية للنخب التي ترجم لها ابن الأبار، يمكن الإفادة من كتابه بالإطلاع على الكثير من الأحداث والمعلومات التاريخية التي يوردها ضمن بعض التراجم، لاسيما تفاصيل الفتح العربي الإسلامي لشمال إفريقيا والأندلس، ومفاصل مهمة من تاريخ الغرب الإسلامي، وإيراده لمعلومات قد لا تتوفر فيما بين أيدينا من مصادر، لاسيما وأنه رجع إلى كثير من الموارد التي هي في عداد المفقودات في الوقت الحاضر. وهذا يدل على أن ابن الأبار كان على سعة من العلم، متمكنٌ مما يكتبه، سواء كان ذلك عن أحداث المشرق، وخلفاء بني أُمية، وبني العباس، أم خلفاء الفاطميين، أم أمراء الأندلس وخلفائها، أم ملوك الطوائف، ومن عاصرهم. بل أنه يورد أحياناً معلومات عن أحداث معاصرة له، من ذلك مثلاً، إشارته في أثناء ترجمته ليحيى بن أحمد بن عيسى الخزرجي، إلى سقوط مدينة شاطبة بيد خايمة الأول ملك أرغون، وإجلاء أهلها عنها، فيقول: **" وفي وقتنا هذا وصل بعض الشاطبيين يخبر أنه أجلاهم عنها مع أهل بعض جهاتها – وهم ألوف من المسلمين – فتفرقوا في البلاد...وذلك في رمضان من سنة خمس وأربعين ".**[3]

---

[1] **الحلة السيراء** : 209/1-210 .
[2] **المصدر نفسه** :250/1-251 .
[3] **المصدر نفسه**: 303/2 .

وسنحاول فيما تبقى من البحث أن نشير، بشيء من الاختصار إلى الموارد التي اعتمدها ابن الأبار في ترجمته للنخب التي اختارها في كتاب **الحلة السيراء**، وهي كثيرة ومتنوعة. وقد أشار في غالب الأحيان إلى هذه الموارد، باستثناء حالات متفرقة لا يُصـــرح فيها بمصـــادره، كأن يقول: **"رُوي"**(1)و **"يروى"**(2)و **"قدقيل"**(3)و **"يُقال"**(4)و **"يُحكى"**(5)**و "حُدِّثْتُ"**(6)
.
وهو يستخدم مروياته الشفوية التي أخذها عن شيوخه وزملائه من المحدثين في الأندلس والمغرب، ويشير إلى أسمائهم، وأماكن لقائه بهم، أمثال: الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي (ت624هـ/1227م)(7)، والقاضي أبو الخطاب أحمد بن محمد بن واجب القيسي (ت614هـ/1217م)(8)، والقاضي أبو عامر نذير بن وهب بن نذير الفهري (636هـ/1238م)(9)، وأبو عبد الله محمد بن عبد الجبار بن محمد الرعيني (كان حياً قبل 658هـ/1260م)(10)، وأبو علي بن سليمان الشريشي(كان حياً قبل 658هـ/1260م)(11)، وأبو الحسن علي بن محمد بن حريق (ت622هـ/1225م)(12). ولكن اعتماده الكبير كان على كتب المغاربة والأندلسيين، وكذلك كتب المشارقة، وتشمل هذه الكتب مختلف الفروع التي يمكن الاستفادة منها في أغناء المعلومات التي يوردها عن نخب **الحلة السيراء**، والتي يأتي في طليعتها: كتب التاريخ، الأدب، الأنساب، التراجم، والجغرافية.

ولن ندخل في تفاصيل موارده من الكتب المعروفة والمنشورة، والتي هي بين أيدينا في الوقت الحاضر، أمثال: كتاب **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، لأبي مروان حيان بن خلف بن حيان، و**تاريخ افتتاح الأندلس**، لأبي بكر محمد بن عمر المعروف بابن القوطية، و**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، و**تاريخ علماء الأندلس**، لأبي الوليد عبد الله بن محمد المعروف بابن الفرضي، و**تاريخ المن بالإمامة على** المستضعفين، لعبد الملك بن محمد المعروف بابن صاحب الصلاة، و**جمهرة أنساب العرب**، لأبي محمد علي بن أحمد بن حزم، و**المسالك**

---

1 **المصدر نفسه** : 16/1 .
2 **المصدر نفسه** : 1/ 31 ، 42 ، 180 ، 2/ 380 .
3 **المصدر نفسه** : 37/1 ، 67 .
4 **المصدر نفسه** :1/ 52 ، 99 ، 330/2 .
5 **المصدر نفسه** : 161/2 .
6 **المصدر نفسه** :297/2 .
7 **المصدر نفسه**: 30/1، 267/2 .
8 **المصدر نفسه** :38/1 ، 8/2، 267 .
9 **المصدر نفسه**:2 /113 .
10 **المصدر نفسه** :235/2.
11 **المصدر نفسه**:266/2 .
12 **المصدر نفسه** :300/2 .

والممالك، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري، و**تاريخ إفريقية والمغرب**، لأبي إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني، و**رياض النفوس**، لأبي بكر عبد الله بن محمد المالكي. وبالنسبة لكتب المشارقة، استعان ابن الأبار بنخبة من كتبهم المعروفة، أمثال: **السيرة النبوية**، لمحمد بن إسحاق، و**فتوح مصر وأخبارها**، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم، و**أنساب الأشراف**، لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، و**تاريخ ابن يونس**، لأبي سعيد عبد الرحمن بن أحمد الصدفي المصري المعروف بابن يونس، و**نسب قريش**، لأبي عبد الله المصعب بن عبد الله الزبيري، و**كتاب الأغاني**، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، و**كتاب يتيمة الدهر**، لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي.

وفضلاً عن هذه المصادر وغيرها من الكتب المعروفة التي رجع إليها ابن الأبار، فقد استقى معلوماته، وكما أسلفنا، من موارد أخرى مفقودة، وهذه في الحقيقة هي الإضافة المهمة التي يُشكر عليها ابن الأبار، لأنه عرفنا بمصادر غير متوفرة. ويأتي في مقدمة هذه الكتب، كتابين لأبن الأبار نفسه، هما: **إيماض البرق في أدباء الشرق**([1])، و**الكتاب المحمدي**([2])، ويبدو من إشارته إليهما أن الأول خاص بأدباء المشرق، والثاني أيضاً له علاقة بالشعر. وسنحاول فيما يأتي أن نشير إلى نماذج من هذه المصادر المفقودة:

- **كتاب الاستيعاب في الأنساب**، لأبي بكر أحمد بن محمد بن موسى الرازي (ت 344هـ/955م)، وهو موسوعة ضخمة عن أنساب العرب في الأندلس المعروف بعنوان **الاستيعاب في أنساب مشاهير أهل الأندلس**، يحتوي على خمسة مجلدات كبيرة.([3]) وقد اعتمده ابن الأبار في نسب الوزير الوزير جهور بن عبيد الله بن أبي عبدة([4])، وكذلك في ترجمة الأمير أبان بن بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام.([5])
- **كتاب الحُجَّاب للخلفاء في الأندلس**، لعيسى بن أحمد الرازي (ت 379هـ/989م)، ألفه للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر[(6)]. وقد أشار ابن ابن الأبار إلى نصوص قليلة منه([7])، منها النص الآتي، الذي يشير فيه إلى اسم الكتاب: **" وحكى عيسى بن أحمد بن محمد الرازي في كتاب الحُجَّاب**

---

[1] **المصدر نفسه**: 235/2، 264 ، 269 .

[2] **المصدر نفسه**: 373/2 .

[3] ينظر: عبد الواحد ذنون طه، **نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس**، بيروت، دار المدار الإسلامي، 2004 : 36 .

[4] **الحلة السيراء**: 245/1 .

[5] **المصدر نفسه**: 366/2 .

[6] ينظر ابن الأبار، **التكملة لكتاب الصلة**، نشر الأركون وبالنثيا،
Alarcon.M,Y Palencia C.A.G: Apendice a al edicion Codera de la Tecmila de Aben al- Abbar en Miscelanea de Estudios Y Textos Arabes , Madrid,1915,pp.23-39 . Pons Boigues,Op.Cit,p82.

[7] **الحلة السيراء**: 136/1 ، 138 ، 258 -259 ، 30/2 .

للخلفاء بالأندلس، من تأليفه، أن المنذر بن محمد استُخلف يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، بعد وفاة أبيه بأربع ليال..."([1]) وقد أورد هذا النص بمناسبة الحديث عن أحد الوزراء والحجاب المشهورين في الأندلس في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، وهو هاشم بن عبد العزيز. ومن الملاحظ على المعلومات المحدودة التي وصلتنا من هذا الكتاب، أنه لا يختص فقط بالكلام عن الحجاب، بل يشمل ملابسات تعيينهم، والأمراء في عهدهم، وخفايا السياسة الداخلية والمنازعات، وغيرها من المسائل الاجتماعية التي كانت تزخر بها الحياة العامة في الأندلس في عهدي الإمارة والخلافة. ولهذا يُعد **كتاب الحُجّاب** على درجة كبيرة من الأهمية، ولو وصلنا لأغنى المكتبة الأندلسية([2]).

- **كتاب أخبار الدولة العامرية**: لأبي مروان حيان بن خلف (469هـ/1079م)، ويتضمن هذا الكتاب أخبار الأندلس منذ وفاة الخليفة الحكم المستنصر، حتى ثورة المهدي ومصرع الحاجب عبد الرحمن شنجول، أي الحقبة الممتدة من سنة 366-399 هـ/976-1008م([3]). وهذا الكتاب الذي أسماه ابن الخطيب([4])، **بأخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية، وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة**، وأشار إلى أن أسفاره أنافت على المئة، يمكن أن يعد، حسب رأي ابن الأبار، أحد أقسام **تاريخ ابن حيان الكبير**،{ أي **المقتبس** } أو مستقلاً عنه، لأنه يقول في معرض ترجمته للحاجب المنصور: **" وغزواته في كل صائفة متصلة، أزيد من خمسين، عدّها ابن حيَّان في كتابه الموضوع في أخبار الدولة العامرية، وجعله لمن شاء خَزَلَهُ عن تاريخه الكبير أو ضمه إليه "**([5]). ورجع إليه ابن الأبار في ترجم مختلفة، منها ترجمة إبراهيم بن إدريس الحسيني([6])، وابن خطاب أبي بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد([7]). وزياد بن أفلح مولى الخليفة عبد الرحمن الناصر([8])، الذي نقل عنه معلومات لا تتوفر فيما لدينا من مصادر عن هذه الحقبة.

---

[1] **المصدر نفسه** :138/1 .

[2] ينظر: طه، **نشأة تدوين التاريخ العربي في الأندلس** :56 .

[3] ينظر: مقدمة محمود علي مكي بين يدي تحقيقه لكتاب **المقتبس من أنباء أهل الأندلس**، لابن حيان القرطبي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1973: 80

[4] لسان الدين محمد بن الخطيب، **كتاب أعمال الأعلام في من بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام** ، حققه ونشرة ليفي بروفنسال بعنوان: **تاريخ إسبانية الإسلامية**، ط2، بيروت، دار المكشوف، 1856 : 98 .

[5] **الحلة السيراء** :269/1 . وقد وهم حسين مؤنس، رحمه الله، في هامش رقم (2) من الصفحة ذاتها، ذاتها، حين قال أن هذا الكتاب هو الكتاب المعروف ب **البطشة الكبرى.**

[6] **الحلة السيراء** :227/1 .

[7] **المصدر نفسه** :311/2 .

[8] **المصدر نفسه** :278/1 .

- **تاريخ** أبي عمر أحمد بن محمد بن عفيف بن مَرْيُوال بن جراح بن حاتم بن الأموي (ت420هـ/1029م). وقد ترجم ابن بشكوال لهذا المؤلف، ولكنه لم يذكر له هذا المصنف([1]). وحسب قول ابن الأبار، فإن ابن حيان قد هَذَّب هذا الكتاب، وانتخبهُ. وقد استفاد منه في ترجمة عبد الله بن عبد الرحمن الناصر([2]).
- **كتاب العبر** لأبي بكر أحمد بن سعيد ابن أبي الفياض، الذي يُعرف أيضاً بابن الفشاء، وهو كما يبدو من النصوص المتبقية منه في بعض المصادر التي نقلت عنه، أنه تاريخ عام للأندلس إلى زمن المؤلف المتوفى سنة 459هـ/1066م[3]. وقد نقل عنه ابن الأبار أشعاراً تعود لعبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن عبد العزيز بن أمية بن الحكم الربضي[4]، وروايات لأحداث عاصرها ابن أبي الفياض، جرت في أوائل القرن الخامس للهجرة/ الحادي عشر الميلادي، وذلك في ترجمة الخليفة الأموي سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر الملقب بالمستعين بالله[5]. كما نقل عنه أيضاً في ترجمة ابن خطاب أبي بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد، معلومات عن غزوة الحاجب المنصور إلى برشلونة سنة 374هـ/984م[6].
- **كتاب ثورة المريدين،** لعبد الملك ابن صاحب الصلاة، هو كتاب عالج فيه المؤلف حقبة قلقة من تاريخ الأندلس في أواخر أيام دولة المرابطين وبدايات دولة الموحدين. حيث قامت فتن عديدة، أبرزها تلك التي تزعمها أحمد بن الحسين بن قَسِيّ، وأصحابه الذين سُمْوا بالمريدين[7]. ويعود الفضل إلى أبن الأبار في إعطاء فكرة تقريبية عن محتواه، لاسيما أحداث حركة ابن قسي، التي تناولها في ترجمته، وترجمة أحد أصحابه، وهو محمد بن عمر بن المنذر[8]. كما نقل عدة آثار أدبية مما صدر عن المريدين، سواء بالنصرة بالنصرة لمذهبهم أو في موضوع تبادل العواطف فيما بينهم.
- **كتاب التاريخ،** لأبي بكر محمد بن عيسى بن مُزَيْن (كان حياً سنة 471هـ/1078م)، وهو حسبما يقول ابن الأبار، في ترجمة الكاتب محمد بن عبد العزيز، أنه: **"تأليفٌ له مختصر في التاريخ"**[9]. وقد نقل عنه أيضاً في ترجمة أبي الحسن بن هارون، أحد أمراء شنتمرية الغرب في عصر

---

[1] **كتاب الصلة** :38/1 (ترجمة رقم 75).
[2] **الحلة السيراء** :206/1 .
[3] ينظر: طه، " **نص أندلسي من تاريخ ابن أبي الفياض"،** ضمن كتاب : دراسات في التاريخ الأندلسي :130-131 .
[4] **المصدر نفسه** :217/1.
[5] **المصدر نفسه** :10/2-11 .
[6] **المصدر نفسه** :312/2 .
[7] ينظر: مقدمة عبد الهادي التازي في تحقيقه لكتاب **تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين،** لابن صاحب الصلاة، بيروت، دار الأندلس، 1964 : 30-33 .
[8] **الحلة السيراء** : 197/2-212 .
[9] **المصدر نفسه** : 129/2 .

الطوائف[1]، وترجمة محمد بن أحمد بن إسحاق بن زيد بن طاهر القيسي، ومحمد بن مروان بن عبد العزيز الكاتب[2]. وهذه النقولات كلها من عصر الطوائف. ولكن بالاطلاع على اقتباسات أخرى من هذا الكتاب، أوردها مؤرخون آخرون، يتبين أن محتواه ربما كان يتناول تاريخ الأندلس من الفتح إلى عصر الطوائف[3].

- **كتاب التاريخ**، لأبي عامر محمد بن أحمد بن عامر السالمي (ت 559هـ/ 1163م)، نقل عنه ابن الأبار، في ترجمة المعتصم بالله محمد بن معن بن صُمادح التجيبي[4]، ورفيع الدولة بن المعتصم[5]، ورشيد الدولة محمد بن عبيد الله بن المعتصم محمد بن معن بن صُمادح([6]).

ومن المرجح أن **كتاب التاريخ** هذا ماهو إلاّ كتاب السالمي الموسوم: **درر القلائد وغرر الفوائد**، الذي هو كتاب تأريخي بالدرجة الأولى على الرغم من وجود تراجم لبعض العلماء والشعراء فيه([7]). وقد وقع ابن عبد الملك المراكشي الأنصاري على السفرين الأول والثاني لهذا الكتاب، ونقل لنا مقدمته التي يعدد فيها السالمي مؤلفاته، وليس فيها كتاب باسم **التاريخ**([8]). الأمر الذي يؤيد أن ابن الأبار قصد كتاب **درر القلائد**، حينما كان يشير إلى: **السالمي في تاريخه**.

- **كتاب حلية اللسان وبغية الإنسان في الأوصاف والتشبيهات والأشعار السائرات**، وهو لأبي عامر السالمي أيضاً، أخذ منه ابن الأبار في ترجمة موسى بن محمد بن سعيد بن موسى، مشيراً إليه باسم **حلية اللسان وبغية الإنسان**([9])، ثم نقل عنه في ترجمة يحيى بن علي بن حمدون الجذامي، الجذامي، مشيراً إليه بـ**كتاب التشبيهات**([10])، وهما وكما يبدو من العنوان الذي أخذناه من قائمة كتب السالمي، كتاب واحد، حيث لايوجد ما يشير إلى كتاب منفصل له باسم **التشبيهات**.

- **كتاب المُعْرِب عن أخبار المغرب** لأبي علي حسين بن أبي سعيد عبد الرحمن بن أبي عبيد القيرواني المعروف بالوكيل(ت 310هـ/923م)، وهو من كبار حفاظ الحديث([11])، ومن كبار مؤرخي عصره([1]). ويبدو من

---

[1] **المصدر نفسه** : 2/17-20 .
[2] **المصدر نفسه** :2/116 .
[3] ينظر تفصيلات ذلك: عبد الواحد ذنون طه، **ابن عذاري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي**، بيروت، دار دار المدار الإسلامي، 2004 : 109-111.
[4] **الحلة السيراء** :2/82 .
[5] **المصدر نفسه** :2/92 .
[6] **المصدر نفسه** :2/191 .
[7] ينظر: طه، **ابن عذاري المراكشي** : 114 .
[8] **الذيل والتكملة** : 6/8-9 .
[9] **الحلة السيراء** :1/236 .
[10] **المصدر نفسه**: 1/308 .
[11] ينظر: سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، الإسكندرية، منشأة المعارف، 1979 : 1/24 .

نقولات ابن الأبار من هذا الكتاب أنه مختص بتاريخ المغرب العربي، إلى عصر المؤلف، ومرتب حسب الطبقات، بدليل قول ابن الأبار في ترجمة منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري: **" ذكره أبو علي الحسين بن أبي سعيد عبد الرحمن بن عبيد القيرواني المعروف بالوكيل في الكتاب المعروف بالمُعْرِب عن أخبار المغرب من تأليفه في طبقة أولى السلطان تالياً لعبيد الله بن الحبحاب..."**([2]). وقد أكثر عن الأخذ منه في تراجم متعددة، مثال ذلك ترجمة إدريس الأول ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب([3]) وترجمة أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي([4]) وتمام بن تميم الدارمي([5]) والأمير الأغلبي محمد بن زيادة الله[6] والحسن بن منصور بن نافع بن عبد الرحمن([7])، وعبيد الله بن الحبحاب([8])، والمخارق بن غفار الطائي([9])، ونصر بن حبيب المهالبي([10]).

- **كتاب نظم اللآلي في فتوح الأمر العالي،** لأبي علي حسن بن عبد الله الأشيري(569هـ/1073م)، وهو كاتب ومؤرخ مغربي من أهل تلمسان، عاصر الدولتين المرابطية والموحدية. وهذا الكتاب، وكما يظهر من اسمه، كُتب لتمجيد **فتوح الأمر العالي،** أي الدعوة الموحدية[11]. وقد أعتمده ابن الأبار في ترجمة رفيع الدولة ابن المعتصم بالله ابن صمادح التجيبي، حينما كان بتلمسان سنة 539هـ/1144م، والموحدون يحاصرون المدينة[12].
- **كتاب سِمْط الجُمان وسِقط الأذهان،** لأبي عمرو عثمان بن علي بن الإمام (توفي بعد 550 هـ /1155م)، وهو أديب وشاعر من أهل مدينة شلب، ألَّف هذا الكتاب في شعراء عصره. ومن المرجح أنه نفس الكتاب الذي أشار المَقْري باسم: **سمط الجُمان وسقيط المرجان**[13]، نقل عنه ابن الأبار في ترجمة رفيع الدولة ابن المعتصم التجيبي[14].
- **تاريخ** أُمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت، وهذا المؤلف أندلسي الأصل، تنقل في بلده وفي الشمال الإفريقي، ثم استقر أخيراً في مدينة المهدية

---

[1] حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية**، تونس، مكتبة المنار، 1965: 69/1 .

[2] **الحلة السيراء:** 338/2 .

[3] **المصدر نفسه:** 50/1 .

[4] **المصدر نفسه:** 66/1 .

[5] **المصدر نفسه:** 91/1 ، 92 .

[6] **المصدر نفسه:** 181/1 .

[7] **المصدر نفسه:** 188/1.

[8] **المصدر نفسه:**337/2.

[9] **المصدر نفسه:**357/2.

[10] **المصدر نفسه:**362/2.

[11] ينظرعنه: طه، **ابن عذاري المراكشي شيخ مؤرخي المغرب العربي** :184-185.

[12] **الحلة السيراء:** 92/2-93.

[13] ينظر: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**:26/2، 262، 70/3، 183، 426 478، 75/4، 535/5.

[14] **الحلة السيراء**:92/2.

وتوفي بها في حدود سنة 528هـ/1133م. ولم يذكر من ترجم له، أن له كتاباً بعنوان **التاريخ**، ولكن ابن عذاري المراكشي[1]، ذكر له كتاباً باسم **أخبار المهدية وأميرها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم**، ونقل عنه معلومات تتعلق بعهد المعز بن باديس بن المنصور بن بلقين[2]. أما ابن الأبار، فأخذ عنه أيضاً في ترجمة المعز بن باديس[3]، مما يرجح أنه قصد هذا الكتاب حينما أشار إلى **تاريخ** أمية بن أبي الصلت.

وهكذا يتبين من استعراض هذه الموارد مقدار ما أضافه ابن الأبار من معلومات، في محاولته لإغناء ما أورده عن النخب التي ترجم لها، مستعيناً بكل ما وقعت عليه يداه من كتب مؤلفة، لاسيما في تاريخ المغرب والأندلس. وقد قدَّم لنا خدمة جليلة بالتعرف على الكثير من الموارد المفقودة في وقتنا الحاضر والتي أشرنا إلى نماذج منها في أعلاه. وبهذا يمكن أن نختتم الحديث عن منظوره في التعامل مع النخب الإسلامية التي اختارها ليُزيِّن بها كتابه **الحلة السيراء**. ذلك المنظور الذي تميَّز في طريقة العرض والتصنيف والشمولية في المكان والزمان شرقاً وغرباً إلى عصره، والالتزام بما وضعه من قواعد للتأليف، والدقة في إيراد المعلومات، واستدراك أخطاء من سبقوه من المؤلفين وعدم الاقتصار على شاعرية وشعر المترجم له بل تطعيم ثنايا كتابه بمعلومات وأخبار تشير إلى التكوين الثقافي والدور الاجتماعي لكثير ممن شملتهم التراجم وذلك ضمن منهج قويم، وأسلوب أدبي واضح المعاني، فقدم لنا أنموذجاً معتمداً لما يمكن أن تكون عليه كتابة سير النخب الإسلامية.

---

[1] **البيان المغرب**:309/1.
[2] ينظر: طه، **ابن عذاري المراكشي**: 177-180.
[3] **الحلة السيراء**:23/2.

الإسهامات السياسية والعلمية
لأسرة بني خطاب في مرسيه

نهلة شهاب أحمد
جامعة الموصل/العراق

تنتمي اسرة بني الخطاب إلى قبائل الأزد من أشهر القبائل اليمنية التي استقرت في مرسيه، وهي من الأسر العريقة التي برزت على الساحة السياسية والعلمية. ويبدو ان بروز هذه الأسرة كما يقول ابن الآبار "بفضل ما جمعته من شرف النسب ونباهة السلف"[1]. وتعود جذور هذه الأسرة إلى جدهم الأول والداخل إلى الأندلس مع طالحة برج بن بشر القشيري وهو "عبد الجبار بن خطاب بن نذير" أحد كبار الجند الشاميين الذي سكن أول الأمر مدينة قرطبة مدة ثلاث سنوات، ولعظم مكانته وشأنه سميت أحد أبواب قرطبة باسمه (باب عبد الجبار)، فضلاً عن تسمية المنطقة التي نزل بها باسمه، بل الأكثر من ذلك ان هذه التسميات ظلت باقية حتى بعد رحيله عن قرطبة وفي ذلك يقول ابن بشكوال: "وكان رشيق مولى لابي عبد الملك بن مروان بن عبد الرحمن(أحد احفاد عبد الجبار) كان سكناه عند دور بني عبد الجبار"[2]. ثم استقر في مرسيه بعد التقسيمات التي قام بها الوالي أبو الخطار الكلبي والتي سميت "بالكور المجندة"، وتزوج من ابنة الحاكم القوطي تدمير الذي يعد جد بني الخطاب من جهة الأم[3]. كان عبد الجبار بن خطاب من الموالين للبيت الأموي، وتكاد تجمع معظم الروايات التاريخية على ذلك، ففي الوقت الذي تتفق فيه روايات ابن الفرضي، وابن الابار والمراكشي على ان الجد الأعلى للأسرة هو (عبد الجبار الذي كان مولى لمروان بن الحكم

(1) ابن الابار، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس (القاهرة، الشركة العربية للطباعة والنشر، 1963): 308/2.

(2) ابن بشكوال، الصلة (القاهرة، الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966): 185/1.

(3) العذري، ترصيع الاخبار، تحقيق: عبد العزيز الأهواني (مدريد، مطبعة معهد الدراسات الإسلامية، 1965)، ص15، 122.

الأموي)[1] ينفرد العذري برواية أخرى مختلفة يذكر فيها: "بان عبد الجبار كان مولى لمعاوية بن هارون"[2].

ويبدو أن هذه المصادر التي أوردت أخباراً عن بني الخطاب قد اهتمت بذكر نسبهم العربي من جهة الأب فقط، دون ذكر أية تفاصيل عن نسب الأسرة من جهة الأم، ويمكن تعليل هذا السكوت ربما لأن العرب عموماً كانوا ينسبون الشخص إلى أبيه، ولا ينسب الى أمه الاّ في حالة معينة، أو لأن نسبه من جهة الأم كان معروفاً ومشهوراً، فلم يفصل في ذكره. ثانيا إسهامات بني الخطاب العلمية على عصري الإمارة والخلافة:

كان بنو الخطاب ممن توارثوا المكانة الرفيعة في مرسيه، ويصف ابن الابار هذا التوارث في الاسرة بقوله: "توارثوها جيلاً بعد جيل ولحمه بعد لحمه"[3] ومما يؤكد هذه المكانة وهذا التوارث العلمي لهذه الأسرة ذلك الكتاب الضخم الذي صنفه ابن حيان عن اسرة بني الخطاب الذي يحمل عنوان "الانتخاب الجامع لمآثر بني الخطاب"[4] وبرز عدد من رجالات بني الخطاب ممن كان لهم الحضور والاسهامات العلمية وهم:

1 – محمد بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار بن خطاب بن نذير والمعروف بابن جمرة (ت:؟)

برز أفراد اسرة بني الخطاب في مجال العلوم الشرعية لا سيما في مجال الفقه المالكي.

اذ ذاعت شهرة فقهاء كبار وأجلاء من هذه الأسرة خلال عصر الامارة الاموية ونخص بالذكر منهم محمد ابو جمرة[5]. وهو الثالث في شجرة نسب اسرة بني الخطاب، وقد انجب ثلاثة ابناء هم خطاب (ت:235هـ/849م) وعميرة (ت238هـ/852م) وعبد الملك (ت:؟) [6].

اهتم محمد ابو جمرة بدراسة علوم الحديث، ونقل حب هذه العلوم الى اولاده من بعده، اذ كان يصحبهم معه في رحلاته، حتى أنشأهم ورباهم على ذلك، فقد رحل محمد ابو جمرة سنة (223هـ/837م) الى المشرق لاداء فريضة الحج وكان يصحبه في رحلته اولاده، خطاب وعميرة[7]. وقد التقوا في طريقهم بالقيروان بالشيخ سحنون بن سعيد (ت240هـ/854م) قاضي افريقية، وقد سمع ثلاثتهم منه كتاب (المدونة)، كما وادركوا الشيخ الفقيه الماهر أصبع

---

4) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة، تحقيق: عزت العطار الحسيني (ط2، القاهرة، مطبعة المدني، 1988):159/2؛ ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عزت العطار الحسيني (القاهرة، مؤسسة نشر الثقافة= =الإسلامية، 1956): 356/1، 562/2؛ المراكشي عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق: احسان عباس (بيروت، دار الثقافة، 1973): ص6/6.

5) ترصيع الأخبار، ص122.

(6) التكملة، مطبعة القاهرة: 564/2.

(7) المصدر نفسه: 565/2.

(8) المصدر نفسه: 356/1.

(9) المصدر نفسه: 290/2.

10) المصدر نفسه: 357/1، 290/2.

بن الفرج (ت:225هـ/839م) [1] ثم تابعوا رحلتهم الى مكة المكرمة لإداء فريضة الحج، وعادوا الى بلادهم الأندلس ليرووا الحديث على شيوخهم[2]. وبعد هذه الرحلة تنقطع اخبار كل من خطاب وعميرة أما الابن الثالث محمد أبي جمرة والمعروف بعبد الملك (ت:؟) الذي لم يرافق والده في هذه الرحلة، فقد كان له من الأولاد ثلاثة هم الوليد (ابو العباس) (ت: 393هـ/1002م)، ومحمد (ت: ؟)، ومروان (ت:؟) [3].

لم تسجل المصادر التاريخية دوراً كبيراً وهاماً لأولاد عبد الملك لا سيما محمد، وربما يعود عدم ذكره الى انه توفي مبكراً أو ربما لأنه لم يكن عالماً فقيهاً مثل بقية أفراد أسرته، وسلك لنفسه طريقاً آخر.أما بالنسبة لمروان فيبدو انه كان قريبا من والده إذ أخذ العلم منه، هذا فضلاً عن سعيه للحصول على العلم من علماء وفقهاء ذلك العصر، من أمثال سحنون بن سعيد، وكان ممن روى عن مروان إبنه وليد بن مروان[4]. أما الابن الثالث أبو العباس وليد فقد عرف عنه كثرة اهتمامه بالعلم وتقربه من العلماء فقد تنقل بين مدن الأندلس للأخذ عن شيوخها، وبرع في علم الفقه، واهتم بالأدب، ونتيجة لما كان عليه من صفات العالم الأديب فقد رشح لمنصب القضاء، واستقضي في مرسيه وطليطلة[5].

2 – أبو عمر أحمد بن عبد الرحمن رحيم بن مروان بن خطاب بن محمد والمعروف بالخازن

هو حفيد الابن الثالث لمحمد أبي جمرة، والمعروف باسم (خطاب). والغريب انه لم يذكر في المصادر التاريخية أي دور لأبيه أو جدّه في مرسيه. ويبدو أن سبب هذا التجاهل هو لعدم وجود أية مشاركة لهم في الحياة العلمية أو السياسية، في حين فصلت هذه المصادر أعمال لابو عمر الخازن السياسية منها والعلمية. ففي سنة 375هـ/985م، توجه الحاجب المنصور بن ابن عامر بغزوة الى برشلونة، وفي طريق عودته ضيّفه أبو عمر احمد الخازن أكبر اثرياء مرسيه وأكثر أهلها جاهاً ومالاً، إذ كان: "ذا نعمة ضخمة، وصنيعة واسعة، وهمة عالية"[6].

استضاف (الخازن) الحاجب المنصور، وجيشه الكبير مدة ثلاثة عشر يوماً في قول[7]. وثلاثة وعشرون يوماً في قول آخر[8]. إذ قام هو

---

(11) عن ترجمته ينظر: ابن فرحون، الديباج المذهب، تحقيق: محمد الأحمد أبو النور (القاهرة، دار التراث للطباعة والنشر، 1974): 301/1.
(12) ابن الابار، التكملة لكتاب الصلة (مجريط، مطبعة روفس، 1887م): 357/1.
(13) المصدر نفسه: 336/1.
(14) ابن الابار، التكملة ، طبعة القاهرة: 693/2.
(15) ابن الفرضي، تاريخ العلماء والرواة: 159/2.
(16) ابن الأبار، الحلة السيراء: 311/2.
(17) المصدر نفسه:311/2.
(18) المصدر نفسه:312/2.

وأتباعه بخدمة هذا الجيش جميعاً على مقاديرهم[1]. وكان الخازن ابو عمر يجدد في كل يوم للحاجب المنصور ومن معه من أصناف وأنواع المأكولات والأطعمة، وبذلك صار الخازن خبراً في حديث المنصور ومفتخراً عنده يباهي به أينما عقد مجلسه[2].

مما يلفت النظر في هذه النصوص هو هل فعلاً كانت الاستضافة لجيش الحاجب المنصور بأكمله؟ نحن نعتقد بان الاستضافة كانت للحاجب المنصور وخاصته من الحرس والوزراء والشرطة المقربون. وهذا ما يشير اليه ابن الابار بقوله: "وصاروا جميعهم في كفالة الخازن ما بين الوزير والشرطي"[3]. أما استضافة الجيش بأكمله فأمر مبالغ فيه، وهي ان دلت على على شيء فانما تدل على الثراء الكبير لهذه الأسرة.

وعندما رحل الحاجب المنصور عن مرسيه منتهيا من غزوته المذكورة، وأقام في قرطبة مدة، تاقت نفسه الى تذوق نوع من الحلوى تدعى خبيصاً، كان قد أكل منها فترة إقامته عند الخازن فما كان منه الاّ الاتصال بابن عمر (الخازن) يسأله ان يعمل له بقرطبة خبيصاً من حلوائه، فسير اليه الخازن جارية متخصصة في صنع الحلوى[4].

وكان الحاجب المنصور يصف ضيافة (الخازن) في مجالسه بقوله: "نعمة ابن الخطاب أحق نعمه بالحفظ، وأحرصها على التغيير، واولاها بالزيادة والتثمير لسلامتها وبعدها من الجحود وقيامها بفرض التزكية"[5] وكان الحاجب المنصور يسأل عنه كثيراً بعد هذا اللقاء، والأكثر من ذلك طلب المنصور من عماله على مرسيه بالتقرب من ابن عمر الخازن والسؤال عنه وقضاء حاجته"[6].

وفضلاً عن هذه المكانة السياسية الرفيعة التي حصل عليها ابو عمر الخازن من جوده وكرمه، فقد تبوأ مكانة علمية مرموقة إذ نبغ في العديد من العلوم من فقه ولغة وأدب، اذ كان يعدّ واحداً من كبار ادباء مرسيه بدليل تقربه من أدباء القصر، والجلوس معهم وحضور المجالس والنقاشات الادبية، وكان له في هذا المجال علاقة صداقة مع الشاعر ابن شهيد*. كما انه كان محدثاً حافظاً، ماهراً في علوم اللغة وآدابها، مطلعاً على علم التاريخ[7]

---

(19) المصدر نفسه:313/2.

(20) العذري، توضيح الأخبار، ص15؛ ابن الابار، الحلة السيراء:312/2.

(21) المصدر نفسه:312/2.

(22) المصدر نفسه: 312/2 .

(23) المصدر نفسه: 313/2.

(24) المصدر نفسه: 313/2.

(*) هو ابو عامر احمد بن مروان عبد الملك بن ذي الوزارتين الاعلى، كان منظماً متقناً بارعاً في فنونه، بينه وبين ابن حزم الظاهري مكاتبات ومداعبات ، وله التصانيف البديعة ينظر: ابن بسام، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة، تحقيق: احسان عباس (بيروت، دار الثقافة، 1979): ق2، مج17/1.

(25) ابن فرحون، الديباج المذهب: 217/1.

وفقيهاً بارعاً له مكانته، فقد درس عليه جمهرة من طلبة العلم، مشيراً الى ذلك ابن الابار بقوله: "وأخذ عليه العديد من طلاب العلم"[1].

3 – موسى بن ابن عمر أحمد الخازن بن عبد الرحمن بن رحيم بن مروان بن خطاب والمعروف (بابي الاصبغ) (ت: ؟)

تتلمذ ابو الأصبغ على والده (الخازن)، وهذا حذوه، فقد ورث عنه صفات الكرم والجود وحسن استضافة الخلفاء والامراء والوزراء، كما ورث عنه الدين والعلم والأدب. ولم تنقطع علاقة هذه الأسرة برجال الحكم والدولة. فمثلما استضاف الاب(الخازن) الحاجب المنصور. نجد ان ابنه ابي الأصبغ يستضيف (طرفه الخادم) مولى الحاجب المظفر (392-399هـ/1001-1009م) ورجاله، اثناء اجتيازهم ارض مرسيه في طريقهم الى غزو قطلونية سنة (393هـ/1003م)[2]. ومثلما كان ابو الأصبغ جواداً كريماً في استقبال واستضافة رجال الدولة وحاشيتها. فقد كان في مجال عمله فقيهاً من كبار فقهاء مرسيه، اذ تولى منصب القضاء في مدن عدة، في مرسيه، وطرطوشه، وجزر ميورقه ومنورقه[3].

4 – محمد بن ابي عمر احمد (الخازن) بن عبد الرحمن رحيم بن مروان بن خطاب المعروف بابي بكر (ت:؟)

كان لابي الأصبغ أخ يدعى (ذو الوزارتين) المشرف أبو بكر محمد، وهو لقب من الألقاب الفخرية التشريفية التي اطلقت على أبي بكر محمد والتي تشير الى مكانته وسمو منزلته، فقد وصفه ابن خاقان، وما كان عليه من العلم والأدب والتواضع بقوله: "رجل الشرق سؤدداً وعلاء، وواحده اشتمالاً على الفضائل واستيلاء"[4] ويقول في نفس المعنى عندما يذكر نسب أبي بكر محمد "وبنو رحيم اعلام الشرق في القديم والحديث وعنهم يؤثر أطيب الحديث، اتصلوا في الفضل اتصالاً"[5].

نسب ابن خاقان الكثير من قصائده الشعرية لأبن الأصبغ، ومنها قصيدة طويلة في مدح الأمير المرابطي ابي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين[6].

ان هذه القصائد التي ذكرها ابن خاقان لا تعود الى شخص ابي بكر محمد الذي هو أحد أبناء ابي عمر احمد الخازن، بل تعود في الأغلب الى شخص آخر من أفراد أسرة بني الخطاب ويدعى أيضاً (أبو بكر محمد) والذي سنتناول ترجمته فيما بعد وهذا الأخير هو حفيد لمروان بن عبد الملك

---

(26) التكملة، طبعة مجريط:279/1.
(27) ابن الابار، الحلة السيراء:311/2.
(28) العذري، ترصيع الاخبار، ص16.
(29) قلائد العقيان: 337/1.
(30) المصدر نفسه: 338/1.
(31) المصدر نفسه: 351/1.

الابن الثالث لمحمد أبو جمرة[1]. ويبدو ان ابن خاقان قد خلط بين الأسمين بسبب التشابه بينهما فنسب سهواً هذه القصائد إلى أبي بكر محمد بن الخازن، لابنه ليس من المعقول أن يعيش هذه الفترة الطويلة والتي تقدر بمئة وعشرين سنة ليكتب قصائد في مدح الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين والتي تعود إلى سنة 515هـ/1121م. لكن هذا لا يعني أن ابا بكر محمد بن الخازن لم يمتلك القدرات الأدبية والشعرية بل كان كما وصفه الضبي: "أديبا بالغا، وشاعراً من أهل بيت ووزارة"[2].

شهدت الخلافة الأموية في الأندلس خلال عصر الفتنة القرطبية 399-422هـ/1008-1030م تدهور في الحياة السياسية والاقتصادية والعلمية، الاّ أن اسرة بني الخطاب ظلت محتفظة بمركزها الاجتماعي والاقتصادي وتأثيرها السياسي في مدينة مرسيه. وبرزوا خلال هذه الفترة حتى أصبحوا محط أنظار الخاصة والعامة في مرسيه، إذ كان ظهور أسرة بني الخطاب لأول مرة على مسرح الأحداث السياسية خلال هذه الفترة عندما استطاع أحد أفرادها البارزين من تولي رئاسة مدينة مرسيه وهو (ابو عمر احمد الخازن) والذي تكلمنا عنه سابقاً في عهد الحجابة العامرية. لكن هذه المرة ليست بضيافة وبذخ واسراف بل بمشاركة فعلية في الحياة السياسية لمدينة مرسيه اذ عندما تمكن زهير العامري الصقلي سنة 419هـ/1028م من استخلاف خيرات العامري في حكم مملكة المرية واوريوله ومرسيه، وكان اول ما قام به من عمل عزل نائبه (مسلم الفتى) على مرسيه، وتعيين بدله ابي عمر الخازن الذي يمثل مركز الثقل السياسي والاقتصادي لمدينة مرسيه، وأحد أعيانها البارزين، لكن زهير العامري لم يلبث ان تراجع عن قرار تعيينه هذا فولى بدله (ابا بكر بن ظاهر) [3] ويمكن ارجاع تخوف زهير العامري من تولي ابي عمر الخازن الى جملة اسباب منها ما كانت تتمتع به أسرة بني خطاب من عراقة وثراء وسمو مكانة، فهي من الأسر المعروفة بتاريخها الطويل في مدينة مرسيه، وبالتالي فانها تستطيع التأثير في المجتمع المرسي وهذا العامل كان سبباً في خشية زهير العامري من استقلال ابن عمر الخازن في مرسيه. وهذا ما دفعه الى اتخاذ قراره في إبعاد الخازن عن تولي رئاسة مرسيه، وتعيين مكانه أبا بكر بن طاهر، ولم يتوقف عند قراره هذا بل اصطحبه معه الى المرية ليكون بمأمن من نفوذ الخازن في مرسيه[4]. ما ان تسلم ابن طاهر ولاية مرسيه حتى سارع في اضعاف نفوذ خصومه ومناوئيه السياسيين وفي مقدمتهم الخازن، لأنه كان يريد الانفراد بتدبير أمور مرسيه[5] وبالفعل نجح ابن طاهر في إبعاد الخازن والانفراد بالسلطة في

(32) ينظر شجرة نسب بنو الخطاب.
(33) بغية الملتمس (مجريط، مطبعة روفس، 1882م)، ص42.
(34) ابن الابار، الحلة السيراء:117/2.
(35) ابن الابار، الحلة السيراء: 116/2، 117.
(36) ابن الأثير، الكامل في التاريخ (بيروت، دار الفكر، 1965): 291/9.

مرسيه حتى بعد وفاة زهير العامري في مريه مع باديس بن حبوس صاحب غرناطة سنة 429هـ/1038م[1]. اما فيما يخص الخازن فلم نقف على الكيفية التي انتهت بها حياته ولا حتى على السنة التي توفي فيها.

ثالثاً: اسهامات بني الخطاب العلمية والسياسية منذ عصر ملوك دويلات الطوائف وحتى نهايتهم في عصر مملكة غرناطة422-1030/541-1146.

1 –بنو خطاب على عصر دويلات الطوائف والمرابطين 422-541هـ/1030-1146م.

شهدت مرسيه في هذه الفترة من تاريخها بروزاً واضحاً لافراد اسرة بني الخطاب في مجال الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية. حيث كانت لهم مواقف عديدة دلت على اهميتهم ومكانتهم مستثمرين اموالهم في طلب العلم والتأليف والرحلة داخل الاندلس وخارجها. وكان من كبار علماء وفقهاء اسرة بني الخطاب ممن برز اسمه في مجال الدراسات الفقهية ومجال التصنيف الفقيه:

– موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد (ابو جمره) بن مروان بن خطاب بن عبد الجبار (ت: ؟)

رحل مع والده عبد الملك يطلب العلم فنزل قرطبة سنة 428هـ/1036م. للسماع من شيوخها منهم الفقيه ابي عبد الله بن عابد (ت:؟) والفقيه ابي بكر محمد مكي بن ابي طالب (ت437هـ/1045م) [2]. برع موسى ووالده برواية الحديث، وتأليف الكتب، وكان من جملة ما ألفوه كتاب مشترك بعنوان (رد الابهري على المزيني في المسائل الثلاثين) وهو كتاب يتناول مجموعة من الاراء الفقهية التي ردّ بها على الامام مالك بن انس[3].

– عبد الملك بن موسى بن عبد الله بن وليد بن مروان (ت:485هـ/1092م)

نبغ عبد الملك في علم الفقه، درس على شيوخ عصره، أخذ العلم عن ابيه، وعن ابي عبد الله بن عابد، وابي محمد مكي بن ابي طالب، كانت له رحلة الى المشرق للالتقاء بعلمائها والاخذ عنهم، منهم الفقيه ابو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني (ت478هـ/1028م) [4] له تأليف منها كتاب سماه (برنامج القاضي يونس بن عبد الله) [5].

– احمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد أبو جمرة (ت533هـ/1138م)

---

(37) عبد الله بن بلقين، مذكرات الامير عبد الله المسماة بكتاب التبيان، تحقيق: ليفي بروفنسال (مصر، دار المعارف، 1955)، ص34، 35.

(38) ابن الابار، التكملة، مطبعة مجريط:279/1.

(39) المصدر نفسه:279/1.

(40) ابن الابار، التكملة، طبعة مجريط:279/1؛ الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والاعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري (ط2 دار الكتاب العربي2002م) حوادث سنة (481-490هـ)، ص54 .

(41) ابن الابار، التكملة، طبعة مجريط:279/1.

سلك طريق العلم كابيه واجداده، فهو من بيت علم واصالة، وحسب وجلالة[1] كان محدثاً بارعاً وفقيهاً حافظاً[2] وله تميز واضح في علم اللغة العربية، فضلاً عن إجادته لغات أخرى، وكان عالماً بأيام العرب وأنسابهم مطلعاً على حوادث التاريخ[3]. أخذ علمه وفقهه من مجموعة متميزة من علماء وفقهاء عصره، فقد درس الفقه على الفقيه ابو الوليد الباجي، والفقيه هشام بن أحمد (ت530هـ/1135م) والفقيه محمد بن حزم الظاهري (ت:456هـ/1063م) أجازه الفقيه ابن عمرو الداني (ت:444هـ/1052م) اذ يعد آخر من روى عنه مطلقاً[4]. كما أجاز له الفقيه المعروف بن ابي جعفر (ت: 504هـ/1146م) [5]. ألف كتاباً سماه (التيسير) الذي نقله وروى عنه هذا الكتاب الكتاب حفيدهُ أبو بكر محمد[6].

– خطاب بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان

نشأ خطاب في مرسيه وسمع من شيوخها من بني خطاب وغيرهم من علماء وفقهاء عصره، ثم رحل الى قرطبة وأخذ من علمائها علوم الفقه، وقد عرف خطاب بشدة ذكائه ونبوغه في مجال الدراسات الفقهية. ومن شيوخه ابو بكر بن العربي (ت:543هـ/1148م) ولما عاد خطاب الى مرسيه تصدّر بها لتدريس المذهب المالكي[7]. درس عليه جمع من طلبة العلم منهم الضبي، صاحب كتاب (بغية الملتمس) فقد تفقه على يديه وكان يكثر من مجالسته له[8]. وقد توفي خطاب قبل سنة 580هـ/1184م[9].

– ابو القاسم محمد بن هشام بن أحمد بن وليد بن عبد الملك بن محمد بن ابي حمزة

هو من فرع ابي العباس وليد الابن الثالث لعبد الملك، كان من اهل العلم والحفظ والذكاء والفهم، نبغ في الفقه ودرس على علماء عصرهم منهم الفقيه أبو محمد بن ابي جعفر (ت:540هـ/1146م) [10] تولى قضاء غرناطة، لكنه لم يحدد تاريخ توليه، بل أثني على سيرته القضائية إذ جاءت جميع أحكامه عادلة، لما فيها من عدالة ونزاهة ورجاحة عقل[11]. توفي بمدينة

---

(42) المصدر نفسه، طبعة القاهرة: 49/1.
(43) ابن فرحون، الديباج المذهب:217/1.
(44) المصدر نفسه:217/1.
(45) الجزري، غاية النهاية في طبقات الفراء، نشر: ح براجسينرار (القاهرة، مطبعة الخانجي، 1933م): 503/1، 504.
(46) ابن فرحون، الديباج المذهب: 217/1.
(47) ابن الابار، التكملة، مطبعة القاهرة: 64/1.
(48) الضبي، بغية الملتمس، ص276.
(49) المصدر نفسه، ص276.
(50) المصدر نفسه، ص276.
(51) ابن بشكوال، الصلة: 581/2.
(52) المصدر نفسه: 581/2.

مرسيه، لكن اختلف في تحديد تاريخ وفاته فمنهم من اشار الى سنة 503هـ/1109م[1] ومنهم سنة 530هـ/1135م[2] والثالث سنة 536هـ/1141م[3].

– أبو بكر محمد بن خطاب بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن وليد بن مروان بن عبد الملك بن محمد بن أبي حمره (518-599هـ/1124-1202م).

تعد شخصية أبي بكر محمد واحده من اهم شخصيات اسرة بني الخطاب بعد شخصية أبي عمر احمد (الخازن)، فلقد تألق نجم ابي بكر محمد في عصر المرابطين ونبغ في الفقه والحديث، درس على شيوخ عصره وفي مقدمتهم والده خطاب الذي تأثر به وسمع منه، وفي ذلك يقول ابن الابار: "سمع من ابيه كثيراً وتفقه به"[4]. كما سمع من ابن عمه الفقيه أبو القاسم محمد بن هشام في مجال تفسير القرآن[5]. كما استجار أبو بكر لنفسه من علماء غير اندلسين من امثال أبن عبد الله المازري الصقلي، وابن طاهر السلفي الاصبهاني (ت576هـ/1180م) [6] وهذا يعني أن أبا بكر محمد بعد ما بلغ شأنه في العلم والعلوم الشرعية مكانة كبيرة استجار لنفسه دون الحاجة الى اللقاء بالمازري أو السلفي مستفيداً من احدى أنواع الاجازات" والتي تسمى "بالاجازة العامة" أو "الاجازة لغير معين" ففيها يقول العالم والفقيه : "اجزت المسلمين" و"للموجيدن" أو "لمن قال لا اله الا الله"[7]. أو ربما طلب الأجازة لنفسه عن طريق علماء ارتحلوا الى المشرق فحملهم طلبه ورغبته بالحصول على الأجازه من الفقيه السلفي أو المازري، فيقوم الشيخ المعني بمنحه الاجازة شريطة أن يكون العلماء الذين يطلبون الأجازة له راضين عن علمه وفقهه[8]. وأخذ اجازة في التفسير من الفقيه القاضي المفسر ابن محمد عبد الحق بن غالب المحاربي (ت542هـ/1147م) [9]. كان ممن أخذ عنهم الفقيه أبي عامر محمد بن شروبه (ت:544هـ/1149م) اذ أخذ عنه الحديث المسلسل في الأخذ باليد، كما استجاز له مجموعة من خيرة علماء عصره، من الذين شهدت لهم الساحة الاندلسية بالمكانة العلميه والعطاء الكبير. من امثال ابن رشد (ت:595هـ/1198م)، والفقيه ابي بكر بن العربي (ت:543هـ/1148م)، فضلاً عن علماء وفقهاء آخرين أخذ منهم

---

(53) ابن بشكوال، الصلة: 581/2.

(54) ابن الابار، المعجم في اصحاب القاضي الامام ابي علي الصدفي (القاهرة، دار الكتاب العربي، 1963)، ص118، 119.

(55) الضبي، بغية الملتمس، ص130.

(56) التكملة، طبعة القاهرة: 561/2.

(57) ابن الابار، المعجم، ص119.

(58) ابن الابار، التكملة، مطبعة القاهرة:562/2.

(59) ابن كثير، الباعث الحثيث (شرح اختصار علوم الحديث)، عني به: بديع السيد اللحام (ط3، دمشق، دار الفيحاء، الرياض، دار السلام، 2000)، ص118.

(60) ابن الكثير، الباعث الحثيث، مصدر سابق، ص118.

(61) ابن الزبير، صلة الصلة، تحقيق: ليفي بروفنسال (بيروت، مكتبة خياط، 1937)، ص3 .

وأجازوا له بالرواية عنهم، مثل الفقيه أبي عبد الله بن سعادة (ت:544هـ/1149م)، والفقيه ابي الحسن بن نعمة (ت:567هـ/1171م) [1]، كما سمع ابو بكر محمد الكثير من الكتب الفقهية لأبرز علماء تلك الفترة، وكتب عليها الكثير من الشروحات والتعليقات. ومن أبرز الكتب التي شرحها كتاب (الشهاب) ومسنده للقضاعي (ت:454هـ/1062م) الذي سمعه الفقيه ابي اسحق ابراهيم بن صالح المقري، وكتاب (التوليف الكبير) للفقيه ابي محمد بن عاشر بن محمد (ت:577هـ/1189م) كما سمع أيضاً شروحات الفقيه ابي بكر الجد (ت:595هـ/1198م) [2] كما اهتم ابو بكر محمد بالأدب وتجسدت في شخصيته صفات الأديب الشاعر اذ نظم العديد من القصائد وفي مناسبات مختلفة، وارسل هذه القصائد الى كبار رجال الدولة المرابطين من الامراء والوزراء، وقد استحسنوها لما فيها من بلاغة المعاني وجمال اللفظ، ومن هذه القصائد، تلك التي اهداها الى الأمير أبي اسحق ابراهيم بن يوسف بن تاشفين وهي قصيدة طويلة جاء فيها:

سقى الله الحمى صَوْبَ الولي   وحيّى بالارّاكةِ كُلَّ حــي
وإن ذُكِرَ العقيقُ فبارَكَتْــهُ   سَحائِبُ مُعقبات بالروّي[3]

لقد ساهمت هذه الثقافة المتنوعة في تكوين شخصية ابي بكر محمد، وابرازه عالماً وفقيهاً، له تأثيره في المجتمع الذي كان يعيش فيه، ويجذب انتباه من حوله من رجالات العلم والسياسة، ويتبين ذلك واضحاً عندما تولى خطة الشورى فضلاً عن القضاء والإفتاء وعمره لا يزيد عن احدى وعشرين سنة وذلك في سنة 539هـ/1144م[4].

ثانياً: بنو خطاب ودورهم السياسي والعلمي على عصر دولة الموحدين (541-635هـ/1146-1238م)

لم تؤثر زوال دولة المرابطين ومجيء دولة الموحدين في الأندلس على مسيرة أبي بكر العلمية بل على العكس تماماً نجده في قمة عطاءه الثقافي في هذه الفترة، لما أولته دولة الموحدين من اهتمام كبير بالعلم والمعرفة. فعاش ابو بكر هذا الجو العلمي واستمر بعطائه العلمي وقوة حضوره، إذ ألف العديد من الكتب بعد سنة 580هـ/1184م منها كتاب (نتائج الابكار ومناهج النظار في معاني الآثار) وكتاب (اقليد التقليد المؤدي الى النظر السديد) وكتاب (شرح صحيح مسلم) [5] كما الف كتباً عن شجرة عائلته

(62) ابن الابار، التكملة، مطبعة القاهرة: 563/2؛ المراكشي، الذيل والتكملة: س655/6.
(63) ابن الابار، التكملة، طبعة القاهرة:562/2.
(64) للمزيد عن هذه القصائد ينظر: ابن خاقان، قلائد العقيان: 349/1، 351، 352.
(65) ابن الابار، التكملة، طبعة القاهرة:562/2.
(66) المصدر نفسه:563/2.

عائلته بني الخطاب منها (الإعلام بالعلماء من بني جمره) وكتاب (الأنباء بأنباء بني خطاب) [1].

خلال المسيرة العلمية لابي بكر حدثت نقطة تحول في حياته وامتحن عندما اعتلى عرش الخلافة لدولة الموحدين يعقوب المنصور (580-595هـ/1184-1198م) الذي اتخذ موقفاً متشدداً من الفقه المالكي عندما أمر باحراق كافة كتب المذهب المالكي، ودعا الناس الى اخذ الاحكام مباشرة من القرآن والسنة، وقد أشار المراكشي الى ذلك بقوله: "وفي أيامه [الخليفة يعقوب المنصور] انقطع علم الفروع وأمر باحراق كتب المذهب بعد ان جرد ما فيها من احاديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والقرآن، وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك مرة واحدة وحمل الناس على الظاهر من القرآن وحديثه، وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه وجده"[2].

لاقت دعوة الخليفة الموحدي المنصور تأييداً من بعض العلماء والفقهاء إما خوفاً أو اقتناعاً، وهكذا طارد هذا الخليفة المشتغلين بالفلسفة والفقه المالكي، إذ أصدر أوامره باحراق كتب الفقه المالكي، وكتب الفلسفة، وكان ممن تعرض لهذه المحنة أبن رشد، والفقيه أبو بكر محمد بن خطاب[3].

انقطعت إخبار الفقيه أبي بكر محمد بعد هذه المحنة، ويبدو أنه فضل البقاء بعيداً عن رجال الدولة والسياسة مشتغلاً بالعبادة. وبذلك تنتهي حياة أبو بكر محمد العلمية وتطوي مرسيه صفحة من صفحات تاريخها المشرق بأعمال واحد من أفراد أسرة بني الخطاب. وقد حاول الخليفة المنصور تصحيح الخطأ الذي ارتكبه بحق أبي بكر، وذلك بتوليته منصب القضاء للمرة الثانية، لكنه رفض عرض الخليفة[4]. توفي أبي بكر محمد بمدينة مرسيه سنة 599هـ/1202م[5].

2 – أبو بكر عزيز بن عبد الملك بن محمد بن خطاب بن أحمد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الملك بن وليد بن محمد بن ابي جمرة (ت:636هـ/1238م)

كانت موقعة العقاب سنة 609هـ/1212م بداية النهاية لدولة الموحدين في الأندلس فقد دخلت مرحلة جديدة من تاريخها. إذ ازدادت ضعفاً وتفرقاً واشتعلت في كل مكان، وتمكن ابن هود (ت:635هـ/1237م) من السيطرة على مدينة مرسيه وكان ذلك في سنة 625هـ/1227م. ثم بدأ يبحث عن شخصية

---

(67) المراكشي، الذيل والتكملة:س6/6.

(68) المعجب في تلخيص المغرب، تحقيق: محمد سعيد العريان (القاهرة، لجنة احياء التراث الإسلامي، 1963)، ص78.

(69) المعجب في تلخيص المغرب، مصدر سابق، ص78.

(70) ابن الابار، التكملة، طبعة مجريط:278/1.

(71) ابن الابار، التكملة، طبعة القاهرة: 563/2؛ المراكشي، الذيل والتكملة: س6/6؛ ابن الزبير، صلة الصلة، ص3.

مؤثرة ذات نفوذ وسلطان في المدينة لكي يسند ولايتها اليه، ووقع اختياره على ابي بكر عزيز بن خطاب، وكان موفقاً في اختياره لأنه كان على دراية وعلم بتاريخ اسرة بني الخطاب ونفوذها في مرسيه[1] وبالدور الذي اداه أبو بكر في المصالحة وحقن دماء المسلمين وتدارك الفتنة التي اجتاحت شرق الأندلس[2].

عُرف ابو بكر عزيز بعلمه وورعه، فهو من أهل الدين والنسك والزهد، سبّاقاً الى فعل الخيرات والأكثار من الصدقات مشغولاً بالعبادة وملازمة بيوت الله[3]. وكان ميالاً الى التصوف وقد استغل موهبته الأدبية ليكتب اشعاراً على الطريقة الصوفية منها:

لي حبيبُ أراهُ في كُلِّ آن   هو أُنسي وبُغيتي وجنانـــي
رام قومٌ ان يحجبوني عنهُ   فاختفى عن عيونهم وأتاني[4]

وكان له مجلس عامر بالعلم والآدب والشعر، يحضره كبار العلماء والأدباء حيث يقول ابن سعيد المغربي: "ثم تكررت المجالسة بين ابي وبين ابن خطاب فرغبت اليهما في الحضور عندهُ وسماع ما يكون في مجلسه من فنون الآداب، وصرت فيمن انتفع بكتبه ومجلسه"[5]. استمر أبو بكر على ولاية مرسيه لحين مقتل محمد بن هود في مدينة المرية سنة 635هـ/1237م، ومبايعة ولده ابو بكر محمد الملقب بالواثق بالله، الذي ارتكب خطأ بعزله لابي بكر عزيز عن ولاية مرسية، اذ كما يبدو لم يكن سياسياً محنكاً. وهذا ما دعى أهل مرسيه الى عزله بعد مرور سبعة أشهر من إمارته[6]. وولوا مكانه مكانه عمه علي بن يوسف بن هود وتلقب بعضد الدولة، ويبدو أن الاخير لم يكن أوفر حظاً من ابن أخيه اذ سرعان ما تمرد عليه اهل مرسيه بزعامة عميد اسرة بني خطاب أبو بكر عزيز، وتمكنوا من خلعه واخراجه من المدينة ومبايعة ابي بكر عزيز وذلك سنة 636هـ/1238م[7] حيث أمسك بزمام الأمور في مرسيه، وانتقل خلال مدة قصيرة من زي العلماء والفقهاء الى اصحاب الملوك والسيوف، بل والأكثر من ذلك بأنه أخذ يرهق الناس بجمع الاموال مستخدماً كافة الأساليب[8]. وقد يكون أخذه للمال بهذه الطريقة هو

---

(72) ابن الابار، الحلة السيراء: 308/2.

(73) عبد الله عنان، عصر المرابطين والموحدين في كتاب دولة الاسلام في الأندلس (القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، 1964)، ص395.

(74) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق: شوقي ضيف (مصر، دار المعارف، 1955): 274/2.

(75) ابن الابار، الحلة السيراء: 313/2.

(76) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلى، تحقيق: إبراهيم الابياري(ط2، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1980)، ص147.

(77) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب: 252/2.

(78) ابن الابار، الحلة السيراء: 310/2، 311.

(79) ابن سعيد المغربي، اختصار القدح المعلى، ص146.

لغرض سد حاجة ومتطلبات الحملات العسكرية والجهادية لمواجهة الخطر الأسباني المتزايد الذي كان يهدد مدينته. والاّ ما حاجته لجمع هذه الأموال وهو في الأساس يملك ثروة كبيرة ورثها عن آبائه. ازداد الانشقاق والكره بين اهالي مرسيه وبين واليهم أبي بكر عزيز، ومما زاد الأمور تعقيداً تلك الهزيمة التي تلقاها أبو بكر في أول حملة قادها سنة 636هـ/1238 ضد الاراغونيين الذين كانوا يهددون مرسيه باستمرار فتلقى خسارة كبيرة، وولى الأدبار الى بلدة مرسيه، فكانت هذه الهزيمة أحد الأسباب الرئيسية التي زادت من غضب وكره أهالي مرسيه، وتصميمهم على عزله[1]. استدعى أهالي مرسيه أبا جميل زيان بن مردنيش حاكم بلنسية في السادس عشر من رمضان سنة 636هـ/1238م[2] وكتبوا له ببيعتهم ودخل مرسيه، وثار الأهالي وهجموا على قصر أبي بكر عزيز بن خطاب وقبض عليه، وسجن في قصره ثم قتل

بظروف غامضة[3].

لقد أورد ابن سعيد المغربي رسالة كتبها شيخ كتّاب الأندلس وإمام ادبائهم وعلمائهم أبي المطرف أحمد بن عبد الله بن عميره المخزومي (ت:658هـ/1259م) الذي كان قد عقد بيعة أبي بكر عزيز بن خطاب بحقه، جاء فيها: "هوى من العلوم فروعها واصولها، وجمع منقولها ومعتولها، فلم أعلم لهُ سبيلا الاّ سلكه، ولا عناناً الاّ ملكه، ولا ميهماً الا فتحه، ولا غامضاً الاّ شرحه، وأقول قول منصف لهُ لا محاب، ذاكراً لهُ بعبرة وانتخاب، اني لا أعلم في هؤلاء الذين انارت بافقنا شهبهم، او بلغت الينا كتبهم من حق تحقيقه، ودقق في النظريات والعمليات تدقيقه، وكان في معظم عمره ناسكاً، ولسبيل البر والتقوى سالكاً ، زكي النفس، علي الهمة، كثير التواضع، يتعاهد المسكين برفذه ويعالج الضعفاء من عنده، ويدبر مرضاهم بقوة النظر في الطب لم تكن لأحد قبله، ثم انتكست حالة ايامه فنظر في بلد مرسيه موللي أولى ومستبدأ أخرى، وفي كلتا النبوتين اساء السيرة، وارتكب الخطايا الكثيرة، فكره الناس وكرهوه، وتنكرت القلوب له والوجوه، وكان آخر أمره أن جرّ قسراً، وقتل بالسيف صبراً"[4]. قدمت هذه الرسالة صورة واضحة جسدت الحياة العلمية والسياسية لأبي بكر عزيز. مبينة النهاية المؤلمة والحزينة التي انتهت بها حياتهُ على الرغم من ما امتلكه هذا الرجل من ماضي مشرق في دينه وعلمه ونسبه ، فالسياسة والحروب لها رجالاتها مثلما للعلم والفقه رجالاته.

---

(80) ابن الخطيب، اعمال الاعلام، نشر بعنوان (تاريخ اسبانيا الأسلامية)، تحقيق: ليفي بروفنسال(ط2، لبنان، دار المكشوف، 1956)، ت275/2.

(81) ابن الابار، الحلة السيراء:310/1.

(82) ابن الابار التكملة، طبعة مجريط: 196/2؛ ابن الخطيب، اعمال الاعلام: ق275/2.

(83) اختصار القدح المعلى، ص45.

ثالثاً: بنو الخطاب على عصر مملكة غرناطة

لم تشهد هذه الفترة ظهور لأسرة بني الخطاب على الساحة السياسية والعلمية بشكل قوي ومؤثر كالذي عرفناه في الفترات السابقة. ويبدو أن نهاية أبي بكر عزيز المؤلمة كانت سببا في ابتعادهم عن المشاركة في الحياة السياسية، فضلاً عن الظروف العامة للأندلس وما تعانيه من عدم استقرار سياسي بسبب الضغط الأسباني سبباً ثانياً. لكن هذا لا يعني بان اسرة بني الخطاب دخلت دائرة النسيان، اذ لم تخل الساحة العلمية لمدينة مرسيه من انجازاتهم فبرز خلال هذه الفترة احد اعلامهم وهو العالم الفقيه:ابو محمد عبد الله بن محمد بن احمد بن عبد الملك بن محمد (ابو جمرة) (ت711هـ/1311م)

تربى أبو محمد في اسرة عرفت بحبها للعلم والعلماء، اذ كان اجداده من اعلام وقتهم لا سيما في العلوم الشرعية فهذه البيئة العلمية والتربوية لأبي محمد عبد الله جعلت منه محط انظار واحترام الجميع فلقد وصفه ابي الخطيب بالقول بانه كان: "صاحب خلق رفيع، كثير الحياء" محباً للخير والسعي من اجله[1]. نشأ أبو محمد في مرسيه وفيها تلقى وفيها تلقى علمه وفقهه، فقد كان ملازماً لفقيه مشهور هو أبو بكر محمد بن احمد الر قوطي (ت:اواخر القرن السابع الهجري) وقد كانت لهذه الصحبة أثر كبير في تكوين شخصية أبو محمد عبد الله[2]. لما عرف عن هذا العالم من مكانة وفضل في ميدان العلم وخدمة المجتمع الاندلسي حتى ان الملك فرناندو الثالث عندما استولى على مرسيه سنة 640هـ/1123م اسس مدرسة لتعليم المسلمين والنصارى واليهود[3].

بعد سقوط مرسيه على ايدي القشتاليين سنة 662هـ/1264م، نزح الكثير من الأهالي والعلماء والفقهاء عن المدينة منهم فقيهنا أبو محمد عبد الله الذي اختار غرناطة ليسكن فيها، حيث أسند اليه منصب قضاء غرناطة، ثم ارتحل ليتولى قضاء البيره وجهاتها. ولم يستقر ابو محمد عبد الله طويلا بسبب تعرض المدينة لهجمات القوات الأسبانية فشد رحاله وجاز الى مدينة سبتة[4] ولما كان بنو الخطاب معروفين بتاريخهم العريق والطويل في الأندلس وبعراقة نسبهم فقد سبقتهم هذه السمعة الطيبة الى اماكن كثيرة. وهذا ما دفع امراء سبتة الى التقرب والرغبة في مصاهرة الفقيه أبي محمد عبد الله من بناته[5]. ولم تكن سبتة بأفضل حال من غرناطة فهي لم تكن مستقرة أيضاً اذ كان الصراع قائماً بين بني الأحمر والمرينيين للسيطرة عليها. ويبدو أن الفترة التي كان فيها أبو محمد عبد الله في سبته كانت الأخيرة تحت حكم بني

---

(84) ابن الخطيب ، الاحاطة في اخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان (القاهرة، مكتبة الخانجي، 1975): 415/3.

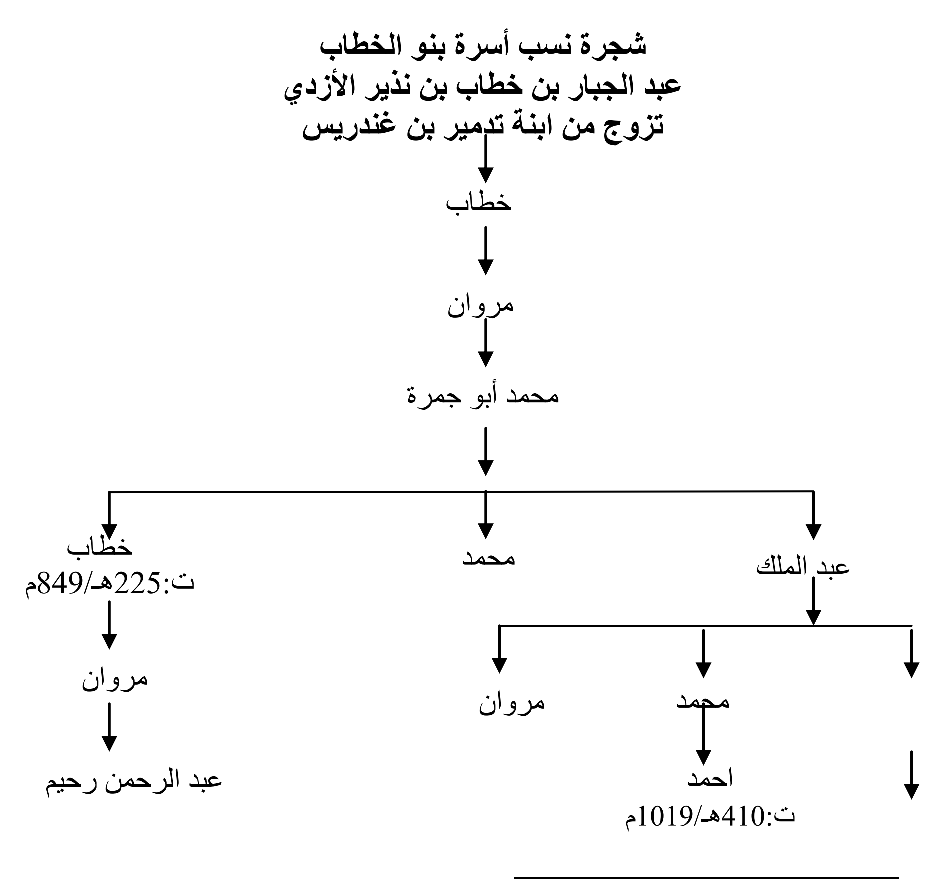
(85) المصدر نفسه: 415/3.

(86) المصدر نفسه: 67/3.

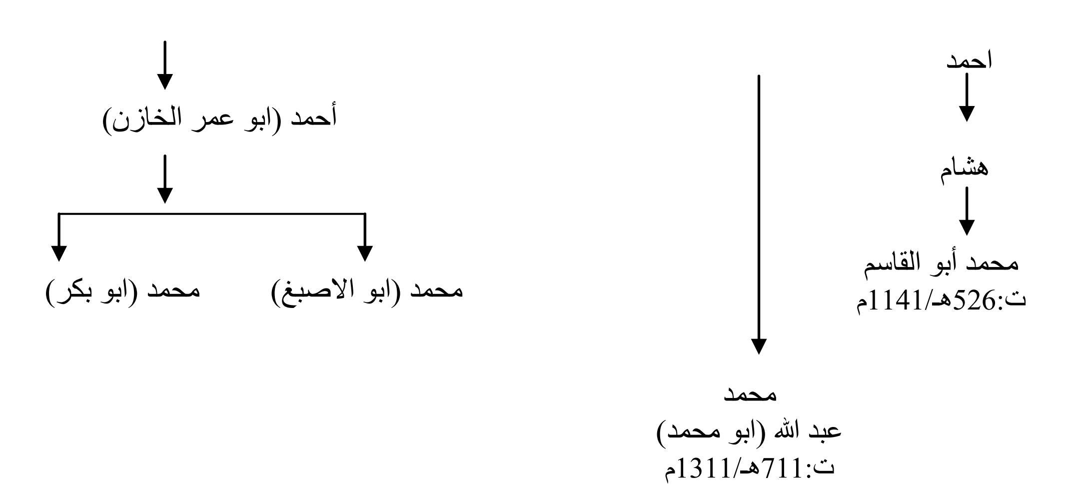
(87) المصدر نفسه: 415/3.

(88) المصدر نفسه: 415/3.

الأحمر وكان ذلك سنة (705هـ/1305م) [1] واستمر الصراع قائماً الى ان تمكن المرينيين من استرجاع المدينة سنة 709هـ/1309م. وفي هذه الأثناء غادر أبن خطاب سبتة عائداً الى غرناطة ليستقر بها بشكل نهائي، وليشغل فيها منصب خطيب غرناطة[2]. استمر ابو محمد بن عبد الله بمنصبه حتى وفاته سنة 711هـ/1311م ونتيجة للمكان الكبيرة التي كان عليها أبو محمد عبد الله فقد خرج في جنازته أهالي غرناطة الخاصة منهم والعامة اعظاماً لمنزلته وإجلالاً لخلقه وعلمه حتى أكثر الناس من البكاء عليه كأنهم ما فقدوا عالماً غيره[3]. وبوفاة أبي محمد عبد الله بن خطاب انقطعت اخبار هذه الأسرة الجليلة الشأن العظيمة المكانة في مرسيه. فلم تذكر المصادر التاريخية أخبار هذه الأسرة أو أسماء رجالاتها.



(89) المصدر نفسه: 522/1.
(90) المصدر نفسه:415/3.
(91) المصدر نفسه: 415/3.



كتب الصلات الأندلسية نهج فريد في فن التراجم الإخبارية

عبد الواحد عبد السلام شعيب
جامعة طرابلس/ ليبيا

عرفت حركة الكتابة التاريخية في الأندلس منذ نشأتها اهتماماً كبيراً بالتأريخ للرجال والأعلام الذين نبغوا في فنون العلم المختلفة كالفقه والحديث والقراءات والتاريخ والأدب وغيرها، وذلك بظهور بعض المؤرخين أمثال أبي عبد الملك أحمد بن عبد البر(ت 949/338م) وأحمد بن محمد الرازي (ت 344هـ/955م) وغيرهما ممن عنوا بهذا الفن وأسهموا بكتابات مهمة وإن لم تصل إلينا إلا على هيئة نقول أو شذور مبثوثة في بعض المصادر اللاحقة. ولكن على الرغم من هذا فإن أدب التراجم في الأندلس لم يتألق إلا على يدي المحدث الكبير والمؤرخ الشهير أبي الوليد بن الفرضي الذي استطاع بمؤلفه الحافل (تاريخ علماء الأندلس) أن ينقله نقلة نوعية أضحى من خلالها مثالاً ونموذجاً للتأليف في فن التراجم عند الأندلسيين والمغاربة من بعده. يضاف إلى ذلك أن كتاب ابن الفرضي هذا يتميز عن غيره من المظان الأندلسية الأخرى بخاصيتين اثنتين:

أولهما: أنه قد غطى فترة مهمة من تاريخ الأندلس، قد ضاعت أغلب كتابات المؤرخين الذين ظهروا خلالها والتي تمتد من الفتح الإسلامي وحتى مطلع القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ويتمثل في احتفاظه بالكثير من النصوص التاريخية لهؤلاء المؤرخين الأندلسيين ممن سبقوه، فضلاً عن معايشته للعديد من الأعلام، أو الأحداث أو الوقائع، والتأريخ لها بنفسه معتمداً على خبرته ودرايته التاريخية الواسعة.
وثانيهما: أن هذا الكتاب قد أصبح مرجعية وأساساً لمجموعة من التآليف التي ذيلت عليه ونسجت على منواله وهي ما عرفت باسم كتب الصلات الأندلسية.
ونظراً لما يكتسي كتب الصلات هذه من أهمية علمية وتميز على المستويين المنهجي والتقني، لذا فإني ارتأيت أن أدرس هذا الموضوع: **(كتب الصلات الأندلسية نهج فريد في فن التراجم الإخبارية)** في المحاور التالية:

- التعريف بكتب الصلات الأندلسية
- منهج أصحاب الصلات في التأريخ للتراجم
- الجوانب الإبداعية في تصنيف الصلات الأندلسية
- تفرد كتب الصلات بمصادر تاريخية نادرة
- أهمية كتب الصلات في دراسته الصلات الفكرية بين الأندلس والمشرق
- القيمة الأدبية لكتب الصلات الأندلسية

أولاً: التعريف بكتب الصلات الأندلسية:

لما كان (تاريخ علماء الأندلس) لابن الفرضي هو أقدم معجم رجال يصل إلينا[1] من نتاج الأندلسيين في هذا الميدان لذا فقد أكسب ذلك صاحبه مكانة سامقة بين العلماء والمؤلفين من ناحية، ثم تأسى العديد من المؤرخين بمنهجه واقتفائهم لأثره في تآليفهم التي وصلوا بها هذا الكتاب من ناحية ثانية.
وابن الفرضي هذا هو أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف نصر الأزدي القرطبي الحافظ المعروف بابن الفرضي[2] والذي كان فقيهاً عالماً عارفاً بعلم الحديث ورجاله، متسع الرواية، بارعاً في الأدب، مطبوعاً في الفصاحة، حسن الشعر والبلاغة والخط، جماعاً للكتب . وقد درس ابن الفرضي على الكثيرين من شيوخ قرطبة وعلمائها المشاهير، كما كانت له رحلة إلى بلاد المشرق أخذ فيها عن جلة من أساتيذها وأعلامها الكبار ثم عاد إلى الأندلس

1- بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 270 .

2- ينظر في ترجمته: ابن بشكوال: الصلة 391/1 – 395 ؛ الحميدي: جذوة المقتبس 1/ 396 – 398 ؛ ابن بسام: الذخيرة 614/2/1 – 616 .الضبيّ: بغية الملتمس 433/2 و 434 ؛ ابن سعيد: المغرب في حلى المغرب 103/1 104 ؛ ابن دحية: المطرب ص 132 ؛ الذهبي سير أعلام النبلاء 177/17 – 180 ؛ ابن فرحون: الديباج المذهب 452/1 ؛ السيوطي: طبقات الحفاظ 418 و 419: بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 270 – 272 .

بمعرفة واسعة وعلم جم[1]. أما أشهر مصنفاته فأهمها (تاريخ علماء الأندلس) المذكور، وكتاب (طبقات الأدباء والشعراء بالأندلس) و(المؤتلف والمختلف) و(مشتبه النسبة[2]) وغيرها. وكانت وفاته بقرطبة في مطلع القرن الخامس الهجري (ت 403هـ/ 1012م) .

كما أن مما تجدر ملاحظته كذلك أن أبا الوليد بن الفرضي قد كان له أيضاً تأثير قوي على تلامذته وطلبته الذين نهلوا من علمه وتحلقوا من حوله للدرس والتحصيل، حيث تخرج على يديه نخبة من كبار المؤرخين الذين عرفتهم بلاد الأندلس، بل والعالم الإسلامي قاطبة أمثال: شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان (ت 469هـ/1076م) والمؤرخ الناقد ابن حزم (ت 456هـ/1063م) ثم المؤرخ أبو عمر بن عبدالبر الحافظ (463هـ/1070م) حيث كان له الفضل الكبير في تكوينهم التاريخي، ناهيك عن نقولهم الكثيرة عنه في كتبهم وتآليفهم . وهكذا ولما كان كتاب ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس) هو أول المؤلفات في سلسلة كتب التراجم الأندلسية التي عرفت بالصلات، لذلك فلا بد من التعريف بهذه المصنفات وبأصحابها لكي نستطيع
من خلالها تكوين تصور شمولي ورؤية واضحة لمكانتها العلمية والمنهجية .

وعليه فإن أول من وصل تاريخ ابن الفرضي هذا من المؤرخين هو أبو القاسم خلف بن بشكوال (ت 578هـ) بمؤلفه القيم (كتاب الصلة) الذي طارت شهرته الآفاق شرقاً وغرباً. وقد كان ابن بشكوال هذا قد جمع بين علم الحديث والتاريخ حيث كان بقية المسندين بقرطبة والمسلّم له في حفظ أخبارها ومعرفة رجالها[3]. أما بالنسبة لمؤلفاته التي أسهم بها في الميدان العلمي فقد بلغت نحواً من خمسين تأليفاً في فنون مختلفة أجلها (كتاب الصلة)[4] المشار إليه، والذي يقول فيه ابن الأبار: "بأنه وصل به المنفصل، وطبق في معارضة أبي الوليد بن الفرضي المفصل، وجاء بحسنة أثمرت له الحسنى وجاد على عفاة العلم بصلة ما أسنى، لا جرم أنه أعاد بها من كان فانياً وأعاد الأندلس وأهلها عمراً ثانياً"[5]. بيد أن ابن بشكوال قد حدد طريقته التي سلكها في مصنفه هذا عندما أخذ على عاتقه مهمة الترجمة للعلماء الأندلسيين الذين ظهروا بعد ابن الفرضي وحتى عصره[6] الذي عاش فيه أي القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي .

- ثم هناك تلميذ ابن الفرضي وهو أبو بكر محمد بن إسحاق ين مهلّب (ت450هـ/1058م) الذي وضع ذيلاً على تاريخ أستاذه، سمّاه (تعليق على

1- ينظر ابن بشكوال: الصلة 391/1 .
2 - المصدر نفسه والصفحة .
3- ابن الأبار: التكملة 1 / 248
4 - المصدر نفسه ص 249 .
5 - نفسه ص 5
6 - إذ يقول في مقدمة صلته: (وأن ابتدئ من حيث انتهى كتابه أي ابن الفرضي وأين وصل تأليفه، متصلاً إلى وقتنا) ابن بشكوال الصلة 1 / 23 .

تاريخ ابن الفرضي واستلحاق)[1]. بينما جعله ابن عبدالملك المراكشي استدراكاً على كتاب شيخه حين قال: (وله استدراك نبيل عليه في تاريخه – أي تاريخ ابن الفرضي – يشهد بنباهته ومعرفته[2]) .
- ومن الذين اهتموا أيضاً بدراسة مؤلف ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس) والكتابة حوله المؤرخ أبو محمد عبد الله ابن قاسم بن خلف اللّخمي الاشبيلي الذي صنف كتاباً سمّاه (المنهج الرضيّ في الجمع بين كتابي ابن بشكوال وابن الفرضي بزيادة على ذلك[3]). لكن من اللافت للانتباه هنا أن أكثر المؤلفات التي ذيلت على كتاب ابن الفرضي ونالت شهرة فاقت هذا الكتاب نفسه هو كتاب (الصلة) المشار إليه لابن بشكوال، وذلك إما بسبب كثرة من ذيلوا هذا الكتاب أي-الصلة البشكوالية - من العلماء والمؤلفين، أو من خلال اتخاذ أصحاب الصلات لكلمة الصلة ذاتها مرادفاً لتآليفهم التي دبّجوها تذييلاً عليه واستكمالاً له. ومن هؤلاء المؤرخين الذي وصلوا كتاب (الصلة) لابن بشكوال:

1. أبو بكر محمد بن سفيان بن سيّداله التيجبي (ت 558هـ)، وكان ذاكراً للأخبار، وحافظاً لأسماء الرواة، وألف مجموعاً في رجال الأندلس وصل به كتاب ابن بشكوال[4] .
2. أبو القاسم محمد بن عبد الله بن سفيان المعروف بالقنطري (ت 561هـ)، والذي له زيادة على ابن بشكوال في تاريخه (الصلة) كتبها عنه ابن الأبار كما يقول في التكملة[5].
3. أبو عمر يوسف بن عبد الله بن أبي زيد المعروف بابن عيّاد (ت 575هـ)، وقد شرع في تذييل كتاب (الصلة) لابن بشكوال، وكان متهمّما بحفظ أخبار الشيوخ وتدوين قصصهم وأشعارهم وتسجيل وفياتهم ومو الدهم[6].
4. أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن أبي عيسى الأنصاري المعروف بابن حبيش(ت 584هـ) وقد قام باقتضاب (الصّلة) لابن بشكوال، كما استحلق أشياء عنها[7]. ويقول عنه ابن الأبار: (وكان آخر المحدّثين بالمغرب والمسلّم والمسلّم له في حفظ أغربة الحديث ولغات العرب وتواريخها ورجالها وأيامها، لم يكن أحد من أهل زمانه يجاريه في معرفة رجال الحديث وأخبارهم وموالدهم ووفياتهم[8]) .

---

[1] - بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 271 .
[2] - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر السادس ص 37 .
[3] - ابن الأبار: التكملة 297/2 ن، 297 وكان أبو محمد بن خلف اللخمي هذا من أعلام القرن السابع الهجري، إذ توفي في حصار الروم لإشبيلية سنة 646 هـ ينظر ابن الأبار: المصدر نفسه والصفحة .
[4] - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة السفر السادس ص 281 .
[5] - ابن الأبار: التكملة 2 / 29 و 30 .
3-ينظرالأبار: التكملة 4 / 211 و 121 .
4- ابن الأبار ك المصدر نفسه 3 / 34 – 36 ؛ بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ص274 .
[8] - ابن الأبار: التكملة 3 / 35 .

5. أبو العباس أحمد بن يوسف بن بن فرتون[1] السّلمي (ت 660هـ) وهو من أهل فاس واستوطن مدينة سبتة وقد كانت له رحلة إلى بلاد الأندلس سنة 635هـ[2]. كما ألف كتاب (الذيل على الصلة) والذي كان من مصادر ابن الأبار في (تكملته[3]) وهنا تجب الإشارة إلى أن ابن الزبير هو الذي هذّب كتاب شيخه ابن فرتون هذا الذي ذيل به صلة ابن بشكوال كما ذكرنا .

المؤرخ الناقد أبو عبدالله بن الأبّار البلنسي (ت 658هـ/1259م) والذي يعدّ من أكبر مصنّفي معاجم الرجال في الأندلس، ومن مؤلفاته التي وصلت إلينا في هذا المجال: كتاب (الحلّة السّيراء) و(المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصَّدفي) و(إعتاب الكتّاب) و(تحفة القادم) ثم (التكملة لكتاب الصلة) الذي وصل به تاريخ ابن بشكوال، والذي تصدّى فيه استكمال ما فات سابقيه ابن الفرضي وابن بشكوال، ومواصلة التأريخ والترجمة للأعلام إلى أيامه[4] (ت 658هـ) .

وقد نال ابن الأبّار إعجاب الكثيرين من العلماء سواء من القدامى أم من المحدثين، ومن هؤلاء أبو العباس الغبريني الذي قال في ترجمته: (الشيخ الفقيه، المحدث المقرئ، النحوي، الأديب المجيد، اللغوي الكاتب البارع التاريخي[5]). أما صاحب (نفح الطيب) فقد وصفه بأنه: (الفقيه الأجلّ، الكاتب الكاتب الحافل الراوية المحدّث، والفاضل الناقد البارع، الحافظ الكامل[6]) .

وبالنسبة للمستشرق الهولندي دوزي فقد قرّر بأنه (مؤرخ ثبت دقيق جدير بكل ثقة، وأنه حافظ جمع فأوعى، وحفل صدره من العلم بالمغرب والأندلس، وبتاريخ الإسلام عامة، ما لم يصل إليه إلا القلائل من علماء القرن السابع الهجري، وأن أسلوبه الأدبي قوي جميل فيه فحولة ندرت بين أهل عصره[7]) عصره[7]) ويمكن أن نضيف إلى هذا أيضاً أن ابن الأبار بوصفه محدّثاً حافظاً ومؤرخاً ناقداً، وكاتباً مفلقاً، فقد جاء كتابه (التكملة لكتاب الصلة) في منتهى الدقة من الحفل والإتقان، ناهيك عن رجوعه فيه إلى عدد جم من المصادر والمراجع الموثوقة التي لم تتوفر لدى الكثيرين من أصحاب التراجم والطبقات الآخرين

---

[1] - ينظر في ترجمته: ابن الزبير: صلة الصلة 5 / 349 و 350 ؛ أحمد بابا التنبكتي؛ نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص 79 / و 80 ؛ ابن القاضي المكناسي: جذوة الاقتباس 1 / 117 – 119؛ الكتّاني: فهرس الفهارس 2 / 910 وقد كانت له مشاركة في الفقه وغيره . ينظر ابن الزبير: صلة الصلة، 3 / 44 و 45 .

[2] - ابن الزبير: صلة الصلة ق 5 ص 349 .

[3] - ينظر مثلاً: التكملة 4 / 256 .

[4] - ينظر بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 50 .

[5]- أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ص 309 .

[6]- أحمد المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار عياض 204/3 .

[7]- حسين مؤنس في تقديمه لكتاب الحلة السيراء، ج 1 ص 8 .

6. المؤرخ النقادة أبو عبد الله بن عبد الملك المراكشي (ت 703هـ/1303م) الذي ألف موسوعة ضخمة أطلق عليها اسم (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) وهو من أكبر كتب الصلات التي وصلت إلينا، وأكثرها اتساعاً وتفصيلاً في التأريخ للتراجم، وهذا الكتاب كان قد استأثر بمعظم جهد ابن عبد الملك ووقته، وذلك لاعتكافه عليه وتهممه بجمع مادته ونصوصه، حيث يقول شيخه ابن الزبير: (وعلى هذا الكتاب عكف عمره، ولم يتم له مرامه منه إلى أن لحقته وفاته؛ لأنه ألزم نفسه فيه ما يعتاص الوفاء به من استيفاء ما لم يلتزمه ابن بشكوال ولا الحميدي ولا ابن الفرضي، ومن سلك مسلكهم[1]).

لكن من اللافت للانتباه أن ابن عبد الملك المراكشي بمؤلّفه (الذيل والتكملة) هذا يعد قد ارتقى مرتقاً صعباً، وتقحّم ميدانياً وعراً، دون غيره من أصحاب الصلات، وذلك عندما لم يقتصر في التذييل على كتاب واحد، كما فعل ابن الأبار وابن فرتون وابن الزبير في تذييلهم ووصلهم لكتاب ابن بشكوال، ولكنه هو تصدى للتذييل على الصلة البشكوالية، والتكميل لابن الفرضي، أصل ابن بشكوال في آن واحد، وجعل ذلك في عنوان كتابه، فجعل نفسه نداً ابن بشكوال[2] .

7. أبو جعفر بن الزبير[3](ت 708هـ/1309م: وهو صاحب كتاب (صلة الصلة) الذي وصل به صلة ابن بشكوال، وكان ابن الزبير هذا كما يقول ابن الخطيب: (خاتمة المحدثين، وصدور العلماء والمقرئين، نسيج وحده، في حسن التعليم والصبر على التسميع والملازمة للتدريس[4]). أما مؤلفه (صلة الصلة) فهو من كبار المعاجم الأندلسية والمغربية، كما أنه يصوّر لنا الحركة الفكرية والاجتماعية بالغرب الإسلامي في القرنيين السادس والسابع للهجرة، في أحلى مظاهرها، وأكمل صورها[5].

8. لسان الدين بن الخطيب (ت 776هـ/1374م) وهو الذي اختتم سلسلة كتب الصلات الأندلسية بمؤلفه القيم (عائد الصلة) وهذا الكتاب للأسف لم تبق منه إلا مجموعة من النصوص والنقول التي احتفظ بها بعض المؤرخين أمثال: ابن الخطيب في (الإحاطة) وأحمد بابا التنبكتي في (نيل الابتهاج) والسيوطي في (بغية الوعاة) وغيرهم. ويحظى ابن الخطيب هذا بأسلوب

---

[1] - ابن الزبير: صلة الصلة 3 / 45 .

[2] - ينظر عبد العزيز الأهواني (صلة الصلة لابن الزبير والتكملة لابن عبد الملك) مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، العدد الثالث، المجلد الأول، 1955، ص 11 .

[3] - أصله من مدينة جيّان وسكن غرناطة، وهو من أهل التجويد والإتقان، عارفاً بالقراءات، حافظاً للحديث، مميّزاً لصحيحه من سقيمه، ذاكراً لرجاله وتواريخهم، متّسع الرواية، من تآليفه: برنامج رواياته، وكتاب الإعلام بمن ختم به القطر الأندلسي من الأعلام، ومعجم شيوخه، فضلاً عن صلة الصلة . ينظر ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة، السّفر الأوّل، القسم الأوّل، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت – لبنان، (د.ت)، ص39-45، السيوطي: بغية الوعاة 291/1 و 292 .

[4] - ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة 189/1 .

[5] - ينظر صلة الصلة، مقدمة المحققين عبد السلام الهراس والشيخ سعيد أعراب ص 11 و 12 .

تاريخي متميز ويعود ذلك لسببين أولهما: أنه كان مؤرخاً عالج المواضيع التاريخية بعقلية المؤرخ، وبأسلوب يختلف كلياً عن معالجته للمواضيع الأدبية. وثانيهما: أنه تميز باطلاعه الواسع على كتب المؤرخين الذين تطرقوا للعهود التي اهتم بها التاريخ الأندلسي، فتأثر بأبرزهم في كتابته التاريخية وبخاصة ابن حيان[1] .

ثانياً: منهج أصحاب الصلات في التأريخ للتراجم:

أشار معظم مؤلفي الصلات الأندلسية في مقدماتهم إلى المنهج والطريقة التي سلكوها في كتابة هذه المصنفات، ولما كان ابن الفرضي هو أول من ألف كتاباً كاملاً في فن التراجم الإخبارية بالأندلس، لذلك فإنه صرّح في مقدمة هذا الكتاب عن غرضه من التأليف والخطة التي نهجها في التأريخ لرجاله ومترجميه حين قال: (وغرضنا فيه ذكر أسماء الرجال وكناهم وأنسابهم، ومن كان يغلب عليه حفظ الرأي منهم، ومن كان الحديث والرواية أملك به، وأغلب عليه، ومن كانت له إلى المشرق رحلة، وعمن روى، ومن أجلّ من لقي، ومن بلغ منهم مبلغ الأخذ عنه، ومن كان يشاور في الأحكام ويستفتي، ومن ولي منهم خطة القضاء، ومن المولد والوفاة ما أمكنني، على حسب ما قيدته[2]) . بيد أن هذا المنهج الذي اتبعه ابن الفرضي في كتابه المذكور، أضحى هو ديدن أصحاب كتب الصلات الآخرين من حيث الاحتذاء به واستنهاج سبيله. ونتيجة لذلك نجد ابن بشكوال وهو أول من وصل تاريخ ابن الفرضي يقول في مقدمة صلته: (ورتبته على حروف المعجم، ككتاب ابن الفرضي، وعلى رسمه وطريقته[3]) .

ولكن مع هذا كله فإن ابن بشكوال لم يقف عند هذا الحد، بل أضاف إلى جهد ابن الفرضي جهداً آخر، عندما قام بتتبّع وذكر من أهملهم سابقه ابن الفرضي ولم يشملهم حصره في عصره، فضلاً عن ترجمته لمن ظهروا بعد عصر ابن الفرضي إلى السنة التي انتهى إليها في كتابة صلته، وهي سنة 534 هـ[4] وبينما كانت وفاة أبي الوليد بن الفرضي في سنة 403هـ كما أسلفنا.

أما ابن الأبار الذي ذيل صلة ابن بشكوال بمؤلفه (التكملة لكتاب الصلة)، فعلى الرغم من أنه قد ترجم لأعلام الأندلس أو الطارئين عليها ممن ظهروا بعد عصر ابن بشكوال، لكنه ألزم نفسه بمراجعة من نسيه كل من المؤرّخين ابن الفرضي وابن بشكوال وذلك في قوله:(ولم أقتصر به على الابتداء من حيث انتهى ابن بشكوال، بل تجاوزته وابن الفرضي، أولى التقصّي، وأتوخّى الإكمال، وربما أعدت من تحيّفا ذكره، ولم يتعرفا أمره[5])

أمره[5])

---

[1] - ينظر امحمد بن عبود: مباحث في التاريخ الأندلسي ومصادره، ص 119 .

[2] - أبو الوليد بن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 1 / 22 .

[3]- ابن بشكوال: الصلة 23/1 .

[4]- من مقدمة المحقق لكتاب الصلة 17/1 .

[5]- ابن الأبار: التكملة 6/1.

كما يلاحظ أن كل من ابن الأبار وابن فرتون وابن الزبير قد قاموا بترتيب أبواب كتبهم على نسق الحروف المتعارف عليه ببلاد المغرب مع الترتيب المشرقي إلى حرف الزّاي. يضاف إلى ذلك أنهم جعلوا الأسماء في الأبواب على طبقات المذكورين فيها، فقدموا الأسبق فالأسبق في الوجود، وعقّبوا كل اسم من أسماء الأندلسيين بمن وجدوه موافقاً له من الغرباء، تحت اسم الطّارئين على الأندلس، وجعلوا كذلك الأسماء في كل باب على حسب الأشهر فالأشهر، ثم ختموا كل حرف بذكر تفاريد الأسماء[1]. وفيما يختص بابن عبد الملك المراكشي صاحب (الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة) فإن كتابه هذا يعدّ من أكبر معاجم الأعلام التي ألّفها الأندلسيون والمغاربة قديماً، يضاف إلى ذلك أن تراجم ابن عبد الملك تمتاز بطولها وغزارة مادتها العلمية وربما يشبه في هذا المنحى بعض أعلام المدرسة المشرقية أمثال ابن خلّكان والذهبي والصفدي[2]، فضلاً عن كثرة نصوصه الأدبية من شعر ونثر والتي تخللت الكثير من تراجمه وهو الأمر الذي يضفي على كتابه قيمة تاريخية وأدبية أيضاً . وبالنسبة للترتيب المعجمي لتراجمه فقد آثر إتباع الترتيب المشرقي للحروف، فوافق في ذلك ابن الفرضي وابن بشكوال وخالف ابن الأبار وغيره، إلا أنه بدأ في حرف الهمزة بمن اسمه (أحمد)، وفي حرف الميم بمن اسمه (محمد) تيمّناً وتبرّكاً بموافقة اسمي النبي صلى الله عليه وسلم[3]. وإذا كان أصحاب الصلات الأندلسية قد تأثّروا أيّما تأثّر بمدرسة الحديث التي تقوم على الجرح والتعديل ونقد السّند، فإن ابن عبد الملك المراكشي يعد من أكثرهم استعمالاً للمنهج النقدي في تراجمه والردّ على أصحاب كتب التراجم الذين سبقوه في العديد من المواضع، ومنهم ابن بشكوال وابن الأبار، وكما أنه لم يقتصر على تصحيح الأنساب والأسماء وتواريخ الوفاة الواردة لديهم، فحسب بل تجاوز ذلك إلى أحكام شخصيّة على آثار بعض هؤلاء الأعلام[4].

وتمّة ملاحظة أخرى مهمة حول منهج ابن عبد الملك الذي يعتمد على الإطالة والإسهاب في التعريف بمترجميه دون غيره من أصحاب الصلات الآخرين كما أوضحنا، في أنه ربما أراد أن يطبّق من خلاله ما كان يؤمّله ابن الفرضي في تاريخه، التي حالت بعض العوائق أن يكون مؤلّفاً شاملاً فلجأ إلى الاختصار والتركيز بسبب ذلك وهذا ما أكّده في مقدّمة كتابه حين قال: ((إذ كانت نيتنا قديماً أن نؤلف في ذلك كتاباً واعباً، يشتمل على الأخبار والحكايات، ثم عاقت عوائق من بلوغ المراد فيه، فجمعنا هذا الكتاب

---

[1] - ينظر ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة س1/ ق1 ص9 و 10 .

[2] - ينظر محمد بن شريفة في مقدمته للسّفر الأول من القسم الثامن من الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي ص99 و 100 .

[3] - من مقدمة إحسان عباس في تحقيق السفر الرابع من كتاب الذي والتكملة للمراكشي ص ك .

[4] - ينظر عبد العزيز الأهواني: (صلة الصلة والتكملة لابن عبد الملك) ص 10 .

مختصراً))[1]. وعلى ذكر المنهج الذي سلكه أصحاب الصلات الأندلسية في الترجمة لرجالهم وأعلامهم فإنه توجد بالإضافة إلى ما سبق بعض القواسم المشتركة، التي جمعت بين المؤرخين وكوّنت لديهم جملة من السمات العامة التي تميزت بها كتاباتهم التاريخية في هذه المظانّ، ومنها على سبيل التمثيل لا الحصر:

أ. **ربط التاريخ الثقافي بالتاريخ السياسي**: ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده ابن الفرضي في ترجمة أحمد بن محمد بن داود، المعروف بابن الحذَّاء التي جاء فيها: (وكان قارئاً للقرآن، صلى بالأمير عبد الله بن محمد أربعة عشر عاماً، وبعبد الرحمن بن محمد الناصر، من أول خلافته إلى أن توفي رحمه الله)[2] .ومثّل قول ابن عبد الملك في وفاة ابن عات: (واستشهد أبو عمر بن عات رحمه الله في وقيعة العقاب من ناحية جيّان على المسلمين يوم الاثنين منتصف صفر تسع وستمائة ... وكانت هذه الحادثة الشنعاء مع الناصر أبي عبد الله بن محمد بن المنصور ... وهي التي كانت السبب الأقوى في تحيّف الروم بلاد الأندلس، حتى استولوا على معظمها، وأفضى إلى إخلائها من أهل الملّة الحنيفيّة)[3]. وعن أبي جعفر أحمد بن ثابت العوفي يقول ابن الأبار: (واستشهد في وقيعة البورت منصرف العساكر من غزو برشلونة، مع أبي عبد الله بن الحاج وابن عائشة وابن تافلويت، وقتل ابن الحاج منهم وذو الوزارتين أبو عبدالله بن الحاج الطرطوشي دليل المسلمين في تلك الغزوة ... وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسمائة)[4] .

ب. **نقد الأعلام المترجم لهم**: من الملاحظات المنهجية المهمة التي تستوقف القارئ لكتب الصلات الأندلسية بين الفينة والأخرى، هو كثرة انتقادهم لأعلامهم ومترجميهم من خلال الإفصاح عن قصورهم أو أخطائهم كلما تسنى لهم ذلك ولكن مع التزامهم الشديد في الوقت نفسه بذكر ميزاتهم وإبداعاتهم العلمية المختلفة .

فها هو ابن الفرضي لا يستنكف في انتقاد العالم والفقيه محمد بن عمر بن لبابة بعد أن نوّه بتمكّنه في علوم الفقه والمسائل قائلاً: (وكان إماماً في الفقه مقدّماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر بالفيتا ... ولم يكن له علم بالحديث، ولا معرفة بشيء منه، وكان غير ضابط لروايته يحدثّ بالمعاني، ولا يراعي اللّفظ[5]). أما ابن بشكوال فيقول في الترجمة ؟لأبي الحكم يحي بن محمد بن أبي المطرّف: (وروى كثيراً من كتب الأدب، واللغة، وقد أخذ عنه بعضها، ولم يكن عنده ضبط، ولا إتقان لما رواه)[6] .

---

[1]- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 23/1 .

[2] - المصدر نفسه 82/1 .

[3] - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة س1 ق2 ص562 .

[4] - ابن الأبار ك التكملة 34/1 و 35 .

[5] - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 680/2 .

[6] - ابن بشكوال: الصلة 966/3 .

ج. **الدقّة في التأريخ لوفيات الأعلام:** كثيراً ما يحرص أصحاب الصلات على الإتيان بأدقّ الروايات وأشملها لتواريخ وفيات الرجال والأعلام الذين تصدّوا لترجمتهم من حيث تحديدها تحديداً دقيقاً بالشهر والسنة وفي بعض الأحايين حتى باليوم والساعة وبخاصة فيما يتعلق بالأعلام الذين عاصروهم أو حضروا جنائزهم، مع ذكر من صلى عليهم من العلماء، واسم المقابر التي دفنوا فيها.

ومن ذلك مثلاً قول ابن الفرضي في ترجمته لمحمد بن أحمد بن مفرج: (توفي رحمه الله ليلة الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من رجب سنة ثمانين وثلاثمائة، ودفن يوم الجمعة بعد صلاة العصر، في مقبرة الرّبض، قرب أبي جعفر أحمد بن عون الله، رحمهما الله، وصلى عليه القاضي محمد بن يبقى بن زرب، شهدت جنازته، وشهدها أهل العلم)[1]. وفي حديث ابن بشكوال عن وفاة شيخه أبي بحر بن سفيان يقول:(وتوفي شيخنا أبو بحر رحمه الله، ليلة الأربعاء أول الليل، لثلاث بقين من جمادى الآخرة سنة عشرين وخمسمائة، ودفن يوم الأربعاء بعد صلاة العصر بالربض، وصلى عليه أبو القاسم بن بقي، وكان مولده سنة أربعين وأربعمائة)[2]. أما ابن عبد الملك المراكشي فيقول في وفاة المؤرخ أبي العباس أحمد بن الصّقر: ((وتوفي بمراكش بين صلاتي الظهر والعصر من يوم الأحد لثمان خلون من جمادى الأولى سنة تسع وستين وخمسمائة، ودفن يوم الاثنين بعده عقب صلاة الظهر، وصلى عليه القاضي أبو يوسف حجاجّ بن يوسف، وكانت جنازته عظيمة الحفل كثيرة الجمع، برز لها الرجال والنساء، ورفعوا نعشه على الأيدي رحمه الله))[3] .

وهكذا يفهم من هذه النصوص أن الطريقة التي سلكها أوّل مؤلّفي الصلات الأندلسية ورائد علم التراجم في الأندلس ابن الفرضي في التأريخ والترجمة للأعلام أضحت هي القاعدة الأساسية التي سار عليها من جاء بعده من أصحاب الصّلات الآخرين بدءاً بابن بشكوال (ت 875هـ) صاحب كتاب (الصلة) ونهاية بابن الخطيب (ت 776هـ) في (عائد الصّلة) .

ثالثاً: الجوانب الإبداعية في تصنيف الصّلات الأندلسية:

يمكن أن نجمل جوانب الإبداع والتميّز في تأليف هذه المصنفات الإخبارية في النقاط التالية:

1- أن هذه المؤلفات كانت من نتاج نخبة من جهابذة المحدّثين والمؤرخين من الأندلسيين وبعض المغاربة أمثال: أبي الوليد بن الفرضي، وابن بشكوال وابن الأبار، وابن عبدالملك المراكشي، وابن الزبير، وابن الخطيب، وابن حبيش، وهؤلاء كلهم عرفوا بدرايتهم العلمية الواسعة، وبعمقهم المنهجي،

---

[1] - ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 773/2.

[2] - ابن بشكوال: الصلة 361/1 .

[3] - ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة س 1/ق 1 ص 231 .

فضلاً عن فرط أمانتهم، ووثاقتهم وهذا ما جعل من مؤلفاتهم مثالاً يحتذى به العلماء والمؤلفون عبر الأحقاب الأعصر .
2- تعتبر كتب الصّلات هذه سجلات وأرشيفات علمية نادرة، بسبب حصرها لكافة العلماء وذوى النباهة، الذين عرفتهم العدوة الأندلسية عبر عصورها الإسلامية المختلفة من لدنّ الفتح الإسلامي لها، وحتى القرن الثامن الهجري/الثامن عشر الميلادي، أو من الطرّاء عليها ممن وفدوا من البلدان والحواضر الإسلامية الأخرى، واتخذوها مستقراً ومقاماً .
3- كما أن ممّا يؤكد الجانب الإبداعي عند مصنّفي كتب الصّلات الأندلسية، هو ما تحظى به تآليفهم هذه من تنوّع وتعدّد في المادة المصدرية، من كتب التاريخ العام، والحوليات، وتواريخ الأدب، والتراجم والطبقات، والفهارس والبرامج والمشيخات، والنوازل الفقهية، وكتب القضاء والحسبة، وكتب المناقب والكرامات، والسّير الذاتية، والرواية الشفهية، والمكاتبة والمراسلة، وشواهد القبور، وخطوط العلماء، وأقارب المترجمين لهم، أو المترجمين لهم أنفسهم، كل ذلك قد أعطى لهذه الكتب قيمة وثائقية وزخماً علمياً كبيراً .
4- إن هذا النّسق من التذييلات والتتمات الذي نهجه هؤلاء العلماء والمؤرخون من أصحاب الصّلات، بداية بابن الفرضي في (تاريخ علماء الأندلس) ونهاية بابن الخطيب في (عائد الصلة) يعد من ميزات وسمات الحضارة الإسلامية في الغرب الإسلامي، وهو الأمر الذي لم نجد له مثيلاً في المدرسة التاريخية المشرقية .
5- ولعلّ مما أضفى على كتب الصّلات الأندلسية تلك الشهرة والمكانة السَّامقة بين المصادر والمظان الأخرى، هو الطريقة التي سار عليها أصحابها في كثرة استدراكاتهم وانتقاداتهم لكتب بعضهم بعضاً، فضلاً عن متابعتهم الدقيقة وتقصّيهم للأعلام المترجم لهم من حيث رسم وضبط أسمائهم وألقابهم وكناهم وتحديد سنوات موالدهم ووفياتهم تحديداً دقيقاً، والإلماع بذكر من أغفلوه وهو من شرطهم . ومن أمثلة النماذج الدالة على ذلك ما أورده ابن الأبار في ترجمة الوليد بن عبد الوهاب القرطبي التي يقول فيها:" وقال وليد هذا: سمعت عبد الملك أبا سليمان بن حوط الله شيخنا يقول: لو كان لي حكم على أهل الأندلس لألزمتهم زيارة جامع قرطبة . لم يذكره ابن الفرضي وهو من شرطه"[1]. ومنها بعض استدراكات وانتقادات ابن عبد الملك المراكشي لكل من ابن بشكوال وابن الأبار وابن الزبير مثل قوله في ترجمة أبي عبد الله محمد سلام المعافرى "شاطبي، رحل إلى قرطبة، فأقام بها مدة، فلذلك غلط فيه أبو القاسم بن بشكوال فجعله من أهلها"[2].

---
[1]- ابن الأبار: التكملة 4 / 151 .
[2]- ابن عبد الملك يالمراكشي: الذيل والتكملة، س 6 / 318 .

وعن محمد بن أحمد بن هشام اللخمي يقول: "إشبيلي سكن سبتة، وجعله ابن الأبار منها فذكره في الغرباء غلطاً منه"[1]. ثم انتقاده لابن الزبير صاحب (صلة الصلة) أثناء ترجمته لأبي عبد الله محمد بن مرزوق ابن أبي الأحوص في قوله: "وتوفي ببلنسية صبح يوم السَّبت لاثنتي عشرة ليلة خلت من شعبان تسع وتسعين وخمسمائة، وقال ابن الزبير: توفى سنة اثنين وتسعين، وقد غلط في المولد والوفاة ولم يضبطهما"[(2)]. وهكذا يمكن القول أن مثل هذه الاستدراكات والانتقادات التي نهجها هؤلاء المؤرخون من أصحاب الصّلات في متابعة وتقصّي أعلام وتراجم كتب بعضهم بعضاً، قد ساعدت بدورها على تصحيحها وتنقيحها من كل ما اعتورها من نقص أو خطأ أو وهم، فجاءت في الغاية من الحفل والدقة والإتقان .

6- أن كتب الصلات الأندلسية لم تعن بحصر العلماء ورجال الفكر، وذكر فقر من سيرهم ولمع من أخبارهم وحسب، لا بل اشتملت على مادة قيمة عن التاريخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي والحضاري أيضاً، الأمر الذي يجعل منها مصادر مهمة لدراسة تاريخ الأندلس وحضارتها بخاصة، وتاريخ الغرب الإسلامي بعامة إبّان الحقبة الوسيطة .

7- يضاف إلى ذلك أن هذه التآليف قد كشفت النّقاب عن الدور المهم الذي شاركت به المرأة في التاريخ العلمي والحضاري للأندلس، وذلك من خلال الترجمة لعدد كبير من النّساء ممّن أسهمن بنصيب وافر في علوم الفقه والحديث والقراءات والأدب والشعر واللغة والعروض والكتابة وغيرها.

ومن هؤلاء على سبيل التمثيل: إشراق السُّويداء العروضية التي يقول عنها ابن الأبار: "مولاة أبي المطرّف عبد الرحمن بن غلبون القرطبي، الكاتب، سكنت بلنسية، وكانت قد أخذت عن مولاها أبي المطرّف العربية واللغة والآداب... وكانت قد فاقته في كثير مما أخذته عنه، وأحسنت في كل ما تناولته، وكان لها علم بالعروض وأوزان الشعر، قال أبوداود سليمان بن نجاح المقرئ: "أخذت أنا عنها العروض، وقرأت عليها النوادر لأبي علي، والكامل لأبي العباس المبّرد، وكانت تحفظ الكتابين ظاهراً، تنصّهما حفظاً وتتكلم عليهما "[3].

كما يلاحظ من جهة أخرى أن خطوط النساء كانت من بين المصادر المهمة لأصحاب الصلات في كتابة هذه المصنفات. ولذلك نجد ابن بشكوال يقول في ترجمة أبي القاسم سوار بن أحمد بن سوار: "وقرأت بخطّ أمّه فاطمة ابنة عمر بن عبد الرحمن؛ مولده في ربيع الأول من سنة تسع وستين وثلاثمائة"[4].

رابعاً: تفردّ كتب الصلات بمصادر تاريخية نادرة:

---

[1]- المصدر نفسه 6 / 70 .

[2]- نفسه 6 / 192 و 193 .

[3]- ابن الأبار: التكملة 250/4 .

[4]- ابن بشكوال: الصّلة 358/1 .

إن ممّا يؤكد اعتبار كتب الصلات الأندلسية نهج فريد في فن التراجم الإخبارية، هو توفّرها على عدد كبير من المصادر التاريخية المهمة التي ربما نجد لها ذكراً في الكتب والمؤلفات التاريخية الأخرى . كما أن مما يزيد من أهمية هذه المصادر هو أنها جاءت في فنون التاريخ المختلفة مثل: التاريخ العام، والتاريخ المحلّي، وتاريخ المدن، وتاريخ الأدب، والبرامج والأصحاب والمشيخات، والفهارس، والسّير الذاتية، وتاريخ الدول، والأنساب، والتراجم والطبقات والمناقب وغيرها. لكن مما تجدر ملاحظته كذلك هو أنه على الرغم من تصريح أصحاب الصلات بأسماء بعض الكتب والمصادر التي رجعوا إليها في مقدّماتهم التي قدّموا بها لهذه التآليف، إلاّ أن الكبير منها لم يذكروه إلا في ثناياها أو في نصوص تراجمهم وأعلامهم .

ومن بين هذه المصادر التي اعتمد عليها هؤلاء المؤرخون من أصحاب الصّلات وربما لم تتوفر لدى غيرهم:- كتابات شيخ مؤرّخي الأندلس ابن حيان: مثل تاريخه الكبير المسمّى (بالمتين)[1] والذي يتكون في الأصل من خمسين مجلّدة [2] ولكن لم يصل إلينا إلا على هيئة نصوص ونقول احتفظ بها بعض المؤرخين ممن جاءوا بعده وبخاصة ابن بسام في (ذخيرته) . ثم كتاب (أخبار القضاة)[3] وكتاب (ابن حيان الذي جمع فيه بين كتابي القبَّشي وابن عفيف)[4] فضلاً عن كتاب (المقتبس)[5] الذي لم يصل إلينا منه إلا بعض الأسفار .

- بعض مؤلفات أصحاب الصلات أنفسهم: ومنها كتب ابن بشكوال صاحب (الصلة) مثل: كتاب (التنبيه والتعيين لمن دخل الأندلس من التابعين)[6]، (وتعاليق ابن بشكوال)[7]، و(معجم شيوخه)[8]، و(المحاسن في معرفة العلماء العلماء الأفاضل)[9] .

- ومن مؤلفات ابن الفرضي كتاب (طبقات الشعراء)[10].

- ومن تآليف ابن الآبار(معجم أصحاب أبي علي الغسَّاني)[11]،(معجم أصحاب ابن العربي)[12].

---

[1]- ينظر ابن الأبار: التكملة 148/3 و 149 . 4/4 . 6/4 .

[2]- ينظر المقرى: نفح الطيب 181/3 .

[3]- ابن الأبار: التكملة 169/2 .

[4]- المصدر نفسه 7/3 .

[5]- المصدر نفسه 2 / 169 .

[6]- ابن الأبار: التكملة 1/ 232 .

[7]- ابن الزبير: صلة الصلة 3 / 92 .

[8]- المصدر نفسه 97/3 ابن الأبار: التكملة 37/1 . ابن عبدالملك المراكشي: الذيل والتكملة س 5/ ق 1 ص14 .

[9]- ابن الزبير: صلة الصلة 3 / 88 .

[10]- ابن بشكوال: الصلة 2 / 655 .

[11]- الذيل والتكملة س 5/ ق 1 ص 17 .

[12]- ابن الأبار: التكملة 1 / 15 .

ومن المصادر التاريخية الأخرى التي اعتمد عليها مؤلّفوا الصّلات الأندلسية من مؤرّخين آخرين:
- بعض مؤلفات أبي عمر بن عبدالبر الحافظ مثل: (معجم شيوخه)[1]، وكتاب (الكنى)[2] و(فضائل منذر بن سعيد البلوطي)[3] له .
ومنها: (أعيان الموالي)[4] و(الاستيعاب)[5] و(أصحاب الألحان من القرّاء)[6]، للمؤرخ والجغرافي الكبير أحمد بن محمد الرازي (ت344هـ) .
ومن كتب الشيوخ: (شيوخ أبي علي الغسَّاني)[7] من تأليفه، و(شيوخ أبي محمد محمد بن خزرج)[8]، و(شيوخ أبي عمر بن مهدي الذين لقيهم)[9]، و(شيوخ أبي أبي الوليد بن جهور)[10]، و(معجم شيوخ أبي القاسم بن الملجوم)[11] و(مشيخة أبي علي الصّدفي)[12] للقاضي عياض السّبي، (ت 544هـ) وهذا الكتاب هو الذي قام بتذييله ابن الأبار البلنسي من أصحاب الصّلات بمؤلّفه الشَّهير (المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصّدفي) .
ومن كتب البرامج (برنامج أبي عبدالله بن الحاج الشّهيد)[13] صاحب النوازل، و(برنامج الصّاحبين ابن شنظير وابن ميمون)[14]، وكان هذان المحدّثان المؤرخان معاً كفرسي رهان في العناية الكاملة بالعلم والبحث على الرواية والتقييد لها، والضّبط لمشكلها)[15]. ثم هناك أيضاً (برنامج ابن القطّان)[16] و(برنامج ابن النعمة)[17]، و(برنامج أبي ذرّ الخشني)[18]. ومن كتب الفهارس: (فهرسة الطرّاز الغرناطي في تسمية شيوخه)[19]، وهو أبو عبدالله محمد بن سعيد الأنصاري، وقد كانت هذه الفهرسة من ضمن مصادر ابن الآبار في (تكملة). ومن كتب التاريخ التي نقل منها أصحاب الصّلات أيضاً:

---

[1]- ابن بشكوال: الصلة 332/1 .
[2]- ابن الأبار: التكملة 142/4 .
[3]- المصدر نفسه 234/4 .
4- المصدر نفسه 156/4 .
5- نفسه 232/1 .
6- نفسه 136/4 .
[7]- ابن الشكوال: الصّلة 1 / 81 .
[8]- المصدر نفسه 1 / 81 .
[9]- المصدر نفسه 1 / 88 .
[10]- المصدر نفسه 3 / 800 .
[11]- الذيل والتكملة: س 6 ص 323 .
[12]- ابن الأبار: التكملة 3 / 14 ؛ 1 / 244 .
13- ابن بشكوال: الصلة 836/3 .
[14]- الذيل والتكملة: س 4 / 14 .
[15]- الذيل والتكملة: س 14/4 .
[16]- ابن الأبار : التكملة 250/3 .
[17]- المصدر نفسه 206/3 .
[18]ابن الزبير: صلة الصّلة 161/3.
[19]- ينظر بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص 280 .

(الاحتفال في تاريخ أعلام الرجال)[1] لابن مفرّج القبَّشي، و(تاريخ ابن أبي الفيّاص)[2]. ومن تواريخ الدول كتاب (الأنوار الجليّة في أخبار الدولة المرابطيّة)[3] لابن الصَّيرفي ومن تواريخ المدن: (تاريخ بلنسية) والذي يعرف يعرف بـ (البيان الواضح في الملّم الفادح)[4] لابن علقمة البلنسي، و(تاريخ فقهاء طليطلة)[5] لابن مُطاهر. كما أن هناك بعض المصادر الأدبية ومنها: (الإعلام بمحاسن الأعلام من أهل مالقة الكرام)[6] لأبي العباس أصبغ بن علي بن هشام المالقي، المعروف بابن خميس . وكتاب (أدباء مالقة أو أعلام مالقة)[7] لأبي عبدالله بن علي بن عسكر الذي وصل به كتاب ابن خميس هذا. وأخيراً فهناك مؤلف يختص بالترجمة لأعلام النّساء، وهو كتاب(النّساء) لمسلمة ابن قاسم[8].

خامسا: أهمية كتب الصّلات في دراسة الصّلات الفكرية بين الأندلس والمشرق

لما كانت كتب التراجم والطبقات تُعنى في المقام الأول بالتأريخ للأعلام ورجال الفكر ودراسة أحوالهم وسيرهم، لذلك فإن كثرة تنقّلات العلماء الأندلسيين بين الأندلس وبلاد المشرق جيئة وذهاباً سواءً من أجل الرحلة لطلب العلم، أم لأداء فريضة الحج، أم للاثنين معاً، وما سيترتب عليها من ملاقاة للشيوخ المشارقة أو الأخذ عنهم، ثم ما يطّلعون عليه أيضاً خلالها من المصنفات العلمية المختلفة المؤلّفة هناك، أو إقتنائها، كل هذا كان من العوامل التي ساعدت على تعزيز الصلات الفكرية بين الأندلسيين وإخوانهم من أهل المشرق عبر الأحقاب والسّنين. وعليه فإن كتب الصّلات الأندلسية تعدّ من أهم المصادر وأوثقها لدراسة العلاقات العلمية بين هذين الجانبين الأندلسي والمشرقي، بسبب تضمّنها على مادة غزيرة في هذا الشأن، قلما نعثر عليها في المصادر التاريخية الأخرى . بيد أن من الجدير بالذكر أن بعض أصحاب الصّلات وأقصد بذلك أبوالوليد بن الفرضي صاحب (تاريخ علماء الأندلس)، قد كان هو نفسه أداة من أدوات التواصل العلمي بين الأندلس والمشرق، إذ رحل في سنة 382هـ لأداء فريضة الحج، كما أخذ فيها بمكة عن أبي يعقوب يوسف بن الدخيل المكّي، وأبي الحسن على بن جهضم وغيرهما[9]. وأخذ بمصر عن أبي بكر بن إسماعيل البنَّاء، وأبي بكر الخطيبي، وأبي الفتح بن سيبخت، وأبي محمد بن إسماعيل الضرَّاب

---

[1]- ابن بشكوال: الصلة 213/1 .
[2]- ابن الأبار: التكملة 178/1 .
[3]- ابن الزبير: صلة الصلة 3 /175 .
[4]- ابن الأبار: التكملة 144/4 .
[5]- ابن بشكوال: الصّلة 25/1 .
[6]- الذيل والتكملة س 1 ق 2 ص44 .
[7]- المصدر نفسه والصفحة .
[8]- ابن بشكوال: الصّلة 3 / 991 .
[9]- ابن بشكوال: الصّلة 1 / 392 .

وغيرهم[1]. وأخذ أيضاً بالقيروان عن ابن أبي زيد القيرواني، وأبي جعفر بن دحمون، وأحمد بن نصر الدّاودي الطرابلسي[2]. وبعد أن عاد إلى بلده الأندلس الأندلس نشر علمه بين تلامذته وطلبته الذين تحلّقوا من حوله، ونهلوا من فيضه ومعينه .

كما أنه من جهة أخرى فإن بعض العلماء المشارقة قد هاجروا إلى الأندلس وأدخلوا علومهم إليها أمثال: أبي الحسن علي بن بشر الأنطاكي، الذي قدم الأندلس من بلاد الشام، زمن الخليفة الحكم المستنصر، وكان عالماً بالروايات السّبع، مجوّداً فيها، وقد أدخل الأندلس علماً جمّاً من القراءات[3]. وهناك ملحوظة مهمّة فيما يتعلق برحلات الأندلسيين إلى بلاد الحجاز بخاصة لأداء فريضة الحج، أو للحج وطلب العلم معاً، وهي أن بعضاً منهم قد كانت له رحلتان حجازيتان، على أن يرحل الرحلة الأولى فيؤدّي مناسك الحج ويأخذ العلم عن شيوخ مكّة والمدينة ثم يرجع إلى الأندلس، على أن يردفها بعد ذلك برحلة ثانية من أجل المجاورة بمكة المكرمة والإقامة الدائمة فيها. ومن هؤلاء مثلاً: أبو الفتح سعدون بن محمد الزهري الذي رحل إلى الحجاز بعد سنة 400هـ، فحجّ وأخذ عن جلّة من الشيوخ ثم ما لبث أن عاد إلى الأندلس فاستوطن إشبيلية فترة، ثم رحل ثانية إلى المشرق ووصل إلى مكة، وجاور بها إلى أن توفي في حدود سنة 435 هـ[4] .

ومنهم أيضاً، أبوالحسن طارق بن موسى بن هشام المخزومي، الذي رحل إلى المشرق هو الآخر رحلتين: أولاهما قبل العشرين وخمسمائة، فحجّ وجاور بمكة وروى عن نخبة من العلماء فيها، ثم رحل ثانية سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، فأقام بمكة المكرمة مجاوراً إلى أن توفي بها سنة تسع وأربعين وخمسمائة [5].

وفيما يختصّ بالعلاقة بين الأندلس والعراق، فإن الكثير من الأندلسيين قد شدّوا الرّحال إليها، فدرسوا هناك ثم رجعوا إلى الأندلس فنشروا علومهم بين أهلها. ولعل من بين هؤلاء: عمر بن يونس بن عيشون الجذامي الذي رحل صحبة أخيه مشرقاً سنة 330هـ، فأقام هناك عشر سنين ودخل بغداد ودرس بها علم الطب، ثم قفل عائداً إلى الأندلس سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة، فسكن مدينة الزّهراء، وخدم الخليفة الحكم المستنصر بعلوم الطب[6]. ومنهم أيضاً أبو الاصبغ عيسى بن سعيد، الذي رحل حاجاً إلى المشرق، ودخل العراق، فلقي ببغداد العالم الشّهير، أبابكر الأبهري، فحمل

---

[1]- ابن بشكوال: الصّلة 392/1 .
[2]- المصدر نفسه والصفحة .
[3]- ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس 536/2 .
[4]- ابن بشكوال: الصلة 359/1 .
[5]- الذيل التكملة ، س 4 ص 148 .
[6]- المصدر نفسه س 5/ ق 2 ص 474 .

عنه كتابيه في الفقه، الكبير والصغير، وفضل المدينة على مكة، وغير ذلك من تآليفه[1] .

ولكن مما يثير الانتباه في مسألة الصّلات الفكرية بين الأندلس والمشرق هو أن هناك عالم مشرقي قد أسهم إسهاماً كبيراً في تفعيل حركة التواصل العلمي بين المشارقة والمغاربة وبخاصة مع العدوة الأندلسيّة، ألا وهو المحدث الكبير والمؤرخ الثّبت أبوالطّاهر السّلفي[2] (ت 576هـ) نزيل الإسكندرية، الذي أرسل بإجازة عامة لأهل الأندلس[3] قاطبة بعد أن كثرت طلباتهم عليه، ناهيك عن تأطيره لأعداد جمّة من العلماء الأندلسيين الذين رحلوا إليه وأكثروا من الأخذ عنه .

كما كان السَّلفي هذا يرتبط بعلائق متينة مع بعض جهابذة الفكر في الغرب الإسلامي، أمثال: حافظ المغرب الشهير القاضي عياض (ت 544هـ)، وعصريّه وصديقه المحدّث والمؤرخ الكبير أبو القاسم بن بشكوال صاحب (الصلة)، اللذين كانا يكاتبانه ببعض المسائل العلمية، والقطع الأدبية ومن ذلك تلك القصيدة الشعرية التي بعث بها أبو الطاهر السّلفي من الإسكندرية إلى القاضي عياض بسبتة ؟ رداً على شعر قد أرسله له ومن أبياتها:

أتاني نظم الألمعي الموفّق ** يميس اختيالاً بين غرب ومشرق
فطالعته مستبشراً فوجدته ** نتيجة فهم في البلاغة مشرق
وحُقَّ له هذا المَحلُّ فقد علا ** على جرول في نظمه والفرزدق

ثم يختمها بقوله:

فنحن إن لم يقض يا قاضي بيننا ** لقاءً فبالأرواح ندنو ونلتقي[4] .

ومن نافلة القول أن أحد أصحاب الصّلات ألا وهو المؤرخ الشهير ابن بشكوال، كان قد تلقّى إجازة علمية في بعض المؤلفات من مكة المكرمة، وهو من تأليف أحد علماء الأندلس الذين هاجروا إليها للإقامة والمجاورة، حيث أنه أخبر بذلك أثناء ترجمته لأبي الحجاج يوسف بن علي بن جبارة الأندلسي حين قال: "وله كتاب حفيل في القراءات سمّاه بكتاب (الكامل)، وذكر فيه أنه لقي من الشيوخ ثلاثمائة وخمسة وستون شيخاً ... وكتب إلينا

---

[1]- ينظر ابن الأبار: التكملة 6/4 .

[2]- "وهو الحافظ العلامة شيخ الإسلام أبو طاهر عماد الدين أحمد بن إبراهيم الأصبهاني الجرواني، روي الحفاظ عته في حياته، وله ثلاثة معاجم: معجم لمشيخة أصبهان، ومعجم لمشيخة بغداد،ومعجم لباقي البلاد سماه: معجم السفر ... وكان أوحد زمانه في علم الحديث وأعرفهم بقوانين الرواية والتحديث ... توفي سنة ست وسبعين وخمسمائة " . ينظر تذكرة الحفاظ 1298/4 – 1304؛ العبر في خبر من عبر 136/2؛ وفيات ابن قنفذ ص 289 و 290؛ الوافي بالوفيات 351/7 و 352 .

[3]- ينظر ابن الأبار: التكملة 157/3 .

[4]- التعريف بالقاضي عياض لولده محمد ص 102 و 103 .

بإجازة هذا الكتاب القاضي أبو المظفّر الطبري من مكة، يخبرنا به عن أبي العزّ محمد بن الحسين المقرئ، عن مؤلّفه [1] ".

كما أن مما يؤكد متانة الصلات الفكرية بين الأندلس ومكة المكرمة كذلك، هو أن العديد من شيوخ الأندلس ورجالاتها قد صاروا بعد هجرتهم إليها، من العلماء المشاهير الذين تُشدّ إليهم الرّحال بسبب المكانة الرفيعة التي فازوا بها هناك . ومن أمثلة هؤلاء: أبي العباس أحمد بن عباس بن عبدالعزيز الهمدانى القرطبي المعروف بالحجاري، الذي رحل إلى المشرق واستوطن مكة المكرمة، وصار من جلّة شيوخها[2].

سادساً: القيمة الأدبية لكتب الصّلات الأندلسية:

نظراً للعلائق المتينة والوشائج القوية بين الأدب والتاريخ، لذا فقد كان معظم أصحاب الصلات الأندلسية ممّن جمعوا بين هذين الفنين سواء من خلال درايتهم بالأدب والشعر فضلاً عن التاريخ، أم من خلال ما توفرت عليه تآليفهم من مادة أدبية عزيرة (نثرية وشعرية) كالنصوص والقصائد والأشعار والخطب وغيرها. ومما يزيد من أهمية كتب الصّلات الأندلسية من الناحية الأدبية أ]ضاً هو أن الكثير من القصائد الشعرية والنصوص النثرية التي وردت فيها لا نجد له ذكراً في أغلب الأحايين في المصادر والمظان الأخرى . ويمكن أن نضيف إلى هذا كله ما يتحلّى به أصحاب هذه الصلات من بلاغة الأسلوب وجزالة الألفاظ، ورصانة العبارات، فضلاً عن نقدهم الأدبي للقصائد والأشعار الواردة في التأريخ لإعلامهم ومترجميهم، بما فيهم بعض الأدباء والشعراء أنفسهم .

ويمكن أن نجتزئ بعضاً من النماذج للدّلالة على ما نقول ومنها:

- ما أورده المؤرّخ والأديب ابن الأبار في ترجمة شاعر الأندلس الشهير ابن خفاجة أو شاعر الطبيعة كما يسمّى والتي يقول فيها: "وكان عالماً بالآداب، صدراً في البلغاء، متقدماً في الكتاب والشعراء، يتصرّف كيف يريد، فيبدع ويجيد، ناظماً وناثراً، ومادحاً وراثياً، ومشبّباً ومشبّهاً، وكان نزيه النّفس، لا يتكسب بالشعر، ولا يمتدح رجاء الرّفد "[3] .

وهكذا يفهم من هذا النصّ الذي تغلب عليه المسحة الأدبية أن ابن الأبار لم يكن محدّثاً حافظاً، ومؤرخاً ثبتاً وحسب، بل كان أيضاً أديباً ناقداً، وشاعراً مطبوعاً، وكاتباً مفلقاً.

أما ابن بشكوال صاحب (الصّلة) فقد قال في ابن خفاجة هذا: " وهو حامل لواء الشعر بالأندلس، والأمام فيه غير مدافع، فإنه سلك فيه طريق الحلاوة والجزالة "[4].ومن هنا نلاحظ القواسم الأدبية المشتركة بين هذين المؤرخين

---

[1]- ابن بشكوال: الصّلة 3 / 975 .

[2]- ينظر المصدر نفسه 1 / 73 و 74 .

[3]- ابن الأبار: التكملة 124/1 و 125 .

[4]- ابن بشكوال: الصّلة 165/1 .

من أصحاب الصّلات ألا وهما ابن الأبار وابن بشكوال، وهو ما يعكس بدوره مدى أهمية كتاباتهما من الناحية الأدبية فضلاً عن قيمتهما التاريخية .
- ثم ما أتحفنا به ابن الأبار كذلك من شعر لإحدى شاعرات الأندلس المسمّاة (الشلبية الأدبية) التي تظلمت من ولاة بلدها، وصاحب خراجها، فكتبت هذه الأبيات إلى الخليفة المنصور أبي يوسف الموحّدى:

قد آن أن تبكي العيون الأبيـة ... ولقد أرى أن الحجارة باكيهْ
يا قاصد المصْر الذي يُرجى به ... إن قدّر الرحمن رفعُ كراهيهْ
نـاد الأمـير إذا وقفت ببابـه ... يـا راعياً إن الرعيّة فانيـهْ
أرسلتها هملاً ولا مرعى لهـا ... وتركتها نـهب السّباع العافيهْ
شلـب كلاّ شلـب وكانت جنـةً ... فأعادها الطّاغون ناراً حاميهْ
خافـوا وما خافوا عقوبة ربهـم ... واللهُ لا تخفى عليه خافيهْ[1]

ومن أمثلة شعر الحكمة الذي ورد عند بعض أصحاب الصّلات:

جالس عليماً يفدك علماً ... فالعلم من عالم يفادُ
أعرض عن الجهل لا تردْه ... فالجهل فـي غيّه عنـادُ
العلـم تـبر وذا رمـاد ...هل يستوي التبر والرمادُ[2] .

وهذه الأبيات ذكرها ابن الأبار في ترجمة على بن مبارك الواعظ[3] .
ثم البيتان الشهيران للمحدث والمؤرّخ الأندلسي أبي عبد الله الحميدي:

لقاء النـاس ليس يفيد شيئاً ... سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقـاء النّاس إلاّ ... لأخذ العلم أو إصلاح حال[4]

ومنه أيضاً ما أورده ابن عبدالملك المراكشي من شعر محمد بن عثمان القيسي النميري والذي جاء فيه:

واصلْ أخاكَ وإن أتى بقطيعة ... فخلوص شيء قلما يُتمكَّنُ
ولكل حُسْنٍ آفةٌ موجودةٌ ... إنَّ السِّراجَ علَى سَناهُ يُدَخِّنُ[5]

ومهما يكن من أمر فإن قوة التأثير الأدبي عند أصحاب الصلات لم تظهر من خلال كثرة الأشعار والنصوص الأدبية التي تعجّ بها هذه المصنفات وحسب، بل بإسهامهم هم أيضاً في الميدان الأدبي، وذلك بما نظموه من بعض القصائد والأشعار التي تجعل منهم فرساناً في هذا الشأن .
فبالنسبة لأبي الوليد بن الفرضي فإن من مشهور نظمه قوله:

إن الذي أصبحت طوع يمينه ... إن لم يكن قمراً فليس بدونـهِ

---

[1]- ابن الأبار: التكملة 260/4 .
[2]- المصدر نفسه 180/3 .
[3] - المصدر نفسه والصفحة .
[4]- الصّلة 819/3.
[5]- الذيل والتكملة س 5 ق 2 ص 10 .

ذلّى له في الحبّ من سلطانه ... وسَقام جسمي من سِقام جفونهِ[1]

.

ومنه أيضاً، قصيدته التي قالها وهو في طريقه إلى المشرق، وكتب بها إلى أهله، وكان قد رحل وتغرّب في طلب العلم وهي:

مضت لي شهور منذ غبتم ثلاثة ... وما خلتني أبقى إذا غبتم شهراً
ومالى حياة بعدكم أستلذها ... ولو كان هذا لم أكن في الهوى حرّا
ولم يسلنى طول التنائي هواكم ... بل زادني شوقاً وجدّد لي ذكرا
أعلّل نفسي بالمنى في لقائكم ... وأستسهل البّر الذي جبت والبحرا
ويؤنسي طي المراحل نحوكم ... أروح على أرض وأغدو على أخرى
وتالله ما فارقتكم عن قلى لكم ... ولكنها الاقدار تجري كما تُجرَى[2]

أما ابن الأبار البلنسي صاحب (التكملة لكتاب الصلة) فمن قصائده الشهيرة التي سارت بها الركبان، وطارت شهرتها في الآفاق تلك القصيدة السّينية التي قالها عندما حاصر العدو النَّصراني مدينته بلنسية مستصرخاً بأمير الحفصيين بتونس ومطلعها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً ... إن السَّبيل إلى منجاتها درَسَا

ومنها:

وهب لها من عزيز النصر ما التمست ... فلم يزل منك عزّ النصر مُلْتَمسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزَرَاً ... للحادثات وأمسى جدُّها تَعَسَا
في كلّ شارقةٍ إلمامُ بائقةٍ ... يعودُ مأتُمها عند العِدا عُرُسَا[3]

ويقول ابن سعيد عن هذه القصيدة: "وعارضها كثير من الشعراء ما بين محظيّ ومحروم، وأُغرى الناس بحفظها، إغراء بني تغلب بقصيدة عمرو بن كلثوم "[4] . كما أن الغبريني قد أشاد بها كثيراً في عنوانه حين قال: "ولو لم يكن له من الشّعر إلا القصيدة التي رفعها لمقام الأمير أبي زكرياء رحمه الله يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس، لكان فيها كفاية، وإن كان نقدها ناقد، وطعن عليه فيها طاعن، ولكن كما قال أبو العلاء المعرّي:

تكلّم بالقول المضلّل حاسدٌ ... وكلّ كلام الحاسدين هُراءُ "[5] **.**

أما بالنسبة لابن عبدالملك المراكشي صاحب (الذيل والتكملة لكتابيْ الموصول والصلة) فمن شعره:

---

[1]- الحميدي: جذوة المقتبس 1/ 399، ابن بشكوال: الصّلة 395/1، ابن بسّام: الذخيرة ق 3/ م2 ص 616.
[2]- الحميدي: جذوة المقتبس 1 / 398 و 399 ؛ ابن بشكوال: الصّلة 1 / 395 .
[3]- المقرئ: أزهار الرياص 3 / 207 .
[4]- ابن سعيد: اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّي ص 191 .
[5]- أبو العباس أحمد الغبريني: عنوان الدّراية ص 312 .

لله مراكش الغرّاء من بلدٍ ... وحبّذا أهلها السّادات من سكنِ
إن حلّها نازحُ الأوطان مغتربٌ ... أسلوْه بالأنسِ عن أهل وعنِ وطنِ
عن الحديث بها أو العَيانِ لها ... نشا التَّماسُكُ بين العيْنِ والأذْنِ[1] .

ونختم بالأديب الناقد والشاعر المجيد لسان الدين بن الخطيب الذي كان من أكثر أصحاب الصلات استعمالاً للشعر، ومنه على سبيل التمثيل لا الحصر:ما قاله في السجن وهو يتوقع نهايته:

بعُدنا وإن جاورتنا البيوتْ ... وجئنا بوعظ ونحن صموتْ
وأنفاسُنا سَكنتْ دفعةً ... كجهرِ الصّلاة تلاه القُنُوتْ
وكنّا عِظاماً فصرنا عِظاماً ... وكنّا نقوتُ فها نحن قوتْ
وكنّا شُمُوسُ سماءِ العُلا ... غَربْنَ فَنَاحتْ علينا السُّموتْ[2] .

ومن مشهور شعره في التوشيح:

جادكَ الغيثُ إذا الغيث هَمَي ... يا زمانَ الوصْلِ بالأندلسِ
لم يكن وَصلُكَ إلاّ حُلُماً ... في الكَرى أو خُلسةَ المُخْتلِسِ[3] .

نتائج البحث

1- أثبت البحث أن المؤرخ والمحدّث أبا الوليد بن الفرضي يعدّ رائداً لعلم التراجم والطبقات في الأندلس دون منازع، فعلى الرغم من قيام بعض المؤرّخين الأندلسيّين كأبي عبدالملك أحمد بن عبدالبرّ (ت338هـ)، وأحمد بن محمد الرّازي (ت 344هـ)، وخالد بن سعيد (352هـ)، ومحمد بن حارث الخشني (ت 361هـ)، بالترجمة لفئات من الأعلام كالفقهاء والقرّاء والفرضيّين، غير أن ضياع هذه المؤلفات من جهة، والمنهج الشُّمولي الذي سلكه ابن الفرضي في هذا الكتاب من جهة ثانية، كان هو الدافع الرئيسي في قيام ثلّة من مؤرخي الأندلس وبعض مؤرّخي برّ العدوة، باستحداث طريقة جديدة ومتميّزة في التاريخ، وهو ما اصطلح على تسميتها بكتب الصّلات الأندلسية، إذ اتخذ هؤلاء المؤرخون من كتاب ابن الفرضي (تاريخ علماء الأندلس) مرجعيّة وأساساً لسلسلة من المصنّفات التاريخية ألّفت على منواله، أو تتمّة وتذييلاً عليه.

2- تعدّ ظاهرة تأليف التّذييلات والصّلات العلميّة في فنّ الطبقات والتراجم الإخبارية ميزة وسمة من سمات المدرسة المالكية في الغرب الإسلامي، إذ إن أصحاب الطبقات من علماء المالكية قد ساروا على هذا النهج عندما ابتدأها القاضي عياض (ت 544هـ) بموسوعته الحافلة (ترتيب المدارك

---

[1]- ابن الزبير: صلة الصلة 46/3 .
[2]- المقرئ: أزهار الرياض 231/1 .
[3]- المقرئ: أزهار الرياض 213/2 .

وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك) والتي ذيّلها ابن فرحون بكتابه (الديباج المذَّهب) ثم أحمد بابا التنبكتي وبدر الدين القرافي بكتابيهما (نيل الابتهاج) و(توشيح الدّيباج) ثم ابن مخلوف بمؤلّفه (شجرة النور الزكية وطبقات المالكية) . أما علماء التراجم من أصحاب من الصّلات الأندلسية فقد اتبعوا هذه الطريقة نفسها عندما وضع ابن الفرضي حجر الأساس بكتابه (تاريخ علماء الأندلس) والذي ذيّله من بعده ابن بشكوال بكتابه (الصلة) ثم ذيّل هذا الأخير كل من ابن الأبار بمؤلّفه (التكملة لكتاب الصّلة) وابن عبدالملك المراكشي (بالذيل والتكملة لكتابي الموصول والصّلة) وابن الزبير (بصلة الصّلة) وابن الخطيب (بعائد الصّلة). ناهيك عن قيام بعض أصحاب الصّلات أمثال ابن الأبار البلنسي بتأليف كتب في عدد من كبار فقهاء المالكية ومحدّثيهم مثل كتاب (المعجم في أصحاب ابن العربي) و(المعجم في أصحاب أبي علي الغسَّاني) و(المعجم في أصحاب أبي علي الصّدفي) الذي ذيّل به كتاب القاضي عياض (المعجم في شيوخ شيخه أبي علي بن سكّرة الصَّدفي) .

3- إن التأليف في طبقات المالكية لم يتقيّد بالاعتبار الجغرافي، فقد شارك فيه علماء من المغرب، ومن المدينة المنورة، ومن مصر، ومن مالي، ومن تونس، ومن ليبيا .

كما أن كتب الصّلات الأندلسية هي الأخرى لم تقتصر على الأندلسيّين وحسب، بل شارك فيها أيضاً مؤرّخون من برّ العدوة المغربية أمثال: ابن عبدالملك المراكشي، وابن فرتون .

4- تؤكّد كتب الصّلات الأندلسية مدى أهمية الدور الذي اضطلع به علماء الحديث في الكتابة التاريخية بالأندلس والمغرب، إذ إنّ معظم مؤرّخي الصّلات هذه كانوا من علماء الحديث وحُفَّاظه.

5- أنها أفصحت عن مسائل وقضايا تاريخية مهمّة سكتت عنها الكتب التاريخيّة المتخصّصة مثل كتب التاريخ العام أو التاريخ المحلّي أو تاريخ الحوليّات وغيرها.

6- كما أن مما يزيد من الزّخم العلمي لكتب الصّلات الأندلسية، هو تفرّدها وتوفّرها على مصادر تاريخية نادرة دون غيرها من المؤلفات والمظانّ الأخرى .

7- لم تقتصر كتب الصلات الأندلسية على التأريخ والترجمة للأعلام ورجال الفكر، ودراسة سيرهم وأثارهم وحسب، بل اشتملت كذلك على مادة جدّ مهمة تتعلّق بمجالات التاريخ الأخرى السياسية والاجتماعية والاقتصادية والحضارية .

8- تعتبر كتب الصّلات الأندلسية من أهم المصادر وأوثها لدراسة الصّلات الفكرية والثقافية بين الأندلس والمشرق الإسلامي في الحقبة الوسيطية وذلك بما توليه من اهتمام وحصر لرحلات العلماء واختلافهم بين هذين الجانبين، فضلاً عن تسجيلها وتعريفها بأسماء الجلّة من الشيوخ الذين كان يؤخذ عنهم

العلم، سواء بالقراءة أم بالسماع، أم بالمناولة، أم بالإجازة، ناهيك عن ذكرهم للمؤلفات والتصانيف المختلفة، التي يتم تأطيرهم العلمي من خلال أخذها والإلمام بها.
9- كان لبعض الجهابذة من العلماء والشيوخ دوراً فاعلاً في تعزيز وتمتين التواصل العلمي بين بلاد المشرق والمغرب الإسلاميين، ولعل من أشهر هؤلاء العالم الكبير، والمحدّث الشّهير، أبو الطاهر السّلفي (ت 576هـ) نزيل الإسكندرية، وذلك من خلال الأعداد الجمّة من الأندلسيين والمغاربة الذين درسوا عليه، وتحلّقوا من حوله، أو عن طريق مراسلاته ومكاتباته لرجال الفكر في الغرب الإسلامي في قضايا العلم والمعرفة، أو عن طريق إجازته العلمية العامة التي منحها لطلبة العلم ببلاد الأندلس قاطبة .
10- وأخيراً فإن كتب الصّلات هذه تمتاز بقيمتها الأدبية الكبيرة إلى جانب كونها مصادر تاريخية فريدة، وذلك بما تعجُّ به من مادة شعرية ونصوص نثرية، والتي ربما لا تتوفرّ في الكثير من المصادر الأبية الأخرى، وهو الأمر الذي يجعل منها مصادر مهمّة لدراسة التاريخ والأدب الأندلسيين على حدّ سواء .

النخب المغاربية في كتاب (درر العقود الفريدة) للمقريزي (ت845هـ/1442م)

فرهاد حاجي عبوش
جامعة دهوك إقليم كُردستان العراق

المقدمة

يعد كتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) من كتب التراجم التي خصصها المقريزي لترجمة حياة أصدقائه وأحبابه ومعارفه وشيوخه ومشاهير الرجال والنساء في عصره من سائر طبقات المجتمع،

فيعد من المصادر الفريدة للوقوف والاطلاع على حياة الكثير من الشخصيات والأعلام في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، ومن بينهم نخب المغاربية كالنخب التونسية والجزائرية والمغربية وغيرهم.

تكمن أهمية الكتاب في أن مؤلفه المقريزي أتبع نهجاً خاصاً، حيث رتب تراجمه على الحروف الهجائية في الاسم الأول فقط. أما أسماء الآباء فلم ترتب هجائياً خلافاً لما التزم به المؤرخون الآخرون، ودّون فيها تراجمهم وأخبارهم وآثارهم وأشعارهم، حتى عدّ من أغنى كتب التراجم وأنفسها لما فيه من غزارة في المعلومات، وهو أشبه ما يكون بدائرة معارف أعيان عصر المؤلف.

كشف المقريزي من خلال نهجه هذا، وخلال تلك التراجم عن العديد من الجوانب الهامة التي تخصُ المغاربة وأخبارهم، حيث أورد كثيراً من النخب السياسية والإدارية والدينية والعلمية لهم، إذ خصص صفحات عديدة من كتابه هذا للحديث عن السلاطين والملوك والأمراء المغاربة وترجم لهم، كما أنه ترجم للعديد من الفقهاء والعلماء المغاربة ممن برزوا في المجالات التعليمية والدينية المختلفة في بلاد الشام ومصر والحجاز خلال العهد المملوكي. يحاول البحث أن يلقي أضواء على أخبار وروايات هامة التي جاء بها المقريزي عن المغاربة وأخبارهم.

1- المقريزي وكتابه (درر العقود الفريدة).

هو أحمد بن علي بن عبد القادر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن تميم بن عبد الصمد بن أبي الحسن بن عبد الصمد بن تميم، الشهير جده بالمقريزي، ووالده بأبن المقريزي[1]، المكنى بأبي محمد أو أبي العباس، والملقب بتقي الدين، المعروف بالمقريزي[2]، الشافعي، الحسيني العبيدي[3].

---

[1] هكذا ساق المقريزي نسبه بخطه على غلاف بعض كتبه. ينظر: درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة، حققه وعلق عليه: محمود الجليلي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت: 2002)، مج2، ص 57؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق، محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1997)، ج1، ص 101؛ مختصر الكامل في الضعفاء وعلل الحديث لأبن عدي، حققه وعلق عليه: أيمن بن عارف الدمشقي، مكتبة السنة – الدار السلفية لنشر، (القاهرة: 1994)، ص 37.

[2] نسبة إلى حارة المقارزة في بعلبك. شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ابن حجر العسقلاني(ت 852هـ/ 1448م)، المجمع المؤسس للمعجم المفهرس، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة،(بيروت: 1994)، مج3، ص59؛ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي(ت 902هـ/ 1497م)، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، منشورات دار مكتبة الحياة،(بيروت: د.ت)،ج2، ص21. ويعتقد محمد مصطفى زيادة بأن هذه الحارة سميت بهذا الاسم نسبة إلى (مقريز) وهي جهة بإيطاليا قريبة من عاصمتها روما، التي وفد منها عدد من التجار أبان الحروب الصليبية، وسكنوا في أحدى حارات بعلبك لأمور تتعلق بمصالحهم التجارية، فحافظت تلك الحارة على تسميتها الإيطالية بعد جلاء الصليبيين عنها. واكتسبت أسرة المقريزي تلك التسمية لنزولها بها، وزالت تلك الحارة الآن معالمها، ولم يعد أحد يعرفها. ينظر: المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي القرن التاسع الهجري، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة:1954)، ص7؛ السلوك للمقريزي، مجلة تراث الإنسانية،الشركة العربية للطباعة والنشر، مطابع كوستا توماس،(القاهرة: د.ت)، مج2، ص 510.

ولد المقريزي في القاهرة سنة (766هـ/ 1364م)[4]، ونشأ نشأة حسنة في كنف أسرة بعلبكية الأصل، عرفت أصولها بالمشاركة في تحصيل العلم، والمساهمة في نشره ببعلبك ودمشق والقاهرة[5]، حيث عكف المقريزي منذ طفولته على التعلم، إذ درس على كبار شيوخ عصره [6] وعلمائه في الفقه والحديث والقراءات واللغة والنحو والأدب والتاريخ، وغيرها من فنون المعروفة المتداولة في عصره – آنذاك – على عدد وافر من أعلام العلماء في مصر ومكة والشام، حتى أصبح علماً من أعلام عصره ، إلا أن جلّ اهتمامه أتجه نحو التاريخ، وولع به وصنف فيه كتباً، ((وكان لكثرة ولعه بالتاريخ يحفظ كثيراً منه))[7]، حتى أصبح عالماً متبحراً في علم التاريخ على اختلاف أنواعه، ومؤلفاته تشهد له بذلك[8].

حظي المقريزي بمكانة علمية مرموقة بين الأوساط العلمية في عصره فتحدث مترجموه عن صفاته العلمية والثناء عليه، فأشاد به ابن حجر العسقلاني (ت852هـ/1448م) بأنه:((كان حسن الصحبة، حلو المحاضرة))[9]، فضلاً عن ذلك شارك ((في الفنون، وله النظم الفائق، والنثر الرائق، والتصانيف الباهرة خصوصاً في تاريخ القاهرة. فأنه أحيى معالمها، وأوضح مجاهلها، وجدد مآثرها، وترجم أعيانها ... وفي الأكثر هو مؤثر للإنجماع بمنزلة مع حسن الخلق، وكرم العهد، وصدق الود، وبيننا من المودة ما لا

---

(3) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق وتعليق: حسن حبشي، لجنة إحياء التراث الإسلامي، (القاهرة: 1998)، ج4، ص 187؛ السخاوي، التبر المسبوك في ذيل السلوك، تحقيق: نجوى مصطفى كامل ولبيبة إبراهيم مصطفى، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، (القاهرة: 2002)، ج1، ص 71؛ الضوء اللامع، ج2، ص 21؛ محمد بن علي الشوكاني(ت 1250هـ/ 1753م)، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1998)، ج1، ص 56. أشار ابن حجر العسقلاني إلى أن جد المقريزي (عبد القادر) وأباه (علياً) كانا حنبليين، أما المقريزي فقد نشأ على المذهب الحنفي، وهو مذهب جده لأمه الشيخ شمس الدين ابن الصائغ الحنفي، ولكن بعد أن جاوز العشرين، تحول إلى المذهب الشافعي وأستقر على ذلك المذهب حتى وفاته. ينظر: المجمع المؤسس، مج3، ص 59؛ محمد كمال الدين عز الدين علي، أربعة مؤرخين وأربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 1992)، ص 159.

(4) السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 71؛ الضوء اللامع، ح2، ص 21.

(5) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج4، ص 187؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 71؛

- F. Rosenthal. Art, Makrizi, the Encyclopaedia of Islam, new Edition, (Leiden: 1991), Volume VI, p 193.

- زيادة، السلوك للمقريزي، مج2، ص 509؛

(6) عن شيوخه ينظر: ابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس، مج3، ص ص 59 – 60؛ علي ,أربعة مؤرخين,ص ص170-173؛ حسين عاصي، المقريزي – مؤرخ الدول الإسلامية في مصر، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1993)، ص ص7-10.

(7) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج4، ص ص 187 – 188؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص ص 77 – 78.

(8) الشوكاني، البدر الطالع، ج1، ص 57؛ ابي تراب الظاهري، أعلام أهل الحاضر برجال من الماضي الغابر، (د/م: 1985)، ج1، ص 222.

(9) أنباء الغمر، ج4، ص ص 187 – 188.

يسعه الورق))[10]، علاوة على ذلك وصفه ابن تغري بردي (ت874هـ/1469م) بأنه كان:((إماماً فاضلاً، بارعاً، متقناً، مفنناً، ضابطاً، ديناً، خيراً... وكان حلو المحاضرة، فكه المنادمة، لاسيما إذا ذاكره الشخص بالتاريخ وأيام السلف من القرون الماضية، فكان أعجوبة في ذلك، وكان معظماً في الدول، مبجلاً عند الأكابر إلى الغاية))[11] .

يتضح مما سبق بأن الصفات والخصال التي تحلى بها المقريزي، ساعدته على تكوين مكانة وهيبة له لدى العلماء والمؤرخين والحكام ولاسيّما الناس وعامتهم في عصره، وفرض احترامه عليهم، لهذا أحتل مركزاً عالياً بين المؤرخين المصريين في النصف الأول من القرن التاسع الهجري.

أما بالنسبة إلى وظائفه الحكومية فأنه ألتحق بها في مقتبل حياته، وأول عمل تقلده هي وظيفة موقع –كاتب- في ديوان الإنشاء[12]، ثم أصبح قاضياً عند قاضي القضاة الشافعية[13]، وبعد ذلك تولى وظيفة المحتسب في القاهرة، إلا أنه لم يستقر فيها، فقد عزل وأعيد مرات عديدة إليها[14]، فضلاً عن ذلك عين مدرساً في عدد من المدارس في مصر والشام كالمدرسة المؤيدية بالقاهرة[15]، والمدرستين الإقبالية[16] والأشرفية[17] بدمشق مع النظر على أوقاف القلانسي والبيمارستان النوري[18] فيها[19]، ثم تولى وظائف أخرى

---

[10] ابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس، مج3، ص 60.

[11] جمال الدين أبي المحاسن يوسف الأتابكي (ت 874هـ/ 1469م)، حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، عالم الكتب، (القاهرة: 1990)، ج1، ص 66.

[12] المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، وضع حواشيه: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1998)، ج2، ص 279؛ج3، ص 393؛ عاصي، المقريزي ، ص 10.

[13] السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 72؛ الضوء اللامع، ج2، ص 22.

[14] عن ذلك ينظر :المقريزي، درر العقود الفريدة ، مج3، ص ص 132،30، 573؛ السلوك، ج5، ص 437؛ ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: احمد يوسف نجاتي، دار الكتب المصرية، (القاهرة: 1956)، ج1، ص 395؛ علي بن داود بن إبراهيم الخطيب الجوهري الصيرفي(ت 900هـ/ 1495م)، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، تحقيق: حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، (القاهرة: 1971)، ج2، ص ص 46، 57،201؛السخاوي، الذيل على رفع الاصر(بغية العلماء والرواة)، تحقيق: جودة هلال ومحمد محمود صبح، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القاهرة: 2000)، ص 432.

[15] السخاوي، الضوء اللامع، ج2، ص 22؛ زيادة، السلوك للمقريزي، مج2، ص 511.

[16] المدرسة الاقبالية: أنشأها جمال الدولة إقبال خادم نور الدين وعتيق ست الشام، وتقع داخل باب الفرج وباب الفراديس بدمشق، هي شمالي حمام العقيقي. ينظر: عبد القادر بن محمد النعيمي (ت 978هـ/ 1570م)، الدارس في تاريخ المدارس، حققه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت:1990)، ج1، ص ص118 – 123؛ محمد كرد علي، خطط الشام، دار العلم للملايين، (بيروت: 1971)، ج6، ص 75.

[17] المدرسة الاشرفية: أنشأها الملك الاشرف مظفر الدين موسى بن الملك العادل الأيوبي في سنة (630هـ/ 1232م)، والتي تعرف بدار الحديث الاشرفية، وهي تقع جوار باب القلعة الشرقي، غربي العصرونية وشمال القيمازية الحنفية بدمشق. ينظر: النعيمي، الدارس، ج1، ص ص 15 – 36؛ علي، خطط الشام، ج6، ص 71.

[18] البيمارستان النوري: أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في دمشق، تولى بنائه قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوي، وكان الحاكم المتحكم في الدولة النورية بدمشق. ينظر: علي،

كوظيفة الإمامة بمدرسة السلطان حسن[20]، وبجامع الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله[21]، ووظيفة الخطابة بجامع عمرو بن العاص[22]. يتبين مما سبق بأن المقريزي تقلد وظائف متنوعة، كان بعضها في مصر، وأخرى في الشام، وأكد السخاوي(ت902هـ/1497م) بأنه ((حمدت سيرته في مباشراته))[23] لتلك الوظائف.

ويبدو أن المقريزي قد سئم من الوظائف الحكومية، لذا أمضى بقية حياته الطويلة بالقاهرة ليتفرغ للدراسة والتأليف، وجعل من داره ندوة للعلم ومقصداً للطلاب والعلماء[24]، حتى توفي بعد مرض مزمن في القاهرة عصر يوم الخمس 16 من شهر رمضان المبارك سنة (845 هـ/ 29كانون الثاني سنة 1442م)، عن عمر ناهز الثمانين عاما[25]، ومخلفاً وراءه تراثاً ضخماً جديراً بدراسته والانتفاع منه.

من خلال مراجعة مؤلفات المقريزي وآثاره العلمية، فأنه يعد من المؤلفين الموسوعيين الذين كتبوا في جميع المجالات، حيث ترك مؤلفات عديدة، في مجال التاريخ والأنساب والعقائد والفقه والأدب والعلوم البحتة فكان ((كثير الكتابة والتصنيف، وصنف كتباً كثيرة))[26] حيث أفنى عمره في كتابة التاريخ والتصانيف، ومن أبرز تلك التصانيف وأشهرها: السلوك لمعرفة دول الملوك؛ وكتاب المقفى الكبير؛ ودرر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة؛ والمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار؛ واتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا؛ والذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء

خطط الشام، ج6، ص 157؛ أحمد عيسى بك، تاريخ البيمارستانات في الإسلام، ط2، دار الرائد العربي، (بيروت: 1981)، ص ص 206 – 223.

[19] المقريزي، السلوك، ج6، ص 217؛ ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص 67؛ المنهل الصافي، ج1، ص 396؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 73؛ وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، حققه: بشار عواد معروف وعصام فارس الحرستاني وأحمد الخطيمي، مؤسسة الرسالة، (بيروت: 1995)، ج2، ص 580؛ Rosenthal. EI. Art. Makrizi, VI, P. 193 .

[20] السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 72؛ Rosenthal. EI. Art. Makrizi, VI, P. 193؛ عاصي، المقريزي، ص 11.

[21] السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 72؛ الشوكاني، البدر الطالع، ج1، ص 56.

[22] المقريزي، درر العقود الفريدة ، مج2، ص 512.

[23] التبر المسبوك، ج1، ص 73؛ الضوء اللامع، ج2، ص 22.

[24] المقريزي، درر العقود الفريدة ، مج1، ص 276؛ مج3، ص 519، ابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس، مج3، ص 59؛ عاصي، المقريزي، ص ص 15- 16.

[25] ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص 63؛ المنهل الصافي، ج1، ص 399؛ السخاوي، التبر المسبوك، ج1، ص 78، الضوء اللامع، ج2، ص 25؛ أبي الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد ابن العماد الحنبلي(ت 1089هـ/ 1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار إحياء التراث العربي، (بيروت: د.ت)، ج7، ص 355. بينما وهم كل من: ابن حجر العسقلاني عندما أرخ وفاته بيوم الخميس، التاسع عشر من رمضان. ينظر: أنباء الغمر، ج4، ص 188، في حين أرخ بدر الدين محمود بن أحمد العيني(ت 855هـ/ 1451م) وفاته بيوم الجمعة، التاسع والعشرين من شعبان. ينظر: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: عبد الرزاق الطنطاوي القرموط، الزهراء للأعلام العربي، (القاهرة: 1989)، ص 574.

[26] ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج1، ص 67؛ المنهل الصافي، ج1، ص 397.

والملوك؛ وإغاثة الأمة بكشف الغمة؛ وشذور العقود في ذكر النقود؛ والأوزان والأكيال الشرعية وغيرها[27].

وأهم تلك الكتب هو كتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) موضوع الدراسة، إذ أشار المقريزي في مقدمته إلى الدافع الرئيسي وراء تصنيفه له بقوله: ((فأني ما ناهزتُ من سني العمر الخمسين حتى فقدت معظم الأصحاب والأقربين، فأشتد حُزني لفقدهم، وتنغص عيشي من بعدهم، فعزيَّتُ النفس عن لقائهم بتذكارهم، وعوَّضتها عن مشاهدتهم بأستماع أخبارهم، وأمليتُ ما حضرني من أنبائهم في هذا الكتاب ومن ذكرهم فطاب، وسميته (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة). وهو في الحقيقة ذكري معاهد الأحباب وتذكر عهد الشيخة والأصحاب))[28]، وأضاف قائلاً: ((إني رأيت بعد ذلك أن أجمع أخبار من أدركتهُ، سواء غابَ عني أو رأيتهُ من أهل مِصري كان، أو غيرها من البُلدان، فأُقيِّدُ أخبار الملوك والأُمراء، وأعيان الكُتاب والوزراء، وأذكر رُواة الحديث والفقهاء، وحمَلة سائر علوم والشُعراء، ومن له ذكرٌ شهيرٌ، أو قدرٌ نبيهُ خطير، إما من رجال الدُّنيا، أو طُلاَّب الأخرى من ابتداء سنة ستين وسبع مئة))[29].

يتضح مما سبق بأنه بدأ بوضع هذا الكتاب حوالي سنة(816هـ)، إذ أن مولده كان سنة (766هـ)، وأستمر إلى قرب وفاته سنة (845هـ)، إذ أستغرق في التأليف والإضافة عليه نحو ثلاثين سنة. تناول فيها حياة الكثير من الشخصيات والأعلام في القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين. يعد ذلك الكتاب من كتب التراجم والطبقات، وهو أحد أنماط التدوين التاريخي التي تناولت مختلف طبقات المجتمع الإسلامي، وخاصة حياة أصدقائه وأحبابه ومعارفه وشيوخه ومشاهير الرجال والنساء في عصره. وفيما يتعلق بمنهجه التاريخي في كتابه (درر العقود الفريدة) فقد رتب المقريزي عناصر تراجمه على الحروف الهجائية، ابتداءً بترجمة ((إبراهيم بن محمد بن بهادر (ت816هـ/1413م) المعروف بإبن زقاعة))[30] وأنتهاءً بترجمة ((يونس بن حسين الواحي (ت842هـ/ 1438م))[31] معتبراً في ترتيبهم اسم العلم المترجم له، غير ملتفت إلى أسماء الآباء أو الأجداد، والتي ضمت في الغالب توثيق أسم ونسب المترجم، وألقابه وكنيته، ومذهبه، وصفات المترجم له وأحواله الاجتماعية والاقتصادية، ونشأته العلمية وتخصصاته، ووظيفته أو منصبه، ومنزلة المترجم له ومكانته، ورحلاته

---

[27] ذكر ابن تغري بردي (23) كتاباً له. ينظر: المنهل الصافي، ج1، ص ص 397 – 398. بينما السخاوي ذكر (27) كتاباً له. ينظر: التبر المسبوك، ج1، ص ص 73 – 75؛ الضوء اللامع، ج2، ص ص 22 – 23.

[28] درر العقود الفريدة ، مج1، ص 61.

[29] المصدر نفسه، مج1، ص 62.

[30] المصدر نفسه، مج1، ص ص 63-65.

[31] المصدر نفسه، مج3، ص 586.

وشيوخه وتلامذه، وآثاره ومؤلفاته، إن كان عالماً، كما يسعى دائماً إلى ذكر تاريخ مولد المترجم، ومكان ولادته، ووفاته ومكانها، ولم يغفل مؤرخنا- في الغالب- علاقته بمترجميه. إلا أن كل هذه العناصر لم يذكرها المقريزي في جميع تراجمه، إذ قد ينقص عُنصر أو عنصران من ترجمته أو يزيد، حسب توفر المعلومات أو نقصها من ترجمة إلى أخرى، لان أصحاب تلك الترجمات لم يكونوا على مستوى واحد من المكانة والأهمية، فمنهم السلطان والصعلوك، والأمير والوضيع، والعالم والجاهل، والمشهور والمغمور، والكبير والصغير ....الخ[32].

أمتاز أسلوبه في تدوين عناصر تراجمه بأسلوب سهل، وعبارة سليمة، خالية من التعقيدات اللغوية، والزخارف اللفظية، أو الأخطاء النحوية. كما أن عناصر التراجم التي دونها في كتابه (درر العقود الفريدة) لا تقتصر على موطنه فحسب، بل أمتازت مساحته بالشمول المكاني، حيث اشتمل عناصر تراجم كتابه على الكثير من بلدان العالم الإسلامي كالعراق، وبلاد الشام، والحجاز، والمغرب، والأندلس، وغيرها، إلا أن تراجمه المصرية – وخاصة في القاهرة – كانت بارزة أكثر من غيرها على وجه الخصوص، وذلك بسبب طبيعة الإقامة فيها والانتماء إليها[33].

يتضح مما سبق بأن أهمية الكتاب (درر العقود الفريدة) تكمن بأن تراجمها أمتازت بالشمول النوعي والمكاني، حيث لم تقتصر على فئة بعينها، أو بلد دون آخر، فقد ذكر المقريزي فيها تراجم من مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

2- النخب المغاربية في كتاب (درر العقود الفريدة).

يعد كتاب (درر العقود الفريدة) من كتب المعاجم في ترجمات أعيان عصر المقريزي، وهو أحد أنماط التدوين التاريخي، حيث تناول فيها حياة أصدقائه وأحبابه ومعارفه وشيوخه ومشاهير الرجال والنساء في عصره من سائر طبقات المجتمع، وبلغ عدد المترجمين في ذلك الكتاب حوالي (1473) ترجمة، وكان من بين مترجميه العديد من النخب المغاربية أو المنسوبين إلى المدن والبلدان المغربية مثل تونس والجزائر والمغرب وغيرها. وعلى الرغم من أن نصيب المغاربة من تلك التراجم قليلة، حيث بلغ عدد تراجمهم حوالي (80) ترجمة، أي النسبة المئوية (5,431%)، إلا أن المقريزي أتى فيها بمعلومات جيدة وهامة أحياناً عن المغاربة في بلاد الشام ومصر وحجاز خلال العهد المملوكي[34].

---

[32] للتفصيل عن المنهج الذي أتبعه المقريزي في كتابة التراجم في كتابه (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) ينظر: محمد كمال الدين عز الدين علي، المقريزي مؤرخاً، عالم الكتب، (بيروت: 1990)، ص ص 94 – 121.

[33] محمد كمال الدين عز الدين علي، دراسات نقدية في المصادر التاريخية، عالم الكتب، (بيروت:د.ت)، ص ص401-402.

[34] على سبيل المثال لا الحصر ينظر : درر العقود الفريدة، مج1، ص ص61-62، 135-137، 160-161، 271، 331، 382؛ مج2، ص ص91-92، 200، 224، 317، 354-355، 556؛

ركز هذا المبحث على أخبار النخب المغاربية وتراجمهم في كتابه (درر العقود الفريدة)، مع تحليل بعض تلك الروايات من خلال موازنة معلوماته بما سجله المؤرخون المعاصرون له، ويمكن إجمالها على النحو الآتي:

2-1-مصادر المقريزي عن النخب المغاربية:

أستقى المقريزي مادته في هذا الكتاب عن النخب المغاربية من مصادر متعددة ومتنوعة، وقد كشف عن بعضها من خلال الإشارة إليها، وبقي البعض الآخر مجهولاً لعدم تصريحه بأسمائها، ولكن بشكل عام يمكن حصر مصادره عن النخب المغاربية في ثلاثة أنواع: وتأتي في مقدمتها، **مشاهداته العيانية**، إذ يعد كتابه (درر العقود الفريدة) من الكتب المهمة في هذا المجال، وذلك لأنه كتب عن أُناس معاصرين له فيها، حيث ترجم لمجموعة كبيرة من شيوخه وأقرانه وأصدقائه ومعارفه، لذا أورد عبارات دالة على مشاهدته ودقة ملاحظته لهؤلاء المترجمين فيها. وذكر أحياناً سماعاته أو كتاباته عن هؤلاء الشيوخ أو مجالسته لهم، أو اجتماعه بهم، مما يشير إلى اتصاله بهم والإطلاع على شؤونهم ومعرفة أحوالهم وتتبع سيرتهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر أنه ضمن ترجمة الشيخ طلحة بن عبد الله البجائي المغربي (ت794هـ/1391م) أكد فيها بقوله: ((وقد زرت هذا الشيخ طلحة بمصر))[35]، كما ذكر ضمن ترجمة برهان الدين أبو سالم إبراهيم بن محمد الصنهاجي المالكي (ت796هـ/1393م) عنه بأنه:((اجتمع بي لما قدمت مكة في سنة سبع وثمانين وسبع مئة في منزلي بها، وقد جاء للسلام عليّ فصحبته من حينئذ))[36]، أما عن الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان التونسي (ت819هـ/1416م)، فأنه ذكر في ترجمته نصاً بأنه ((من مجلسه _أي مجلس أستاذه ابن خلدون- عرفته))[37]، وحين تناول المقريزي ترجمة الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد بن عيسى الفاسي المغربي (ت843هـ/1439م) أكد بأنه:((جاور مكة فلقيني بها سنة تسع وثلاثين – وثماني مئة- ولازمني ، وسمع عليّ بعض كتاب إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأخوال والحفدة والمتاع امتاع))[38]، وغيرها من الأمثلة على مشاهداته العيانية[39].

والنوع الثاني من مصادره، والتي تأتي في المرتبة الثانية بعد مشاهداته العيانية، هو المصادر **الشفوية** ، وتشتمل على الروايات والأخبار والأشعار التي سمعها المقريزي من شيوخه، أو من أعيان الدولة، أو حدّثه أصحابه أو

مج3،ص ص22، 80-81، 169-170، 214-216، 234-235، 343-344، 538-543، 585-586.

(35) درر العقود الفريدة ، مج2، ص 200.

(36) المصدر نفسه، مج1، ص 75.

(37) المصدر نفسه، مج3، ص 207.

(38) المصدر نفسه، مج1، ص 315.

(39) ينظر : المصدر نفسه، مج1، ص 276؛مج2،ص ص91، 251، 345، 353، 354 ،403، 501؛ مج3،ص ص101، 123، 147، 170، 502، 537.

المترجم لهم، وما يتعلق به من أمور أخرى: كنسبه أو أشعاره أو غير ذلك، فروى المقريزي عن المترجم نفسه بعض المعلومات، فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما ترجم لأستاذه ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي الاشبيلي (ت808هـ/1405م) أخذ منه نسبه حين قال ((كذا أملي عليّ نسبه))[40] ، كما أورد في ترجمة السلطان المريني أبو سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن علي ابن السلطان أبي سعيد عثمان (760-762هـ/1359-1361م) ملك فاس والمغرب الأقصى، قصيدة التي أنشدها الوزير لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت776هـ/1374م) للسلطان أبو سالم في المغرب، فقال المقريزي بعد تدوين تلك القصيدة نصاً ((أملي عليّ هذا القصيدَّ كما أوردته شيخنا... ابن خلدون... في يوم الخميس منتصف صفر سنة أربع وتسعين وسبع مئة، ثم قال:وكنت يومئذ في المجلس ..))[41]، وحين تناول المقريزي ترجمة أحمد بن عبد الخالق بن محمد المغربي (ت802هـ/1399م) أكد فيها بأن: ((شعره كثيرَ طالما أنشدني ...))[42].

وفي بعض الأحيان ذكر المقريزي معلومات عن مترجميه دون أن يذكر مصدره الذي بلغه ذلك الخبر، فمثلاً عندما أشار إلى ترجمة عبد الله بن أحمد التونسي (ت787هـ/1385م) أكد فيها بأنه قد ((بلغني أنه مات بصعيد مصر في سنة سبع وثمانين وسبع مئة...))[43]، كما بيّن لنا ذلك أيضاً عندما أشار إلى ترجمة السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي (796-837هـ/1393-1433م) ملك تونس وعامة إفريقية، أكد بأنه ((قد بلغني مما لا أتهم أنه كان لا ينام من الليل سوى أربع ساعات، ويعمر باقيه في إجالة فكره فيما به صلاح دولته...))[44].

أما النوع الثالث من مصادره فهي، **الكتب المدونة**، ولاسيما كتب معاصريه وشيوخه التي أطلع عليها، وأقتبس منها مادته، وعلى الرغم من أن المقريزي عهد على نفسه أن يذكر مصادره، إلا أن منهجه في الإشارة إلى تلك المصادر لم يكن على نسق واحد بل فيه تباين، فأحياناً يذكر أسم المؤلف دون كتابه، وفي بعض الأحيان يذكر أسم الكتاب دون مؤلفه، وفي أحايين أخرى يذكر أسم المؤلف وكتابه معاً، أو لا يذكرهما، فعلى سبيل المثال لا الحصر عندما ذكر ترجمة السلطان أبو سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن علي المريني، ملك فاس والمغرب الأقصى، أشار في نهاية ترجمته بأنه ((أخذت هذه الترجمة وغيرها من أخبار بني مرين)) من أستاذه ابن خلدون[45]، كما أنه اعتمد على ما دوّنه بعض علماء ومؤرخي عصره عما يجري في بلدانهم

---

[40] درر العقود الفريدة ، مج2، ص 383.
[41] المصدر نفسه، مج1، ص 121.
[42] المصدر نفسه، مج1، ص 167.
[43] المصدر نفسه، مج2، ص 354.
[44] المصدر نفسه، مج2، ص 287.
[45] درر العقود الفريدة ، مج1، ص 117.

من الحوادث، وتراجم أعلامهم، فمثلاً عندما ذكر ترجمة السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي، ملك تونس وعامة أفريقية، أكد بأن الأديب الكاتب الفاضل أبو عبد الله محمد بن عبد الحق السبتي (ت836هـ/ 1432م)، هو الذي كتب له بعض أخبار ذلك السلطان وبعثها له[46].

كما يعد كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) للوزير لسان الدين ابن الخطيب مصدراً آخر للمقريزي عن النخب المغاربية، حيث اعتمد عليه وأقتبس منه بعض الجمل والعبارات، ودمجها مع الترجمة التي لديه من مصادر أخرى، وبذلك تكون لديه ترجمة انفرد بها عن الآخرين، وقد صرح مرة واحدة بذلك في ترجمة أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، ومن خلال المقارنة بين تلك الترجمتين تبين بأن المقريزي نقل قسم من تلك الترجمة حرفياً منه بدون أن يزيد عليها شيئاً[47]، كما صرح في ترجمة فخر الدين محمد بن محمد بن محمد بن الحسن التونسي (ت803هـ/1400م) بأنه أخذ ترجمته من ((معجم العسقلاني)) أي كتاب المجمع المؤسس لابن الحجر العسقلاني، ومن خلال المقارنة تبين أن هناك تشابهاً بينهما في تفاصيل تلك الترجمة، أي أن المقريزي نقل تلك الترجمة بصورة كاملة وحرفياً من ذلك كتاب[48].

2-2- النخب السياسية:

يعد كتاب (درر العقود الفريدة) من المصادر المهمة لا سيما بالنسبة لأخبار النخب السياسية في بلاد المغرب، حيث شغلت أخبارهم مكانة متميزة عند المقريزي، ويعود ذلك إلى أنه كان مهتماً بتراجم النخب السياسية في بلاد المغرب. وعند الاطلاع على تلك التراجم تبين وجود اختلاف بينهم من حيث الاختصار والتفصيل الخبري، وإيراد الوقائع بدقة، ويبدو أن سبب ذلك يعود إلى تنوع مصادره التي أستقى منها تراجمه، كأن تكون نصوصاً مدونة، أو روايات شفوية، فضلاً عن مشاهداته الميدانية، فأسهم كل ذلك في تكوين تراجم النخب السياسية في بلاد المغرب.

ومن خلال استعراض تلك التراجم تبين أنه اهتم كثيراً بتراجم سلاطين وأمراء **دولة بني مرين** (668-869هـ/1269-1465م)، حيث أورد عنهم إحدى عشرة ترجمة[49]، فضلاً عن أخبار دولتهم، ويأتي في مقدمة تلك

---

[46] المصدر نفسه، مج2، ص 288.

[47] ينظر: لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (ت776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة،ط2، حققه:محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، (القاهرة:1973)، مج3، ص ص 497-516؛ المقريزي، درر العقود الفريدة ، مج2، ص ص 383-410.

[48] ينظر: ابن حجر العسقلاني، المجمع المؤسس، مج2، ص ص455-456؛ المقريزي، درر العقود الفريدة ، مج3، ص 268.

[49] ينظر: درر العقود الفريدة ، مج1، ص ص 112-123، 371-376، 489-490؛ مج2، ص ص 218-221، 268-278، 413-418؛ مج3،ص ص 212-214، 216_217، 217، 295-310، 476-478.

التراجم، ترجمة السلطان أبو سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن علي المريني، إذ أورد فيها نسب بني مرين وأصلهم، فقد أكد بأنهم ينتمون إلى مجموعة قبائل زناتة البربرية، وأنهم يتكونون من ثمانية بطون، ثم ذكر أسماء أوائل أمراءهم وما جرى من الأحداث في عهدهم، وكيف أستغل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بن محيو المريني (656-685هـ/1258-1286م) ضعف دولة الموحدين (454- 668هـ/1062-1269م) وتأسيس دولة بني مرين في المغرب الأقصى سنة (668هـ/1269م)، وبعد ذلك أورد أسماء سلاطينهم وما قاموا به من الأعمال إلى عهد السلطان أبو سالم إبراهيم - صاحب الترجمة- وكيف أستطاع الأخير استلام حكم بني مرين وما قام به من الأعمال، ثم أنه عين ابن خلدون كاتب سره، وكيف قتل السلطان أبو سالم بيد النصارى[50].

وتولى الأمر من بعده السلطان أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن علي المريني (762-763هـ/1361-1362م) وأكد المقريزي بأن مدة حكمه كانت ((نحو شهرين تحت الحجر))[51]، ثم جاء بعده السلطان أبو زيان محمد بن أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن علي المريني(763-767هـ/1362-1365م) وذكر المقريزي بأن الوزير عمر بن عبد الله (ت767هـ/1366م) قد أستبد بأمر المملكة ((حتى بلغ بالحجر على السلطان أبي زيان مبلغ الحجر على السفهاء من الصبيان))[52].

وفي ترجمة السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن علي المريني (767-774هـ/1365-1372م) كرر المعلومات عن أمراء بني مرين الأوائل وما جرى من الأحداث في عهدهم، وكيف أسسوا دولتهم في المغرب الأقصى، ثم تطرق بعد ذلك إلى الأحداث التي جرت في عهد السلطان أبو فارس، حيث أكد المقريزي بأنه ((أضطرم المغرب الأوسط ناراً)) في عهده، إلا أنه في الأخير ثبت قدمه في ملكه[53].

علاوة على ذلك، ترجم المقريزي لعدد آخر من سلاطين دولة بني مرين وذكر فيها ما جرى من الأحداث في عهدهم، منهم: السلطان السعيد محمد ابن السلطان أبو فارس عبد العزيز المريني (774-776هـ/1372-1374م)[54]، والسلطان أبو العباس أحمد ابن السلطان أبو سالم إبراهيم المريني(776-786هـ/1374-1384م)[55]، والسلطان أبو حمو موسى ابن السلطان أبي عنان فارس المريني(786-788هـ/1384-1386م)[56]، والسلطان أبو عبد الله الواثق

---

[50] المصدر نفسه، مج1، ص ص 112-123.
[51] المصدر نفسه، مج1، ص ص 489-490.
[52] المصدر نفسه، مج3، ص ص 212-214.
[53] المصدر نفسه، مج2، ص ص 268-278.
[54] درر العقود الفريدة ، مج3، ص ص 295-310.
[55] المصدر نفسه، مج1، ص ص 371-376.
[56] المصدر نفسه، مج3، ص ص 476-478.

محمد ابن الأمير أبي الفضل محمد ابن السلطان أبي الحسن علي المريني(788-789هـ/1384-1387م)[57]، وغيرهم من السلاطين وأمراء دولة بني مرين[58].

ومن الجدير بالذكر أن المقريزي قد صرح بأنه أخذ أغلب تراجم سلاطين وأمراء دولة بني مرين من كتاب أستاذه ابن خلدون، ومن خلال المقارنة بين تلك التراجم في الكتابيين تبين بأن المقريزي قد نقل قسم من تلك التراجم حرفياً من ذلك الكتاب بدون أن يزيد عليها شيئاً، ودمجها مع المعلومات التي لديه من مصادر أخرى، وبذلك تكون لديه ترجمة انفرد بها عن الآخرين[59].

كما أورد المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) تراجم بعض الأمراء والسلاطين **الدولة الحفصية** (625-893هـ/1227-1487م)، منهم: السلطان أبو العباس أحمد ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي بكر الهنتاتي المصمودي الحفصي (772-796هـ/1370-1393م) صاحب مملكة إفريقية وتونس، حيث وصفه المقريزي بأنه ((كان ملكاً حازماً عارفاً بأمور المملكة ... وكان صاحب شارةٍ وفخامة وضبطٍ وإمساكٍ عن العطاء إلا فيما لابدّ منه، مع العبادة والنسك))، وأورد فيها ما جرى من الأحداث في عهده[60]، كما ترجم للسلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس أحمد الحفصي، إذ أورد فيها عن أصل الحفصين، وأنهم ينتمون إلى الهنتاتي، وهي إحدى بطون المصامدة- قبيلة بربرية-، ثم ذكر أسماء أوائل أمراءهم وما جرى من الأحداث في عهدهم، وكيف أسسوا دولتهم في إفريقية وتونس، وبعد ذلك أورد أعمال السلطان أبو فارس عبد العزيز- صاحب الترجمة- حسب سنيين، ثم أكد بأنه ((كان خير ملوك الزمان همّة ويقظة ومعرفة وديانة وحسن سياسة))[61]. أما الأمير أبي عبد الله محمد ابن الأمير أبي يحيى زكريا ابن الأمير أبي عبد الله محمد ابن السلطان أبي بكر الهنتاتي المصمودي الحفصي (ت812هـ/1409م) صاحب بلدة العناب[62] فقد أورد المقريزي ترجمته، وأكد فيها بأنه كان ثائراً على ((ابن عمه السلطان أبو

---

[57] المصدر نفسه، مج3، ص ص 216-217.

[58] المصدر نفسه، مج2، ص ص 218-221، 413-418؛ مج3،ص 217.

[59] ينظر: أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ/ 1405م)، تاريخ ابن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق: خليل شحادة، ط2، دار الفكر، (بيروت: 200)، ج7،ص ص 79-557؛ ينظر: درر العقود الفريدة ، مج1، ص ص 112-123، 371-376، 489-490؛ مج2، ص ص 218-221، 268-278، 413-418؛ مج3،ص ص 212-214، 216_217، 217، 295-310، 476-478.

[60] المصدر نفسه، مج1، ص ص 244-247.

[61] درر العقود الفريدة ، مج2، ص ص 278-292.

[62] بلدة العناب: لم يعثر على تعريفها فيما توافر للباحث من مصادر ومراجع.

فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي العباس أحمد ابن الأمير أبي عبد الله، وبسبب ثورته كان خراب بلاد المغرب وتلاف بني مرين ملوك فاس))[63].

فضلاً عن ذلك، أورد المقريزي تراجم بعض الأمراء والسلاطين **الدولة بنو عبدالواد (بنو الزيان)** (633-866هـ/1235-1461م)، منهم: السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان(707-792هـ/1307-1389م) ملك تلمسان[64] والمغرب الأوسط، إذ أورد فيها نسب بني عبدالواد وأصلهم، فقد أكد بأنهم بطن من بطون قبيلة زناتة البربرية، ثم ذكر أسماء أوائل أمراءهم وما جرى من الأحداث في عهدهم، وكيف أستغل الأمراء بنو عبدالواد الظروف وأسسوا دولتهم في المغرب الأوسط، وبعد ذلك أورد أعمال السلطان أبو حمو موسى - صاحب الترجمة- وكيف أستطاعت دولة بني مرين في سنة (737هـ/1337م) أن تسقط دولة بنو عبدالواد ((برهة من الدهر)) أي إلى سنة (761هـ/1359م)[65]، كما ترجم للسلطان أبو زيان محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي تاشفين عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان (760-761هـ/1358-1359م) الذي حكم تلمسان في فترة حكم بني مرين، حيث أورد فيها أخبار الصراع الذي نشب بينه وبين ابن عمه السلطان أبو حمو موسى على السلطة[66]. أما السلطان أبو تاشفين عبد الرحمن ابن السلطان أبو حمو موسى بن يوسف (792-795هـ/1389-1392م) فقد أورد المقريزي في ترجمته ما جرى من الأحداث في عهده[67]، كما ترجم للسلطان أبو زيان محمد ابن السلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن (796-808هـ/1393-1405م) ملك تلمسان، حيث وصفه المقريزي بأنه كان ((ملكاً جليلاً فاضلاً))، وأورد فيها ما جرى من الأحداث في عهده[68].

علاوة على ذلك، فقد ترجم المقريزي لآخر أمراء **دولة بني ثابت** (727-803هـ/1326-1400م) وهو يحيى بن أبي بكر بن محمد بن ثابت بن عمار الركوجي العجيسي البربري الطرابلسي المغربي (800-803هـ/1397-1400م) صاحب طرابلس الغرب[69]، إذ ذكر فيها أسماء أوائل أمراءهم وما

---

(63) المصدر نفسه، مج3، ص ص236-247.

(64) تلمسان: مدينة مشهورة بالمغرب، مسورة في سفح الجبل، ولها ثلاثة عشر باباً، وهي قاعدة مملكة بني عبد الواد من زناتة، ولها حصون كثيرة، ولها مياه سائحة.للمزيد عنها ينظر: الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود الأيوبي(ت 732هـ/ 1331م) المعروف بأبو الفداء، تقويم البلدان، مكتبة الثقافة الدينية، (القاهرة: 2006)،ص 155.

(65) درر العقود الفريدة ، مج3، ص ص480-496.

(66) المصدر نفسه، مج3، ص ص 312-314.

(67) درر العقود الفريدة ، مج2، ص ص 259-260.

(68) المصدر نفسه، مج3، ص ص 315-318.

(69) طرابلس الغرب: مدينة على البحر مبنية بالصخر خصبة واسعة الكورة حصينة جداً، وليس بها ماء جارٍ، وهي آخر المدن التي تقع في شرقي القيروان. للمزيد عنها ينظر: أبو الفداء، تقويم البلدان،ص 170.

جرى من الأحداث في عهدهم، ثم أكد بأن بنو ثابت ((كانوا ذوي أفضال وكرم))، وأنهم ملَكوا طرابلس أكثر من سبعين سنة[70].كما أنه ترجم للأمير الرئيس أبو العباس أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن أحمد ابن الحسن بن علي بن مزني البسكري المغربي (767-804هـ/1365-1401م) آخر أمراء **دولة بني مزني** (683-804هـ/1284-1401م) أصحاب الزاب[71]، إذ أورد فيها نسب بني مزني وأصلهم، فقد أكد بأنهم من الأعراب الواصلين الى إفريقية مع بنو هلال في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ثم ذكر فيها أسماء أوائل أمراءهم وما جرى من الأحداث في عهدهم[72].

3-2- النخب الإدارية:

أورد المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) عدد من تراجم النخب الإدارية في بلاد المغرب، كما أنه أتى بمعلومات أخرى عنهم- بشكل غير مباشر- ضمن التراجم الأخرى، لذا جاءت أخبارهم بشكل غير متكامل، بل اكتفى بالإشارة إلى أسمائهم مع ذكر نشاطات البعض منهم ضمن ترجمة واحدة أو عدّة التراجم، إذ أن معلوماته عن النخب الإدارية في بلاد المغرب وتحديد المدة الزمنية لتوليهم الوظائف والمناصب الإدارية كانت مبتورة، وذلك بسبب تجزئة مجمل تلك النشاطات ضمن عدّة التراجم أو عدم ذكره لها

تعد **الوزارة** من الوظائف العليا في الهرم الإداري في الدول والإمارات المغربية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، إذ ترجم المقريزي لبعض الشخصيات المغربية التي تولت تلك الوظيفة في بلاد المغرب كالأمير أبو بكر بن غازي بن يحيى بن الكاس (ت779هـ/1377م) وزير بني مرين، إذ أورد فيها معلومات عن أصل بني الكاس، وأشار بأنهم أحدى بطون بني ورتاجن، الذين كان لهم سبق في تولي وظيفة الوزارة، إذ كان أبوه -غاز بن يحيى بن الكاس (ت741هـ/1340م)- وزيراً للسلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني(731-749هـ/1331-1348م)، وبعد ذلك أشار المقريزي بأن أبو بكر- صاحب الترجمة- ترقى في الخدم حتى وصل الى رتبة الوزير سنة (768هـ/1366م) في عهد السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن علي المريني، ولما مات الأخير قام ببيعة ولده السلطان السعيد محمد

---

[70] درر العقود الفريدة ، مج3، ص ص523-524.

[71] الزاب: كورة كبيرة من عمل إفريقية تقع على أطراف الصحراء، وهو مثل إفريقية في حر هوائها وكثرة نخيلها، وهو مدن كثيرة وأنظار واسعة، وفيها الأنهار والعيون الكثيرة، ومن مدنها:المسيلة ونقاوس وطبنة وبسكرة وغيرها. للمزيد عنها ينظر: محمد بن عبد المنعم الحميري(ت 727هـ/ 1326م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، حققه: إحسان عباس، ط2، مكتبة لبنان، (بيروت:1984)، ص ص281-282.

[72] درر العقود الفريدة ، مج1، ص ص316-317.

ابن السلطان أبو فارس عبد العزيز المريني، وهو صبي، لذا أستبد بأمر المملكة ((وحجره عن التصرف... واستقل بأمر المغرب إبراماً ونقضاً)) الى سنة (776هـ/1374م)، عندها ملَكَ السلطان أبو العباس أحمد ابن السلطان أبو سالم إبراهيم المريني بملك المغرب، ثم أكد بأنه كان معارضاً لحكم الأخير حتى قتل في سنة (779هـ/1377م)[73].

كما ترجم المقريزي للوزير المُقري والحاجب المعظم[74] أبو محمد عبد العزيز بن محمد اللبابي المغربي(ت824هـ/1421م) وزير الدولة الحفصية، إذ أورد فيها المقريزي بأنه أصبح في سنة (814هـ/1411م) كاتباً للسلطان المخلوع السعيد محمد ابن السلطان أبو فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن علي المريني في سنة (776هـ/1374م) حيث جاء الى الحكم المريني للمرة الثانية في سنوات (813-816هـ/1410-1413م)، ثم أكد بأن السلطان فوض إليه الوزارة[75]، وفي رواية أخرى أنه فوض إليه وظيفة الحجابة[76]، وجعل إليه جميع أمور المملكة، ثم وصفه المقريزي في نهاية الترجمة بأنه ((كان هو أديباً شاعراً كاتباً مُترسلاً يكتب الرسائل الجيدة بديهاً فيبلغ المراد، ويعبر عن المقصود بعبارة المتوسطة في البلاغة، مع الكرم والإقدام والشجاعة، والجرأة على سفك الدماء الكثيرة، وجودة التدبير، وكثرة الدهاء وهو أحد أسباب تلف دولة بني مرين بفاس)) [77].

علاوة على ذلك، فقد أشار المقريزي - بين ثنايا تراجم النخب المغربية- الى بعض أسماء الوزراء الاخرى في بلاد المغرب، مع ذكر بعض أعمالهم والأحداث التي شاركوا فيها، فعلى سبيل المثال لا الحصر: الوزير الحسن بن عمر(ت761هـ/1360م) الذي كان وزيراً للسلطان أبو عنان فارس ابن السلطان أبي الحسن علي المريني(749-759هـ/1348-1358م)[78]، والوزير عمر بن عبد الله بن علي، الذي كان وزيراً للسلطان أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن علي المريني[79]، الوزير مسعود بن رحو بن علي بن عيسى بن ماساي (ت789هـ/1387م) وزير السلطان أبو العباس أحمد

---

[73] درر العقود الفريدة ، مج1، ص ص133-135.

[74] طرأ على منصب الوزير شيء من التعديل في بلاد المغرب خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، فأصبحت مهام الوزير هي نفس مهام الحاجب، وأصبح يطلق على الحاجب أسم الوزير وعلى الوزير أسم الحاجب. للمزيد عن ذلك ينظر: عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون(ت 808هـ/ 1405م)، مقدمة ابن خلدون، تحقيق: درويش الجويدي، المكتبة العصرية،(بيروت:2005)،ص ص220-222، 226؛ محمد عيسى الحريري، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني، ط2، دار القلم، (الكويت:1987)،ص ص266-267.

[75] درر العقود الفريدة ، مج2، ص ص312-313.

[76] المصدر نفسه، مج2، ص 415.

[77] درر العقود الفريدة ، مج2، ص 314.

[78] ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص ص116، 122؛مج2، ص ص 273-274.

[79] ينظر:المصدر نفسه، مج1، ص 489؛ مج2،ص 245، 274-276، 390؛ مج3،ص 213-214.

المريني والسلطان أبو حمو موسى المريني [80]، وغيرهم من الوزراء المغربية الذين أشار إليهم المقريزي [81].

كما ترجم المقريزي لعدد من النخب المغربية الذين تولوا وظيفة **الحجابة** في الدول والإمارات المغربية، فعلى سبيل المثال لا الحصر: الشيخ أبو العباس أحمد ابن الرئيس أبي الحسن علي القبائلي(803هـ/1400م) الذي تولى وظيفة الحجابة في الدولة المرينية أيام السلطان أبو حمو موسى ابن السلطان أبي عنان فارس المريني (786-788هـ/1384-1386م)، واستمر في تلك الوظيفة الى عهد السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبو العباس أحمد المريني (800-823هـ/1398-1420م)، إذ أورد فيها بأن جده كان كاتباً لخلفاء الدولة الموحدين، ثم أكد بأن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان المريني قد ولى والده وظيفة العلامة[82]، وذكر بأن شيخ أبو العباس أحمد- صاحب الترجمة- قد باشر الأعمال في باب السلطان أبو حمو موسى، واستطاع أن يستمر في وظيفته كالحاجب خلال عهود سلاطين الدولة المرينية الآخرين، ثم وصفه المقريزي بأنه كان((حسن السياسة، مجتهداً في العمارة، ناهضاً بأعباء الدولة، فكانت الأوطان في أيامه عامرةً، وجباياتها دارةً، والرعايا في نعمة غامرة، والملوك الدانية والقاصية تخشى بأسه وترغب في إحسانه))[83]. كما أشار المقريزي في ترجمة أستاذه ابن خلدون الى أنه تولى وظيفة الحجابة في دولة بني عبدالواد للسلطان أبو حمو موسى بن يوسف بن عبد الرحمن صاحب تلمسان[84].

4-2- النخب الدينية:

تطرق المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) إلى الوظائف الدينية التي تولتها النخب المغاربية في بلاد المغرب وبلاد الشام ومصر وحجاز خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، إذ تعد من الوظائف المهمة التي حظيت بحرمة كبيرة لدى سلاطين وملوك الدول والإمارات المغربية وسلاطين المماليك، وكانت من وظائف أصحاب القلم، لذا كانت فرص الحصول عليها كبيرة بالنسبة للعلماء ونخب المغربية ذوي الكفاءة، ولعل أبرز تلك الوظائف **قاضي القضاة[85]**،

---

[80] ينظر:المصدر نفسه، مج1، ص122،117،373؛ مج3،ص 213، 217، 295، 477-478.

[81] على سبيل المثال لا الحصر ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص ص 134، 372؛ مج2،ص ص 276،312، 390، 417، 418؛ مج3،ص ص 239-247، 301،303، 304، 313، 489.

[82] صاحب العلامة: يتولى الكتابة بخطه نيابة عن السلطان ويضع علامته على الكتب الرسمية. للتفصيل عنها ينظر: أحمد مختار العبادي، دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، (الإسكندرية:د.ت)، ص305.

[83] درر العقود الفريدة ، مج1، ص ص215-219.

[84] المصدر نفسه، مج2، ص 392.

[85] تعد وظيفة قاضي القضاة في تلك القرنين من أرفع الوظائف الدينية قدراً وأجلها رتبة، بحيث لا تتقدم عليها أية وظيفة دينية أخرى لعلو شأنها وسعة صلاحيتها، فهي ((أعظم الأركان وقعاً وأعمها نفعاً وعليهم مدار مصالح الأُمة عقلاً وشرعاً))، ويليه منصب القاضي ثم نوابه. ينظر: أبو العباس

حيث ذكر المقريزي في ترجمة أستاذه ابن خلدون بأنه تولى وظيفة قاضي القضاة المالكية[86] بمصر في سنة (786هـ/1384م) وأنه ((قام بذلك قياماً محموداً، ودفع رسائل الأمراء، وردّ شفاعات الأكابر))، وبسبب ذلك كثرة شكوى الأمراء عليه فصرفه السلطان المملوكي الملك الظاهر برقوق (784-802هـ/1382-1399م) عنها سنة (787هـ/1385م)، ثم ذكر بأنه أعيد إلى منصبه سنة (801هـ/1398م)، وبعد ذلك أشار الى أنه صرف عنها وأعيد في سنة (803هـ/1400م)، ثم أكد بأنه صرف وأعيد مرات عدة خلال سنوات (804-808هـ/1401-1405م)، حتى توفي وهو قاضي قضاة[87].

كما ترجم المقريزي للعديد من النخب المغربية الذين تولوا المناصب القضائية في مختلف مناطق بلاد الشام والديار المصرية والحجاز أبان العهد المملوكي منهم: القاضي جمال الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الرحيم بن علي المسلاتي المالكي (ت 771هـ/ 1369م) الذي كان قاضياً على دمشق، ولم يحدد المقريزي بداية ومدة بقاءه في تلك الوظيفة، بل ذكر أنه أقام بدمشق نحو أربعين سنة[88]، كما ترجم للقاضي زين الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن عبد الر حمن ابن الحفيد المعروف بإبن السجلماني المغربي المالكي (ت 789هـ/ 1387م)، الذي تولى قضاء المالكية بحلب[89]، دون أن يحدد بداية ومدة مباشرته لذلك المنصب، أما القاضي برهان الدين أبو سالم إبراهيم بن محمد بن علي الصنهاجي المالكي (ت 796هـ/ 1393م) فقد أشار إليه المقريزي بأنه ولي قضاء المالكية بدمشق مرتين[90]، ثم أكد بعد

أحمد بن علي القلقشندي(ت 821هـ/ 1418م)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، (بيروت: 1987)، ج4، ص 35؛ غرس الدين خليل بن شاهين الظاهري(ت 873هـ/ 1468م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، عني بتصحيحه: بولس راويس، مطبعة الجمهورية، (باريس: 1894)، ص90. للتفصيل عن تلك الوظيفة ينظر: ابن أبي الدم، أدب القضاء، تحقيق: محيي هلال السرحان، (بغداد: 1984)؛ محمود محمد عرنوس، تاريخ القضاء في الإسلام، (القاهرة: 1933).

[86] اقتصّرت وظيفة قاضي القضاة في عهد الدولة الأيوبية على المذهب الشافعي، وكان القاضي ونوابه أيضاً من الشافعية، بينما شملت في العهد المملوكي على المذاهب السنة الأربع: الشافعي والمالكي والحنفي والحنبلي في مصر وبلاد الشام منذ عهد السلطان المملوكي الملك الظاهر بيبرس(658-676هـ/1260-1277م). للمزيد عن ذلك ينظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص ص 36 – 37؛ علي إبراهيم حسن، تاريخ المماليك البحرية، ط3، مكتبة النهضة المصرية، (القاهرة: 1967)، ص ص 371 – 375.

[87] درر العقود الفريدة ، مج2، ص ص395-398.

[88] المصدر نفسه، مج1، ص 188.

[89] المصدر نفسه، مج2، ص 224.

[90] ذكر المقريزي بأنه ولى في المرة الأولى سنة (778هـ/1376م) ولم يذكر المرة الثانية، وبيّن المحقق الكتاب الدكتور محمود الجليلي بأنه وجد تعليق تقي الدين أبو بكر بن أحمد المعروف بإبن قاضي شهبة (ت 851هـ/ 1448م) على مسودة كتاب (درر العقود الفريدة) بأن ولايته الثانية كانت في سنة(780هـ/1378م) وأنه أستمر فيها إلى سنة(783هـ/1381م). ينظر: المصدر نفسه، مج1، ص 75، هامش(1).

ذلك بأنه نقل الى قضاء حلب[91]، كما ترجم للقاضي رضي الدين أبو حامد محمد بن عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن أبي عبد الله محمد المعروف بالشريف الحسني الفاسي المكي المالكي (ت 824هـ/ 1421م) وأكد بأنه تولى قضاء مكة في شوال سنة (817هـ/ 1414م)، وأنه صرف عنها في ذي القعدة سنة (818هـ/ 1415م)[92].أما القاضي تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الفاسي الشريف الحسني(ت 832هـ/ 1428م) فقد أشار إليه المقريزي بأنه ولي قضاء المالكية بمكة، ثم أكد بأنه صرف وأعيد مرات عدة إليها خلال السنوات (807-820هـ/1404-1417م)[93].

علاوة على ذلك، فقد ترجم لعدد من النخب المغربية الذين تولوا وظيفة نائب القاضي منهم: قاضي ناصر الدين محمد بن محمد بن أبي القاسم التونسي المالكي(ت763هـ/1361م) الذي كان نائباً للقاضي المالكية بالحسينية خارج القاهرة [94]، دون أن يحدد بداية ومدة بقاءه في تلك الوظيفة، كما ترجم للقاضي شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الحسني الفاسي ثم المكي المالكي (ت 819هـ/1416م) الذي تولى نيابة قاضي المالكية بمكة، ولم يحدد المقريزي بداية ومدة مباشرته لذلك المنصب، بل ذكر أنه باشر الحرم المكي زيادة على خمسين سنة[95].

ومن الوظائف الدينية الأخرى وظيفة **الخطابة؛** التي تعد من الوظائف الدينية الجليلة، فقد تطرق الى بعض تراجم النخب المغربية الذين تولوا تلك الوظيفة في بلاد المغرب خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، منهم: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق المغربي التلمساني العجيبي المالكي(ت 781هـ/ 1379م) الذي ولى خطابة الجامع بفاس، ثم أكد بأن السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني قد ((جعله خطيباً، حيث يصلي من مساجد المغرب))، وبعد ذلك أشار الى أنه ولى خطابة الجامع بتونس[96]، كما ترجم للإمام والخطيب أبو الحسن محمد بن أحمد بن موسى بن عيسى الأنصاري المغربي التونسي البطرني (ت 793هـ/ 1390م) الذي كان خطيباً بجامع القصبة بتونس، ووصفه المقريزي بأنه كان ((واسع الرواية، كثير الدراية، عالي الهمة، غزير المروءة، شريف النفس...)) [97].

فضلاً عن ذلك، ترجم المقريزي لعدد من نخب مغربية أخرى تولت وظيفة **التدريس** في بلاد المغرب ومصر والحجاز خلال العهد المملوكي، فقد

---

[91] المصدر نفسه، مج1، ص ص74- 75.
[92] المصدر نفسه، مج3، ص ص 211، 234-235.
[93] المصدر نفسه، مج3، ص 123.
[94] درر العقود الفريدة ، مج3، ص 220.
[95] المصدر نفسه، مج1، ص 315.
[96] المصدر نفسه، مج3، ص ص 235-236.
[97] المصدر نفسه، مج3، ص ص 214-216.

ذكر العديد منهم، ولعل أبرزهم:جمال الدين عبد الله السكسوني المغربي المالكي(ت801هـ/ 1398م) الذي كان يدرس في المدرسة الأشرفية بالقاهرة [98] كما ترجم للعالم المغربي أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي (ت 803هـ/ 1400م) الذي كان يدرس في بلاد إفريقية، إذ أكد بأن له سمعة وشهرة واسعة بتدريس في تلك الأقطار[99]، أما أستاذه ابن خلدون فقد أشار المقريزي في ترجمته الى أنه درس في الجامع الأزهر، ثم ولاه السلطان المملوكي الظاهر برقوق تدريس المدرسة القمحية[100]؛ التي هي أجل مدارس الفقهاء المالكية حينذاك بديار مصر [101].

كما ترجم لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن عمر التونسي المالكي المعروف بالوانوغي (ت 819هـ/ 1416م) الذي ذكر فيها بأنه درس بمكة والمدينة المنورة سنين عديدة[102]، كما أشار إلى غيرهم من النخب المغربية الذين تولوا تلك الوظيفة [103].

5-2- النخب العلمية:

أسهب المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) التطرق إلى تراجم النخب العلمية المغربية في بلاد المغرب وبلاد الشام ومصر والحجاز خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، إذ شاركت النخب المغربية من العلماء والفقهاء مشاركة فعالة في الحياة العلمية، حيث ذكر المقريزي الكثير من تلك النخب التي كانت لها باعاً طويلاً في مختلف الميادين والفروع العلمية وبرعوا فيها.

ومن أهم المجالات العلمية التي برز فيها النخب المغربية في تلك الفترة هي **العلوم الدينية**, منها **علوم القرآن الكريم**، حيث ترجم المقريزي لعدد من النخب المغربية الذين اهتموا **بعلم القراءات** خلال تلك الفترة، وظهر من بينهم عدد ممن بروزا فيه، منهم: المقرئ أبو زكريا يحيى بن أحمد بن أحمد بن صفوان القيني المغربي المالكي (ت772هـ/ 1370م) الذي كان عارفاً بالقراءات إلى جانب معرفته بالعلوم الأخرى[104]، كما ترجم للمقرئ قاسم بن محمد بن إبراهيم المغربي الأصل النويري المالكي(ت 799هـ/ 1396م) وأكد بأنه((كان له صوت شجيٌّ وطريقة في القراءة مطربة إن تأنّى أو سرد))[105] أما المقرئ الأستاذ أبو يوسف يعقوب بن محمد الحلفاوي الصنهاجي المغربي

---

[98] المصدر نفسه، مج2، ص ص 353-354.

[99] المصدر نفسه، مج3، ص 223.

[100] المدرسة القمحية: بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (566هـ/1170م)بجوار جامع العتيق بمصر، وخصصها لفقهاء المالكية، ووقف عليها قيسارية الوراقين وضيعة بالفيوم، وهي أجل مدارس للفقهاء المالكية بديار مصر.للمزيد ينظر: المقريزي، الخطط المقريزية،ج4،ص201.

[101] درر العقود الفريدة ، مج2، ص395.

[102] المصدر نفسه، مج3، ص ص 206-207.

[103] ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص 315؛ مج3،ص ص 80-81، 123-124، 235-236.

[104] المصدر نفسه، مج3، ص 522.

[105] المصدر نفسه، مج3، ص21.

(ت824هـ/1421م) فقد ذكر المقريزي بأنه اشتهر بالقراءات وبرع فيها[106]، علاوة على ذلك ترجم لعدد آخر من النخب المغربية الاخرى الذين اهتموا بذلك العلم [107].

كما ترجم المقريزي للعديد من النخب المغربية ممن أعتنوا **بعلم الحديث**، حيث أنكب بعضهم على سماع وجمع وضبط الأحاديث وأسماعها وإملائها حتى اشتهروا كمحدثين، ومن أبرزهم: المحدث أحمد بن محمد بن الحسن ابن الإمام المرصدي الجزائري(ت760هـ/1358م) الذي سمع الحديث من مشاهير الشيوخ بلاده، وحدث عنهم[108]، كما ترجم للمحدث تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسين الحميري المغربي الأصل البعلي ثم الدمشقي (ت 788هـ/ 1386م) وأكد فيها بأنه سمع الحديث من مشاهير علماء عصره، وحدث عنهم[109]، أما المحدث جمال الدين أبو المحاسن محمد بن موسى بن علي بن عبد الصمد بن محمد بن عبد الله المراكشي ثم المكي الشافعي (ت823هـ/1420م) فكان من المحدثين المغاربة الذي رحل إلى العديد من المدن من أجل طلب الحديث وسمع بها كدمشق وبعلبك وحمص وحماه والقدس والقاهرة والإسكندرية، حتى أصبح متقدماً في علم الحديث، بحيث أثنى عليه المقريزي وأكد بأنه ((كان ثقة، حُجة في نقله وضبطه...))[110]، فضلاً عن النخب المغربية أخرى الذين ترجم لهم المقريزي ممن اهتموا بذلك العلم[111].

وأورد المقريزي تراجم عددٍ كبيرٍ من العلماء والفقهاء المغاربة الذين اشتهروا **بعلم الفقه** خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، منهم: القاضي برهان الدين أبو سالم إبراهيم الصنهاجي المالكي، الذي أكد بأنه ((كان عالماً بالفقه والأصلين والعربية)) [112]، كما ترجم للفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي التونسي المالكي، الذي ((كان واسع المعرفة بالتفسير والفقه والأصول والعربية)) ثم أكد بأن له بعض الشروح والمصنفات الفقهية منها كتاب في الفقه جمع فيه أحكام مذهب مالك في سبعة أسفار، وشرح على ((مسلم))، وغير ذلك [113]، أما السيد الشريف الفقيه المفتي تقي الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي الخير محمد بن محمد الحسني الفاسي ثم المكي المالكي(ت 805هـ/ 1402م) فقد أكد المقريزي بأنه أشتغل بالفقه وكان فيه نبيهاً، وشارك في غيره من العلوم

---

[106] المصدر نفسه، مج3، ص538.

[107] ينظر :المصدر نفسه، مج3، ص ص215، 223-224.

[108] درر العقود الفريدة ، مج1، ص271.

[109] المصدر نفسه، مج1، ص357.

[110] المصدر نفسه، مج3، ص360.

[111] ينظر:المصدر نفسه، مج1،ص382،66؛مج2،ص500-501؛ مج3، ص ص220، 441،268.

[112] المصدر نفسه، مج1، ص75.

[113] المصدر نفسه، مج3، ص ص 224-225.

وبرع فيها، وأفتى عدّة سنين بلغ نحو أربعين سنة[114]، كما ترجم للفقيه لأبي عبد الله محمد بن أحمد الوانوغي التونسي المالكي، الذي ((عرف الفقه معرفة جيّدةً، وكان إذا رأى شيئاً وعاهُ وقرّره وإن لم يكن له به معرفة لما منحه من الذكاء وقوّة الفهم))[115]، علاوة على ذلك ترجم المقريزي لعدد آخر من النخب المغربية الذين اشتهروا بذلك العلم[116].

أما **علم التصوف[117]** فيعد من العلوم الدينية التي شهدت إزدهاراً ملحوظاً في بلاد المغرب وبلاد الشام ومصر، حيث ترجم المقريزي لبعض النخب المغربية الذين سلكوا مسلك الصوفية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، منهم: الشيخ عيسى بن محمد بن عبد الله الهكسوري المغربي (ت 763هـ/ 1361م) الذي كان من شيوخ الهساكرة، ثم أكد بأنه ((كان من أرباب المناقب، وأصحاب الأحوال الجليلة))[118]، كما ترجم للشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن محمد الجديدي القيرواني(ت 787هـ/ 1385م) الذي أكد فيها بأنه قد ((انقطع لعبادة الله، فظهرت له كرامات ظاهرة، واجتمع عليه طائفة كبيرة بزاوية ابتناها، وهرع الكافة إليه، فعظم شأنه، ونفع الله به الناس...))[119]، أما الشيخ أبو زيان ناصر بن أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل البسكري المغربي المالكي(ت823هـ/1420م) فقد أكد المقريزي بأنه كان ((من جملة الصوفية بخانكاه شيخو[120])) [121]، فضلاً عن ذلك ترجم المقريزي لعدد آخر من النخب المغربية الذين سلكوا مسلك الصوفية[122].

ومن العلوم الأخرى التي أشار إليها المقريزي بأن بعض النخب المغربية في بلاد المغرب ومصر والحجاز قد برزوا فيها خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، هي **العلوم الإنسانية كالتاريخ** منهم: قاضي القضاة والمؤرخ ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن ابن خلدون، الذي وصفه

---

[114] المصدر نفسه، مج2، ص251.

[115] درر العقود الفريدة ، مج3، ص207.

[116] ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص ص275-276، 315؛ مج2،ص 224؛ مج3، ص ص21، 80، 100، 200، 207، 215، 539.

[117] للتفصيل عن التصوف ينظر: ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، ص ص 449-459؛ عبد القادر عيسى، حقائق عن التصوف، (دمشق: 1993) ؛ ماسينيون، مادة (التصوف)، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة وتحرير: أحمد الشنتناوي وآخرون ، دار المعرفة، (بيروت: د.ت)، ج5، ص ص 265 – 266.

[118] درر العقود الفريدة ، مج2، ص556.

[119] المصدر نفسه، مج3، ص ص 169-170.

[120] خانكاه شيخو: أنشأها الأمير الكبير سيف الدين شيخو العمري(ت 758هـ/ 1356م) في سنة (756هـ/1355م) خارج القاهرة تجاه جامع شيخو في خط الصليبة، ورتب بها دروساً لطوائف الفقهاء الأربعة، ووقف عليها الأوقاف الجليلة.للمزيد ينظر: المقريزي، الخطط المقريزية،ج4،ص292.

[121] درر العقود الفريدة ، مج3، ص ص502-503.

[122] ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص ص161-162؛ مج2،ص ص 91-92، 200، 317؛ مج3، ص ص343-344.

بأنه من ((النخبة التي قلّ أن يأتي بمثلها الدهر، والتاج الذي علا قمم رؤساء العصر، بما انطوى عليه من غزير المعارف والعلوم...))[123]، وأكد بأن له عدة مصنفات أبرزها كتاب (العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر)، حيث وصف ذلك الكتاب بقوله: ((وهو لعمري نادرة عجيبة، ودرّة بديعة غريبة، سيما مقدمته التي لم يعمل عليها مثالها، وأنه لعزيز أن ينال مجتهد منالها، إذ هي زبدة المعارف والعلوم...))[124]، كما ورد في ترجمة الشيخ أبو زيان ناصر بن أحمد البسكري المغربي المالكي، بأنه ((جمع مسودات ((تاريخ الرواة)) لو بيض لكان مئة سفر، وكان من أعرف الناس بالتراجم)) ثم يضيف بأن تلك المسودات تلفت ولم ينتفع بها أحد[125]، أما القاضي تقي الدين أبو الطيب محمد بن أحمد الفاسي، فقد أكد المقريزي في ترجمته بأنه ألف خمسة كتباً في تاريخ مكة، أكبرها (شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام) في مجلدين، وكتاب عن تراجم سماه (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين) في خمس مجلدات، وكتاب (إرشاد ذوي الأفهام الى تكميل كتاب الإعلام بوفيات الأعلام للذهبي (ت 748هـ/ 1347م)، وغير ذلك من المصنفات التاريخية[126].

لم تقتصر مشاركة النخب المغربية خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين على النواحي العلمية التي ذكرناها سابقاً، بل كان دورهم في مجال العلوم اللسانية بارزاً أيضاً، حيث ترجم مؤرخنا للعديد من العلماء والفقهاء المغاربة الذين اهتموا **بالعلوم اللسانية كاللغة العربية ونحوها** منهم: أبو عبد الله محمد بن محمد الورغمي التونسي المالكي، الذي برع في العربية والمعاني والبيان والفرائض وغير ذلك من العلوم[127]، كما ورد في ترجمة يحيى بن محمد بن عبد الرحمن الأصبحي المغربي المالكي(ت 809هـ/ 1406م) بأنه كان ((له معرفة بفنون، فمهر في العربية والشعر...))[128]، أما أبو عبد الله محمد بن أحمد الوانوغي التونسي المالكي، فقد أكد المقريزي في ترجمته بأنه ((عني بالعلم فبرع في فنون مابين تفسير، وأصول، ومنطق، وعربية، وفرائض، وحساب...))[129].

كما ترجم المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) للعديد من النخب المغربية الذين نبغوا في **الأدب العربي وخاصة الشعر**، منهم: الأديب شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الواحد المعروف بابن أبي حجلة المغربي(ت776هـ/ 1374م) الذي كان بارعاً بالأدب، ثم أكد بأنه

---

[123] درر العقود الفريدة ، مج2، ص 387.
[124] المصدر نفسه، مج2، ص 403.
[125] المصدر نفسه، مج3، ص ص 502-503.
[126] المصدر نفسه، مج3، ص ص 123-124.
[127] المصدر نفسه، مج3، ص223.
[128] المصدر نفسه، مج3، ص523.
[129] المصدر نفسه، مج3، ص207.

صنف في الأدب كتباً، منها: ديوان الصبابة، وكتاب السكردان، وله شعر جيد[130]، كما ترجم للأديب جمال الدين عبد الله بن محمد بن أبي عبد الله المغربي السوسي(ت 803هـ/ 1400م) الذي كان أديباً فاضلاً ماهراً، وله شعر منظم[131]، أما الأديب أصل الدين محمد بن إبراهيم بن علي بن يوسف الهنتاتي المراكشي المالكي(ت872هـ/1467م) فقد أكد المقريزي في ترجمته بأنه ((يجيد نظم الشعر ويغوص على معانيه ولا يكاد يخفى عليه من دقائقه إلا اليسير))[132]، فضلاً عن هؤلاء، ترجم المقريزي لعدد آخر من النخب المغربية الذين اهتموا بالأدب العربي ولاسيّما الشعر[133].

يستشف من حصاد الفقرات السابقة بأن المقريزي قد بيّن في كتابه (درر العقود الفريدة) مساهمة النخب المغاربية في مختلف الميادين العلمية في بلاد المغرب وبلاد الشام ومصر والحجاز خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وأنه أكد بأن الصفة (الموسوعية) كانت هي الغالبة عليهم، إذ أشار إلى مشاركة بعضهم في أكثر من فرع من فروع العلم, كما أشار إلى البعض الآخر بأنهم إشتهروا من خلال نتاجاتهم العلمية المدونة، بحيث غدت بعضها من المصادر الأساسية في الموضوعات التي عالجتها.

الخاتمة

1- كان المقريزي أحد المؤرخين الكبار البارزين خلال العهد المملوكي، حيث تتضح مكانته من خلال توثيقه للأحداث التي دونها في مؤلفاته ولاسيّما تراجم أعيان عصره التي دونها في كتابه (درر العقود الفريدة) الذي يعد نموذجاً لمدى التطور الذي شهده التدوين التاريخي خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، لاسيما على صعيد التراجم.

2 - تكمن أهمية كتابه (درر العقود الفريدة)، إذا ما عرفنا أن مؤلفه قد أستخدم مصادر متنوعة فيها، إلا أنه كان يولي أهمية خاصة لمشاهداته العيانية، التي تأتي بالدرجة الأولى، ونقولاته الشفوية التي سمعها المقريزي من شيوخه، أو من أعيان الدولة، أو حدّثه أصحابه أو المترجم لهم، علاوة على ذلك فأنه أخذ أغلب تراجم النخب السياسية المغربية من كتاب أستاذه ابن خلدون.

3- أورد المقريزي في كتابه (درر العقود الفريدة) تراجم العديد من النخب السياسية المغربية، الذين لعبوا دوراً بارزاً في بلاد المغرب خلال القرنين الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، سواء

---

[130] درر العقود الفريدة ، مج1، ص331.

[131] المصدر نفسه، مج2، ص 345.

[132] المصدر نفسه، مج3، ص ص100-101.

[133] ينظر :المصدر نفسه، مج1، ص ص167، 315، 357؛ مج2،ص ص 354، 403؛ مج3، ص ص80، 360، 441، 523.

كانوا من السلاطين والأمراء أو الوزارة والحجاب أو غيرهما، وهي في مجملها معلومات قيمة توضح جوانب مهمة من النشاط السياسي والإداري للعديد من النخب المغاربية.

4- شغلت تراجم النخب المغربية في بلاد الشام ومصر والحجاز مكانة واضحة من كتاب (درر العقود الفريدة) للمقريزي، حيث سلط الضوء على نشاطات جمع غفير من الفقهاء والعلماء المغاربة في مختلف الميادين والفروع العلمية كالعلوم الدينية والإنسانية واللسانية وغيرها، كما بيّن دور بعض علماء المغاربة وفقهائهم في الوظائف الدينية كالقضاء والتدريس وغير ذلك، علاوة على ذلك فأنه بيّن أن أغلب هؤلاء العلماء والفقهاء كانوا على مذهب المالكي.

5- وأخيراً لم تكن للتراجم النخب المغربية خصوصية في كتاب (درر العقود الفريدة) للمقريزي، وإنما جاءت أخبارهم مثل بقية أبناء البلدان الإسلامية الأخرى، ونتيجة لدورهم في الأحداث التاريخية فرضت عليه الاهتمام بهم، أي أن منظوره كان شمولياً في التعامل مع أبناء مختلف أنحاء العالم الإسلامي، التي برز دورهم في تطور الأحداث وحركة التاريخ.

النخب الدينية في العهد الزياني
خلال القرن السابع والثامن الهجري
(الثالث عشر والرابع عشر ميلادي)
-إشكالية االمصادر والتصنيف وآليات المعالجة-

صابرة خطيف
جامعة قسنطينة/الجزائر

شكّلت النخب الدينية حيزا رئيسا في الموروث التاريخي الإسلامي على مستوى الممارسة والكتابة التاريخية، من هذا المنطلق يستوجب الوقوف

على دراسة هذه الشريحة باختيار النخب الدينية في العهد الزياني خلال القرن السابع والثامن الهجري (الثالث عشر والرابع عشر ميلادي) كنموذج في محاولة لمعالجة عدد من الإشكاليات . ومن المبرّرات التي استوجبت العمل على هذا الحقل المكاني والزماني:

أولا: أهمية تلمسان والدور الذي لعبته في تاريخ المغرب باعتبارها دار السلطان والحاضرة العلمية للمغرب الأوسط خلال العصر الزياني، وتمثل الفترة موضوع الدراسة مرحلة هامة في حياة الدولة وحاضرتها فبفضل ما توفر لها من عوامل كانت مجالا خصبا لنشاط عدد هام من علماء الدين سواء الذين نشؤا بها أو وردوا عليها، ولامتداد دور بعضهم الآخر غربا وشرقا، رغم الفترات التي غابت فيها السلطة الزيانية لصالح الحفصيين والمرينيين بشكل أخص[1].

ثانيا: دراسة النخب الدينية ضمن أعمال موسوعية متعلقة بتاريخ المدينة وعاصمتها بما في ذلك أعلامها[2]، أو بالتركيز على زوايا محددة للمترجم لهم بما تناسب مع المواضيع المطروقة من خلال دراسة الحقل السياسي أو الإداري للدولة الزيانية[3]، في حين ركزت أغلب الدراسات على

---

[1]-.للتفصييل حول تطور تلمسان خلال العهد الزياني ينظر: محمد البلنسي العبدري (كان حيا سنة 688هـ/1289م): الرحلة المغربية، تحقيق: أحمد بن جدو، نشر كلية الآداب، الجزائر، (د.ت)/9-10. مجهول: زهر البستان، مخطوط بالمكتبة الجامعية جون ريلاندر (John Rylands) بمانشستر (Manchestre)، القسم العربي رقم 283. 9/2 ومابعدها. أبوزكريا يحيى بن خلدون (ولد بعد 732هـ-ت780هـ/1331-1378م): بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج1، تحقيق: عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1980 /85 وما بعدها. ج2، نشر: الفريد بيل، ط1، مطبعة فونطانة الأخوين وشركائهما، الجزائر، 1911/ 38 وما بعدها. أبوزيد عبد الرحمان ابن خلدون: (732-808هـ/1331-1405م): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت (د.ت).161/13-162. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت899هـ/1493م): تاريخ بني زيان ملوك تلمسان مقتطف من نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان، تحقيق: محمد أبو عيان المكتبة الوطنية والمؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 111/1985 وما بعدها. الحسن بن محمدالوزان (كان حيا سنة 957هـ/1550م): وصف إفريقيا، ترجمة: محمد حجي ومحمد الأخضري، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، المغرب، 17/1983-20.عبد العزيز فيلالي: تلمسان في العهد الزياني(دراسة سياسية، عمرانية، اجتماعية،ثقافية)، موفم للنشر والتوزيع،الجزائر، 2002. 13/1ومابعدها.2/ ومابعدها. لطيفة بشارى: التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر(13هـ-16م). ماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف: موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1986-59/1987.

Atallah Dhina : Le royaume Abdelwadide à l'époque d'Abou Hammou Mossa 1er et d'Abou Tagfin, 1er éd, office des publications universitaires, ENAL,Alger.

[2]-. للتفصييل ينظر محمد بن رمضان شاوش: باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995/ 391-ا546.عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق،2/ يحيى بوعزيز: أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995.

[3]-يذكر منها الدراجي بوزياني: نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993. نبيلة حساني: القضاء والقضاة في عهد الدولة الزيانية (633-

الجانب الفكري[1]، مع تسليط بعضها الضوء على تراجم فردية[2]، ما يتيح فرصة الغور في أعماقها بشكل أفضل.

ويتم تناول هذا الموضوع بمعالجة القضايا التالية:

أولا: النخب الدينية في العهد الزياني بين المصادر المتوفرة والمفقودة/ تنوع الموارد وإشكالية المسكوت عنه والمفقود.

ثانيا: إشكالية المكان، الهوية، الزمان، ودور المؤرخ في ضبط ببلوغرافيا النخب حقل الدراسة.

ثالثا: النمط المعرفي للعصور الوسطى وإشكالية التصنيف الدقيق للنخب.

أولا: النخب الدينية في العهد الزياني بين المصادر المتوفرة والمفقودة/ تنوع الموارد وإشكالية المسكوت عنه والمفقود.

شكل علم التراجم حيزا هاما من الكتب المصنفة خلال العصور الوسطى لارتباطه بسيرة الرسول – ص- والسلف الصالح، ولتوثيق الخبر الديني(الحديث والسنة)، وعليه أخذت كتب تراجم علماء الدين الصدارة بالمقارنة مع النخب الأخرى.

وبالنظر لتنوع نشاط علماءالدين الذي تجاوز الحقل الديني إلى السياسي تحول التأريخ للسلطتين – الدينية والسياسية- قوام الكتابة التاريخية في العصر الوسيط؛ ما انعكس بالإيجاب على تنوع الموارد التي تمدنا بروايات حول النخب الدينية، بحيث لم تعد حبيسة كتب التراجم والطبقات،

962هـ/1235-1554م)، رسالة ماجستير، إشراف: عبد الحميد حاجيات، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1998.

[1]- يذكر منها: نوار بوحلاسة: الشعر الزياني (633-962هـ/1235-1554م)، ماجستير في الأدب، إشراف: جودت الركابي، معهد الآداب واللغة، جامعة قسنطينة، 1989م. عبد العزيز فيلالي: المرجع السابق،2/ ومابعدها. ومقاله: "التيارات الفكرية بتلمسان في عهد بني زيان"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، ع6، 1999/283-304. عبد الحميد حاجيات: "الحياة الفكرية بتلمسان"، الأصالة، ع26، 1975/136-156. "تلمسان مركز إشعاع ثقافي في المغرب الأوسط"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر، ع10، 1997/181-192. "الحياة الفكرية بالجزائر في عهد بني زيان" في كتاب: الجزائر في التاريخ الجزء الثالث العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، وزارة = =الثقافة والسياحة المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984/435-452. المهدي البوعبدلي: "أهم الأحداث الفكرية بتلمسان عبر التاريخ"، الأصالة، ع26، 1975/124-125.

[2]-. ينظر على سبيل الذكر محمد الهادي أبو الأجفان:الإمام أبو عبد الله محمد المقري التلمساني، الدار العربية للكتاب، 1988. عبد الرحمان بدوي: مؤلفات ابن خلدون، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس،1979. محمد الطاهرتوات: ابن خميس شعره ونثره، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1991. بدوي عبد الرحمان: مؤلفات ابن خلدون، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس، 1979. محمد عبد الله عنان:ابن خلدون حياته وتراثه الفكري، ط3، مطبعة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة،1965.المهدي البوعبدلي: "أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني 650-708هـ/1253-1309م"، الأصالة، ع49-50، 1977. بونار رابح:"أبو بكر محمد بن داود كاتب يغمراسن"، الأصالة، ع3، 1971. أحمد بن ذياب: "من أعلام الجزائر الأمجاد أبو علي منصور بن عبد الله الزواوي البجائي التلمساني"، الثقافة، ع107-108، 1995.

بل تعدتها إلى أنواع أخرى من المصادر يصعب الاستغناء عنها في تكوين صورة شاملة عن المترجم لهم.

أولا- أ / المصادر المتوفرة بين التنوع وإشكالية المسكوت عنه

أولا-أ-1 /كتب التراجم والطبقات والمناقب والمذكرات :

يلتقي هذا الصنف من المصادر من حيث نوعيته مع كتب التاريخ، غير أنّه يسلط الضوء على تاريخ فرد أو مجموعة من الأفراد تجمعهم علاقة علمية أو أدبية أو سياسية واحدة، أو فترة زمنية محددة ومكان واحد، وقد يترجم لأصناف مختلفة ضمن مؤلف واحد ولفترات زمنية متعاقبة، كما يلتقي في بعض الأحيان مع كتب الأدب من حيث إيراد منتخبات نثرية أو شعرية للمترجم له.

وقد مكنت الصلات الثقافية بين حواضر العالم الإسلامي من خلال الرحلة في طلب العلم والحج من إثراء كتب التراجم بمادة عن الغرباء بحيث تتجاوز الترجمة لشخصهم أحيانا لأفراد من أسرهم أوعلماء من بلدتهم من خلال عناية المؤلف بتزويد كتابه بكل مايتوفر له من مادة مروية أو مخطوطة؛ يضاف لذلك الغرض من تصنيف الكثيرمن الكتب بحيث جعل تراجمها تمتد في الزمان والمكان، مايوفر للدارس مادة تراجمية متنوعة مابين مغربية، أندلسية ومشرقية

وبالرغم من أهمية المادة التي تقدمها هذه المصادر[1]، إلاّ أنها قد تخضع للعوامل النفسية أكثر من أي صنف آخر من المصادر، من حيث التراجم التي تقدمها، يلاحظ ذلك بشكل جلي في التفاوت الكمي في المادة الخبرية بين ترجمة وأخرى[2]، بل وإغفال الترجمة لبعض الأعلام ذوي الشأن، ما يدفع إلى التساؤل، هل هي عملية متعمدة لسبب أو لآخر؟! أم أنها

---

[1]-للتفصيل ينظر:عدنان درويش: "كتب التراجم منجم التاريخ العربي"، الفكر العربي، ع27، 149/1982-168. ملكة أبيض: "كتب التراجم ومكانتها في دراسة الثقافة العربية الإسلامية"، الفكر العربي،27، 169/1995-184. الشريف محمد: "ملاحظات منهجية لقراءة جديدة لكتب التراجم المغربية-الأندلسية، قراءة في كتاب"عالم علماء الأندلس" لدومنيك أرفوا في كتاب التراث المغربي والأندلسي القراءة والتوثيق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة عبد الملك السعدي، تطوان، منشورات الكلية، سلسلة ندوات رقم 4، المغرب، 509/1991 . أمين توفيق الطيبي: "كتب التراجم وأهميتها للباحث في تاريخ الأندلس الاقتصادي والاجتماعي"، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، ع12، 248/1995 .

[2]-مثال ذلك شخصية أبي الخير بركات الباروني الجزائري (كان ما بين 760-791هـ/ 1358-1388م)، مصادر ترجمة أبو العباس أحمد بن يحيى الونشريسي (783-914هـ/1381-1508م):المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب، تحقيق: جماعة من الفقهاء، إشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1981. 190/1. 301/4، 94/5 وما بعدها. أبوالعباس أحمد بابا التنبكتي: = =(963-1036هـ/1555-1626م): نيل الابتهاج بتطريز الديباج، إشراف وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، هوامش وفهارس: طلبة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ليبيا، 1989/ 147) الذي انتقل إلى تلمسان بدعوى من أبي حمو موسى الثاني لمكانته الفقهية ورغم ذلك تبقى معطياتنا حوله جد شحيحة.

آثار الذاكرة الشفهية والقسم الضائع من المصادر الأولية؟! المؤكد أنّه يصعب استبعاد كلا السببين.

وكمثال على دور العوامل النفسية في صياغة الترجمة في ظل الانبهار بها، الترجمة التي قدمها أحد طلبة أبو عبد الله الشريف[1] المعروف بالشريف العلوي والشريف الحسني (710-771هـ/ 1310-1369م) [2] لأستاذه فبالرغم من أهميتها والتفاصيل التي أوردها حول نشاطه العلمي وسلوكه، إلاّ أنها لا تخلو من المبالغة خاصة عند الحديث عن مكانته في مجال الزهد، باعتباره من كبار متصوفة عصره[3]، وهو ما لم يتم الوقوف عليه من خلال المصادر العديدة التي ترجمت له، وحتى تدريسه للتصوف لم يأخذ أولوية خاصة، بل ضمن مجموعة من العلوم التي أمكن حصرها بشكل تقريبي من خلال نشاطه بالمدرسة اليعقوبية[4].

مثال آخر يؤخذ من الترجمة ذاتها في حديث المؤلف عن علاقة أبي عبد الله الشريف بالملوك قائلا[5]: «يتباعد عن الملوك مع إقبالهم عليه وحرصهم على قربه ورفعته ما تولى أمرا من أمور الدنيا، بل يقف مع العلم حيث وقف»،

---

[1]-للتفصيل ينظر التنبكتي، المصدر نفسه/ 432 وما بعدها.

[2]-وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن يحي الإدريسي، من كبار علماء تلمسان. مصادر ومراجع ترجمته: مجهول: زهر البستان/ 15. يحي بن خلدون: المصدر السابق. أبو عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الخطيب(711-781هـ/1311-1371م):المناقب المرزوقية، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، ط1، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية،193/2008. أبو زيد عبد الرحمان بن خلدون:التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سلسلة آثار ابن خلدون، 1951./ 62-64. أبو العباس أحمد بن قنفذ(ت810هـ/1407م): كتاب الوفيات، تحقيق عادل نويهض، ط3، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، المكتبة الجزائرية، 368/1980. التنسي: المصدر السابق/179-180. الونشريسي: وفيات الونشريسي، تحقيق: محمد حجي في كتابه ألف سنة من الوفيات في ثلاث كتب، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، المغرب، (د.ت)./126. المعيار، 28/11. 163/12 وما بعدها. التبكتي: المصدر السابق/430-445. أبو عبد الله محمد بن مريم (كان حيا سنة 1011هـ/1602م): البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، تقديم عبد الرحمن طالب، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1986/ 164-184. أبو العباس أحمد بن القاضي (960-1025هـ/1552-1616م): درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، مكتبة دار التراث، القاهرة، المكتبة العتيقة، تونس،1972 269/2. لقط الفرائد من لفاظة حقق الفرائد، تحقيق: محمد حجي في كتابه ألف سنة من الوفيات، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر. (د.ت)/214. أبو العباس أحمد المقري(986-1041هـ/1578-1631م): أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: أحمد أعراب سعيد وعبد السلام الهراس، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1978. 18/3-19. محمد إسماعيل شعبان: أصول الفقه تاريخه ورجاله، ط1، دار المريخ للنشر، الرياض، 1981/ 362-363. أحمد جلول بدوي: من أعلامنا الشريف أبو عبد الله التلمساني، الأصالة، ع4، 1971/ 48-55.

[3]-ينظر: التنبكتي: المصدر السابق/ 440-441.

[4]-صابرة خطيف: فقهاء تلمسان والسلطة الزيانية، ط1،جسور للنشر والتوزيع، الجزائر،363-362/2011

[5]-التنبكتي: المصدر السابق/ 439.

وهي رواية تتعدى المبالغة لتقديم خبر لا صحة له يتجلى ذلك من خلال علاقته بالسلطة الزيانية وخاصة بأبي حمو موسى الثاني[1].
مثال آخر حول تقديم معطيات متجاوزة من قبل بعض المصادر الترجمة التي قدمها ابن مريم[2] لأبي الحسن علي بن عبد الله بن عبد النور(ت764 أو 765هـ/ 1362-1363م)[3] في قوله أنه «كان زاهدا ورعا من أكابر العلماء التلمسانيين»، وهو ما لم تصرح به الروايات الأولية، بل أكثر من ذلك أن ابن خلدون[4] ذكر أنه لم يكن على درجة كبيرة من الفقه ما يدعو للحذر في مجال التراجم.

ويقع الدارس في حيرة كبيرة حيال التراجم المتعرف عليها من خلال مصدر واحد أو رواية واحدة في ظل عمليات الاقتباس الحرفي– في أغلب الأحيان- للمصادر المتأخرة عن مثيلاتها المتقدمة، وهو ما يدعو لسؤال في غاية الأهمية ما مدى صحة المعلومات التي تم الوقوف عليها واستثمارها في الدراسات المتعلقة بتاريخ تلمسان في العهد الزياني عموما وبالنخب الدينية بشكل أدق.

وهناك ملاحظة لا يجب إغفالها وهي أننا لا نقف في أغلب الأحوال سوى على تراجم "الصفوة"[5] أو من كان لهم حظ في الورود في كتب التراجم نظرا للعلاقة بين المترجم والمترجم له على أساس صلة القرابة، أو التلمذة، أو الصداقة أو المكانة العلمية أو السياسية. وعند البحث في تاريخ العلماء ترتكز جل المادة المقدمة على الجوانب الفكرية للمترجم لهم، وهي تطرح إشكالا من حيث أنها لا تعني – غالبا- إلا بكبار العلماء وبالحديث عن دورهم في مرحلة النضج والعطاء والإشارة إلى طلبتهم البارزين، وهي لا تعطي كذلك أهمية للعلوم، والمؤلفات التي درسها هؤلاء إلا بشكل عابر أو بالتركيز على العلم الذي برزوا فيه، ما يجعل الدارس عاجزا عن تكوين صورة دقيقة عن المراحل التي يمر بها العالم والمصنفات والأساتذة الذين أخذ عنهم، مايعيق تكوين صورة متكاملة عن المراحل التى يمرّ بها الطالب

---

[1]-للتفصيل ينظر:ابن خلدون:التعريف/64.التنسي:المصدر السابق/179.التنبكتي:المصدر السابق/ 439
[2]- المصدر السابق/ 144.
[3]- مصادر ترجمته: يحي بن خلدون: المصدر السابق، 122/1. أبو عبد الله محمد بن مرزوق الخطيب (711-781هـ/1311-1379م):المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن، تحقيق: ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم: محمد بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981./ 173، 267. ابن خلدون: التعريف/ 46-47. ابن مريم: المصدر السابق/ 144.
[4]-لتعريف/ 46.
[5]- وهو ما صرح به ابن الخطيب في مقدمة كتابه: الإحاطة في أخبار غرناطة (لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله الغرناطي (713-776هـ/1313-1374م) ، تحقيق: عبد الله محمد عنان، ط1، مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1974. 81/1.)«فمنهم من اعتنى بإثبات حوادث الزمان، ومنهم من اعتنى برجاله بعد اختيار الأعيان عجزا عن الإحاطة بهذا الشأن عموما في أكثر الأقطار، وخصوصا في بعض البلدان...».

ليبلغ مرحلة العالم إجمالا أو بالتعمق في علم من العلوم في ظل ندرة كتب الفهارس في الفترة موضوع الدراسة مما يشار إليه لاحقا.

هذا ولاتخلوا كتب التراجم والطبقات من الإشادة بأخلاق المترجم لهم وبذلك تأخذ منحى العمل المنقبي ما يدعو للبحث عن الجوانب المتبقية في حياة المترجم لهم بعيدا عن هذا الصنف من المصادر. وتفقد بعض النصوص أهميتها بالنسبة للباحث في حقل النخب الدينية خلال العصر الزياني عندما تتحول لمجرد نقول عن مصادر متداولة، دون إخضاعها لقواعد الجرح والتعديل[1]، وفي أحيان كثيرة بالاعتماد على رواية وحيدة[2].

ويتم تناول هذه المصادر فيما يلي:

أ- كتابات ابن الخطيب (713-776هـ/1313-1374م)

يعد ابن الخطيب من علماء الدين والأدب وساسة الأندلس البارزين، صنف في علوم مختلفة، أقام فترة بالمغرب الأقصى وبتلمسان سنة (752هـ)[3]. وشارك في دواليب السياسة متقلبا في ولائه بين بني نصر، المرينيين والزيانيين، كما جمعته علاقة مودة مع علماء تلمسان يذكر منهم ابن مرزوق الخطيب ويحي بن خلدون وأخيه عبد الرحمن[4].

- الإحاطة في أخبار غرناطة: يعد هذا المصنف الذي كان المؤلف بصدد إتمامه سنة (772 هـ/1370م)[5] من كتب التراجم البلدانية خصص القسم القسم الأول منه للتعريف بهذه البلدة وباقي الأقسام للترجمة لأعلام غرناطة الذين ولدوا أو نشئوا أو وفدوا عليها في مختلف مراحل تاريخها، وأفاض في ذكر معاصريه من رجال السياسة وأهل العلم والأدب من إيراد منتخبات من أشعارهم أو نثرهم- لمن كان له إسهام في هذا الصدد- وقد ترجم لعدد من علماء تلمسان. من ذلك الترجمة الموسعة التي قدمها لشيخه أبي عبد الله المقري التلمساني (ولد بعد 714هـ/1314- توفي 758هـ/1356)[6]، وقد قيد عنه

---

[1]-كما هوالشأن مع التنبكتي(المصدر السابق/ 36) في نقله عن رحلة العبدري والإحاطة لابن الخطيب والتعريف بابن خلدون ووفيات الونشريسي ...

[2]-كما هوالشأن مع ابن القاضي (جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس، إشراف أبو العباس سيد أحمد الزجالي بن الخياط، ط حجرية، فاس، (د.ت). ذرة الحجال، لقط الفرائض) في نقوله عن ابن خلدون في التعريف والونشريسي في الوفيات.

[3]-ينظر ابن الخطيب: ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي،1981. 244/1-247. 89/2-92.

[4]-حول علاقة ابن الخطيب بالأخوين ابن خلدون، ينظر:الإحاطة، 588/4-604.

[5]-ينظر محمد عبد الله عنان في مقدمة تحقيق للإحاطة، 6/1.

[6]-.وهومحمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر. مصادر ومراجع ترجمته: ابن الخطيب: الإحاطة، 191/2-226. يحي بن خلدون: المصدر السابق، 121/1. أبو إسحاق إبراهيم اللخمي الشاطبي، (ت790هـ/1388م): الإفادات والإنشادات، تحقيق محمد أبو الأجفان، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1983/ 81 وما بعدها. أبو الحسن بن عبد الله النباهي:(713-كان حيا سنة 793هـ/1313-1390م): تاريخ قضاة الأندلس المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، (د.ت)/ 169-170. برهان الدين إبراهيم بن ابن فرحون (ت799هـ/1396م): الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، ط1، مطبعة السعادة، مصر، 1329هـ / 288-289. ابن خلدون: التعريف/ 59-62. أبو العباس أحمد بن القنفد (ت 810هـ/1407م): أنس الفقير وعز الحقير،

عنه أثناء مقامه بغرناطة جزءا من محتوى رحلته "نظم اللآلي في سلوك الأمالي"[1]، كما حضر بعض مجالسه للقضاء بفاس[2]، وكان معجبا بشخصه ومقدرا لمكانته العلمية يتجلى ذلك في وصفه له[3]، وفي الرسالة التي بعثها في الشفاعة له باسم سلطانه من الأندلس إلى أبي عنان المريني سنة (757هـ/1356م)[4]، وبذلك يعد مصدرا رئيسيا في التعريف بالمقري وبعلاقته بالمرينيين.

وتكمن أهمية هذا المصنف كذلك في الترجمة التي قدمها لأبي عبد الله بن خميس التلمساني(650-708هـ/ 1252-1308م)[5] والتي ترجم لها في مؤلف آخر من مصنفاته يعد في حكم المفقود وهو كتاب "عائد الصلة"، وقد كشف من خلال نقله لإحدى قصائد المترجم له والتي مطلعها «عجبا لها أيذوق طعم وصالها...» عن حيز هام من تكوينه الفكري، والإشكال الذي أثارته حول انتحاله للفلسفة. يسرت شهرة كتاب الإحاطة، أهميته، توفره في المغرب والمشرق نقل عدد من المصادر عنه يذكر منها: الديباج لابن فرحون[6]، بغية الوعاة للسيوطي[7]، نيل الابتهاج للتنبكتي[8]، نفح الطيب للمقري[9].

- <u>نفاضة الجرب في علالة الاغتراب</u>[10]: يعد هذا المؤلف من المذكرات الشخصية الذي ألفها ابن الخطيب في الفترة التي قضاها في منفاه بـ"سلا" ما بين (761-763هـ/1359-1361م)[11]. وقد تضمن مادة هامة عن علاقة ابن مرزوق الخطيب بأبي سالم المريني (760-762هـ/1358-1360م).

تحقيق محمد الفاسي، المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط، 1965/ 80. الونشريسي: المعيار ، 20/1، 191-192. 443/2 وما بعدها. 116/4-117. 189/5-194. 446/7. 310/10، 368. 76/12 وما بعدها. التنبكتي: المصدر السابق/ 197 وما بعدها. أبو الأجفان:المرجع السابق

[1]-ابن الخطيب: الإحاطة، 191/2 وما بعدها.

[2]-المصدر نفسه، 195/2.

[3]-المصدر نفسه، 194/2-195.

[4]-المصدر نفسه، 197/2-200.

[5]- وهو محمد بن عمر بن محمد بن عمر بن محمد بن خميس. مصادر ومراجع ترجمته: العبدري، المصدر السابق، 11-19. ابن الخطيب، الإحاطة، 528/2-562. يحي بن خلدون: المصدر السابق، 86/1 وما بعدها. ابن مرزوق: المسند / 264. جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي(849-911هـ/1445-1505م): بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج1، ط2، دار الفكر، 187/1979، 201.ابن القاضي:درة الحجال،27/2-32. المقري:أزهار الرياض، 336/2-340. نفح الطيب 1997. 625/2. 324/4-325. 356/5-378. 131/7-133.الطاهر توات:المرجع السابق.المهدي البو عبدلي،"أبو عبد الله محمد بن خميس التلمساني/2-12.

[6]-المصدر السابق.

[7]-السيوطي:المصدر السابق

[8]-المصدر السابق.

[9]-المصدر السابق

[10] تحقيق: أحمد مختار العبادي، مراجعة: عبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربي، القاهرة، (د.ت).

[11]-للتفصيل ينظر محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب لسان الدين بن الخطيب حياته وتراثه الفكري، ط3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1965/ 242-243.

ب-كتابات ابن مرزوق الخطيب (711-781هـ/1311-1389م)

تأخذ كتابات ابن مرزوق الخطيب أهميتها انطلاقا من كونه من أبرز علماء تلمسان، برز فيعدد من العلوم النقلية[1]، ولد ونشأ بها وأمضى فيها شطرا هاما من حياته العلمية والعملية، وكان لدور أسرته بتلمسان القائم على علوم الدين والصلاح عاملا بارزا في تعزيز مكانته[2].

-المناقب المرزوقية[3] يعد مصدرا بالغ الأهمية في التعريف بأسرته بأسرته من علماء وصلحاء تلمسان، والده[4]، جده لأبيه [5]، جده لأمه أبي إسحاق التنسي[6] وشقيقه أبي الحسن[7] وختمه في التعريف بنفسه[8]. وقد ارتكزت المادة التي تضمنها الكتاب فيما يتصل بأسرته وشخصه على ثلاث أصعدة، المكانة العلمية، جانب الزهد والتصوف، والحظوة السياسية في العلاقة بالسلطتين الزيانية والمرينية. ويكتسي هذا المصنف أهمية أخرى من خلال عدد هام من التراجم التي قدمها عن علماء تلمسان من خلال معاصرتهم لأفراد أسرته وفي التعريف بعدد من الأسر العلمية بتلمسان والتي كان مصدرا وحيدا في ترجمتها –إذا استثنى من ذلك الأسر التي وردت عند يحي بن خلدون[9]، وأخيه عبد الرحمن[10]- وفي تحديد علاقتها بالبلاط الزياني.

---

[1]-للتفصيل ينظر إبن مرزوق:المناقب /313،140-315.

[2]-للتفصيل ينظر يحي بن خلدون: المصدر السابق،114/1-115. ابن مرزوق: المناقب/140ومابعدها. ابن خلدون: العبر،203/13. ابن مريم: المصدر السابق/27-29

[3]-المصدر السابق

[4]-أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق العجيسي التلمساني (681-741هـ/1282-1340م) (مصادر ترجمته: يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 115/1. ابن مرزوق:المناقب/188-271،257-272. ابن القنفد: أنس الفقير/93، 94. شرف الطالب في كتاب ألف سنة من الوفيات، تحقيق: أحمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التراجم رقم2، (د.ت)/86. تقي الدين المكي: العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964، 173/3-174. أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن حجر(773-852هـ/1371-1442م): الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق: عبد المنعم خان محمد، ط2، مطبعة مجلس دار المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، 1972، 354/1. الونشريسي: المعيار، 442/1.

[5]-أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبو بكر محمد بن مرزوق العجيسي التلمساني القيرواني (629-681هـ/ 1231-1282م). مصادر ترجمته: يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 114/1-115.ابن مرزوق:المناقب/149-188.

[6]- وهو إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عبد يمشون المطماطي التنسي (ت ما بين 689-703هـ/1290-1303م)، مصادر ترجمته العبدري: المصدر السابق/ 11،5، 22. يحي بن خلدون المصدر السابق، 114/1. ابن مرزوق:المناقب/273-329. المسند/479. التنسي: المصدر السابق/126-127. التنبكتي: المصدر السابق/ 38-39.

[7]-يصغر الأخ السابق الذكر، مصادر ترجمته: العبدري: المصدر السابق/ 11. يحي بن خلدون: المصدر السابق، 144/1. ابن مرزوق:المناقب/294-298.

[8]-. ابن مرزوق:المناقب/298-311.

[9]-المصدر السابق.

[10]-التعريف.

رغم أن ابن مرزوق أفصح في بداية مؤلفه[1] أن من دواعي كتابة هذا المؤلف الاقتداء بمن سبقه في هذا المجال وضياع عدد من المصنفات في تراجم الصلحاء والعلماء. إلا أنه وبالنظر للظروف التي تم فيها وضع هذا المصنف، وما ناله من أذى من قبل السلطة المرينية وبالنظر لغزارة المادة التي قدمها حول حظوته وأسرته في البلاط الزياني والمريني على وجه الخصوص يكشف عن هدف آخر لهذا المصنف وهو دفاعه عن نفسه في ظل النكبات التي تعرض لها بعد عهد أبي الحسن المريني[2](731-749هـ/1330-1348م) ورسالة صريحة لفك أسره نظير الابتعاد عن السياسة والانقطاع إلى الله –عز وجل- والرحيل نهائيا للحجاز لمجاورة قبر النبي[3].

غلبت على مصادر المؤلف الرواية الشفوية –التي كان مصدرها أفراد أسرته وعدد من علماء وصلحاء تلمسان ورواياته الخاصة بالنظر للتراجم المعاصرة له، كما استعان بعدد من المدونات على أنّ ما يؤخذ على هذا المؤلف هو عدم عنايته بتحديد التواريخ واقتصار أغلبها على أفراد أسرته وهو أمر له مبرره في الظرف الذي ألف فيه و لأجله. غير أنّ السؤال المطروح هو أنه وبالرغم من أهمية هذا االكتاب إلا أننا لا نقف على نقول عنه إلا من خلال التنبكتي[4] في ترجمته لأبي إسحاق التنسي!.

<u>المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن</u>: تم الانتهاء من تأليف هذا الكتاب بعد تسع سنوات من إنجاز المناقب[5] وذلك سنة (772هـ/1370م)[6]، أي بعد اثنين وعشرين سنة من وفاة المترجم له، وقد وقد كان الباعث على إنجاز هذا المصنف هو رغبة المؤلف في العودة للبلاط المريني عهد ابن المترجم له أبي فارس عبد العزيز المستنصر[7] (768-774هـ/1366-1372م)، وهذا ما شحن الكتاب بمشاعر فياضة تجاه المترجم له مما يسمح بإدراجه ضمن كتب المناقب من جهة، وكتب مرايا الملوك من جهة أخرى.

وهو يقدم مادة معاصرة كشاهد عيان عهد أبي الحسن المريني الذي دخل في خدمته في الفترة الممتدة ما بين (737-749هـ/1336-1348م)[8]، يخصنا ما اتصل بسياسته الدينية والتعليمية التي سمحت بتكوين صورة شبه

---

[1]-المناقب/142.
[2]-للتفصيل ينظر: المصدر نفسه/309-310.
[3]-للتفصيل ينظر: المصدر نفسه/ 310-311.
[4]-المصدر السابق/ 38-39.
[5]-ختمه سنة 763 كما ورد في نهاية مؤلفه (المناقب/ 311).
[6]-ابن مرزوق: المسند/ 500.
[7]-ينظر: المصدر نفسه/ 92-93.
[8]-ينظر: المصدر نفسه/136ومابعدها.

كاملة عن عهده–وإن لم تخل من مبالغة- والقسم الخاص بسيرة أسلاف السلطان المترجم له والعلاقات المرينية الزيانية، بحيث شكل علماء تلمسان في هذه المادة حيزا هاما من خلال حديثه عن الرعاية التي خّص بها بعضهم من قبل بني مرين، وأبي الحسن بشكل خاص، وبموقفهم المساند للسلطة المرينية انطلاقا من انتقال بعضهم للعمل في البلاط المريني، وانضمام قسم آخر للمجلس العلمي لهذا السلطان. وبالنظر للمادة التي قدمها ابن مرزوق الخطيب عن دوره عهد هذا السلطان وبعض أفراد أسرته يتقاطع هذا المؤلف مع كتابه السابق الذكر(المناقب). يضاف لأهمية المسند في تعريفه بعدد من علماء تلمسان الذين ترجم لهم وكان في ذلك إضافة إلى كتابه المجموع مصدرا وحيدا في التعريف بهم؛ ويتكرر السؤال السابق عن غياب نقول من هذا المصنف في المصادر المتأخرة إذا استثني من ذلك بعض النقول[1]؟.

جـ-<u>التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا</u>:

يعد هذا المصنف من كتب المذكرات الشخصية عاش مؤلفه خلال القرن الثامن والعقد الأول من القرن التاسع (732-808هـ/1331-1405م) وتوزع نشاطه السياسي بين دول المغرب- إفريقية، تلمسان، المغرب الأقصى- والأندلس والمشرق وتعزز بمكانته العلمية كمنظر لعلم العمران وللحركة السياسية بالمغرب، دون إغفال تكوينه العلمي الأساسي في مجال علوم الدين.

نرجع لكتابه "التعريف" في ترجمته لشيوخه وأصحابه ممن ضمهم مجلس أبي الحسن المريني من بينهم جملة من علماء تلمسان؛ وتتجلى أهمية هذه المادة من حيث أوليتها ومكانة العالم الذي صدرت منه كشاهد على جملة من أحداث عصره وإن كانت لا تخلو من الانطباع الشخصي ومن إيجاز في بعض التراجم، تنوعت المعطيات التى قدمها عن هؤلاء العلماء من حيث إسهامهم في المجال الفكري ودورهم في المجال السياسي، كما عكست إعجابه الشديد بشخص أبي الحسن المر يني. ومما يعزز مكانة هذا المؤلف انفراده ببعض الروايات، علاوة على اهتمامه بضبط تواريخ تراجمه والأكثر من ذلك أنه كان أهم مصادر الونشريسي في الوفيات[2]، وابن القاضي في لفظ الفرائض[3] وجذوة الاقتباس[4] والتنبكتي في نيل الابتهاج[5].

د-<u>نيل الابتهاج بتطريز الديباج للتنبكتي</u> (963-1036هـ/1555-1626م)

---

[1]-.للتفصيل ينظر:ماريا خيسوس بيغيرا في مقدمة تحقيقها للمسند/ 71-72

[2]-المصدر السابق.

[3]-المصدر السابق.

[4]-المصدر السابق.

[5]-المصدر السابق.

يعد هذا الكتاب مكملا لكتاب ابن فرحون الديباج المذهب[1] على أن خصوصية هذا المؤلف مغربيته وسعة معارفه[2]، جعلته يترجم لعدد ضخم من علماء المغرب والأندلس، يهمنا من ذلك علماء تلمسان خاصة وأن المعلومات التي قدمها حولهم كانت غزيرة. يدعم قيمة هذا المصنف أمانة صاحبه الذي أفصح في جّل مواطن كتابه عن موارده التي تنوعت بين كتب التراجم والتاريخ والفقه والرحلات؛ وقد سمحت المقارنة بينه وبين النصوص المتوفرة التي نقل عنها من الاطمئنان في التعامل معه فيما اتصل بالمصادر التي تعد في حكم المفقود، أو التي لم يشر إلا لأصحابها دون تحديد مضانها ما يرفع من قيمته التوثيقية[3].

هـ، - شرف الطالب في أسنى المطالب لابن القنفد القسنطيني (ت810/1407م)[4]:

تكمن أهمية هذا المؤلف في تحديد وفيات بعض فقهاء تلمسان وقد أكمل هذا العمل الونشريسي في كتابه الذي خصصه لذات القصد والموسوم بـ "وفيات الونشريسي"[5]

أولا-أ-2/كتب الموسوعات

يختلف الهدف من انجاز هذا النوع من المصنفات من مصدر لآخر و يعد من الموارد الأساسية لعمل المؤرخين بما يوفره لهم من كم معرفي متنوع يوظف فيه صاحبه كل الإمكانات الفكرية والمصادر المتاحة له، إيفاء بالغرض من انجازه واستعراضا لمهاراته الأدبية، والعلمية ولثقافته الواسعة، يهمنا في هذه الدراسة مصنفين

-أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض[6] ونفح الطيب في غض غض الأندلس الرطيب للمقري[7]

يعد أبو العباس أحمد (986-1041هـ/ 1578-1631م) سليل أسرة المقري أحد المؤلفين الذين برزوا في حقل التصنيف الموسوعي من خلال مصنفين له الأول هو: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض والثاني: نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. إن بناء العملين واحتوائه على قسم كبير من التراجم يتيح فصل ماتضمناه من تراجم في شكل كتب مستقلة تضم لزمرة كتب التراجم والطبقات دون تحفظ. أحاطت بإنجاز هذين المصنفين مجموعة من الظروف

---

(1)-المصدر السابق.

(2)-عبد الجليل التميمي، كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التنبكتي معلمة ببليوغرافية للأعلام المغاربة، المجلة التاريخية، ع11، 1984/ 39 وما بعدها.

(3)- بالإضافة للمتن ينظر خاتمة مؤلفه التي استعرض فيها جملة من المصادر التي اعتمد عليها/640-641.

(4)-المصدر السابق

(5)-المصدر السابق

(6)-المصدر السابق

(7)-المصدر السابق

النفسية بحيث جعلتهما يتحولان في جزء من مضمونهما إلى سيرة ذاتية لصاحبها[1]حملت الكثير من مشاعر شوقه إلى بلده تلمسان[2]، الذي غادره في ظروف لا تخلو من غموض إلى المغرب الأقصى[3].(1013-1027هـ /604-1617م) ليبعد نهائيا إلى المشرق (1027-1041هـ/1617-1631م)[4].
وبذلك كان حديثه عن أسرته خاصة المقري الجد (أبوعبد الله المقري) وعلماء بلده نوعا من السلوى والدفاع غير المباشرعن الذات، فإذا كان حديثه عن المقري الجد في نفح الطيب مبررا لكونه من شيوخ لسان الدين ابن الخطيب فإن الترجمة المطولة التي أفردها له في أزهار الرياض[5] لم تكن كذلك، خاصة حينما استطرد في الحديث عن شيوخه الآخرين غير ابني الإمام[6]. وإذا كان مؤلفه الأول الذي باشر تأليفه في الفترة التي قضاها في المغرب الأقصى وأتمه بالمشرق سنة (1028هـ/1618م)[7] قد أتى فيه بذكر غير يسير عما سلفت الإشارة إليه، فإن مؤلفه الثاني الذي أنجزه بمصر

---

(1)-المقري: أزهار الرياض، 3/1-16، 19.
(2)-المصدر نفسه، 3/1-11، ونفح الطيب، 13/1-33.
(3)-ابن عبد الكريم محمد: المقري وكتابه نفح الطيب، سلسلة من أعلام الجزائر، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، (دت)/ 159-163.
(4)-المقري: نفح الطيب، 13/1-14.
(5)-12/5-78.
(6)- وهما الأخوين أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله بن الإمام مصادر ترجمته: ابن الخطيب: الخطيب: نفاضة الجراب/374. يحيى ابن خلدون: المصدر السابق، 130/1. ابن مرزوق :المسند/161 وما بعدها. ابن فرحون: الديباج/152. ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الشعب، القاهرة،(د.ت)/397. العبر 205/13 وما بعدها. التعريف/21 وما بعدها. أبو زكريا يحي بن موسى المغيلي المازوني (ت883هـ/1478م): الذرر المكنونة في نوازل مازونة، مخطوط بالمكتبة الوطنية، الجزائر، ج1، رقم 435/1335 و-ظ. التنسي:المصدر السابق/139، 142. الونشريسي: الوفيات/112، 118. المعيار، 20/1 ومـا بعدها، 461/2-462، 468. 333/12. محمد بن أحمد بن بن غازي (841-919هـ/1341-1513م): الروضّ الهتون في أخبار مكناس الزيتون، ط3، المطبعة الملكية، الرباط، 45/1999،42. القرافي بدر الدين محمد بن يحيى (939-1008هـ/1532-1599م): توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تحقيق: أحمد الشنيوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، (د.ت). القرافي: توشيح الديباج/144-150. التنبكتي: المصدر السابق/94 وما بعدها. ابن مريم: المصدر السابق/123-127. ابن القاضي: درة الحجال، 80/3-81. المقري: أزهار الرياض، 12/5-26، 33-34. نفح الطيب، 215/5-221.
Georges Marsais : « Note sur l'épitaphe d'un savant tlemcenien : Abu Mûsa fils de l'imâm » Revue Africaine,
.=1918/114-130) وأبو موسى عيسى بن الإمام أصغر من أخيه (مصادر ترجمته: ابن الخطيب: نفاضة الجراب/374. يحيى ابن خلدون: المصدر السابق، 130/1. ابن مرزوق:المسند/163 وما بعدها. ابن خلدون: المقدمة/397. العبر، 250/13 وما بعدها. التعريف/21 وما بعدها. أبوعبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق الحفيد (767-842هـ/1364-1438م):نوازل ابن مرزوق الحفيد، المكتبة الوطنية، الجزائر، رقم 24/1342 ظ-25و. التنسي: المصدر السابق/136، 142. الونشريسي: الوفيات/188-119. المعيار، 346/1. 93/2. وما بعدها. 331/5-334. 6/ 329 وما بعدها. 257/7 وما بعدها .11/ 373- 383 . القرافي: المصدر السابق/144-147. ابن القاضي: درة الحجال، 186/3-187. المقري: أزهار الرياض، 12/5-18).
(7)-المصدر نفسه، 19/1.

(1037-1039هـ/1627-1629م)[1] قد تضمن مادة مضاعفة لها في ظل المسافة الشاسعة التي كانت تبعده عن وطنه؛ بحيث غّدت الترجمة لجده محور التراجم التي قدمها عن علماء تلمسان في الفترة موضوع الدراسة من خلال نقوله عن رحلة جده نظم اللآلي في سلوك الأهالي.

وبمكن تصنيف مصادره إلى قسمين: قسم نقله عن مصادر سابقة وفي ظل توفر أصول الكثير منها لا تحظ بأهمية على أن مقارنتها بنقوله الخاصة بالقسم الثاني من المصادر الشفهية والمصادر التي تعد في حكم المفقود تسمح بالاطمئنان في العمل عليه وتزكي من قيمته التوثيقية.

أولا-أ-3/<u>كتب التاريخ:</u>

ارتكزت أغلب المادة التي احتوتها كتب التاريخ الإسلامي خلال القرون الوسطى على الأحداث السياسية والعسكرية، وحينما يتعلق الأمر بالتأريخ لدولة ما فإننا نكون أمام تاريخ حكام باختلاف درجاتهم. ولما كان علماء الدين والفقهاء على وجه التخصيص طرفا رئيسا في الفعل السياسي لهذه الدول فقد أثريت هذه المصنفات بمادة تختلف من مؤلف لآخر وحينما كان يتم التأريخ لهؤلاء الحكام من رواة مناصرين أو معادين يقع الباحث من دون شك تحت سؤال ملح، ما مدى صحة ما تمتلكه من معطيات في هذا الجانب طالما أن الكتابة تحت أي مشاعر مندفعة سواء كانت معادية أم مناصرة، أو استجابة للقريحة الأدبية من شأنه أن يفعل بالحقائق التاريخية ما لا يغيب عن الدارس؟

وعلى الرغم من غياب عدد من الكتب المصنفة حول تاريخ تلمسان- مما يتم تناوله لاحقا- فإن ما يتوفرمنها للدارس يجعلها في المقام الثاني إفادة في مجال التراجم.

<u>أ-زهر البستان في دولة بني زيان</u>[2]: من الكتابات الرسمية للأسرة الزيانية، يجهل مؤلفه وكل ما يتوفر من قرائن يشير إلى أنه كان في بلاط أبي حمو موسى الثاني بين سنتي (760-766هـ/1358-1365م)[3]، لا يعرف من هذا هذا الكتاب إلا ثلاثة أجزاء؛ الأول في حكم المفقود ونعرف بعض محتواه من خلال الجزء الثاني[4] والثالث مشار له في القسم السابق الذكر[5]، ويجهل إذا إذا ما شرع في تأليفه أم لا. يغطي القسم الثاني من هذا الكتاب الفترة الممتدة من سنة (758هـ/1356م إلى مطلع سنة 765هـ/1363م[6]، مع إشارات عن

---

(1)-نفح الطيب، 80/1-99، 519/7.

(2)-المصدر السابق

(3)-لأنه يقدم أحداث الفترة السابقة استنادا إلى مصادر أخرى للتفصيل، ينظر: مجهول: زهر البستان (1ظ- 2و)، أتم الجزء الثاني من الكتاب سنة 766هـ (ينظر: المصدر نفسه/ 94و).

(4)-مجهول: المصدر نفسه/ 1و، 4ظ.

(5)-مجهول: المصدر نفسه/ 94و.

(6)-مجهول: المصدر نفسه/ 1و، 4و- 94و.

الفترة السابقة التي تمتد إلى سنة 753هـ/1352م[1]، وبذلك فإن قيمة هذا المخطوط الزمنية تتجاوز التاريخ، المحدد من قبل بعض الدارسين[2] بخمس سنوات من سنة 760هـ/1358م إلى 765هـ/1363م).

وعلى الرغم من قصر المدة التي غطاها هذا الكتاب ومن البتر الذي يشوب بعض أوراقه، فإنه أخذ أهميته انطلاقا من كونه أول المصادر الزيانية المتداولة بين الدارسين، إلى جانب احتفاظه بنصوص فريدة منها ما تعلق بمشاركة العلماء بالاحتفال بالمولد النبوي في البلاط الزياني، وبعلاقة عدد منهم بالبلاط الزياني ، وكذلك بالكشف عن دور الطلبة- علماء المستقبل- في تقديم الدعم السياسي للسلطة الزيانية، وفي مدنا بتصور شامل ودقيق عن سياسة أبي حمو موسى الثاني في علاقته بالعلماء، وهو ما يسمح بالمقارنة بين سياسة هذا الأخير وسياسة أبي الحسن المريني. إلا أنه وفي ضوء العملية الانتقائية لكتب التاريخ كما هو الشأن مع كتب التراجم ولافتقادنا للجزء الأول والثالث من هذا المصنف يأخذ كتاب بغية الرواد ليحي بن خلدون أهميته كمصدر موازي ومكمل لزهر البستان وهذا ما سيتم الكشف عنه.

ب-بغية الرواد:

يأخذ كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد[3] أهمية في هذه الدراسة من حيث كونه: مصدرا مدعما ومكملا لكتاب زهر البستان افتتحه مؤلفه بالتعريف بقبيل بني عبد الواد[4]، وانتهى ما وصلنا منه عند أحداث سنة(777هـ/1375). وبوصفه من الكتابات الرسمية للدولة الزيانية تقلد صاحبه كتابة السر لأبي حمو موسى الثاني، وسبق له العمل في البلاط الحفصي والمريني، ما أثرى رصيده المعرفي بالخبرة السياسية والاطلاع على الوثائق الرسمية لتلك الدول، والتعرف على كبار رجال بلاطات المغرب في عصره[5]، وهذا ما ضاعف من قيمته التوثيقية. التحق رسميا بالبلاط الزياني لأول مرة سنة (769هـ/1367م)[6]، وعاد ثانية سنة (776هـ/1374م)[7]، ولم يكن مؤلفه سوى محاولة لتوطيد أواصر العلاقة مع

---

[1]-مجهول: المصدر نفسه/ 1و- 4ظ.

[2]- الدراجي بوزياني: المرجع السابق/9. عبد الحميد حاجيات في مقدمة تحقيقه لكتاب زهر البستان، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر،6/2011

[3]-المصدر السابق.

[4]-المصدر نفسه، 84/1.

[5]-هوأبو زكريا يحي بن خلدون (ولد بعد 732-ت 780هـ/ 183-1378م) مصادر ومراجع ترجمته: ترجمته: مجهول: زهر البستان/ 85ظ-86ظ، 92ظ. ابن الخطيب: ريحانة الكتاب،140/2-143. ابن خلدون: التعريف/97 وما بعدها. العبر، 292/13-293. المقري: أزهار الرياض، 237/1-242، 246-247. نفح الطيب، 396/6-399، 509-513، 515-517. عبد الحميد حاجيات في مقدمة تحقيقه لكتاب يحي بن خلدون: المصدر السابق، 7/1-63. وداد القاضي: "النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني ومكانتها بين النظريات السياسية المعاصرة لها"، الأصالة، ع27، 1975/ 12-13، 29..

[6]-المصدر نفسه، 200/2-202. ابن خلدون: العبر، 901/14-903. التعريف/ 102-103.

[7]-عبد الحميد حاجيات في مقدمة تحقيقه لبغية الرواد، 52/1.

السلطان موضوع التأليف، يكشف عن ذلك تركز حوالي ثلثي مصنفه في مدح وتمجيد لعهد أبي حمو موسى الثاني، إضافة للديباجة التي تضمنت إطراء على شخصه وأسلافه وأن تأليفه لهذا الكتاب امتثالا لأمره باعتبار "طاعته من طاعة الله ورسوله"[1]، وإشارة لعهده وسيرته على سبيل الفخر والوعظ. وقد قسمه إلى ثلاث أقسام:

القسم الأول في التعريف بقبيل بني عبد الواد وأوليته، واستندنا منه في موقف يحي بن خلدون من نسب بني عبد الواد، وفي ذكر من أنجبته واستقر بتلمسان من الصالحين والعلماء، وقد تضمن مادة أولية وغزيرة عن العلماء والأسر العلمية بتلمسان لايمكن للدراس الاستغناء عنها بالرغم من عدم اهتمامه بتحديد تواريخ ميلاد ووفيات أعلامه وعدم توزيع مادته الخبرية بشكل متوازن بين كل التراجم وإهماله لبعض الأعلام البارزين في العهد الزياني، ما يفرض سؤالا ملحا حول دوافع هذا الموقف الذي لايمكن استبعاد العوامل الشخصية فيه.

وإن كان القسم الثاني تمحور حول ذكر ملوك بني عبد الواد، فإن القسم الثالث المعنون بـ"فيما حازه أمير المسلمين مولانا أبو حمو أيده الله من الشرف الشاهق الأطواد" يزود الدارس بمادة مركزة حول المسار السياسي للدولة الزيانية ومن ذلك علاقة السلطة بعلماء الدين- الفقهاء والمتصوفة- على وجه التخصيص. وآخر ما يمكن أن نختم به حول هذا المصدر القيم في تاريخ تلمسان هو تنوع مصادره وثرائها وان لم يكشف عنها في كل المواطن، خاصة ما تعلق منها بالمرحلة التي كان فيها بعيدا عن البلاط الزياني.

أولا-أ-4/-<u>كتب النوازل</u>

من أبرز ملامح العالم الإسلامي خلال العصور الوسطى هو النفوذ الذي تحقق للفقهاء والتزايد اللاإضطرادي في عددهم على مر السنين، مقارنة مع العلماء ذوي الاهتمامات الأخرى[2]، ولعلّ من الأسباب الرئيسية في ذلك المكاسب الأدبية والمادية التي تحققت لهم نظرا للسلطة الروحية والعلمية التي حازوا عليها بوصفهم من أبرز الشرائح الفاعلة في الحضارة العربية الإسلامية.

وعليه يأخذ الرجوع لمصنفاتهم المتعلقة بالأحكام الشرعية- كتب النوازل- أهميته في الكشف عن قسم هام من رصيدهم الفكري من جهة، وفي التعرف على الدور المنوط بهم في معالجة قضايا عصرهم على المستوى العلمي والاجتماعي بكل حيثياته، ذلك أنها ماهي إلا تعبيرا عن استجابة لمطلب شخص أو مجموعة أفراد أوجهة رسمية أو زملاء في السلك ذاته علماء كانوا أو طلبة علم؛ بحيث تشترك كتب النوازل مع كتب الفقه التي

---

[1]-يحي بن خلدون المصدر نفسه، 79/1.

[2]- يستثنى من ذلك المتصوفة الذين كان العلماء منهم فقهاء أولا.

كانت موجهة لأهل الاختصاص في كونها من الكتب الدراسية ما يسمح بدراسة حيز من دراسة الفقهاء للعلوم الشرعية. هده الفتاوى وإن كانت غير ملزمة بالقوة فإنها ملزمة بالفعل انطلاقا من كونها تتضمن الأحكام الشرعية العملية التي على أمة المسلمين الالتزام بتطبيقها، والتي تتغير بواقع المكان والزمان حينما لا تخضع لنص قاطع في الكتاب والسنة، وبذلك يصبح تتبع مسارها ضرورة أكاديمية في تناول ماسلفت الإشارة إليه.

أ- رغم ضخامة عمل البرزلي (ت841هـ/1438م) "جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام"[1]- وأخذه عن أحد شيوخ تلمسان وهو ابن مرزوق الخطيب[2] فحضور فتاوى فقهاء تلمسان فيه كان مقتضبا ممن يفتح مجالا للسؤال، هل لوجود مصنف آخر معاصر له فيما يلي ذكره؟ أم بسبب تركيزه على فتاوى علماء إفريقية؟.

ب- نوازل ابن مرزوق الحفيد[3](767-842هـ/1364-1439م)، ورد اسم مخطوطه "باسم نوازل أبو عبد الله علي بن أحمد بن مرزوق"، إلاّ أنه بالرجوع إلى متنه تبين أنّه لابن مرزوق الحفيد، ويحتوي على مجموعة هامة من فتاوى فقهاء تلمسان من بينهم شيوخه، على أن أهم نسبة من هذه الفتاوى هي لصاحب المؤلف، وقد نقل عنه الونشريسي في معياره.

يعاب على النسخة التى تم العمل عليها كتابتها بخط مغربي رديء مايصعب على الدارس تصفح مضمونه،إضافة إلى تعدد نساخه.

ج-يعد المازوني[4](ت 8هـ/1478م) صاحب مخطوط الدرر المكنونة في نوازل مازونة، من طلبة علماء تلمسان وأخذ عن عدد منهم، عدا كونه قاضيا[5] ما يسّر له تدوين عدد هام من فتاوى فقهاء تلمسان.

د- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحيى بن محمد الونشريسي التلمساني (783-914هـ/1381-1509م). يلتقي الونشريسي مع ابن مرزوق الحفيد والمازوني في الانتماء للمدرسة التلمسانية. يأخذ مصنف الونشريسي أهميته انطلاقا من ضخامته واحتوائه على النوازل المتأ خرة لفقهاء تلمسان، وتسمح مقارنة الفتاوى المتوفرة بنصوصها الأصلية والتي امتازت بالأمانة الشديدة في النقل ونسبة الفتاوى إلى أصحابها بالاطمئنان في التعامل مع النصوص التي لم تصل إلينا. إلاّ أنّ ما يعاب على هذا الصنف من المصادر

---

[1]-أبو القاسم بن أحمد البلوي التونسي، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب الهيلة، ط1، دار المغرب الإسلامي.

[2]-شمس الدين محمد بن عبد الرحمان السخاوي (831-902هـ/1427-1496م): الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، تحقيق: كونفر أوفست، دار مكتبة الحياة، بيروت، (د.ت).252/2. التنبكتي:المصدر السابق/368-369.

[3]-المصدر السابق.

[4]-المصدر السابق

[5]-التنبكتي/637.

هو الاكتفاء بذكر اسم شهرة المفتي وغالبا ما يوقع الدارس في مشكلة تشابه الأسماء خلال الفترة الوسيطة، وحين يكون الفقهاء من أسرة واحدة يصعب التفريق بين نوازلهم حينما تضم الأسرة أكثر من فقيه ولا يشار للفقيه إلا باسمه العائلي كما هو الشأن مع المرازقة أو العقبانيين؛ مما يأخذ من الدارس مجهودا شاقا لنسبة كل فتوى إلى صاحبها هذا إذا توفرت له الآليات التي تسمح له بذلك، ومن بينها تتبع محتوى المؤلف صفحة صفحة والتثبث من الصيغة التي يتبع بها ذكر المفتي كسيدنا أو الخطيب أوالإمام.

أولا-أ-5/كتب التعريف بالعلوم والمؤلفات.

لاغنى لدارس النخب الدينية في التعامل مع هذا الصنف من المصادر للغوص في حيز هام من نشاطم العلمي بالتعريف بمؤلفاتهم والعلوم التى تصب في منحاها من جهة، والتعريف بهم من جهة أخرى، ومن أهم الكتب التى تخص الفترة موضوع الدراسة:

مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم لأحمد بن مصطفى الشهير بـ "بطاش
كبرى زادة "[1] (901-968م/1495-4560م)، قسم المؤلف كتابه إلى جزأين: اختص الأول بالعلوم الشرعية والثاني بالعلوم الخطية واللسانية والتاريخ، والعلوم العقلية، وقد اعتمد جملة من المصنفات الهامة من بينها مقدمة ابن خلدون، ومما يزيد في تثمين هذا المصنف الاقتباس الحرفي عنه من خلال كتاب حاجي خليفة (1017-1067هـ/1608-1656م) في كتابه كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون[2]، خاصة في تعريفه للعلوم والمصنفات. وقد ذيل البغدادي مصنف حاجي خليفة في في كتابه ذيل كشف الظنون بإضافته لبعض المعطيات، مما حول مفتاح السعادة لموسوعة[3].

يلحق بهذه المصادر كل التراث العلمي والأدبي المنتج من قبل النخب الدينية بحيث لا تستقيم دراستهم بمعزل عن انتاجهم مما لايتسع له مجال هذه الدراسة .

أولا- ب/ المصادرغيرالمتاحة/ إشكالية المجهول والمفقود

يضطر المؤرخ لتاريخ العصر الزياني المتقدم للتعامل مع مصادر متأخرة تعود إلى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، إذا استثنى من ذلك رحلة العبدري (كان حيا سنه 688هـ/1289م)[4]

---

[1]-مراجعة وتحقيق: كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، دار الكتب الحديثة، مصر، (د.ت).

[2]-حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله (1017-1067هـ/1608-1656م): كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق: محمد شرف يالتقايا وبيلك الكبيسي، مكتبة الرباط، الجزء الأول، 1941، الجزء الثاني 1943.

[3]-في حين نلمح النقل الحرفي في هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين(طبع بعناية وكالة المعارفة الحلبية، استنبول،1951).

[4]- المصدر السابق

وهو فراغ كبير يمتد على ما يزيد عن القرن من الزمن[1]، ويلاحظ الأثر السلبي لهذا الإشكال بشكل واضح عند العمل على هذا الحقل الزمني إذ يشل الاقتضاب في المادة الخبرية يد الدارس عن تناول عدد من المواضيع و وعلى رأسها ماتعلق بالمادة الخاصة بتراجم القرن السابع.

فبالرغم من المكانة العلمية التي احتلها بعض العلماء لا نقف لهم على أثر فيما يتصل بإنتاجهم الفكري و العلوم التى قاموا بتدريسها، وبعض الروايات تبقى قليلة إذا ربطت بالمكانة العلمية لهؤلاء االعلماء [2] وبما يتوفر للباحث خلال القرن الثامن؛ فعلى سبيل الذكر من بين ثمانية عشرة خطيبا في الفترة موضوع الدراسة لم يتم رصد سوى ثلاثة خطباء عهد يغمراسن[3].

يزيد من صعوبة هذا الموقف عدم كشف عدد من الروايات المتأخرة عن مضانها؛ كما يفتقد للوثائق الرسمية المتعلقة بعهود التولية الخاصة بوظائف العلماء الرسمية ومختلف سجلات الدولة التى لاغنى للدراس عنها في التزود بمادة عن نخبها.

ولم يكن ضياع المصنفات مقتصرا على مؤلفات القرن السابع الهجري (الثالث عشر ميلادي) فقط بل امتد إلى القرن الثامن (الهجري/ الرابع عشر ميلادي) وبعضها الآخر ضاع خلال القرون الموالية، وكانت الظروف التي شهدتها تلمسان في صراعها مع الحفصيين والمرينيين من الأسباب الرئيسة في اندثار جزء هام من تراثها[4].وهناك سببا آخر لا يقل أهمية هو أن عدد من المصنفات لم يكتب لها الانتشار في حياة أصحابها، يستشهد في ذلك بما ذكره ابن مرزوق الخطيب[5] في دواعي تأليف كتابه المجموع، والاستطراد في تعريف بعض الأعلام المعاصرين لأسرته.يمثل كتاب زهر البستان[6] دليلا في غاية الأهمية على ما سبق ذكره فبالرغم من أهميته يجهل مؤلفه، ومصير القسم الضائع منه، وهو الجزء الأول ولم يرد ذكره في المصنفات المتأخرة سوى عند التنسي (ت899هـ/1493م)[7] الذي الذي أشار لهذا الكتاب لمن يرغب في الاستزادة عن حروب أبي حمو موسى الثاني (760-791هـ/1358-1388م) ووقائعه.

يقدم في الصدد ذاته كتاب بغية الرواد لابن خلدون الذي انتهى ما وصلنا منه عند أحداث سنة (777هـ/1375)[8] ويعتقد أنه غير تام للأسباب التالية، ففي الصفحة (327) من الجزء الثاني وردت العبارة التالية: « تم

---

[1]- يصعب الجزم إذا كانت هذه المصادر الأولية ضائعة أو محفوظة لم يتم استغلالها من قبل الدارسين.

[2]- للتفصيل ينظر صابرة خطيف: المرجع السابق/270 ومابعدها.

[3]-للتفصيل ينظر المرجع نفسه/406-407.

[4]- ابن مرزوق: المناقب/148،142.

[5]- المصدر نفسه/142.

[6]- المصدر السابق.

[7]-التنسي: المصدر السابق

[8]-المصدر السابق 2/328-332.

السفر الأول من كتاب بغية الرواد...» ومعنى ذلك أن هناك سفر آخر يليه يبدأ من أحداث السنة الموالية يدعم ذلك ما أضيف من المخطوطتين (أ) و(ب)[1] التي تنتهي بنص مفتوح يختم بعبارة:" انتهى ما وجد من هذا التاريخ المسمى بغية الرواد"[2]، لذلك يعتقد بوجود سفر آخر قد يبلغ لأحداث لأحداث سنة (780هـ/1378) وهي السنة التي كان فيها مقتله ويمكن الإشارة إلى بعض المصنفات الضائعة فيما يلي:

أولا- ب-1/- كتب التاريخ:

- درر الغرر: أشار له التنسي[3] في حديثه عن حصار تلمسان الخامس (698-707هـ/1298-1037م).

أولا- ب-2/- كتب التراجم:

- راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو وقيل فيه من الأمدح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح: وهو مؤلف في أبي حمو موسى الثاني من قبل التنسي[4]، أشار له في تناوله للمولد النبوي عهده قائلا «وما قاله المولى أبو حمو وقيل فيه من الشعر كثير لا يحتمله هذا المجموع، ونحن نجمعه إن شاء الله في كتاب يختص به بعد فراغنا من هذا المجموع»، يؤكد تصنيفه لهذا الكتاب المقري في كتابه نفح الطيب[5] وأزهار الرياض[6]، معلقا أن النص الذي كتبه في نظم الدر والعقيان أتم مساقا" من كلامه في راح الأرواح[7]

أولا- ب-3/- كتب الرحلات

-نظم اللئالئي في سلوك الأمالي للمقري الجد، وهو مصنف في التعريف برحلات هذا العالم واستعراض مساره الفكري منذ حداثة سنه، وإلى فترة متقدمة من حياته، وقد تراوحت هذه الرحلات بين طلب العلم، الحج والسياحة، كما تناول التعريف بأسرته وشيوخه، على أن تركيزه في التعريف بشيوخه وما أخذ عنهم بتلمسان يبعث على التساؤل هل ذلك هو أصل الرحلة؟ أم أحد أحفاده الذي نقل هذا المؤلف وهو أبو العباس المقري[8]، هو الذي ركز على هذه المرحلة من تواجده بتلمسان للأسباب السالف ذكرها عند الحديث على كتابيه.

وبدون شك أن تسليط الضوء على المصنفات المدونة خلال العصر الزياني في مختلف العلوم، سيكشف لا محالة عن مصادر أخرى ضائعة، هذا ما يطرح إشكالا في غاية الأهمية، كم هي المصادر - بمختلف أصنافها- التي

---

(1)-المصدر نفسه، 328/2-332.
(2)-المصدر نفسه، 331/2-332.
(3)- المصدر السابق/132.
(4)- ينظر: المصدر نفسه 178.
(5)- 513/6-514.
(6)- 243/1-244.
(7)- المقري: المصدر نفسه، 245/1.
(8)- أزهار الرياض، 12/5-75. نفح الطيب، 205/5-207، 215-254.

تجهل عن تاريخ تلمسان أو تعد في حكم المفقود؟ وما هي حجم المادة التي تحملها؟ وبالتالي إلى أي مدى يبدو إسهام الدارس في طرق أي موضوع متصل بهذه الحاضرة موفقا في غياب العديد من الوثائق الأصلية؟

أولا- ب-4/ افتقار المكتبة التلمسانية لكتب التراجم والفهارس في الفترة موضوع الدراسة

إذا كان النوع الأول وهو كتب التراجم والطبقات يشكل جوهر الكتابة حول أي ظاهرة متصلة بدراسة الأعلام، فكتب الفهارس أو الإثبات أو المشيخات، تعدّ المورد الأول في رصد الحركة الفكرية، بكل مكنوناتها. والدارس للتاريخ الزياني خلال الفترة موضوع البحث، يلاحظ ندرة هذا النوع من المصادر الزيانية، وهو ماأشار له أحد المؤلفين المعاصرين في معرض تعريفه بأسرته[1] إذ ترتكز في جملة محددة من الكتب، بعضها ترجم لعدد من علماء تلمسان، على سبيل الإشادة بأهمية هذه الحاضرة كما هو الشأن مع يحي بن خلدون[2]، أو إبراز لمكانة أسرته كما هو الشأن مع ابن مرزوق في كتابه المناقب[3]، أوالتأريخ لبعض السلاطين مثل ذلك كتاب المسند للمؤلف نفسه[4]، والجزء الذي تناول فيه ابن خلدون[5] علماء تلمسان تلمسان الذين انضموا إلى المجلس العلمي لأبي الحسن المريني.

ثانيا: إشكالية المكان، الهوية، الزمان، ودور المؤرخ في ضبط ببلوغرافيا النخب حقل الدراسة.

يصطدم الدارس لمجال التراجم بجملة من الصعوبات لا بد من حلها كمرحلة أولى قبل الشروع في بناء أي عمل، من حيث تحديد قائمة الأعلام موضوع البحث بالتثبت من علاقتهم بالمكان المراد دراسته وضبط وأسمائهم وإطارهم الزماني.

أ-علاقة الفقهاء بتلمسان:

لم تكن النسبة للمدينة في كتابات الفترة الوسيطة دليلا في كل الأحوال على مكان الميلاد أو النشأة وخير دليل على ذلك أسرة المقري التي احتفظت بنسبها لمقرة[6] قرونا متوالية بعد استقرارها بتلمسان[7]، وبذلك يكون على الدارس التحقق من علاقة المترجم لهم بتلمسان من حيث كونهم مارسوا أي نشاط أو أقاموا بها تدعم ذلك بالنسبة لتلمسان أو لم يتدعم وهو عكس ما جرت عليه كتابات المتقدمين ومن تبعهم من المحدثين. فقد احتفظ أبوعبد الله

---

[1]- إبن مرزوق:المناقب/142.

[2]- المصدر السابق، 1/100-164.

[3]- المصدر السابق/ 140 وما بعدها.

[4]- المصدر السابق/ 265-268.

[5]- التعريف/ 21 وما بعدها.

[6]- بلفظتين فتح الميم وتشديد القاف أو فتح الميم وسكون القاف إحدى قرى الزاب بإفريقية. ينظر: التنبكتي: المصدر السابق/420. المقري: 5/279، 340.

[7]- للتفصيل ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 2/191-226. المقري: أزهار الرياض، 5/29. نفح الطيب، 5/203-204، 279.

محمد بن عمر بن الدراج (ت693هـ) بنسبه لتلمسان في الوقت الذي ولد فيه بسبتة[1]، وعدّ العالم الصوفي سليمان بن علي المعروف بعفيف الدين التلمساني (610-690هـ/1213-1291) ضمن علماء تلمسان في الوقت الذي يجهل متى غادرها إذا كان مولده بها؟ وكل ما بحوزة الدارس يخص مكانته ودوره بالمشرق[2].

الطرح نفسه يصدق على الفقيه الأديب أبو العباس شهاب الدين أحمد بن يحي بن عبد الواحد المعروف بابن أبي حجلة التلمساني (725-776هـ/1324-1374م) الذي لا نعرف أنه دمشقي المنشأ إلا من خلال أحد المؤلفات لابن الأحمر[3]، الذي ترجم له ضمن شعراء المشرق، في حين تناولته باقي الروايات[4] والدراسات[5] على أساس نسبته لتلمسان.

وإذا كان عدد من استقر بالمشرق من التلمسانيين –مولدا أو نسبا- ممكن الحصر، فإن من غادرها إلى الأندلس والمغرب الأقصى خاصة وبرز خارجها كثيرا، إذ أمكن رصد عدد معتبر من النخب الدينية المنسوبة لتلمسان على أمل أن يتوفر ما يحدد دورهم بها يذكر منهم على سبيل التمثيل أبو العبد الله محمد بن عمر بن الفتوح التلمساني ثم المكناسي (ت818هـ/ 1415م)[6]،

---

[1]- للتفصيل ينظر إبن مرزوق:المناقب/191.

[2]-للتفصيل حول المصادر والدراسات التي ترجمت له على أساس كونه تلمسانيا ينظر:شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي(715-748هـ/1315-1347م):الإعلام بوفيات الأعلام، تحقيق مصطفى بن علي عوض وربيع أبو بكر عبد الباقي، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، 1993، 470/2. محمد بن شاكر الكتبي(ت764هـ/1362م):فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق:إحسان عباس، دار الثقافة،(د.ت)، 72/2-76.عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير(707-774هـ/1301-1372م):البداية والنهاية، دار الفكر العربي(د.ت)، 326/13. خير الدين الزركلي:الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط11، دار العلم للملايين، 1995، 130/3. عمر رضا كحالة:معجم المؤلفين تراجم مصنفين الكتب العربية، دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت(دت)، 207/4. عمار هلال:العلماء الجزائريون في البلدان العربية لإسلامية فيما بين القرنين التاسع والعشرين الميلاديين(3-14هـ) ديوان المطبوعات =الجامعية، الجزائر، 246/1995. أبو القاسم محمد الحنفاوي، تعريف الخلف برجال السلف، ط2، مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة، تونس، 1985، القسم الثاني/ 261-262.

[3]-إسماعيل بن يوسف ابن الأحمر (ت810هـ/1407م): نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان ودراسة في حياته وأدبه، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1967/ 228-229.

[4]- ينظر تقي الدين محمد ابن فهد المكي: لحظ الألحاظ بذيل طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت (دت)/ 161-162. حاجي خليفة: المرجع السابق/ 117، 307، 624. ج2، 994/1943، 1189. البغدادي: هدية العارفين: 136/1،113. عبد اللطيف رياضي زاده: أسماء الكتب المتمم لكشف الظنون، تحقيق محمد التونجي، مكتبة الخانجي، مصر، (دت)/ 166-187.

[5]- عبد العزيز بنعبد الله: الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، 1975، 72/1. عمر رضا كحالة: المرجع السابق، 270/4. خير الدين الزركلي: المرجع السابق، 103/3. أبو القاسم محمد الحفناوي: المرجع السابق، القسم الثاني/ 261-262.

[6]- مصادر ومراجع ترجمة: الونشريسي: الوفيات/138. القرافي: المصدر السابق/ 214. ابن القاضي/201. التنبكتي: المصدر السابق/ 497-499. محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (دت)/ 251.

وأبو الحسن علي بن يحي بن سعيد بن مسعود بن سهل الأنصاري القلني الأصل التلمساني (كان حيا خلال النصف الثاني من القرن السادس أو النصف الأول من القرن السابع الهجري/ النصف الثاني من القرن الثاني عشر أو النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي)[1].

يطرح إشكال آخر في هذا المجال حينما لا تفصح كتب التراجم عن هوية المترجم لهم بشكل دقيق، كما هو الشأن مع أبي زيد عبد الرحيم بن عمر اليزناتي من العلماء البارزين في مجال الفقه والذي ترجم له الغبريني[2] ضمن علماء بجاية ونقل عنه التنبكتي[3]، ولم يمكن التعرف على صلته بتلمسان إلا من خلال إشارة ليحي بن خلدون[4]، في ترجمته لأحد أعلام تلمسان عندما تطرق لذكر أساتذته من تلمسان، كما ورد عند ابن مرزوق[5]، مرزوق[5]، في حالة مشابهة دون أن يحظى بترجمة مفردة رغم أهميته كفقيه.

إن أي دراسة جادة لا تستقيم باستغلال أي ترجمة ضمن مجال جغرافي دون التثبث من علاقتها به مولدا أو نشأة أواستقرار، وبناء عليه يتم توظيف تلك بحسب الموضوع المطروق، بحيث لا يمكن نسبة علم لحقل جغرافي محدد في حين استقر فيه بعد استيفاء تكونه الفكري، أو في مرحلة متأخرة من حياته، لكن ذلك لايحول دون تناول المجال السابق الذكر كمؤثر في تكوينه الفكري، أو إسهامه في الحياة العامة لتلك المنطقة بحسب مايتوفر للدارس من معطيات.

ب- أسماء الفقهاء:

يطرح ذات الإشكال في استغلال المادة المتحصل عليها في مجال التراجم فيما يتصل بأسماء الفقهاء بحيث يتوجب ضبط ذلك بمقارنة الصيغة إلى ورد عليها الاسم في مختلف المصادر، ما يتطلب إصلاح بعضها، كما هو الشأن مع أبي عبد الله محمد بن علي بن الحمّال[6] (كان حيا ما بين 769-777هـ/1367-1375م)[7]، فقد ذكره إبن مرزوق[8] ويحيى بن خلدون[9] في

---

[1]- مصادر ترجمة: ابن عبد الملك: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول، القسم الأول، تحقيق محمد بن شريفة، دار الثقافة، بيروت، سلسلة المكتبة الأندلسية (دت)/ 213. يحي بن خلدون، المصدر السابق، 101/1.

[2]-أبو العباس أحمد بن أحمد (ت704هـ/1304م): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1971/ 223.

[3]- المصدر السابق/ 226-227.

[4]- المصدر السابق، 114/1-115.

[5]- المناقب/ 171.

[6]-يحيى بن خلدون:المصدر السابق،117/1-118. ابن مرزوق:المناقب/159. المقري:أزهار الرياض،57/5-58. نفح الطيب، 242/5.

[7]- كان حيا عند تأليف يحيى بن خلدون لمؤلفه.

[8]- ابن مرزوق: المناقب/159.

[9]- المصدر السابق، 117/1-118. ترجمة رقم 48 و52 هي: الترجمة نفسها مع بعض الاختلاف.

في ترجمته له بهذه النسبة، بالتأكيد:«ابن الحمّال بالحاء المهملة»[1]، وفي أزهار الرياض[2] ونفح الطيب[3] ورد نقلا عن رحلة طالبه أبو عبد الله المقري باسم "ابن الجمّال"، على أن الدراسة أخذت بما ذهب إليه ابن مرزوق ويحي بن خلدون على اعتبار تأكيدها اللفظي، وورود تلك اللفظة في ثلاث مواضع من مؤلفه على ذلك النحو، إضافة إلى كونها تحمل النسبة للوظيفة، حمّال، كما هو الشأن بالنسبة للعديد من أسماء الأعلام خلال العصور الوسطى، كابن النجار وابن الفحام... الإشكال ذاته طرح مع الفقيه أبي إسحاق إبراهيم بن حكم الكناني السلوي (ت737هـ/1336م)[4]، ففي حين ترجم له ابن خلدون[5] تحت اسم أبو عبد الله محمد السلاوي أورده طالبه أبو عبد الله المقري[6] بالاسم الأول، وتم اعتماد ذلك على أساس العلاقة بين المترجم والمترجم له كما انفرد بذكر اسمه كاملا، وقد تدعمت هذه الرواية بما ذكره ابن الخطيب[7] والتنبكتي[8] الذي أكدّ على أنه شهر بأبيه أبي إسحاق. وتمكن صلة القرابة في تركيب بعض الأسماء كـ: يحيى بن خلدون الذي تم ضبط اسمه الكامل بناء على ما ورد في تعريف أخيه بنفسه[9] وأبو الحسن المقري[10]، (كان حيا ما بين 769-777هـ/1369-1375م)[11]، بناء على ترجمة ابن عمه أبي عبد الله المقري.

ج-فترة حياة الفقهاء

فيما يخص فترة حياة الفقهاء، يعاني الدراس من تضارب المصادر في ترجمتها لبعض العلماء، وعدم تصريحها بذلك في البعض الآخر ما يتطلب معالجة. ففي حين حدد يحيى بن خلدون[12] سنة وفاة أبي إسحاق التنسي بـ(680هـ/1281م) واعتمد عليه في ذلك بعض المحدثين[13] يرجح أن ذلك تمّ بعد سنة 691هـ حيث أن ابن مرزوق[14] سجل حوارا بين جده

---

[1]- للتفصيل ينظر ابن مرزوق: المناقب/181 حيى بن خلدون: المصدر نفسه، 118/1 ترجمة رقم 51.

[2]- المصدر السابق، 57/5.

[3]- المصدر السابق، 242/5.

[4]- مصادر ترجمته:ابن خلدون:التعريف/59-60. التنبكتي:المصدر السابق/41. المقري:أزهار الرياض، 19/5. نفح الطيب، 224/5-230.

[5]- التعريف/59-60.

[6]- ينظر المقري: أزهار الرياض، 19/5 وما بعدها. نفح الطيب، 224/5-230.

[7]- الإحاطة، 201/2.

[8]- المصدر السابق/41.

[9]- ابن خلدون: العبر، 795/14-796.

[10]- أبو الحسن علي بن أحمد بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن علي المقري، مصدر ترجمته: يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 121/1.

[11]- كان حيا عند كتابة يحيى بن خلدون لمؤلفه.

[12]-المصدر السابق، 114/1.

[13]-عبد الحميد حاجيات: أبو حمو موسى الزياني: حياته وآثاره، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982/42.

[14]-ابن مرزوق: المناقب/293..

موضوع الحديث وبين السلطان أبي يعقوب يوسف المريني(685-706هـ/1286-1307م) سنة 692هـ، يدعم ذلك رواية عبد الجليل التنسي[1] الذي ذكر أن وفاته كانت خلال عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن(681-703هـ/1282-1303م)، والعبدري[2] الذي التقى به وبأخيه عند سفرهما للمشرق، سنة (688هـ/1289م).

واعتبرّ أنّ أبا زيد عبد الرحمن بن يوسف بن علي بن أبي زاغ[3] حيا سنة (730هـ/1329م)، بناء على ما ذكره ابن مرزوق الخطيب[4] من سفارة هذا الفقيه رفقة والده أبو العباس أحمد بن مرزوق (681-741هـ/1282-1340م) لأبي تاشفين عبد الرحمن الأول (718-737هـ/1318-1336م)، إلى السلطان المريني أبي سعيد عثمان (710-731هـ/1310-1330م) في شأن التوسع الزياني ضد الحفصيين عهد أبي يحيى أبي بكر (718-747هـ/1318-1346م)[5].

وقد تحددت سنة وفاة أبي عبد الله بن النجار بسنة (750هـ/1349م) بناء على مايلي: ذكر طالبه أبو عبد الله المقري أن ذلك في الوباء العام[6] وحددها في موضع آخر بالسنة السابق ذكرها[7]، أما يحيى بن خلدون[8] وأخوه عبد الرحمن[9] فقد أرجعها للواقعة نفسها، لكن حددها بسنة (749هـ/1348م)، وعنهما عدد من القدماء[10] والمحدثين[11] على أنّه يؤخذ برواية المقري، لأنها أقرب من الحدث صاحبها توفي سنة (758هـ/1356م) وهي مدعمة بثلاث روايات مستقلة في التاريخ، لهذا الحدث أولها لابن مرزوق[12] وثانيها لابن قنفذ[1]، وهي السنة التي توفي فيها والده، وثالثها

---

[1]-المصدر السابق/127.

[2]-المصدر السابق/5، 11، 22.

[3]-مصادر ترجمته:المسند/120-121.

[4]-المصدر نفسه/ الصفحة نفسها.

[5]-للتفصيل حول هذه السفارة ينظر: ابن خلدون: العبر، 773/12-777، 221/13-224، 522-524. أبو عبد الله محمد الزركشي (ت بعد 894هـ/1488م): تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق: محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 68/1966. التنسي: تاريخ بني زيان/143-145. محمد عيسى الحريري: تاريخ المغرب الإسلامي في العصر= =المريني (610-829هـ/1213هـ/1465م)، ط1، دار العلم للنشر والتوزيع، الكويت/106-107، روبار برونشفيك: تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن 13 إلى نهاية القرن 15م، ترجمة: حمادي الساحلي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، 178/1-180.

[6]-ينظر: المقري: أزهار الرياض، 53/5. نفح الطيب، 238/5.

[7]-ينظر: المقري: أزهار الرياض، 50/5. نفح الطيب، 236/5.

[8]-المصدر السابق، 119/1.

[9]-التعريف/47.

[10]-الوشنريسي: الوفيات/118. وعنه ابن القاضي: جذوة الاقتباس/190. لقط الفرائد/200. كما نقل التنبكتي (المصدر السابق/405) عن عبد الرحمن بن خلدون، وعنه ابن مريم (المصدر السابق/126).

[11]-محمد عبد الله عنان: لسان الدين بن الخطيب 280/1968. ابن خلدون حياته وتراثه الفكري/22. محمد بن مخلوف: المرجع السابق/221. عبد الحميد حاجيات: "الحياة الفكرية بتلمسان"/152.

[12]- المناقب/192. المسند/265. هامش 4 بناء على المخطوط –أ- التي عمل عليها المحقق، والتي نسخت في حياة صاحبها، وبذلك يكون التصحيح الذي قام به في المتن في الصفحة نفسها في غير محله.

لابن قاضي شبهة[2]، إضافة إلى أن الونشريسي[3] قد وقع في خلل يجهل إذا كان سهوا منه[4] حينما جمع بين وفيات هذا الطاعون على أساس أنها ضمن وفيات سنة 749هـ وبين من توفى غرقا في أسطول السلطان أبي الحسن المريني (731-752هـ/1330-1351م)، سنة 750هـ[5]، وهو ذات الخطأ الذي وقع فيه ابن القاضي[6] الذي نقل عنه. وقد انقسمت المصادر في تحديد سنة وفاة أبي عبد الله الشريف العلوي ما بين سنتي (770-781هـ/ 1368-1379م) الرواية الأولى تعتمد سنة (771هـ/1369) مصادرها أولية ومتنوعة وبعضها قدمت تفاصيل خاصة باليوم والشهر واعتمدتها بعض المصادر المتقدمة[7]، وعليه يمكن الوثوق بها، أما الرواية الثانية فمصادرها ثانوية أحادية[8].

ثالثا: النمط المعرفي للعصور الوسطى وإشكالية التصنيف الدقيق للنخب

تشكّل العلوم الدينية المعبر الأول والأساسي في التكوين الفكري للعالم في الفترة الوسيطة، وعادة ماتحدد مكانته بقدر تعمقه في تلك العلوم، ولم يقتصر طلب العلم على العلوم الدينية بكل العلوم الآلية المرتبطة بها، بل تجاوز الإقبال على العلوم العقلية من التلقي إلى الإبداع، وبذلك تشكلت صورة كبار العلماء في شكلها العام كأعلام موسوعيين، دون اهمال خصوصية كل فترة وغياب معيار موحد لحجم ونوع المعارف والعلوم التى يختص بها كل عالم.

وهذا ما يصعب على دارس تلك الفترة محاولة إيجاد تصنيف دقيق للنخب العلمية عند الرغبة في العمل على قسم من العلوم، ويصبح الأمر أكثر تعقيدا كلما ضيقت دائرة العمل، ندلل على هذا الإشكال بعلم الفقه الذي أصبح كما ذكر أحد الدارسين[9] "أعدل الأشياء قسمة بين الناس" في الحضارة العربية الإسلامية، لضخامة تراثها في هذا المجال.

إذا كان الفقه هو الأحكام الشرعية -الخاصة بالعبادات والمعاملات-

---

[1]-أنس الفقير/47.

[2]- أبو بكر بن أحمد بن محمد بن قاضي شبهة:طبقات الشافعية، تحقيق:الحافظ عبد العليم خان، ط1، عالم الكتب، بيروت، 1407هـ، 16/3.

[3]-الوفيات/200-205.

[4]-لأنه ذكر في موضع من كتابه المعيار (65/10) أن الطاعون حل بتونس سنة 750.

[5]-للتفصيل ينظر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن الشماع (كان حيا سنة 861هـ/1456م)، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق: محمد بن الطاهر المعموري، الدار العربية للكتاب، طرابلس، 1984/99.

[6]-لقط الفرائد/200-201.

[7]-للتفصيل ينظر: ابن خلدون، التعريف/64. ابن القنفد، كتاب الوفيات/368. الونشريسي، الوفيات/126. التنبكتي: المصدر السابق/ 432.

[8]-ابن القاضي: لقط الفرائد/214. المقري: نفح الطيب، 272/5. مصطفى بن عبد الله المعروف بحاجي خليفة (1017-1067هـ/1608-1656م):كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تحقيق محمد شرف بالتقايا وبيلك الكبيسي، مكتبة الرباط، ج1943،2/1170.

[9]- محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، ج1: نقد العقل العربي، ط2، دار الطلبيعة، بيروت، 96/1985

المستنبطة من الكتاب والسنة[1] وباقي الأدلة باعتبار كل مذهب[2]، فالفقيه هو هو العارف بتلك الأحكام اجتهادا أو تقليدا[3]؛هذا على المستوى النظري أما عمليا نتواجه صعوبة في تحديد حجم المعارف التي يتلقاها الطالب ليرتقي إلى درجة فقيه، إذ يعلم ذلك بشكل مقارب ويختلف من ترجمة إلى أخرى، والأصعب أنه لا يعرف عن التكوين العلمي لعدد كبير من الفقهاء إلا النسبة للفقه، كما هو الشأن مع أبي زيد عبد الرحمن بن يعقوب بن علي (كان حيا خلال القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر ميلادي)[4]، وبشكل استنتاجي انطلاقا من مزاولة أحد الوظائف التي تتطلب تكوينا فقهيا، كالقضاء،الإمامة والخطابة، أو التدريس أو التأليف في هذا المجال في الفقه أو أصول الفقه أو العلوم المرتبطة بالفقه كعلم الفرائض وعلم الشروط والسجلات أو اعتبارا للمكانة العلمية ضمن هذا الإطار.

ويزداد الأمر إشكالا حينما لا تتفق الروايات على اعتبار المترجم له فقيها كما هو الشأن مع أبي بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي[5] (ت685هـ/1287م)[6]، ففي حين ذكر طالبه أنه فقيه[7] ووافقه في ذلك يحي بن خلدون[8] في قوله: أنه كان من أبرع الكتاب... ومعرفة بأصول بأصول الفقه؛ نقل ابن الخطيب[9]عن ابن الزبير (627-708هـ/1229-1308م) أنه " مشارك في أصول الفقه" على أنه تم اعتماده ضمن فقهاء تلمسان على اعتبار أن الرواية الأولى مدعمة من مصدرين مختلفي المورد، أولهما هي

---

[1]- للتفصيل ينظر: مقدمة ابن خلدون/ 410.

[2]- شوقي عبده الساهلي: المدخل لدراسة الفقه الإسلامي–نشأته، مراحل تطوره، أعلامه، مدارسه، مذاهبه، أدلة الأحكام، الحكم الشرعي، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مؤسسة علي الصباح للنشر والتوزيع، الكويت، 1989/ 152-207. موسى إبراهيم الإبراهيمي: المدخل إلى أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي، تقديم مصطفى سعيد الخن، دار عمار، شركة الشهاب، الجزائر، سلسلة دراسات إسلامية منهجية هادفة رقم 4، 1989/ 30-79. وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، ط1، دار الفكر الجزائر، دمشق، 1986، 417/1-716. 733/2-927.

[3]-للتفصيل ينظر: ابن خلدون: المقدمة/ 413. محمد جمال الدين القاسمي: الفتوى في الإسلام، تحقيق تحقيق محمد عبد الحميد القاضي، قصر التراث، البليدة، (دت)/ 41-43.

[4]- مصادر ترجمته: ابن مرزوق: المناقب/.

[5]- مصادر ومراجع ترجمته: خالد بن عيسى البلوي (ولد 713هـ/1313م- كان حيا سنة 767هـ/1365م): تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المملكة المغربية، الإمارات العربية المتحدة، (دت) 150/16-151. ابن الخطيب: الإحاطة، 426/2-433. يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 129/1. التنسي: المصدر السابق/127-128.ابن مريم: المصدر السابق/227. رابح بونار: "أبو بكر محمد بن داود كاتب يغمراسن"/21-27.

[6]- ابن الخطيب: الإحاطة، 433/2. وقد أورد يحيى بن خلدون (المصدر السابق، 129/1) تاريخا متقدما لذلك وهو عاشوراء سنة (636هـ/1238م) وعنه ابن مريم (المصدر السابق/227) على أنّه يؤخذ برواية ابن الخطيب للأسباب= =التالية: أن أبا عبد الله بن خميس المولود سنة (650هـ/1352م) طالبه (للتفصيل ينظر العبدري: المصدر السابق/15-17)، يضاف لذلك ما ذكره رابح بونار (للتفصيل ينظر: "أبو بكر محمد بن داود كاتب يغمراسن/23).

[7]- ينظر: العبدري: المصدر السابق/15.

[8]- المصدر السابق، 129/1.

[9]- الإحاطة، 426/2.

الأقدم زمنا ومعاصرة للمترجم له.

وكانت العوامل الشخصية و الموقف من الفلسفة من الأسباب التى تمنح فرصة للخصوم لمنافرة منتحليها من ذلك موقف الفقيه التلمساني أبي عبد الله بن هدّية[1] من بلديه أبي عبد الله بن خميس بحيث وصفه في شرحه لإحدى رسائله بجهل الفقه ومعاداة أهله[2]، مع إجماع جملة من الروايات[3] على فقهه. وفي حين تحددت مكانة بعض الفقهاء انطلاقا من تعمقهم في جملة من العلوم بما في ذلك الفقه[4]، طغت على البعض الآخر صفة الأدب والتاريخ كأبي زكريا يحي بن خلدون كاتب أبي حمو موسى الثاني ومؤرخ البلاط الزياني –الذي لا يعثر له في المجال الفقهي على أي أثر-أو في علوم بعيدة نسبيا عن الفقه كما هو الشأن مع أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أحمد العبدري المعروف بالآبلي (681-757هـ/ 1282-1356م)[5] "شيخ العلوم العقلية"[6] بالمغرب والذي أخذ عدد معابر من طالبة المغرب والأندلس[7]، مع العلم أنه درس الفقه وأصوله[8] إلا أنه لم يبرز كفقيه.

الأمر ذاته يصدق على الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن منصور بن علي بن النجار[9] (ت750هـ/1349م) «التعالمي نخبة وقته... [الذي] ساد أهل

---

[1]-أبو عبد الله محمد بن منصور بن هدية القرشي(ت 735هـ/1334م)، مصادر ومراجع ترجمته: يحي بن خلدون المصدر السابق،1/ 116. النباهي: المصدر السابق/ 134-135. ابن فرحون: المصدر السابق /288. ابن خلدون المصدر السابق،471/13. المقري: أزهار الرياض ، 48/5-49.

[2]- المهدي أبو عبدلي "أبو عبد الله محمد بن خميس"/9. وللتفصيل حول خلفية هذا الموضوع ينظر طاهر توات، ابن خميس/ 41 وما بعدها. المهدي أبو عبدلي، "أهم الأحداث الفكرية بتلمسان"/ 128-132. "أبو عبد الله بن خميس"/2-9. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990. 269/3-295.

[3]- ينظر ابن الخطيب، الإحاطة، 529/2. يحي بن خلدون، المصدر السابق، 86/1، 109، 208. السيوطي، بغية الوعاة، 201/1.

[4]- للتفصيل ينظر صابرة خطيف: المرجع السابق/270 ومابعدها.

[5]- مصادر ومراجع ترجمته: يحي بن خلدون: المصدر السابق، 85/1، 120. ابن مرزوق: المسند/ 226-227، 138. ابن خلدون: المقدمة، 295-296، 307-308. العبر، 189/13-190، 196-201، 483-484. التعريف/ 21-22، 33-38، 45. الرصاع: فهرست الرصاع ، ط1، المكتبة العتيقة، تونس، 90/1967 وما بعدها. الونشريسي: المعيار، 479/2-481. 175/12. القرافي: المصدر السابق، /243-244. ابن القاضي:. جدوة الاقتباس/191-192. التنبكتي: المصدر السابق/224 وما بعدها. المقري: أزهار الرياض، 60/5-66. نفح الطيب، 273/5 وما بعدها.

[6]- ابن مرزوق: المسند/266. ابن خلدون: التعريف/21.

[7]- ينظر: ابن الخطيب: الإحاطة، 443/3-444. يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 120/1. ابن مرزوق: المسند/266. ابن خلدون: التعريف/47. الرصاع: المصدر السابق/90، 130، 164. التنبكتي: المصدر السابق/416، 464، 468. المقري: أزهار الرياض، 61/5. نفح الطيب، 274/5.

[8]- ابن خلدون: التعريف/22، 37-38.

[9]- مصادر ومراجع ترجمته: يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 119/1. ابن مرزوق: المسند/366-المسند/366-308. ابن خلدون: التعريف/47. الونشريسي: الوفيات/118. القرافي: المصدر السابق/242-243. ابن القاضي: جذوة الاقتباس/190. لقط الفرائد/ 200.التنبكتي: المصدر السابق/404-405. ابن مريم: المصدر السابق/153-154. المقري: أزهار الرياض، 51/5-53، 56. نفح الطيب، 236/5-238. عباس بن إبراهيم المراكشي: المرجع السابق، 263/3-265.

زمانه في العلوم المعقولة مع شعر نبيل وكتابة رائقة[1]. على أن ما يمنح الثقة الثقة في التعامل مع تلك التراجم على اعتبارها لفقهاء راجع إلى المصادر الأولية للدراسة التي لم تطلق هذه النسبة "فقيه على كل من ترجمت أو أشارت له، يؤكد ذلك نسبة بعض الأعلام "للمشاركة في الفقه"[2] بدلا من اعتبارهم فقهاء، ويأخذ الباحث بما ذهب إليه أحد الدارسين[3] من أن الأساتذة الأساتذة هم الذين كانوا يمنحون لطلبتهم هذا اللقب بعد تحصيل قدر من المعارف، على رأسها الفقه. ويمكن أن نختم عملنا بمايلي:

جلّ المصنفات التى تم التعامل معها صدرت عن علماء دين ما يعكس صورة العالم في العالم الإسلامي والقائمة على علوم الدين كمعبر أساسي وأولي لمواصلة الحياة العلمية أو العملية، وهو مايبرر الحضور الكمي لتراجم هذا الصنف من العلماء. أن نسبة كبيرة من مادتنا الأولية عن علماء تلمسان قد أمدتنا بها مصادر زيانية معاصرة، أو لها علاقة بالبلاط وعلماء الحاضرة بحيث شكلت معطيات من حقل معرفي واجتماعي وسياسي واحد، وللحقل نفسه، وهذا لايخلو من إيجابيات كما أنه لايفتقر لسلبيات.

---

(1)- يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 119/1. وأكدت العديد من الروايات على مكانته في "التعليم" ينظر ابن مرزوق: المسند/306. ابن خلدون: التعريف/47. الونشريسي: الوفيات/118.

(2)- ابن عبد الملك: المصدر السابق، السفر الثامن، القسم الأول، /270. يحيى بن خلدون: المصدر السابق، 103/1.

(3)- محمد منير سعد الدين: العلماء عند المسلمين مكانتهم ودورهم في المجتمع، ط1، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1992/ المرجع السابق/182.

عيسى بن مسكين
والتراجم المالكيّة

أحمد الأسود
جامعة جندوبة/تونس

صنّف المالكيون في إفريقيّة مؤلّفات عديدة في الطبقات والتراجم، ابتداء من أبي العرب التميمي (ت 333 هـ/ 944 م) ومحمد بن الحارث الخشني (ت361هـ/971م)، ثمّ المالكي (ت بعد 449 هـ/ 1057م)، وكذلك الدّباغ (ت 696هـ/ 1296م) في كتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان"، الذي نقّحه وأضاف إليه القاضي المالكي ابن ناجي (ت 839 هـ/ 1435م). وقد أغفلت أغلب هذه المؤلّفات وخاصّة منها كتاب أبي بكر المالكي،"**رياض النفوس في طبقات علماء القيروان و افريقية وزهادهم و نساكهم وسيّر من أخبارهم وفضائلهم و أوصافهم**"، التعريف بأحد أبرز فقهاء "السنّة" في إفريقيّة في القرن III هـ/ IXم، وهو القاضي عيسى بن مسكين. فلا يظفر الباحث بمعلومات وافية عن هذه الشخصيّة إلاّ في طبقات علماء افريقيّة للخشني ومؤَلّف القاضي المالكي السبتي المغربي، عياض بن موسى (ت 544هـ/1149م)، "ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك"، الذي جمع شتاتا من الروايات والأخبار عن عيسى بن مسكين، من مصادر مختلفة.

فالإشكاليّة المطروحة برأينا، هي لماذا لم يُعر الأفارقة من المالكيّة مكانة هامّة لابن مسكين في طبقاتهم؟! فهل يفسّر ذلك بما نشره عيسى بن مسكين من أحاديث لا تتماشى والمذهب المالكي؟ أو بكون عيسى قبل القضاء في ظلّ أمير جائر؟ أو لأنّه كان يتبنّى آراء مخالفة لمذهب مالك؟ !

I- تكوين عيسى بن مسكين وما جاء عنه من أحاديث:

ولد عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج بن محمد الإفريقي بالساحل، وهي منطقة وصفها اليعقوبي كأوّل جغرافي زار إفريقيّة في النصف الثاني من القرن IIIهـ/ IXم قُبيل سقوط الإمارة الأغلبيّة، حيث قال:" وممّا يلي القبلة من القيروان بلد يقال لها الساحل ليس بساحل بحر كثير السواد من الزيتون والشّجر والكروم وهي قرى متّصلة بعضها في بعض ولهذا البلد مدينتان يقال لإحداهما (سـه) والأخرى قبيشة، ومن بلد الساحل إلى مدينة يقال لها سفاقس،... وهي على ساحل البحر... وهي آخر بلد الساحل*..."[1].

---

[*]- يتطابق مجال الساحل في القرن 2هـ مع مجال ولاية صفاقس اليوم وكان يمتدّ إلى مجال ولاية المهدية (أنظر أحمد الباهي ، سوسة والساحل في العهد الوسيط، مركز النشر الجامعي، 2004، ص ص 126- 127).

[1]- اليعقوبي (أحمد ابن أبي يعقوب)، **كتاب البلدان**، ليدن، 1892، ص 350.

وقد عرفت هذه المنطقة، التي تحوّلت إلى كورة قائمة الذّات في العهد الأغلبي، أدار شؤونها علي بن أسلم البكري، جدّ أبي إسحاق الجبنيانِي[1]، بغراسة الزيتون. ولد عيسى بن مسكين، كما يؤكّد ذلك محمود مقديش (1742- 1813م) استنادًا إلى نقيشة كانت معروفة في عصره[2]، في أوّل شهر رمضان 213هـ/828م. أمّا القاضي عياض فيثبت ميلاده سنة 214 هـ/ 829 م، وقد يكون الأفضل الاحتفاظ بهذا التاريخ الأخير. ينتمي عيسى بن مسكين في الأصل إلى أسرة إفريقيّة أعجميّة مسيحيّة، والى جدّ أبيه (جريج) قريشا[3]. فكان ينتمي حينئذ إلى النخبة الإفريقيّة من الأعيان الأثرياء الذين ارتبطوا بعلاقات حلف مع القبيلة العربيّة القوّية آنذاك وهي قريش، ممّا كان يمتّعهم بحماية ونفوذ.

عمل والده منذ صباه على تعليمه كعادة الأعيان آنذاك[4]. سمع عيسى بن مسكين من فقهاء الساحل أساسا مثل سحنون وابنه محمد[5]، وكذلك من أبي خارجة عنبسة الغافقي[6] ومن عبد الرحيم بن عبد ربّه الزاهد[7]، إلاّ أنّ علاقة عيسى بن مسكين بسحنون وابنه كانت هي الأهمّ، حتّى عدّ عيسى من رجال سحنون[8]. وقد رحل عيسى بن مسكين إلى الشام فسمع من أبي جعفر الأيلي، وإلى مصر فسمع من الحارث بن مسكين ومحمد بن المواز ومحمد بن عبد الرحيم البرقي ومحمد بن عبد الحكم ومحمد بن سنجر الجرجاني (ت258هـ/ 871م)، ويونس الصدفي وعلي بن عبد العزيز[9]، ومن سعيد بن حسّان البرلسي[10]، غير أنّ اتصاله بعلماء الصعيد المصري ومنهم محمد بن عبد الله بن سنجر كان الأكثر تأثيرا في تكوينه، إذ نقل مسنده إلى افريقيّة. وقد عرف علماء الصعيد وأسوان بانقطاعهم عن الحواضر وانعزالهم إلى الزهد والتصوّف[11]. وقد يكون ذهب إلى المدينة حيث التقى بالزبير بن بكّار وأخذ عنه [12].

---

[1]- اللبيدي الحضرمي، **مناقب أبي إسحاق الجبنياني**، تحقيق هادي روجيه آدريس باريس 1959 ص3-4.
- القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، تحقيق جماعي، المملكة المغربيّة،ج4، ص 406.

[2]- مقديش (محمود)، **نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار**، تحقيق علي الزواري ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988، ج2، ص 246.

[3]- القاضي عياض، **ترتيب المدارك**، ج4، ص 331: "أصله من العجم"، تعني عبارة أعجمي في بلاد المغرب في هذه الفترة، المسيحي- اللاّتيني.

[4]- **نفس المصدر**، ص344

[5]- **نفسه**، ص 331.

[6]- المالكي (عبد الله بن محمد)، **رياض النفوس**، تحقيق البشير البكوش، 1983، ج2، ص 244.

[7]- الخشني (محمد بن الحارث)**طبقات علماء أفريقيّة**، تحقيق محمد بن شنب الجزائر1914 ص 112

[8]- المالكي، **رياض النفوس**، ج2، ص 48.

[9]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص ص 331- 332.

[10]- الخشني، **طبقات علماء إفريقيّة**، ص 121 وص 142.

[11]- **نفسه**، ص 142: "نزل ابن سنجر الصعيد هربا من غلاء الحياة بالفسطاط".
- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص ص 41- 42.

[12]-أبوالعرب التميمي **كتاب المحن** تحقيق يحي وهيب الجبوري دار الغرب الإسلامي 1983 ص232
- شواط (الحسين بن محمد)، **مدرسة الحديث في القيروان**، الدار العالميّة للكتاب الإسلامي، الرياض،1411هـ/1990 م، ج2، ص 684: نستبعد أن يكون عيسى بن مسكين قد رحل إلى مصر

وإن كان التقاؤه بعلماء مصر ومنهم الحارث بنمسكين (ت 250 هـ/864م)، الذي ولاه المتوكّل على مصر، وأمره أن يطرد أهل الأهواء كما فعل سحنون في إفريقيّة[1]، كان يكفيه عن الذهاب إلى أكثر من ذلك.

ويبدو أنّ ابن مسكين قد استقرّ بقريته حال عودته من المشرق، وانعزل باستثناء زياراته المؤكّدة إلى القيروان، حيث أنّه قد يكون حدّث في جامع القيروان ودّرس به، باعتباره كان أستاذ أبرز علماء القرن IVهـ/ X م مثل أبي العرب التميمي وأبي الحسن الكانشي، وغيرهم كثير[2].

يعتبر عيسى بن مسكين من أهمّ رواة إفريقيّة في القرون الإسلاميّة الأولى، فقد اعتبر ابن مسكين أروى المالكيّة في إفريقيّة للكتب والحديث[3]، روى ابن مسكين عن مصادر مختلفة سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة ومن أبرز مصادره: محمد بن عبد الله بن سنجر المصري، وسحنون وابنه. كما كان مصدر رواية لغيره سيما فيما يخصّ بعض الشخصيات التي عاصرها أو خالطها لفترة مثل عبد الله بن أبي حسان اليحصبي[4]، وسحنون[5] (ت240هـ/ 854 م)، وعنبسة بن خارجة الغافقي[6] (210هـ/825م)، وكذلك عبد الرحمان بن زياد بن أنعم[7] (ت161هـ/777م). وقد حافظ تلاميذه ومعاصروه على بعض ما رواه في بعض ما كتبوا، وإن كان ضاع منها الكثير مثل كتاب سليمان بن سالم القطان قاضي عيسى بن مسكين على صقليّة[8]. ويبقى الخشني، وأبو العرب أهمّ من نقلوا عن عيسى بن مسكين. وتظلّ بعض رواياته عن أحداث الفتح ذات أهميّة، وقد وردت خاصّة في طبقات أبي العرب[9]، وهي أخبار قد نقلها في الواقع عيسى بن مسكين عن سحنون وعن ابن أنعم وابن أبي حسان اليحصبي. إلاّ أنّ ما نقله عيسى بن مسكين عن ابن سنجر الصعيدي المصري، هي استثنائيّة ومتميّزة، وقد طرح أبو العرب أغلب هذه الروايات في كتاب "المحن". فقد أورد روايات كثيرة

سنة 224 هـ/ 838 م. فذلك مستحيل باعتبار صغر سنّه وقد يكون بدأ رحلته سنة 234هـ/848 م، ولم يلتق بابن سنجر إلاّ في رحلته الثانية سنة 258هـ/ 871 م.

1- **القاضي عياض، المصدر نفسه،** ج4، ص ص 31- 32.

2- **نفسه،** ص 332.

3- الدباغ وابن ناجي، **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان،** تحقيق جماعي، المكتبة العتيقة، تونس، 1968، ج2 ، ص 83 :"وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث وأشدّهم وقارًا وتصاونا".

4- المالكي، **رياض النفوس،** ج1، ص 286.

- الدباغ وابن ناجي، **معالم،** ج2، ص 59 :"قال عيسى بن مسكين: كان ابن أبي حسان (ت226هـ/840م)، يعطي الرّجل ثلاثة دراهم يأخذ له مجلسا يجلس فيه بالقرب من مجلس مالك...".

5- المالكي، **رياض النفوس،** ج1، ص ص 246- 247 :"قال عيسى بن مسكين: ولد سحنون في قرية يقال لها مزنانة الشرق وأعرف البيت الذي ولد فيه، وتوفي في رجب لسبعة أيام مضت منه قبل صلاة الظهر سنة أربعين ومئتين".

6- المالكي، **نفسه،** ج1، ص ص 243- 245.

7- **نفسه،** ج1، ص 157.

8- القاضي عياض، **ترتيب،** ج4، ص 356.

- الدباغ وابن ناجي، **معالم،** ج2، ص 206 :"له تأليف في الفقه يعرف بالسليمانية".

9- أبو العرب، **طبقات،** ص ص 1، 15، 16.

عن مقاتل بعض المسلمين في بداية الإسلام، كمقتل عثمان، وحُجر بن عدي والطالبيين... وكان في أكثرها ينقل عن المصريين وسحنون وما يلفت في هذه الروايات ثلاث مسائل:

أ- مقتل أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث الأنصاري[1]:

وهي حادثة اختصّ بن مسكين بروايتها في إفريقيّة، ونعتقد أنّ المالكيين لم يكونوا متحمّسين لمثل هذه الرواية، باعتبارها تثير إشكاليات ثلاث:

– سماح النبيّ لهذه المرأة بأن تؤم أهل دارها، وكان لها مؤذّن.
– أن هذه المرأة جمعت القرآن في عهد النبيّ.
– قتلت في خلافة عمر بن الخطاب على يد جاريتها... !!!

ب- مقتل سعد بن أبي وقاص والحسن بن علي[2]:

هذه الرواية تطرح تساؤلات، حيث كان يصعب على أعيان المالكيّة ترديدها إذ أنّ الإشارة إلى قتل صحابي من قبل صحابي آخر بالسّمّ، وليس في مواجهة عسكريّة، كان من شأنه أن ينشر البلبلة في صفوف هذا التيار الذي نعرف أنّه إلى اليوم متمسّك بالأرثوذكسيّة.

ج- مقتل النفس الزكيّة(محمد بن عبد الله بن الحسن) سنة145هـ/762م:

ينقل عيسى بن مسكين في هذه الرواية عن الزبير بن بكار الزبيري (ت 256 هـ/ 869م) والتي مفادها : أنّه "لما خرج محمد بن عبد الله بن الحسن، لزم مالك بيته لم يخرج منه حتى قتل محمد"[3]، فهذه الرواية هي أيضا قد تثير إشكالا من حيث أنّها تلقي الضوء على موقف مالك من حركة النفس الزكيّة. ولقد نقل أبو العرب روايات كثيرة عن محن العلويين، كان أكثرها مأخوذًا عن عيسى بن مسكين، وهو ما يمكننا من القول بشيء من الثقة أنّ ابن مسكين لم يكن من رموز المالكيّة الخالصين ولم يكن فعليا منخرطا معهم في التزام سياسي أو فكري. في المقابل، روى عيسى بن مسكين أحاديث "نبويّة" مختلفة عن إفريقيّة[4] وعن مقتل عثمان، وعن مقتل عمار بن ياسر[5]، وكان ذلك ذلك عن سحنون وابن سنجر، ومن الأحاديث أو الأقوال المنسوبة إليه : "منّهُ القديم، أن جعلك في اللوح المحفوظ مسلما، وفضله العظيم أن جعلك من أمّة محمد عليه الصلاة والسلام"[6]. لا نريد الآن الحديث عن هذا القول، فلنا إليه عودة.وهكذا، يبدو أنّ ما عرف عن عيسى بن مسكين من روايات وأحاديث

1- أبو العرب التميمي، **كتاب المحن**، ص 230.
- ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، 1958، مج 8، ص457.

2- أبو العرب التميمي، **كتاب المحن**، ص 254 وص144 :"وقد سمى عيسى بن مسكين في روايته الذي سقاهما...".

3- أبو العرب التميمي، **كتاب المحن**، ص 232.

4- أبو العرب التميمي، طبقات، ص ص 43، 48، 69، 50، 51.

5- أبو العرب، **كتاب المحن**، ص ص 42- 43- 49 وص 99 :"تقتله الفئة الباغيّة".

6- المالكي، **رياض النفوس**، ج2، ص 451.

وهي لا تتماشى مع الذهنيّة المالكيّة المحافظة واللائذة بالصمت إزاء كلّ ما يثير اللّغط والجدال.

II- ولايته للقضاء في ضلّ أمير جائر:

تولى عيسى بن مسكين القضاء سنة 280 هـ/ 893م للأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد، وقد ظلّ قاضيا إلى 289 هـ/ 902 م[1]. لم يكن الرّجل مهيّئا بحقّ، لتوليّ القضاء، فقد عرف بتواضعه وصمته وحبّه للعزلة[2]. ولكن هناك عوامل موضوعيّة وذاتيّة ساهمت في توليه هذا المنصب الخطير، فقد كانت إفريقيّة في هذه الفترة تحت سلطة أمير مستبدّ ودموي وذي مزاج سوداوي متقلّب[3]. ورث إبراهيم بن أحمد الإمارة عن أخيه أبي الغرانيق محمد بن أحمد، وكانت الدولة في حالة إفلاس، حيث أنفقها أبو الغرانيق في اللّهو والطرب والتراخي عن جمع الضرائب، "فلّما مات لم يجد إخوته في بيت المال شيئا"[4]. وهكذا فقد تعرّضت إفريقيّة في عصر إبراهيم بن أحمد إلى اضطرابات وأزمات فمن ذلك: مجاعة سنة 266هـ/879م، حيث بلغ قفيز القمح 8 دنانير[5]، ثمّ الحرب مع الطولونيين، في طرابلس حيث اضطرّ لضرب حليّ نسائه نقودًا[6]. وقد شهدت إفريقيّة بداية من سنة 268هـ/881م إلى نهاية حكمه ثورات متتالية واجهها الأمير بالعنف والتقتيل[7]. ولقد عمل الأمير الأغلبي على واجهتين:

- أوّلا: إصلاح نقدي، كان يراد منه التقليص من تحايل التجار على الجباية في الأسواق وعلى السّكان، وذلك بأن قام بتعويض أجزاء الدرهم، بقطعة واحدة معرّفة القيمة، فكان أن ثار عليه تجار القيروان[8] سنة 275 هـ/ 888 م.
- ثانيا: سعى إلى تنظيم الخراج وإلزام كبار الملاّكين بذلك، فكان أن ثارت ضدّه الإستقراطيّة العقاريّة الممثلة خاصّة من أشراف العرب في الكور والأقاليم[9]. هذه الأوضاع المضطربة كان لها تأثير في القصر الأميري، حيث كثرت الدسائس ضدّه من قبل أعوان القصر والخدم الصقالبة[10].

1- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 350.
- الطالبي (محمد)، **الدولة الأغلبية**، تعريب المنجي الصيادي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1995، ص 310.

2- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 333، ص 337.

3- ابن عذاري المرّاكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تونس، بيروت، 1983، ج1، ص 132: هذه الحالة قد تكون مبالغ فيها لأنّ ليس في أعمال هذا الأمير ما يوحي حقيقة بالمرض.

4- النويري (شهاب الدين أحمد)، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق حسين نصار، القاهرة، 1983، ج 24، ص ص 125- 127.

5- ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص 117.
- النويري، **نهاية الأرب**، ص 130.

6- ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص ص118- 119.

7- **نفسه**، ص ص 120- 133.

8- ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص ص 120- 121.

9- **نفسه**، ص ص 123- 124- 129.

10- النويري، **نهاية الأرب**، ص 131.

فقد كان توليه الإمارة نوعا من الانقلاب على وصيّة أخيه، وقد كان "القصر" معارضا له(1)، ولهذا خيّر الانتقال إلى رقادة التي انتهى من بنائها سنة 263 هـ/ 867م(2). وفي خضمّ هذا اليأس والخوف والقلق اندرج إبراهيم في قتل كلّ من يتوجّس منه الشرّ. فقد قتل حاجبه وكاتبه وطبيبه وفتيانه، وحتى البعض من بناته بعد ثورة الصقالبة سنة 278 هـ/ 891 م، اللّواتي كنّ بالتأكيد من أمّهات صقلبيات(3)، فكان تعيين عيسى بن مسكين على القضاء، يستجيب لأهداف إبراهيم بن أحمد في الإنتقام من معارضيه. وقد عبّر الرقيق كما نقل ذلك النويري عن سياسة الأمير الأغلبي فقال:" كان أنصف الملوك للرعيّة، لا يردّ عنه من ظلم يأتيه... وكان يقصد ذوي الأقدار والأموال فيقمعهم ويقول: لا ينبغي أن يظلم إلاّ الملك، لأنّ هؤلاء إذا أحسّوا من أنفسهم قوّة بما عندهم من الأموال لم يؤمن شرّهم وبطرهم...، أمّا الرعيّة فهم مادّة الملك..." (4) و"كان يهدّد أعيان القيروان وحتّى أقرب النّاس إليه (أمه) بالمثول أمام عيسى بن مسكين"(5).

وهكذا جاء اختيار عيسى بن مسكين لما رأى إبراهيم بن أحمد، أنّ الرّجل مفيد له في تنفيذ سياسته وفي استقطاب العامّة باعتبار انتشار المذهب المالكي لدى العامّة(6). فالأمير إبراهيم بن أحمد كان يستقطب الصوفيّة والعامّة إليه كما أورد ذلك القاضي عياض كان :" يتقرّب إلى المتصوّفة من نوع أحمد بن معتّب..."[7] (تـ 277هـ/890 م)، الذي كان ساعد إبراهيم بن أحمد على تهدئة الناس بعد ثورة الدراهم[8]. كما أنّ عيسى بن مسكين وجد في هذا التعيين ما يزيح عن أهل السنّة بعض من مظالم ابن عبدون القاضي الحنفي(9). وإن كنا نعتقد أنّ رأس المالكيّة يحي بن عمر (ت- 289هـ/910 م) قد رفض القضاء فعلا، كما تقول الأخبار(10)، فإنّ الرواية التي تقول أنّ الأمير الأغلبي وضع السيف على رقبة عيسى بن مسكين(11) لإجباره على

---

[1]- ابن عذاري، **البيان**، ص 116.

[2]- **نفسه**، ص 117.

[3]- النويري، **نهاية الأرب**، ص 131.

[4]- النويري، **نهاية الأرب** ، ص 139.

[5]- **نفسه** ، ص 140.

[6]- **نفسه**، ج 24، ص 144: "وولى أبا العباس محمد بن الأسود الصديني، قضاء القيروان... وهو يظهر القول بخلق القرآن فكرهه العامّة".

- ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص 119 :"سليمان بن حفص الفرّاء كان جهميّا يقول بخلق القرآن ودعا الناس إليه فهمّوا بقتله".

[7]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 355 وص 356: كان إبراهيم بن أحمد يكتب إليه: "إلى أخي في الإسلام وشقيقي في المحبّة" !!! (ذلك هو التوظيف السياسي للتديّن).

[8]- ابن عذاري، **البيان**، ج1، ص ص 120- 121.

- الطالبي، **الدولة الأغلبيّة**، ص 315.

[9]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 336.

[10]- الخشني، **المصدر السابق**، ص 142.

[11]- القاضي عياض، **ترتيب** ، ج4، ص ص 334- 335.

القضاء، مبالغ فيها. وعلى كلّ، كان هناك دافع موضوعيّا لدى الأمير الأغلبي في توليته لعيسى القضاء، كما أنّ لهذا الأخير غاية في قبوله لهذا المنصب.

تقول الروايات أنّ عيسى بن مسكين قبل ولاية القضاء، مقابل شروط ألزمها على الأمير حيث قال :"أن أستعفيك في كلّ شهر، أحملك على الحقّ وبنو عمك وجندك وفقراء الناس وأغنيائهم، في درجة واحدة"[1]، وأن "لا توجّه ورائي، ولا أهنئ ولا أعزّي، ولا أشيّع ولا أتلقى، فمتى لم تفِ لي بشرط عزلت نفسي"[2]. ثم أنّه لم يكن يقبل شيئا من الأمير الأغلبي و"إنّما يعيش بدقيق يأتيه من منزله ويخبزه بنفسه ومن بقل وشيء يأتيه من البادية"[3]. فكان يرفض راتب السلطان كما كان يفعل قبله سحنون[4]. لم يكن يكن عيسى بن مسكين مطلق اليدين في قضائه، وإنّما جعل الأمير إلى جانبه كاتبه وهو مولى الأغالبة، عبد الله بن محمد بن المفرّج المعروف بابن البناء (تـ 303هـ/915 م)، الذي كان "يحكم ويفصل بين الحضور، وابن مسكين ساكت"[5]. فقد قال الأمير لابن البناء :"أمض، ولا تعلم أحدًا بما بيني وبينك، وبينك، فإذا حضر الخصمان فأفصل بينهما بغير مذهبه، حتى ترى"[6]. لقد استفاد الأمير الأغلبي، ممّا يمكن تسميّته بغفلة عيسى بن مسكين، للتدخّل في القضاء والتحكّم فيه بما يريد. فالرجل لم يكن سريع البديهة ولم يكن يتقن الكلام الطليق[7]. زيادة على ذلك، يبدو أنّ الأميرّ، حسب بعض الأخبار، كان كان يقيم مجالس القضاء في القيروان، أسبوعيّا[8]

ولكن ابن مسكين، تصدّى للأمير الأغلبي عندما أصرّ على إطلاق سراح بعض سبايا تونس، ممّن سباهم أحد المقرّبين من الأغالبة[9]سنة 281هـ/894م في المقابل، لم يف الأمير بوعده لابن مسكين في محاسبة القاضي بن عبدون (ت 297هـ/909م) الذي كان نكّل ببعض المالكيين[10]. وقد يكون استقال من

---

[1]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 336.

[2]- **نفسه**، ص 337.

[3]- **نفسه**، ص 341.

[4]- **نفسه**، ج4، ص59.

[5]- **نفسه**، ص 337.

[6]- **نفسه**، ص337. نؤكّد فيما بعد على المذهب الذي يعنيه الأمير الأغلبي.

[7]- **نفسه**، ص 349.

[8]- ابن الأثير (أبو الحسن علي)، **الكامل في التاريخ**، تحقيق مكتب التراث، مؤسّسة التاريخ العربي، بيروت 1994، ج4، ص460.

- النويري، **نهاية الأرب**، ج 24، ص 139: كان عسى بن مسكين في رقادة وهي العاصمة السياسيّة، وكان إبراهيم بن أحمد يقضى في جامع القيروان. (المدارك، ج4، ص 341).

- الطالبي (محمد)، **الدولة الأغلبيّة**، ص 310.

[9]- مجهول، **العيون والحدائق في أخبار الحقائق** تحقيق عمر السعيدي دمشق 1972، ج4 ق1ص 85 85

- القاضي عياض، ترتيب، ج4، ص 340.

- الطالبي (محمد)، **المرجع نفسه**، ص 340.

[10]- الخشني، **المصدر نفسه**، ص 237.

- **القاضي عياض**، ترتيب، ج4، ص 356.

القضاء في شهر ربيع الأوّل 289هـ/901م، لمّا علم بتنازل إبراهيم بن احمد لابنه أبي العبّاس المعروف باعتزاله[1]. لقد كان عيسى بن مسكين أداة في يد يد الأمير المستبدّ، أمّا هو فقد كان يخالُ أنّه خلص المالكيّة من جبروت بن عبدون[2]. لم يكن عيسى بن مسكين في مستوى الأحداث التي كانت تمرّ بها إفريقيّة في أواخر القرن IIIهـ/ IXم. وقد يكون ضعف شخصيّته و"غفلته" من عوامل تناسي المالكيّة له !!!

إنّ قبول عيسى بن مسكين للقضاء في ظلّ أمير ظالم لم يكن يتماهى مع أطروحات المذهب المالكي التي كانت تتمسّك عامّة بالإبتعاد عن خدمة السلطان الجائر، فالإمام مالك كان قد دعّم بن فرّوخ في فتواه التي تقول :"لا ينبغي للقاضي إذا ولاّه أمير غير عدل أن يلي"[3].

III- كيف نقرأ غياب عيسى بن مسكين في رياض النفوس ومعالم الإيمان؟

1- عيسى بن مسكين وإشكالية التصنيف"الطبقي"عند المالكي وابن ناجي:

قسّم المالكي كتابه إلى خمس طبقات من الفقهاء والعلماء والزّهاد، وذلك دون اعتبار طبقة أصحاب النبيّ ممّن ورد إفريقيّة إبّان الفتوحات. وقد ظهر من تصنيف المالكي أنّه لم يدقّق في تواريخ وفيات البعض ممّن جمعهم في طبقة واحدة، كما أشار إلى ذلك الأستاذ البشير البكوش[4]، وإنّما عمل على على تجميع الرجال بحسب جيلهم وتقاربهم في المذهب، فقد جعل يحي بن سلام التيمي (ت 200هـ/815م)، ضمن طبقة عبد الرحمان بن زياد بن أنعم، والحال أنّه كان يجب أن يكون ضمن طبقة البهلول بن راشد(183هـ/799م). والإشكال الآخر، هو أنّ المالكي تناسى الكثير من علماء إفريقيّة ونسّاكهم في طبقتي سحنون ومحمّد ابنه خاصّة. وقد توقف التصنيف الطبقي في رياض النفوس عند طبقة محمّد بن سحنون (ت 256هـ/869 م) التي جعل المالكي ضمنها شخصيات توفيت سنة 284هـ/897 م ! ثمّ اتّخذ المالكي إطارا زمنيّا لترجمة رجاله على أساس سنة الوفاة وذلك بدءا من سنة 284 هـ/897م واللاّفت للنظر أنّ مؤلّف رياض النفوس يذكر سنتي 294 هـ و296 هـ، ويسرد المتوفين في تلكم السنتين، ولكنّه يقفز عن سنة 295 هـ /907م، وهي سنة وفاة عيسى بن مسكين، وكأن لا أحد توفي في هذا التاريخ !!!

---

[1]- النويري **نهاية الأرب**، ج 24 ص144 توفي ابراهيم بن أحمد في شهر ذي القعدة 289 هـ/ 901م. 901م.

- مجهول، العيون، ص 97.

[2]- الخشني، **طبقات علماء إفريقيّة**، ص 187:"كان إبراهيم بن أحمد يقول بعد عزله له (لابن عبدون)، لو ساعدته لجعلت له مقبرة على حدة".

- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 336: "فخاف إن ولي ابن عبدون أن يظهر البدعة ويهين أهل السنّة".

[3]- المالكي، رياض، ج1، ص 178- 179.

[4]- المالكي، **رياض**، ج1، ص 29 م.

وقد حاول ابن ناجي، في معالم الإيمان سدّ الفراغ الذي تركه المالكي، وذلك بإضافة عديد الشخصيات التي كان منها علماء وزهّاد. وعلى عكس رياض النفوس، فإنّ المعالم هو كتاب تراجم حرص مؤلّفه، بعد ذكر الصحابة والتابعين، على ترتيب المترجمين زمنيّا من الأقدم وفاة إلى الأحدث.غير أنّ بن ناجي ومن ورائه الدبّاغ، وإن أشارا إلى وفيات سنة 295 هـ/907 م، فإنّهما تغاضا عن ذكر عيسى بن مسكين !

وإن كان يمكن أن يذهب في ظنّ البعض أنّ الدبّاغ خصّص في الأصل تراجمه للتعريف بعلماء مدينة القيروان حصريّا، بناءا على ما جاء في "رحلة العبدري"[1]، فإنّ هذه الملاحظة تكاد تكون معقولة، لو لا أنّ الدبّاغ كان ترجم لعنبسة الغافقي وهو من علماء الساحل وعلي بن زياد العبسي وهو من علماء تونس. علاوة على ذلك فإنّ بن ناجي قد خرق هذه القاعدة، إنّ سلّمنا بوجودها، وترجم لأبي إسحاق الجبنياني، وغيره كثير ممّن لم تطأ قدمه القيروان. فتلكم إذا حجّة لا يمكن الاعتداد بها.

إنّ المتفحّص لكتابي **رياض النفوس** و**معالم الإيمان**، يلاحظ بعكس، ما تصرّح به العناوين، أنّ غالبيّة التراجم في الرياض، إبتداء من القرن الثالث هجري، هي مالكيّة. فقد حاول المالكي التخلّص من كلّ من حامت حوله شبهات "القدر" أو "الإرجاء" أو "الخارجيّة". فلم يذكر مثلا محمّد بن يحي بن سلام (ت 262 هـ/875 م) ولم يذكر معمر بن منصور وهو من طبقة سحنون، وكان مرجئا[2]...

وإن أقدم على ذكر البعض، فإنّه تغاضى عن ميولاتهم "الهرطقيّة"، فلم يورد في ترجمة البهلول بن عمر بن صالح التُجيبي (ت 234هـ/848 م)، أنّه من القائلين بخلق القرآن[3]، ولم يشر إلى أنّ معاوية الصمادحي (ت 199 هـ/ 814 م) كان يرمى بالصفريّة[4]. كما لم يذكر عن أصحاب محمّد بن عبدوس قولهم بالإستثناء أو الوقف في الإيمان، مثل محمد بن بسطام الضبي[5]، وحمّاس بن مروان الهمداني الذي كان هو أيضا من أتباع محمّد بن عبدوس[6]، وكذلك لقمان بن يوسف الغسّاني[1]. فقد قام المالكي بإعادة النّظر في

---

[1]- العبدري (محمد بن محمد)، **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، دار سعد الدّين، 1999، ص 165- 166 : فعن سؤال العبدري للدباغ عن عدم ذكر أبي الحسن اللّخمي، أجاب :"لم يثبت عندي أنّه دخل القيروان"

[2]- أبو العرب، طبقات، ص ص 113- 114.

[3]- نفسه، ص 91.

- المالكي، **رياض**، ج1، ص ص 281- 282.

[4]- أبو العرب، **طبقات**، ص 80.

[5]- الخشني، **طبقات**، ص ص 147- 148.

- المالكي ، **رياض النفوس**، ج2، ص ص 181-182.

[6]- الخشني، **طبقات**، ص 153 : وقد كان الوحيد الذي شهد على براءة محمد بن عبدوس في مسألة الإيمان، وكان بعد ذلك قاضيا لزيادة الله الثالث (290هـ - 294 هـ / 902 م - 906 م) في ظرف سياسي حرج.

- المالكي، رياض، ج2، ص ص 118-122.

في سير فقهاء السنّة قبل سحنون وبعده، فأقدم على طمس كلّ الشوائب التي كانت تحيط بسيرة هؤلاء. وكان توسّعه في التعريف بالزهّاد والنساك والعباد، هو اعتراف منه بدور هؤلاء الذين دعّمهم سحنون وابنه[2] ، في انتصار المذهب المالكي على الشيعة وعلى أصحاب الرأي في القرن الخامس هجري.

يرى الأستاذ البكوش[3] أنّه من المحتمل أن تكون هناك نسخة موسّعة من الرياض يكون استفاد منها القاضي عياض في تراجمه. قد يكون البكوش على حقّ، إذ نجد شخصيات في المدارك لا توجد في الرياض، وقد استند القاضي عياض في ترجمتها على أبي بكر المالكي[4]. ولكن، لم يكن المالكي المصدر الأساسي للقاضي عياض، إذ هو يعتمد في تراجم الأفارقة على الخشني وأبي العرب التميمي الذي لم تصلنا إلاّ قطعة ضامرة من طبقاته، أمّا في ترجمة عيسى بن مسكين فلم يلمّح القاضي عياض إلى المالكي، وهو ما يؤكّد أنّ المالكي لم يترجم إطلاقا لعيسى بن مسكين. لقد صنّف المالكي كما قلنا طبقاته وفق عامل المعاصرة (الإدراك) والجيل، ويبدو أنّه قد صعب عليه الأمر بعد طبقة محمّد بن سحنون، فالتجأ إلى تاريخ الوفاة إختصارًا. ولعلّ الصعوبة التي وقع فيها المالكي تتمثّل في إرادته تصنيف مجموعة متباينة من الرجال فيها العلماء والزهّاد، فلم يتوقّق في ذلك. وهكذا، فإنّ غياب عيسى بن مسكين لا يمكن تفسيره إلاّ بدواعٍ مذهبيّة، فالرجل كان ترجم له الخشني، وكان المالكي مطّلعا على ذلك ولا شكّ، ثمّ جاء بن ناجي، ولم يترجم لعيسى بن مسكين، والحال أنّه اعتمد في مصادره على "المدارك"، فإغفال عيسى بن مسكين كان مقصودا، فهل هناك ما يؤكّد مذهبيّة عيسى بن مسكين حتّى نجد مبرّرًا لإقصائه ؟

2- هل كان عيسى بن مسكين مرجئا؟ :

كان عيسى بن مسكين "مقبولا ومحترما حتى من قبل أهل العراق"[(5)]. وقد أجمع على ولايته القضاء الناس على اختلاف مذاهبهم[(6)]. وقد أقرّ أشياء لم يكن يعمل بها المالكيون، فقد "أثبت شهادة عراقي، وقد أتّهم بشرب النّبيذ"[(7)]. والمعروف أنّ الحنفيين اختلفوا عن المالكيّة منذ ولاية أبي محرز

- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 379 و ص397.

[1]- الخشني، طبقات، ص ص 147- 148.

- المالكي، رياض، ج2، ص ص 193- 194.

[2]- القاضي عياض، ترتيب، ج4، ص 73: "كان الذين يحضرون مجلس سحنون من العبّاد أكثر ممّن يحضره من طلبة العلم".

- الخشني، طبقات، ص 129: كان محمد بن سحنون "وجيها في العامّة".

[3]- نفسه، ج1، ص 29 م.

[4]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج5، ص 128: ترجمة حمود بن حمّاس. وص :142 ترجمة محمد بن مسرور الأبزاري. وص 94: ترجمة أبو جعفر أحمد بن نصر الهواري.

[5]- القاضي عياض، **نفسه**، ج4، ص 333.

[6]- **نفسه**، ص 335.

[7]- نفسه، ترتيب، ص 339.

الكناني، في جواز شرب النّبيذ وفي توبة الزنديق[1]. وكان مالك قد كفّر أهل الأهواء باختلاف منازعهم[2].

لقد أشرنا في أوّل البحث، إلى بعض أساتذة عيسى بن مسكين، ونزيد الآن ذكر أبي أحمد موسى بن جرير، والد داود العطار الذي سمع منه عيسى بن مسكين تفسير يحي بن سلام"[3]. والمعروف أنّ يحي بن سلام التيمي يُتّهم بالإرجاء[4]. ويكاد يكون عيسى بن مسكين الوحيد الذي أنكر أن يكون يحي بن سلام مرجئا، إلى جانب عون بن يوسف الخزاعي[5] الذي كان صديقا لابن سلاّم، مع العلم أنّ سحنون قد خلُص إلى أنّ الرجل مرجئ[6].

لقد كانت القيروان صورة مصغّرة للعراق، حتّى كان أهل الرّأي ينعتون عامّة بأهل العراق، ويدخل ضمنهم الحنفيون والمعتزلة والمرجئة...

وقد انتشر الإرجاء في القيروان كغيره من المذاهب سيما وهو يتماشى ولا شكّ مع نزعة الزهد والتصوّف المسالمة والمنسلخة عن الشأن السياسي. وهنا يحقّ لنا العودة إلى "الحديث" الذي نسب إلى عيسى بن مسكين :"منّهُ القديم أن جعلك في اللوح المحفوظ مسلما وفضله أن جعلك من أمّة محمّد عليه الصلاة والسلام"[7]. ألا يتماشى هذا الحديث مع موقف أحد أئمّة المالكيّة المالكيّة وهو ابن عبدوس (ت 260هـ/ 873م)؟ الذي كان يقول :"أنا مؤمن إن شاء الله"[8]، بينما كان محمد بن سحنون يقول: "أنا مؤمن... وأنا مؤمن عند الله "[9]. فلقد كانت مسألة الإيمان أساسيّة في الفكر الإرجائي عامّة، حيث كان المرجئة يقولون أنّ:"الإيمان هو معرفة بالله وتصديق به، فهو قول قبل أن يكون عملا"[10]. وقد كان المالكيّة يؤكدون أنّ الإيمان "قول وعمل"[1].

---

[1]- المالكي، **رياض النفوس،** ج1، ص 276.
- الدباغ وابن ناجي، **نفس المصدر،** ج2، ص ص 35- 36.

[2]- القاضي عياض، **ترتيب،** ج2، ص 49. (قال مالك:"أهل الأهواء كفّار وأسوأهم الروافض").

[3]- أبو العرب، **طبقات،** ص 203.

[4]- **نفسه،** ص ص 37- 38.

[5]- المالكي، **رياض النفوس،** ج1، ص ص 190-191.

[6]- **نفسه،** ج1، ص 191.

[7]- **نفسه،** ج1، ص451 وص 386: يبدو أنّ هذا الرأي يعود إلى عون بن يوسف الخزاعي.

[8]- **نفسه،** ج1، ص 461.
- القاضي عياض، **ترتيب،** ج5، ص ص 102 وج4، ص 227.
- الدباغ وابن ناجي، **معالم الإيمان،** ج2، ص 140 :"وكانت الناس في أيامهما بين حزبين: المحمّديّة والعبدوسيّة. مع العلم أنّ الموقف الشكوكي يأتي من كون المرجئة يرجئون الحكم بالإيمان والأعمال إلى الله (أنظر الفيومي محمد إبراهيم، **الخوارج والمرجئة،** دار الفكر العربي، 2003، ص 133).

[9]- القاضي عياض، **ترتيب،** ج5، ص 102.

[10]- الأشعري (علي بن إسماعيل)، **مقالات الإسلاميين،** تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1985، ج1، ص 197.
- البغدادي (عبد القاهر)، **الفَرق بين الفِرق،** تحقيق محمد محي الدّين عبد الحميد،القاهرة، ص 202.
- الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم)، **الملل والنحل،** تحقيق صلاح الدين الهواري، دار مكتبة الهلال، بيروت، 1998، ص 155- 158.
- المالكي، **رياض النفوس،** ج1، ص 191.

فقد رأى ابن سحنون أنّ "الإيمان بضع وسبعون درجة أدناها إماطة الأذى عن الطريق وأعلاها شهادة أن لا إله إلاّ الله"[2]. وهكذا وصف أتباع محمد بن سحنون رأي بن عبدوس بـ"الشكوكي" وكفروا من يقول به: "من قال ليس هو مؤمن عند الله فهو كافر عند الله "[3]. فهذا الأمر على علاقة مباشرة بقضيّة الإيمان عند المرجئة. وقد ناقش ابن حزم هذا الرأي (أنا مؤمن إن شاء الله)، ورأى أنّه في الأصل رأي لابن مسعود، وإن كان الإمام الظاهري قد وجد تبريرا لقول بن مسعود فإنّه لم يجد ما يسوّغ للمرجئة قولتهم تلك واعتبرها بدعة[4]. وإنّ القول بهذا الرأي كان متداولا منذ القرن الثاني هجري، فكان سفيان الثوري يقول: "من كره أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، فهو عندنا مرجئ"[5]، وقد انتقل هذا الرأي إلى الشام حيث قد يكون نشره غيلان الدمشقي الذي أخذ الإرجاء عن الحسن بن محمّد بن الحنفيّة، وكان غيلان من مرجئة القدريّة[6]، وقد ظهرت في عصر مالك طائفة في الشام تقول به[7]. ولئن تعرّض بعض الدارسين إلى مسألة الإيمان في إفريقيّة، وانقسام فقهاء القيروان، في النصف الثاني من القرن الثالث هجري، بين شكوكيين ومحمديين، فإنّهم حاولوا التقليل من أمر هذه الظاهرة[8]، سعيا منهم إلى تنزيه علماء المالكيّة الأوائل من هذه الشبهة، وهو في نظرنا أمر غير مبرّر، إذ كان يجب البحث عن أسباب هذا الخلاف وإعطاء الظاهرة حجمها الحقيقي. فالظاهرة معروفة، وكان لإمام المدينة رأي حاسم فيها[9]، وهي تستند إلى فكرة الإستثناء لدى المرجئة، إذ أنّ الله قادر على أن يغفر للعبد متى شاء، ولكن المشكلة أنّ هذا الرأي تداوله في إفريقيّة جماعة من رموز المالكيّة، فهل كان هؤلاء يجهلون موقف مالك من المرجئة؟ !. لم يكن انتشار

- أبو العرب التميمي، **طبقات**، ص 38.

[1]- عبد القادر (نعمة محمد)، **الآراء الكلاميّة لأئمة المذاهب الفقهيّة**، منشورات الحلبي، بيروت، 2002، ص ص 210- 211 . الغريب أنّ محمد بن سحنون اتهم من قبل بعض المصريين بالإرجاء لأنّه خاض في مسألة الإيمان (المدارك، ج4، ص 218).

[2]- المالكي، **رياض النفوس**، ج1، ص 454.

[3]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص ص 225، 227، 218. وج 5، ص 397.

[4]- ابن حزم (أبي محمد علي بن أحمد) ، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، دار الجيل، بيروت، ج3، ص 271.

[5]- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمّد)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت**، 2003، ج4، ص 385: هذه القولة، في الأصل، ليست مرجئيّة ولكنها التصقت فيما بعد بهم.

[6]- قاضي عبد الجبار، **فضل الإعتزال وطبقات المعتزلة**، تحقيق فؤاد السيّد، الدار التونسيّة للنشر، 1986، ص229.

- البغدادي، **الفرق بين الفرق**، ص 202 – 206.

[7]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج2، ص 42.

[8]- المجدوب (عبد العزيز)، **الصراع المذهبي بافريقيّة إلى قيام الدولة الزيريّة**، الدار التونسية للنشر، 1985، ص 159 – 169.

- الهنتاني (نجم الدين)، **المذهب المالكي بالغرب الإسلامي**، تبر الزمان، 2004، ص 105- 106.

[9]- القاض عياضّ، **ترتيب**، ج2، ص 42- 43.

هذه "البدعة" في القرن الثالث هجري، يعود لأبي الحكم محمد بن حكمون الربعي الزيات (ت بعد 370 هـ /980 م)، كما فهم ذلك الأستاذ المجدوب، من قول أبي الحسن علي بن محمد بن مسرور الدباغ (ت359هـ/969م) للزّيات :"ذهبت إلى العراق فأتيتنا بهذه البدعة"[1]، فالأمر هنا يتعلّق حصرا بالقرن الرابع هجري وليس الثالث.

وزيادة في تسليط الضوء أكثر على "إرجائيّة" عيسى بن مسكين نشير إلى أنّ كاتبه على السجلاّت والوثائق أبو جعفر أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي، "كان مذهبه النظر، وصحب محمد بن عبدوس وسمع من محمد بن يحي بن سلام تفسير القرآن، فكان غاليا..." [2]. كما أنّ تلميذه لقمان بن يوسف الغساني "كان يميل إلى معنى ابن عبدوس في فقهه في مسألة الإيمان وفي جميع معانيه..." [3]. تؤكّد هذه المعطيات بدون لبس أنّ هناك رباطا يجمع بين عيسى بن مسكين وابن عبدوس وابن سلام، فما هو هذا الرّابط؟ !

الأكيد أنّه يتعلّق بالموقف من الإيمان، وهي مسألة مركزيّة لدى المرجئة[4]. فلم يكن اعتباطا، حسب رأينا، أن يولى ابن مسكين على كتابة الوثائق والسجلاّت والأحكام والشروط ابن زياد[5]. وفي الأخير، نقول أنّ عيسى بن مسكين هو الذّي صلّى وراء أبي عبد الله محمد بن الفتح المؤدّب المرجئ و"رضيّه إماما"[6]، وهو ما لا يمكن أن يفعله زعماء المالكيّة لأنّ بعضهم مثل إبراهيم بن عتاب الخولاني (261هـ/874 م) إمام مسجد سحنون، رفض الصلاة وراء بن عبدوس[7]، وقد حبسه القاضي بن طالب لذلك، علما أنّ محمد بن عبدوس لم يصل عليه عند وفاته إلاّ أخوه إسحاق، وهذا الأخير صلّى عليه بن طالب[8]. وكان حمديس القطّان (ت289هـ/901م) رفض الصلاة وراء حمّاس بن مروان الهمداني (ت 303هـ/915 م) وهجره لذات السبب[9].

وهكذا يمكن القول أنّ غياب عيسى بن مسكين في تراجم المالكيّة وخاصّة لدى "الرياض" و"المعالم"، يعود إلى ميل عيسى بن مسكين إلى

---

[1]- **نفسه**، ج6، ص 273.
- الدباغ وبن ناجي، **معالم**، ج3، ص 77.
- المجدوب، **الصراع المذهبي**، ص 161.
[2]- الخشني، **طبقات**، ص 168.
[3]- الخشني، **طبقات**، ص 171.
[4]- Encyclopédie de L'Islam, T.VII, 1993, article, « *MURDJIA* », Par, (W. Madelung), p p.605- 607.
[5]- الخشني، **طبقات**، ص 168.
[6]- المالكي، **رياض النفوس**، ج2، ص 313.
[7]- الخشني، **طبقات**، ص 229.
- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 397.
[8]- **نفسه**، ج4، ص 228-229: كان ابن طالب صديقا لابن عبدوس وكان يعتمد عليه في قضائه (المدارك، ج4، ص 224).
[9] - **نفسه**، ج4، ص 379 وج5، ص 77.

الإرجاء والأخذ ببعض آراء أهل الرأي. وفي الواقع فإنّ المذهب المالكي الذي يكاد يقتصر على الأحكام والمعاملات ولا يعتني إلاّ قليلا بالمسائل النظريّة والفكريّة، قد دفع البعض، وإن كانوا مالكيين بالانفتاح على الآراء، ومن هؤلاء، كان عيسى بن مسكين، الذي يبدو أنّه لم ير تناقضا بين انتمائه إلى "المالكيّة" وميله إلى الإرجاء. ولهذا اعتبر مؤلّفوا طبقات المالكيّة أنّ البعض من رموز هذه المدرسة السنيّة ليسوا منهم*، وهو يعكس نوعا من التشدّد والتعصّب الذي يمكن أن نجد له مبرّرًا في الظرف الذي عاش فيه المالكي. أمّا ولاية عيسى بن مسكين وكراماته[1]، فيمكن كذلك أن نجد لها دعامةً في الاتجاه الارجائي، فهذا أبو عبد الله محمد بن الفتح المرجئ، كان، "من أهل التحقيق في التصديق بكرامات الأولياء، وكان يقول : من أنكر الكرامات فليس من أهل المدينة ولا كرامة، لأنّها زيادة في الإيمان وجمال للمذهب"[2].

لم تبرز ظاهرة "الإرجاء" في إفريقيّة إلاّ في إمارة إبراهيم بن أحمد، وهي فترة بلغ فيها العنف والقتل درجة لا سابق لها في إفريقيّة. وقد اُستفتي علماء إفريقيّة في ما اقترفه والده، أبو إبراهيم أحمد بن محمد (242هـ-249هـ/ 856–863م) من آثام، فلم يجدوا له سبيلا إلى التوبة، باستثناء محمّد بن يحي بن سلام (ت262هـ/875م) الذي وجد للأمير الأغلبي مخرجا حتّى يكفّر عن ذنوبه[3]. فلا شكّ أنّ الموقف من مرتكب الكبيرة قد اُستعيد الجدال فيه في إفريقيّة في هذه الفترة. ولا أدلّ عن ذلك ممّا كتب يحي بن عمر في هذا السياق، فمن كتبه "الردّ على الشكوكيّة"، وكتاب "الردّ على المرجئة". وكان لابن سحنون رسالة في الإيمان[4].

فالمرجئة، لم يكفروا صاحب الكبيرة، وإنّما اعتبروه مؤمنا، وعقابه عند الله الذي يمكن أن يعفو عنه تفضّلا أو استحقاقا[5]. فكان الإرجاء، كما يقول المأمون: "دين الملوك"[6]. فكان يتأقلم مع نظم الاستبداد أيّا كان منزعها، إذ يدعو الناس إلى ترك الأمر إلى الله في شأن محاسبة أولي الأمر ولا يحرّض على تكفيرهم ولا على الثورة عليهم، بل يفتح الباب أمامهم

---

*- لم نجد في تراجم المالكي شخصيات مثل أبي داود العطار وأحمد بن أحمد بن زياد الفارسي...، ومحمد بن يحي بن سلام...

1- القاضي عياض، ج4، ص 343- 344.

2- المالكي، **رياض النفوس**، ج2، ص 314.

3- الدباغ وابن ناجي، **معالم**، ج2، ص ص 146- 147: هذه الحادثة قد تكون وقعت حسب رواية المعالم سنة 244هـ/858م.

4- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 359 وص 228.

5- أمين (أحمد) ، **ضحى الإسلام**، دار المعارف للطباعة والنشر، القاهرة، 2005، ج1، ص 264.

- الأصفهاني، **الأغاني**، دار الفكر، بيروت، ج 14، ص 262 : أبيات لثابت قطنة من شعراء المرجئة، ص 155.

6- ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن طاهر)، **كتاب بغداد**، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1994، ص 51.

- أمين (أحمد) ، **ضحى الإسلام**، ج1، ص 269.

للتوبة. وقد تواصل الحديث في مسألة الإيمان إلى القرن الرابع هجري، حيث نجد أبا الفضل الممّسي (ت 333هـ/ 944م) [1]، وعبد الله بن إسحاق بن التبّان (ت 371هـ/981م) [2] ممّن يقول بذلك.

لقد كان عيسى بن مسكين الإفريقي أنموذجا لفئة من الأفارقة الذين أحتموا بالتديّن والتفقّه في الدّين حتّى لا تعصف بهم نزوات السلطان، وقد حافظوا بذلك على ملكياتهم الفلاحيّة دون أن يتدخلوا مباشرة في السياسة وقد حملت بعضهم، ظاهرة الزهد والتقشّف على التنازل عن ثرواتهم أو توقيفها أحباسا. وقد تبنّى أكثرهم المذهب المالكي ليس إرادة منهم في الإندماج في المجتمع الإسلامي كما يدّعي البعض، لأنّ الإندماج في المجتمع الجديد حاصلٌ بموجب الدخول في الإسلام، ولكن لأنّ أكثرهم من ذوي أصول ريفيّة محافظة بطبعها. أمّا النزعات "العقليّة" فقد انحصرت في فئة "العراقيين" ذوي الأصول الشرقيّة والمشتغلين أساسا بالتجارة. ولم يكن ميل عيسى بن مسكين إلى "الإرجاء" يخرجه من إطار المذهب المالكي ولا يجعل منه مرجئا حقيقيّا، وإنّما هي فقط نزعة لدى البعض من الأفارقة "المالكيين" الذين بحكم عجزهم عن مناهضة السلطان الغاشم، تبنّوا الموقف الارجائي من الإيمان ومن مرتكب الكبيرة حتّى يتسنّى لهم التأقلم مع وضع كان يدعوهم إلى الثورة. فكان عيسى بن مسكين راضيا بحكم إبراهيم بن أحمد دون أن يتبنّى سياسته. والمذهب المالكي الذي نشأ على ركام من أفكار شتّى، خارجيّة ومعتزليّة ومرجئيّة*، لم يتسنّ له بسرعة التخلّص منها وقد كانت هذه الأفكار جزءا من التركيبة الذهنيّة للبعض من رموز المالكيّة، فقد ورثوا ذلك عن معلمي القرن الثاني هجري مثل "عون بن يوسف الخزاعي" (ت239هـ/854م) و"بن فروخ"(176تهـ/792م) و"يحي بن سلاّم" (ت 200هـ/815م) ... ولن يتخلّ المذهب المالكي عن هذه الإشكالات الكلاميّة إلاّ بعد القرن الرابع هجري.

وقد كان التصوّف و"الولاية" ظاهرة قد أينعت في إفريقيّة، منذ القرن IIهـ/VIIIم وكان عيسى بن مسكين تواصلا لأبي خارجة الغافقي، كما كان أبو إسحاق الجبنياني خلفا لعيسى بن مسكين، وكلّ هؤلاء، لهم إلى الآن زوايا ومزارات، تشهد إلى اليوم على مكانة هؤلاء الرجال في قلوب الناس بما كان لهم من زهد وتقوى. وكان عيسى بن مسكين محلّ تقدير منذ القرن الرابع

---

[1] - القاض عياض، **ترتيب**، ج5، ص 302 : وقد شارك الممّسي في معركة وادي المالح ضدّ الفاطميين وكان يحمل بندًا مكتوب عليه :"لا إله إلاّ الله محمد رسول الله، لا حكم إلاّ لله وهو خير الحاكمين". (المدارك، ج5، ص 305- 306).

[2] - الدباغ وابن ناجي، **معالم**، ج3، ص 95.

* - كان التباين واضحا بين رموز المالكيّة في إفريقيّة لاختلاف الرؤى، وللتنافس بينهم فيمن كان له الأفضليّة في الرواية عن ابن وهب، فهم لم يأخذوا مباشرة عن مالك، فالتباين كان واضحًا مثلا، بين سحنون وعون بن يوسف الخزاعي وبين سحنون ويحي بن عمر (المدارك، ج4، ص ص 90- 91، وج 3، ص ص 370 وص373، وج4، ص ص 47- 357 و362). فالمذهب المالكي لم يتبلور بعدُ ولن يكون ذلك إلاّ بعد سيادة أتباع سحنون أواخر القرن الرابع هجري.

هجري حتّى من الشيعة أنفسهم، حيث زار قبره الخليفة الفاطمي المنصور (ت 341هـ/ 952 م)[1]، وإنّ البحث في سيرة عيسى بن مسكين يحيلنا إلى تاريخ نشأة المذهب المالكي وتطوّره بإفريقيّة وما أحاط بذلك من اختلاف الرؤى الفكريّة والفقهيّة بين زعماء المالكيّة
ابن مسكين وقضاته[2].



---

[1]- الدباغ وابن ناجي، **معالم**، ج1، ص 26: الأكيد أنّ المنصور الفاطمي كان يريد التقرّب من العامّة العامّة وتلميع صورته.
[2]- المالكي، **رياض النفوس**، والقاضي عياض، **ترتيب المدارك**، والخشني، **طبقات علماء وإفريقيّة**. **وإفريقيّة**.
⇐ الملاحظ أنّنا لا نجد إشارة إلى قضاة لعيسى بن مسكين على النواحي وخاصّة قصطيلية وطرابلس التي كان يعيّن عليها الأمير الأغلبي ما شاء من القضاة(ترتيب المدارك، ج4، ص 338).
[3]- القاضي عياض، **ترتيب**، ج4، ص 347.
[4]-الجودي القيرواني (محمد) **تاريخ قضاة القيروان** تحقيق أنس العلاّني بيت الحكمة 2004 ص90 ص90

المجتمعات الإسلاميـة
ونخبـها بالمشرق

نخب المجتمع اليمني في العصر الإسلامي المبكر
من خلال كتاب
" الطبقات الكبرى" لابن سعد.

أد راضي دغفوس
جامعة تونس

المقدّمة:

يعتبر اليمن من البلدان التي لها ماض يرجع على الأقل إلى الألف الثانية قبل الميلاد وقد أفرزت حضارت ودول متعددة نذكر منها معين- قتبان- أوسان - حضرموت - سبأ و أخيرا حمير كما نعلم أن دخول البلاد إلى الإسلام تم في القرن السابع في عهد آخر حاكم فارسي باذان أو باذام. ومنذ ذلك الوقت أصبحت البلاد ولاية إسلامية تخضع لدولة المدينة التي أقامها الرسول محمد - صلعم - والتي تحولت بفضل عملية الإنتشار العربي الإسلامي في عهود أبي بكر وعمر بن الخطاب إلى إمبراطورية شاسعة المجال تشمل شبه الجزيرة العربية بأكملها ومناطق كانت تابعة للدولة البيزنطية (الشام- مصر ثم المغرب) إلى جانب كل الأراضي الفارسية الساسانية (العراق- فارس وبقية المناطق الشرقية).

لعب اليمانيون منذ ظهور الدعوة الإسلامية في حياة محمد أدوارا رئيسية سواء في أسلمة البلاد أوفي انتشار الإسلام في العديد من المناطق ولا أدل على ذلك من القوائم العريضة من النخب اليمانية التي ذكرها الإخباريون وعلماء الأنساب والمؤرخون في مختلف مؤلفاتهم في العصر التأسيسي للإسلام.

اخترنا الحديث في هذا الإطار عن النخب اليمانية التي تعرّض لها محمّد بن سعد في كتابه المعنون بالطبقات الكبرى. إذا ينبغي علينا التعريف ولو بإيجاز بهذا المؤلف وبمؤلفه قبل تحديد نوعية هذه النخب وذكر أصولهم الاجتماعية وبيان الوظائف التي تقلدوها ومساهماتهم في الحياة الثقافية والعلمية والدينية في العالم الإسلامي في الفترة التأسيسية.

1) التّعريف بالمؤلف و بكتابه:

هو محمّد بن سعد بن منيع البصري وكنيته أبو عبد الله ولد في البصرة سنة 167 هـ / 783 م ثم انتقل إلى بغداد حيث استقر وقد زار العديد من المدن مثل المدينة والكوفة في أواخر القرن الثاني هـ والتقى بالعديد من الشيوخ والمحدّثين والقراء وأخذ عنهم الحديث والروايات نذكر منهم بالخصوص سفيان بن عيينة ووكيع بن الجراح والوليد بن مسلم ومحمد بن

سعدان الضرير وغيرهم وقد عرف باسم " كاتب الواقدي" لأنه كان يلازمه ويكتب له.
ولم تذكر له المصادر- مثل ابن النديم على وجه التحديد- إلا كتاب أخبار النبي الذي ربّما يمثل الجزأين الأولين لكتابه الطبقات الكبرى الذي اشتهر به وسوف نرجع إليه فيما بعد. توفي ابن سعد في 4 من شهر جمادى الآخرة سنة 230 هـ / 844 م وعمره 62 سنة حسب ما ذكره تلميذه الحسين بن فهم.

فيما يتعلق بكتابه الذكور سابقا فهو عمل ضخم درس فيه أخبار النبي وسفاراته كما تعرّض للصحابة والتابعين إلى عصره وقد شمل روايات أستاذه الواقدي إلى جانب روايات أخرى في السيرة والتراجم. إذا يعتبر هذا المؤلف أثر واسع يجمع نشاط المحدثين والإخباريين والنسابين في القرن الثاني وبداية القرن الثالث للهجرة /الربع الأخير من القرن الثامن وبدايات القرن التاسع للميلاد .

من أهم الرّواة الذين اعتمد عليهم ابن سعد نذكر بالخصوص هشام بن محمد بن السّائب الكلبي ثم الواقدي - الذي أخذ عن موسى بن عقبة ومحمد بن إسحاق(تلميذي الزهري) وأخيرا أبو معشر. الملاحظ أن كل هؤلاء ينتمون إلى مدرسة المدينة في السّيرة، كما أن انتقال ابن إسحاق وأبي معشر والواقدي إلى بغداد - عاصمة الخلافة العباسية - حوّل مركز الثقل في كتابة السيرة من المدينة إليها.

من أهم تلامذة ابن سعد نذكر الحسين بن فهم الذي تحدثنا عنه منذ حين ثم أحمد بن عبيد ابن أبي الدنيا والحارث بن أسامة وخاصة المؤرّخ البلاذري.

نشير أيضا إلى أن كتاب الطبقات الكبرى أصبح فيما بعد مصدرا أساسيا لكل من ابن عساكر في" تاريخ دمشق" والذهبي في " تاريخ الإسلام" وابن حجر في"الإصابة" و"تهذيب التهذيب" وابن كثير في "تاريخه" وابن تغري بردي في "النجوم الزاهرة" كما كان الكتاب مرجعا لكل من ألّف في السيرة في العهد الإسلامي المتأخّر مثل المقريزي.

نشر هذا الكتاب سنة 1903 من طرف المستشرقين الألمان مثل سخاو وهوروفتز وبروكلمان وأعاد تحقيقه إحسان عبّاس وطبع سنة 1968 في 9 مجلدات في دار صادر ببيروت. وفيما يلي مضمونها:

- المجلّد 1: في السيرة الشريفة النبوية.
- المجلّد 2: في مغازي الرسول – صلعم- وبعض أصحابه.
- المجلّد 3: في البدريين من المهاجرين والأنصار.
- المجلّد 4: في المهاجرين و الأنصار الذين لم يشهدوا بدرا والصحابة الذين أسلموا قبل فتح مكة.
- المجلّد 5: في التابعين من أهل المدينة والأصحاب من مكّة والطائف واليمن واليمامة والبحرين.

- المجلّد 6: في الكوفيين من أصحاب الرسول ومن كان بالكوفة بعدهم من التّابعين وغيرهم من أهل الفقه والعلم.
- المجلّد 7: في البصريين والبغداديين والشاميين والمصريين وآخرين.
- المجلّد 8 : في النساء.
- المجلّد 9: الفهارس .

اعتمد ابن سعد في ترجمته للأعلام الذين أوردهم في طبقاته على ثلاثة مقاييس مختلفة :

- أولا: النّوعية حيث ترجم للرّجال ثم للنساء.
- ثانيا: المكان بما أنه ترجم للرّجال حسب الأمصار التي سكنوها أو نزلوا فيها فبدأ برجال المدينة فمكّة فالطائف فاليمن فاليمامة فالبحرين فالكوفة فالبصرة فواسط فبغداد فخراسان فالرّي فهمذان فقم فالأنبار فالشام فالجزيرة الفراتية فالعواصم فالثغور فمصر فأيلة فإفريقية وأخيرا الأندلس.
- ثالثا: الزّمان حيث راعى ابن سعد عنصر السّبق في الإسلام مبتدئا بالترجمة للصّحابة الذين نزلوا المصر المترجم له ثم الطبقة الأولى من التابعين الذين عاشوا مع صحابة المصر المترجم لرجاله ثم الطبقات التي تلتها حتي عصره. وقد ميّز ابن سعد بين الطبقة الأولى من التّابعين الذين رتّب تراجمهم حسب الرّواية المعتمدة وقدّم من روى عن كبار الصّحابة (أبو بكر- عمر -عثمان وعلي) ثم انتقل في مرحلة ثانية إلى من روى عن صغارهم أو من كانت صحبتهم متأخّرة وبين بقية التّابعين الذين جاءت تراجمهم على أساس تواريخ وفياتهم.

أما النّساء فقد خصّص لهنّ الجزء الأخير من مصنفه وترجم فيه للاتي كانت لهنّ روابط بالرسول- صلعم - فاللاتي لهنّ علاقات دموية به ثم أزواجه، فالمسلمات المبايعات من قريش وحلفائهم ومواليهم، فغرائب النساء من العرب، فالمهاجرات المبايعات، فنساء الأنصار، مقدّما الأوس على الخزرج، منتهيا إلى الحديث عن النساء اللواتي لم يروين عن الرسول - صلعم - وروين عن أزواجهن وغيرهم من الصّحابة.

انطلاقا من هذا التمشّي يمكننا التعرّف على النّخب الإسلامية - بما فيها النّخب اليمانية - في القرون الأولى للهجرة لا سيّما على مستوى انتماءاتها الجغرافية واهتماماتها العلمية وميولاتها المذهبية.

2) النخب اليمانية حسب اختصاصها

بخصوص النخب اليمانية التي تهمّنا في هذه الندوة نشير إلى أن عددها الجملي يفوق السّتين دون احتساب الأسماء التي اقتصر ابن سعد على ذكرها دون تقديم تراجم مفصّلة لأصحابها. وقد رتّبناها ترتيبا كرونولوجيا مع أن ابن سعد تغافل عن تقديم معطيات دقيقة حول تواريخ الولادة والوفاة لأصحابها ثم قمنا بتصنيفها حسب مجالات تخصصها إما دينيا أو علميا.

أ- النخب الدينية :

كانت لها مآثر في الإسلام لا سيّما على مستوى السّابقة في الإسلام والمساهمة في أحداثه والصّحبة للنبي. وبالمقارنة مع النخب الموجودة في الأمصار والتي سنرجع إليها فيما بعد فإن عددها قليل. وفيما يلي أسماء علماء الدّين الذين ذكرهم ابن سعد في كتابه حسب ما جاء في مختلف المجلدات:

-المجلّد الثالث:

- مهجع بن صالح - مولى عمر بن الخطاب - يقال إنه من المهاجرين الأوائل الذين جاؤوا من اليمن وقد قتل يوم بدر قتله عامر بن الحضرمي، لم يكنله عقب .

- سعد بن خولة - حليف بني عامر بن لؤي - ويعدّ أيضا من أهل اليمن وكان من مهاجرة الحبشة في المرّة الثانية. وقد شهد بدرا وعمره 25 سنة كما شهد أحد والخندق والحديبيّة. يذكر أخيرا أنه خرج إلى مكة ومات بها.

-المجلد الرابع :

- أبو موسى الأشعري واسمه عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب بن بكر بن عامر بن... بن الأشعر... بن كهلان بن سبأ.قدم مكة فحالف سعد بن العاص بن أمية (أبا أحيحة) وأسلم بمكّة، هاجر من اليمن في بضعة وخمسين رجلا من قومه فيهم أخوه فأخرجتهم سفينتهم إلى النجاشي وعنده آنذاك جعفر بن أبي طالب وأصحابه من مكّة، ويقال إنهم اقبلوا جميعا في سفينة إلى النّبي حين افتتح خيبر وقد أشركهم في اقتسام غنائم خيبر وقال لهم: "لكم الهجرة مرّتين، هاجرتم إلى النجاشي وهاجرتم إليّ". وقد أرسله الخليفة عمر عاملا على البصرة.

- سفيان بن معمر بن حبيب بن وهب بن حذافة بن جمح وأمّه من أهل اليمن. كان قديم الإسلام بمكة وهاجر إلى الحبشة في المرّة الثانية ومعه ابناه خالد وجنادة.

- المجلد الخامس:

- وبر بن يحنّس وكان من الأبناء الذين كانوا باليمن فقدم على النبي - صلعم- فأسلم ثم انتقل إلى اليمن فنزل على بنات النّعمان بن بزرج فأسلمن وبعث إلى فيروز بن الديلمي فأسلم وإلى مركبوذ فأسلم وكان ابنه عطاء بن مركبوذ أول من جمع القرآن بصنعاء، وكان الحاكم الفارسي باذان قد أسلم وبعث بإسلامه إلى الرسول - صلعم- وذلك سنة 10 هـ.

- عبد الرّحمان البيلماني كان من الأخماس- أخماس عمر بن الخطاب- وأصله من الأبناء الذين كانوا باليمن، توفي في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك.

- المجلد السّادس:

- عمار بن ياسر وأصله من عنس من مذحج وهو حليف بني مخزوم ويكنى أبا اليقظان شهد بدرا، وكان من أصحاب علي بن أبي طالب وقد شهد معه مشاهده وقتل بصفين حيث دفن وعمره 93 سنة.

- سعيد بن نمران الناعطي من همدان، كان من أصحاب علي الذي ضمّه إلى عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب حين ولّاه اليمن.

- المجلد السّابع :

- هانئ الهمداني قدم على الرسول - صلعم- من اليمن فأسلم وقد مسح النبي علي رأسه ودعا له بالبركة وأنزله على يزيد بن أبي سفيان حتى خرج معه إلى الشام في عهد أبي بكر.

ب-النخب العلمية

كانت ساهمت في الميدان الفكري الذي أفرزته الحضارة العربية الإسلامية في عصورها المبكرة وكان عدد هذه النخب مهما مقارنة بالنخب الدينية التي كنا ذكرناها سابقا. وقد قمنا بتقسيمها حسب تخصصها (حديث - تفسير - سير وأحداث).

- الحديث: من **المحدّثين** الذين أبدوا اهتماما برواية الحديث أو بتدوينه لم نجد الصّحابة أو المحسوبين على النّخبة الدينية بل وجدنا التّابعين أو تابعي التّابعين .

وفيما يلي القائمة التي ذكرها ابن سعد في طبقاته حسب المجلدات:

- المجلد الخامس :

مالك الداري - مولى عمر بن الخطّاب- ينتمي إلى جبلان من حمير وقد روى عن أبي بكر وعمر وروى عنه أبو صالح السمّان.

- ثعلبة بن أبي مالك القرظي - واسم أبي مالك عبد الله بن سام - ويكنى ثعلبة أبا يحيى وقد قدم أبو مالك من اليمن فقال: " نحن كندة على دين اليهود"، تزوج ثعلبة إلى ابن سعية من بني قريظة وحالفهم فقيل القرظي وقد روى عن عمر وعثمان وكان إمام بني قريظة حتى مات لكنه كان قليل الرواية.

- محمد بن عبد الرّحمان بن ثوبان - مولى لآل خنس بن شريق الثقفي وقد انتمى بعضهم إلى اليمن، وكان ثقة وكثير الرواية للحديث.

- حجر المدري - من همدان- روى عن زيد بن ثابت وروى عنه طاووس اليمني.

- الضّحاك بن فيروز الديلمي وهو من الأبناء وفد روى عن أبيه.

- أبو الأشعث الصنعاني - شراحيل بن شرحبيل بن كليب بن أدّة - وهو من الأبناء وكان نزل بدمشق وروى عنه الشاميون، توفي في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان.

- حنش بن عبد الله الصنعاني الذي كان يقال أنه من الأبناء وقد تحوّل إلى مصر وروى عنه المصريون، كما أن لهذا الرجل عدة مآثر كنا عددناها في أطروحتنا عن اليمن الإسلامي.

- وهب الذماري من سكان ذمار- مخلاف من مخاليف اليمن- وكان قرأ العديد من الكتب.

- طاووس بن كيسان مات بمكة قبل يوم التروية بيوم وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد حج تلك السنة - أي سنة 106 هـ- فصلى على طاووس الذي مات وسنّه بضع وتسعون سنة .

- آل منبه من الأبناء: أولهم وهب بن منبه الذي يكنى أبا عبد الله وهو من المؤلفين اليمانيين الأكثر شهرة .

همّام - وهو أكبر من أخيه وهب- يقال إنه لقي أبا هريرة و روى عنه روايات كثيرة وقد توفي سنة121 هـ -

- معقل بن وهب وكنيته أبو عقيل قد مات قبل أخيه وهب، وكان روي عنه .

- عمر بن منبه - وكنيته أبو محمد- وروي عنه أيضا.

- عبد الصّمد بن معقل بن منبه وكان يروي عن وهب.

(انظر عن آل منبه راضي دغفوس، بحوث في تاريخ إفريقية واليمن ,دار جليس الزمان، ص 222 -230).

- بكّار بن عبد الله بن سموك من الأبناء كان ينزل الجند وقد روى عنه عبد الله المبارك وغيره.

- رباح بن يزيد - مولى آل معاوية بن أبي سفيان- وقد كان له فضل وعلم بحديث معمر بن راشد.

- عبد الرزّاق بن همّام بن نافع ويكنى أبا بكر مولى لحمير وقد توفي باليمن في منتصف شهر شوال من سنة 212 هـ وروى عن سالم بن عبد الله و غيره (انظر راضي دغفوس، بحوث في تاريخ إفريقية واليمن نفس المرجع، ص 231- 234).

- إسماعيل بن عبد الكريم بن معقل بن منبه يكنى أبا هشام وقد توفي باليمن سنة 210هـ.

- المجلد السادس :

- مسروق بن الأجدع وهو عبد الرحمان بن مالك بن أمية بن عبد اللهّ بن مرّ بن سليمان بن معمر بن الحارث بن سعد بن عبد الله بن وادعة بن عمرو بن عامر بن ناشح بن همدان وقد روى الحديث عن عمر وعلي وعبد الله بن خبّاب بن الأرت وأبيّ بن كعب وعبد الله بن عمر وعائشة وعبيد بن عمير ولم يرو شيئا عن عثمان، توفي سنة 63 هـ وكان ثقة وله أحاديث صالحة.

- عمرو بن شرحبيل وهو أبو ميسرة الهمداني ثم الوادعي روى عن عمر وعلي وعبد الله بن عمر وتوفي بالكوفة في ولاية عبيد الله بن زياد.

- أبو عطية الوادعي من همدان اسمه مالك بن عامر وهو أبو حمرة الهمداني وقد روى عن عمر وابنه عبد الله، توفي بالكوفة في ولاية مصعب بن الزبير وكان ثقة وله أحاديث.

- الحارث بن قيس الجعفي من مذحج روى الحديث عن علي وعبد الله بن عمر.

- سعيد بن وهب الهمداني من بني يحمد بن موهب بن صادق بن يناع بن دومان وهم اليناعيون من همدان روى عن علي وعبد الله وخباب وسمع عن معاذ بن جبل باليمن قبل أن يهاجر في حياة الرسول وكان لزوما لعلي فكان يقال له القراد للزومه إياه. وقد روى عن سلمان وابن عمر وابن الزبير وشريح، مات بالكوفة سنة 86 هـ في خلافة عبد الملك بن مروان وكان ثقة وله أحاديث.

- هبيرة بن همدان الشبامي من همدان روى عن علي وعبد الله وعثمان.

- خمير بن مالك الهمداني روى عن علي وعبد الله بن عمر.

- معدي كرب المشرقي من همدان- والمشرق موضع باليمن نسب إليه - روى عن علي وعبد الله وله أحاديث.

- قيس بن عبد الله الهمداني وهو عم لعامر الشعبي.

- عبيد بن عمرو الخارفي من همدان، روى عن علي لكنه كان قليل الحديث.

- إبراهيم النخعي وهو إبراهيم بن يزيد بن الأسود بن عنمر بن ربيعة بن حارثة بن سعد بن مالك بن النخع من مذحج- يكنى أبا عمران- توفي بالكوفة سنة 96 هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك.

- عبد الله بن مرة الهمداني، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز وكان ثقة وله أحاديث صالحة.

أبو السفر سعيد بن يحمد الثوري من همدان، توفي في ولاية خالد بن عبد الله القسري على الكوفة، وكان ثقة لكنه قليل الحديث.

القاسم بن خيمرة الهمداني، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز كان ثقة وله أحاديث.

- مجالد بن سعيد الهمداني يكنى أبا عمير، توفي سبة 144 هـ في عهد الخليفة أبو جعفر المنصور ويقال إنه ضعيف في روايته للحديث.

- محمد بن طلحة بن معرف الهمداني ثم اليامي يكنى أبا عبد الله، توفي سنة 167 هـ في خلافة المهدي، وكانت له أحاديث.

- محاضر بن الموزّع الهمداني ثم اليامي يكنى أبا الموزّع، كان يسكن جبلانة كندة، روى عن الأعمش وهشام بن عروة وغيرهما وكان ثقة، توفي بالكوفة في شوال206 هـ في خلافة المأمون.

التفسير: ومن **المفسّرين** الذي اهتمّوا بجمع أو تفسير القرآن وكانوا قلة نظرا لأن هذا الاختصاص كان حكرا على أهل المدينة نذكر:

- عطاء بن مركبوذ بن وبر بن يحنّس الذي يعتبر أول من قام بجمع القرآن بصنعاء.

- أبو روق واسمه عطية بن الحارث الهمداني من بطن يقال لهم بنو وثن وهو صاحب تفسير وروى عن الضحاك بن مزاحم و غيره.

السّير والأحداث

نذكر خاصة الذين اهتموا بأحداث الجاهلية والإسلام ومنهم :

- معمر بن راشد الذي كان يكنى أبا عروة وهو مولى للأزد، انتقل إلى اليمن وتوفي في شهر رمضان سنة 153 هـ وكان له علم بالسيرة والمغازي.

- كعب الأحبار ويكنى أبا إسحاق وهو من قبيلة حمير من آل ذي رعين وكان على دين اليهودية فأسلم وقدم إلى المدينة ثم خرج إلى الشام فسكن حمص وتوفي بها سنة 32 هـ في خلافة عثمان.

- تبيع بن امرأة كعب الأحبار ويكنى أبا عبيد وقد كان عالما وقرأ الكتب وسمع من كعب علما كثيرا.

- عبد الصمد بن معقل بن منبه وكان يروي عن وهب.

نذكر أيضا رباح بن يزيد مولى آل معاوية بن أبي سفيان وقد كان له فضل وعلم.

إجمالا كان كل هؤلاء يتميزون بمعرفتهم بالحديث وتفسير القرآن والسير.

3) الأصول الاجتماعية للنخب اليمانية والوظائف التي تقلدتها:

أ) الأصول الاجتماعية للنخب اليمانية

تنتمي أكثر النخب اليمنية - سواء من علماء الدين أو غيرهم - إلى عنصر الموالي وقد ذكرنا منهم مهجع بن صالح ومالك الداري وهما من موالي عمر بن الخطاب وابن ثوبان مولى الأخنس بن شريق الثقفي ومعمر بن راشد مولى الأزد وعبد الرزاق بن همام مولى حمير.

كما أن أعدادا هامة من هذه النخب كانت من أصل فارسي أي أنهم ينتمون إلى عنصر الأبناء وقد ذكرنا منهم وبر بن يحنّس الذي تذكر المصادر أنه نزل - عند قدومه من عند الرسول في المدينة إلى اليمن- على بنات النعمان بن برزج فأسلم. كما يقال أنه بعث إلى فيروز الديلمي ومركبوذ فأسلما (انظر أطروحتي عن اليمن). كنا ذكرنا كذلك أبا الأشعث الصنعاني وآل منبه كما نذكر من ناحية أخرى الضحاك بن فيروز الديلمي ويوسف بن يعقوب بن إبراهيم بن سعيد بن داذويه وهشام بن يوسف الذي توفي باليمن سنة 197 هـ (انظر ما جاء في أطروحتي بالفرنسية عن اليمن حول كل هذه الشخصيات).

من خلال دراسة الأصول الاجتماعية للنخب اليمانية نلاحظ أن الثقافة والعلم - لا سيما في العهد الأموي- كانا منتشرين في هذا الصنف الاجتماعي الدقيق.

ب) أهم الوظائف التي تقلدتها النخب اليمانية

من خلال الطبقات الكبرى لابن سعد يظهر جليا أن النخب اليمانية تقلدت مناصب هامّة في أجهزة الدولة سواء في الفترة التأسيسية للإسلام أو في العهدين الأموي والعباسي الأول. ومن جملة الوظائف المشار إليها يمكننا ذكر وظيفة القضاء وفي بعض الأحيان الولاية وغيرها من المهام.
بالنسبة **للقضاء** نذكر خاصة:
- يوسف بن يعقوب بن إبراهيم بن سعيد بن داذويه من الأبناء ويكنى أبا عبد الله وكان على قضاء صنعاء وكان يفتي بها.
- مطرّف بن مازن -المكنى أبا أيوب- تولّى أيضا منصب قضاء صنعاء
- عامر الشعبي الحميري وعداده من همدان وقد تولى قضاء الكوفة لعمر بن عبد العزيز وتوفي سنة 104 هـ .
كذلك الشأن بالنسبة لسعيد بن أشوع الهمداني الّذي كان قاضيا بالكوفة ومات في ولاية خالد بن عبد الله القسري للكوفة .
وفيما يتعلّق بالسّري بن إسماعيل الهمداني من الصائديين فقد كان كاتبا للشعبي وروى عنه الفرائض قبل أن يتولى قضاء الكوفة.
أما **المهام الأخرى** فلم يورد في شأنها ابن سعد تفاصيل واضحة وجلية .
نذكر أولا هانئ الهمداني الذي انتقل إلى الشام صحبة يزيد بن أبي سفيان في عهد الخليفة أبي بكر.
كذلك يشير ابن سعد إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب أرسل أبا موسى الأشعري واليا على البصرة دون مزيد من التفاصيل.
كما أن الخليفة علي بن أبي طالب ضمّ سعيد بن نمران الناعطي الهمداني إلى عبيد الله بن العباس حين عينه على رأس ولاية اليمن.

الخاتمة العامة:

إذا كانت الغالبية المطلقة للنخب اليمانية تنتمي من الناحية القبلية إلى همدان التي كان لها ماض مجيد وكانت شاركت في العديد من أحداث اليمن سواء في القرن السادس والسابع للميلاد أي قبل الإسلام أو في العهد الإسلامي. كما تنتمي نخب أخرى إلى قبيلة حمير التي كانت لها باليمن دولة عريقة في القدم ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد وقد تواصلت إلى حدود سنة 520 م عندما اضطهد الملك يوسف ذو نواس نصار ى نجران فحصل صراع بين اليهودية والنصرانية أدى إلى التدخل الأجنبي الذي تمثل في الأحباش - حلفاء بيزنطة - ومن المعلوم أن هؤلاء حكموا البلاد من سنة 525 إلى سنة 575 م ثم طردوا من طرف سيف بن ذي يزن الحميري الذي ثار ضدّهم وتحالف مع الفرس قبل أن يقتل سنة 578 م وتصبح بعد ذلك بلاد اليمن تحت الحكم الفارسي المباشر إلى غاية سنة 628 م تاريخ دخول آخر حاكم فارسي- باذام أو باذان- في الإسلام. وبالتالي تحولت ولاية اليمن من سطربة فارسية إلى ولاية إسلامية تابعة لدولة المدينة (انظر أطروحتي بالفرنسية عن اليمن، ج 1، تونس، 1995).

كذلك ما يمكن الوقوف عنده هو أن ابن سعد لم يترجم لأية امرأة يمانية في الجزء الخاص بالنساء واكتفى- كما كنا أشرنا - إلى الترجمة لنساء الرسول وللمهاجرات والأنصاريات وغيرهنّ.

الملاحظة الأخيرة تتعلق بانتماء كل النخب اليمانية المترجم لها لمذهب أهل السنة والجماعة ما عدا البعض مثل هانئ الهمداني أو بعض العناصر الهمدانية التي كانت موالية لعلي أثناء صراعه ضد أعدائه (أصحاب الجمل- أهل الشام والخوارج).

المصادر و المراجع

1) المصادر:

- **ابن سعد،** الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968، 9 مجلدات.
- **ابن النديم،** الفهرست ، طبعة بيروت، د.ت.
- **ابن الكلبي هشام،** جمهرة النسب، تحقيق فردوس العظم، دمشق،1984
- كتاب معدّ واليمن الكبير، تحقيق فردوس العظم، دمشق، 1988.
- **ابن عبد البرّ،** الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، 4 أجزاء، د.ت.

2) المراجع:

- **عبد العزيز الدوري،** بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب، بغداد، 1960- انظر الطبعات الأخرى.
- **فرانتز روزنطال،** تعريب صالح أحمد العلي، علم التاريخ عند المسلمين، بغداد، 1963.
- **شاكر مصطفى،** التاريخ العربي والمؤرخون, انظر ج 1، بيروت، 1979.
- **راضي دغفوس،**-التاريخ العربي والإسلامي في القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة من خلال النصوص والوثائق، مركز النشر الجامعي، تونس,2009.
- بحوث في تاريخ إفريقية واليمن، دار جليس الزمان، عمّان، 2010.

-Radhi Daghfous, Le Yaman islamique des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes (VII- IXème siècles), Tunis, 1996.deux tomes.

- Encyclopédie de l'Islam, Nouvelle Edition, Brill, Leyden (voir article Ibn Sa'd).

تحول صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم

محي الدين لاغة
كلية الآداب – سوسة

التوطئة:

تُعتبر كتب الطبقات والتراجم مصدرا غنيا بعيد الأهمية لدراسة الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لتاريخ المسلمين كما تعترض الباحث فيها معلومات غزيرة حول مسائل السكان تُعد من العلوم المعاصرة؛ فمن هذا النوع من المصادر انطلق بعض الباحثين، منهم الأستاذ عمر بن حمادي، لتناول جوانب تدخل ضمن خانة الديمغرافية التاريخية[1]. غير أن أهمية كتب الطبقات والتراجم الرئيسية تبقى في كونها مصدرا لدراسة الجوانب السياسية باعتبارها تسلط الضوء على الشخصيات الفاعلة في المجتمع، أي على النخبة.

ولأنّ معاوية بن أبي سفيان من الذين لعبوا دورا خطيرا في مرحلة صدر الإسلام يُلاحظ مُستقرئُ تراجم أعيان المسلمين أنه من الشخصيات الأكثر ذكرا نقدا وانتقادا/ مدحا وذمَا؛ هذا إلى جانب الأحكام المتناقضة في شأنه في المصادر المختلفة الأخرى ولا سيما في كتب الأنساب والتاريخ العام. ولهذا يبقى هذا العَلَمُ/ الرمز جاذبا لانتباه البحثين. وقد تتابعت الدراسات حول دوره قائدا سياسيا أو غازيا للبحر[2]. كما لفتت الروايات الواردة في شأنه في تاريخ ابن عساكر انتباه بحوث أخرى نذكر منها مقال لسعيد الأفغاني حول "معاوية والأساطير" استعرض فيه إلى ما اعتبره أحاديث موضوعة من قبل الرواة

---

[1] - عمر بن حمادي، كتب الطبقات ومشاكل استغلالها في أبحاث الديمغرافية التاريخية، ضمن بحث جماعي بعنوان **الديمغرافية التاريخية في تونس والعالم العربي،** تونس، دار سَراس للنشر والمعهد الأعلى للتكوين المستمر، 2002، ص 5- 25؛

Pellat Ch., Peut-on connaitre le taux de natalité au temps du prophète? A la recherche d'une méthode, *J.E.S.H.O.*, XIV/2, 19771, p 107- 135; Du même auteur, Quelques chiffres sur la vie moyenne d'une catégorie de Musulman, *Mélange d'Islamologie (Mémorial Abel A.*), Leyde 1974, p. 233- 246; Urvoy Dominique, *Le monde des Ulamas andalous du V/XI eme au VII/XIII eme siècle*, Genève 1978.

[2] - حياة عمامو، معاوية والبحر....؛ Lagha M., Le premier traité des musulmans en méditerranée, Mawarid, n° XVIII, 2012

الشاميين لفائدة معاوية والأمويين وردت بشكل خاص في مخطوطات من تاريخ ابن عساكر اطلع عليها صاحب المقال بالمكتبة الظاهرية قبل نشر الكتاب بأكمله لاحقا[1]. وفي نفس السياق تناولت بثينة بن حسين "صورة معاوية بن أبي سفيان من خلال ابن عساكر" ركزت فيه على محوريْن اثنيْن الأول رصْدٌ لصورة معاوية في المصدر/المُنطلق والثاني ركزت فيه على الإطار العام الذي تبلورت فيه تلك الصورة[2]. وإذْ نتفق مع الأفغاني وبثينة بن حسين في لاتاريخية الكثير من الأخبار الواردة في ابن عساكر حول معاوية فإن المنهجية التاريخية تقتضي بأن ننظر إلى ما جاء في تاريخ دمشق في إطار أوسع في الزمن، وأن نُقيم رواياته على أساس كونها ليستْ غير تطور لما جاء في تراجم سابقة وأنها كانت مصدرا لروايات لاحقة.

وقادنا التقييم السابق إلى ضرورة تتبع صورة معاوية انطلاقا مما جاء في كتب الطبقات الأولى ابتداءً من القرن الثالث للهجرة انتهاءً إلى تلك المؤلفة في نهاية التاريخ الوسيط. وبما أن الذي يعنينا بالأساس هو القيمة التاريخية لما يأتي عن معاوية من تراجم فقد جاء المحور الثاني من البحث في شكل مقاربة لما يأتي من معلومات تاريخية عن معاوية في كتب الطبقات والتراجم بنظيرتها الوردة في المصادر التاريخية.

1- تطور صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم:

1-1: كتب الطبقات الأولى القرن الثالث: تركز على ما هو تاريخي

وردَ ذكر معاوية بن أبي سفيان في عشرات المواضع من طبقات **محمد بن سعد** (ت230 هـ/844م)، كما ضمنها ترجمة مقتصرة له ذكر فيها نَسَبهُ. وأسند إلى معاوية ذاته أنه أسلم أثناء صلح الحديبية، وهو أمر فيه اختلاف، لكنه كتم ذلك تفاديا للمواجهة مع بيته وخاصة أبيه، فلم يصرح بإسلامه إلا بعد فتح مكة. وأشار ابن سعد إلى قرار الرسول اتخاذ معاوية كاتبا وذكر مشاركته في معركتيْ حنين والطائف ثم ولايته على الشام أثناء خلافة عمر، ولاية توسعت في عهد عثمان وتواصلت عشرين سنة ليُصبح بعدها خليفة لنفس تلك المدة[3].

أما ترجمة **خليفة بن خياط** (ت854/240) لمعاوية فقد جاءت مُقتضبة إذْ اكتفى بالإشارة إلى نسبه وكنيته وتاريخ وفاته، وذلك عند استعراضه للطبقة الخامسة من الصحابة الوافدين على الشام[4] .

---

[1] - سعيد الأفغاني، معاوية والأساطير، عمان، **أعمال المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام** بالجامعة الأردنية 20-25 سبتمبر 1974، ص 39-55

[2] - بثينة بن حسين، صورة معاوية بن أبي سفيان من خلال ابن عساكر، **أعمال ندوة " الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة"**، أشغال الملتقى الدولي السادس لمخبر العالم العربي الإسلامي الوسيط، تونس، 28-30أفريل 2010، ص 241- 269.

[3] - محمد بن سعد (ت230 هـ)، **الطبقات الكبرى**، بيروت، دار الكتب العلمية، تحقيق محمد عبد القادر عطا، 1990، ج 7 ص 285.

[4] - خليفة بن خياط (ت240هـ)، **الطبقات**، تحقيق أكرم ضياء العمري، بغداد مكتبة العاني1967، ص 297 ، 298.

ويتضح من السابق أن كُلا من ابن سعد وابن خياط لم يُشيرا لغير المعطيات التاريخية. بماذا يُفسر ذلك؟

إذا كان الحذر من سلطة العباسيين والتخوف من ردود فعلهم واردا في حالة روايتهما لمواد تمتدح معاوية، خاصة أن المصادر تذكر استجابة ابن سعد لضغوطات المأمون وإقراره بمسألة خلق القرآن[1] كما تذكر ما عرفه ابن خياط من معاناة زمن المأمون بسبب عدائه للمعتزلة[2]، غير أن السبب الأقرب إلى تبرير تركيز كليْهما على الأحداث التاريخية هو الإطار العام لتطور الرواية التاريخية عند المسلمين في القرن الثالث؛ إذْ مازالت الرواية في جملتها متينة الترابط بتناقل أحداث السيرة، ومازال تناول تاريخ الأشخاص متصلا شديد الاتصال بعلاقتهم بالنبي وبأحداث صدر الإسلام. وللتذكير فإن كلا من بن سعد وابن خياط بصريا الأصل وانتقلا إلى بغداد وأمضيا بها أغلب حياتهما، كما يشتركان في تجميع القسم الهام من معرفتهما للسيرة وتاريخ من الصحابة والتابعين أصيلي الحجاز؛ ولهذا اعْتُبرَا أقرب إلى مدرسة المدينة في الرواية من المدارس الأخرى وخصوصا المدرسة الشامية.

وقد انعكس ذلك بالضرورة على منهجهما حين جمعا تراجم الصحابة، إذْ نلحظُ لدى ابن سعد وكذلك ابن خياط ميلا واضحا لدمج المعطيات التي يوردانها عن تراجمهما بالمعلومات التاريخية المناسبة لزمانهم لكن دون تضمينها مواد غير تاريخية؛ بذلك تبدو التراجم وجها من وجوه التواصل مع السيرة. ولا يفوتنا هنا التذكير بأن أكثر من باحث يعتبر ابن سعد آخر جامعي السيرة من المتصلين بالمصادر الأولى وثاني مؤلف بعد ابن إسحاق وصلنا كتابه في السيرة والطبقات كاملا[3]. ويُمكن سحب ذلك الحكم على ابن خياط أيضا، بما أن جل مصادر معلوماته مُستمدة من أصحاب السير، وإن جاءت المعلومات التاريخية التي يذكرها مقتضبة جدا في غالب الأحيان.

لكل ذلك جاءت الأخبار الواردة لديهما عن معاوية مُقتصرةً على ما تم تناقله عن نسب معاوية وعلى أهمّ ما قام به من أعمال خلال الفترة المحمدية وبعدها.

---

[1] - شمس الدين الذهبي (ت 742 هـ)، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، بيروت، دار الكتاب العربي، تحقيق عمر عبد السلام التدمري 1992، ج 15 ص 21؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير (ت 774)، **البداية والنهاية**، بيروت، دار إحياء التراث، تحقيق علي شيري 1988، 10 ص 298، 299؛ Brinner W. M., Ibn Saâd, *Ency.de l'Islam (EI2)*, nouvelle édition (*E.I. 2*), Leiden Brill, vol. I, pp. 946-947.

[2] - Zakkar S., Ibn Khayyat al-Usfûri, *E.I.2*, vol. I, pp. 862- 863.

[3] - جوزيف هوروفيتس، **المغازي الأولى** ومؤلفوها، القاهرة، مطبعة الحلبي، ترجمة حسين نصار، ص 126- 132؛ عبد العزيز الدوري، **نشأة علم التاريخ عند العرب**، الإمارات العربية المتحدة، مركز دراسات زيد للتراث والتاريخ، 2000، ص 32؛ محمد الجوادي، كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد، **أعمال ندوة " الكتابة التاريخية في العصر الوسيط، من الخبر والرواية إلى النص والوثيقة"**، ص51- 105.

يبدأ الحديث عن فضائل معاوية مع **البخاري**(ت869/256)، المعاصر لابن سعد وكان يطلع على ما لديه من كتب حسب الخطيب البغدادي[1]، فهو أول من أدمج في تاريخه رواياته أحاديث منسوبة للرسول تمتدح في جملتها معاوية[2]: نقل حديثَيْن منسوبين للرسول: "اللَّهُمَّ عَلِّمْ مُعَاوِيَةَ الْحِسَابَ وَقِهِ الْعَذَابَ" و" اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَأَهْدِهِ وَأهْدِ بِهِ" وقولا منسوبا لابن عباس "ما رأيت أحدا أخلق للملك مِنْ مُعَاوِيَةَ"

أما أحمد بن زهير المعروف **بابن أبي خيثمة** (ت892/279) فقد راوَحَ في كتابه التاريخ الكبير بين ذكر مزايا معاوية عندما اعتبره ضمن "المؤلفة قلوبهم" وبين تصنيفه ضمن دهاةُ الْعَرَب الأربعة، إلى جانب عَمْرو بْنُ العاصي والْمُغِيْرَة ابْنُ شُعْبَة وزِيَاد بن سمية (أو ابن أبيه)، واتهامه بتأسيس دولة "هِرَقْلِيَّةً تورث الأبناء"[3]. ولا يُستبعد أن يكون انتقاد ابن أبي خيثمة لسياسة معاوية ناتجا عما عُرف عنه من ميولٍ قدرية وعلاقة وطيدة بالوزير العباسي علي بن عيسى المعروف بابن ماهان[4].

* خلال القرنيْن الرابع والخامس تحولت صورة معاوية بصورة عميقة:

فقد كرر **البغوي** المتوفى في بداية القرن الرابع(ت929/317) الأحاديث التي نقلها البخاري: " اللهم علمه الحساب والكتاب وقه العذاب" والدعاء لمعاوية بأن يجعله "هاديا مهديا" وكذلك الحديث المنسوب لابن الخطاب "ما رأيت رجلا بعد رسول الله (ص) كان أسود من معاوية "[5]. ويظهر أن البغوي كان أولَ من أورد خبر إسلام معاوية "عام القضية" (السنة السابعة للهجرة) وليس سنة صلح الحديبية كما جاء في رواية محمد بن سعد. لكن أبرز إضافة هي كونه الأول ممنْ أورد الرواية التي يتنبأ فيها أعرابي بأن معاوية "سيسود قومه"[6]. ومع ذلك تبقى السمة الأساسية لترجمة معاوية في معجم البغوي هي الاختزال والاقتضاب، وهي الملاحظة ذاتها في مختلف تراجم القرن الرابع الأخرى مثل ابن أبي حاتم وابن حبان في كتابه الجرح والتعديل ومشاهير ابن حبان البُستي ومعرفة الصحابة لابن مَنْدَه، التي لا نجد فيها غير تأكيد على مسألة صحبة معاوية[7].

---

[1] - الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، **تاريخ بغداد**، بيروت، ت بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي 2002 م، ج 3 ص 268.

[2] - محمد بن إسماعيل البخاري (ت256)، **التاريخ الكبير**، حيدر آباد – الدكن، دائرة المعارف العثمانية، د ت، ص 326، 327.

[3] - أبو بكر أحمد بن أبي خيثمة (المتوفى: 279هـ)، **التاريخ الكبير المعروف بتاريخ ابن أبي خيثمة**، القاهرة، تحقيق صلاح بن فتحي هلال، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، 2006، 1 ص 2 ص 23، 55، 70،

[4] - Pellat Ch., Ibn abi Khaythama, *E. I.2*, vol. I, pp. 708- 709.

[5] - عبد الله بن محمد البغوي (المتوفى 317هـ)، **معجم الصحابة**، الكويت، تحقيق محمد الأمين بن محمد الجكني، مكتبة دار البيان، 2000، 5ص 364، 367، 369.

[6] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 363، 365، 368.

[7] - عبد الرحمن بن محمد ، ابن أبي حاتم (المتوفى:327هـ)، **الجرح والتعديل**، بحيدر آباد الدكن – الهند، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 8 ص 377؛ محمد بن حبان، البُستي (المتوفى:

وخلال القرن الخامس أعاد **أبو نعيم الأصبهاني** (ت 1037/430) [1] الأفكار التي أصبحت معهودة في زمنه، فاستعرض الروايات المتصلة بتاريخ إسلام معاوية محددا ذلك" أَسْلَمَ قُبَيْلَ الْفَتْحِ، وَقِيلَ: عَامَ الْقَضِيَّةِ وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيَ عَشْرَةَ" ممتدحا معاوية بكونه مِنَ الْكَتَبَةِ الْحَسَبَةِ الْفَصَحَةِ" وبأنه "كَانَ حَلِيمًا وَقُورًا فَصِيحًا" زيادة على اعتباره (معاوية) من قِبل ابن عباس كواحد من فقهاء المسلمين وهو ما يبرر سلطته كمحدث روي عنه عدد كبير من الصحابة والتابعين. غير أن أبرز إضافات لأبي نعيم، والتي قد تدخل في إطار الدعاية أو الفضائل، هي إيرادُه لمجموعة من الأحاديث والشهادات التي تؤكد على كفاءة معاوية السياسية وقدرته على إدارة شؤون الدولة. في هذا الإطار أعاد أبو نعيم قول عبد الله بن عمر: «مَا رَأَيْتُ أَحَدًا كَانَ أَسْوَدَ مِنْ مُعَاوِيَةَ» وعززه بحديث مطابق لذلك في المحتوى منسوب هذه المرة لابن عباس وخاصة كونه لم يرَ" رَجُلاً أَخْلَقَ لِلْمُلْكِ مِنْ مُعَاوِيَةَ". في ذات الإطار ذكر أبو نعيم أن معاوية" مَلَكَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عِشْرِينَ سَنَةً مُنْفَرِدًا بِالْمُلْكِ" في إشارة لكفاءته.

وعزز أبو نعيم الشهادات السابقة بحديث جاء على لسان معاوية ذاته "مَا زِلْتُ أَطْمَعُ فِي الولاية مُذْ قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ (ص): يَا مُعَاوِيَةُ, إِذَا مَلَكْتَ فَأَسْجِحْ"، وقولا لخصمه اللدود خلال الطور الثاني من الفتنة الكبرى علي بن أبي طالب بَعْدَ رُجُوعِهِ مِنْ صِفِّينَ: «لا تَكْرَهُوا إِمَارَةَ مُعَاوِيَةَ، وَاللهِ لَئِنْ فَقَدْتُمُوهُ لكأني أَنْظُرُ إِلَى الرُّؤوسِ تَنْدُرُ عَنْ كَوَاهِلِهَا كَالْحَنْظَلِ».

من جانبه ذكر **ابن عبد البر القرطبي** (ت 1070/463) [2]، خلال نفس القرن، اندماجه (معاوية) في المنظومة الإسلامية باعتباره وأبيه من"المؤلفة قلوبهم" مع تركيز بين على استعراض تنامي دور معاوية السياسي في عهد عمر بن الخطاب.

أما **الخطيب البغدادي**، المتوفى في نفس السنة التي تُوفي فيها القرطبي، فقد ركز بصورة خاصة في ترجمته لمعاوية على قدراته السياسية، وركز بصورة رئيسية على نجاحه في ضمان ثقة الرسول وعمر بن الخطاب وعثمان وعلى نجاحه في توحيد دولة المسلمين عام الجماعة. ودعما لذلك أعاد الحديث الذي دعا فيه الرسول لمعاوية بالهداية كما أوردَ حديثا لصحابي (الربيع بن نافع) اعتبر فيه معاوية سِتْرا للصحابة[3].

354هـ)، **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، المنصورة، ت مرزوق على ابراهيم، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، 1991م، ص 86؛ محمد بن إسحاق بن مَنْدَه العبدي (المتوفى: 395هـ)، **معرفة الصحابة**، جامعة الإمارات المتحدة، ت عامر حسن صبري، 2005، ص 953.

[1] - أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، **معرفة الصحابة**، الرياض، ت عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، 1998، مجلد 5 ص 2496.

[2] - يوسف بن عبد البر القرطبي (المتوفى: 463هـ)، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، بيروت، ت م علي البجاوي، دار الجيل 1992م، مجلد 3 ص 1416؛ Pellat Ch., Ibn Abd al-Barr, *E. I.2*, vol. I, pp. 695- 696

[3] - الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، **تاريخ بغداد**، 1 ص 574، 577.

ب: تضخم صورة معاوية في تراجم الوسيط المتأخر:

يعكس ما يجيءُ في تاريخ دمشق **لابن عساكر** (ت 571هـ/1176م) ذلك بجلاء[1]، بما أن الترجمة التي أوردها لمعاوية هي من أوسع التراجم المُتداوَلة. فقد نقل ابن عساكر عديد الروايات فحواها ذكاء معاوية وحلمه. وأعطى لإسلامه بُعدا "نضاليا"، ففي رواية ترقى إلى محمد بن سعد نقلا الواقدي ينسب إلى معاوية كونه أسلم عام الحديبية لكنه أخفى ذلك خوفا من أبيه. وتوسع ابن عساكر في مسألة اتخاذ معاوية كاتبا للوحي من قبل الرسول، ونقل في هذا الإطار أكثر من رواية أبرزها تلك التي تُفيد بأن استكتاب معاوية كان بوحي إلهي[2]:

ففي رواية أولى ترقى إلى هشام بن عروة، وتُعطي لأم حبيبة أخت معاوية وزوجة الرسول دورا معينا في عطف محمد على معاوية، أورد ابن عساكر الحديث "والله ما استكتبتك إلا بوحي من الله وما أفعل من صغيرة ولا كبيرة إلا بوحي من الله عز وجل". وفي رواية أخرى ترقى إلى أبي موسى الأشعري وهو يفسر سبب نزول آية الكرسي ذكر تنافس كثير من الصحابة على كتابة سورة آية الكرسي عند حلولها في الوحي غير أن الرسول أوكل ذلك إلى معاوية مبررا ذلك أيضا بوحي من السماء. وفي نفس الموضوع ينقل ابن عساكر روايات يبلغ فيها تبجيل معاوية مداه الأقصى عند نقل الحديث الذي يجعل من معاوية بن سفيان مستأمنا على الوحي تماما كما الأمر بالنسبة لمحمد. وتذهب نفس الرواية إلى اعتقاد الرسول أن الله كاد أن يبعث معاوية نبيا لكثرة حلمه وائتمانه على كلامه ولهذا غفر له ذنوبه "ووفاه حسابه وعلمه كتابه وجعله هاديا مهديا وهدى به"[3]. وهي أحاديث تذكر بالأحاديث المتواترة لدى بعض الفرق الشيعية عن علي بن أبي طالب.

في نفس الإطار نقل ابن عساكر صيغا عديدة و لا تختلف في جوهر معناها عما أورته المصادر السابقة للحديث الذي يدعو فيه الرسول بالهداية لمعاوية، أبرزها " اللهم اجعله هاديا مهديا وأهده وأهد به"؛ غير أن الإضافة الهامة لابن عساكر التي زادها هو أنه وضع هذا الدعاء في إطار تاريخي أدمج فيه أم حبيبة زوجة الرسول وأخت معاوية. وتجسيدا لثقة مصدر الوحي (الله عبر جبرائيل) وناقله ومتقبله (محمد) في معاوية يتوج الخبر الذي يرويه ابن عساكر بنبوءة الرسول بتولي معاوية الخلافة؛ وكان ذلك حينما رد الرسول بإيجاب على تساؤل أم حبيبة حول ما إذا كان سيكون لأخيها دور ما في زعامة المسلمين ("قميص")، وإنْ يُفهم من ذلك الحوار أن تصدر معاوية للحياة السياسية في مستقبل الدولة الإسلامية سيكون مصحوبا بجملة من

---

[1] - علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: 571هـ)، **تاريخ دمشق**، بيروت، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع 1995، 59 ص 69

[2] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69، 73

[3] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 74.

تحديات[1]. وفي نفس السياق جاءتْ في تاريخ دمشق أحاديث عديدة تبشر بخلافة معاوية وتشرعها، منها الذي يُفيد بنبوءة الرسول توليه (معاوية) حكم الشام: " ليلين بعض مدائن الشام رجل عزيز منيع هو مني وأنا منه. فقال له رجل من هو يا رسول الله قال فقال... بقضيب كان بيده في قفا معاوية"[2].

وزيادة عن الأحاديث المنسوبة للرسول في هذا المجال أورد ابن عساكر روايات ترقى إلى شخصيات من الصحابة والتابعين تلتقي كلها عند فكرة كون خلافة معاوية للمسلمين هي أمر مُقدر بمشيئة إلهية، منها واحد ينسبُه إلى معاوية ذاته يبشره فيه الرسول بولاية أمته من بعده ويوصيه بحسن السيرة فيها؛ وآخر يرقى إلى ابن عباس عبر عنه أثناء الفتنة وفيه قناعته الراسخة بأن أمر الخلافة سيؤول حتما إلى معاوية، وحديث ثالث يرد فيه الحسن بن علي على منتقديه على تسليمه الخلافة لمعاوية سنة 41 بحرصه على تلافي التقاتل بين المسلمين مُحتجا في ذلك بما سمعه من أبيه نفسه بأن الحكم آيلٌ لا محالة إلى معاوية. وفي نفس السياق نقل ابن عساكر تأويلا يرقى إلى كعب (ولعله كعب الأحبار المعروف بتفسير الأحداث على ضوء الإسرائيليات) يقول أن حكم المسلمين بعد عثمان سينتقل إلى معاوية[3].

وجاءتْ في تاريخ دمشق أحاديث عديدة تشترك في تعظيم مكانة معاوية لدى الرسول، من ذلك تسميته بخال المؤمنين اعتبارا لصلة الأخوة بينه وبين أم حبيبة في واحدِ منها، وفي حديث آخرَ يعتبر حب معاوية فرضا على المسلمين، وفي ثالث يقول فيه محمد"إني أحب معاوية وأحب من يحب معاوية وجبريل وميكائيل يحبان معاوية والله أشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل[4] .

وأولَ ابن عساكر أحاديث منسوبة للرسول على خلاف ما تذهب إليه التيارات المعادية للأمويين، منها ذلك الذي ينسب للرسول قوله "...إذا رأيتم معاوية على المنبر فاقتلوه "معتبرا في رواية أولى أن المَعني بالقتل هو معاوية بن تابوه المُتهم بالنفاق، وفي رواية ثانية يذهب إلى أن أصل الحديث هو "... إذا رأيتم معاوية على منبري فاقبلوه فإنه أمين مأمونٌ"[5].

---

[1] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69: " فقامت أم حبيبة فجلست بين يديه فقالت يا رسول الله وإن الله مقمص أخي قميصا؟ قال نعم ولكن فيه هنات وهنات وهنات. فقالت يا رسول الله فادع الله له فقال اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى".

[2] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 91، 110.

[3] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 59 ص 123، 125، 151.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 3 ص 208، ج 14 ص 113، ج 59 ص 55،90، 103، ج 69 ص 148.

[5] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 157، 158.

وفي محاولة لإثبات دور معاوية في تركيز الدولة نقل ابن عساكر رواية ادعى فيها عبد الملك بن مروان بأن معاوية هو الذي قتل مسيلمة[1]، وهو خبر لم يرد في أي مصدر تاريخي.

كيف يُفهم تضخم صورة معاوية في تاريخ دمشق؟

لقد ألف ابن عساكر كتابه في ظرف متأزم كانت أبرز تجلياته تفتت الخلافة العباسية مع بروز حكم الإمارة الزنكية التي بسطت نفوذها على أغلب مناطق سوريا وحاول سلاطينها الظهور بمظهر الحامي للمذهب العامة في مواجهة المد الشيعي مُمَثلاً خاصة في مجموعات الحشاشين، ذراعهم العسكري في بلاد الشام، وفي الخطر الفاطمي القادم من مصر.

في هذا الإطار كانت المنافسة المذهبية أبرز مظاهر الصراع وكان الدفاع عن رموز السلف (ومعاوية منهم لدى أغلب الفرق السنية) أحد آلياته الفعالة. ولم يكن ابن عساكر، الذي كان من أبرز الفقهاء الشافعيين في زمنه، بمعزل عن تلك المواجهة بما أن استقراره بمدينة دمشق تم في ظرف اشتد فيه الصراع بين الزنكيين والحركات الشيعية المختلفة، بل أن تأليف كتاب تاريخ دمشق كان على ما يبدو بطلب من السلطان نور الدين بن زنكي ذاته والذي بنا مدرسة (المدرسة النورانية) وضعها على ذمة المحدثين الموالين لرواية الحديث وكُلف ابن عساكر بالإشراف عليها[2].

خلال **القرن السابع**: لاحت بوادر نقد الرواية: لم يُضفْ **عز الدين بن الأثير**(ت 1232/630) شيئا كثيرا عما جاء في كتب الطبقات وكتب التراجم السابقة، وتميزت ترجمته لمعاوية في كتابه أُسْدُ الغابة بالاقتضاب[3]. ذكر ابن الأثير بسرعة اندماج ابن أبي سفيان في نظام الدولة في الفترة النبوية وتوسع نفوذه ببلاد الشام في عهد الخليفتيْن عمر وأبي بكر ثم نجاحه في السيطرة على كامل الدولة عام الجماعة متوجا بذلك عشرين سنة من الإمارة ومُبتدئا عشرين سنة من الخلافة حسب ابن الأثير. إن الإضافة الوحيدة لابن الأثير في هذا الخصوص هي حسمه بأن إسلام معاوية كان سنة فتح مكة رغم إشارته (ابن الأثير) إلى ادعاء معاوية بأن إسلامه كان "عمرة القضاء" في السنة السابعة للهجرة.

ومع ذلك يبدو أن ابن الأثير، الذي كان مقيما بالموصل ومقربا من الأتابك السُنة، لم يكنْ بمقدوره التخلص التام من ثقل الصراع المذهبي الذي مازال على أشده؛ وهو ما قد يفسرُ إيرادَه لبعض الأحاديث المُمتدحة لفضائل معاوية والتي جاءت في التَرجمات السابقة ولا سيما في تاريخ ابن عساكر مثل القول المنسوب للنَّبِيِّ: " اللَّهُمَّ، اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا" وقول عبيد الله بن عمر أنه لم يرَ

---

[1] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 107.

[2] - Elisseeff Ni., Ibn 'Asakir, *E. I. 2*, vol. I, pp. 736-737; Landsey, *Ibn Asakir and early Islamic History*, Princeton, Darwin Press 2001.

[3] - عز الدين ابن الأثير (المتوفى: 630هـ)، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، بيروت، ت علي محمد معوض - عادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، 1994 م، ج 5 ص 201.

" أسود من معاوية"؛ كما أورد ابن الأثير حديثا استدرك فيه الرسول دعاءه على معاوية بعدم الشبع بدعاء آخر يعترف فيه بأنه قد يغضب كعامة البشر ويرجو فيه أن يحول ذلك الدعاء إلى قُربان من الذات الإلهية[1]. لكنا مع ذلك نلحظ لديه ابتعادا عن تكرار الأخبار التي تصبغ على معاوية صبغة فوق بشرية، وهو ما يؤشر إلى نوع من النقد لتلك الروايات، منحًى سيتضح أكثر في بعض كتب التراجم اللاحقة.

فقد اكتفى **محيي الدين النووي** (ت 1277/676) في كتابه تهذيب الأسماء واللغات[2] بإعادة المعلومات التاريخية التي أصبحتْ رائجة في زمانه مُركزا بالأساس على تقدم معاوية في رواية الحديث بما أنه رُويَ له عن الرسول مائة حديث، وهو ما أهله ليكون مصدرا لعدد كبير من الصحابة والتابعين.

خلال القرن الثامن تعزز الاتجاه النقدي للرواية بصورة واضحة. وبدا ذلك مع **شمس الدين الذهبي** (ت 1348/748) الذي يقسم الأحاديث الواردة في شان معاوية إلى مجموعتيْن من الأحاديث، واحدة "باطلة ظاهرة الوضع" وأخرى "ضعيفة تُحتمل". ولقد أورد أوسع ترجمة لمعاوية وأطولها بعد ما جاء في ابن عساكر[3]، لكنها ترجمة فيها نفسٌ من إعمال العقل: فقد نقل المعلومات المتداولة عن سيرة معاوية في صدر الإسلام، والتي تقدم عنه على العموم صورة إيجابية، لكنه في المقابل شكك الذهبي في رواية الوَاقِدِيُّ التي تفيد بإسلامه أثناء الحديبية وتلك التي يقول فيها أن معاوية شارك في معركة حُنيْن وأن الرسول أغنمه مائة بعير. واتهم الذهبي الواقدي بأنه لاَ يَعِي مَا يَقُوْلُ[4]، وخير الذهبي في المقابل اعتماد مصادر مدينية أخرى مثل الزهري ومصعب لزبيري وابن عباس والصحابي عَبْدِ الرَّحْمَنِ بنِ أَبِي عَمِيْرَةَ المُزَنِيّ وغيرهم.

وتبعا لنفس منهجه انتقد الذهبي في ترجمة لمعاوية ابنَ عساكر لذكره أحاديثَ قدر أنها "واهية وباطلة" ولاسيما تلك التي تفيد بأن اتخاذ معاوية كاتبا للوحي كان بأمر إلهي وأنه أمينٌ على "خبر السماء"[5]. مع هذا حاول صاحب "السير" تبرير حياد الروايات الواردة في تاريخ دمشق عن "الإنصاف والاعتدال" بكونها نشأتْ في وسط ثقافي موال تمام الموالاة

---

[1] - ابن الأثير، **أسد الغابة**، ج 5 ص 201.

[2] - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي الشافعي (المتوفى: 676هـ)، **تهذيب الأسماء واللغات**، بيروت، دار الكتب العلمية، د ت، ج2 ص 101، 102.

[3] - الذهبي، شمس الدين الذهبي (المتوفى : 748هـ)، **سير أعلام النبلاء**، بيروت، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة 1985، ج 3 ص 119- 162.

[4] - الذهبي، نفس المصدر، 3 ص 120:" قُلْتُ: الوَاقِدِيُّ لاَ يَعِي مَا يَقُوْلُ، فَإِنْ كَانَ مُعَاوِيَةُ كَمَا نَقَلَ قَدِيْمَ الإِسْلاَمِ، فَلِمَاذَا يَتَأَلَّفُهُ النَّبِيُّ (ص) وَلَوْ كَانَ أَعْطَاهُ، لَمَا قَالَ عِنْدَمَا خَطَبَ فَاطِمَةَ بِنْتَ قَيْسٍ: (أَمَّا مُعَاوِيَةُ فَصُعْلُوْكٌ لاَ مَالَ لَهُ".

[5] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 127، 129.

للأمويين[1]. في المقابل اعتبر الذهبي عصره ملائما لاتخاذ مواقف أكثر اتزانا إزاء معاوية و بالتالي إزاء المواجهة بين الرواية الشامية التي اعتمدها ابن عساكر والروايات المنافسة لها.

مع ما تقدم لا نستشف من الاتجاه العام لروايات الذهبي معاداة للأمويين بل هناك توسعٌ واضح في استعراض فضائل معاوية. من ذلك أنه أعطى تفسيرا إيجابيا للحديث" لاَ أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَهُ" (معاوية) واستبعد المعنى الظاهري المادي الوارد في تفاسير أخرى مُستدركا أن المقصود من ذلك هو" لاَ أَشْبَعَ اللهُ بَطْنَهُ؛ حَتَّى لاَ يَكُوْنَ مِمَّنْ يَجُوْعُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لأَنَّ الخَبَرَ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: (أَطْوَلُ النَّاسِ شِبَعاً فِي الدُّنْيَا، أَطْوَلُهُم جُوْعاً يَوْمَ القِيَامَةِ)". كما نقل الذهبي الأخبار التي تُفيد دعم عمر بن الخطاب لمعاوية[2] وذكر بصيغ مختلفة الأحاديث التي أوردها ابن عساكر والتي تفيد نبوءة الرسول سيطرة المسلمين على الشام بفضل معاوية[3].

وتنطبق هنا على الذهبي المُلاحظةُ التي سُقناها عن ابن كثير، بما أنه لم يتمكن هو أيضا من الحسم في الروايات التي تحاول إضفاء الشرعية على معاوية بالأحاديث النبوية وشهادات المرجعيات، فوقع في مجاراة الأحاديثَ التي تشيد بفضائل معاوية وخاصة تلك التي يدعو له فيها الرسول بالهداية وبتمكينه من "البلاد" وبوقايته من العذاب كما أورد الحديث الذي ينصح الصحابة بإحضاره في مجالسهم واستشارته باعتباره " قَوِيٌّ أَمِيْنٌ".

وقد نحى **ابن حجر العسقلاني** (ت 1448/852) نفس المنحى خلال القرن التاسع للهجرة. فلئن أعاد في ترجمته لمعاوية تجميع ما أورده ابن سعد وأبو نعيم الأصفهاني والبغوي وأضاف إليها رواياتً أخرى تدعم الرأي السائد حول كفاءة معاوية في الحكم[4]، فقد نقد ابن حجر محتوى بعض تلك الروايات. فلقد تساءل مؤلف كتاب الإصابة، كما قام بهذا الذهبي، عن مدى صحة الرواية التي ذكرها الواقدي والتي تُفيد بإسلام معاوية أثناء عمرة القضاء مُعتبرا ذلك متعارضا مع ما صرح به سعد بن أبي وقاص حينما أكد أن معاوية لازال حينئذ "كافرا". ومع هذا فإن ابن حجر لم ينف احتمال صحة ما جاء في رواية الواقدي في هذا الصدد مُلاحظا أن رأي سعد بن أبي وقاص قد

---

[1] - يقول الذهبي " وَخَلَفَ مُعَاوِيَةَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ يُحِبُّوْنَهُ وَيَتَغَالُوْنَ فِيْهِ، وَيُفَضِّلُوْنَهُ، إِمَّا قَدْ مَلَكَهُم بِالكَرَمِ وَالحِلْمِ وَالعَطَاءِ، وَإِمَّا قَدْ وُلِدُوا فِي الشَّامِ عَلَى حُبِّهِ، وَتَرَبَّى أَوْلاَدُهُمْ عَلَى ذَلِكَ... وَحَارَبُوا مَعَهُ أَهْلَ العِرَاقِ، وَنَشَأُوا عَلَى النَّصْبِ... كمَا قَدْ نَشَأَ جَيْشُ عَلِيٍّ ... عَلَى حُبِّهِ، وَالقِيَامِ مَعَهُ، وَبُغْضِ مَنْ بَغَى عَلَيْهِ... وَغَلاَ خَلْقٌ مِنْهُم فِي التَّشَيُّعِ. فَبِاللهِ كَيْفَ يَكُوْنُ حَالُ مَنْ نَشَأَ فِي إِقْلِيْمٍ، لاَ يَكَادُ يُشَاهِدُ فِيْهِ إِلاَّ غَالِياً فِي الحُبِّ، مُفْرِطاً فِي البُغْضِ، وَمِنْ أَيْنَ يَقَعُ لَهُ الإِنْصَافُ وَالاعْتِدَالُ؟"، نفس المصدر، ج 3 ص 128.

[2] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 126.

[3] - الذهبي، نفس المصدر، ج 3 ص 139، 150، 159.

[4] - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، بيروت، ت عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية 1415 هـ، ج 6 ص 120؛ **لسان الميزان**، عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية 2002، 5 ص 95.

يكون ناتجا عن عدم علمه بإسلام معاوية باعتبار أنه لم يجهر بانخراطه في الدين الجديد قبل إخضاع مكة خوفا من عشيرته[1].

1-2: ما يأتي في كتب الطبقات والتراجم: هو من نوع أدب الفضائل:

باستثناء ما جاء في كتابيْ ابن سعد وابن خياط في القرن الثالث، يبدو جليا من السابق إيلاء مدوني الطبقات والتراجم الأهمية للجوانب الإيجابية في شخصية معاوية، بل ويتحول ذلك في كثير من الروايات إلي تركيز على ما هو غير تاريخيّ فيها، أسطوري حسب سعيد الأفغاني[2]. ومن طبيعي أن يستنتج المُهتم بالتاريخ السياسي أن الغرض الأول من التبجيل المُفرط للرموز السياسية ليس غير إضفاء لشرعية تسمو بصاحبها عن الطعن والنقد. وحسب تقديرنا يدخل ذاك الكم الهائل من تلك الروايات التي تهم معاوية ضمن ما عُرف في الثقافة العربية الإسلامية بأدب الفضائل الذي بدأ يتطور منذ القرن الثالث/التاسع للهجرة، أي في نفس المرحلة التي نشأت فيها المناقب (للصحابة و"الصالحين") والشمائل (الرسول). وقد كان لأدب الفضائل أكثر من اهتمام: فقد ظهرت مؤلفات في فضائل المواقع والمواضع[3]، وأخرى في فضائل الشهور[4] والفقهاء[5]. ودُونتْ كتب في فضائل الصحابة، ومنها فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (ت 241/ 855) وكتاب فضائل عثمان لابنه (ابن حنبل) عبد الله (ت 868/451) وكتاب فضائل أبي بكر الصديق لمحمد بن عل الحربي، المعروف بالعشاري (ت 868/451).

واعتبارا إلى أن مسألة الخلافة والحكم كانت مركزية في الصراع فقد ظهرت منذ فترة مبكرة من التاريخ الإسلامي كتبٌ تدعو لهذا المعسكر السياسي أو ذاك[6]. ولأنّ معاوية مثّل منعرجا قد لا يكون له مثيل في دولة المسلمين الأولى (غير قواعد انتقال السلطة بتأسيسه حكما وراثيا وحول مركزها من المدينة إلى الشام وأعاد للقبيلة اعتبارها...) كان هدفا لمعارضين عديدين في حياته وعلامة للظلم عند خصوم الأمويين خلال القرنيْن الأول والثاني. بدْءا من القرن الثالث، وبسبب تعدد التناقضات التي عاشتها الدولة العباسية وعدم توازن سياسة بعض خلفائها المذهبية، ستشهد صورة معاوية

---

[1] - ابن حجر، **الإصابة**، 2 ص 120.

[2] - سعيد الأفغاني، مقال" معاوية والأساطير"، مذكور سابقا.

[3] - منها: **فضائل مكة** لعبد الكريم بن محمد، المعروف بأبي سعيد (ت 110 ه)، و**فضائل المدينة** للمفضل بن محمد الشعبي (ت 308 ه)، و**فضائل الكوفة** لمحمد بن جعفر المشهدي (ق VI ه)، و**فضائل القدس** لعبد الرحمن بن الجوزي (ت579 ه)، و**فضائل الشام** لأبي سعيد السمعاني (ت 562 ه)، وفضائل الشام لمحمد بن أحمد المقدسي (744 ه).

[4] **- فضائل الأوقات** للبيهقي، و**فضائل شهر رجب** للحسن بن مجمد الخلال (ت 439 ه)، و**فضائل رمضان** لابن شاهين، و**فضائل رمضان** للجماعيلي (ت 600 ه).

[5] - فضائل أبي حنيفة وأخباره لعبد الله بن محمد السعدي المعروف بابن أبي العوام (ت 335 ه)، ومناقب الشافعي لمحمد بن الحسن السجستاني (ت 363 ه).

[6] - تزخر المكتبة الشيعية بعشرات الكتب، منها: **فضائل الشيعة** لمحمد بن علي، ابن بابويه (ت 381 ه)، و**مناقب علي بن أبي طالب** لعلي بن محمد، ابن المغازلي (483 ه)، **فضائل آل البيت** لتقي الدين المقريزي (ت 845 ه).

تحولا إلى نقيض ما كانت عليه سابقا عند أكثر من طرف؛ فقد أصبح معاوية رمزا للمقاومة لدى من تبقى من أنصار الأمويين[1] وفي أكثر من مناسبة رمزا لاحتجاج العامة وبعض النخب على الأوضاع التي تعيشها.

وكان من معالم ذلك أنْ تعددتْ منذ القرن الثالث الكتب التي تعدد مناقبه، وتدفع بالتالي التهم عن الأمويين[2]، ومنها: كتاب "حلم معاوية" لابن أبي الدنيا المتوفى سنة 894/281. ويُنسبُ لابن أبي الدنيا أكثر من كتاب في أخبار معاوية رغم كونه مؤدبا لعدد من أولاد الخلفاء العباسيين منهم المعتضد وابنه عليّ، وإنْ كان ذلك لا يعني بالضرورة ولاءً سياسيا بما أن كتب التراجم تنسبُ له كذلك عناوين في "فضائل عليّ" و"فضائل العباس". ويُلاحظ من خلال منقولات البلاذري في كتابه الأنساب وكذلك مما أورده منه ابن عساكر في تاريخ دمشق[3] أن كتاب "كتاب حلم معاوية" هو أوسع بكثير من الكتاب الذي يحمل نفس العنوان والمنسوب لابن أبي الدنيا الذي نشره المحققان عصام مصطفى هزامة ويوسف أحمد بني ياسين في كتيب نشراه في عمان بعنوان "ثلاث رسائل في فضائل معاوية"[4].

وإلى جانب الكتاب السابق ضَمنَ هذان الباحثان كتابهما المذكور مقاطع من كتاب "فضائل أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان" وأخرى من كتاب" شرح عقد أهل الإيمان في معاوية بن أبي سفيان وذكر ما وردَ في الأخبار من فضائله ومناقبه"، الأولُ لعبيد الله بن محمد السقطي البغدادي (القرن الرابع/ العاشر الميلادي) والثاني للحسين بن علي الأهوازي، المتوفي سنة 1054/446. وإذا كان من غير المعلوم دوافع تأليف السقطي لكتاب في فضل معاوية، وقد كان مقربا من العباسيين فقد عُرف الأهوازي بميله الواضح للدفاع عن الأمويين وهو ما جعل الذهبي ينتقد كتابه بكونه مَلِيءٌ "بالأباطيل السمجة"[5].

بالإضافة للمصنفات السابقة تذكر المصادر "كتاب فضائل معاوية" لأبي عمرو الزاهد المعروف بغلام ثعلب (ت 957/345)، والذي بقي مُتداولا حسبما يبدو حتى القرن التاسع للهجرة[6]، و"كتاب البراهين في إمامة الأمويين" لمؤلف مجهول وكتاب "فضائل معاوية" لأبي بكر بن عاصم الذي

---

[1] - فاروق عمر، **العباسيون الأوائل، 97 هـ /716م- 170 هـ /786م**، بيروت، دار الإرشاد، الجزء الأول، ص 154- 156.

[2] - من الكتب التي تُذكر في ثلب معاوية والأمويين: "**رسالة في مثالب بني أمية**" لابن الكلبي وكتابان ذكرهما ياقوت لابن عمار الثقفي وهما " **مثالب معاوية**" و "**الرسالة في تفضيل بني هاشم مواليهم وذم بني أمية وأتباعهم**".

[3] - ابن عساكر،**تاريخ دمشق**،59ص179،178،152،126،125،112،82،185،183،187، 188.

[4] - عصام مصطفى هزامة ويوسف أحمد بني ياسين، **ثلاث رسائل في فضل معاوية**، اربد، مؤسسة حمادة لدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، 2000.

[5] - شمس الدين الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، القاهرة، دار الحديث، ج13 ص287.

[6] - ياقوت الحموي، **معجم الأدباء أو إرشاد الأريب**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، تحقيق إحسان عباس، 1993، ج 6 ص 2558؛ ابن حجر، **لسان الميزان**، 5 ص 428.

ذكره ابن حجر في مُعجمه[1] وكتاب بنفس العنوان ليوسف بن عمر القواس (ت385/ 995)[2]. عِلْمًا أن الاهتمام بفضائل معاوية لم يقتصر على المشارقة بل ساهم نُظراؤهم من المغاربة في ذلك مثل ابن عبد ربه الأندلسي (ت 328/ 939) الذي توسع في استعراض أخبار معاوية وخصص بابا من عِقْده للحديث عن "فضائل معاوية" السياسية[3] بينما لم يذكر عن فترة علي بن أبي طالب غير أطوار صراعه مع خصومه، وهو ما يوحي بعدم ترتيبه ضمن خلفاء الدولة الإسلامية.

ولأن استحضار الماضي بقي غطاء لتبرير الصراعات العقائدية وربما لرفض استحقاقات انخراط المسلمين في ما نادت به الحداثة من أفكار فقد عاد البعض في بداية التاريخ الحديث إلى تأليف كتب تتمحور حول الدفاع عن معاوية مثل "تطهير الجنان واللسان عن الخوض والتفوه بثلب معاوية بن أبي سفيان" لأحمد بن حجر الهيتمي الشافعي (ت 974 ه)[4].

ج- أبعاد تحول صورة معاوية في كتب الطبقات: فضائل معاوية : انعكاس للتناقضات المختلفة:

* الدعاية لمعاوية رد فعل على السياسة العباسية: لم يؤد نجاح العباسيين في السيطرة على بلاد الشام وقتل مروان بن محمد سنة 750/142م إلى إنهاء كل مساندة للدولة الأموية، والتي تواصلت بأشكال مختلفة. فبعد التغلب على الانتفاضات المسلحة التي قادها بعض الأمراء الأمويين خلال السنوات الأولى التي تلت سقوط دولتهم (أبرزها انتفاضة أبي محمد السفياني التي سيتواصل صداها لفترة طويلة) اضطُر المنصور إلى مزاوجة سياسة التشدد تُجاه من تبقى من أنصارهم وبين محاولة استمالتهم[5]. ورغم النجاحات النسبية النسبية في ذلك خلال الطور العباسي الأول، فقد فشل العباسيون في استئصال المساندة لخصومهم السابقين والتي تواصلت بأشكال سلمية، مستفيدةً من احتداد التناقضات المتعددة التي عاشتها الدولة العباسية منذ أواسط القرن الثالث. ونجد في المصادر التاريخية (أنساب البلاذري، تاريخ الطبري، العقد الفريد لابن عبد ربه وغيرها) والأدبية (صبح الأعشى للقلقشندي ورسائل الجاحظ...) دلائل عديدة على أنَّ الأزمات السياسية المتعاقبة والتنافس المذهبي وَفرَا مناخا ملائما لتنامي حَنينٍ لمعاوية

---

[1] - ابن حجر العسقلاني، **المُعجم المُفهرس أو تجويد أسانيد الكتب المشهورة**، تحقيق شكور المياديني، بيروت، مؤسسة الرسالة 1998، ص 123.

[2] - الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 12 ص 430.

[3] - شهاب الدين أحمد بن محمد المعروف بابن عبد ربه، **العقد الفريد**، بيروت، دار الكتب العلمية 1983/1404، ج 5 ص 111 وما بعدها.

[4] - إسماعيل باشا البغدادي، **هدية العارفين في أسماء المؤلفين**، استنبول، وكالة المعارف الجليلية 1951 وأعيد طبعه في بيروت من قبل دار إحياء التراث العربي،1 ص 146. وقد حقق ه\ا الكتاب ونشره محمد زيد الكوثري، القاهرة،د.ت.

[5] - فاروق عمر، **العباسيون الأوائل، 98ه/716م- 170 ه/ 786م**، بيروت، دار الإرشاد، ص 150-157-150.

وللأمويين لدى الكثير من النخب وكذلك العامة بالمدن خلال الوسيط المتقدم وتواصل صداه في بعض المصادر لاحقا. وهي ظاهرة تم تناولها في دراسات مختلفة منذ بداية القرن الفائت[1].

وفي الحقيقة ليس هناك من تفسير للقرار الذي اتخذه المأمون بلعن معاوية بن أبي سفيان في المساجد سنة 826/211 (أو التي تليها) والقرار المماثل الذي اتخذه المعتضد بالله سنة 897/284 سوى محاولة منهما للتصدي لدعاية معادية للسلطة بإيعاز من أنصار للأمويين؛ كما أن تراجع الخليفتيْن عن إلزام الناس بمحتواها، الأول بتأثير من القاضي يحي بن أكثم والثاني بنصيحة من وزيره عُبيد الله بن سليمان ين وهب، ليس غير درْءٍ لما قد يحصل من ردود فعل العامة/السنة. ويُفهم من نص قرار المعتضد الوارد في تاريخ الطبري[2] أنه كان أحد الإجراءات التي اتخذها الخليفة ضد حركة فكرية نشيطة كانت تتم في الجوامع الرئيسية ببغداد ويقودها الوراقون وأصحاب الرأي المناصرين الأمويين، كما هو يُمثل دعايةً مُضادةً بحق للمدافعين عن معاوية، بما أنه يستعرض اتهامات لهذا الأخير جاءت وكأنها للرد على يردُ من فضائله (معاوية) في كتب الطبقات والتراجم: فمعاوية هو المَعني بقول الرسول، وقد رآه مقبلا على حمار يسوقه ابنه يزيد، "لعن الله القائد والراكب والسائق"، وعليه دعا الرَسُولَ "لا اشبع الله بطنه، فبقى لا يشبع". وهو المعني بالحديث "يطلع من هذا الفج رجل من أمتي يحشر على غير ملتي"، وبالحديث" إذا رأيتم معاوية على منبري فاقتلوه " وأن "معاوية في تابوت من نار في أسفل درك... إلى غيرها من الأحاديث الحاطة. أضفْ إلى ذلك اتهامه بمنازعته حق علي بن أبي طالب في الخلافة وقتل خيار الصحابة في إشارة لحُجر بن عدي ورفاقه، وأنه "يستهوي أهل الغباوة"، وأخذ البيعة لابنه يزيد "المتكبر الخمير، صاحب الديوك والفهود والقرود"... لكن أبرز التهم هي تلك التي ترى في معاوية سليلا لعشيرة كانت استجابتها للدعوة الإسلامية عند ظهورها محدودا وكان أبوه أبو سفيان من أبرز قادة أعدائها، ومن هناك فهم حسب نص اللعن المعنيون بصفة "الشجرة ملعونة" الواردة في الآية ستون من سورة الإسراء. وهو كما يبدو تأويل يتماهي مع اتجاه في تفسير القرآن والحديث على ضوء المنازع المذهبية بدأ قبل حكم المعتضد بزمن

---

[1] - حبيب الزيات، التشيع لمعاوية في عهود العباسيين، **المشرق**، سنة 1928، ص 410- 415.
Pellat Ch., Le culte de Mu'âwiya au IIIe siècle de l'hégire", *Studia Islamica*, VI, 53-66 ;Tayeb El-Hibri, The redemption of Umayyad Memory by the Abbasids, *Journal of Near Eastern Studies*, vol 61, n° 4, octobre 202, p. 241-265; Bellamy J., Pro-Umayyad propagande in the ninth century in the works of ibn Abi-l-Dunya, in *Prédiction et propagande au Moyen-âge*, édition Maqdisi, Paris 1983, p 71-86.

[2] - محمد بن جرير الطبري، تاريخ الرسل والملوك، بيروت، دار التراث، ج 10 ص 54 وما بعدها.

وأُولتْ بمقتضاه الكثير من الآيات بشكل معادٍ للأمويين من طرف خصومهم المذهبين. وقد توقف جولدسيهر عند نماذج من ذلك[1].

* فضائل معاوية: تدخلُ في إطار النزاع بين"مذهب الجماعة"/السنة ومذاهب أخرى: إذا كان الصراع السياسي هو الدافع الرئيسي لمساندة الأمويين خلال القرنيْن الأولين من الدولة العباسية فإن التنافس العقدي كان وراء تواصل الدفاع عن معاوية والأمويين لدى عدد غير قليل من منظري المذاهب السنية. ولأنه لم يكن هناك حد قاطعٌ بين السياسة والفكر فقد انعكس الصراع الدائر حول الحكم في الدولة الإسلامية على المفكرين منذ القرن الثاني للهجرة؛ وكان أبرز تجليات ذلك انقسام الفكر المذهبي عند المسلمين إلى تيارات رئيسية ثلاثة: السنة والشيعة والمعتزلة. ومن الطبيعي أن يسعى رواد كل فكر إلى التأثير على سيرورة التاريخ من خلال القيام بالدعاية لمذهبه أو الحط من المذهب الخصم. في ذلك الإطار مثل الزعماء/الرموز مادة سهلة لخلق شخصيات نمطية، سلبا أم إيجابا. كان ذلك حال عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وبطبيعة الحال معاوية.

- كان معاوية مُستهدفا في الأدب التاريخي المتشيع، من ذلك ما يردُ في الكتب التالية:

• كتاب السقيفة المنسوب إلى سليم بن قيس العامري، أحد الكوفيين من أصحاب عليّ الأوفياء[2] وتعتبره الشيعة الاثني عشرية أبرز مصادرها: معاوية هو الذي يجسد معسكر الشر: بما أنّه يحرض قُرّاء أهل الشام وقضاتها على بث الروايات الكاذبة التي تحمل علي مسؤولية قتل عثمان والتشكيك في شرعية خلافة أبي بكر وعمر وهو ما أنشأ أجيالا من الشاميين تربتْ على لعن علي بن أبي طالب؛ ومن تمسك معاوية بالحكم رغم قناعته بأولوية علي للخلافة. وينسب الكتاب إلى علي[3] تفسير آيات قرآنية تصنف معاوية وأنصاره ضمن الكافرين والصامين آذانهم عن الحق وأنهم فتنة للناس؛ وفي مواضع أخرى من الكتاب يتجاوز الاتهام معاوية ليشمل أهل بيته من الأمويين الذين يصفهم بأهل فتنة و"بالشجرة الملعونة" (ذات التهمة التي سترد لاحقا في قرار لعن معاوية الذي أصدره المعتضد كما تمت الإشارة إلى ذلك سابقا) والذين تنطبق عليهم أوصاف أطلقها النص القرآني على اليهود[4]. وينقل سليم العامري نبوءة ابن أبي طالب بمقتله ثم قتل ابنيه الحسن والحسين على يد بني أمية وانتقال حكم المسلمين بين فروع هذا البيت

---

[1] - أجنتس جولتسهر، **مذاهب التفسير الإسلامي**، بيروت، دار اقرأ 1983، ترجمة عبد الحليم النجار، ص 289، 290، 291.

[2] - سليم بن قيس الهلالي العامري الكوفي (ت 90 هـ)، **كتاب السقيفة المعروف بكتاب سليم بن قيس الهلالي**، بيروت، دار الإرشاد الإسلامي 1994، ص 160 وما بعدها.

[3] - سليم بن قيس، نفس المصدر، ص 177 وما بعدها.

[4] -اتهام اليهود بالكفر وبقتل "النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط"، سورة آل عمران، الآية 21

لفترة قبل سقوط خلافتهم على يد أصحاب الرايات السود القادمين من الشرق وذلك في انتظار خروج المهدي. كما نقل الكتاب تُهمًا عديدة مُوجهة لمعاوية أبرزها الإسلام كرها واغتصاب حق علي وبإجبار ابن عباس على عدم تأويل القرآن بصورة لا تمس من شرعية الحكم الأموي وبأن خلافته كانت شديدة البلاء على الأمصار وبشكل خاص على شيعة علي وأهل بيته وعلى أهل الكوفة[1].

• في كتيب منسوب للعباس بن بكار (القرن الثالث)[2] استعرض في ثناياه جدالا حصل بين معاوية وعدد من رموز الكوفيين والبصريين الذين ناصروا عليا بن أبي طالب أثناء الفتنة، وفيه اتهامات صريحة للخليفة الأموي من أبرزها خذلانه عثمان ووصفه بالجبن وتدني شرف نسبه قياسا بعلي بن أبي طالب.

• المفيد العكبري، وهو أحد أبرز منظري الشيعة الإمامية في القرن الخامس، وقد صنف بدوره الذين حاربوا علي بن أبي طالب في معركة صفين، ومعاوية بالطبع في مقدمتهم، ضمن كفار الملة أي المسلمين الذين يظهرون الشهادتيْن، وهو كفر أقل خطورة من كفر الردة حسب تقديره لكنه في كل الأحوال كفر يُلحق بأصحابه" اللعنة والخلود في النار"[3].

- موقف المعتزلة: لا نملك مصادر تاريخية معتزلية، ومع هذا يمكن تبين موقفها من معاوية انطلاقا مما أورده الجاحظ (ت سنة 255 ه) في رسالته الحادية عشرة التي قام بجمعها عبد السلام هارون[4]، وقد خصص تلك الرسالة لمن سماهم "النابتة"، واعتبرها من المذاهب غير ذات التأثير في التاريخ الإسلامي حسب تقديره. وفي هذه الرسالة رأى الجاحظ أن معاوية قد استبد بالسلطة وبأمر المسلمين وعطل الشورى وحول بالتالي الخلافة إلى مُلْك. ونفى الجاحظُ أن تكون السنة التي تخلى فيها الحسن بن علي عن الخلافة لصالح معاوية عام الجماعة بل " كان عام فُرْقة وقهر وجبرية وغلبة" حسب تعبيره. واعتبر الجاحظ قبول سحب معاوية النسب السفياني على زياد بن أبيه إجراءً موجبا لتكفيره. وذهب إلى أن قتل حُجر بن عدي وإعطاء خراج مصر لعمرو بن العاص مقابل مساندته له في موجهة علي بن أبي طالب واستخلاف معاوية ابنه يزيد واختياره الولاة على أساس الولاء

---

[1] - سليم بن قيس، نفس المصدر، ص 187، 188، 189، 190.

[2] - العباس بن بكار (أو ابن الوليد بن بكار) الضبي (ت 222هـ)، **أخبار الوافدين من الرجال من أهل البصرة والكوفة على معاوية بن أبي سفيان**، بيروت، ت سكينة الشهابي، مؤسسة الرسالة 1983.

[3] - محمد بن النعمان العُكبري، المعروف بالشيخ المفيد (ت413 هـ)، **كتاب الجمل**، قم، ت السيد علي مير شريفي، مكتبة الإعلام الإسلامي 1374 هـ، ص 70، 71؛ راجع بحثنا انطلاقا من هذا الكتاب "التأريخ المذهبي من خلال كتاب الجمل للعكبري"، مجلة "موارد" لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة "التأريخ المذهبي من خلال كتاب الجمل للعكبري"، سوسة، عدد 17، سنة 2012، ص ....

[4] - أبو عثمان، الشهير بالجاحظ (المتوفى: 255هـ)، **رسائل الجاحظ**، القاهرة، ت عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي 1964، ج 2 ص 10، 11.

والقرابة وتعطيله الحدود وغيرها من السياسات هي من باب " جَحْد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُّنن".
تبعا لهذا الموقف كفر الجاحظ معاوية وكفر منْ لم يكفره في زمانه، أي في القرن الثالث، بل اعتبرهم "أكفر من يزيد وأبيه، وابن زيادٍ وأبيه"[1]. وقد اعتبر بعض الباحث الإيطالي " جويدي" أن تركيز المعادين للأمويين على يزيد خلال القرن الثالث وبعده يدخل في إطار الصراع مع المذهب اليزيدي، وذهب إلى أن هذا المذهب هو نسبة إلى يزيد الأول وهو ليس غير بقايا تيار فلسفي وَفي للأمويين يرمي إلى مجابهة الدعاية العلوية[2]. لكن علينا أنْ نلاحظ أن رأي "جويدي" هذا لا يجد ما يدعمه في كتب الفرق والنحل الإسلامية التي تُجمع على أن اليزيدية هم أتباع يزيد بن أنيسة أحد زعماء الخوارج في القرن الأول[3].
لمجابهة هذا العداء اتخذت المذاهب السنية في مجملها موقفا إيجابيا من معاوية، ويبدو ذلك بجلاء من خلال موطأ مالك ومسند الشافعي والبخاري وصحيح مسلم هناك إقرار بكون معاوية مصدرا للسيرة والحديث[4].
ودافع الشافعي في مسنده عن معاوية في أكثر من موضع[5]؛ مع التنويه إلى أن أكثر من اهتم بفضائل معاوية ومناقبه من أصحاب التراجم الذين تم استعراض محتواها في الفصل الأول من هذا البحث هم من المحسوبين على هذا المذهب على غرار البغوي وابن عساكر وابن الأثير والنووي والذهبي.
ومن جانبه أوردَ الترمذي في سننه[6] الحديث الذي يدعو فيه الرسول لمعاوية بالهداية وأفردَ "كتابا" في سننه لمناقب الصحابة فاستعرض مناقب الخلفاء

---

[1] - الجاحظ، نفس المصدر، 2 ص 120.

[2] - Guidi I., "Origine dei Yazidi e storia religiosa dell'Islam e del dualismo", *R. S. O.*, XIII (1932), 266-300;

[3] - الشهرستاني، **الملل والنحل**، القاهرة، مؤسسة الحلبي، 1 ص 136؛ عبد القادر البغدادي، **الفرق بين الفرق**، القاهرة، تحقيق محمد عثمان الخشت، مكتبة ابن سينا للنشر د. ت. ، ص 244.

[4] - مالك بن أنس (ت 179 هـ)، **الموطأ**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 1975، ج1 ص 246، 299، ج2 ص900، 947؛ محمد بن إسماعيل البخاري (ت256 هـ)، **مسنده**، دمشق، دار طوق النجاة، تحقيق محمد زهير الناصر(مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة: الأولى، 1422هـ، 2 ص8، ج3 ص 44، ج 4 ص 173، 177، ج7 ص 165/ 8 ص 72، ج9 ص 101؛ مسلم بن الحجاج النيسابوري (ت 261 هـ)، **صحيح**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، 1 ص 290،ج2 ص 719، 795، 913، 1114، ج3 ص 1524، 1679؛ أبو داوود السجستاني (ت 275 هـ)، **سننه**، بيروت- صيدا، المكتبة العصرية، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 1 ص 100، 168، 281، ج2 ص 53، 157، 159، ج4 ص 77، 93، 164؛ محمد بن يزيد القزويني، ابن ماجة (ت 273 هـ)، **سنن**، بيروت، دار إحياء الكتب العربية، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، د. ت.، 1 ص 46، 80، 179، 240، 309، 527/ 2 ص 859، 927، 1040؛

[5] - محمد بن إدريس الشافعي(ت 204 هـ)، **المسند**، بيروت، دار الكتب العلمية عن طبعة المطبعة الأميرية بالهند، د.ت.، ص161، 242.

[6] - محمد بن موسى الترمذي (ت 279 هـ)، **سنن**، القاهرة، مطبعة الحلبي، أحمد محمد شاكر (ج1، 2) ومحمد فؤاد عبد الباقي (ج 3) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (ج 4، 5)،

الراشدين الأربعة حسب الترتيب ثم مناقب عدد من الصحابة الأوائل. وأنهي "الكتاب" بفصل أخير ذكر فيه مناقب بمعاوية إلى جانب جيل آخر من الصحابة منهم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسعد بن معاذ وقيس بن عبادة وجابر بن عبد الله ومصعب بن عمير والبراء بن مالك وأبو موسى الأشعري.

وكان أحمد بن حنبل (المتوفى 241هـ /855م) أكثر المدافعين عن معاوية إذْ نجدُ في مُسنده اهتماما واضحا بمعاوية، تجاوز بكثير ما ورد في باقي كتب الصحيح، وقد تفطن إلى هذا التوجه أكثر من باحث في تاريخ الفكر المذهبي عند المسلمين، أبرزهم الفرنسي هنري لاووست[1]. لقد اعتبر ابن حنبل معاوية موردا أساسيا من موارد الحديث في بلاد الشام وخصص بابا كاملا في مسنده، وتحديدا في باب "مسند الشاميين"، لمعاوية جاعلا ترتيبه ضمنهم الثالث بعد خالد بن الوليد وصحابي من أصل حبشي دُعيَ ذي مِخْبر (أو مخمر). في هذا الإطار كان لابن حنبل السبق في إيراد عشرات الأحاديث التي نسبها معاوية إلى النبي مباشرة[2]، روايات وأحاديث ستجيءُ في كتب الطبقات بأسانيد مختلفة أحيانا بدءا من القرن الرابع. وما يُلاحظ في هذا الخصوص هو تأكيد ابن حنبل في أكثر من موضع على صدق معاوية في روايته الحديث[3]. كما أسند ابن حنبل لمعاوية أحاديث كثيرة تحث على التواضع وتفادي التظاهر بالبذخ بشتى مظاهره[4]، وذلك في تباين كامل مع سيرد في بعض كتب الطبقات والتراجم في القرون الموالية من أحاديث منسوبة لعمر بن الخطاب خاصة يتهم فيها معاوية بالإسراف في البذخ والتظاهر بالعظمة وبكونه أقام حكما كسرويا[5].

ولا يقتصر إسهام معاوية، حسب أحمد بن حنبل، في تركيز السنة النبوية على ما هو عَقَدِي تعبدي شخصي فحسب بل يشمل التوجيه السياسي؛ في هذا الخصوص كان ابن حنبل أوّل مَنْ أورد أحاديث مصدرها معاوية سيكون فحواها محل جدل واسع في القرون التالية لما لها من أبعاد خطيرة على الشأن السياسي الإسلامي برمته: فقد نقل الحديث الذي تنبأ فيه الرسول بمستقبل معاوية السياسي وبخلافته أمر المسلمين[6]، ونقل أحاديث نسبها

---

[1] - Laoust H., *Les schismes dans l'Islam*, Paris, Payot 1965, pp. 114-119, 209-213, 266-276; Même auteur, *Pluralismes dans l'Islam*, Paris, Librairie Orientaliste Paul Garnier, hors série 1983, p. 1-135.

[2] - أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (المتوفى: 241هـ)، **المسند**، بيروت، مؤسسة الرسالة، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، 2001، ج 28 ص 36- 137.

[3] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 52، 56، 60.

[4] - ابن حنبل، نفس المصدر 28 ص78،59،45،127،123،121،114،109،90،86،131.

[5] - ابن عبد البر، **الاستيعاب**،3 ص 1416؛ ابن عساكر، تاريخ دمشق،ج 59 ص114،113؛الأثير، **أسْدُ الغابة**، ج5 ص201؛ الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج2 ص 240..

[6] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 129، 130: ""حَدَّثَنَا رَوْحٌ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُمَيَّةَ عَمْرُو بْنُ يَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَدِّي، يُحَدِّثُ، أَنَّ ... رَسُولَ اللهِ (ص) رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَيْهِ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ وَهُوَ

معاوية للرسول تحذر من مغبة المساس بحق قريش الثابت في الحكم، مثل"...إن هذا الأمر في قريش، لا ينازعهم أحدٌ...ما أقاموا الدين" أو"الناس تُبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام، إذا فقهوا..."[1]. ولم يكتف ابن حنبل بنقل الأحاديث المُمتدحة قريشًا ومعاوية بل أسنَدَ للأخير حديثا وقع تأويله في اتجاه تفضيل الشام مركز الأمويين[2].

ولعلّ أبرز حديث أورده ابن حنبل حديثا للرسول، لكن نقلا عن معاوية، والذي سيكون له أثر بعيد على الساحة السياسية، وهو ذلك الذي تنبأ فيه النبي بانقسام المسلمين إلى " ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً ... كُلُّهَا فِي النَّارِ إلا وَاحِدَةً، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ..."[3]، وسيكون هذا الحديث أحد الأسس النظرية في صراع السنة (الجماعة) مع باقي المذاهب الإسلامية بدْءًا من القرن الثالث. فقد أعاد ذكره أبو داوود السجستاني المُعاصر لابن حنبل[4]، وأصبح حجة عبد القادر البغدادي على ضلال المذاهب الأخرى في مصنفه حول الفرق الإسلامية خلال القرن الرابع[5].

إن ما يأتي في مسند ابن حنبل ليس في الواقع غير مؤشر على الدور الذي لعبه أتباع هذا المذهب في التصدي لمناوئي المذاهب السنية في مركز الدولة الإسلامية بالمشرق منذ القرن الثالث؛ فكان الفقهاء الحنابلة رأس الحربة في مواجهة الشيعة المستفيدين من تحالفهم مع السلطة البويهية خلال القرن الرابع والخامس كما لعبوا دورا متقدما في تركيز الأيديواجيا السنية خلال القرون الموالية، وبهذا وجدوا أنفسهم موضوعيا في موقع المدافع عن معاوية، ومن خلاله الأمويين، في وجه الدعاية الشيعية وباقي الأطراف السياسية الفاعلة. وكما فعل بعض المحدثين والمهتمين بالنسب المساندين لمعاوية والمُشار إليهم سابقا، قام الكثير من الفقهاء بتدوين الكثير من الشهادات يعود أغلبها للحنابلة وغرضها إبراز تمسك المسلمين بمعاوية ويزيد ابنه.

فقد أورد أبو عبد الله الشيبانيّ، أبرز أتباع أحمد بن حنبل في القرن الثالث، رواية تبرّرُ قتل حُجْرَ بن عديّ ورفاقه. إذْ نسب إلى الزاهد عَمْرو بن الْأسود الْعَنسِي قوله مُخاطبا معاوية: "أَلا إِنَّا بحصن من الله حُصَيْن لم نؤمر بِتَرْكِهِ

يَتَوَضَّأ، فَقَالَ: " يَا مُعَاوِيَةُ، إِنْ وُلِّيتَ أَمْرًا فَاتَّقِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَاعْدِلْ "، قَالَ (معاوية): فَمَازِلْتُ أَظُنُّ أَنِّي مُبْتَلًى بِعَمَلٍ لِقَوْلِ النَّبِيِّ ... حَتَّى ابْتُلِيتُ".

[1] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 65، 125.

[2] - " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ (ص) يَقُولُ: " لا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللهِ لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَى النَّاسِ " فَقَامَ مَالِكُ بْنُ يَخَامِرٍ السَّكْسَكِيُّ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ، يَقُولُ: " وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ " فَقَالَ مُعَاوِيَةُ وَرَفَعَ صَوْتَهُ: هَذَا مَالِكٌ، يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاذًا، يَقُولُ: " وَهُمْ أَهْلُ الشَّامِ "، نفس المصدر، 28 ص 128

[3] - ابن حنبل، نفس المصدر، 28 ص 134، 135.

[4] - أبو داوود، **سنن،** 4 ص 198.

[5] - عبد القادر البغدادي (ت 429 هـ)، **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية،** القاهرة، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع، تحقيق محمد عثمان الخشت، ص 23، 24، 25.

وقولك يَا أَمِير الْمُؤمنِينَ فِي أهل الْعرَاق أَلا وَأَنت الرَّاعِي وَنحن الرّعية أَلا وَأَنت أعلمنَا بدائهم وأقدرنا على دوائهم وَإِنَّمَا علينا أَن نقُول سمعنَا وأطعنا"[1].
ومن المُفيد أن نلاحظ هنا أن عمرو بن الأسود العنسي كان من التابعين ويُشهد له بالورع والزهد ولكنه توفي خلال السنة الأولى من خلافة معاوية (سنة41) بينما قتل حُجر وأصحابه بعد ذلك، وهو ما يفترض استغلال أبي عبد الله الشيباني، أو من نقل عنه تلك الرواية، لما يروج عن العنسي من ورع لتمرير روايته المدافعة عن معاوية. وما يزيد من دعم ما نذهب إليه في هذا الخصوص هو ما يُنعتُ به عمرو بن الأسود من كونه شاميا " قليل التشيع"، والذي لا يعني في خضم الفتنة الأولى غير الانتصار لمعاوية ومساندته في مواجهة علي بن أبي طالب[2].

وتواصل منزع الدفاع عن معاوية في الفقه الحنبلي خلال العصر الوسيط المتأخّر إذ اعتبر الجماعيلي خلال القرن السابع للهجرة "معاوية شاهدا عدلا تماما كالزهري والشافعي"[3] ونقل ابن الأثير الذي عاش في نفس القرن حديثا مُسندًا إلى رواية شامية[4] تدعم رؤية السنة الحنابلة للسلطة القائمة مفادها أن "السلطان ظل الله فِي أرضه، يأوي إِلَيْه كل مظلوم من عباده، فإن عدل كَانَ لَهُ الأجر، وعلى الرعية الشكر، وَإِذا جار عَلَيْهِ الإصر، وعلى الرعية الصبر...".

ويبقى أحمد بن تيمية الحنبليّ (ت 728/ 1327) أبرز علامة لهذا التيار في العصر الوسيط المتأخر. ففي كتابٍ ألفه للرد على الشيعة الرافضة، وفي معرض دفاعه عن سياسة عثمان بن عفان ووُلاته أفردَ صفحات طويلة لاستعراض "فَضَائِل مُعَاوِيَة" الكثيرة، فأكد على حسن إسلامه وعلى الدور الإيجابي الذي لعبه خلال الفترة الراشدية[5] ونقل شهادات كثير من الصحابة (مثل ابن عباس وأبي الدرداء وقتادة ومجاهد والأعمش وأبي إسحاق السبيعي) تُقر بصدقه وفقهه وبكفاءته في تسيير بيت المال[6]. **و**اعتبر ابن تيمية تيمية معاويةَ أفضل من كثير من وُلاة علي بن أبي طالب خاصا بالذكر منهم زِيَادٍ بن أبيه والأَشْتَرَ النَّخَعِيَّ ومُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ؛ كما اعتبر فترة حكمه أكثر

[1] - أبو عبد الله أحمد الشيباني (ت 241هـ)، **مسائل الإمام أحمد بن حنبل**، رواية ابن أبي الفضل صالح (203هـ - 266هـ)، الهند، الدار العلمية د ت. ج2 ص 329
[2] - ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج 11 ص 152؛ ج 12 ص 162.
[3] - عبد الرحمن بن محمد الجماعيلي الحنبلي(ت 682هـ)، **الشرح الكبير على متن المقنع**، بيروت، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، د ت، 10 ص 196.
[4] - ابن الأثير، **أسد الغابة**، 4 ص 436، 437.
[5] - أحمد بن عبد الحليم بن محمد ابن تيمية الحنبلي الدمشقي(ت 728هـ)، **منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، الرياض، جامعة الإمام محمد بن سعود، تحقيق محمد رشاد سالم، 1986، 4 ص 377، 427، 428، 429،431، 467؛ ج 6 ص 184.
[6] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 234، 235.

أمنا واستقرارا من مختلف الفترات التي عقبتها[1]؛ ولأنه صحابي فهو أفضل من كل التابعين بمن فيهم عمر بن عبد العزيز المشهود له بالعدل[2]. وقدر ابن تيمية أن "سيرة معاوية مع رعيته من خيار سير الولاة" وبرر ما حصل من أحداث زمن خلافته بمقتل عثمان وما خلفته الفتنة الكبرى، ومع هذا تمسك بكون معاوية أحرص معاصريه على السلام[3].

ومن الطبيعي أن يصل ابن تيمية في محصلة موقفه إلى الدعوة إلى عدم الاستنقاص من شرعية معاوية، ونبهَ إلى أن تشكيك بعض فرق الشيعة في شرعية أبي بكر وعمر وعثمان قد يبرر عدم اعتراف أنصار الأمويين بشرعية علي بن أبي طالب سيما أن هذا الأخير لم يحض بإجماع المسلمين بينما حظي معاوية بذلك سنة الجماعة (مذهب أهل الأندلس والمغرب)[4].

وبعد ابن تيمية بثلاثة أرباع القرن توج ابن حجر الهيتي المصري هذا الموقف الداعم لمعاوية: فألف كتيبا تصدى فيه، بأسلوب الفقيه، لثلب معاوية بن أبي سفيان من خلال تجديد التأكيد على إسلامه عام الحديبية، أي قبل فتح مكة، وتناولِ "فضائله ومناقبه وخصوصاته وعلومه واجتهاده" من خلال استعراض أحاديث وشهادات تثني عليه[5]. كما خصص الهيتي فصلا لرد الطعون الموجهة لمعاوية ولاسيما إيجاد المبررات خروج معاوية عن علي بن أبي طالب أثناء الفتنة الأولى. وأنهى الكتاب بباب حمل فيه الخوارج مسؤولية ما حصل من اضطراب إثر معركة صفين ثم بعد عام الجماعة[6].

2- صورة معاوية بين كتب الطبقات والتراجم والمصادر التاريخية :

2-1: تباين في المحتوى:

بدايةً، من المفيد التنويه إلى أن الإطار الذي نشأت فيه الكتابة التاريخية عند المسلمين في القرن الثالث على الأرجح جعل منها تركز على الحدث بحد ذاته، وستتواصل هذه الخاصية لعدة قرون. ولذلك اهتم مختلف مدوني الخبر التاريخي على تتناول دور معاوية في الأحداث ولم يركزوا على ما هو شخصي إلا نادرا. وكان من نتائج ذلك الإقرار بدوره الحاسم في أكثر من منعرج في التاريخ الإسلامي سواءً أثناء ولايته للشام أو بعد توليه الخلافة؛

---

[1] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 231، 232: " فَلَمْ يَكُنْ مِنْ مُلُوكِ الْمُسْلِمِينَ مَلِكٌ خَيْرٌ مِنْ مُعَاوِيَةَ، وَلا كَانَ النَّاسُ فِي زَمَانِ مَلِكٍ مِنَ الْمُلُوكِ خَيْرًا مِنْهُمْ فِي زَمَنِ مُعَاوِيَةَ، إِذَا نُسِبَتْ أَيَّامُهُ إِلَى أَيَّامِ مَنْ بَعْدَهُ".

[2] - "... وَلِهَذَا يَقُولُ مَنْ يَقُولُ مِنَ السَّلَفِ: غُبَارٌ دَخَلَ فِي أَنْفِ مُعَاوِيَةَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَفْضَلُ مِنْ عَمَلِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ"، ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 226، 227.

[3] - ابن تيمية، نفس المصدر، 6 ص 247: "مُعَاوِيَةُ كَانَ خَيْرًا مِنَ الأشتر النَّخَعِيِّ، وَمِنْ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، وَمِنْ أَبِي الأعور السُّلَمِيِّ، [وَمِنْ هَاشِمِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ هَاشِمٍ الْمِرْقَالِ، وَمِنَ الأشعث بْنِ قَيْسٍ الْكِنْدِيِّ، وَمِنْ بُسْرِ بْنِ أَبِي أَرْطَاةَ، وَغَيْرِ هؤلاء مِنَ الَّذِينَ كَانُوا مَعَهُ وَمَعَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ"

[4] - ابن تيمية، نفس المصدر، 4 ص 162.

[5] - ابن حجر الهيتي (ت 1565/973) ، **تطهير الجنان واللسان عن ثلب معاوية بن أبي سفيان،** طنطا، دار الصحابة للتراث 1992، ص 38 وما بعدها، ص 44 وما بعدها.

[6] - ابن حجر الهيتي، نفس المصدر، 102 وما يليها.

كما تعترف أغلب المصادر بكفاءته السياسية التي يُعبر عنها بعته بالحليم، وهي كلمة معقدة وشاملة في معناها حسب تعبير عبد الحي شعبان[1] لكنها تعبر عن إقرار بمقدرة معاوية القيادية وعلى حنكته في مواجهة أزمات دولة مازالت لم تتعاف من مخلفات حرب أهلية وتعاني من تناقضات متنوعة وتستند في ذات الوقت إلى قاعدة قبلية وخلفية تيوقراطية.

ويأتي هذا الاعتراف هذا بوضوح في جل المصادر التي وصلتنا، باعتبار أن العدد الأكبر من مدونيها هم من المحسوبين على المذهب السني، أين تبدو صورة معاوية إيجابية سواءً جاءتْ مُقتصرةً مقتضبة كما هو الأمر في تاريخ ابن خياط والمحبر لابن حبيب (ت 245/ 861) والمعارف لابن قتيبة الدينوري (ت 276/ 889) والمعرفة والتاريخ ليعقوب الفسوي الفارسي (ت277/ 890) والأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (ت 282/ 895) أو طويلة مفصلة كما في تاريخ الطبري (ت 310/ 922) والمنتظم لابن الجوزي (ت597/ 1201) والكامل لعز الدين بن الأثير(ت 630/ 1232) وغيرها. وتنطبق نفس الملاحظة على كتب الأنساب، إذْ تُعتبر إشارة مصعب الزبيري(ت 236/ 850) إلى إسلام معاوية عام "عمرة القضاء"، أي قبل فتح مكة، متفقة مع ما تنسبه كتب الطبقات لمعاوية ذاته في ذلك الشأن[2]. أما صورة معاوية في كتاب الأنساب أشراف للبلاذري(ت 892/279) والمعروف بولائه للعباسيين فهي تبدو مضيئة إلى حد بعيد، فكان القسم الذي خصصه لأخباره هو من بين الأوسع في كتاب أنساب الأشراف ويبدو من خلاله معاوية مرادفا لصفات الحكمة والحِلم والذكاء والكرم والمروءة[3].

وتصح المُلاحظة السالفة حتى على المؤرخين المُصنفين ضمن المناصرين للشيعة: فرغم تصريح بعضهم بتبني موقف مساند للعلويين في صراعهم مع الأمويين، فلا تبدو رواياتهم متشنجة وعدوانية تجاه معاوية. نلحظُ ذلك بجلاء حتى لدى مَنْ شكك منهم صراحة في شرعية حكم معاوية مثل نصر ابن مزاحم واليعقوبي أوالمسعودي. فقد اعتمد نصر بن مزاحم (ت212/ 827) في روايته لوقعة صفين[4] روايات عراقية مساندة لعلي (سيف بن عمر والشعبي وأبي مخنف الأزدي) ومع ذلك هناك إقرار بكفاءة معاوية السياسية والعسكرية وبقدرته على تجنيد الحلفاء (نجاحه في ضمان مساندة عمرو بن العاص والكثير من زعامات الشام وفي مقدمتهم شرحبيل بن السمط) واستغلال مواطن ضعف الخصم باستمالة بعضهم (نجاحه في استمالة رسول

---

[1] - محمد عبد الحي شعبان، **صدر الإسلام والدولة الأموية 600- 750م/132 هـ**، بيروت الأهلية للنشر والتوزيع 1986، ص 90.

[2] - مصعب بن عبد الله الزبيري (ت 236)، **نسب قريش**، القاهرة، تحقيق ليفي بروفنسال، مكتبة المعارف، د. ت.، ص 124.

[3] - أحمد بن جابر البلاذري، **أنساب الأشراف**، بيروت، تحقيق سهيل زكار ورياض زركلي، دار الفكر 1996، ج 5 ص 21-167

[4] - نصر بن مزاحم المنقري، **وقعة صفين**، بيروت، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل 1990.

علي إليه جرير بن عبد الله البجلي) أو العمل على تحييد أكثرهم تأثيرا (مراسلاته مع عبد الله بن عباس) والقدرة على المناورة.

أما اليعقوبي الذي استعمل في تاريخه[1] مصطلح "أيام معاوية" كتعبير عن عدم الاعتراف بشرعية خلافته وركز على الصد الكبير الذي لقيته بيعته من لدُن الصحابة وكرر استعمال نعوت مشينة عند الحديث عنه من قبيل" ابن الطليق" و"ابن آكلة الكلاب" واتهامه (على لسان ابن عباس) بالمساهمة في قتل عثمان وكذلك "استصفاء" أموال الناس لنفسه، فإنه لم يجد اليعقوبي بُدا من الاعتراف بالنجاحات الكبرى التي تحققت للمسلمين خلال فترة حكمه وذلك بفضل حلمه وذكائه السياسي وبفضل اعتماده على ولاة وموظفين أكفاء. وسار المسعودي (ت957/346) على نفس منهج اليعقوبي تقريبا، إذْ تحدث عن "خلافة" الحسن بن علي التي لم تتجاوز ستة أشهر بينما اقتضب "أيام" معاوية التي تواصل أكثر من عشرين سنة في بعض السطور، ومع ذلك فقد أقر بكفاءته السياسية وقدرته على
إدارة شؤون الدولة بما يتوفر لديه من حنكة و" رأى وحزم في أمر دنياه"[2]

ونرصدُ في المصادر التاريخية أوجه اختلاف أخرى في تناول مسائل متعلقة بمعاوية مقارنة بما يأتي في كتب الطبقات والتراجم، مثل تاريخ انخراطه في الدين الجديد وعلاقته بكل من عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز، وهما رمْزا العدل في مخيال المسلمين.

انطلاقا مما جاء في الفصل الأول من هذا البحث، تلتقي جل كتب الطبقات والتراجم في أن معاوية قد أسلم أثناء صلح الحديبية في السنة السادسة بعد الهجرة أو"عام القضية" المعروفة أيضا بعمرة القضاء في السنة التي تلتها، لكنه أبقى قناعته تلك سرية إلى ما بعد فتح مكة بسبب إدراكه لتبعات ذلك على علاقته مع أسرته[3]. غير أن هذا الخبر يتقاطع مع ما يجيءُ في مُجمل المصادر التاريخية. فلئن ساق البلاذري رواية قد يُفهم منها إسلام معاوية قبيل فتح مكة[4] إلاّ أنّ جُلّ مؤرخي العصر الوسيط الأعلى لم يتعرضوا إلى المسألة كما فعل ابن خياط والطبري وأبو حنيفة الدينوري أو

---

[1] - أحمد بن جعفر بن واضح اليعقوبي (ت292/ 905)، **تاريخه**، ليدن، مطبعة بريل 1883.

[2] - علي بن الحسين المسعودي، **التنبيه والأشراف**، القاهرة، دار الصاوي، د. ت.، تحقيق عبد الله بن إسماعيل الصاوي، ص 261، 262.

[3] - البغوي، **معجم** ، ج 5 ص 363؛ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني (المتوفى: 430هـ)، **معرفة الصحابة**، الرياض، ت عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، 1998، 5 ص 2496؛ نقل ابن عساكر: "لما كان عام الحديبية وصدت قريش رسول الله (ص) عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت إياك أن تخالف أباك أو أن تقطع أمرا دونه ... فأسلمت وأخفيت إسلامي فوالله لقد رحل رسول الله (ص) من الحديبية وإني مصدق به وأنا على ذلك أكتمه من أبي سفيان ... وعلم أبو سفيان بإسلامي فقال لي يوما لكن أخوك خير منك وهو على ديني فقلت لم آل نفسي خيرا قال فدخل رسول الله (ص) مكة عام الفتح فأظهرت إسلامي"، **تاريخ دمشق**، ج59 ص 67-68.

[4] - أحمد بن يحيى البَلاذُري، **أنساب الأشراف**، بيروت، دار الفكر ، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، 1996، 5 ص 21.

صرحوا بأن إسلامه لم يحصل إلا بعد سيطرة المسلمين على مكة في السنة الثامنة للهجرة كما فعل ابن قتيبة الدينورى والمُطهر المقدسي[1].

وتنطبق الملاحظة السابقة على المؤرخين المسلمين في الفترة الوسيطة المتأخرة. فحتى ابن كثير، ورغم انتمائه الحنبلي المدافع بقوة عن معاوية والذي خصص له ترجمة طويلة وأعاد تدوين الكم الهائل من الروايات التي تستعرض فضائله الواردة في كتب الطبقات وفي تاريخ دمشق، فقد نقل روايتيْن متعارضتيْن في شأن تأريخ إسلام معاوية تذهب الأولى إلى أنه أسلم "ليلة الفتح" والثانية "يوم عمرة القضاء"[2]

ولا يختلف الحال لدى رواة السيرة. إذْ لم يتعرض محمد بن إسحاق وابن هشام وابن حبان البُستي وابن حزم الأندلسي وابن كثير في سيرهم إلى تأريخ إسلام معاوية، بينما صنف السهيلي الذي عاش في القرن السادس للهجرة معاوية ضمن كتبة الوحي بعد عام الفتح وهو ما يوحي ربما بإسلامه بعد ذلك الحدث[3].

وفي الواقع علينا أن نُنبه إلى أمريْن، أولهما أن خبر إسلام معاوية سنة صلح الحديبية، أي سنتيْن قبل فتح مكة هو من روايته هو ذاته، أما الأمر الثاني فهو تقديرنا أن ما يأتي في كتب التاريخ حول هذه المسألة (إسلام معاوية سنة الفتح) يبدو منطقيا أكثر بالنظر إلى الحالة العامة التي كانت تعيشها مكة والوضع الخاص لمعاوية ذاته. فلئن مثل صُلح الحديبية مُنعرجا رئيسيا في علاقة المسلمين بالقرشيين بما أنه نصّ في أحد بنوده على السماح لمن يُريدُ الدخول في "عهد محمد" القيام بذلك والعكس صحيح، وقد انضم بالفعل إلى المسلمين مباشرة بعد ذلك عدد من الخزاعيين ومن الشخصيات الاعتبارية القرشية[4]، فقد مثلت مكانة معاوية الاجتماعية عائقا (ولو مؤقتا) يمكن أنْ يحول دون انخراطه الصريح في الدين الجديد سنتيْن قبل سقوط مكة. فإذا كانت مكة أهم قلعة في مواجهة النظام الجديد الذي يودّ محمد تركيزه ولم يكن أمام ماسكي السلطة فيها من خيار غير الوقوف في وجه الدين الجديد فإن معاوية هو نجل أبرز زعاماتها (أبو سفيان بن حرب) بعد معركة بدر؛ ولذا فإن إسلامه سيُعتبر لا محالة إهانة لعشيرته وبيته. وتُدللُ الروايات التي تذكر نيته إعلان إسلامه أثناء صلح الحديبية على ذلك

---

[1] - ابن قتيبة الدينوري(ت 276)، **المعارف**، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1992، تحقيق ثروت عكاشة، ص 349؛ المطهر المقدسي (ت 355)، **البدء والتاريخ**، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، د. ت.، ج 5 ص 108.

[2] - إسماعيل بن كثير (ت 774/ 1372)، **البداية والنهاية**، بيروت، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان 1997، تحقيق عبد الله عبد المحسن التركي، ج 7 ص 146، 457.

[3] - عبد الرحمن السهيلي(ت 581)، **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، 2000، ج 7 ص 68.

[4] - صالح أحمد العلي، **الدولة في عهد الرسول**، بغداد، مطبعة المجمع العلمي العراقي 1988، المجلد الأول ص 259.

حين تنقل التهديد الذي تلقاه من أمه في حال التصريح، والذي قد يصل إلى حد الحرمان من القوت[1].

وفي خصوص المفاضلة بين معاوية والعمريْن: تردُ في كتب الطبقات والتراجم روايات عديدة تشترك في إشادة عمر بن الخطاب بذكاء معاوية وحنكته وقدراته المهمة في مواجهة التحديات؛ فبحسب تلك الروايات فإن قناعة الخليفة الثاني بكفاءة معاوية وذكائه هي التي جعلته يدافع عن قراره توليته (معاوية) بلاد الشام بعد وفاة أخيه يزيد رغم حداثة سنه. ولنفس تلك القناعة احتج عمر على الساعين للنيل من معاوية بحنكته السياسية ودهائه وأنه " من يضحك فِي الغضب، ولا ينال مَا عنده إلا على الرضا، ولا يؤخذ مَا فوق رأسه إلا من تحت قدميه" وهو بذلك يستحق لقب "فتى قريش"[2].

ويجد الباحث إشارات عديدة في ذات الاتجاه بالمصادر التاريخية المتقدمة منها والمتأخرة، وهي لا محالة ليستْ غير اعتراف لنجاح معاوية في إعادة توحيد الدولة الإسلامية بعد أزمة الحرب الأهلية الأولى وتغلبه على التناقضات المختلفة ومؤشرٌ على ما قام به من إنجازات شملتْ مختلف القطاعات وما صلت إليه الخلافة في عهده من تنظيم. وفي هذا الخصوص، نلْحظُ أن هناك تناسقا بين ما يأتي في كتب الطبقات والتراجم وما يجئُ في مصنفات التاريخ المختلفة حول تجديد عمر بن الخطاب الثقة في معاوية كواحد من القادة العسكريين في بلاد الشام وكذلك حول تعيينه لاحقا واليا على هذا الإقليم إثر وفاة واليه الأول، أخوه البكر يزيد. وهي سياسة قد تُفهم بحرص الخليفة الثاني على ضمان انسجام القيادات العسكرية في الجبهة الشمالية وكذلك بعدم حصول مجابهة مباشرة بين الطرفين في السابق من زمن الدولة الإسلامية، مثلما وقع بين عمر وخالد بن الوليد[3]. كما أنه من غير المُستبعد أن يكون الموقف الإيجابي للخليفة إزاء معاوية قد تأثر إلى حد معين بتطور العلاقة بين التكتلات العشائرية المكية خلال السنوات الأولى من الفترة المدنية حين تقاربت مصالح عشيرة عدي التي ينحدر منها عمر من عبد شمس التي ينتمي إليها أبو سفيان وأبناؤه واتفقتَا على ضرورة التصدي للدين الجديد. ويجب أن نستحضر هنا أن عمرا كان هو زعيم عشيرته قبل أن

---

[1] - أوردَ ابن عساكر " قال معاوية بن أبي سفيان لما كان عام الحديبية وصدت قريش رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن البيت ودافعوه بالراح وكتبوا بينهم القضية وقع الإسلام في قلبي فذكرت ذلك لأمي هند بنت عتبة فقالت إياك أن تخالف أباك أو أن تقطع أمرا دونه فيقطع عنك القوت"، **تاريخ دمشق**، ج 59 ص 67.

[2] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 367؛ أبو نعيم الأصفهاني، **معرفة الصحابة**، 5 ص 2496؛ ابن عبد البر القرطبي، **الاستيعاب**، مجلد 3 ص 1416؛ ابن عساكر، **تاريخ بغداد**، 59 ص 112، 113، 114؛ **ابن الأثير**، أسد الغابة، 5 ص 201.

[3] - حول تطور العلاقة بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد يمكن مراجعة: ابن سعد، **الطبقات**، 3 ص 215؛ الطبري، **تاريخ**، 3 ص 392، 336، 337، 434، 435؛ ج 4 ص 66، 67؛ محي الدين لاغة، معركة اليرموك في مصادر القرون الثلاثة الأولى نموذجا، **موارد، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة**، عدد 8 سمة 2003، ص 267- 317.

يُسلم في السنة السادسة للهجرة حسب أغلب الروايات في حين كان أبو سفيان الشخص المُقدم في عبد شمس.

لكن انسجام الروايات الواردة في كتب الطبقات والتراجم مع نظيرتها في كتب التاريخ عند الحديث عن علاقة معاوية بعمر بن الخطاب ليس قارا وعلى نفس تناسق المسائل المُشار إليها سابقا (تولية معاوية على الشام). ففي إطار استعراض إعجاب عمر بفطنة معاوية وسرعة بداهته نقل كلٌّ مِنْ ابن عبد البر وابن عساكر[1] حيثيات ما جرى من حوار بين معاوية والخليفة عمر عند تحول هذا الأخير لتفقد أحوال الشام. وبطبيعة الحال لم تحدد تلك الروايات تاريخا لذاك اللقاء لكنها توقفت عند مظاهر العظمة والأبهة التي صاحبت الاستقبال وهو ما أثار احتجاج عمر، غير أن معاوية علّل ذلك بضرورات الحكم في بلاد الشام وبمصلحة الدولة. وينتهي الخبر بقبول الخليفة وِجْهة نظر واليه والتسليم بقدرته على الإقناع.

إن ما يعنينا هنا ليس ما يُتداول عن مساعي معاوية تركيز تقاليد في الحكم غريبة عن المألوف في الوسط العربي البدوي وتحاكي نمط الحكم البيزنطي[2]، وهو ما عرضه إلى تهم مختلفة من قبيل تأسيس نظام قيصري أو هرقلي، بقدر حصول الحدث في ذاته؛ وبصورة أخرى التساؤل عما إذا قد حصل فعلاً لقاءٌ بين معاوية وعمر في بلاد الشام ؟ الإجابة التي تقدمها كتب التاريخ والفتوح هي أن عمر انتقل إلى الشام أربع مرات، مرتيْن خلال السنة السابعة عشرة ومثلها في السنة التي تلتها لكن لم يلتق في أي منها معاوية[3]. وتتواتر، بالفعل، المعلومة التي تُفيد احتجاج الخليفة عمر على الأمراء الذين استقبلوه في الجابية أو في مواضع أخرى على مظاهر البذخ التي لم يعهدها منهم لكن هؤلاء الأمراء حسب ابن شهاب الزهري هم أبا عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة، وبالتالي لم يكن معاوية من ضمنهم[4].

وهنا يتبادر السؤال حول الدواعي التي تجعل مُدوّني الطبقات والتراجم يصرون على إدماج معاوية؟ قد تكمنُ الإجابة في رواية تذكرها كتب الطبقات والتراجم أيضا وتنسب فيها إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب القول بأن معاوية أكثر كفاءة حنكة وقدرة على إدارة الشأن السياسي(هو "أسود") من كل خلفاء الدولة الإسلامية السابقين بمن فيهم عمر بن الخطاب[5]. ولأن مصدر هذا الخبر هو نجلُ عمر ذاته فإن في ذلك اعترافا بنوع من

---

[1] - ابن عبد البر، نفس المصدر، 3 ص 1416؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 113، 114.

[2] - Wiet G., L'empire néo-byzantin des omeyyades et l'empire néo-sassanide des abbassides, *Cahier de l'histoire mondiale*, vol. 1, n° 1, juillet 1953, pp. 64-71.

[3] - الطبري، تاريخ، 4 ص 60.

[4] - الطبري، تاريخ، 4 ص 56، 57؛ محمد بن عمر الواقدي، فتوح الشام، بيروت، دار الكتب العلمية 1997، 1 ص 229؛

[5] - البغوي، نفس المصدر، 5 ص 369؛ ابن عبد البر، **الاستيعاب**، 3 ص 1418؛ ابن عساكر، نفس المصدر، ج59 ص 172، 173: " قال ابن عمر ما رأيت أحدا بعد رسول الله (ص) أسود من معاوية

العُلوية لمعاوية مقارنة بابن الخطاب المشهود له بصرامته وحنكته؛ ومن هناك يتحول حدث لقاء الخليفة بمعاوية في الشام والذي أقر فيه بكفاءة معاوية إطارا تاريخيا ملائما لدعاية سياسية تخدم صورة معاوية ومن خلاله الأمويين.

في نفس السياق لم يقف سعي بعض الروايات في كتب الطبقات والتراجم عند إثارة موضوع المفاضلة بين معاوية وعمر بن الخطاب بل تعداه لإثبات أولويته على عمر بن عبد العزيز.

فقد نقل كل من الخطيب البغدادي وابن عساكر رواية مفادها أن معاوية بن أبي سفيان أفضل من عمر بن عبد العزيز[1]؛ وبطبيعة الحال تنسحب هذه الأفضلية على باقي الخلفاء الأمويين وذلك لما لعمر بن عبد العزيز من مكانة في المخيال العربي الإسلامي تجعل البعض يرتبه خليفةً راشديا[2].

لا شك أن لهذه الموازنة بين هذيْن الخليفتيْن ما يبررها سياسيا، إذْ وبصرف النظر عن التقييمات المختلفة للعصر الأموي فإننا نلحظ شبه إجماع بين دارسي تلك المرحلة على اعتبار كل منهما من بين أهم خلفائها، إن لم يكونا أبرزهم، نظرا لما أنجزه كل واحد منهما لفائدة الدولة القائمة[3]. فقد ناضل معاوية من أجل إعادة توحيد الدولة الإسلامية ثم من أجل تعزيز سلطة مركزية قوية في ظل احترام القوى القائمة والتوازنات القبلية، ونجح إلى حد بعيد في مواجهة التحديات الداخلية المُختلفة، كما استأنف حملات الفتوح في مختلف الجهات الأمر الذي مكن من توفير مداخيل طائلة كانت ضرورية للاستجابة لحاجيات الدولة ولاسترضاء المعارضين وكسب ولاء شيوخ القبائل. أما عمر بن عبد العزيز فقد كان هو أيضا مناضلا لكن من أجل المحافظة على وحدة الدولة التي بدأت تتآكل تحت وطأة التناقضات المختلفة وضغط قوى المعارضة. في ذاك الإطار اتبع سياسة ترمي إلى إرساء نوع من التوازن تحاكي سياسة معاوية إلى حد ما. فقد اتخذ جملة من الإجراءات

فقيل له هو أسود من أبي بكر قال كان أبو بكر خيرا منه وهو أسود من أبي بكر قيل فعمر قال كان عمر خيرا منه وهو أسود من عمر قيل فعثمان قال كان عثمان خيرا منه وهو أسود من عثمان"

[1] - " حَدَّثَنَا رَبَاحُ بْنُ الْجَرَّاحِ الْمَوْصِلِيُّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلا يَسْأَلُ الْمُعَافَى بْنَ عِمْرَانَ، فَقَالَ: يَا أَبَا مَسْعُودٍ أَيْنَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مِنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سُفْيَانَ؟ فَغَضِبَ مِنْ ذَلِكَ غَضَبًا شَدِيدًا، وَقَالَ: لا يُقَاسُ بِأَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ (ص) أَحَدٌ، مُعَاوِيَةُ صَاحِبُهُ وَصِهْرُهُ وَكَاتِبُهُ وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ص): " **تاريخ بغداد،** 1 ص 577؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 207، 208

[2] - عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، **عمر بن عبد العزيز معالم التجديد والإصلاح الراشدي،** مصر، دار التوزيع والنشر الإسلامية 2006.

[3] - Hawting G. R., *The First dynasty of Islam, The Umayyad Caliphate AD 661- 750*, London 1986

واستعرض كلود كاهن أبرز الأبحاث المتصلة بالفترة الأموية حتى بداية ثمانينات القرن الفائت في كتابه: Cahen Cl., *Introduction à l'histoire du Monde Musulman Médiéval, VIIe – XVe siècle, méthodologie et éléments de bibliographie*, Paris, Librairie d'Amérique et d'Orient, A. Maisonneuve 1982, p. 127-131.

للحد من الامتيازات التي كانت ممنوحة لآل موان وانتهج سياسة متوازنة إزاء التكتلات القبلية الفاعلة في محاولة منه لتعديل سياسة سلفه سليمان الذي اعتمد بدرجة كبيرة على القبائل اليمانية الأمر الذي ألب عليه نظيرتها القيسية. ولئن أوقف حملات الفتح في الشرق وسحب الوحدات العسكرية من التراب البيزنطي فقد أطلق إصلاحا ضريبيا ضَمِن في ذات الوقت التخفيف من تبعات توقف تلك الحملات وخاصة تخفيف الضغط على المسلمين من غير العرب وضيق الفوارق بين مسلمي العهد الأول واللاحقين.

مع ما تقدم، تبقى الإشارة إلى أن رواية تفضيل معاوية على عمر الثاني لا تأتي في المصادر التاريخية. إن الصورة التي تقدمها لنا هذه المصادر هي أن ابن عبد العزيز يقف على رأس سلسلة خلفاء بني أمية بفضل ورعه المُفرط والذي أهله للقيام بإصلاحات عميقة وذات معنى رغم قصر مدة حكمه؛ وحتى الإشارة إلى قرار الخليفة إبطال عادة لَعْنِ علي بن أبي طالب على المنابر فإنها لم تردْ إلا في بعض المصادر المتشيعة وتُذكر في إطار تعداد محاسن سيرته الهادفة إلى كسب تعاطف الشيعة[1]. ويجرنا التحليل السابق إلى افتراض كون قضية تفضيل معاوية على عمر بن عبد العزيز في كتب الطبقات والتراجم ليستْ في النهاية غير تعبير عن صراع سياسي مذهبي يتمثل في استغلال اعتراف خصوم الدولة الأموية بالصورة المضيئة لعمر الثاني لفائدة معاوية ليصبح أفضل من الفاضل(عمر بن عبد العزيز). وما قد يدعم ذلك هو أن الرواية المذكورة أعلاه جاءتْ فريدة وترقى إلى محدث شامي، هو المُعافى بن عمران، المتوفى في نهاية القرن الثاني للهجرة والذي حدث لفترة طويلة بالموصل والرقة[2] وربما في دمشق كذلك بما أن ابن عساكر ذكره بين محدثيها في أكثر من موضع.

وهناك مُعطًى آخر يؤكد أنّ لتقديم معاوية على عمر بن عبد العزيز بُعدا سياسيا أكثر منه تاريخيّا، ويتمثل في اعتبار صحبته للرسول مقياسا وحيدا لتفضيله على عمر الثاني. وإذا كان مفهوم الصحابي فضفاضا بما أنه يشمل كل من لقي النبي لقاء ماديا وتأثر به أو روى عنه أو حارب معه[3]، فهو بالضرورة ينطبق على معاوية الذي ربطته بالرسول علاقة مصاهرة (هو أخ أم حبيبة زوجة الرسول) وكان أحد كتبة الوحي. وعلى كل حال فلقد مثلت الصحبة أبرز مقياس للتشريف طوال قرون من التاريخ الإسلامي لدى مختلف المدارس الفقهية وخاصة الحنابلة.

---

[1] - بقطع النظر عن مدى صحة مسألة قرار معاوية لعن علي بن أبي طالب من عدمها بما أن ذلك الخبر لم يرد في غير المصادر المتشيعة للعلويين، منها: اليعقوبي، **تاريخ**، 1 ص 233؛ المسعودي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ج2 ص

[2] - الخطيب البغدادي، نفس المصدر، ج 15 ص 303.

[3] - محمد علي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، بيروت، مكتبة لبنان، 2 ص 1060؛ محمد بن علي الجرجاني، **كتاب التعريفات**، القاهرة، مكتبة الفضيلة، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، ص 113.

2-2: الـروايـــة المُعتَمَدَة في كتب الطبقات في خدمة معاويـــة:

للوقوف على خلفية تطور صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم يُستحسن الرجوع إلى مواردها وهو ما يقتضي تتبع سلسلة الأسانيد. وبسبب كثرة الروايات ولأن هذه السلسلة قد تكون طويلة جدا لا سيما في المصادر المتأخرة (مثل تاريخ دمشق لابن عساكر)، نكتفي في هذا البحث ببعض النماذج منها:

يُلاحظُ أنّ أبرز سمة في شأن موارد الأحاديث التي تمتدح معاوية هو اعتمادها على أسانيد أصيلة بلاد الشام أو تأثرتْ بمحدثيه بصورة أو بأخرى. وترْقى الأحاديث التي تدعو لمعاوية[1] إلى عبد الأعلى بن مسهر الغساني، المعروف **بأبي مسهر** (ت سنة 218/ 833)، والذي تولى قضاء دمشق وصفه ابن عساكر بشيخ الشام في إشارة لمعرفته الواسعة بالمغازي والأنساب. وهناك إشارات عديدة على أنّ علاقته بالعباسيين كانت سيئة إذْ امتحنه المأمون وسجنه بسبب معارضته للتصور الاعتزالي في مسألة خلق القرآن وهو مؤشرٌ قويٌّ على التزامه السني من جانب وعلى تبنيه لموقف شامي مازال مواليا للأمويين. وما يدعم هذا الافتراض هو ما يُذكر عن علاقة أبي مسهر المتينة بأحمد بن حنبل بما أنهما كانا يتبادلان المراسلات[2].

وروى أبو مسهر الأحاديث السابقة عن **سعيد بن عبد العزيز** بن أبي يحيى التنوخي الدمشقي المتوفى في بداية النصف الثاني من القرن الثاني، وقد اعتُبر من أبرز محدثي الشام. وينسبُ له ياقوت الحموي كتابا في التاريخ جمع ابن عساكر أخباره في كتاب سماه بعنوان"كتاب أخبار أبي محمد بن عبد العزيز وعواليه"[3]. وقد أطنب ابن عساكر في مدحه واعتبره فقيه أهل دمشق ومفتيهم بعد الأوزاعي. وترقى رواياته إلى ابن شهاب الزهري وإلى كثير من الشاميين منهم ورَبِيعَةَ بْنِ يَزِيد خاصة وروى عنه الثوري وشعبة وابن المبارك وأبو حيوة وأبو مسهر[4].

وبدَوْره نقل سعيد بن عبد العزيز الأحاديث المعنية عن **رَبِيعَةَ بْنِ يَزِيد** الأيادي الدمشقي. وهو تابعي عده ابن خياط ضمن الطبقة الثالثة، قتل بأفريقية في خلافة هشام مع غزوة كلثوم بن عياض القشيري سنة 123. وروى ربيعة أخباره عن كثير من الشاميين أيضا، أبرزهم أبو إدريس الخولاني وعبد الله بن حوالة وجبير بن نفير و**عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمِيرَةَ الأزدي المزني**[5]. وعبد

---

[1] - من قبيل:" اللهم علمه الحساب والكتاب وقه العذاب" **و"** اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا وَأَهْدِهِ وَأَهْدِ بِهِ**"** و" اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى"، الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد،** 1 ص 574؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 69، 82.

[2] - البخاري، نفس المصدر، ج6 ص 73؛ ابن سعد، نفس المصدر، 7 ص 328؛ ابن عساكر، **تاريخ دمشق،** 33 ص 421-444.

[3] - ياقوت الحموي، معجم المؤلفين، 4 ص 1700.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، 21 ص 193- 213؛ ابن حجر، **التهذيب،** 4 ص 59-61.

[5] - ابن أبي حاتم، عبد الرحمن بن أبي حاتم(ت 327)، **الجرح والتعديل،** بيروت، دار إحياء التراث العربي1952، ج3 ص 474؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 72 ص 192- 200

الرحمن الأزدي هذا، الذي يمثل أعلى سلسلة الإسناد، هو كذلك من المحدثين الشاميين. وحسب تسلسل الإسناد فقد سمع رواية الحديث الذي يدعو فيه الرسول لمعاوية من معاوية بن أبي سفيان ذاته. وإن لم يشكك أي واحد من نقاد الحديث في أصل متن الخبر فإن حكم ابن الأثير على حامله (ابن عَميرة) بنقل أحاديث مضطربة[1]، قد يعني اتهاما ضمنيا بوضعه الحديث دعايةً لمعاوية.

وأوردَ البغوي نفس الأحاديث عن سند شامي آخر: يبدأ **بمعاوية بن صالح، الحضرمي** (ت774/158) وهو شامي أصيل مدينة حمص. وتُبرزُ المصادر مسألة توليه القضاء بالأندلس بعد الثورة العباسية وهو ما يفترض توليته في خطته تلك من قبل آخر الخلفاء الأمويين أو انتقاله اختيارا إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية، وهو في كلتيْ الحالتيْن ما قد يكون مؤشرا على ولائه لأسرتها[2]. وروى الحضرمي عن عدد كبير من الدمشقيين منهم ربيعة بن يزيد وعمير بن هانئ العنسي والأوزاعي **ويونس بن سيف الخزاعي**. ولا تذكر المصادر شيئا كثيرا عن يونس،هذا الذي استند إليه معاوية بن صالح في نقل حديث دعاء الرسول إلى معاوية، غير كونه من مدينة حمص كذلك وتوفي في بداية القرن الثاني للهجرة (737/120) وروى عن محدثين شاميين معروفين في مقدمتهم أبي إدريس الخولاني[3].

ونقل يونس الخزاعي الحديث المَعني عن **الحارث بن زياد،** وهو كذلك شامي ويُفهم من سياق نص ابن عساكر انه صحابي[4]، لكن ابن حجر وابن الأثير استبعدا ذلك وذهبا إلى أن الحارث نقل الحديث المنسوب إليه عن الرسول ("اللهم علم معاوية الكتاب وقه الحساب") عن صحابة شاميين آخرين منهم أبي رهم السماعي والعرباض بن سارية السلمي[5]. وجاء كلاهما إلى الشام وعاشا فترة طويلة في ظل الدولة الأموية [6].

وجاءت في كتب الطبقات والتراجم بعض الأحاديث التي تذهبُ إلى أنّ استكتاب معاوية كان بوحي إلهي، بل يذهبُ بعضها إلى أنّ معاوية كان مؤتمنا على الوحي تماما مثل الرسول وجبريل. فقد جاء واحدٌ منها[7] برواية **الحسين بن منصور**، وهو محدث شامي مات في القرن الثالث ويُفهم من

---

[1] - ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 5 ص 272؛ ابن الأثير، **أُسْدُ الغابة**، 3 ص 474، 475.

[2] - ابن سعد، **الطبقات**، 7 ص 361؛ ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 8 ص 382؛ ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 44- 52.

[3] - ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة** ، 11 ص 440؛ ابن الأثير، نفس المصدر، 1 ص 630/ 4 ص 325.

[4] - ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 74.

[5] - ابن حجر، **الإصابة** ، ج2 ص 142؛ ابن الأثير، نفس المصدر، ج1 ص 608.

[6] - ابن سعد، نفس المصدر، 7 ص 289؛ ابن أبي حاتم، نفس المصدر، 7 ص 39؛ ابن عساكر، نفس المصدر، ج 40 ص 176- 191؛ ابن حجر، **الإصابة،** ج1 ص 190، ج7 ص 174؛ ابن الأثير، **أسد الغابة،** ج 3 ص 556، ج 6 ص 111.

[7] - ابن عساكر، نفس المصدر، ج 59 ص 74.

سياق تاريخ دمشق أنه كان يصرح بمساندته للأمويين مُبررا ذلك برؤيا رآها في منامه حذره فيها الرسول من لعن معوية[1]. وقد نقل الحسين بن منصور الحديث الذي يفيد باستئمان معاوية على الوحي عن شامي آخر مجهول، اسمه وضاح الأنباري، والذي رواه بدوره عن **خالد بن معدان** الكلاعي الحمصي. وهو من أبرز محدثي الشام خلال القرن الأول للهجرة (ت بين 721/103م و723/105م) ويدّعي أنه أدرك سبعين رجلا من أصحاب النبي، وكان من بين مَنْ روى عن أبي ذر وعائشة وأبي أمامة الباهلي وعبادة بن الصامت وأبي الدرداء ومعاوية بن أبي سفيان ذاته[2]. وترقى رواية ابن معدان للحديث المعني إلى الصحابي **واثلة بن الأسقع** الذي شارك الرسول بعضَ معاركه ثم انتقل إلى الشام أين شارك في بعض معارك الفتوح هناك. واستقر في دمشق إلى تاريخ وفاته بين 83هـ/ 702م و 85هـ/704م. ولا يُستبعد أن تكون علاقته بالأمويين وطيدة بما انه كان له مسجد باسمه يحدث فيه في دمشق[3].

وفي تاريخ دمشق أين تردُ أكثر الأحاديث التي تتمحور حول حب الرسول لمعاوية والتنبؤ بخلافته، يُلاحظ أن أغلبها يرقى إلى موارد شامية كذلك. فقد جاء أحدها[4] استنادا إلى سلسلة طويلة من المحدثين عاش أكثرهم بدمشق، أبرزهم أبو زرعة الدمشقي المتوفى سنة 281 للهجرة والذي يُنسبُ له كتاب "التاريخ وعلل الرجال"، ويبدو أنه لعب دورا هاما في نشر الفكر الحنبلي بالشام[5]. وما يُلاحظ أيضا هو أن أبا زرعة قد أسندَ الحديث إلى شخصيات غير معروفة جيدا أو تم تضعيفها من قبل نقاد الرواية، وهم بحسب الترتيب التنازلي في الزمن: محمد بن أحمد الضراب (غير معروف) وعلي بن جميل الرقي الذي اتهمه تقي الدين المقريزي برواية الأحاديث الباطلة وبسرقة الحديث[6]، ثم عبد الله بن واقد الحراني(ت826/210) الذي ضعفهُ الدارقطني[7].
الدارقطني[7].

[1] - ابن عساكر: " كنت أبغض معاوية وألعنه فرأيت النبي (ص) في النوم كأنه دخل داري وكان في الدار حمام دخل الحمام واغتسل فلما خرج من الحمام ركب بغلته وكان بين يديه رجل قائم أصفر اللون فسلمت على النبي (ص) فقال لي يا أبا طاهر لا تلعنه ولا تبغضه قلت من هو يا رسول الله قال هو معاوية بن أبي سفيان أخي كاتب الوحي"، **تاريخ دمشق**، ج 59 ص 212.

[2] - ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، 3 ص 118- 120؛ الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، 1 ص 92.

[3] - ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، 62 ص 343- 365؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 4 ص 410؛ خليل الصفدي، **الوافي بالوفيات**، بيروت، دار إحياء التراث 2000، ج 27 ص 243.

[4] - "إني أحب معاوية وأحب من يحب معاوية وجبريل وميكائيل يحبان معاوية والله أشد حبا لمعاوية من جبريل وميكائيل"، ابن عساكر، نفس المصدر، 59 ص 90.

[5] - ابن الأثير، نفس المصدر، 2 ص 547؛ الذهبي، **تذكرة**، 2 ص 148؛ الزركلي، الأعلام، 3 ص 320.

[6] - تقي الدين المقريزي(ت 845هـ)، **مختصر الكامل في الضعفاء**، القاهرة، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، مكتبة السنة 1994،ص 567.

[7] - علي بن عمر الدارقطني (المتوفى: 385هـ)، **الضعفاء والمتروكون**، المدينة المنورة، مجلة الجامعة الإسلامية، تحقيق عبد الرحيم محمد القشقري، 2 ص 160.

وفي الواقع هناك أكثر من سبب قد يبرر وضع أصل الحديث الذي نتناوله موضع السؤال. أولها أن واقد الحراني أخذ الحديث عن شخص لا يُذكر كثيرا في كتب التراجم ولا في مصادر نقاد الحديث لكن يُرجح كونه بصريا تبعا لمصادر روايته وعاش إلى بداية النصف الثاني من القرن الثاني واسمه **مبارك بن فضالة**[1]. ويتمثل ثاني الأسباب في عدم ذكرِ ابن فضالة لسلسلة الرواة التي حصل بها عن الحديث بدقة من إسناده الأعلى والمباشر وهو أبو عويمر بن مالك الخزرجي المعروف بأبي الدرداء؛ عِلْمًا أن ابن فضالة توفي سنة 164 أو 165هـ/781م بينما توفي أبو الدرداء في حدود سنة 652/32 م أثناء خلافة عثمان بن عفان[2]. أما السبب الثالث فهو يرتبط بأبي الدرداء ذاته. صحيح أن هناك إجماع في كتب التراجم على كونه من الرواة عن النبي وأنه من الذين انتقلوا من الصحابة إلى الشام أين أصبح له تأثير بعيد في رواية الحديث، إلا أن علاقته الوطيدة بالخليفة عثمان وخاصة بمعاوية الذي ولاهُ قضاء دمشق لفترة يدفع إلى التساؤل بإلحاح عن تاريخية الحديث موضع الدرس أصلا وإذا ما لم يكن هو الذي وضعه أو نُسبَ إليه من قبل رواة لاحقين مستغلين في ذلك سمعته وسابقيته[3] .

ولا يختلف الحال بالنسبة للأحاديث التي تتناول تنبؤ الرسول بمستقبل معاوية السياسي بما فيها نبوءته بحكمه للشام؛ فهي في أغلب الحالات تستند إلى رواة أصيلي الشام أو جاؤوا إليه في مرحلة من مراحل حياتهم مثل ذلك[4] ذلك[4] الذي رواه بَحيْر بن سعيد عن خالد بن معدان ويرقى إلى الصحابي جُبَيْرِ بنِ نُفَيْرٍ وانتقل إلى الشام وأقام في حمص[5].

ومع ما تقدم، ومع الإقرار بهيمنة الرواية الشامية، فقد ساهم بعض نقلة الحديث المحسوبين على مدرسة المدينة في تناقل الأحاديث المنسوبة للرسول والتي تمتدح معاوية بروايات عراقية/ مدينية. وأبرزُ ما يُلاحظ في تلك الواردة منها في تاريخ ابن عساكر مثلا هو كونها مُسندةً إلى موارد مجهولة أو مطعون في "عدالتها". فقد ورد حديث" اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى" عبر سلسلة طويلة من الرواة الغير معروفين لم يرد غالبهم في غير رواية ابن عساكر لهذا الحديث لينتهي إلى أبي موسى

---

[1] - ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، 10 ص 28-30؛ الذهبي، **تذكرة**، 1 ص 149.

[2] - ابن الأثير، نفس المصدر، 6 ص 94.

[3] - ابن حجر، نفس المصدر، 8 ص 175- 177؛ الذهبي، **تذكرة**، 1 ص 23؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 4 ص 14؛

[4] - " ليلين بعض مدائن الشام رجل عزيز منيع هو مني وأنا منه فقال له رجل من هو يا رسول الله قال فقال رسول الله (ص) بقضيب كان بيده في قفا معاوية"، ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، 59 ص 91؛ الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، 3 ص 126.

[5] - البغدادي، تاريخ دمشق، 72 ص 47؛ ابن حجر، نفس المصدر، 2 ص 64-66؛ الذهبي، **تذكرة**، 1 ص 42.

الأشعري[1].
وجاء في رواية ثانية استنادا إلى المحدث العراقي **السري بن عاصم** عن اثنيْن من جيل التابعين عاش كل واحد منهما ظروفا تؤشر إلى علاقاتهما الجيدة بالأمويين؛ الأول هو **عبد الله بن يحيى بن كثير** الذي ولاه الأمويون قضاء مكة إلى تاريخ وفاته سنة 120/ 738[2] وقد استند بدوره إلى **هشام ابن عروة بن الزبير بن العوام** (ت146) وكان من الذين عاقبهم أبو جعفر المنصور[3]. ولعل ملاحظة ابن عساكر عندما أورد رواية السري بن عاصم بكونه لم يروها غيره أبرز دليل على المآخذ على محتواها[4].
ولم يكن ابن عساكر الوحيدَ الذي انتقد السري بن عاصم. فقد شكك ابن كثير خلال القرن الثامن في أمانة السري عند نقله الحديث المُسند إليه والذي يفيد بأن استكتاب الرسول لمعاوية الوحيَ كان بأمر إلهي؛ بل ذهب إلى حد انتقاد ابن عساكر لإيراده هذا الحديث أصلا في كتابه دون أن يبين ضعفه وتساءل عن خلفيات ذلك[5].
وعلينا أن نلاحظ في النهاية أنّ الباحث لا يجد في الواقع قطيعة كاملة بين الرواية الشامية ونظيرتها المدينية/العراقية (بما أن عديد رواد الرواية العراقية وخاصة البصريين اعتمدوا رئيسيا على رواة المدينة)، ذلك أنّ أسانيد مصادر الخبر المتصلة بمعاوية تتقاطع في أحيان عديدة. ويجد هذا تفسيره في عامليْن رئيسييْن؛ أولهما أنّ عددا غير قليل من محدثي الجيل الأول الشاميين هم من الصحابة الذين انتقلوا إلى بلاد الشام إما وقتيا (ابن شهاب الزهري مثلا) أو نهائيا، والثاني هو اهتمام بعض الخلفاء الأمويين برواية الحديث، ومن بينهم عمر بن عبد العزيز وببعض فروع الرواية الأخرى مثل رواية النسب والقَصَص[6].

خاتمة البحث

يطرح تحول صورة معاوية في كتب الطبقات والتراجم أكثر من إشكال: فهي مؤشر مرة أخرى على أن الرواية لم تكن بمعزل عن التجاذب السياسي

---

[1] - أحمد بن محمد بن المغيرة العباداني عن قيس بن إبراهيم بن قيس الطوابيقي عن إسحاق بن يعقوب الضرير عن أبو عامر العقدي عن الفضيل بن مرزوق عن عطية العوفي عن أبي موسى الأشعري

[2] - ابن أبي حاتم، نفس المصدر، ج5 ص 144؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، الهند، مطبعة دائرة المعارف النظامية، ج 5 ص 366.

[3] - ابن سعد، **الطبقات**، 7 ص 321؛ الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، 14 ص 38-42؛ ابن حجر، **تهذيب التهذيب**، 11 ص 48-51.

[4] - علق ابن عساكر على الحديث " اللهم أهده بالهدى وجنبه الردى واغفر له في الآخرة والأولى" بالقول " لم يرو هذا الحديث عن هشام ابن عروة إلا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير تفرد به السري بن عاصم وقد روي عن شعيب بن إسحاق عن هشام"، نفس المصدر، ج 59 ص82.

[5] - ابن كثير، البداية والنهاية، 8 ص 355، 356.

[6] - حسين عطوان، **الرواية التاريخية في بلاد الشام في العصر الأموي**، بيروت، دار الجيل 1986؛ محي الدين لاغة، بحث في موارد كتاب فتوح الشام للأزدي، **مجلة موارد**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، ، عدد 16، سنة 2011، ص 165-196.

والمذهبي وأن محتواها قد تأثر إلى حد بعيد بميول ناقلي الخبر؛ كما قد ارتبطت إلى حد بعيد بتطور المعرفة عند المسلمين. ففي القرن الثالث كانت السيرة والحديث هي المنطلق ومازالت الرواية في جملتها متينة الترابط بتناقل أحداث السيرة، وبالتالي مازال تناول تاريخ الأشخاص متصلا شديد الاتصال بعلاقتهم بالنبي وبأحداث صدر الإسلام. لهذا لم يتم إدماج معلومات كثيرة عن الشخصيات التي يتم الترجمة لها، وكان ذلك واضحا في طبقات ابن خياط وطبقات ابن سعد. هذا الأمر سيتغيرُ خلال المرحلة لاحقة تحول غرض الرواية تحت تأثيرات مختلفة أهمها التنافس السياسي والصراع المذهبي، وبعد أن كانت في خدمة الدين والنبوءة انزلقت تدريجيا لتصبح في خدمة الدولة مُجسدة في الخليفة أو المذهب (الماسك بالحكم أو المعارض) أو الإقليم. وقد أثر ذلك لا محالة على منهج أصحاب التراجم كما على محتوى تراجمهم. وكان من نتائج هذا إدماج المُترجم لما يرتئيه صالحا لتحقيق هدفه من وراء تلك الترجمة.

وفي الواقع علينا التسليم بأن ورودَ معلومات من هذا القبيل من شأنه أن يمس صدقية الخبر ويطبع التاريخ بما ليس تاريخي، ومع ذلك هناك اتفاق بين الباحثين على أهمية كتب الطبقات والتراجم كواحد من مصادر التاريخ الإسلامي. يبدو ذلك من مختلف أبحاث كثير من المستشرقين تناولوا الموضوع منذ نهاية القرن الفائت على غرار "هوفمنغ" في مقال له في موسوعة الإسلام و"لوث" في تقديمه لجزء من طبقات ابن سعد، و"روزنتال" ضمن بحثه حول علم التاريخ عند المسلمين؛ وكذلك من خلال باحثين عربٌ مثل أكرم ضياء العمري في تقديمه لكتاب طبقات ابن خياط أو إبراهيم الحفصي في مقال له حول المسألة صدر في العدد الثالث والعشرين من مجلة "أرابيكا".

"آل الجنابي"مؤسّسي دولة القرامطة ببلاد البحرين من خلال كتب التراجم

محمد النّاصر صدّيقي
جامعة جندوبة

مقدمة

لئن تعددت كتب الطبقات في فن عالم المعارف والموسوعات والمعاجم في الحضارة العربية الاسلامية، فانّه كان لزاما أيضا نقل العلم وحياة الأوائل وأرباب العلم والقلم ورجال الحكم لتطّلع الأجيال الأخرى، فكان النّتاج المعرفي في طبقات الرجال حسب الملل والنحل والتخصص: (الشعراء، النحاة، والأطباء، الفقهاء) وحسب كل مدرسة فقهية، ناهيك عن الصحابة والتابعين وأصحاب الأحاديث والرواة، إضافة إلى كل هذا أو ذاك نجد إهتماما واسعا برجالات الحكم من خلفاء وأمراء ووزراء.

وتناول أسر الحكم في الحضارة العربية الاسلامية يخضع لغطاء سياسي ومذهبي واسع نظرا لأن الآخر المذهبي ممنوع من التداول وغير مندرج ضمن أسر الحكم ومشكوك في نسبه، كما هو حال فاطميّي القاهرة، فقد صدر في حقّهم "المحضر" ببغداد سنة 402 هـ / 1010 م يتضمّن القدح في نسبهم الفاطمي ووقّع عليه علية القوم ونقيب الأشراف[1]

وهذه الحرب الدعائية التي أحسنت سلطة الاشراف في الاسلام حبكها ونسج أحداثها، فكان تأثيرها رفض للآخر الذي وضع في خانة المارقين، وفي هذه الحالة أدرج "آل الجنابي" من المارقين سواء في حكمهم االنّموذجي بفردانيته في تلك البقعة القريبة من دار الخلافة العبّاسية ببغداد، أو في مرجعيتهم

---

[1] ابن الجوزي، ***المنتظم في تاريخ الملوك والأمم***، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن / الهند 1358 هـ ، جviii ، ص 255 – 256

المذهبية[1]، وإن تناثرت معلوماتنا عن أمراء "آل الجنابي البوسعيديون"، فإنه لأول مرة نجد إشارة واضحة من مصدر في القرن الخامس هجري فيه ذكر لمجلس الحكم القرمطي بالمجلس "السلطاني" [2] وربما قصد بهذه التسمية صفة خاصة بالحكام أو أعضاء مجلس العقدانية أو رأس الحكم القرمطي من "آل الجنابي" أحد السلاطين "البوسعيديين"[3] وهذه الألقاب وغيرها الواردة في "سفر– نامه" تمثل عنصرا معاونا في التعرف على نظام الحكم في هذه الأسرة، رغم التغييب والاقصاء المتعمد، فحتى جهاز الخلافة الذي رفع اسم أحد قادة "آل الجنابي" في الحرم المكي بعد الخليفة في الدعاء، بعد حوالي قرن من الزمن، تحالف مع قوى أخرى صاعدة وتآمر لاجتثاث كيانهم السياسي من الوجود، وللأسف كان الواعز المذهبي هو الدافع الرئيس وراء كل تلك العمليات الاقصائية للمجموعات الخارجة عن المألوف، لذلك فإن الرفض في الادراج والتحريم الديني كان سلاح خلائف السلطة في الإسلام ومحازبيها من فقهاء وكتبة وقصاصين ومؤرخين ووظّفوا لغرس مفاهيم جديدة، لذلك لا نستغرب إن كانت عديد الوثائق التي يعمل البحث والابحار العلمي الحديث للتأكد من مصداقيتها، والعمل على تنمية مدّخرات الأرشيف التاريخي - الذي لم يصلنا إلا النزر القليل منه- لإثراء مجالات البحث وإثارة مواضيع جديدة تتماشى مع أهداف البحث الحديثة، لذلك كان من الضروري إماطة اللثام عن آل الجنابي سلاطين قرامطة البحرين من النشأة إلى الأفول، علّنا نسد ثغرات في أسر الحكم في الاسلام المهمش.

I - نبش في آجيال "آل جنابي" بين المصادر:

- **إطلالة تمهيدية في القرامطة من السادة البوسعيديين: (من الفكرة الدعوية إلى الأسرة الحاكمة):**

حسب الولاء والانتماء المذهبي لأبي سعيد الحسن بن بهرام بن بهرشت الجنابي[4] داعية القرامطة في بلاد البحرين باعتباره يمثل امتدادا دعويا وعقديا للخط السوّادي المعارض لدار الإمامة بسلمية وهذا هو النهج الاستقلالي الذي سار عليه آل الجنابي في البحرين.

فقد تمكّن الأخير من إزاحة داعية المهدي الفاطمي ومبعوثه إلى بلاد البحرين. وهكذا يعد قرامطة البحرين امتدادا طبيعيا للدعوة القرمطية الأولى في العراق، فالنشأة المعرفية والتكوين الذي حصل لأبي سعيد كان بفضل مدرسة السوّاد، حيث أخذ فيها منهج وأساليب الدعوة حتى أصبح من كبار

---

[1] فالخواجة نظام الملك الطوسي (ت 485 هـ) في كتابه ***سياست – نامه***، أشار إلى أن تطبيقات أبي سعيد الجنابي الاقتصادية والاجتماعية في ما عرف بنظام "الألفة" مردها مذهب مزدك، راجع سياست –نامه، تحقيق يوسف حسين بكار، دار الثقافة، الدوحة ، 1407 هـ / 1987 م ، ص 279.

[2] ناصر خسرو، ***سفر –نامه***، جامعة الملك سعود، الرياض، 1403 هـ / 1983 م ، ص 169.

[3] ناصر خسرو، المصدر نفسه، ص 171.

[4] - الإصطخري، ***مسالك الممالك***، دي خويه، بريل / لايدن، 1927، ص 149؛ ابن حوقل، ***صورة الأرض***، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992، ص 258

الدعاة[1] ويذكر ابن حوقل أن الجنابي كان من الفرس" الذين انتحلوا ديانات خرجوا بها عن المذاهب المشهورة فدعوا إليها[2]، أمّا ابن الأثير فقد نعته بالزندقة[3].

بينما ذكر أحد المؤرخين الذين تظاهروا ببطانيتهم في بلاد اليمن من أجل كشف أسرار هذه الجماعات أنّه "كان فيلسوفا ملعونا"[4]، وإذا تتبعنا من جديد الصلة الرابطة بين خط حمدان/عبدان القرمطي وأبي سعيد الجنابي وجدنا أن عبدان الكاتب قد أرسله على الأرجح ليباشر الدعوة في جنوب فارس، قبل أن يلتقي "حمدان قرمط" باعث مدرسة السّواد، وذلك ما يستشف من النص الذي أورده ابن حوقل الذي ذكر فيه أن أبا سعيد الجنابي قد " تعلّق بدعوة القرامطة من قبل عبدان الكاتب وأنه عينه للدعوة في جنوب فارس ولكنه اضطر للهرب بسبب تتبع الشرطة له، فكتب إليه حمدان بالشخوص إليه، ولمّا اجتمع به وعاينه... أنفذه إلى البحرين وأمره بالدعوة هناك، وأيدّه بوجوه القوّة من المال والكتب وغيرها"[5] وهذه إشارة واضحة إلى اتصال أبي سعيد الجنابي بمدرسة السوّاد القرمطية وأنه مبعوثها إلى بلاد البحرين، ويرجح أن يكون وصول أولى البشارات بالدعوة القرمطية الإسماعيلية إلى البحرين حوالي سنة 281 هـ/894م. والذي يعنينا أن وجود أبي سعيد الجنابي ببلاد البحرين كان سنة 281هـ، والظاهر أن إقامته الأولى بالبحرين كانت بمثابة عملية سبر دعوي منذ أن حلّ ببلاد البحرين كتاجر لأطعمة في الزارة والقطيف[6].

لقد أنشأ أبو سعيد مجتمعا جديدا، أساسه تجربة حمدان قرمط في سواد العراق حيث كان مرجعه الأول تعليمات "حمدان قرمط" وفلسفة "عبدان" العقائدية وعلى أساسها أنشئت دولة القرامطة وهي الكيان الذي سيقوده صاحب العصر والزمان المهدي المنتظر في بلاد البحرين كما اعتقد بذلك القرامطة وعموم مناصريهم.

---

[1] - ثابت بن سنان وابن العديم، ***تاريخ أخبار القرامطة وترجمة الحسن الأعصم القرمطي***، جمع وتحقيق سهيل زكار، مؤسسة ودار الأمانة، بيروت ، 1391 هـ/1971م ، ص14؛ الأحسائي(محمد بن عبد الله آل عبد القادر الأنصاري)، تحفة المستفيد في تاريخ الإحساء القديم والجديد، نشر الأمانة العامة للاحتفال بمرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، الرياض، 1419هـ/1999م، جI، ص461

[2] ابن حوقل، ***صورة الارض***، دار مكتبة الحياة، بيروت/لبنان 1992 ، ص 257- ص 258

[3] ابن الأثير، ***اللباب في تهذيب الأنساب***، نشر مكتبة القدس القاهرة ، 1369هـ، جI ص 293

[4] الحمادي، ***كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة*** ، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثري، نشر عزّة العطار، 1357 هـ / 1939 م ، ص20

[5] ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص 257- ص 258

[6] ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص 258؛ أبو عبيد البكري، كتاب ***المسالك والممالك***، تحقيق أدريان ليوفن وأدندري فوري، بيت الحكمة والدار العربية للكتاب ، تونس، 1992، جI، ص373- 374 الغنيم(د. عبد الله يوسف)،جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك، لأبي عبيد البكري، الناشر ذات السلاسل، الكويت 1397 هـ/1977 م، ص42

لقد كان للنجاحات التي حققها "أبـو سعيد" على مستوى تجهيز وبناء الدعاة والأتباع عقديا وعسكريا أثر بالغ فيه إذ جعلته يحتكر معظم السلطات باعتباره ممثل الإمام المهدي صاحب العصر والزمان ونائبه بينهم والقائم على نشر دعوته فجميع التنظيمات يرجعون إليه في كل ما يتعلق بأمور الدعوة وتطبيقات النظام الألفوي، فهو الوريث الوحيد لنهج حمدان السياسي والقارئ الجيّد لتطبيقات فلسفة شيخه "عبدان بن الربيط الأهوازي"، فكان المسؤول الاول عن الدعوة في البحرين، وتوابعها من القرى والدساكر، على أن يتولى شخصيا تعيين من يساعده وينوب مقامه، ويشّد أزره ممن يختاره من الدعاة لبلورة نظام الألفة والإخاء بطاقات عقلانية وسياسية مشبعة بالطاعة العمياء لمواجهة الصراع بين الأفكار في مجتمع البحرين[1]، وأن يؤسس دولته ويرسي نظامها وينهض باقتصادها ويصبح السيد الأوحد بمساندة أصهاره ومؤيديه من "آل سنبر"، وقد تكرّست مع الوقت علاقة سياسية محدّدة بين الأسرتين، شكلت أساس البنيان السياسي للدولة أو أساس تكوين السلطات فيها، هذه العلاقة حدّدت بأن يكون للأسرة الأولى "أسرة السادة أو السادات "السادة البوسعديين" والثانية أسرة الشائرة أو الوزراء. وعلى هذا المنوال قام نظام حكم" آل الجنابي" في بلاد البحرين.

فماهي أهم المصادر التي تناولت حكام "آل الجنابي" في بلاد البحرين؟

وماهي الوثائق المادية المساعدة على سبر ومعرفة طبقات الحكم الجنابي؟

1 حفر في المصادر المكتوبة:

يمثل القرامطة القسم الاسماعلي المنشق عن مرجعية دار الامامة بـ"سلمية" وتعد الدعوة التي قادها "أبي سعيد الجنابي" أهمها نظرا لفشل كل حركات الاسماعلية المنشقة سواء في أرض السزاد العراقي أو البادية الشامية في إقامة كيانها وأغلب تحركاتها باءت بالفشل بينما نجح الداعية الجنابي في تأسيس دولة إمتدت لأكثر من قرن ونصف من الزمن في منظومة حكم فريدة من نوعها كما أشار المعري[2] ولم يتمكن القرامطة من خط أبي سعيد الجنابي من انتاج أدبيات خاصة بهم، ولا توثيق لأهم التطورات السياسية ولا للسلالة التي حكمت بلاد البحرين، من السادة "البوسعيديين"، وبما أن سلطنة "آل الجنابي" ومناطق الانتشار القرمطي قد تعرضت لعمليات اجتثاث وتطهير لكل المجموعات الاسماعلية المنشقة من "القرامطة"، لذلك من الصعب أن نجد أرشيفهم الوثائقي خاصة بعد تعرض القصر الملكي/السلطاني "بالمؤمنية" للتدمير من قبل "العيونيين"، وهذا يفاقم مشاكل البحث والنبش في مناقب "الآخرين" لأن الذي وصلنا كان بواسطة كتبة ومؤرخين معادين،

---

[1] غالب (د. مصطفى)، ***القرامطة بين المدّ والجزر***، دار الأندلس، بيروت / لبنان، (د.ت)، ص194؛منصور (د. علي)، " قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي"، ندوة إتحاد المؤرخين العرب الرابعة بعنوان: "إقليم الخليج على مرّ عصور التاريخ" القاهرة/مصر، رجب 1417هـ/نوفمبر1996، ص168- ص169

[2] المعري، ***لزوم ما يلزم: اللزوميات***، دار صادر، بيروت / لبنان ، (د.ت) م II ، ص 448

سواء كانوا من الأطراف العباسية أو العيونية، أو حتى الخط المعارض لهم من الفاطميين. لذلك كانت التراجم المكتوبة أحسن عون لتتبع نخب "آل الجنابي" واقتفاء أثارهم، إضافة إلى علم النميات[1] الذي كان أفضل معين للحفر في فترة هامة من تاريخ القيادات الجنابية في أواسط القرن الرابع الهجري. وكثيرة تلك التلفيقات التي تكلست في المصادر حتى أصبحت حقائق لا يأتيها الباطل، ومع ذلك فإن محاولات نبشنا في المصادر وكتب التراجم ماهي إلا محاولات لمعرفة طبقة "آل الجنابي" مؤسسي الكيان "البوسعيدي" القرمطي في بلاد البحرين التاريخية، وهنا نقف على العديد المصادر التي تناولت الموضوع القرمطي كحالة "ناشزة" و"بدعوية مارقة"، ولم نجد توثيق لأسرتهم الحاكمة إلا مع "ناصر خسرو القبادياني"، ***سفر– نامه***[2] الذي وثّق للكيان البوسعيدي، وكان شاهد عيان في زيارته الميدانية للأحساء ومدن القرامطة في 442 هـ، وكان للعامل المذهبي دورا في حيادية ناصر خسرو بحكم إنتمائه الاسماعيلي. فوصف نظام الحكم والحياة الاجتماعية والاقتصادية وأعراف سلاطين "آل أبي سعيد"، كما نجد في وثائق نادرة لم تعرف طريقها إلى النور إلا في فترة ليست بالبعيدة والمتمثلة في *"ديوان"* [3] الشاعر العيوني "ابن المقرب"(ت 630 هـ / 1233م) الذي وثّق لآخر أجيال القرامطة الجنابيين حتى أفول نجم دولتهم.

ولعل أهم مصدر أشعري النفس - وبطبيعة الحال غير محايد- تناول تفاصيل دقيقة عن القرامطة وطبقات الحكم عند "آل الجنابي" نذكر ***"الكراس"*** المنسوب لإبن رزام الكوفي وقد عاش في العقود الأولى من القرن الرابع للهجري/العاشر ميلادي وقد حفظت لنا بعض أجزاء هذه الكراس في الأعمال المتأخرة وقد تبناها حرفيا أحد المصنفين من "الأشراف" المعروف بـ"أخي محسن" وهو من المعاصرين للخليفة الفاطمي المعز (تـ365هـ/975 م). وكان "أخو محسن"(ت375هـ/985م) من النسابة العلويين وكتابه حفظت بعض أجزائه في مصنفات كل من النويري (ت733هـ/1333م)[4]، وفي كتاب ***"الدرة المضيئة في أخبار الدولة الفاطمية***" والمعروف بـ ***"كنز الدرر وجامع الغرر"*** لأبي بكر عبد بن أيبك الدوادري (ت736هـ/1335 م)[5] ولدى

---

1 يعتبر (علم النميات أو النومات numismatics) أي علم النقود أو المسكوكات، من العلوم الهامة في دراسة نواح من التاريخ، فالعملة والأنواط بما تحمله من صور الآلهة وصور الملوك والأمراء وأسمائهم وذكرى الحوادث التاريخية، وسنوات ضربها تقدم للباحثين مادة تاريخية قيمة

2 ناصر خسرو القباديانى، **سفر – نامه**، الناشر جامعة الملك سعود، الرياض، 1403هـ / 1983م

3 ***ديوان*** ابن المقرب العيوني وشرحه، تحقيق: د. أحمد موسى الخطيب، نشر مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت ، 2002 م ج I، ج II

4 ***نهاية الأرب في فنون الأدب***، تحقيق د. محمد جابر عبد العال الحسيني، مراجعة عبد العزيز الأهواني، الهيئة المصرية للكتاب القاهرة / مصر ، 1404 هـ، ج XXV

5 *كنز الدرر*، تحقيق صلاح الدين المنجد ضمن سلسلة مصادر تاريخ مصر الاسلامية ، قسم الدراسات الاسلامية بالمعهد الألماني للآثار بالقاهرة / مصر ، 1380 هـ / 1961 م ، ج VI

المقريزي (845هـ/1442م) في كتابيه ***"الخطط"*** [1] و***"المقفى"*** [2] فقد تناول فيهما أمور عقائدية وتنظيمية بكيان القرامطة وحدّد فيه تواريخ حراكهم السياسي والحرابي، ويعد كتاب المقريزي ***"اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء"*** [3] حيث وثّق فيه حراك قرامطة البحرين وقادة "آل الجنابي" في ستينيات القرن الرابع الهجري، ويعد من المعتمدين على "أخي محسن" بشكل أساسي، كما نجد في كتاب"ثابت بن سنان الصابئي" [4] (ت365هـ/976 م) وثيقة هامة في تتبع دعوة "أبي سعيد الجنابي" وأنشطة ذريته في بلاد البحرين وحروبهم في بلاد الشام أيام المعز الفاطمي، وخاصة أنشطة "الحسن الثاني الأعصم" وتحالفاته مع العباسيين وعن ثابت بن سنان الصابئي نقل "ابن مسكويه" و"ابن الأثير"وعن تفاصيل مسار الحكم أيام أبي طاهر الجنابي نجد عبد الجبار المعتزلي (ت415هـ/1024م) في كتابه "تثبيت دلائل النبوة" [5] وهو من المعاصرين لأغلب الحراك السياسي "للسادة" القادة من آل أبي سعيد الجنابي سواء في فضيحة المهدي المزيف.

أما الوثيقة الهامة التي ساعدتنا في تعقب نسب "آل الجنابي" نذكر كتاب "الجوبري"، كما نجد كتابا ذا نفس أشعري لـ"عبد القاهر البغدادي"(ت 429هـ/1037م) في كتابه ***"الفرق بين الفرق"***، حيث عرّج في أكثر من محطة عن سيره أبي سعيد الجنابي وذريته.

ولشيخ المؤرخين عبد الرحمان بن خلدون [6] (808 هـ / 1405م) بصمته الخاصة الخاصة في التطرق إلى نسب السادة "البوسعيديين" وأنشطتهم السياسية والعسكرية.

كما خصص كبير أشاعرة السلاجقة الخواجة نظام الملك الطوسي (ت 485 هـ/ 1092م) فقرات في كتابه سير الملوك "سياست– نامه " عن بدايات دعوة أبي سعيد الجنابي، ومهاجمة الحرم المكي وقصة المهدي المزيف. ولابن الجوزي فصلا هاما في كتابه "المنتظم" عن القرامطة- وإن كان منحازا لأشعريته المذهبية- في إقصائه وتجنيه على معتقدات القرامطة وتشكيكه في أنسابهم. ويعد ابن العديم الحلبي (ت 666 هـ /1268 م) في كتابه ***"بغية الطلب في تاريخ حلب"*** والذي تطرق للحراك العسكري للحسن الثاني "الأعصم" في المجال الشامي، كما أورد ترجمة لمجدد الدولة القرمطية، وأورد نبذة من

---

[1] ***المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار***، المعروف بالخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة مدبولي، القاهرة / مصر ، 1998 م ج II ، ج III

[2] كتاب ***المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافدين عليها***، تحقيق وجمع سهيل زكار، ترجمة "الحسن الأعصم"، في تاريخ أخبار القرامطة، بيروت / لبنان، 1971م.

[3] تحقيق جمال الدين الشيال،الطبعة الثانية ، نشرت في 1387 هـ / 1967 م، جI

[4] ثابت بن سنان وإبراهيم العديم، ***تاريخ أخبار القرامطة***، ترجمة الحسن الأعصم القرمطي، جمع وتحقيق سهيل زكار، مؤسسة ودار الأمانة، بيروت / لبنان، 1391 هـ / 1971م

[5] تحقيق وتقديم عبد الكريم عثمان، الدار العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت / لبنان، 1386 هـ/1666 م ، ج I ، ج II

[6] ***تاريخ إبن خلدون***، دار صادر ، بيروت / لبنان، 1958، جIV

سيرته وأشعاره، أما "شهاب الدين المعروف" بـ" إبن فضل الله العمري" (ت 749 هـ /1348م)، ***"مسالك الأبصار في ممالك الأمصار"***[1]، فقد أورد معلومات فيها كثير من الخلط بين تفرعات القرامطة وعن تأسيس كيان الدولة الخاص بهم في البحرين، واعتبرهم من الدول الناشزة والمارقة عن الخلافة الاسلامية السنّية.

2 الوثائق المادية: المسكوكات الجنابية

كان لعلم النميات (Numismatique) دورا هاما في توثيق أحداث ومراحل هامة جدا لتطورات جغراسياسية وعسكرية لـ"آل الجنابي"، فقد خرجوا من جغرافيتهم الضيقة جدا بعد انكفاء سياسي وحرابي في ظل حكم لبعض السادة من جيل الأبناء الذين تميزا بضعفهم بعيد وفاة أخيهم الأصغر "أبي طاهر الجنابي"، والمرحلة التي وثقتها "المسكوكات" تعد من أهم فترات "قرامطة آل الجنابي" أهمية وحيوية فقد تجاوزت أنشطتها الحرابية مجالهم التقليدي في جنوب العراق وبلاد البحرين التاريخية. إضافة إلى التجدد والبعث الروح والقوة في جسم القيادة الحاكمة من الأسرة "البوسعيدية" فقد تزعمها جيل الحفدة وعلى رأسهم الحسن الثاني "الأعصم" وأبناء عمومته الذين قادوا معارك الشام حتى حدود مصر وفرضوا أتاوات ومكوس مقابل فرملة حروبهم على تلك الجبهات، خاصة بعد إستيلاء الفاطميين على مصر وبلاد الشام سنة (358هـ/968م) وكل هذه الأحداث والتطورات في أقل من عشر سنوات أي من (361-367هـ/971-978 م)، وقد دوّنت هذه الأحداث وأسماء القادة "البوسعيديين" آنذاك وعلى رأسهم "الحسن الثاني" وأبناء عمومته وعلى رأسهم خليفته "جعفر"، في مسكوكات ضربت في مناطق شهدت معارك وتواجد سياسي لأبرز القادة من "آل الجنابي" سواء في تحالفهم مع العباسيين ضدّ المدّ الفاطمي المجتاح لمناطق النفوذ العباسي والمجال الاقتصادي لحكام البحرين "البوسعيديين".

وتكمن أهمية هذه المسكوكات الجنابية في أنها وثّقت لتواريخ هامة جدا من حكم السادة "البوسعيديين" في ستينات القرن الرابع للهجرة في مجال جغراسياسي آخر وقد ضربت هذه المسكوكات في عدد من دور الضرب ببلاد الشام هي دمشق وطبرية والرملة بفلسطين[2].

---

[1] تحقيق يحيى الحبوري، إصدارات المجمع الثقافي ، أبو ظبي / الإمارات العربية المتحدة، 1424 هـ / 2003 م ، ج 28

[2] الزيلعي(أحمد بن عمر)، "المسكوكات ذهبية جنابية ضرب بلاد الشام (361 – 367 هـ /971 – 978م) محفوظة بمؤسسة النقد العربي السعودي بالرياض"، بلاد الشام في العصر العباسي (132 – 451 هـ / 750 – 1059 م) ، المؤتمر الدولي الخامس لتاريخ بلاد الشام، 7- 11 شعبان1410 هـ / 4 – 8 آذار /مارس 1990، عمان، الأردن، 1412 هـ / 1992م، ص 350.

ومن ضمن ما كتب على هذه الدنانير لقب "السادة الرؤساء"[1] أو هناك إفراد خاص بتسمية الحسن الثاني "الأعصم" بالسيد الرئيس[2]، مما ينم عن توليه القيادة العليا لقرامطة البحرين، وإستفراده بالحكم، كما نجد في بعض الدنانير الأخرى المضروبة بالمدن الشامية أسماء "السادة الرؤساء" من أبناء عمومته كل من ("إسحاق"، "كسرى" و"جعفر")[3] إضافة إلى أخيه الأصغر وإسمه "النعمان"[4] الذي اشترك في بعض حملات وحروب "آل الجنابي" في مصر، وقد اشتركوا جميعا أي القادة " الجنابيين الستة" في تسميتهم بـ "السادة الرؤساء وهذا يعني عودة هؤلاء القادة للنشاط على مسرح أحداث الجبهة الشامية المصرية، وبذلك تطورت مجريات القيادة بالأحساء في تلك الفترة.
وفي المجمل فإن استفادتنا من المسكوكات المضروبة ببلاد الشام في مرحلة هامة من تطورات الحكم والقيادة "الجنابية" كان عنصرا مفيدا في معرفتنا بمكونات مجلس القيادة "العقدانية " وتوالي القادة من جيل الأحفاد وهم الجيل الثاني من الأسرة "البوسعيدية" الحاكمة وكذلك أهم الشخصيات التي كان لها تأثير خاص في شؤون الرئاسة والعسكر، وفي أماكن ضرب السكة وتواريخها خاصة تلك الدنانير التي تحمل أسماء قيادات جيل الحفدة.

II "آل الجنابي": الجيل الأول: عصر القوة

أصبح أبو سعيد الممثل الأوحد لمدرسة القرامطة حتى غدت بلاد البحرين تعرف عند الجغرافيين ببلاد القرامطة[5]. وقد سلك نفس مسلك أساتذته الروحانيين في سوّاد الكوفة في بناء دار للهجرة على غرار دار الهجرة التي ابتناها "حمدان قرمط" قرب الكوفة سنة 277هـ/890 م[6] وكل ما اقدم عليه "أبو سعيد" من أعمال كان من أجل التحضير لظهور المهدي "محمد بن إسماعيل" في بلاد البحرين، وقام بتأسيس حكمه الخاص في البحرين في ذات السنة المليئة بالأحداث 286هـ/ 899م، وأرسى قواعد دولته مستقلة التي عمرت حتى 470هـ/ 1077م.

---

[1] الزيلعي، المرجع نفسه ،ص 370، صديقي (محمد الناصر) ، ***القرامطة من القرن الثالث إلى القرن الخامس هجري***، بحث لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، جامعة تونس، كلبة العلوم الاجتماعية والانسانية بتونس، بحث مرقون، 2008 / 2009 ،ج II ، ص 804

[2] الزيلعي، المرجع نفسه، ص375 ، صديقي (محمد الناصر) ، المرجع نفسه، ص805.

[3] الزيلعي، المرجع نفسه، ص 379 – 381 ، صدّقي (محمد الناصر) ، المرجع نفسه،ج II ، ص806

[4] المقريزي، *إتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء*، تحقيق د. محمد حلمي محمد أحمدّ، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة / مصر، 1971 م 1310 هـ ، ج II ،ص 203.، راجع (شجرة نسب الزعماء والقادة...) صدّيقي،المرجع نفسه ،ص775،(أنظر شجرة النسب المذيلة للبحث)

[5]أبو الفداء(السلطان الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل)، *تقويم البلدان*، الناشر مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة/ مصر، 1427هـ/2007م، 112

[6] النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص228-ص 229؛ الدواداري، *كنز الدرر*، جVI، ص56؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، ج I، ص 158؛ دفتري (د. فرهاد)، مختصر تاريخ الاسماعيليين، ترجمة سيف الدين القصير، دار المدى، دمشق/سورية،2001، ص85 .

قتل أبو سعيد سنة 301هـ/913م، ونهض عدد من أولاده إلى قيادة كيان القرامطة بالبحرين خاصة في عهد أصغر أبنائه "أبي طاهر سليمان" (311-332هـ/923-944م) فرسم لهم "أبو سعيد الجنابي" ملامح دولة تكاملت لبناتها على أيدي أبنائه مهيّئا جميع السبل من أجل الظهور والخلاص.

1 الأب المؤسس الحسن بن بهرام "الحسن الأول"

حقق هذا الزعيم القرمطي نجاحا للدعوة القرمطية بين رجال القبائل العربية والمقيمة بالمدن والبادية وكذلك بين أفراد الجماعات الإيرانية المحلية ببلاد البحرين. إذ كان "أبو سعيد الجنابي" هو الممهّد لظهور المهدي وممثله الأوحد في تلك البلاد، ممّا جعله يحتكر أغلب السلطات السياسية والصلاحيات، فكان مرجعهم[1]. واتخذ "أبو سعيد الجنابي" حاكم البحرين الأول من مدينة الإحساء عاصمة لدولته، التي أصبحت في عهده مدينة مزدهرة[2]. والذي يعنينا هو كيفية إنشائه لدولة قوية في ظرف سنوات قليلة. وتعدّ عظمة عمران الإحساء وكثرة سكانها دليلا على عصر الحكام الأقوياء من ذرية أبي سعيد المتداولين على حكم هذا الكيان، إذن كانت بدايات التأسيس الأولى لحكم أبي سعيد الجنّابي الخاص في البحرين في ذات السنة المليئة بالأحداث أي سنة 286هـ/899م وهي سنة الانشقاق العقدي داخل البيت الإسماعيلي الكبير، فأرسى قواعد دولة ذات قرار مستقل لقرامطة البحرين، وقد عاشت هذه الدولة حتى سنة 470هـ/1077م. ونقف على ذكر هذه الثنائية السياسية التي ابتدعها "أبو سعيد الجنابي" في بيت لـ "أبي العلاء المعري":

"عُكس الأنام بحكمة من ربه *** فتحكّم الهجري فيه و" سنبر" [3]

وقد ساعد الوضع المتردّي في البحرين خاصة ومنطقة الخليج عامة على استجابة أعداد من هؤلاء خاصة أولئك القاطنين بالمدن الكبيرة في الانضمام إلى دعوة أبي سعيد[4] وبهؤلاء تكونت المجموعات القرمطية المدافعة بالرأي والحرابة عن آراء مرجعها الروحاني وزعيمها السياسي أبي سعيد ومن أجل تدعيم وجوده بين ظهراني قبائل "عبد القيس" والمجموعات الأخرى، أقام مصاهرة سياسية مع "آل سنبر" المتنفدين في تلك المنطقة[5].

---

[1] غالب(د. مصطفى)، *القرامطة بين المدّ والجزر*، ص194؛ منصور (د. علي) "قرامطة البحرين والأحساء في العصر العباسي"، ص169

[2] المقدسي، *أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم*، تحقيق دي خويه، مكتبة مدبولي، القاهرة 1991، ص 93 ص94.

[3] المعري،(أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان)، *لزوم ما لا يلزم: اللزوميات*، دار صادر بيروت (د.ت)، المجلد الأول، ص 448

De GOEJE. (M.J), Memoires sur les Carmathes de Bahrain et les Fatimides.,leid- E. J.brill,1886, PP 80 – 81

[4] النويري، *نهاية الأرب*، ج XXV، ص233؛ الدواداري، *كنز الدرر*، جVI،ص55؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص160

[5] ابن، حوقل، *صورة الأرض*، ص 258

وإن برزت لنا هنا أو هناك إشارات غير دقيقة أو غير موضوعية من قبل الأعداء أو الخصوم أو حتى المتعاطفين، لمعرفة الملامح الشخصية لهذا الرجل "القائد" فإننا مع كل ذلك نجد عنه معلومات شحيحة بثت بين صفحات المصادر. فمن جملة الروايات المغرضة ونحن ندرس المرجعية السياسية لأبي سعيد الجنابي، إشارة الجوبري بأنه كان مشلول الجانب الأيسر وأنّه لا يكاد يستطيع المشي ولذلك كان يحمل حملا فيوضع على فرسه[1] ولكن يبدو أن تلك الإعاقة لم تمنعه من القيام بنشاط لا يكلّ[2] كما يزعم الجوبري في إشارته تلك وأنه ممّن ادّعى النبوة، وقد أكد الجوبري مزعمه بإيراده لبيتين للشاعر "القفطي الشيباني"، الذي يعود بأصله إلى قبيلة "بكر بن وائل" وينحدر شاعر البلاط القرمطي بأصله إلى "شيبان بن ثعلبة"[3].
أمّا الأبيات التي أوردها القفطي لهذا الشاعر القرمطي من بني شيبان فهي:

" فمن لذا الوحي مكتوب صحائفه * مستنظمـا بكلام الله تنظيـمـا**

ومن به الأرض مشتدّ مراكزها * لولاه أصبح وجه الأرض مهدومًا"**[4]

وتأكدت هذه الإشارة الدالّة على مكانة أبي سعيد بين صفوف أتباعه ورعاياه حيث تحول من زعيم وقائد مؤسس وداعي للمهدي ومبشرا بقرب ظهوره إلى مخلّص ينتظره جمهور واسع من المؤمنين.
علما أن أبا سعيد الجنابي قد بشر بعودته وأن كل من يدعّي او ينتحل شخصيته لابدّ من اختباره بطريقة تمنع أي منتحل لشخصه أن يخاطر بنفسه ليدعّي أنه ابو سعيد[5]. ولترسيخ هذه المزاعم التي أوجدها أبو سعيد لنفسه عمل أبناؤه بعد وفاته بصفة إلزامية ويومية في أن: " يرابط على قبره" فارس على صهوة جواده، ويتناوب الجند حراسة ذلك القبر ليل نهار، وهم يتوقعون انبعاث أبي سعيد من قبره، لذلك وضعوا على القبر فرسا مطهما في غاية الزينة والأبهة ليركبه الأمير إذا قدر له أن يبعث وحسبما أورده الرحالة ناصر خسرو[6] عن معتقدات أهالي الأحساء " البوسعديين" فقد رفعوا من شأن زعيمهم السياسي وقائدهم الروحاني إلى مصاف القادة المنقذين المتحلين بصفات اختلط فيها الجانب اللاهوتي بالناسوتي ونسجها المخيال الشعبي ليصنع من تلك الشخصية قائدا منقذا ومنتظرا.
كما عمل الموالون لآل الجنابي على اختلاق نسب نبوي شريف لأبي سعيد، وألحقوه بذرية علي بن محمد بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين

---

[1] الجوبري (زين الدين عبد الرحيم بن عمر الدمشقي)، كتاب *المختار في كشف الأسرار*، الطبعة المحمودية، 153 هـ ، (مصورة عن طبعة دمشق) ص7

[2]- DE GOEJE. (M.J), op. cit, pp 70-72

[3] ابن حزم الأندلسي، *جمهرة أنساب العرب*، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دارالمعارف، القاهرة 1999 ، ص321

[4] *المختار في كشف الأسرار*، ص7

[5] ناصر خسرو، *سفر نامه*، ص170.

[6] ناصر خسرو، *سفر نامه*، ص169-ص170.

بن علي بن أبي طالب[1] علما أن ناصر خسرو ذكر أن حاكم مدينة الإحساء شريف من الأشراف[2] لأجل ذلك تلقب السلاطين من آل الجنابي "بالسادة"[3]، وكما هو متعارف عليه فإن الشريف الذي يحمل دماء نبوية يطلق عليه "سيّد" وبالتالي يكون أبو سعيد الجنابي قد عمد إلى انتحال نسب نبوي لتسهيل مشروعه السياسي فمن الصعب عليه أن تقبله تلك القبائل المتمرّدة في بلاد البحرين والتي تعوّدت على التمرّد ومعارضة السلطة المركزّية. والذي يعنينا هو كيفية لجوء أبي سعيد الجنابي للزعم بأنه من سلالة تحمل دماء نبوية وتنظّر لمشروع مهدوي وتبشر بقرب الظهور والخلاص وكذلك بحسن تجسيمه على أرض الواقع لتلك الألفوية التي غيرّت من الوجه الاجتماعي لأصناف عديدة ضمن المجموعات القرمطية. وفي تمعّن دقيق لم يشذ أبو سعيد عن أسلافه من قادة وزعماء الحركات المعارضة في اختلاق نسب علوي كما فعل صاحب الزنج "علي بن محمد" أو فرقاء المعتقد الألداء من "آل زكرويه" الذين انتحلوا أسماء علويين وشككّوا في شرعية نسب عبيد الله المهدي وأعلنوا الحرب عليه في سلمية [4] ولكن المتفق عليه في شخصية أبي سعيد الحسن بن بهرام الجنابي أنه فارسي الأصل[5] من بلدة جنّابة[6] مهنته "بائع الدقيق"[7].

عمل ابو سعيد الجنابي على ارساء اسس في مجتمع البحرين تمهيدا لأولاده من بعده أن يجدوا حكما قائما " شورويا" مبنيا على روح الجماعة في سنّ القوانين واستنباط الأحكام، وقد عرف ذلك بمجلس "العقدانية". [8]

ونشير إلى أن حكم أبي سعيد الجنابي لم يدم طويلا فقد اغتيل علي يد خادمه، بسلاح "يدوي" وهو في الحمّام مع بعض "أعضاء العقدانية" والقيادات القرمطية وخواصه من القطيف وهما حمدان وعلي ابني سنبر باعتبار أن آل سنبر من "الشائرة"[9].

---

[1] ثابت بن سنان وابن العديم، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص102-ص103؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، هامشIII، ص159؛ غالب (د. مصطفى)، أعلام الإسماعيلية، ص53؛ سعيد (خير الله)، عمل الدعاة الإسلاميين، ص150.

[2] ناصر خسرو *سفر نامه*، ص168

[3] ناصر خسرو، *سفر نامه*، ص170.

[4] اليماني (محمد بن محمد)، ***"سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج الإمام"***، تحقيق ونشر فلاديمير إيفانوف، مجلة كلية الآداب، الجامعة المصرية، المجلدVI، الجزء II، ديسمبر 1936م، ص 109 – ص 113

[5] الطبري، ***تاريخ الطبري***، دار الكتب العلمية ، بيروت/لبنان، (دت) جV، ص 630؛ ثابت بن سنان وابن العديم، ***تاريخ أخبار القرامطة***، 13.

[6] ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص 239، ص 258

[7] ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص 258؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء، جI، ص 160

[8] ناصر خسرو، ***سفر نامه***، ص169؛ ابن خلدون، ***تاريخ***، ج IV، ص 88

[9] ناصر خسرو، ***سفر- نامه***، ص170.(الوزراء)

إذن رحل زعيم القرامطة حسبما هو ثابت وشبه متفق عليه سنة 301هـ حسب إشارات المصادر المتأخرة[1] بعد حكم دام حوالي ستّ عشرة سنة [2]، بعد أن وضع أساسيات نظام دولته مخليا الساحة لأولاده من بعده. وقد ترك ستة أبناء هم: "أبو القاسم سعيد، وأبو طاهر سليمان وأبو منصور أحمد وأبو إسحاق إبراهيم، وأبو العباس محمد وأبو يعقوب يوسف"[3]. بعد أن نجح في إنشاء "دولة نموذجية" يتوارثها أبناؤه من بعده، وقبل اغتياله عمل أبو سعيد على جمع وجوه قومه وكبار رجال دولته وأوصى بأنّه إن حدث له حادث الموت فإن القائم بالأمر من بعده هو ولده الأكبر أبو القاسم سعيد على أن يسلم الأمر إلى أخيه الأصغر أبي طاهر سليمان عندما يبلغ سن الرشد[4].

2 الأبناء الورثة مراوحة بين قوة الحاكم والانكفاء الداخلي

كما وصف الجوبري عقب أبي سعيد بأنّهم كان لهم مآل حسن ونعمة طائلة ويعرفون في أرض البحرين "بالسادة"[5]، وذكر الرّحالة الفارسي الاسماعيلي الاسماعيلي ناصر خسرو بأن سلاطين الأحساء يسمّون "بالسادة[6]. وقبل الإبحار في شخصية أبي طاهر القائد القوي وجب علينا المرور على تلك المرحلة الانتقالية التي عرفتها الاسرة الجنابية بعد اغتيال الأب المؤسس والتي تميّزت بالمهادنة مع القوى الخارجية كذلك سادت علاقات وثيقة بين سلطتهم والقبائل العربية ببلاد البحرين. وقبل متابعة الغوص في دراسة الشخصيات السياسية والقيادات البوسعيدية في الكيان القرمطي، كان من الضروري الوقوف على جوانب متعددة من تلك المرحلة الانتقالية أو حكم "العقدانية".

أ - المـرحلة الانتقاليـــة/ حكم العقدانيـــة:

لقد جرى الالتزام بوصية أبي سعيد الجنابي[7]، التي أشرنا إليها آنفا حيث تسلم تسلم الحكم بصفة مؤقتة ولده الأكبر أبو القاسم سعيد بن الحسن الجنابي فور مقتل أبيه[8]. وقد انعكس موضوع وراثة أبي سعيد وخلافته في الحكم في مناقشات الروايات التاريخية وكيفية تطرق كل مؤرخ للموضوع بطريقته

---

[1] ابن فضل الله العمري، ***مسالك الأبصار***، جXXIV، ص155؛اليافعي(أبو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليمني المكّي (ت 768هـ/1367م)،من ***حوادث الزمان***، (***المعروف بتاريخ اليافعي***)، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت/لبنان،1970،جII، ص238.

[2] ثابت بن سنان وابن العديم، ***تاريخ أخبار القرامطة***، ص103؛ النويري، نهاية الأرب، جXXV، ص244؛ عند المقريزي، " نحو خمسة عشرة سنة "***الاتعاظ***، ج I، ص 165

[3] النويري، ***نهاية الأرب***، جXXV، ص244؛ الدواداري، كنز الدرر، ج IV ، ص62؛ المقريزي، اتعاظ الحنفاء، جI، ص165.

[4] ثابت بن سنان وابن العديم، المصدر السابق، ص36؛ ابن حوقل، صورة الأرض، ص258-ص259

[5] ***المختار في كشف الأسرار***، ص7.

[6] ناصر خسرو، ***سفر- نامه***، ص170.

[7]ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص258-ص259؛ثابت بن سنان وابن العديم، المصدر السابق، ص36. ص36.

[8]المسعودي، ***التنبيه والإشراف***، دار الهلال، بيروت /لبنان ، (دت) ص338.

ووجهة نظره. فنجد رواية ثابت بن سنان التي يقول فيها "...وكان أبو سعيد قد عهد لابنه الأكبر سعيد فعجز عن القيام بالأمر، فغلبه أبو طاهر سليمان وكان شجاعا شهما"[1] ويتحدث ابن الأثير عن غلبة أبي طاهر على أخيه سعيد " بأن سعيد عجز عن تدبير الأمر فغلبه أخوه الأصغر"[2]. أمّا رواية " أخي محسن" فتشير إلى وجود وصية لأبي سعيد قبل اغتياله فقد جمع رؤساء قومه وبني زرقان (وكان أحدهم زوج ابنته) وبني سنبر (أصهار أبي سعيد ووزراء دولته) وأخوال أولاده وبهم قام وقوي أمره، "فأوصي إليهم إن حدث به موت أن يكون القيم بأمرهم أبنه سعيدا إلى أن يكبر طاهر وكان سعيد اكبر من أبي طاهر سنّا، فإذا كبر أبو طاهر كان المدبّر لهم، فلما قتل جرى الأمر على ما أوصاهم به وكان قد أخبرهم أن الفتوح تكون لأبي طاهر، فجلس سعيد يدبر الأمر بعد مقتل أبيه حتّى سنة 305هـ، ثم سلم الأمر لأخيه أبي طاهر[3] وهذه الرواية تحتاج إلى تدقيق، فبالرغم من وجود مؤسسات الحكم "العقدانية" فإن أعراف انتقال السلطة في مثل هذه المجتمعات والكيانات الحديثة النشأة والتكوين، فيها كثير من الصعوبات وتشوبها صراعات قد تكون في بعض الأحيان دامية. ولكن ابن خلدون يشير إلى أن أبا طاهر الابن الأصغر لأبي سعيد الجنابي قتل أخاه الأكبر وقام بأمرهم وبايعته العقدانية[4]، والظاهر أن بيعة العقدانية لأبي طاهر الجنابي لم تتم له إلا بدعم أخواله من " آل سنبر" وهم أعضاء في مجلس العقدانية والشائرة في حكم دولة القرامطة[5].
القرامطة[5]. علما أن ابن حوقل قد تحدث عن تلك المصاهرة السياسية بين أبي أبي سعيد الأب المؤسس وبين "آل سنبر" وجهاء الأحساء[6]. وبالتالي كان لمساندة أخوال أبي طاهر من "الشائرة" دور أساسي في تغلبه على أخيه الأكبر إذا سلمنا بصحّة رواية ابن الأثير أو رواية ابن خلدون التي يشيران فيها إلى انتهاء الصراع على السلطة بين أبناء سعيد الجنابي بسرعة وبأقل الأضرار وأخفها بالرغم من مقتل سعيد الابن الأكبر من قبل أخيه الأصغر.
وهنا نتساءل إذا سلمنا جدلا بصحّة الطرح الخلدوني لهذه القصة: كيف تركت "العقدانية" أكبر هيئة استشارية في دولة آل الجنابي أن تمر أمور الخلافة ومشاكل الحكم بهذا الشكل وتحل بحد السيف، وهنا يذهب تخميننا إلى الولاءات القبلية والمصاهرات التي نجح فيها الأب الداعي المؤسس لهذا الكيان لتوطيد مشروع دولته وأن يجعل حكم هذه الدولة وراثيا بين أبنائه لذلك لعب أصهاره من "آل سنبر" دورا أساسيا في تدعيم تلك الحركة السياسة

---

[1] ***تاريخ أخبار القرامطة***، ص36.
[2] ابن الأثير ، ***الكامل في التاريخ***، دار الكتب العلمية ، بيروت 1995، ج IV ، ص482.
[3] النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص244؛ الدواداري، *كنز الدرر*، ج IV، ص62؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص165.
[4] *التاريخ* ، جIV، ص88.
[5] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص258؛ ناصر خسرو، سفر-نامه، ص168-ص169.
[6] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص258

الانقلابية التي قام بها أبو طاهر ضدّ أخيه الأكبر سعيد ومن الجائز أن يكون هذا الأخير ابن أبي سعيد من زوجته الأولى التي تزّوجها بأرض السواد من "بني قصار"[1] كما أشار "أخي محسن" إلى ذلك وبالتالي لا يكون موقف مجلس العقدانية أعلى هيئة عند قرامطة البحرين إلا دعما وسندا لعلاقة الخؤولة التي تربط أبا طاهر سليمان بن الحسن الجنابي بـ"آل سنبر".

والذي يعنينا من كل ذلك في فترة حكم أبي القاسم بن الحسن الجنابي هو أن القرامطة أحجموا خلال تلك الفترة عن أي نشاط خارجي بل عملوا على الالتزام بسياسة جديدة في البحرين تضمن الأمن والاستقرار في مراسلتهم للعباسيين[2] وتبعدهم عن أي اصطدام أو تحرش بمناطق النفوذ العباسي المباشر خاصة وأن ذلك الرد المكتوب من قبل "أولاد أبي سيعد". ومن قام مقامهم[3]، شجع ذلك الادارة العباسية على خلق "سلم" معهم، ومنحهم عديد الامتيازات الاقتصادية سنة 303هـ/915م، مثل حق الوصول والتسوق من ميناء سيراف ذلك الميناء الهام على الساحل الشمالي للخليج كما حرصوا على تأمين "طريق الحاج" وإشاعة الأمن[4].

وإذا أردنا ربط تلك الفـترة الانتقالية بنظم وأعراف الإسماعيلية حول حكم ابنيّ الحسن الجنابي، سعيد وسليمان، وجدنا تلك النظم عريقة في باطنيتها، فاعتبر البعض حكم سعيد أبي القاسم في الادبيات الباطنية إمام استيداع لأخيه الأصغر أبي طاهر الذي تنبأ له والده بالسلطان والفتوح[5] وسوف نمر بتفاصيل ذلك لاحقا.

انتهت فترة حكم أبي القاسم سعيد بما انتابها من هدوء لقعقعة السيوف وضعف في قيادة الحكم وهذا ما سوف يؤسس إلى طور جديد له بصماته الخاصّة على الواقع القرمطي بالبحرين اقليميا واسلاميا.

ب – أبو طاهر الجنابي: عصر القوة والتوسع

---

[1] النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص233؛ الدواداري، *كنز الدرر*، ج IV ، ص55؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص159-ص160.

[2] البلوشي (د. إبراهيم عطا الله)، *بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني*، مطبوعات مركز البابطين ، الكويت، (د.ت) ، ص98.

[3] ابن الجوزي، *المنتظم*، ج VII ، ص440

[4] عريب القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، دار المعارف، القاهرة /، 1977، ص58-ص59؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVII، ص449-ص450

DE GOEJE. (M.J). op. cit,PP77; Daftary (F), The Ismailis,cambridge university press ; u.k, 1990, pp160-161

الخليفة (مي محمد)، *من سواد الكوفة إلى البحرين*، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1988، ص271؛ البلوشي (د. إبراهيم عطا الله)، *بلاد البحرين في العصر العباسي الثاني*، ص98.

[5] النويري، *نهاية الأرب*، ج XXV، ص 244

هو سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي، ويكنّى بأبي طاهر، تولى حكم القرامطة في سن مبكرة[1]. وكانت أيام حكمه حافلة بالأحداث المثيرة للجدل والخارقة لتطورات زمانها، تسلم أبو طاهر سليمان الجنابي شؤون الكيان القرمطي بعد فترة انتقالية مميزّة:
- بشخص حاكمها أبي القاسم سعيد وما طرأ في عهده من تحولات أبرزها ضعفه.
- التقارب القرمطي العباسي.
- التعاون الأمني لضمان سلامة طرق التجارة وطريق الحاج.
وتحاملت المصادر على شخص أبي طاهر ووصفته بـ"الأعرابي والزنديق"[2] وغيرها من النعوت وقد تولى زعامة القرامطة في بلاد البحرين بناء على وصيّة من والده وليس للإمام والخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي أي دور أو شأن في أمور الحكم عند قرامطة البحرين، خاصة وأن أبا سعيد يعد امتدادا عقائديا وسياسيا للخط المنشق الذي قادته مدرسة السوّاد بقيادة حمدان قرمط وصهره عبدان الكاتب[3] كما بيناه سابقا.
والظاهر أن "أهل الحل والعقد"[4] أو ما عرف عند القرامطة وتبنته المصادر باسم مجلس "العقدانية" قد شكّل هيئة وصاية برئاسة أبي القاسم سعيد الابن البكر للحسن الجنابي و بناء على تلك الوصية "إن حدث به موت (يقصد أبا سعيد الجنابي)، يكون القيم بأمرهم سعيد ابنه إلى أن يكبر أبو طاهر"[5] فلمّا كان العام 305هـ/ 918م " سلم سعيد أخاه أبا طاهر سليمان الأمر فعظموا أمره" [6] وربما كان ذلك سنة 311/ 923م وذلك لأنه كان أول عمل عسكري دونته المصادر منذ مقتل أبي سعيد قد تم تحت قيادة أبي طاهر سليمان في العام 311هـ[7] فعمل البعض[8] على الاعتقاد بأن مجلس العقدانية قرر نتيجة لتلك

---

[1]ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، مطبعة شركة التمدّن الصناعية، القاهرة 1914، جV، ص33- ص35؛ الهمداني،تكملة تاريخ الطبري،تحقيق البيرت يوسف كنعان،المطبعة الكاثوليكية،بيروت1961 ص43
[2]ابن خلكان، ***وفيات الأعيان***، تحقيق حسن عباس، دار الثقافة، بيروت / لبنان ، 1969، جII، ص148- ص150؛ الذهبي، ***سير أعلام النبلاء***، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ، بيروت / لبنان، 1406. جXV، ص320.
[3] ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص258؛
[4] ابن خلدون، ***تاريخ*** ، جIV ، ص88.
[5]ابن حوقل، ***صورة الأرض***، ص258-ص259؛ النويري، ***نهاية الأرب***، جXXV، ص244؛ الدواداري، ***كنز الدرر***، جVI ، ص62؛المقريزي، ***اتعاظ الحنفاء***، ج I، ص165
[6] النويري، ***نهاية الأرب***، جXXV، ص244؛ الدواداري، ***كنز الدرر***، جVI ، ص62؛ المقريزي، ***اتعاظ الحنفاء***، جI، ص165
[7] وقد أشار ثابت بن سنان بصريح العبارة "وفي سنة 311هـ تقوى أبو طاهر، وفيها قصد البصرة"، المصدر نفسه، ص37 حول خرق الهدنة، سنة 311هـ بين القرامطة والعباسيين راجع المسعودي، ***التنبيه والإشراف***، ص346؛ الأصفهاني(حمزة بن الحسن)، ***تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء***، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت / لبنان، (د.ت)، ص155،
ابن شاكر الكتبي(محمد بن شاكر،تـ764هـ/1362م)، ***فوات الوفيات***، بعناية إحسان عباس،دار صادر، بيروت/لبنان،1973 جI، ص175
[8] DE GOEJÉ, op. Cit. pp73-74; Daftary (F), The Ismailis, p160

لتلك التطورات السياسية والأمنية أن يعهد بتدبير أمور القيادة والحكم إلى أبي طاهر سليمان بدلا من أخيه الأكبر أبي القاسم سعيد الذي يبدو من خلال ما تناقلته المصادر أنه لم يرث شجاعة أبيه ولا حزمه[1]، فتولي أبي القاسم سعيد حكم البحرين من301 إلى 305هـ تنفيذا لوصية والده، وكان تنازله عن الحكم لمجلس العقدانية الذي باشر عمله بتشكيل هيئة وصاية[2] عقب تنازل سعيد عن عن الحكم والظاهر أن فترة الوصاية قد امتدت من سنة 305هـ إلى سنة 310هـ تاريخ استلام أبي طاهر سليمان الحكم المباشر للقرامطة وهو نفسه التاريخ الفعلي لتولي أبي طاهر مقاليد الحكم[3]. وبداية مشواره السياسي ففي عهده وضع القرامطة حدّا لعلاقاتهم السلمية مع حكّام بغداد العبّاسين، وإذا عدنا إلى حياة الحاكم الشاب الذي بدأ نشاطه السياسي في سن مبكرة حوالي السبعة عشر سنة سنة 312 هـ [4].

وقد قسم حكم أبي طاهر سليمان إلى مرحلتين:

- المرحلة الأولى هي مرحلة هيئة الوصاية من مجلس العقدانية وامتدت من سنة 305هـ إلى سنة 310هـ وكان الحكم باسم أبي طاهر وقرارات الحكم فيه جماعية "وكان أبو طاهر له أخوان أبو القاسم سعيد بن الحسن وأبو العباس الفضل بن الحسن ولهم أخ آخر لا يدخل معهم في أمورهم يقال له أبو يعقوب إسحاق... وأمر الثلاثة واحد وكلمتهم واحدة لا يختلفون فكانوا إذا أرادوا عقد أمر أوْ ورد عليهم أمر ركبوا وأصحروا واتفقوا على ما يعملون ولا يطلعون أحدا على أمرهم فإذا انصرفوا أمضوا ما اتفقوا عليه"[5] كما تألفت هذه العقدانية من "الشائرة" أو الوزراء من "آل سنبر"[6] وهم كما مرّ معنا أخوال أبي طاهر سليمان.

-أمّا المرحلة الثانية فهي تربّع أبي طاهر سليمان على سدّة الحكم القرمطي والتي امتدت من سنة 310هـ إلى تاريخ وفاته سنة 332هـ بالأحساء حيث أصبح الحاكم المطلق للكيان القرمطي.

إذن تولى أبو طاهر سليمان قيادة القرامطة في البحرين وأصبحت له مرجعية سياسية منذ العام310 هـ/923م، وفي عهده استقرت تقاليد الحكم ومؤسساته، فإذا كان الأب المؤسس أبو سعيد الحسن الجنابي قد وضع نظاما مؤسساتيا

---

[1] راجع ذلك في: ثابت بن سنان، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص36؛ ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جV، ص33؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، ج VII، ص440؛ابن الأثير، *الكامل*، جIV، ص482

[2] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جIV ، ص56-ص57؛ ابن خلدون، *تاريخ*، جIV، ص88.

[3] المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ص338؛ ; DE GOEJE, op. cit, P73; Madelung (Wilfred):“Fatimiden und Brahain Qarmaten”,Der Islam,34 (1959) , P52

[4] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جIV، ص56- ص 57

[5] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص33؛ ناصر خسرو، *سفر – نامه*، ص 169

[6] مؤلف مجهول، *العيون والحدائق في أخبار الحقائق*، تحقيق عمر السعيدي، المعهد الفرنسي للدراسات العربية دمشق 1972 جIV القسمI ص223 DE GOEJE, op. cit p75

لدولته فإنّ الابن الأصغر له قد عمل على تدعيمه وترسيخه بدولتهم الفتية المحاربة[1].

بدأ هذا الأخير نشاطه العسكري في سنة 311هـ، ويعتبر عهده من أعنف العصور التي مرّت بها دولة القرامطة في البحرين بل ومن أشدّ ما عرفته المنطقة كلها آنذاك، إلا إذا استثنينا حروب الزنج في بطائح العراق التي هددت الأمن والاستقرار في مناطق العراق الجنوبي، ومنذ سنة 311 هـ/ 923م نشطت المجموعات القتالية للقرامطة في المدن والأقاليم وفي الطرق التجارية و"طريق الحاج" وقد أثارت هذه الأعمال الرعب والهلع واستبيحت فيها المدن، وقد تعامل القرامطة مع خصومهم في أحيان عديدة بقساوة وشدّة [2]، فأغار على الكوفة سنة 312هـ / 924م قاطعا "طريق الحاج" وحمل ما استطاع رجاله أن يحملوه من أموال الناس وأمتعة الحجيج.

وقد ذكر ابن حوقل بأن ما كان يرد إليهم من طريق الحاج وعمّان والعراق والشام من أموال قد جعلوا لتقسيمها قواعد ونظاما خاصا بهم وجعلوا ذلك في موعد معلوم من السنة وأول ما يتم إخراجه هو خمس "صاحب الزمان" محمد بن إسماعيل " في خزانة خاصة أطلق عليها "خزانة المهدي"[3] وقد خصصوا ثلاثة أخماس الواردات للأسرة الجنّابية على قواعد وضعها السلاطين من آل "أبي سعيد"، فيما بينهم حيث يتقاسمون حصتهم على مقتضاها، وأما الخمس الباقي فهو حصة أعضاء مجلس العقدانية من "السنابرة"، وكان المتولي لاستلامه في عهد أبي طاهر صهره: أبو محمد سنبر بن الحسن بن سنبر الذي كان يتولى توزيعه على أساس الحصص على أفراد الأسرة من إخوانه وأبنائه[4] وقد ساعده هذا المال المتدفق على خزائن "ال الحنابي" في الابتداء بتشييد دار ملكّه الجديدة في سنة 314هـ/926م، وذلك في نطاق عملهم لإتمام استعداداتهم "الروحانية" والمادية لقرب الظهور المهدوي، فكان تأسيس عاصمة جديدة سماها "المؤمنية" لتكون دار هجرة وقد انتقل إليها أبو طاهر سليمان الجنابي بعد حملته على العراق.

---

[1] ابن مسكويه، *تجارب الأمم*، جIV، ص56-ص57؛ ناصر خسرو، *سفر نامه*، ص189؛ المسلم (محمد سعيد)، *ساحل الذهب الأسود*، دار مكتبة الحياة، بيروت/لبنان، 1382هـ/1962م، ص41

[2] الأصفهاني، *تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء*، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت /لبنان، (د.ت) ، ص 155؛ ثابت بن سنان، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص37 ؛عريب بن سعد القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*؛ القاضي عبد الجبار، *تثبيت دلائل النبوة* جII، ص 381، ص 57؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص 311؛ابن فضل الله العمري، *مسالك الأبصار*، ج XXIV، ص 155-156،بينما نجد في رواية الشريف أخي محسن التي اعتمدها كلا من النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص 276 والدواداري، *كنز الدرر*، جVI ، ص90؛ المقريزي،*اتعاظ الحنفاء*، جI، ص 180، أنّ تاريخ معاودة القرامطة لأنشطتهم الحرابية تمّ في عهد أبي طاهر وبالتحديد في سنة 310هـ/923م.

[3] المقدسي، *أحسن التقاسيم*، ص 94

[4] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص33- ص35

نجح إذن أبو طاهر كقائد وزعيم سياسي من طراز والده الحسن الجنابي في فرض موقع امتيازي للقرامطة في الخريطة الجغراسياسية للعراق الجنوبي وشرق شبه الجزيرة العربية وأصبح له من النفوذ بعد هذه الواقعة ما يؤهله لأن يكون ذلك الزعيم الكبير، لذلك لا نستغرب أن تجمع المصادر الناقلة عن قرامطة البحرين أن تجعل من ابي طاهر زعيما فاتحا ورجلا قويا .
وأضفِيت على شخصيته لمسات إنقاذية باعتباره خليفة المهدي والممهد لظهوره[1] وهو الذي يأخذ الأرض للمهدي ليؤسس مملكته الموعودة بارض البحرين[2]. ومن أهم الأحداث التي عرفها عهده نذكر:

*** غزوة الحرم المكي وقصة الحجر الأســـــود:**

لقد بلغت نشاطات أبي طاهر ذروتها في سنة 316هـ/317هـ بهجومه على مكة التي وصلها في شهر ذي الحجة من سنة 317هـ/ جانفي 930م أثناء موسم الحج وأمضى القرامطة أياما عدة وهم يقتلون الحجيج وسكان مكة وارتكبوا عددا لا يحصى من أعمال النهب[3] والانتهاكات داخل المسجد الحرام وفي بقية المشاعر المقدسة وأقدموا على قلع الحجر الأسود من الكعبة في سابقة خطيرة وحملوه معهم إلى "المدينة الملكية" الجديدة في أطراف الأحساء تمهيدا لظهور "المهدي" حسب معتقداتهم. وقد ترتب على عملية حمل الحجر الأسود إلى عاصمتهم السياسية "المؤمنية" الكثير من القراءات والـتأويلات، فنستحضر تلك النبوءات الفارسية القديمة القائلة بانتهاء دور الإسلام وبداية دور جديد تكون الغلبة فيه للمجوس حيث يرثون الأرض ويملكونها [4]، كذلك نذكر تلك القراءات السيا سية التي تشير إلى أن الهدف من ذلك يتمثل في إظهار الخليفة المقتدر بمظهر العاجز عن حماية الأماكن المقدسة وهي قدس أقداس المسلمين وانه المسؤول الأول عن حماية الحجيج ناهيك عن المقدسات التي تشد إليها الرحال. وأجمعت كل فرق المسلمين على تشنيع ذلك وتكفير مرتكبيه. ولم تجرؤ حتى الفرق التي يمكن أن تستثمر سياسيا نتائج "غزوة الحرم" على الدفاع عنه. فقد أعلن الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي تبرؤه من أبي طاهر ومن أخذه للحجر الأسود وقتله للحجيج،

---

[1] القاضي عبد الجبار الهمذاني ، *تثبيت دلائل النبوّة*، جII، ص382

[2] القاضي عبد الجبار الهمذاني ، المصدر نفسه، جII، ص382

[3] حيث تم قلع باب البيت، وأخذت جميع ماكان فيه من آثار الأنبياء والخلفاء التي زينوا بها الكعبة وذهبوا بدرة اليتيم، وكانت فيما ذكر أهل مكة أربعة عشر مثقالا،... وطبق ومكبة من ذهب وسبعة عشر قنديلا كانت من فضة كانت منصوبة في صدر البيت؛ الأصفهاني، *تاريخ سني ملوك الأرض*، ص159؛ عريب القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، ص114؛ ثابت ابن سنان، المصدر السابق، ص53-ص55؛ القاضي عبد الجبار الهمذاني ، *تثبيت دلائل النبوّة*، جII، ص384-ص385؛ نظام الملك الطوسي، سياست -نامه، ص279-ص281؛ ابن خلدون، المصدر السابق، جIV ص89

[4] البغدادي، *الفرق بين الفرق*، ص286-ص288؛ البيروني، *الآثار الباقية عن القرون الخالية*، نسخة مصورة بالأوف سات عن نسخة ليبزيك، 1923 مكتبة المثنى، بغداد / العراق، (د.ت) ص213-ص214

فبعث إليه منكرا لاعنا[1] ولم يستجب أبو طاهر لهذا الأمر مما يدحض كل الآراء القائلة بأن الهجوم على مكة في موسم 317 هـ كان بأمر الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي[2].

*** إعـلان الظهــور القرمطي:**

خفت أنشطة أبي طاهر الحرابية خاصة بعد " غزوة مكة" ومردّ ذاك هو إعلان الظهور القرمطي الذي مهدت له كل هذه الأعمال والنبوءات التي اعتمدتها أجهزة الدعاية القرمطية موظفة كل الوسائل والإمكانيات المتاحة لذلك، بل عملوا على توظيف الإرث الفارسي القديم والتراث الديني الزرادشتي [3] بشكل خاص وقد نجحوا في هذا الاستخدام أيما نجاح. وهذا ما عجل بالظهور القرمطي في رمضان 319هـ/سبتمبر931م، وقد اعترف أبو طاهر بمهدويّة الشاب الفارسي الذي وفد على ديار القرامطة بالبحرين مع "البقلية" الذين انضموا إلى مقاتلي القرامطة منذ316هـ /928م[4] ، فسلم أبو طاهر الجنابي أمور القيادة للمهدي، " ذكرى" أو "ذكيرة" أو"ذي النون"[5] وقد ورد اسمه في المصادر بـ: الطمامي والصفوي، والخراساني والمجوسي[6].

تنازل أبو طاهر عن القيادة لصاحب العصر والزمان حيث أعطاه مقاليد الحكم. فأخذت الأحداث في تلك الآونة مجرى مختلفا عمّا كان القرامطة قد توقعوه في ظهور المهدي، ومن الواضح أن يتم إعلان الظهور في ذلك التاريخ ليتزامن مع مرور 1500 سنة على زرادشت، الموافق لانتهاء السنة 1242 من عهد الإسكندر المقدوني، وهو الذي وردت فيه نبوءات نسبت إلى زرادشت نبيّ المجوس وجاماست توقعت استعادة الزرادشتيين أو المجوس لسلطانهم وزعم "الدعي الأصفهاني" أن دماء ملوكية تعود إلى ملوك الفرس القدامى تجري فيه[7]، وقام بقتل أعلام وكبراء القرامطة بمن فيهم بعض

---

[1] ثابت بن سنان، المصدر نفسه، ص54-ص55؛ ابن الأثير، *الكامل*، جVII،ص53ص54؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV،ص304؛ لويس(د. برنارد)، *أصول الإسماعيلية*، ترجمة خليل أحمد جلو وجاسم أحمد الررجب، تقديم د. عبد العزيز الدوري، دار التاب العربي، القاهرة / مصر، 1947، ص176 ؛ on the considerations"Hamdani, (Abbas)
Some Estratto dagli Atti del "FÃtimid Caliphate As A Méditerranean power III Congresso di studi Arabie islamic, C Rav.ello 1966, NAPOLI, 1967, vol II P391Canard (M) « AL- Djannâbi » , in EI2, Leiden, 1983,

[2] Defrémery. (C), Mémoire d'histoire Orientale. Paris 1854, vol I, PP 17 - 22

[3] عريب القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، ص84؛ البغدادي، الفرق بين الفرق، ص286-288؛ البيروني، *الآثار الباقية*، ص213-214

[4] المسعودي، *التنبيه والإشراف*، ص338-ص339

[5] ثابت بن سنان، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص55-ص56

[6] المسعودي، المصدر السابق، ص339؛ ثابت بن سنان، المصدر السابق، ص55-ص56؛ القاضي عبد الجبار، *تثبيت دلائل النبوّة*، جII، ص386؛البغدادي، *الفرق بين الفرق*، ص286 ؛ البيروني، المصدر السابق، ص213؛ نظام الملك الطوسي، *سياست –نامه*، ص282.

[7] المسعودي، المصدر السابق، ص339

الزعامات القبلية وحتى أقارب أبي طاهر نفسه[1]، وكانت نتيجة هذه "الفلتة المهدوية" أن أصبح القائد أبو طاهر مضطرا بعد ابتعاده عن حكم القرامطة لمدة ثمانين يوما، صار خلالها يخشى على حياته الشخصية للاعتراف بأن الشاب الأصفهاني كان دجّالا، ودبّر أمر قتله[2].

لقد أفسدت حادثة "المهدي الدعّي" بكل طيات غموضها سمعة قرامطة البحرين بشكل خطير وساهمت في التقليل من حضورهم الروحاني لدى مجموعات القرامطة الموالين لخط عبدان وحمدان، خاصة أولئك المنتشرين في سواد العراق وغادر العديد من القرامطة الموالين وخاصة أولئك "البقلية" المعروفين بـ"العجميين" أو"الأعجميين" الذين كانوا يشكلون فرقة مقاتلة ضمن عسكر أبي طاهر، وكذلك القيادات القبليّة العربية الذين أجرّوا بعد ذلك حرابتهم للحكام والقيادات المعادية للقرامطة بمن فيهم العباسيون والبويهيون من الشيعة "الزيود"[3] وقد اعتبر الوزير السنبري، " الحسن بن سنبر" أن ما حدث يعتبر "زلّة" للمؤمنين القرامطة[4] ومن جواب الوزير ابن سنبر التبريري لجماعات القرامطة نستشف وجود سخط عام على حادثة الظهور الكاذبة خاصة بعد اكتشاف زيفه وتأكدهم من مقتله، وقد أعلنوا صراحة بأنها فضيحة عظيمة مست جوهر العقيدة القرمطية وسقطة لا تغتفر[5] في مشروعهم المهدوي، وكانت نتائجها وابلا على القيادة والدولة القرمطية[6].

إذن عاد قرامطة البحرين في عهد ابي طاهر للإغارة داخل المجال العراقي وفي المناطق الجنوبية من فارس[7] وفي الفترة الممتدة بين سنوات 322 و323هـ/ 934م أجرى محمد بن ياقوت حاجب الخليفة العباسي الراضي بمساعدة علويي الكوفة مفاوضات مع أبي طاهر على أن يدين بالولاء للخليفة

---

[1] المسعودي، ***التنبيه والإشراف***، ص339؛ القاضي عبد الجبار، المصدر نفسه، جII، ص387؛ البغدادي، ***الفرق بين الفرق***، ص286-ص288 ؛نظام الملك الطوسي، المصدر نفسه،ص282

[2] المسعودي، المصدر نفسه، ص339؛ ثابت بن سنان، المصدر السابق، ص56-ص57؛ القاضي عبد الجبار، المصدر نفسه، جII، ص387-ص388؛ نظام الملك الطوسي،المصدر نفسه، ص282 ؛ Madelung (W),« Fatimiden und Bahrain Qarmaten », op. cit,P83- 84Stern. (S.M), Studies in Early Ismailism, The Magnes Press, The Hebrew University,Jerusalem,E.j.BrillLeiden,1983,P296;Daftary(F).Op. Cit,p162-163

[3] عريب القرطبي، *صلة تاريخ الطبري*، ص163-ص168 ؛ القاضي عبد الجبار الهمذاني ، المصدر نفسه، جII، ص388- ص389

DE GOÉJÉ, op. Cit. PP136-137 ; Madelung (W), ibid., P84 ; Daftary (F). Op. Cit, pp163-164؛

[4] القاضي عبد الجبار ، المصدر نفسه، جII ص388

[5] القاضي عبد الجبار ، المصدر نفسه، جII، ص388

[6] القاضي عبد الجبار ، المصدر نفسه، جII، ص388

[7] ياقوت الحموي، *معجم البلدان* ، دار صادر بيروت / لبنان ، (د.ت) ، جIII،ص221؛ ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص131؛

الراضي وألا يتعرض لطريق الحاج[1] وجرى أخيرا عقد اتفاقية بين القرامطة والعباسيين عبر الوساطة الشخصية من أبي علي عمر بن يحي العلوي المقرّب من القرامطة وذلك في سنة 327هـ/938م، حيث قبل أبو طاهر الجنابي في تلك الآونة حماية طريق الحاج مقابل إتاوة سنوية من خزينة الخلافة العباسية ومبلغ محدد يدفع له من الحجاج[2]، وهكذا انتهج"ال الجنابي" في العشرية الثالثة من القرن الرابع الهجري سياسة سلمية تجاه الخلافة العباسية حتى وفاة أبي طاهر في سنة 332هـ/944م [3].

3 – الاخوة الحكام (من 332 الى359 هجري).

لم تستمر عائلة آل الجنّابي "العائلة المالكة" ببلاد البحرين في وحدتها وتماسكها للحفاظ على مكتسباتهم السياسية، خاصة وأن الرجل القوي سليمان الجنّابي والذي بلغت الدولة القرمطية في عهده أوج قوتها وذروة مهابتها ترك عشرة من الأولاد صغارا لا يصلحون للحكم وأكبرهم كان سابور [4] لذلك كانت عملية انتقال الحكم وخلافة إرث أبي طاهر سهلة و سوف نعرج على ما افترضه المؤرخ الهولندي« *DE GOEJE* » من متطورات سياسية عقب وفاة أبي طاهر وما أحدثه من فراغ سياسي فأستنتج "جملة من الفرضيات، القراءات نظرا لشحة المادة الإخبارية ، وبعد وفاة أبي طاهر قام سعيد بمعاونه أخيه الفضل بأعباء الحكم بانتظار صدور قرار الخليفة الفاطمي[5] في أن يؤول الحكم إلى"سابور" ابن أبي طاهر، كما تمناه معظم أعضاء المجلس العقداني، بل آل الامر الى عمه "أحمد" والد "الحسن الأعصم" [6] وهذه القراءة الافتراضية لمسار الحكم عند القرامطة عقب وفاة أبي طاهر قد تكون غير دقيقة في تلك المرحلة على وجه التحديد نظرا لأن سعيد الابن الأكبر للحسن الجنّابي كان في أول تجربته الحكوميّة قد نهج مسلكا تقاربيا وسلميا مع خلفاء بغداد، وإذا سلمنا جدلا برجاحة فرضية « *DE GOEJE* » فقد يكون استنتاجه صحيحا ولكن بعد فترة من حكم أبي

---

[1] ثابت بن سنان، المصدر نفسه، ص55؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص154؛ ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص131 وبعدها؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص299-300؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص183

[2] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص178؛ السيوطي، *تاريخ الخلفاء*، تحقيق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي والشيخ محمد العثماني دار القلم، بيروت / لبنان ، 1986 ،ص447؛ مؤلف مجهول، *كتاب العيون والحدائق*، جIV، قسمI، ص333؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، جIII، ص246.

[3] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص223؛ ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص184؛ ابن العديم الحلبي، الحلبي، ترجمة *الحسن الأعصم القرمطي ضمن "تاريخ أخبار القرامطة"*، ص104؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص303

[4] ابن خلدون،*التاريخ*،جIV،ص89-ص90؛ السمرة(د.محمود)،"قراءة في حركة القرامطة وقرامطة البحرين"،ص46؛

[5] ابن خلدون، *التاريخ*، جIV، ص89-ص90 *DE GOEJE* , op. cit, PP 143-145

[6] *DE GOEJE* , op. cit, PP 14 145

القاسم سعيد أو بعيد وفاته وبروز تباينات بين أفراد عائلة "السادة البوسعيديين" وأقصد بذلك بين الأبناء والأحفاد في العائلة البوسعيدية وهذا ما سوف يتبين معنا لاحقا و إذا كان هنالك تدخل فاطمي في شؤون القرامطة أو "الإسماعيلية المنشقة" فسيكون ذلك عندما يقترب النفوذ الفاطمي مجاليا من مناطق المشرق الإسلامي وبالتالي يبدو أن رواية ابن خلدون فيها شيء من الصحة فيكون حكم أبي المنصور أحمد وولاية العهد لسابور بن سليمان الجنّابي قد تمّا بعيد حكم أبي القاسم سعيد...

فماهي أهم التطورات السياسية التي عرفها حكم "آل الجنابي"؟

أ- القيادة الطارئة

وهنا يفرض علينا التمشي السليم العودة إلى النصوص التي تطرقت لخلافة أبي طاهر وكلها تصب في نفس الخانة فرواية الهمداني[1] وكذلك ابن الأثير[2] تساعدنا في معرفة القيادة القرمطية الجديدة ولكن الرواية المتممة والمجيبة عن عديد الأسئلة والمبهمات حول شخص الحاكم "الخليفة" لأبي طاهر الجنّابي نجد فيها"...وكان الذي بقي من أخوة أبي طاهر ثلاثة: أبو القاسم سعيد وهو الرئيس الذي يدير الأمور، وأبو العباس وكان ضعيف البدن كثير الأمراض مقبلا على قراءة الكتب، وأبو يعقوب يوسف كان مقبلا على اللعب، إلا أن الثلاثة كانت كلمتهم واحدة والرياسة لجميعهم، وكانوا يجمعون على رأي واحد فيمضونه وكان وزراؤهم سبعة كلهم من بني سنبر"[3] وهنا يتبين لنا ان القرامطة بعد وفاة أبي طاهر قد عيّنوا مجلس حكم بقيادة "الابن البكر للحسن الجنّابي أبي القاسم سعيد" والضاهر انه كا على قيد الحياة أنذاك.

إذن كان من المقدر أن يعود سعيد إلى تسلم منصب القيادة، من جديد و نظرا لضعف هذه القيادة الجديدة فقدت دولة آل الجنّابي هيبتها وحضورها المجالي بشكل لم يسبق له مثيل، خاصة وأن تلك القيادة الجديدة لا تتمتع بحيوية الشاب الطموح أبي طاهر ولا تملك تلك الكريزمة التي إكتسبها، ومع كل ذلك حافظت هذه القيادة الجديدة على تعهداتها مع العباسين مقابل تلك الإمتيازات المالية والإقتصادية وأعتبر القرامطة أنفسهم متعاهدي الطريق الصحراوي والمسؤولين عن أمنه وخفارته فكانت لا تمر قافلة أو مارة إلا بإذنهم من ذلك احتجاجهم عند معزّ الدولة البويهي عند عبوره في سنة 336هـ/948م الطريق الصحراوي صحبة الخليفة المطيع[4] ويتبين لنا أن العباسيين والأمراء والوزراء الذين يحكمون بأمرهم قد اعترفوا بالسلطات الممنوحة للقرامطة على ذلك المجال.

---

[1] *تكملة تاريخ الطبري*،ص139-ص140

[2] *الكامل*، جVII، ص184

[3] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص223 –ص224

[4] إبن مسكويه*تجارب الأمم*، جIV، ص112؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص249.

وفي عصر يوسف بن الحسن الجنابي تواصلت شكليا أنشطة القرامطة الحرابية فقد قامت كتيبة قرمطيّة بقيادته (أبي يعقوب يوسف ابن الحسن الجنّابي) وهو الابن الثالث المعروف باستهتاره لدعم ومساندة يوسف بن وجيه صاحب عمان في محاولته الإستيلاء على البصرة، في سنة 340هـ/951م [1] أو في سنة 341هـ / 952م [2].

ب- قيادة أبي منصور أحمد:

حين توفي أبو طاهر كان خليفته أخوه الأكبر سعيد أبو قاسم متعاونا مع أخويه أبي عباس أحمد وأبي يعقوب يوسف. وذكر الجوبري كما مرّ معنا أنّ عدد أبناء أبي سعيد الذين خلفهم سبعة بنين وهم: سعيد والفضل وإبراهيم ويوسف وأحمد والقاسم وسليمان.[3]

الحسن الجنّابي (توفي حسب الجوبري سنة 300هـ)

سعيد الفضل إبراهيم يوسف أحمد القاسم سليمان

أما النويري الذي اعتمد في أغلب رواياته على ابن رزام فذكر أن أبا سعيد قد ترك ستّة من البنين هم أبو القاسم سعيد وأبو طاهر سليمان وأبو العباس إبراهيم، والعباس محمد وأبو منصور أحمد وأبو يعقوب يوسف[4].

أبو سعيد الجنّابي (توفي سنة 301هـ)

أبو القاسم سعيد - أبو طاهر سليمان - أبو العباس ابراهيم - العباس محمد - أبو منصور أحمد - أبو يعقوب يوسف

أمّا الدواداري فيذكر ذرية أبي سعيد كالآتي، " أبا القاسم سعيد وأبا طاهر سليمان ، وأبا منصور أحمد وأبا اسحاق ابراهيم وأبا العباس محمد وأبا يعقوب يوسف[1].

---

[1] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص 265؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، مII،ج III، ص 304 ؛ الطائي(لعلامة الشيخ محمد ابن الشيخ خليفة بن حمدان موسى النبهاني)، *التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية*، دار إحياء العلوم /بيروت والمكتبة الوطنية / البحرين، 1419 هـ / 1999م، ص" 178.

[2] ابن مكسوية، *تجارب الأمم*، جIV، ص 113؛ ابن الأثير، *الكامل*،جV، ص240؛ أبو الفداء، المختصر، مII، ص99؛ ابن خلدون، *تاريخ*، جVI، ص 443؛ الطائي، *التحفة النبهانية في تاريخ الجزيرة العربية*، ص178

[3] *كشف الأسرار*، ص7

[4] *نهاية الأرب*، جXXV، ص244

أبو سعيد الجنّابي (توفي سنة 301هـ)

أبو القاسم أبو طاهر أبو منصور أبو إسحاق أبو العباس أبو يعقوب
سعيد سليمان أحمد ابراهيم محمّد يوسف

أما المقريزي الذي يعد قد جمع كل الروايات فأحسن استيعابها فقد عدد أبناء أبي سعيد كالأتي: "أبا القاسم سعيد وأبا طاهر سليمان وأبا منصور أحمد وأبا اسحاق إبراهيم وأبا العباس محمد وأبا يعقوب يوسف[2]. وسيكون اعتمادنا على العقب الذي تحدث عنه كل من الدواداري والمقريزي وبالتالي سوف تكون إستعمالاتنا للأسماء والألقاب المتعارف عليها عندهم فابن العديم ذكر أن من بين خلفاء أبي طاهر أخاه "أبو العباس أحمد "[3] كما أن ابن الجوزي ذكر أخا لأبي طاهر حكم مع أبي القاسم سعيد يدعى "أبو العباس" [4] وبالتالي تكون تسمية أحمد أبي العباس بلقب سياسي "ملكي" "أبو منصور أحمد"[5] أما تولي أحمد أبي العباس حكم القرامطة بعد أخيه سعيد أبي القاسم فيظهر لنا وجود خلافات بين أبناء أبي سعيد الجنابي بعد وفاة أخيهم الذي حكم دولتهم بقبضة حديدية، وكما مرّ معنا فإن المرحلة الأولى التي حكم فيها سعيد أبو القاسم ولم تكن له فيها قط قوة أبيه و حزمه فسيطر أخوه الأصغر أبو طاهر على مقاليد القيادة والحكم بسبب عجز سعيد عن القيادة [6] والظاهر أن هذا العجز والضعف في الحكم والقيادة متأصل في شخصيته، من ذلك الحملة التي قادها أبو يعقوب يوسف الأخ الثالث لأبي طاهر لمهاجمة البويهيين بالبصرة سنة 340هـ أو 341هـ كما ذكرته المصادر، إنبثق عن ذلك إتجاهان واحد معتدل وسيادي في قراره السياسي يعمل على تدعيم أواصر علاقاته بمحيطه على رأسه أبو القاسم سعيد حاكم القرامطة الضعيف، والأخر يخضع لنفوذ خارجي وهذا ما زاد في ضعف الدولة القرمطية وإنكفائها وقد تولد نتيجة هذا الإنشقاق خطان:

الأول يتكون من أبناء أبي طاهر سليمان وعلى رأسهم إبنه الأكبر سابور "شابور" الذي كان يطمح إلى مركز سلطوي وإلى قيادة مقاتلي القرامطة و ضمن هذا الخط السياسي نجد أحمد "أبي العباس" بن أبي سعيد الجنّابي ومعهم مجموعة من القيادات القرمطية الكبرى.

أما الطرف المقابل لأبناء أبي طاهر فيمثّله الإبن الأكبر للحسن الجنّابي سعيد والظاهر أنّ كلتا القوتين الأكبر في العالم الإسلامي أنذاك عملت على الإستفادة من هذه التناقضات. فجيروا كل هذه الإصطفافات داخل البيت

---

[1] *كنز الدرر*، جVI، ص61 – ص 62

2 *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص165

[3] *تاريخ أخبار القرامطة "ترجمة الحسن الأعصم"*، ص 104

[4] *المنتظم*، جVIII، ص 223

[5] ابن خلدون، *تاريخ*، جIV، ص90

[6] ثابت بن سنان، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص36 النويري، *نهاية الأرب* ج XXV، ص 276

الجنّابي ومجلس العقدانية لمصالحهما في محاولة للقضاء على كيانهم ودولتهم المارقة.
وعندما بدأ إهتمام الفاطميين بشكل جدّي يتجه شرقا فأصبحوا يبحثون عن موطئ قدم لهم فدعموا أحمد "الملقب بالمنصور" على رأس الحركة القرمطية على أن يكون ولي العهد سابور بن أبي طاهر سليمان فآستقر أحمد في الولاية وكنوه أبا منصور[1]، وكان أحمد أحد أعضاء المجلس العقداني من 332 إلى 359هـ/944-970م وأصبح على رأس هذا المجلس إبتداء من سنة 343 إلى 359هـ / 955- 970م بالرغم من إختلاف اعضاء هذا المجلس على رئاسته بسبب منافسة "سابور" / "شابور" له وهذا ما نستشفّه من قراءتنا لرواية ابن خلدون، وهذا التدخل الفاطمي المذكور في الشأن القرمطي بدأ كما أسلفنا القول عندما إزداد الإهتمام الفاطمي بالمشرق وبدأت حملاتهم العسكرية تجهد من أجل السيطرة على مصر. والظاهر أن أحمد القيادي الثالث في حكم القرامطة بعد والده أبي سعيد الجنّابي لم تدم علاقاته بالفاطميين فربما كانت تلك الإستفادة من أجل الضغط على أنصار "سابور" ابن أخيه سليمان الجنّابي فكانت الخطوة التوافقية بين الأعمام وعلى رأسهم أحمد والجيل الثاني من "آل الجنّابي" بقيادة كبير ذرية أبي طاهر وسرعان ما انقلب الجيل الذي يمثل الحرس القديم وفرض سلطة أحمد انقلب عن الفاطميين[2] وعقد تحالفات مع العباسيين والبويهيين والحمدانيين حتى إنه في سنة 353هـ /964م خطب لأحمد بن الحسن الجنابي مع الخليفة العباسي [3] وأصبح أبو المنصور أحمد سيد القرامطة الأوحد، كما كان للقرامطة في فترة قيادة أبي المنصور أحمد حروبهم الخاصة في الشام [4] ففي سنة 354هـ/ 965م أنفذ القرامطة سرية سرية إلى عمان ذات الأغلبية الإباضية بعد أن استنجد سكانها بالقرامطة وسلموا إليهم حكم البلد[5] ويبدو أن دولة "آل الجنابي" القرمطية مرّت في أواخر الخمسينيات من القرن الرابع بمشاكل عاصفة مما أدّى إلى التدخّل العباسي لصالح أحمد أبي منصور وإخوته الحاكمين للكيان القرمطي وبالرغم من التسوية التي تدخّلت فيها أطراف خارجية في أمر الحكم القرمطي إلا أنّ الصراع لم يتوقّف بين الجناحين بمجرد إستيلاء أحمد أبي منصور على أمر قيادة العقدانية والكيان القرمطي، وبعد هذه الحوادث

---

[1] ابن خلدون، *تاريخ*، جIV، ص90

[2] ابن خلدون، تاريخ، جIV، ص100؛ الخليفة (مي محمد)، *من سواد الكوفة إلى البحرين*، ص206-ص207؛ ،

[3] ابن خلدون، *تاريخ*، جIV، ص100

[4] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص324

[5] ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص230؛ البادي(حميد بن سعيد)، دور عمان في منطقة المحيط الهندي الهندي وشرق إفريقيا من القرن الثاني الهجري إلى القرن السادس الهجري/ الثامن إلى القرن الثاني عشر للميلاد، أطروحة دكتوراه مرقونة تحت إشراف الأستاذ الدكتور راضي دغفوس، جامعة تونس،2006م، ص266

والإنشقاقات داخل الأسرة الجنّابية تعمّق الشّرخ الذي كان عقائديّا في الأول بين القرامطة والفاطميين[1] ليأخذ بعد سياسي.
كما أن المحاولة الإنقلابية لسابور بن أبي طاهر الجنابي في سنة 358هـ/969م والتي إنتهت في نفس السنة بمقتل سابور ونفي أخوته إلى"جزيرة أوال"[2]
ويظهر لنا أن سابور قد أعلن تمردّه من معطيات داخلية منها:
- عدم إشتراكه في قيادة السرايا و البعوث القتالية للقرامطة منذ العام 353هـ / 964م.
- تعويل أبي المنصور أحمد في الشؤون القتالية على ابنه الحسن الثاني.
- كما لا يفوتنا هنا أنّ شخصيّة سابور الطموح والتوّاقة لميراث أمجاد والده أبي طاهر على الرغم من كل هذه المظاهر ينبغي ألا نعزو إنقلاب سابور إلى طموح شخصيّ، والظاهر لنا أنّ سابور قد وطد علاقته بالقرامطة وحصل على وعد من المعز الفاطمي بمساعدته في الوصول إلى القيادة، خاصة و أن أحمد أبا منصور عمل فور وصوله إلى الحكم على إتباع سياسية مهادنة وتعاون مع القوى الإقليمية المجاورة [3] ولم يلبث أحمد بن أبي سعيد الجنّابي طويلا بعد عودته إلى السلطة فهناك إشارات إلى مقتل هذا الأخير على أيدي أنصار وأعوان ابن أخيه سابور غيلة حيث دسّوا له السم [4] فآلت الأمور إلى إبنه الحسن الثاني المعروف "بالأعصم" الذي سيتم على يديه بعث وتجدّد قرمطي أعاد للقرامطة أمجادهم العسكرية أيام أبي طاهر سليمان.
لم يعمر أبناء أبي سعيد الجنّابي أعضاء مجلس الحكم "العقدانية" إذ توفي أبو المنصور أحمد سنة 359هـ/970م وتوفي شقيقه الأكبر أبو القاسم سعيد بعد ذلك بحوالي السنتين عام 361هـ/972م[5] ولم يبق من جيل الأبناء من عائلة أبي سعيد الجنّابي سوى أبي يعقوب يوسف الذي احتفظ بموقع بارز في الدولة القرمطية[6] وتمّ قبول الجيل الثاني وهم أحفاد أبي سعيد منذ تلك الفترة في عضوية مجلس الحكم "العقدانية" وأصبحت الدولة القرمطية بعد وفاة أبي

---

[1] Hamdani (Abbas), " Some consideration on the Fatimid caliphate as a Mediterranien Power, including an interpretation of the Fatimid split with the qarmatians", in Attidel Terzo congresso di studi Arabi e Islamici , Pavello-Napoli 1967,P393

[2] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص33-ص 34 ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص343؛ ابن خلدون ، *تاريخ*، جIV، ص90؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، مII، جIV، ص27؛ DE GOÉJE, op. cit, P 184؛ Daftary (F). Op. Cit, P174

[3] DE GOÉJE, op. cit, PP 186 – 187

[4] - ابن خلدون، ***تاريخ***، جIV، ص90؛ Daftary (F). Op. Cit, P 174
الشرعان (نايف بن عبد الله)، *نقود الدولة العيونية في بلاد البحرين*، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، 2002، ص40

[5] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص 371؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة* مII، جIV، ص 63

[6] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص 371؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة* مII، جIV، ص 63

يعقوب يوسف سنة 367هـ/977م [1] تحكم من قبل أحفاد أبي سعيد الستّة مجتمعين[2] وهم الجيل الثاني.

III عصري البعث و الافول الجنابي : الجيل الثاني.

1 – جيل الحفدة: الحسن الثاني "الزعيم المجدد"

بعد وفاة أبي منصور أحمد أبرز القيادات القرمطية الفعّالة في مجلس العقدانية تولى ابنه الحسن الثاني أبو علي على رأس القيادة النافذة للقرامطة، وهكذا بدأ الجيل الثاني من ذرية أبي سعيد الجنّابي يمارس سلطاته بشكل فعّال.

ولد الحسن الثاني بن أحمد بن الحسن الجنابي بالأحساء سنة 278هـ/891م وتوفي بالرملة أرض فلسطين سنة 366هـ/977م[3] وهو القيادي القرمطي الوحيد الذي يمكننا أن نطلق عليه خليفة عمه ابي طاهر في المجد العسكري وحتى الأدبي. فبعد وفاة أبي منصور أحمد المفاجئة، برز على المسرح السياسي والعسكري للقرامطة الحسن الثاني الملقّب "بالأعصم" لوجود بياض في طرف من أطرافه[4] ونحن نخوض غمار هذه الشخصية الفريدة نشير إلى أنّه ثالث القيادات والزعامات القرمطية المتألقة حيث نجد الجد المؤسس الحسن "الأوّل" أبا سعيد وإبنه الأصغر أبا طاهر سليمان والحفيد المجدد الحسن الثاني " الأعصم"، فبالرغم من قصر فترة قيادته فإنها كانت حبلى بالاعمال الحرابية في بلاد الشام ومصر. فإذا كانت مجهودات أبي طاهر العمّ قد ركزت تجاه العباسيين، فإن مجهودات الحسن الثاني قد اتجهت صوب الخلافة الفاطمية المهددة للمصالح والامتيازات القرمطية فعمل على خلق مصادر دخل جديدة للخزانة القرمطية وعلى يديه توسعت الرقعة المجالية لدولة آل الجنابي وامتد نفوذها الخارجي. وبعد وفاة أبي منصور أحمد أصبح الحسن الثاني المتصرّف الأول في شؤون الدولة القرمطية بعد عمّيه أبي القاسم سعيد وأبي يعقوب يوسف، كبيري أعضاء مجلس العقدانية أما القيادة العسكرية فكانت له بدون منازع وقد ساعده في ذلك أبناء عمومته، كسرى بن سعيد وصخر بن إبراهيم[5] وكذلك لا يفوتنا الدور البارز الذي لعبه

---

[1] الهمداني ،*تكملة تاريخ الطبري*، ص236؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، VIII، ص409، وقد ذكر ابن الجوزي أن الأسواق أغلقت ثلاثة أيام حدادا على وفاة ابي يعقوب

[2] ناصر خسرو، *سفر-نامه*، ص 169؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص 371؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة* مII، جIV، ص 63

[3] ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص357؛ ابن العديم، *ترجمة الحسن "الأعصم"* ضمن *تاريخ أخبار القرامطة*، ص108 ؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص315-ص316.

[4] الاعصم: *من الضباء والوعول ما في ذراعيه أو في أحدهما بياض وسائره أسود أو احمر*، راجع الفيروز آبادي، *القاموس المحيط*، جVI، ص151

[5] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص34؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص315

لعبه جعفر القرمطي الذي كان العضد الأيمن للحسن الثاني "الأعصم" والقائم مقامه في حروبه على الجبهة الشامية ضد الفاطميين وحلفائهم[1].

وهنا نشير إلى حضور الكيان القرمطي كجزء لا يتجزأ من الكيانات السياسية في العالم الإسلامي إلى البدايات الأولى لقيادة الحسن الثاني لسرايا الدفاع القرمطية سواء في الجبهة الشامية منذ العام353هـ[2] أو السرية القرمطية لدعم أنصار القرامطة بعمّان وقد ساهمت كل السرايا والبعوث القتالية في صنع شخصية القائد الحسن الأعصم وخلق تلك الدراية والخبرة القتالية، التي اكتسبها منذ أيام قيادة والده وعمومته لمجلس الحكم القرمطي "العقدانية".

وتمكّن الحسن الثاني على رأس جيش قرمطي من الاستيلاء على دمشق سنة 357هـ/968م[3] بعد أن هزم الحسن بن عبيد الله بن طغج حاكم الإخشيديين على سورية وولى على دمشق "وشاح السلمي"، وللمرّة الأولى في تاريخ نشأة الكيان القرمطي تقع مناطق بعيدة في جغرافيتها عن مجالهم الحيوي القريب تحت حكمهم وقد فرض القرامطة على سكان الرملة أتاوة كبيرة[4] وهذا ما ردّه البعض إلى تفاقم العداوة واشتدادها بين الفاطميين والقرامطة[5].

وقد كان ثمرة هذا التقارب القرمطي العباسي أن الخطبة في الجمع والأعياد أقيمت في مكّة للخليفة العباسي المطيع (334-363هـ/946-974م) جنبا إلى جنب مع الزعيم القرمطي الحسن أحمد الجنابي في موسم 359هـ/970م[6]

---

[1] الهمداني ، *تكملة تاريخ الطبري*، ص228؛ ابن الأثير؛ *الكامل*، جVII، ص 358 وما بعدها؛ ابن العديم، المصدر نفسه، ص108؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص316؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص239- ص241

DE GOÉJE op. cit,P 192;

[2] الهمداني ، *تكملة تاريخ الطبري*، ص187؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، مII، جIII، ص336

[3] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص34؛ الأنطاكي(يحي بن سعيد)، *تاريخ الأنطاكي*، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، طرابلس / لبنان، 1990، ص128. DE GOÉJE, op. cit, pp184-185; Daftary (F), op, Cit,pp174-175

[4] ابن حوقل، *صورة الأرض*، ص34؛ ابن العديم، المصدر نفسه، ص104؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص304؛ ابن الدواداري، *كنز الدرر*، جVI، ص132؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص186-ص187.

Défrémery. (C), « Hist. Des Ismaéliens de la Perse » Journal Asiatique, 1856, II, p375 ; desacy. (S), op. Cit, vol I, p219 ; Dégoéje. Op. Cit, p186 ; Daftary (F), op. Cit, pp174-175

[5] ومن المفيد أن نؤكد هنا أن مقتل سابور بن أبي طاهر قد تمّ بعد حوالي الشهر من السيطرة المصرية التي تمت في 16 شعبان سنة 358هـ/ أوّل جويلية 969م، راجع الدكتورة أمينة بيطار، موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس الهجري، دار دمشق، سورية، 1400هـ/1980م، ص54، وهذا ما يفسره البعض من دور فاطميي مصر في انقلاب سابور على عمّه أحمد وازعاجه للعباسيين بغارات متكررة في الفترة التي سيطر فيها على زعامة القرامطة،

Degéojé, op. Cit, p187 ; Wiet. (G), L'Egypte Arabe, dans« L'histoire De la nation Egyptienne », publié sous la direction de G. Hanotaux, T.IV, Paris, 1937, p181

[6] الجزيري(عبد القادر بن محمد570هـ/977م)، *درر الفرائض في أخبار الحاج وطريق مكة المعظّمة*،المطبعةالسلفيةومكتبتها،القاهرة/1384هـ،ص245؛ ابن الجوزي،المنتظم،جVIII، ص359.

بعد هذا الحلف الجديد والقوي بين أعداء الأمس حلفاء اليوم اعتبر "الأعصم" الرجل الثاني بعد الخليفة العباسي في دولة الخلافة المهترئة الباحثة عن كل رجل قوي يمدّد في أنفاس وجودها. إن الاستيلاء الفاطمي على هذه المنطقة قد سلب القرامطة السيادة وامتيازاتهم المالية [1] وحدّ من نفوذهم ونشاطهم فيها [2] هذا إلى جانب أن الفاطميين أنفسهم كانوا يخططون للقضاء على الأسرة الجنابية وتحديدا فرع الحسن الأعصم الذي أعلن الحرب عليهم وناصبهم العداء لفترة زمنية طويلة. ولما بلغ آلفكتين والحسن بن أحمد "الأعصم" "مسير" "العزيز" الفاطمي إلى بلاد الشام، انصرفا عن عسقلان وعادا إلى الرملة حيث توفّي الزّعيم القرمطي الحسن الثاني "الأعصم" إبّان هذه الفترة أي في سنة 366هـ/977م[3] وفي رواية أخرى نجد إشارة إلى انسحاب الحسن الأعصم إلى طبريّة ومنها عاد إلى الأحساء وتوفّي هناك وإن " العزيز الفاطمي" أرسل إلى الحسن الأعصم عشرين ألف دينار وجعلها له كل سنة فكان يرسلها إليه وعاد إلى الأحساء على أن يكون هو وأصحابه على الطاعة والموادعة للفاطميين ولم يزل المال المقرّر "للحسن الثاني" يحمل إليه في كل سنة على يد صاحبه أبي المنجا إلى أن توفي[4] والظاهر أن هذه المصادر التي أوردت الإتفاق الحاصل بين القرامطة والفاطميين، خلطت بين شخصيتي جعفر القرمطي والزعيم القرمطي الكبير الحسن II "الأعصم" الذي تربطه به علاقة دموية قوّية حتى إنّ البعض أشار إلى أنه إبنه [5] أو أخوه [6] ولكن الثابت أنه ابن عمّه[7]، وهو الذي خلفه في القيادة وبالتالي يكون

---

[1] ثابت بن سنان، *تاريخ أخبار القرامطة*، ص57؛ ابن العديم، ترجمة الحسن الأعصم، المصدر نفسه، ص104- ص105؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، ص304؛ الدواداري، *كنز الدرر*، جVI، ص132- ص136؛ ابن خلدون، *تاريخ*، جVI، ص90؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص186- ص187؛ Wiet, (G), L'Egypte Arabe, op. Cit, p182

[2] بيطار، (د. أمينة) ، *موقف أمراء العرب بالشام والعراق من الفاطميين حتى أواخر القرن الخامس هجري*، دار دمشق ، 1980، ص55؛ الزيلعي، (أحمد)، المرجع نفسه، ص344

[3] ابن العديم، المصدر نفسه، ص107-ص108؛ النويري، *نهاية الأرب*،جXXV، ص316؛ *الذهبي، العبر في خبر من غبر*، تحقيق فؤاد السيد ، طبعة وزارة الإعلام الكويت 1984، جII، ص346- ص347؛ ابن خلدون، *تاريخ*، جIV ، ص91؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص240- ص241.
Daftary. (F), op. cit, p182

[4] ابن القلانسي، ***ذيل تاريخ دمشق***، تحقيق أمد روز ، هـ . فـ . ليدن، ص20- ص21؛ ابن الأثير، ***الكامل***، جVII، ص358؛ ابن عبد الظاهر (محي الدين أبو الفضل عبد الله بن عبدالظاهر المصري توفي 692هـ/1293م)، ***الروضة البهيّة الزاهرة في خطط المعزية القاهرة***تحقيق وتقديم الدكتور أيمن فؤاد سيد الدار العربية للكتاب،القاهرة، 1417هـ/1996م، ص23

[5] التاجر (الشيخ محمد علي)، ***عقد اللآل في تاريخ أوال***، إعداد وتقديم : إبراهيم بشمي مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، المنامة/البحرين، 1994م، ص84

[6] ـ الهمداني ، ***تكملة تاريخ الطبري***، ص228.

[7]ابن العديم، المصدر السابق، ص108؛ النويري، ***نهاية الأرب***، جXXV، ص316؛ الدواداري، ***كنز الدرر***، جVI، ص179؛ المقريزي، ***اتعاظ الحنفاء***، جI، ص240-

تجديد هذه المعاهدة الفاطمية القرمطية قد تمّ في عهده وتكون الروايات عن اتفاقية الخليفة الفاطمي العزيز مع الحسن الثاني "الأعصم" غير دقيقة وإشارة الهمداني وابن عبد الظاهر (توفي 692هـ/ 1293م)، تذهب في منحى تصحيحي للروايات السابقة وفيها غمز واضح على أن تجديد الهدنة والمصالحة مع القرامطة قد تمّ مع "جعفر بن الفضل بن الحسن الجنابي" حيث استقرت الهدنة على سبعين ألف دينار يحملها كل سنة.[1]

وكانت تلك الهدنة التصالحية بين القرامطة وفاطمي مصر قد تمّت سنة 368هـ/979م[2] وهذا الالتباس والتضارب في الأحداث والشخصيات مردّه تقاربها الزمني وتسارعها حتى إنّ تاريخ وفاة الحسن الثاني الأعصم وجدنا فيه تضاربا ما بين سنة 366هـ وسنة 367هـ كما ذهب إلى ذلك البعض[3] .

2- انحصار "آل الجنابي": الجيل الثالث "الأفول"

وفي سنة 375هـ / 985م خرج من سادة القرامطة إسحاق وجعفر من الجيل الثاني من ذرية أبي سعيد الجنّابي، وقد دخلا الكوفة احتلاها لبعض الوقت إلا أن هذه القيادة الثنائية انهزمت في آخر المعركة بعد سلسلة انتصارات ولم تقم لهم بعدها قائمة في العراق وعلى حدّ قول بعض المؤرخين "... زال من حينئذ ناموسهم"[4] خاصة بعد تلك الضربات الموجعة التي قام بها صمصام الدولة البويهي وقبل أن يقوم بالحسم العسكري بدأ بتجريدهم من كل تلك الامتيازات التي منحها أسلافه من الأمراء البويهيين[5] وبعد هزائم القرامطة وفشلهم في استعادة سيطرتهم على المناطق الجنوبية من العراق نشب خلاف داخلي بين أفراد القيادة القرمطية الجديدة وأقصد بذلك القائدين اسحاق وجعفر الجنابيين من جيل الأحفاد القيادي الذي ساد بعد "الأعصم" وعيّن هذا المجلس المذكور "اسحاق" و"جعفر" والظاهرلنا من خلال قراءتنا للنصوص المصدرية وجود نوايا وطموحات سياسية للزعامة تختلج أفراد

ص241؛ *المقفى الكبير*، جII، ص598 ؛ الزيلعي،*"المسكوكات الجنابية "*، ص361 حيث أشار هذا الباحث إلى أنه "إبن الفضل"

[1] - الهمداني ، *تكملة تاريخ الطبري*، ص228؛ ابن عبد الظاهر ، *الروضة البهيّة*، ص23.

[2] الهمداني ، *تكملة تاريخ الطبري*، ص228؛ ابن عبد الظاهر ، المصدر نفسه، ص23.

[3] ابن القلانسي، *ذيل تاريخ دمشق*، ص20- ص21؛ ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص358؛ ابن تغري بردي، *النجوم الزاهرة*، مII، جIV، ص128؛ بينما نجد عند ابن فضل الله العمري، *مسالك الممالك*، جXXIV، ص158، أن تاريخ وفاة الحسن " الأعصم" قد تمّت سنة 363هـ أي في عصر المعّز الفاطمي عندما كان الأعصم في طريقه إلى الأحساء، حيث دفن في مسقط رأسه ببلاد البحرين، بينما نجد في بقية المصادر أن الحسن الأعصم توفي بالرملة من أرض فلسطين ونقله ابن عمّه جعفر ليدفن بالأحساء، المقريزي، *المقفّى الكبير*، جII، ص598

[4] الروذراوري (ظهير الدين توفي 488هـ)، *ذيل تجارب الأمم*، طبعة القاهرة 1914م، ص110؛ ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص455؛ابن الأثير، *الكامل*، جVII، ص422

[5] ابن الجوزي، *المنتظم*، جVIII، ص455؛ ابن الأثير، الكامل، جVII، ص422؛ النويري، *نهاية الأرب*، جXXV، 316؛ أبو الفداء، *المختصر*، مI، جII، ص124؛ المقريزي، *اتعاظ الحنفاء*، جI، ص206

أسرة الحسن الأعصم مطالبين بميراثها السياسي ومتخذين من سابقة سابور حجّة في لشرعنة مطلبهم.
لذلك ارتآت العقدانية أن تعين هذين القائدين لما تمتعا به من تمرس ودراية ولأن كلا القائدين طموح وصاحبا مشروعية باعتبارهما من السادة البوسعيديين[1]. ولكن بعد الفشل العسكري في السيطرة على جنوب العراق و نهاية النفوذ القرمطي بعمّان في نفس العام، تركت هذه الأحداث وما تبعها من تطوّرات ساهم فيها الخلاف بين ثنائي القيادة "إسحاق" و"جعفر"[2] والتنافس الحاد بين أبناء العمومة [3] أثرها السلبي على الوضع السياسي العام لدولة القرامطة إذ فقدت تلك "الهيبة التي تمكّنت في النفوس... وأنهم ممن لا يصطلى بنارهم، حتى أن الملوك يصانعونهم"[4] وبسبب هذا الوضع الجديد تمردّت عليهم القبائل البدوية الخاضعة وتقلصت مساحات من المجال الخاضع لولائهم السياسي. وتدهورت سيطرة القرامطة المركزية وبعد احتلال "بني المنتفق" للإحساء، أقاموا على أنقاض دولة القرامطة دولتهم وهي "دولة الثعالبة"، ونجحوا في قتل ثنائي القيادة القرمطيّة إسحاق بن إبراهيم بن الحسن الجنابي وإبن عمّه القائد العام جعفر بن الفضل بن أبي سعيد في سنة 398هـ/1008م واستمرّت"دولة الثعالبة" حتى عام 449هـ/1057م أمّا في ما يخص القيادة السياسية للقرامطة في القرن الخامس للهجرة فإن أهم وثيقة تشرح لنا طبيعة النظام القيادي ما احتفظت لنا به "رحلة ناصر خسرو القبادياني توفي481هـ[5] "المعروفة" بـ" سفر- نامه" من مشاهدات ميدانية

---

[1] ناصر خسرو، ***سفر- نامه***، ص168- ص169

[2]جعفر كما مرّ معنا هو الشخص الذي آلت إليه أمور الدولة بعد وفاة الحسن الثاني " الأعصم" في الرملة، ويوجد اختلاف بين المصادر حول صلة قرابته منه، بل نجد ذلك في المصدر الواحد فالمقريزي ذكر جعفر بأنه عم الأعصم، اتعاظ الحنفاء، جI، ص240، والبعض يقول أنه ابن عمه في ص241 من نفس المصدر، والبعص الآخر يذكر أنه أخوه، راجع في ذلك، الهمداني ، تكملة تاريخ الطبري، ص228، أما المؤرخ البحراني محمد علي" الناجر" فيقول إنّ جعفر وإسحاق إبنا الحسن الأعصم، راجع عقد الآل في تاريخ آوال، مرجع سابق، ص84

[3] فإسحاق هو ابن إبراهيم بن الحسن الجنابي البكر وبه يلقب " أبو إسحاق"، راجع المقريزي، ***اتعاظ الحنفاء***، جI، ص165، وجعفر كما تبين لنا المسكوكات الجنابية هو إبن الفضل بن أبي سعيد الجنابي، الزيلعي المرجع نفسه ص 336-ص364

[4] ابن الجوزي، ***المنتظم***، جVIII، ص455

[5]حول حياة ناصر خسرو واعماله، فضلا عن كتاباته أنظر

« Nasir-i- khusraw, Poet, traveller, and Propagandist", JRAS (1905), especially pp313-352; A literary History of Persia, "From Firdawsi to sádi", London-Cambridge. 1902-1924, pp218-246; Rypka. (J), History of Iranian Litarature, ed. K. Jahn (Dordrecht, 1968), pp185-189;

صفا (د. ذ بيح الله)، ***تاريخ أدبيات دار إيران***، طهران، 1342هـ/ 1963م، مII، ص165-ص166، ص443-456 وص893-898 كذلك بإمكاننا الرجوع إلى دراسة الباحث الإيراني (محقق) الدكتور مهدي ، "بحث تحقيقي دربارءة ناصر خسرو"، مجلة كلية الآداب، جامعة طهران عدد94، لعام 1975، ص279- ص300وص359- ص364.

Poonawala,(Ismail.k), Biobibliography of Ismaili Literature, pp111-125, and 430-436; Berthels. (E), "Nasir-i- khusraw", EI2, vol III, pp869-870.

تفسر لنا ما غمض وبطن في دين ودنيا القرامطة في أواسط القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي. حيث كانت دولة القرامطة، تتدهور خاصة بعد زيارته للإحساء سنة 443هـ/1051م والذي يعنينا من زيارة هذا الرحّالة الفارسي ما دوّنه عن مشاهداته في الدولة القرمطية التي وجدها آنذاك تحكم من مجلس يتكون من ستة أشخاص من النسل الجسماني لأبي سعيد الجنابي، يعاونهم ستة وزراء من سلالة " إبن سنبر" وذكر أن هذا المجلس السلطاني يتعاون ويتشاور في تداول شؤون الناس[1].

علما أن عقب أبي سعيد الجنابي، حسب شهادة الجوبري الدمشقي تواصل في الأحساء حتى القرن السابع الهجري وقد عرفوا باسم السادة[2].

فقد زار ابن بطوطة بلاد البحرين في القرن الثامن للهجري وذكر أن سكان القطيف من الرافضية الغلاة [3] وهذا ما يؤكد ذلك الانتشار والاحتضار للسادة من الأشراف العهلويين من ذوي الدماء النبوية في الوسط الشعبي سنة 469 هـ/1077م الضربة القاسمة لظهر الحكم الجنابي حيث قضي على القبائل الاعرابية المتحالفة مع القرامطة، بدعم عباسي سلجوتي وفي سنة 470هـ كانت معركة الخندق وفيها تم الطيّ النهائي لسجل حكم قرامطة البحرين، وقتل من أفراد عائلة آل الجنابي ثمانين من آل أبي سعيدداخل القصر الملكي بالمؤمنية قرب الأحساء[4] .

وكان آخر أمراء السادة البوسعيديين من سلالة أبي سعيد الجنابي، الأمير سهل بن همام [5] الذي سقطت في عهده دولة آل الجنابي القرمطية سنة 470 هـ/1077 م. بدأ الأفول والانهيار لدولة آل الجنابي في خروجهم من جزيرة أو آل في ال في حدود سنة 459 هـ/ 1066 م[6]، وهذا مؤشر على بدايات الضعف والتخلخل لدولتهم القرمطية، وعجزهم على مواجهة تدفق القبائل البدوية المنتشرة في مجالهم الحيوي وتطاولها على آل الجنابي سادة الأمس القريب، إضافة إلى كل تلك التطورات التي عصفت بكيانهم على أيدي "العيونيين" من عبد القيس، حيث أنهوا حكم السادة البوسعديين الذي امتدّ من 287 سنة 469 هـ / 900 – 1077 م إلى ، أي أنها عبرت أكثر من قرن ونصف من الزمن، وتعد المعركة التي وقعت بين نهري ""ملحم" و "سلسبيل" حتى ولو كان انتحالا، لذلك النسب للوصول إلى مركز إجتماعي وسياسي، كما هو

---

[1] ناصر خسرو، ***سفر- نامه***، ص169؛؛ لويس (د. برنارد)، ***أصول الإسماعيلية***، ص204- ص205 ; Hajnal (István), "the Back ground Motivers of the Qarmati policy in Bahrain", p28

[2] ***المختار في كشف الأسرار***، ص7

[3] ***رحلة ابن بطوطة***، دار التراث، بيروت / لبنان ، 1968م، ص270

[4] ابن المقرب العيوني، ***الديوان***، ج II، ص 919 ، ص915

[5] ابن المقرب، المصدر نفسه، جii، ص1191.

[6] ابن المقرب ، المصدر نفسه، ج II، ص 911

حال أبي سعيد الجنابي الذي نجح في توظيف ذلك النسب الشريف الذي انتحله وتكلس في الذاكرة البحرانية حتى أصبح حقيقة بينهم.

الخاتمة:

كان نبشنا في دراسة أسرة "آل الجنابي القرمطية في بلاد البحرين من الحكم إلى الأفول السياسي من بين كتب التراجم والتاريخ، محاولة من ترجمة للعائلة الجنابية الحاكمة، خاصة وأن التغيب القصري والمتعمد من قبل أصحاب الطبقات والمؤرخين، إضافة إلى وجود حلقات فارغة سببها ذلك الرفض لوجود الائتلاف الممنهج للممتلكات القرمطية بعد احتلال مدنهم، إضافة إلى أن الأوساط الرسمية الحاكمة أنذاك لم تعرهم أي إهتمام فلا العباسي تطرق إليهم ككيان موجود ومعترف به ولا الفاطمي أعاد لهم الاعتبار، فقد ساهم بـ" الاسماعية المنسقة". ومع ذلك فإن الحلقات الفارغة في شجرة النسب الجنابية مردها عدم التواتر والرفض السياسي والمذهبي لهم، أما عن النسب النبوي الذي ألحقوه بأسرتهم فهدفه كانت سياسية لإخضاع الأهالي، إضافة لدحض النسب "العبيدي" وإجاد نوع من المشروعية لحكمهم في ظل محيط رافض ومتربص بهم.

مجتمع العلماء بمصر من خلال مصنف "عجائب الآثار في التراجم والأخبار[1] " لعبد الرحمان الجبرتي

[1]ظلّ هذا الكتاب ممنوعا من الطبع حتى أذن الخديوي توفيق بطبعه لأول مرة سنة 1297هـ/1879م بالمطبعة الأميرية ببولاق، ثم تكرر طبعه بالمطبعة الشرفية سنة 1323هـ/1905م في أربعة أجزاء، وقامت وزارة التربية والتعليم بتحقيقه تحت إشراف الأستاذ محمد شفيق غربال سنة 1958م. كما قام بشرحه وتحقيقه الأستاذ حسن جوهر الدسوقي سنة 1967. وقد صدرت الطبعة الأخيرة للكتاب عن دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة سنة 2009.

د. مجدي فارح
جامعة تونس

المقدمة

عرفت الكتابة التاريخية في مصر خلال فترة الحكم العثماني (1517-1805) ندرة في المصادر التاريخية التي دوّنها سكان البلاد المعاصرين آنذاك، فالمختصرات التاريخية لابن أبي السرور البكري والاسحاقي لا تعطي سوى نظرة موجزة عما حدث في مصر في تلك الفترة[1]. كما أنّ عملية انتقال مصر من السلطة المملوكية إلى السلطة العثمانية ظلّت جلّ أخبارها مجهولة، باستثناء السنوات الأولى القليلة (922 هـ928هـ/1517م-1522م) التي وصفها ابن إياس[2]. يعتبر عبد الرحمان الجبرتي أول من عمل على احياء حركة التأليف التاريخي في مصر بعد أن توقفت عجلتها في القرن السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، فكان أول من تابع الكتابة التاريخية بعد ابن اياس وابن زنبل الرمال[3]. وفي ذلك يقول:" ... *ولم تزل الأمم الماضية من حين أوجد الله هذا النوع الانساني تعتني بتدوينه سلفا عن سلف وخلفا عن خلف إلى أن نبذه اهل عصرنا*
وأغفلوه وأهملوه وعدوه من شغل الباطلين ..."[4].

تبدأ حركة التأليف التاريخي لمصر الحديثة بعبد الرحمن الجبرتي الذي عاش عصر انتقال مصر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث، تلك الفترة التي اتسمت بالاضطراب الشديد والتغير السريع، والتي شملت أواخر العهد العثماني الأول وعصر الحملة الفرنسية (1798-1801) ونحو عشرين سنة من حكم محمد علي باشا (1805-1821). يعتبر الجبرتي المؤرخ المصري الوحيد بين مؤرخي الاسلام الكلاسيكيين، أي مصنفي التاريخ على المنهج التقليدي في كتابة الحوليات، الذي يمكن اعتباره شاهدا مباشرا على ذلك العصر التحولي في مصر، بصفته مؤرخا مخضرما وقف بين التاريخ الوسيط والتاريخ الحديث وتحديدا بين القرن الأخير ونيف من الحقبة المملوكية العثمانية (حيث بدأ تاريخه سنة 1687 لينتهي بالحملة الفرنسية سنة

---

[1] أحمد طرابين، *التاريخ والمؤرخون العرب في العصر الحديث*، *دراسة عن حركة التأليف التأريخي في أقطار الوطن العربي*، دمشق، 1970، ص. 240.

[2] محمد أحمد بن اياس، *بدائع الزهور في وقائع الدهور*، القاهرة، 1961.

[3] جمال الدين الشيال، *التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن التاسع عشر*، القاهرة، 1985، ص.ص. 116-117.

انظر أيضا: ليلى أحمد عبد اللطيف، *دراسات في تاريخ ومؤرخي مصر والشام ابان العصر العثماني*، القاهرة، مكتبة الخافجي، 1990، ابراهيم عبد المنعم الجميعي، *اتجاهات الكتابة التاريخية في مصر تاريخ مصر الحديث والمعاصر*، القاهرة، معهد الدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، 1994.

[4] عبد الرحمان الجبرتي، *عجائب الآثار في التراجم والأخبار*، تحقيق وشرح حسن جوهر الدسوقي، القاهرة، لجنة البيان العربي،1967، ج 1، ص. 176.

1798 والتأريخ لأحداث الربع الأول من القرن التاسع عشر(1805-1821) وذلك ما جعله بالفعل شاهدا متفردا على تتابع المرحلتين معا وعلى تلك المواجهة الحضارية بينهما في مفترق الطرق بين تيارين متباينين من تيارات التاريخ والحضارة[1]. وقد استطاع الجبرتي الذي عرف بسعة اطلاعه ودقة ملاحظاته وشمولها أن يسجل مذكرات تاريخية يومية لتلك الفترة الانتقالية الدقيقة في تاريخ المجتمع المصري، فجاء ما كتبه سجلا حافلا التزم فيه جادة الحياد والإنصاف. وقد عبر عن ذلك في مقدمة كتابه بقوله: " *..لم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق لميل نفساني أو غرض جسماني...*"[2].

جمع مصنف ***عجائب الآثار*** تراجم الكثير من المشاهير من العلماء والساسة بدقة وإسهاب, يبتدئ من فتح السلطان سليم العثماني لمصر وينتهي في منتصف حكم محمد علي باشا، وهو كتاب مطول ومرتب على شكل وقائع يومية. كما أنّه تكملة وتتمة لتاريخ ابن إياس الذي هو تكملة وتتمة لتاريخ المقريزي[3]. كما يعدّ تاريخ الجبرتي "***عجائب الآثار في التراجم والأخبار***" من أكثر الكتب تشويقا وأغزرها مادة وأوثقها رواية في تصوير أوضاع العلماء في مصر وأدوارهم الاجتماعية والسياسية، إذ يقدم قراءة ثقافية فكرية تصور حياة طبقة العلماء في أواخر العهد المملوكي، العثماني بمصر، والصدمة الثقافية التي تعرض لها مجتمع العلماء ابان الحملة الفرنسية وردود أفعالهم بالاضافة إلى توصيف دقيق لأدوارهم السياسية والاجتماعية في بدايات عهد محمد علي باشا[4]. إلى آخر هذه الأنواع من القراءات المختصة والمتنوعة التي يحتملها هذا المصنف الموسوعي وذلك بعد أن يتمّ رصد وتجميع وتبويب نصوصه ورواياته الحولية الخاصة بكل موضوع وغربلتها حسب مناهج البحث العلمي الحديث.

كتب الجبرتي مؤلفه بطريقة الحوليات واليوميات في إفاضة وتفاصيل ممتعة، وبشكل جعل تعيين الأماكن والمواقع ظاهرة واضحة في روايته. فلا يورد حدثا من حوادث الحرب أو الثورات أو المواكب والحفلات

---

[1] محمد شفيق غربال، "بين تيارين متباينين من تيارات التاريخ والحضارة"، ضمن أعمال ندوة عبد *الرحمان الجبرتي: دراسات وبحوث*، اشراف عزت عبد الكريم، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، ص.ص. 183-205. انظر أيضا حسين عاصي، عبد الرحمان الجبرتي، *مؤرخ الصدام الحضاري الأول بين الشرق والغرب في العصر الحديث*، بيروت، دار الكتب العلمية، 1993.

[2] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، ج1، ص. 9.

[3] عواد مجيد الأعظمي، "عبد الرحمان الجبرتي في نظر التاريخ"، ضمن أعمال ندوة *عبد الرحمان الجبرتي: دراسات وبحوث*، *مرجع سابق*، ص.ص.159-161.

[4] Fareh Majdi «La médiation de Gabarti au temps de la Révolution française », in *Collection Etudes Révolutionnaires*, n° 6, Société des études Robespierristes, Paris, 2006, pp, 139-158.

العامة، ولاسيما في القاهرة، إلا قرنه بتحديد الأماكن والمواقع من شوارع وميادين ودروب ومنازل بحيث نستطيع من خلال روايته أن نصور معالم القاهرة في عصره واضحة جلية. وهو ما جعل من كتابه وثيقة تاريخية على غاية من الاهمية[1]. وقد برع الجبرتي اضافة إلى عرض الأخبار والحوادث في مصنفه ***عجائب الآثار*** في فنّ الترجمة، حتى أنّه ترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم، وقد كان لوالده وأصدقائه وشيوخ العلم في عصره نصيب وافر من تاريخه. ولعل أبرز ميزة لتراجم الجبرتي أنّه لم يكن مداحا يغدق الصفات الحميدة على كل من ترجم لهم من أعلام عصره، فكثيرا ما كان يعرض إلى جوانب غير مضيئة من تاريخ هؤلاء فيعدد عيوبهم ويلمح إلى تقاعسهم عن أداء أدوارهم تجاه مجتمعاتهم[2].

يتناول هذا البحث بالدراسة مجتمع العلماء بمصر من خلال التراجم التي خصصها لهم الجبرتي في مصنفه ***عجائب الآثار***، ورغم أنّ الحسم في هذه المسألة يظلّ نسبيا من خلال هذه التراجم لاعتبارات عديدة، لعل أهمها انتماء الجبرتي للفئة العالمة وهو بالتالي يترجم لأبناء بيئته، فإنّ هذه التراجم تزخر بالعديد من المعلومات والاشارات عن أدوار العلماء السياسية وعن وضعياتهم الاجتماعية والاقتصادية وعلاقاتهم بباقي مكونات المجتمع المصري آنذاك.

1- عبد الرحمن الجبرتي: سيرة وكتاب

ولد عبد الرحمن بن حسن برهان الدين الجبرتي في القاهرة سنة1167هـ/ 1754 م وتوفي بها سنة 1238هـ /1825م. كان والده حسن بن إبراهيم بن حسن بن علي بن محمد بن عبد الرحمن الجبرتي الهاشمي، الذي ولد في سنة (1110هـ/ 1698م) باقليم جبرت بالحبشة، من أعلام علماء الأزهر الشريف في عصره[3]. كما كان متبحرا في علوم الشرع والرياضيات وعلوم الفلك والهندسة بالاضافة إلى اتقان عدّة لغات أجنبية. وكان على جانب كبير من الثراء، كما كانت مكتبته عامرة بالكتب القيمة والمخطوطات النادرة، ودوره آهلة في كل وقت بالعلماء والمجاورين من طلاب الأزهر[4].

في هذا البيت العامر بالعلم والدين والأدب ولد الشيخ عبد الرحمن الجبرتي، وقد اهتمّ به والده كثيراً بعد أن لمس فيه الذكاء والفهم ورجاحة العقل، فقد حفظ الشيخ عبد الرحمن القرآن الكريم وهو في سن الحادية

---

[1] حسن محمد عبد الغني، "ملاحظات الجبرتي المؤرخ على حوادث عصره"، *مجلة الثقافة*، دمشق، العدد 713، السنة الرابعة عشر، أوت، 1952.

[2] عيسى صلاح، "منهج عبد الرحمان الجبرتي في رؤية الظواهر التاريخية"، *مجلة قضايا عربية*، بيروت، العدد الرابع، تموز، 1974.

[3] محمود الشرقاوي، *دراسات في تاريخ الجبرتي*، دار الأنجلو المصرية، 1955، الجزء1، ص.11.

[4] *نفس المرجع*، ص. 10.

عشرة، وهي سن صغيرة، وكان يحفظ الكثير من الأحاديث والروايات والأخبار التي كان يقصها والده على المشايخ والعلماء الذين كانوا دائمي التردد على منزله. ولهذا صار والده يخصه بأن يروي له أحداث العصر وأخبار الولاة والعلماء الذين عرفوه وعرفهم. صار الشيخ حسن الجبرتي يعقد حلقات التدريس كما جرت عادة علماء الأزهر في هذه الحقبة وهنا خَبرَ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي أخبار العلماء وأخلاقهم، وكان في داخله لا يشعر بالرضا عن أعمال وأخلاق زملائه في الأزهر ولعل عدم الرضى هذا هو المسؤول عن ملكة النقد والتحليل الذي ميز تراجم الجبرتي[1].
ترك حسن الجبرتي في ابنه عبد الرحمن أكبر الأثر، في تكوين شخصيته التاريخية والاجتماعية[2]. كما ورث عن أبيه ثروة كبيرة، فتفرغ للعلم والسفر في أنحاء مصر والاتصال بعلمائها ومعايشة الأوضاع الاجتماعية للفلاحين في القرى والأرياف مما جعله صادق الأحكام دقيقاً في تحليل الأمور مستوعباً لكل صغيرة وكبيرة من حياة المصريين أنذاك[3].

تذهب الدراسات التاريخية إلى الاقرار بأنّ تفكير الجبرتي في كتابة التاريخ لم يكن بدافع شخصي، ويشير الجبرتي نفسه إلى أنّ سبب تأليفه لكتاب عجائب الآثار هو أنّ محمد خليل المرادي الحسيني مفتي دمشق ومؤرخ الشام (ت 1206هـ) قد بعث برسالة إلى أستاذه الشيخ محمد مرتضى الزبيدي يساله فيها أن يمده بتراجم المصريين الذين عاشوا في القرن الثاني عشر، فكلف الزبيدي بذلك تلميذه عبد الرحمان الجبرتي[4]. وهكذا جمع الجبرتي ما تيسر جمعه من التراجم وحملها إلى أستاذه، فأرسل الزبيدي بعضها إلى صديقه المرادي وأفاد من البعض الاخر في وضع معجمه ***تاج العروس***. ولما توفي الزبيدي اشترى الجبرتي جزءا كبيرا من مكتبته التي بيعت بالمزاد، فوجد هذه التراجم وغيرها من مسودات الشيخ ورسائله وأوراقه ضمن ما اشترى وأفاد منها كثيرا عند تأليف كتابه ***عجائب الآثار***[5].

وقد وصف عبد الرحمان الجبرتي طريقته في التأليف في مقدمة كتابه بقوله: "*...إنّي قد سودت أوراقا في حوادث آخر القرن الثاني عشر وما يليه، وأوائل القرن الثالث عشر الذي نحن فيه، جمعت فيه بعض الوقائع اجمالية، وأخرى محققة تفصيلية، وغالبها محن أدركناها وأمور شاهدناها، واستطردت في ضمن ذلك سوابق سمعتها، ومن أفواه الشيخة تلقيتها، وبعض*

---

[1] عيسى صلاح، *مرجع سابق*، ص. 111
[2] جمال قاسم، "عبد الرحمان الجبرتي: سيرة وتقييم"، من كتاب *عبد الرحمان الجبرتي : دراسات وبحوث*، مرجع سابق، ص.ص. 55-61.
[3] محمود الشرقاوي، *مرجع سابق*، ص. 26.
[4] أنيس محمد، "الجبرتي بين مظهر التقديس وعجائب الآثار"، *مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة*، المجلد 18، الجزء الأول، ماي 1956.
[5] أنيس محمد، "حقائق عن عبد الرحمان الجبرتي مستمدة من وثائق المحكمة الشرعية"، *المجلة التاريخية المصرية*، العدد 9، 1960، ص.ص. 69-115.

تراجم الأعيان المشهورين، من العلماء والأمراء المعتبرين، وذكر لمع من أخبارهم وأحوالهم، وبعض تواريخ مواليدهم ووفاياتهم، فأحببت جمع شملها، وتقييد شواردها في اوراق منسقة النظام، مرتبة على السنين والأعوام ..."[1].

ويبدو حرص الجبرتي على الحقيقة واضحا في كل ما جمعه من الأخبار وما دونه من الأحداث، فقد كان دقيقاً لا يكتب عن حادثة إلا بعد أن يتأكد من صحتها وقد يؤخر التدوين حتى يحيط بالمصادر التي تصححها سواء بالتواتر أو بالشهادة. وفي ذلك يقول: "*..فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار، وربما أخرت قيد الحادثة حتى أثبتها ويحدث غيرها وأنساها، فأكتبها في طيّارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله تعالى، عند تهذيب هذه الكتابة، وكل ذلك من تشويش البال، وتكدر الحال، وهمّ العيال، وكثرة الأشغال وضعف البدن، وضيق العطن...*"[2].

قدم الجبرتي لكتابه بمقدمة موجزة لخص فيها تاريخ مصر منذ الفتح الاسلامي إلى أوائل القرن الثاني عشر هجري/القرن الثامن عشر ميلادي حيث بدأ بتدوين أحداث مصر تفصيلا حتى أوائل القرن الثالث عشر هجري/القرن التاسع عشر ميلادي. كما بحث الجبرتي عن المصادر الأصلية لتاريخه كالطبري والمسعودي وابن الجوزي وابن الأثير وابن خلدون والمقريزي والعيني والسخاوي ولكنه لم يظفر بمعظمها وانما وجد بعض أجزاء منها مبعثرة في مكتبات المساجد والمدارس إلى بلاد المغرب والسودان[3]. كان الجبرتي يشكو خاصة من غموض المئة سنة الماضية عليه، أي من سنة 1070 هـ حتى 1170 هـ، لأن هذه السنوات سابقة على حياته، ولذلك حرص على أن يدون الأسماء من الدواوين الرسمية. يقول في شرح ذلك: "*... إنها تستبهم عليّ (المئة الماضية إلى السنة السبعين) وأما ما بعدها فأمور شاهدتها، وأناس عرفتهم، على أني سوف أطوف بالقرافات (المقابر) وأقرأ المنقوش على القبور، وأحاول جهدي أن أتصل بأقرباء الذين ماتوا، فأطلع على إجازات الأشياخ عند ورثتهم، وأراجع أوراقهم إن كانت لهم أوراق، وأسأل المعمرين ماذا يعرفون عمن عايشوهم.."* [4].

أما أسلوبه في الكتابة فغلب عليه طابع العصر، ففيه الفصيح السهل والجزل المسجوع وقد يعلو ويرتفع مما يدل على تباعد فترات الكتابة. ولكن الجبرتي كان يقف في القرن التاسع عشر على مفترق الطرق فهو من جهة متّأثر بالتاليف التاريخي الاسلامي وخاصة مدرسة القرن الخامس عشر متأثر بمقوماتها وعقليتها الدينية والفكرية ووسطها الاجتماعي، وبأسلوبها ومنهجها في كيفية جمع مادة التاريخ والتأليف منها. ومن جهة أخرى بدأ

---

[1] عبد الرحمان الجبرتي، مرجع *سابق*، الجزء الأول، ص. 13.

[2] *نفس المر جع*، ج1، ص. 5.

[3] جمال قاسم، مرجع *سابق*، ص. 58.

[4] *نفس المرجع*، الجزء 1، ص. 43.

ينفعل بالأحداث الخطيرة التي كانت تجري حوله[1]. يتبين من ذلك أنّ الجبرتي سلك في تاريخه مسلكا دقيقا فقد كان يسجل ما شاهده وما عاصره من الأحداث في بطاقات، أما السنوات التي لم ير أحداثها فقد حاول تغطيتها بالرجوع إلى بعض المراجع التاريخية على قلتها والتي وصفهما بركاكة التركيب واختلال التهذيب والترتيب. مثال ذلك تاريخ أحمد شلبي عبد الغني الذي تناول تاريخ مصر من الفتح العثماني حتى سنة 1150 هـ والذي اعتمده الجبرتي في ما سبق القرن الثاني عشر لأنّه بدأ تاريخه سنة 1100 هـ. واتبع الجبرتي في تاريخه طريقة الحوليات، فهو يؤرخ للسنين سنة بعد أخرى وبختم كل سنة بالترجمة لمن توفي فيها من الأمراء وشيوخ الأزهر وعلمائه، والأدباء والشعراء والتجار ووجوه المجتمع عموما. ونجده يترجم احيانا لكثير من الباعة وأهل السوق وأرباب الحرف والمتصوفين والمجاذيب والدراويش ومدعي النبوة وهو لا يعنى فقط بتسجيل الأحداث السياسية والتراجم فحسب وانما يشير في الأزمات الاقتصادية إلى أسعار الغلال ومواد الغذاء والحطب والفحم والذهب والفضة ويلمح إلى الأوبئة والأمراض والنشاط العمراني كتعمير المساجد والقصور[2].

ظلّ الجبرتي مشتغلاً بجمع الأخبار وتدوينها حتى فاجأته وفاجأت المصريين جميعهم الحملة الفرنسية سنة 1798[3]. كان الجبرتي في وقتها في الرابعة والأربعين من عمره، ولذلك فلم ينقطع خلال فترة بقاء الفرنسيين في مصر عن تسجيل أعمالهم، ورصد تحركاتهم، والتعليق على أقوالهم وأفعالهم، وكان أكثر العلماء الأزهريين دقة في تدوين ملاحظاته على نظام الحياة في مجتمع الحملة الفرنسية وطرائقهم في تنظيم حياتهم. كما تميز تاريخه بانّه على مستوى عال من الدقة والتحري والاضافة خلال ذلك المنعطف الحضاري الذي كانت تجتازه مصر[4]. **وقد انقسمت ملاحظات الجبرتي عن الحملة الفرنسية إلى قسمين أولها الملاحظات السياسية** التي تتعلق بنظم الحكم الذي اتبعه الفرنسيس ومنشوراتهم وتقاريرهم وتحليل أقوالهم ورصد أهدافهم من الحملة ووجودهم في مصر[5]. وفي هذا القسم لم يكن الجبرتي على إلمام كامل بمظاهر المدنية الغربية وبتشعب العلاقات الدولية، فلم يستطع تحليل الأحداث تحليلاً عميقاً مثل ما فعل في القسم الثاني من ملاحظاته وهي

---

[1] ليلى أحمد عبد اللطيف، *مرجع سابق*، ص. 23.

[2] Fareh (Majdi), *Les Egyptiens et les Lumières pendant l'expédition de Bonaparte*, Mémoire de DEA en Histoire,Université de Rouen, 2000,p.11-23.

[3] عبد الغني مصطفى، *الجبرتي والغرب: رؤية حضارية مقارنة*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاي، 1995. ص ص. 22.

[4] من تقديم عزت عبد الكريم للدراسلت والبحوث التي قدمت خلال ندوة *الجبرتي*، الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، القاهرة، أفريل 1974.

[5] رضا العشي، "شيوخ الأزهر والحملة الفرنسية"، *المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية*، العدد 41-42، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ديسمبر 2010، ص.ص. 420-450.

الملاحظات الاجتماعية[1]، حيث يتحدث الجبرتي عن مشاهداته الشخصية وقد تفاوتت مواقفه من الحياة الاجتماعية والثقافية للفرنسيين فأحياناً يبدو معجباً منبهرا ببعض مظاهر السلوك ولا سيما ما يتعلق بالمعرفة وحب العلم وإجراء التجارب واستخدام الأجهزة والأدوات[2]. وأحياناً كان يبدو ساخطاً خاصة فيما بخروج النساء للعمل سافرات على غير المعهود في المجتمعات الإسلامية في ذلك الوقت. ومن ثمة فإنّ كتابه على غاية من الأهمية لأنّه المصدر المصري الوحيد الذي أرّخ للحملة الفرنسية ووقع الصدمة الحضارية التي رافقتها[3].

ما يضاعف من أهمية كتاب ***عجائب الآثار*** أنه لم يكن كتاب تاريخ فحسب، بل كان كتاباً في تراجم الرجال أيضاً. فقد ترجم الجبرتي للآلاف من العلماء والشيوخ والأمراء والحكام والخطباء والشعراء والكتاب والأعيان والتجار. ويشمل كتابه أخباراً طريفة كذلك عن أبناء الطبقات الدنيا من المجتمع المصري، حيث يورد أسماء كثيرين من الباعة وأهل البدع وبعض أصحاب الطرق. ولكن الترجمة للعلماء استأثرت باهتمام الجبرتي أولا بحكم انتمائه إلى هذه الطبقة ومن ثمة أكثر اطلاعا على أخبارها وثانيا لأنّه يجعلها في أعلى قمة هرم مجتمعه. وقد استغرق في هذا العمل ليله ونهاره، واستمر يبحث عن مصادره ومراجعه، وبدأ يدون الأسماء، وكان من الطبيعي أن يبدأ الجبرتي بالمشايخ، ومن أبرزهم شيخ الأزهر ونقيب الأشراف بالاضافة إلى مشايخ أروقة التدريس بالأزهر ممن اشتهروا بالعلوم الفقهية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة وغير ذلك، وقد استعان الجبرتي في عمله هذا بصديقه إسماعيل الخشاب الذي كان من المشهورين بالعلم والأدب في عصره[4].

2- عالم العلماء في مصنف *عجائب الآثار في التراجم والأخبار*

دأب الجبرتي على تسمية فئة العلماء بالمتعممين وهم الشيوخ عموما والأشراف والوجهاء من آل البيت بالاضافة إلى كبار العلماء والمدرسين والقضاة والمفتين والمتصوفة وأولياء الله الصالحين. وقد تصدر عالم العلماء عدد من المشايخ الكبار مثل الشيخ السادات والشيخ البكري اللذان كثيرا ما تنافسا على منصب نقيب الأشراف الذي كان يتحمل مسؤولية مهمة تتمثّل في امساك سجل المنحدرين من نسل النبي صلى الله عليه وسلم وكان تعيينه يتمّ

---

[1]Majdi Fareh, « La médiation de Gabarti au temps de la Révolution française », op.cit, p. 147

[2] مجدي فارح، "العلاقات الثقافية بين الشرق والغرب في مصر: جدلية الانبهار والحوار من الحملة الفرنسية إلى البعثة السان سيمونية"، بحث مقدم للنشر بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية والاقتصادية بتونس.

[3] للمزيد من التفاصيل انظر أحمد ابراهيم، *مئتا عام على الحملة الفرنسية: رؤية مصرية*، القاهرة، مكتبة الدار العربية للكتاب، 2007.

[4] عبد العزيز نوار، "عبد الرحمان الجبرتي وعلماء زمانه"، دراسة وردت ضمن كتاب *عبد الرحمان الجبرتي: دراسات وبحوث*، مرجع سابق، ص.ص. 402-412.

في اسطمبول بالاضافة إلى مفتي المذاهب الأربعة (المذهب الشافعي الذي كانت تنتمي إليه غالبية المصريين، والمذهب الحنفي الذي كان مذهب الأتراك، والمذهب المالكي واسع الانتشار في المغرب والمذهب الحنبلي)[1]. شكّل العلماء في مصر عالما واسعا وجدّ متنوع ومن ثمة فقد كان من المحتم أن تظهر تباينات شديدة في أوضاعهم الاجتماعية وفي أدوارهم السياسية وظروفهم الاقتصادية. ترجم الجبرتي في كتابه لعدد كبير من العلماء على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ووظائفهم الاقتصادية وعلاقاتهم بالسلط السياسية.

أ- وظائف العلماء وعلاقتهم بالسلط السياسية من خلال تراجم الجبرتي

حرص المماليك على كسب ودّ العلماء خاصة في ظلّ المصاعب الاقتصادية والسياسية التي عرفتها مصر آنذاك[2] وما رافقها من التحركات الشعبية المناهضة لحكمهم[3]. كان المماليك يعرفون النفوذ الذي كان للعلماء على العامة ومن ثمة فقد كانوا حريصين على كسب تعاونهم وخطب ودّهم، من ذلك مثلا أنّ ابراهيم كتخدا وعبد الرحمان كتخدا قد عرضا على حسن الجبرتي دون نجاح أن يشتريا له أو يبنيا له بيتا أوسع من داره. أما الأمير محمد بك أبو الذهب فقد قدم لمرتضى الزبيدي صاحب مصنف ***تاج العروس*** الشهير 100000 باره ثمنا لنسخة تخصص لمكتبة مسجده الكبير من الكتاب[4].

يشير الجبرتي إلى أنّ المشاركة الفعلية لعلماء مصر في الشؤون السياسية تعود إلى مشاركتهم في تشكيل الديوان الكبير الذي أنشأه السلطان سليمان القانوني وذلك ليكون بمثابة الأداة الرقابية على أفعال الباشا وتصرفاته وقد كانت لهذا الديوان سلطة كبيرة في إدارة الحكومة حيث لا يستطيع الباشا أن يبرم أمرا إلا بموافقة هذا الديوان، الذي كان يضم خلاصة العناصر التي تشترك في إدارة مصر فيحضره طائفة من الموظفين مثل الدفتر دار والمهردار كما كان يحضره المفتون على المذاهب الأربعة وقاضي القضاة وأمير الحج، وقد تواصل تمثيل العلماء في الديوان خلال الحملة الفرنسية على مصر وبعدها[5].

تفيد مقاربة المواقف والأدوار التي نهض بها العلماء في المجتمع المصري التي جمعنا نثارها من خلال مصنف ***عجائب الآثار***، في توفير مدخل كاشف لطبيعة المواقع التي تولاها العلماء داخل بنيان المجتمع

---

[1] انظر أندريه ريمون، *المصريون والفرنسيون في القاهرة، 1798-1801*، ترجمة بشير السباعي، القاهرة، 2001، ص. 28.

[2] هنري لورنس، "صورة الشرق في القرنين السابع والثامن عشر"، ندوة *البحوث حول حضارات الشرق الحديث*، باريس، منشورات جامعة السوربون، 1988، ص.ص. 25-27.

[3] للمزيد من التفاصيل حول العلاقة بين العلماء والساسة انظر: وجيه كوثراني، *الفقيه والسلطان*، بيروت، منشورات دار الرشيد، 1989.

[4] اندريه ريمون، مرجع سابق، ص. 29.

[5] محمد عبد الكريم خفاجي، *الأزهر في ألف عام*، القاهرة، المطبعة المنيرية، 1904، ص. 113.

المصري. ولعل أبرز ما يمكن ملاحظته من خلال تشعب الوظائف التشريعية والسياسية وما تفرع عنها من مسؤوليات قضائية ومالية وإدارية للعلماء الموقع المتميز الذي احتلته شريحة العلماء المنخرطة ضمن مؤسسات السلطة الحاكمة التي تعاقبت على حكم مصر والتي عاصرها الجبرتي أو كتب عنها[1]. أخذت علاقة العلماء بالسلط السياسية أشكالا مختلفة وقد جمعت تراجم الجبرتي بين فئة من المشايخ انخرطت صلب المؤسسة السياسية وبررت أفعالها ووظفت لاخماد الثورات واحكام قبضة الساسة على الناس مثال ذلك ما يذكره في ترجمته للشيخ محمد المصيلحي الشافعي (ت1201هـ/1787م): "... *ونصبوه شبكة لصيدهم وآلة لاقتناصهم وأخذوه إلى بيوت الأمراء في حاجاتهم وعارضوا به المتصدرين من الأشياخ في الرياسة*..."[2]. وقد ترتب عن هذا الموقع خضوع هذه الشريحة لجملة من الآليات الناظمة لتوازنات السلطة ولمسارات تحولاتها. وهو ما يظهر جليا من خلال استفادة العلماء من الأوقاف ونظارتها خاصة وقد احتلّت المؤسسات الوقفية مكانة مركزية داخل الدورة الاقتصادية العامة، نظرا لثقلها فقد تجاوز حجم الأراضي الموقوفة في مصر ما يوازي ثلث الأراضي الزراعية[3]. وقد وفرّت هذه الأوقاف للعلماء موارد عينية وأخرى نقدية هامة، خاصة وانّ نظامها لم يعرف أي تعديل منذ القرن الخامس عشر[4].

يذكر الجبرتي أنّ الصعود الاقتصادي للعديد من القضاة والعلماء قد ارتبط بتوليهم الاشراف على المؤسسات الوقفية وهو ما أتاح لهم مراكمة ثروات كبيرة[5]. وقد أشار الجبرتي في تراجمه إلى الوظائف التي تحصل عليها العلماء ودعمت مراكزهم الاجتماعية ووضعياتهم الاقتصادية من خلال عبارات كثيرا ما تكررت في تراجمه من قبيل "*أثرى بعد توليه*" أو "*أثرى وترونقت أحواله وسكن دارا واسعة*" وذلك بعد توليهم لوظائف القضاء والافتاء واستخلاص الرسوم القضائية والغرامات المالية هذا بالاضافة إلى ما يتقاضونه على الرسوم المقررة على معاينة التركات وتقسيمها والمبايعات وعلى الحجج الشرعية الصادرة عن المحاكم[6].

يذكر الجبرتي أنّ موارد العلماء في عصره كانت جدّ متنوعة ما بين أراض زراعية وعقارات منزلية ومحلات تجارية ومراكب صيد. وقد أمنت

---

[1] أرنولد توينبي،"عبد الرحمان الجبرتي وعصره"، دراسة وردت ضمن كتاب *عبد الرحمان الجبرتي:دراسات وبحوث*، *مرجع سابق*، ص 14.

[2] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص. 35.

[3] حسن الضيقة، *دولة محمد علي والغرب: الاستحواذ والاستغلال*، الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، 2002، ص. 113.

[4] انظر محمد فؤاد شكري، *مصر في مطلع القرن التاسع عشر (1801-1821)*، القاهرة، مطبعة جامعة القاهرة، 1958، ج 3، ص. 1129.

[5]André Raymond, *Artisans et commerçants au Caire au XVII éme siècle*, IFAO, Damas, 1973, t.1, pp.421-423.

[6] محمد عبد العزيز الشناوي، *الأزهر جامع وجامعة*، مرجع سابق، ص. 422.

لنا تراجم الجبرتي الاطلاع على مستويات الثروة لدى هذه الفئة ومكانتها وسط المجتمع المصري في أواخر القرن الثامن عشر. بدراسة وثائق المحاكم الشرعية ومصنف ***عجائب الآثار*** يتضح لنا أنّ الوظائف التي تولاها العلماء في تلك الفترة كانت كثيرة ومتنوعة جمعت بين الوظائف التعليمية والدينية والإدارية بالاضافة إلى بعض بعض المناصب الكبرى الأخرى. وتزخر ***عجائب الآثار*** بأمثلة عن العلماء الذين مارسوا الأنشطة الاقتصادية وقد احتكر بعضهم نظارة الأوقاف طيلة القرن الثامن عشر وهي أراض زراعية أوقفت للانفاق من ريعها على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والمدارس وكانت معفاة من الضرائب[1]. لقد مثّلت نظارة الأوقاف ونظارتها امتيازا حظي به العلماء وكانت عنصرا فاعلا في حماية مصالحهم ومممتلكاتهم[2]. قد احتكر عدد من العلماء نظارة الأوقاف التي كانت تؤمن لهم مورد رزق مهم ومثمر خاصة بالنسبة لكبار الشيوخ مثل الشيخ محمد البكري المتوفى سنة 1782 والذي يذكر الجبرتي في ترجمته أنّه كان ناظرا لأربع وأربعين وقفا[3]. يذكر الجبرتي أنّ العلماء قد شاركوا بدءا من النصف الثاني من القرن 18 بشكل نشط في التزام الضرائب الريفية: وفقا لتقسيم 1798 فمن اجمالي 33320 التزاما كانت 307 التزامات في حيازة العلماء أي بنسبة 7.9 % . بالاضافة إلى ذلك فقد كان عددا معينا من المشايخ وخاصة الأوسع نفوذا منهم مسجلين في سجلات المالية العامة للحصول على رواتب مهمة، حيث كان شيخ الأزهر يحصل على 19870 باره وكان الشيخ البكري يحصل على 26000 باره[4]. وهكذا كان بوسع بعض المشايخ جمع ثروات ضخمة تنامت فيما بعد عبر مضاربات تجارية إذ رأى بعض العلماء أنّ أقصر السبل لتحسين مستوياتهم المعيشية هو ممارسة الأنشطة التجارية ويؤكد لنا الجبرتي في تراجمه أنّ كبار المشايخ قد امتهنوا التجارة في الكثير من المنتجات الزراعية والصناعية[5]. وبما أنّ طبيعة العمل لادارة تلك الملكيات يتطلب تفرغ صاحبها للقيام بذلك وهو ما يتعارض مع متطلبات الحياة العلمية التي تحتاج هي الأخرى إلى أكبر قدر ممكن من وقت العالم للقراءة والتأليف والتدريس وقد تعامل العلماء مع ملكياتهم بأسلوب استثماري يضمن حسن استغلالها مع مواصلة حياتهم العلمية[6].

---

[1] *نفس المرجع*، ص. 227.

[2] محمد أمين محمد، *الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر 1517/1250م: دراسة تاريخية*، جامعة القاهرة، دار النهضة، ط 1، 1950، ص. 180.

[3] للمزيد من التفاصيل حول استفادة العلماء من نظارة الأوقاف انظر: لمياء الزيتوني، *العلماء بولاية مصر خلال القرن الثامن عشر من خلال تراجم الجبرتي*، مذكرة الدراسات المعمقة في التاريخ، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، السنة الجامعية 99، 2000.

[4] أندريه ريمون، *مرجع سابق*، ص. 38.

[5] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الأول، ص. ص. 82-112-117-123.

[6] للمزيد من التفاصيل انظر: ناصر عبد الله عثمان، *قبل أن يأتي الغرب: الحركة العلمية في مصر في في القرن السابع عشر*، القاهرة، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، 2006، ص. 52

ولعل أبرز نموذج للعلماء الذين أثروا بحكم ارتباطهم بعلاقات قوية بالسلط السياسية الشيخ شمس الدين محمد أبي الأنوار السادات الذي أصبح في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من أهم العلماء بمصر وأوسعهم نفوذا وقد استفاد الشيخ السادات من عائدات هامة سواء من الأوقاف أو من الالتزام في بعض العقارات الهامة ومن امتلاكه لبعض الوكالات[1]. يرسم الجبرتي في ترجمته للرجل صورة قاتمة نعته فيها بالطمع والجشع والغطرسة وقد خصص له في تراجمه ترجمة طويلة لسنة 1813، ذكر فيها أنّه ولد سنة 1733 ابنا لأحد التجار وأصبح على رأس الحركة الوفائية سنة 1769 وقد استفاد من وضعه ليراكم ثروة طائلة. ويحصي الجبرتي في ترجمته له أملاكه على النحو التالي: حيازة وظيفة الناظر لاثنين وخمسين وقفا بالاضافة إلى ملكيته لسبعة بيوت وثلاث خانات وسبع دكاكين. كما استفاد الشيخ السادات من معاش قدره 148635 باره عن أوقاف المدينتين المقدستين بالاضافة إلى راتب قدره 16529 باره. ويذكر الجبرتي أنّ نفوذ الرجل قد تعزز بحيازته لادارة أهم الأماكن المقدسة بالقاهرة آنذاك وموالدها الشعبية مثل المشهد الحسيني ومقام كل من السيدة زينب، السيدة نفيسة والامام الشافعي[2]. يذكر الجبرتي في ترجمته أنّ الشيخ السادات قد عاش حياة مترفة إلى حدّ قلد معه حياة أمراء المماليك، فاتخذ على عاداتهم الرقيق والمماليك بل وملبسهم " *فصار يلبس قاووقا بعمامة خضراء تشبها بأكابر الأمراء وبعدا عن التشبه بالمتعممين والفقهاء والمقرئين*"[3]. كما يلاحظ الجبرتي بحدّة . بالاضافة إلى الشيخ السادات يؤاخذ الجبرتي عددا من العلماء لافتتناهم بالدنيا وعدم إخلاصهم للعلم وحرصهم على جمع الأموال، واستخدامهم لكثير من الخدم والمقدمين والأعوان، ومخاصماتهم الكثيرة مع بعضهم البعض، الذين "*تركوا الدين رغبة في ملذات الدنيا*" على حدّ تعبيره ومن أبرزهم الشيخ عبد الله الشرقاوي الذي خصص له ترجمة مطولة ذكر فيها أنّه قد ولد سنة 1737 لأسرة متواضعة من الشرقية ولكنّه اغتنى بفضل عدد من الهبات التي نجح في استثمارها عندما أصبح أستاذا بالأزهر ومن ثمة " *اتسعت عليه الدنيا وزاد طمعه فيها*"[4]. وكذلك كان شأن الشيخ محمد المهدي المولود سنة 1742 والذي بدأ التدريس بالأزهر سنة 1772. وسرعان ما ذاع صيته ولكن انصرافه إلى التجارة وحيازة الأوقاف والالتزامات والمضاربات التجارية أبعده عن اتمام مسيرة علمية ناجحة وهو ما يأسف له الجبرتي[5].

---

[1] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثالث، ص. 419.

[2] أندريه ريمون، *مرجع سابق*، ص.ص. 33-34.

[3] الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص. 113.

[4] الجبرتي، *نفس المرجع*، ج2، ص. 211.

[5] Mustapha Al Ahnaf, “Cheik Al Mahdi (1737-1815), Uléma médiateur et bisniessman”, in *Egpte/Monde Arabe* n° 1, 1999, pp.115-116.

كما ترجم الجبرتي لعدد من العلماء المنحدرين أساسا من عائلات ثرية وتزخر تراجم العلماء في كتاب الجبرتي بعدد من العبارات الدالة على مستويات الثروة من قبيل "*ذا ثروة وحسن عشرة*"، أو "*كان والده من كبار أعيان التجار*" مثل ما ورد في ترجمته للشيخ ابن السيد محمد بن حسين العادلي الدمرداشي: "*... أدرك الشيوخ وتمول وأثرى وصار له صيت وجاه وكان بيته بالأزبكية يرد عليه العلماء والعقلاء وكان وحيدا في شأنه وكلمته مقبولة عند الأمراء والأكابر...*"[1]. أو في ترجمته للشيخ علي بن تاج الدين القلعي الحنفي المكي (1172هـ/1759م) والذي يقول عنه "*...ولد بمكة وتربى في حجر أبيه في غاية السيادة والسعادة...صار في سدة سلطة أحد الأعيان المشار إليهم... اتخذ دارا واسعة فيها أربعون قصرا ووضع في كل قصر جارية بكل لوازمها ...*"[2].

تتعدد التراجم المماثلة لترجمة هذا العالم في مصنف ***عجائب الاثار*** إذ نجد أحيانا وصفا خرافيا لثروات عدد من علماء القاهرة ومستويات معيشتهم من ذلك مثلا ما ورد في ترجمة شيخ الأزهر الشيخ محمد شنن المالكي (ت 1133هـ/1721م والذي كان "*...أغنى أهل زمانه وبين أقرانه ... ورث عن أبيه مالا من صنف الذهب البندقي أربعون ألف خلاف الجنزرلي وأنواع الفضة والأملاك والضياع والوظائف والجماكي والرزق والطيان وكان له عبيد ومماليك وجوار...*"[3]. وتتعدد وفقا لتراجم الجبرتي أمثلة العائلات العلمية الثرية كعائلة المؤرخ نفسه[4] وعائلة الكردي ذات الأصول المغربية[5] وعائلة الزبيدي[6] وعائلة البكري التي أطنب الجبرتي في انتقاد مظاهر ثرائها ثرائها الفاحش والمتوارث منذ القرن السادس عشر. وقد اكتسب العلماء المنحدرون من العائلة البكرية شرفهم من انتسابهم إلى خليفة الرسول الكريم أبو بكر الصديق. كانت للعائلة البكرية مكانة اجتماعية واقتصادية كبيرة في مجتمع مصر العثمانية و زادت هذه المكانة عندما توثقت علاقاتهم بالسلطة السياسية والطبقات الحاكمة حيث تصاهروا معهم وكان الوزراء يحضرون أفراحهم ومجالسهم الأدبية وكانوا يسكنون بأرقى المناطق بالقاهرة إلى جانب امتلاكهم الكثير من العقارات والأراضي الزراعية والمحلات التجارية والمراكب الملاحية. والحقيقة أنّنا عندما نقارن بين التراجم التي اوردها الجبرتي للعائلة البكرية وما كتب عنها في كتب التاريخ نجدها متشابهة إلى حدّ التطابق. ونلاحظ من خلال التراجم أنّ مستوى هذه الثروات بدأ يتصاعد

---

[1] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الأول، ص. 331.

[2] *نفس المرجع*، الجزء الأول، ص. 103.

[3] *نفس المرجع*، الجزء الثاني، ص.ص. 128-129.

[4] *نفس المرجع*، الجزء الأول، ص. ص.326-440-445.

[5] *نفس المرجع* ، الجزء الأول، ص.ص. 335-336.

[6] *نفس المرجع* ، *مرجع سابق*، الجزء الأول، ص.ص. 337-338

منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر حتى أنّ بعض المؤرخين أصبحوا يتحدثون عن "أرستقراطية علماء الأزهر [1].

استحوذ العلماء في مصر على مكانة اجتماعية عظيمة داخل مجتمعهم فمن ناحية كانت السلطات الحاكمة تقدرهم وتخشى غضبهم ولا ترد لهم مطلبا، حيث أدركت مدى تأثيرهم على عامة المصريين[2]. ومن ناحية أخرى عظمت مكانة العلماء عند عامة المصريين الذين نظروا إليهم على أنّهم الملاذ الأوحد تجاه ما يصادفهم من متاعب وصعاب خاصة في ظلّ الحيف الاجتماعي والاقتصادي الذي طالما عانوا منه سواء زمن حكم المماليك أو في الفترة الثانية من حكم محمد علي باشا[3]. وقد نظرت العامة إلى العلماء نظرة احترام واجلال، ومن ذلك مثلا الاسراع باخلاء الطريق حيثما يمرون به[4].

ب- مكانة العلماء الاجتماعية وعلاقتهم بالعامة من خلال تراجم الجبرتي

خلافا لحكام مصر التي كانت نخبة أجنبية الأصول، كان العلماء ينتمون إلى السكان الأصليين لمصر متجذرين تجذرا عميقا في البلد عبر أصول غالبا ما كانت ريفية. وقد شكّل انتماء جمهرة العلماء إلى الدورة الاجتماعية الأهلية معطى بنيويا ثابتا وفّر شروطا مناسبة لتكوين شبكة علاقات راسخة بين مؤسسات العلم وتكوينات المجتمع المصري آنذاك. وبذلك تشكّلت قنوات تواصل عميقة ومتشعبة مع العامة[5]. وقد أهلّت هذه الخاصية العلماء لاحتلال مكانة ثابتة داخل تشكيلات المجتمع المصري ومكنتهم من النهوض بأدوار مختلفة استجابة لمختلف التحديات الداخلية والخارجية التي نأت بكلكل المجتمع المصري.

حافظت المؤسسة الدينية بمصر على وجودها عبر تواصل دور العلماء كحماة للشرع والعدل بما لديهم من زعامة تقليدية تستمد مقوماتها من روح الاسلام[6]. وبالتالي ظلّت المؤسسة الدينية محلّ جذب ورغبة وتقرب من من طرفين غير متكافئين واقعيا، من حيث مطالبهم وانتظاراتهم من هذه المؤسسة، كل هذه الامتيازات جعلت مؤسسة العلماء تحافظ على امتيازاتها. وقد رسمت سلطة العلماء الايديولوجية والروحية مكانة العالم لدى ممثلي السلطة ولدى العامة، فالعالم بسلطته الروحية محلّ خشية السلطة وملجأ الأهالي عند الأزمات. فكانت العامة تلتجأ إلى الأزهر ورجاله كلما اشتد بهم

---

[1] محمد عبد العزيز الشناوي، الأزهر ، *مرجع سابق*، ص.229.

[2] عمر بن عبد العزيز، *دراسات في تاريخ العرب الحديث والمعاصر*، بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، 1991، ص.52-53.

[3] للمزيد من التفاصيل انظر: رزق نوري، *الفساد في دولة محمد علي*، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 2010، هشام خضر، *محمد علي الوجه الحقيقي لمؤسس مصر الحديثة*، القاهرة، دار طيبة للطباعة، 2009.

[4] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص. 113.

[5] حسن الضيقة، *مرجع سابق*، ص. 112.

[6] عمر عبد العزيز، *مرجع سابق*، ص. 39

الحال لأنّهم أدركوا أنّ للعلماء زعامة شعبية تحسب لها السلط السياسية ألف حساب. خاصة وأنّ المماليك لم يجدوا في هؤلاء الشيوخ ما يهدد امتيازاتهم العسكرية والاقتصادية والسياسية فتركوا لهم مجال القيادة الدينية والتوجيه الثقافي.

إنّ ما شهدته مصر في ظلّ حكم المماليك، في الربع الأخير من القرن الثامن عشر من سياسات قهر وفساد سياسي واقصاء اقتصادي كان من أبرز نتائجه ترسخ مكانة العلماء في وسط تكوينات المجتمع وتطوير وظائفهم السياسية في مواجهة السلطة[1]. وقد كان لهذا التحوّل أثر مباشر في صياغة مواقف العلماء ابان الحملة الفرنسية واستمر هذا الدور بعد الاحتلال الفرنسي[2]. تظهر هذه المواقف مدى التعقيد والتنوع الذي لازم موقف مختلف شرائح العلماء وما ترتب على ذلك من نتائج سياسية متعددة.

وقد أشاد الجبرتي بتدخل عدد من العلماء في العهدين المملوكي والتركي خلال وقائع مختلفة وأحداث متعددة في الدفاع عن العامة بهدف تحقيق مصالح الناس وذلك بالتوسط لدى الطبقة الحاكمة. يذكر الجبرتي أنّه في عهد الوالي العثماني حسن باشا اشتكت الناس من غلاء الأسعار، فتدخل الشيخ العروسي للتوسط لدى الباشا طالبا منه رفع الظلم عن الناس والرفق بهم، فوقع الاتفاق على تشكيل لجنة مشتركة للنظر في المسألة حضرها الشيخ العروسي ممثلا للعامة، واتفقوا على تسعيرة الخبز واللحم والسمن وغير ذلك[3]. وترد في تراجم الجبرتي اشارات مهمة لأدوار العلماء ولمكانتهم الاجتماعية من ذلك مثلا ترجمة الشيخ علي أحمد بن مكرم الله العدوي (ت1189 هـ/1775 م) والذي كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ويكتبها، فإذا تجمعت لديه قائمة كبيرة بمطالب الناس ذهب بها إلى الأمير طالبا قضاءها والأمير لا يخالفه[4]. قاد العلماء في ظلّ السلطة المملوكية عدّة انتفاضات شعبية لمواجهة مختلف أشكال الظلم والاستغلال التي مارسها المماليك، وخاصة في اواخر العهد المملوكي عندما اشتد جور مراد بك وابراهيم بك. ولعل أبرز انتفاضتين كاشفتين لأبعاد هذا الصراع تمثلتا بثورة الشيخ أحمد الدردير سنة 1795 ثم الانتفاضة التي قادها نقيب الأشراف عمر مكرم في نهاية السنة ذاتها[5]. كما تحدث الجبرتي عن ثورتي القاهرة التي قادها العلماء ضدّ الادارة الفرنسية . فالثورة الأولى التي اندلعت في 21

---

[1]Afaf Marsot El-Sayyid Lutfi, « The role of the Ulama in Egypt the early nineteenth century », in *Political and social in modern Egypt, historical studies from the ottoman conquest to the united Arab republic,* by PM Holt, London, Oxford university press, 1968, pp.266-268.

[2] عبد العزيز محمد الشناوي، *صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي في مصر في أواخر القرن الثامن عشر*، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1971، ص. 53.

[3] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص.ص. 25-27.

[4] *نفس المرجع*، الجزء الأول، ص. 476.

[5] محمد عبد الكريم خفاجي، *مرجع سابق*، ص.ص. 89-90.

تشرين الأول 1798 قادها الشيخ محمد أبو الأنوار السادات، شيخ الطريقة الوفائية منذ سنة 1769، ومن ثمة شيخ مشايخ الطرق الصوفية[1]، في حين قاد الثورة الثانية التي انطلقت يوم 20 آذار 1800 نقيب الأشراف الشيخ عمر مكرم، الذي رسم له الجبرتي صورة أكثرا اشراقا مشيدا بالتزامه بالدفاع عن قضايا الأمة في مواجهة استبداد المماليك واحتلال الفرنسيين وظلم محمد علي باشا. وقد ذكر في الترجمة المطولة التي أوردها عنه في مصنف ***عجائب الآثار*** إلى أنّه ولد سنة 1750 في عائلة من أشراف أسيوط كانت نشطة في التجارة مع السودان وأنّه قد مارس وظائف مدير رواق الجوهرية بالأزهر ثم رواق الصعايدة، إلى أن تمّ تعيينه نقيبا للأشراف سنة 1794، ورغم كل ذلك فلم يجمع ثروة مساوية لثروة المشايخ الكبار في مرتبته عندما سيجري تصفية تركته سنة 1823 إذ ثبت انّها لا تتجاوز مليون باره وهو مبلغ جدّ متواضع مقارنة بغيره من الشيوخ[2]. جمعت شخصية نقيب الأشراف عمر مكرم بين ثلاث محطات تاريخية هامة، ولكل منها خصائصها المميزة، إنّ لجهة القوى السياسية والاجتماعية التي أسهمت في تكوينها، أو لجهة طبيعة التحديات التي فرضتها. كان الظهور الأول الأول لعمر مكرم في ميدان النشاط السياسي سنة 1795 حين اضطربت أحوال المجتمع في القاهرة من جراء طغيان المراء المماليك وما مارسوه من عنف واستغلال دفع الأهالي للخروج عليهم يقودهم في ذلك العلماء وعلى رأسهم السيد عمر مكرم. لقد أدّت هذه المواجهة إلى اجبار السلطة المملوكية على التراجع عما أحدثته من تجاوزات وسياسات ضريبية[3].

أما المحطة الثانية في تاريخ هذه الشخصية فقد برزت ابان الاحتلال الفرنسي عندما قاد عمر مكرم الانتفاضة الثانية سنة 1800 في مواجهة الاحتلال الفرنسي. وهنا استطاع أن ينهض بدور مركزي تمثل في قيادته لقوى المقاومة الشعبية من جهة والتنسيق مع المماليك والسلطة العثمانية من جهة ثانية[4]. أدى نهوض عمر مكرم بهذا الدور إلى تعاظم قوة حضوره السياسي إلى حدّ غدا صاحب الموقع الأساسي في إعادة بناء توازنات السلطة السياسية في مصر بعد رحيل المحتل[5]. استكملت هذه الشخصية دورها في

---

[1] توفيق الطويل، *التصوف في مصر ابان العصر العثماني*، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988، ص. 15.

[2] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص.ص. 167-193-226.

[3] Fareh (Majdi), *Confrontations et rencontres culturelles entre l'Orient et l'Occident en Egypte : de la Révolution et de l'expédition françaises à la renaissance égyptienne (fin XVIIIème - milieu XIX ème siècles)*, Fichier national de reproduction de thèse, ISSN : 0294-1767, 431 pages, Université de Lille III, 2006, pp.109-111.

[4] محمد عبد الكريم خفاجي، *مرجع سابق*، ص. 96.

[5] محمد عمارة، "محمد علي باشا والسيد عمر مكرم، صراع الدولة والأمة"، *مجلة الهلال*، عدد 10، 10، 1998، ص. 63.

المحطة الثالثة حيث أسهم عمر مكرم بأدوار سياسية عديدة توجها في سعيه إلى ايصال محمد علي إلى السلطة وتثبيت شرعيته من قبل السلطة العثمانية. ولكن علاقة الشراكة مع محمد علي لم تدم طويلا حيث عمد الأخير إلى نفيه في آب سنة 1809 وعند عودته إلى القاهرة سنة 1818 استقبل من الشعب استقبالا كبيرا، مما أثار شكوك محمد علي مرة اخرى فنفاه إلى طنطا سنة 1822 حيث توفي في السنة نفسها[1].

لقد استقطب هذا الاتجاه المنتصر للعامة والمدافع عن قضاياها قيادته من داخل الأزهر، مثل المدرس الشيخ اسماعيل البراوي والمدرس أحمد الشرقاوي، ومن خارج الأزهر مثل الشيخ عبد الوهاب الشبراوي الذي كان يدرس كتب الحديث في المشهد الحسيني والشيخ يوسف المصيلحي الذي كان يقوم بالتدريس في جامع الكردي[2]. وقد أتاحت هذه التحركات الاجتماعية للعلماء اقامة علاقات وثيقة بتكوينات المجتمع الأهلي وهو ما ألقى على كاهلها مسؤولية التصدي لما يواجهه الأهالي من صعوبات يأتي في طليعتها ما تمارسه قوى السلطة ولأجهزتها المختلفة من سياسات قاهرة تستدعي مواجهتها عبر أساليب وطرق تتناسب مع طبيعة التحديات المفروضة من قبل هذه القوى. وحتى أيام استبداد محمد علي باشا فقد ظلّ المشايخ ملجأ الناس في حالات الضنك. ففي أثناء الاعداد للحملة المصرية في الجزيرة العربية "...*حضر أهل رشيد يشتكون إلى السيد عمر، نقيب الأشراف، والمشايخ ويذكرون أنّ محمد علي باشا أرسل يطلب منهم أربعين ألف ريال فرانسة*..."[3]. وهو ما جعل المشايخ يشكلون وفدا طلب لقاء الباشا للتشاور معه ولتبليغه امتعاض الناس وتذمرهم من الغرامات المتتالية المسلطة عليهم والحال أنّهم في حالة ضنك شديد. ويذكر الجبرتي كيف كان محمد علي باشا يفرض الاقامة الجبرية على كبار المشايخ الذين عارضوا استبداده وانتصروا لمطالب العامة، كالشيخ عبد الله الشرقاوي الذي أمره بلزوم داره وأنّه لا يخرج منها إلا لصلاة الجمعة[4]. كما قام محمد علي باعداد مراسلات باسم المشايخ والرعية تشيد بعدله وباصلاحاته ليرفعها إلى الأستانة بعد أن أجبر ممثلي الرأي العام من العلماء على توقيعها دون الاطلاع على مضمونها وقد استفاد في ذلك من مواقف عدد من العلماء الذين قام باعفائهم من دفع ضريبة الفائض عن أملاكهم وضياعهم ومداخيل التزامهم[5].

---

[1] محمد عبد المنعم خفاجي، *مرجع سابق*، ص.99.
[2] محمد عبد العزيز الشناوي، *الأزهر جامعا وجامعة*، *مرجع سابق*، ص. 36.
[3] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثالث، ص. 250.
[4] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثالث، ص. 301، للمزيد من التفاصيل انظر: أحمد خاكي، "الجبرتي ومحمد علي"، ضمن أعمال ندوة عبد *الرحمان الجبرتي: دراسات وبحوث*، *مرجع سابق*، ص.391.
[5] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثالث، ص.ص. 300-301.

لا بدّ من الاشارة إلى أنّه منذ الحملة الفرنسية تطورت داخل الأزهر مواقف عدّة فالأزهر هو من المؤسسات الدينية التي جمعت وظيفة دعم السلطة باسم الاسلام ووظيفة حشد وتنظيم التمرد الشعبي باسم الاسلام أيضا[1]. وهو ما نلمسه من خلال تراجم مختلف العلماء الذين ترجم لهم الجبرتي في كتابه. فهناك موقف المقاومة للحملة الفرنسية والذي تألف من تحالف المؤسسات الدينية الرسمية المتمثلة بالمتعممين وبالأزهر وشيخه والمؤسسات الشعبية المتمثلة بالطرق الصوفية[2]. وقد ضمّت تراجم العلماء عددا من التراجم المخصصة للاولياء الصالحين الذين ظهرت لهم كرامات تتبرك بها العامة وقد ترجم الجبرتي للعديد منهم مثل الولي أحمد بن حسن النشرتي الشهير بالعريان (ت1184هـ/1771م): "...*يعتقده الخاصة والعامة وتأتي الأمراء والأعيان لزيارته والتبرك به ويأخذ منهم دراهم كثيرة ينفقها على اللفقراء المجتمعين عليه*..."[3]. أما الاتجاه الآخر والذي مثّله علماء الدواوين التي أقامها نابليون والذين شاركوا فيها بحجة الدفاع عن مصالح الأهالي فسرعان ما نبذوا من قبل العامة وتراجع دورهم فيما بعد ولم يعودوا إلى الساحة إلا في مرحلة لاحقة عندما استخدمهم محمد علي كغطاء شرعي في سياسته الآيلة إلى الاستفراد بالسلطة واخراج الزعامة السياسية الشعبية التي مثلها الشيخ عمر مكرم ومن معه. إنّ *مشايخ الوقت* هؤلاء على حد تعبير عبد الرحمان الجبرتي، كانوا تعبيرا عن جانب الاختلال داخل مؤسسة الأزهر بما هو تجسيد لحالة تواصل مع مشروع السلطة القاهرة وذلك في مواجهة جمهرة العلماء الآخرين التي وجدت في الأهالي الاطار التاريخي لانتماءاتها وخياراتها الفقهية والسياسية[4].

وقد سبق للعامة أن رفضت مواقف بعض الشيوخ الذين هادنوا الفرنسيين وقبلوا تعيين بونبارت لهم في الديوان الذي أنشأه بعد هزيمة المماليك سنة 1798. ويؤرخ الجبرتي لموقف الجمهور من هذه الشريحة في قوله: "... *وسبوهم وشتموهم وضربوا الشيخ عبد الله الشرقاوي* (رئيس الديوان) *والشيخ موسى السرسي ورموا عمائمهم وأسمعوهم قبيح الكلام وصاروا يقولون هؤلاء المشايخ ارتدوا وعملوا فرنسيس ومرادهم خذلان المسلمين*...".[5] اقتصر هذا الاتجاه على نخبة من العلماء الأزهريين الذين احتلوا مواقع عليا داخل مباني السلطة، ولكن هذا الموقع وما يرتبط به من

---

[1] طارق البشري، *الخلف بين النخبة والجماهير ازاء العلاقة بين القومية العربية والاسلام*، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1982، ص. 280.

[2] وضاح شرارة، *حول بعض مشكلات الدولة والثقافة والمجتمع العربية*، بيروت، دار الحداثة، 1980، ص.181.

[3] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، الجزء الثاني، ص.403.

[4] حسن الضيقة، "الطهطاوي وعقيدة التحديث"، *الفكر العربي*، السنة السابعة، العدد 45، بيروت، مارس 1987، ص. 128.

[5] عبد الرحمان الجبرتي، *مرجع سابق*، ص.221.

امتيازات شتى على حساب قوى المجتمع، جعلهم في وضعية هامشية بالنسبة لباقي شرائح العلماء. ولعل هذا ما جعل نابليون يخطىء في تقديره لمواقف واتجاهات وتكوينات المجتمع المصري فانطلاقا من ظنّه بأنّ الشريحة العليا من العلماء تمثّل فيما اتخذته من مواقف، العامة، اعتبر أنّ أعضاء الديوان قد وفروا لاحتلاله غطاء شرعيا[1]. غير أنّ تداعيات الأحداث أثبتت خطأ هذا التقدير، فما اتخذه أعضاء الديوان من مواقف، كان تعبيرا عن وضعية الشريحة التي ينتمون إليها ولم يكن هذا الديوان ليشمل شرائح جمهرة العلماء المنخرطة في دورة الاجتماع العامة. لهذا السبب نلحظ أنّ مختلف شرائح العلماء المتموضعة خارج مدار هذه النخبة شكّلت مركز الثقل الأساسي في مواجهة الاحتلال خاصة إبان ثورتي القاهرة[2].

إذا ما تتبعنا جملة الأدوار التي نهضت بها جمهرة العلماء من خلال تراجم الجبرتي يمكننا أن نقرّ بأنّ هذه الجماعات قد تجاذبتها مواقع واتجاهات شتى ائتلفت مع اتجاهات القوى السياسية والهيئات الاجتماعية بمصر آنذاك. وقد ترتب عن هذه الوضعية بلورة حالة من التنوع والتمايز في المواقف والأدوار تجاه جملة القضايا التي طرحت في تلك الحقبة. أتاح تنوع مواقف العلماء الذي بلغ حدّ التناقض احيانا للمؤرخين بناء سلسلة من التصورات النظرية المختلفة عن أدوارهم ومواقفهم خاصة أنّ الشواهد التاريخية التي تكشف الوضعية الالتحاقية للعلماء بالسلطة السياسية كثيرة. ولكن بموازاة ذلك تكثر الشواهد التي تؤكد اندراج العلماء في الدورة الاجتماعية جنبا إلى جنب مع العامة كقوة أهلية موازية لقوة السلطة وبالتالي تتولى وظيفة كبح جماحها والحدّ من مظاهر استبدادها.

الخاتمة

تؤمن لنا القراءة المتأنية لطبقات العلماء في مصر من خلال مصنف ***عجائب الآثار في التراجم والأخبار*** التأكيد على محورية الموقع الذي احتلته شرائح العلماء بمصر ضمن البنيان الاجتماعي العام كما تفيد في تعيين خصوصية هذا الموقع وما انطوى عليه من تعقيدات شتى. وتحصننا هذه القراءة من الوقوع في الخطأ الشائع الذي ينحو باتجاه تقنين وضعية العلماء ضمن اطار مؤسسي موحد لأننا نلاحظ وجود نوع من التفاوت والتمايز في وضعية هذه الطبقات، انطلاقا من تعددية وتمايز العوامل المساهمة في رسم الأطر الموجهة والناظمة لأنشطتها التشريعية والسياسية والاجتماعية[3]. ولذلك لا بدّ من تطوير منهجيات مقاربة مركبة، كي نستطيع تعين وتتبع

---

[1] ليلى عنان، *الحملة الفرنسية في محكمة التاريخ*، القاهرة، دار الهلال، الجزء الثاني، ص.ص. 109-116.

[2] للمزيد من التفاصيل انظر: محمد عبد العزيز الشناوي، *صور من دور الأزهر في مقاومة الاحتلال الفرنسي لمصر في أواخر القرن الثامن عشر*، القاهرة، مطبعة دار الكتب، 1971.

[3] حسن الضيقة، *مرجع سابق*، ص. 127.

مختلف الاتجاهات التي سلكتها جمهرة العلماء في تعاملها مع أحداث عصرها الداخلية والخارجية منها من أزمات ومظاهر استبداد سياسي واستنزاف اقتصادي ومراحل احتلال أجنبي. كما تكمن أهمية مصنف الجبرتي في تقديمه لكم هائل من المعلومات حول فترة مازالت بحاجة إلى مزيد من البحث فالملاحظ أنّه بقدر ما تتوفر الدراسات على ما اصطلح على تسميته مطلع النهضة العربية منذ سنة 1798 وما بعدها فإنّ الفترة السابقة التي مهدت لها وهي الفترة المملوكية العثمانية المتأخرة مازالت بحاجة إلى مزيد من البحث لأنّها الخلفية الاجتماعية والتاريخية التي ورثت عنها مجتمعات النهضة عديد الخصائص وظواهرها المؤثرة وذلك بحكم تواصل السياق التاريخي المجتمعي غير القابل للتجزئة القاطعة بين حقبة وأخرى مهما طرأت عليه من أحداث[1]. وقد اثبتت الدراسات التاريخية المقارنة الحديثة أهمية التوقف عند تأثيرات الفترات السابقة في الحراك أو التغير السوسيوثقافي الذي عرفته، بحيث تأتي كل نهضة منطبعة بميسم خلفيتها التاريخية في نوعية تكوينها المجتمعي الحديث ونظمها الجديدة.

تزداد قيمة تراجم العلماء والمشايخ على طريقة الجبرتي الدقيقة لأنّها تطرح اشكاليات على غاية من الأهمية وتتناول مؤسسة من أهم المؤسسات في العالم الاسلامي وتؤرخ لفئة تتزعم حماية الشريعة وتطبيق الأحكام ورغم ذلك فهي لا تخلو من نقائص أولها اقتضاب بعض التراجم الهامة أو العكس عبر الدخول أثناء الترجمة في تفاصيل عديدة. وقد اعتنى الجبرتي بكبار العلماء على حساب صغارهم كما كان يسميهم ولم يفرد لهم حيزا كبيرا من تراجمه وهم المدرسين والمساعدين الذين يمارسون عملهم في الأزهر وفي المدارس والتكايا حيث يؤدون وظائف قضائية ويقودون الطرق كما كانوا يقومون بمهن صغرى ذات عائد ضعيف للتكسب منها، فمنهم من كان يعمل ناسخا أو خطاطا أو يقوم ببيع الكتب في حوانيت الكتب المجاورة لجامع الأزهر[2]. بالاضافة إلى ذلك فقد كان حضور العامة في تاريخ الجبرتي محدودا وهو ما اشترك فيه مع مؤرخي عصره فمن النادر أن يهتم مؤرخ في تلك الفترة بهذه الطبقة لذاتها باعتبارها كيانا مستقلا يستحق الانتباه. في كتاب الجبرتي يقترن ذكر العامة أو "*السوقة*" و"*أولاد البلد*" و"*الفلاحين*" و"*الحرافيش*" وأهل "*الحارات البرانية*" بحدوث الفتن والاضطرابات التي عادة ما يكونون وقودا لها، ثم لا يلبث ذكرهم أن يختفي في زحمة الأحداث[3].

---

[1] Majdi Fareh, Confrontations et …, op.cit, p.9.

[2] عبد العزيز محمد الشناوي، *الأزهر جامعا وجامعة*، *مرجع سابق*، ص. 232.

[3] محمد جابر الأنصاري، *تجديد النهضة باكتشاف الذات ونقدها*، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، 1992، ص. 149.

كتب الطبقات في اليمن في عهد الدول الشافعيّة الكبرى

(569-1171م/945 هـ/1538م)

محمد عبد الحميد سعيد
جامعة تونس

تعتبر الفترة التاريخيّة الممتدة في اليمن ما بين دخول الأيوبيين في منتصف القرن السابع ودخول العثمانيين في منتصف القرن العاشر من أكثر الفترات ازدهارا اقتصاديا وفكريا، ويعود ذلك إلى مشاركة البلاد في التجارة العالميّة التي أصبح أهم خطوطها يمرّ بمدينة عدن والبحر الأحمر، لذلك يمكن تسمية هذه الفترة ب"فترة التجارة الشرقيّة الكبرى" أو "فترة الحكم

السلطاني" أو فترة "الدول الشافعيّة الكبرى" التي تأتي مباشرة بعد ما يسمى ب"عصر الدول المستقلّة" الموالي بدوره لما يسمى "عصر الولاة". (1)

تميّزت "الفترة السلطانيّة" بانتعاشة فكريّة تجسّدت في كثرة المؤلفات ومن ضمنها كتب أخبار الدول وكتب الرجال أي كتب الطبقات والتراجم التي وضعها فقهاء المذهب الشافعي فتركوا لنا بذلك مجموعة من المؤلفات تسمح بكتابة التاريخ الإسلامي اليمني عامة وبالأخص خلال الفترة المذكورة، فما هي الخصوصيات العامة لهذه الفترة وما هي خصوصيات ومميزات كتب الرجال التي وضعت خلالها، وكيف تعامل معها الباحثون المهتمون بتاريخ اليمن؟.

الإطار العام الذي وضعت فيه كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة

شهدت اليمن خلال فترة الدراسة تداول ثلاث دول شافعيّة كبرى أولها الدولة الأيوبيّة التي حمل حكّامها لقب "سلطان" وكانوا يدينون بالولاء والتبعيّة للدولة الأيوبيّة في مصر، وامتدّت أيام حكمهم ما بين سنتي 569-626هـ/1171-1229م. (2)

تمكّن الأيوبيون عند حلولهم باليمن من القضاء على عدّة ممالك محليّة كانت موجودة في عدن وزبيد وصنعاء، وتمكنوا أيضا من إضعاف دولة أئمّة الزيديّة التي انحصر نفوذ حكّامها في أقصى اليمن الأعلى وزادهم انعزالهم عن خطوط التجارة العالميّة ضعفا(3). واستطاع بنو أيوب انطلاقا من مدينة

---

[1]- حول الفترتين المذكورتين يمكن العودة إلى المراجع التاليّة: عبد الرّحمن عبد الواحد الشّجاع، تاريخ اليمن في الإسلام في القرون الأربعة الهجريّة الأولى، مكتبة الإحسان، صنعاء، 1427هـ/ 2006 م. صدرت طبعته الأولى سنة 1417هـ/ 1996م. محمد عبده محمد السروري، الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في اليمن في عهد الدويلات المستقلة، من سنة 429 هـ/ 1037 م إلى 626 هـ/ 1228م، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء 1425هـ/ 2004م.

Radhi Daghfous, *Le Yaman Islamique, des origines jusqu'à l'avènement des dynasties autonomes*. (Ier - III^{ème} s. / VII^{ème} - IX^{ème} s.), T. 1-2, Tunis, 1995.

[2]- حول الأيوبيّين في اليمن، انظر: جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيّال، القاهرة، ج 1، 1953م، ج 2، 1957م، ج 3، 1960م، ج 4-5، تحقيق حسنين محمد ربيع، مراجعة وتقديم سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة 1975م. بدر الدّين محمد بن حاتم اليامي الهمداني، السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن، تحقيق ركس سميث، لندن 1974م. جمال عبدولي، اليمن في العهد الأيوبي دراسة في التاريخ السياسي والاقتصادي والحضاري، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الأستاذ راضي دغفوس، كليّة العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس 2000م.

[3]- تمتدّ منطقة اليمن الأعلى في الهضبة اليمنيّة من ذمار جنوبا إلى صعدة شمالا، وقد تمكّن أئمة الزيديّة من استرجاع صنعاء خلال أيام ضعف بني رسول وكذلك خلال أيام ضعف بني طاهر. حول هذه الدولة التي تأسست في اليمن سنة 284 هـ/899م على يد الإمام القاسم بن إبراهيم، وحول المذهب الزيدي أنظر: القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، الزيديّة نشأتها ومعتقداتها، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، 1418هـ/1997م. أحمد شوقي إبراهيم العمرجي، الحياة السياسيّة والفكريّة للزيديّة في المشرق الإسلامي، 132-365هـ/749-975 م، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2000م.

Van Arendonk, (G), *Les débuts de l'imamat Zaidite au Yémen*, (Traduit par Jacques Ryckmans), Leyde 1960.

تعز التي اتخذوها عاصمة أن يمهّدوا البلاد ويوفّروا الظروف الملائمة لنمو مدينة عدن التي جهّزوها للقيام بدور كبير في التجارة الشرقيّة الكبرى. [1]

انتقل الحكم سنة 626هـ/1229م من بني أيوب إلى أحد أمرائهم وقادتهم العسكريين وهو السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول التركماني الأصل الذي استغلّ ضعف الدولة الأيوبيّة في مصر واستقلّ عنها، ووضع أسس "دولة سلطانيّة" جديدة حكمها خلفاؤه إلى سنة 858هـ /1454م مستفيدين من الإرث الإداري والعسكري للأيوبيين ومستفيدين خاصة من الدور الكبير الذي أصبحت تقوم به اليمن في التجارة العالميّة، وقد دعّموا نفوذهم باستزلام أعيان البلاد من العلماء ومشائخ القبائل وبالانتقال إلى المذهب الشافعي،[2] وبتبني نسب محلي غساني،[3] وتمكنوا من توسيع نفوذهم الذي امتد في أقصى توسّعه من ظفار الحبوضي جنوبا إلى الحجاز شمالا.[4]

انتهى الحكم الرسولي لليمن سنة 858هـ/1454م، في ظرفيّة صعبة ناتجة عن الحصار التجاري الذي فرضته مصر على البلاد اليمنيّة، [5] وتركوا الحكم إلى وكلائهم وأعوانهم من أبناء طاهر بن معوضة وهم من كبار التجّار المحليين الذين أثروا نتيجة سيطرتهم على تجارة الفوّة في أسواق عدن [6].

---

[1]- انظر في هذا المجال: عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، "الأمير الزنجيلي وأعماله العمرانيّة في ثغر عدن"، أشغال ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، 18 - 19 يناير 2011م، ص 11-30. محمّد كريم إبراهيم، "الفعاليّات الاقتصادية لميناء عدن خلال القرنين الخامس والسّادس الهجري"، المؤرّخ العربي، عدد 35، بغداد 1988م، ص 179-203. "الإنجازات العمرانيّة لنائبي بني أيّوب في عدن عثمان بن علي الزّنجيلي والمعتمد التّكريتي"، التّراث، عدن، 1992م، عدد 5. "إنجازات الأيّوبيّين في تشجيع وحماية التّجارة والتجّار في ميناء عدن 569-631 هـ/1173-1228م"، التّراث، عدد 4، عدن 1992م، ص 33–48.

[2]- انتقل السلطان المؤسس للدولة الرسوليّة من المذهب الحنفي إلى المذهب الشافعي وأشاع أنّه تلقى أمرا نبويا في منامه بالتحول إلى هذا المذهب. الجندي، السلوك، ج 2، ص 542. الخزرجي، العقود، ج 1، ص 85.

[3]- حول مسألة نسب هذه الأسرة أنظر: محمد عبد الحميد سعيد، "هاجس التيمّن والشرافة في سلسلة نسب الأسرة الرسوليّة من خلال العقود اللؤلؤيّة للخزرجي"، أشغال الملتقى الدولي الثالث حول "النسب والشرف في العالم العربي الإسلامي والبلدان المتوسطيّة"، تونس ديسمبر 2004م، اشراف راضي دغفوس، المجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، تونس 2007م، ص 140-163. وحول دولة بني رسول أنظر: ابن حاتم، السمط. أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة، تحقيق محمد الأكوع الحوالي، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، دار الآداب، بيروت، 1403هـ/ 1983م، ج 1-2. محمّد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجيّة في عهدهما، (628-963هـ/1231-1517م)، الإسكندريّة 1980م.

[4]- حول سيطرة اليمن على الحجاز أنظر: ابن حاتم، السمط، ص 204 - 207، 214 - 219. الخزرجي، العقود ، ج 1، ص 49- 50، 60 - 62، 64 - 65، 68 - 69. وحول سيطرتهم على ظفار الحبوضي أنظر:ابن حاتم اليامي، السمط، ص505- 529. الخزرجي، العقود، ج 1، ص 181- 188.

[5]- حول هذا الحصار الذي أفضى إلى نهاية بني رسول أنظر: محمد عبد الحميد سعيد، "رحلات الناخوذه إبراهيم الهندي من قالقوط إلى جدّة"، أشغال الملتقى الدولي الرابع "الرحلة والرحالة في العالم العربي الإسلامي، 26 -28 أكتوبر 2006، المجلّة التونسيّة للعلوم الاجتماعيّة، مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعيّة بتونس، عدد خاص 2010م، ص 257-285.

[6]- الفوّة هي مادة صباغيّة نباتيّة ازدهرت زراعتها في اليمن منذ العهد الأيوبي وكانت أهم سلعة تجاريّة شاركت بها اليمن في التجارة الخارجيّة. يقول بامخرمة في ترجمة التاجر الصالح محمد

حكم سلاطين بني طاهر البلاد وتمكّنوا من إضعاف أئمة الزيديّة مستفيدين مثل أسلافهم من علاقاتهم بأعيان البلاد وعلمائها ومن موارد التجارة الخارجيّة وتواصلت أيام دولتهم إلى حين قدوم قوات المماليك الجراكسة إلى اليمن في إطار المواجهة مع البرتغاليين في البحر الأحمر والمحيط الهندي، وقد تمكّن الجراكسة من احتلال المدن المنيّة الواحدة تلوى الأخرى بفضل تفوّقهم العسكري وخاصة بفضل امتلاكهم للسلاح الناري وذلك أمام عجز السلطان الظافر صلاح الدين عامر بن عبد الوهاب الذي سقط قتيلا قرب مدينة صنعاء سنة 923 هـ/1517م. [1]

انتهت الدولة الطاهريّة مع نهاية الملك الظافر صلاح وأخيه في حين بقيت عدن تحت سلطة أحد أبناء الأسرة وهو عامر بن داود الذي لقي حتفه على يد العثمانيين الطارئين على المنطقة سنة 945 هـ/1538م، [2] وذهبت بذهابه أيام هذه الأسرة التجاريّة، بل ذهبت في نفس الوقت أيام عدن وأيام الوساطة العربيّة في التجارة الشرقيّة الكبرى في إطار تاريخي تميّز بالصراع بين البرتغاليين ومماليك مصر ثمّ خلفائهم العثمانيين. [3]

تميّزت فترة الدراسة إذا بمشاركة اليمن السلطاني في التجارة الشرقيّة الكبرى التي ربطت بين عالم المحيط الهندي والعالم المتوسطي عبر طريق البحر الأحمر، والتي بدأت في الانتعاش منذ العهد الفاطمي في مصر وتواصلت خلال العهدين الأيوبي والمملوكي، وانتهت كما ذكرنا بوصول

باحنان الحضرمي أنّه كان من أثرياء تجار عدن، وأنّه كان " يكره استيلاء المشايخ بني طاهر على عدن ويتمنى أن يميته الله قبل أخذهم لها، وإذا سئل عن ذلك قال إذا دخلوا عدن أبطلوا علينا المتجر وجعلوا عدن زريبة للفوّة لأنهم نشأوا على التكسّب والتجارة وعرفوا فيها من المصالح فلا يتركوا ذلك". أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، ج 1، تحقيق عبد الغني علي الأهجري، ج 2، تحقيق عبد الرحمن محمد جيلان صغير، ج 3، تحقيق محمد يسلم عبد النور، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ/ 2004م. هذا الكتاب هو حصيلة ثلاثة رسائل ماجستير قدّمت بكلية الأدب جامعة صنعاء على التوالي سنة 2002م وسنة 2003م وسنة 2005م وقد أشرف عليها د. عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع. ج3، ص 3578-3579.

[1]- حول الدولة الطاهريّة، أنظر: عبد الرحمن بن علي الديبع الشيباني، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، (طبعة تشمل كتاب الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد)، تحقيق يوسف شلحد، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، دار العودة، بيروت، 1403هـ/1983م. قرّة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد الأكوع الحوالي، بيروت 1988م. محمّد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر. رفيعة عطيّة بوسلامة، اليمن في العهد الطاهري: السياسة والمجتمع، رسالة لنيل الدكتوراه، إشراف الأستاذ راضي دغفوس، كلية العلوم الإنسانيّة الاجتماعية تونس، 2006م.

[2]- بعد السيطرة على مصر دخل الأسطول العثماني البحر الأحمر لمواجهة البرتغاليين واستولى على اليمن. أنظر: عبد الصمد بن إسماعيل الموزعي اليمني، الإحسان في دخول مملكة اليمن تحت عدالة آل عثمان، منشورات دار المدينة، بيروت 1407هـ/ 1986م. قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، البرق اليماني في الفتح العثماني، أشرف على طبعة حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض 1387هـ/1967م. محمّد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 543-548.

[3]- حول الصراع البرتغالي الإسلامي، أنظر: أحمد زين الدين المعبري المليباري، تحفة المجاهدين في أحوال البرتغاليين، تحقيق محمد سعيد الطريحي، مؤسسة الوفاء، بيروت 1405هـ/ 1985م.

البرتغاليين إلى السواحل الهنديّة والعربيّة وإلغاء الوساطة العربيّة في هذه التجارة.

شاركت اليمن منذ العهد الأيوبي بكثافة في هذا النشاط بسلعها التجاريّة وخاصة الخيول والفوّة وبرجالها، وخاصة الأسر الحاكمة، وبمدنها المنائيّة وعلى رأسها عدن التي لعبت دور السوق ودور ميناء تغيير حمولة، واستفادت الدول المتعاقبة على حكم البلاد اليمنيّة من خلال المشاركة المباشرة في هذا النشاط ومن خلال العشور الموظّفة على البضائع المتبادلة أو العابرة، وهو ما مكّن سلاطين هذه الدول وخاصة خلال الفترة الرسوليّة من الحصول على موارد ماليّة سمحت لهم بترسيخ نفوذهم السياسي والعسكري، كما سمحت لهم بتشييد عدد كبير من المدارس والمساجد والخوانق [1] والإنفاق بسخاء على العلم والعلماء وخاصة في الحواضر الكبرى في مجال نفوذهم السياسي والعسكري. [2]

لئن امتدّ النفوذ السياسي والعسكري للسلاطين في أيام مجدهم وخاصة خلال الفترة الرسوليّة من ظفار الحبوضي على ساحل المحيط الهندي جنوبا إلى مكّة شمالا ليشمل منطقتي ظفار وحضرموت وكذلك الهضبة اليمنيّة والحجاز مقابل تقلّص نفوذ الأئمّة في صعدة وأنحائها، فإنّ نفوذ هؤلاء السلاطين انحسر في فترات ضعف بني رسول وفي أغلب أيام بني طاهر ليقتصر على ما يسمى اليمن الأسفل والمتكون من جنوب الهضبة اليمنيّة ومن سهول تهامة وهي المناطق الأكثر ثراء نتيجة الأمطار أو السيول والأكثر حيويّة نتيجة المشاركة في التجارة الشرقيّة الكبرى.

---

[1] - تجاوز عدد المدارس التي أنشأت في اليمن في العهد الرلسولي مائة وعشرين مدرسة. حول هذه المسألة وحول الحياة الثقافيّة في اليمن أنظر: إسماعيل بن علي الأكوع، المدارس الإسلاميّة في اليمن، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1406هـ/1986م. عبد العزيز بن راشد السنيدي، المدارس اليمنيّة في عصر الدولة الرسوليّة 626-858 هـ/1229-1454م، جدّة، 1424هـ/ 2003م. محمد بن نوح بن ثامر المطيري، أثر المساجد في الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسوليّة، (626 - 858 هـ / 1228- 1454 م) دراسة تاريخية حضارية، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. محمد بن علي بن مسفر عسيري، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، كلية العلوم الاجتماعية، المملكة العربيّة السعوديّة، 1429هـ/2008 م.

[2] - حول الدور اليمني في التجارة الشرقيّة الكبرى أنظر: محمد عبد الحميد سعيد، "دور اليمن في التجارة الشرقيّة الكبرى من سنة 825هـ/1422م إلى سنة 923هـ /1517م"، نشر ضمن تحيّة تقدير متوسطيّة لأندري ريمون، جمع وتقديم عبد الجليل التميمي، منشورات التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، أوت 2007م. "مشكلة المياه في مدينة عدن في فترة نشاط التجارة الشرقيّة الكبرى عبر اليمن"، الكراسات التونسية، عدد 201-202، تونس 2007م. الحياة الاقتصادية في اليمن في عهد بني رسول، بحث لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الأستاذة منيرة شابتو الرمادي، تونس 1998م.

Eric Vallet, *L'Arabie marchande: état et commerce sous les sultans rasūlides du Yémen (626-858/1229-1454)*, Publications de la Sorbonne, Paris 2010. Roxani Margariti and Peter van Alfen «Arabia Felix et Maritima: The Trade and Maritime Legacy of Yemen », *INA Quarterly, Volume* 24 - No. 3 (1997) 18-23. Ashtor, (E), *Levant trade in the Middle Age*, New Jersey, 1983.

في هذه المنطقة توجد كبريات المدن اليمنيّة السلطانيّة وأكثرها أهميّة وهي عدن العاصمة التجاريّة وزبيد التهاميّة العاصمة الدينيّة والعلميّة وتعز النجديّة العاصمة السياسيّة.[1] وقد احتضنت هذه المدن الثلاث معظم المدارس السلاطينة وكذلك مدارس الملوك والأمراء والأميرات والأعيان[2]، في حين بقيت كلّ من صنعاء وصعدة خارج التأثير المدرسي السلطاني والسني عامة مثلها مثل منطقة حضرموت.[3] وفي هذه المدن الثلاثة نشط الفقهاء الشوافع وشيوخ الصوفيّة، وفيها وفي أحوازها ألّفت أغلب كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة موضوع الدراسة وكانت مظهرا من مظاهر انتعاشة فكريّة غير مسبوقة في تاريخ اليمن.

لقد أفضى الاهتمام بالعلم والمؤسسات العلميّة ورعاية العلماء المحليين والوافدين في العهدين الأيوبي والرسولي إلى حصول انتعاشة ثقافيّة تواصلت خلال العهد الطاهري، [4] وشهدت هذه الفترة بالخصوص تطوّرا ملحوظا للمذهب الشافعي على حساب بقيّة المذاهب السنيّة وتطورا للعقيدة الأشعريّة على حساب العقائد الأخرى وذلك بتشجيع من السلاطين وخاصة سلاطين بني رسول ثمّ سلاطين بني طاهر الذين شجّعوا أيضا الحركة الصوفيّة

---

[1]- اتخذ بنو طاهر من جُبَن ثم المقرانة (محافظة الضالع) عاصمة لهم بدلا من تعز الأيوبيّة والرسوليّة.

[2]- ساهمت الأميرات في اليمن السني وخاصة خلال العهد الرسولي في رعاية المؤسسات العلميّة والدينية، وقد أسست الأميرات عددا من المدارس يفوق عدد ما بناه السلاطين. حنان بنت قبع بن محمد جعوني، أثر نساء الأيوبيين والرسوليين في الحياة العامة في اليمن (569-858هـ/1174-1454م)، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، أشراف د. محمد بن علي بن مسفر عسيري، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/2008م.

[3]- هذا لا يعني أنّ بقيّة اليمن كان خال من النشاط العلمي بل أنّ شمال الهضبة اليمنيّة عرف إلى جانب النشاط العلمي المسجدي نشاطا خاصا فيما يعرف ب"هجر العلم"، وهي معاقل كانت تحت التأثير الإمامي وتحت تأثير المذهب الزيدي، في حين كثرت ظاهرة الرباطات في حضرموت. أنظر إسماعيل بن علي الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1416هـ /1995م.

[4]- رياض علي سعيد المشرقي، التعليم في اليمن وفي عصر الدولة الطاهرية من 858 – 923هـ حتى 1454-1519م، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ/ 2004م. وهذا العمل هو في الأصل رسالة نال بها الباحث شهادة الماجستير من كليّة التربيّة بجامعة صنعاء سنة 2001م. علي بن علي بن حسين الشرفي، الحياة العلميّة في مدينة تعز وأعمالها في عصر الدولة الرسوليّة، رسالة ماجستير، أشراف د. طلال بن جميل الرفاعي، جامعة أمّ القرى، كليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة،1414هـ/ 1994م. عبد الله قائد حسن العبادي، الحياة العلميّة في مدينة زبيد وأعمالها في عصر الدولة الرسوليّة (626 - 858 هـ / 1228-1454م)، رسالة ماجستير، إشراف طلال جميل الرفاعي، جامعة أمّ القرى، كليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة مكّة 1416هـ/1995م. مأمون قائد خالد حسن العمري، تطور الحياة الفكرية في اليمن من القرن الأول وحتى القرن السابع من خلال كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي، بحث لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د.عبد الرحمن عبد الواحد الشجاع، جامعة عدن، كلية الآداب، 1430هـ/2009م.

واستفادوا من هذه المذاهب والعقائد والطرق في تدعيم سلطاتهم في وجه أئمّة الزيديّة. [1]

كما كانت غزارة الإنتاج العلمي من بين أهمّ مظاهر هذه الانتعاشة الثقافيّة حيث وضعت المؤلفات الفقهيّة والعقديّة إلى جانب عدد كبير من المؤلفات العلميّة كالطب والبيطرة والفلاحة والفلك وكذلك كتب الأنساب والتاريخ والتراجم والطبقات، وقد كان سلاطين بني رسول من بين المؤلفين الذين ساهموا في هذه الحركة. [2] نشط الفقهاء الشوافع بشكل كبير في هذه الحركيّة وعملوا على نشر مذهبهم ونشر العقيدة الأشعريّة، كما وضعوا مؤلفات في تاريخ اليمن وتراجم أعيانه من أمراء وملوك وسلاطين وخاصة علمائه وبالأخص منهم علماء المذهب الشافعي الذين حفلت بهم مؤلفات الطبقات والتراجم التي سنتناولها بالبحث والدراسة، فما هي مكانة وخصائص هذه المؤلفات؟.

مكانة كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة ضمن المؤلفات التاريخيّة في اليمن السلطاني وأهم خصائصها

وضع أهل السنّة في اليمن خلال فترة الدراسة عدّة مؤلفات تاريخيّة تسمح بالتعرّف على تاريخ اليمن الإسلامي عامة وعلى تاريخه خلال فترة التجارة الشرقيّة الكبرى خاصة، ونشط الإخباريون إلى جانب مؤلفي التراجم والطبقات، وجمع بعضهم بين الكتابة في الصنفين أو تضمينها في كتاب واحد، ولكنّنا نعتقد من خلال اهتماماتنا البحثيّة ومن خلال اطلاعنا على فهارس المؤلفات اليمنيّة أنّ ما وقع تأليفه في تاريخ الرجال وأخبارهم وسيرهم ومآثرهم ومناقبهم فاق ما وقع تأليفه في تاريخ الدول وأخبارها. [3]

---

[1]- جمال عبد الحبيب عبد القوي الكلدي اليافعي، المذهب الشافعي في اليمن، رسالة لنيل شهادة الماجستير، إشراف د. شايف عبد سعيد مكرد، كليّة الآداب، جامعة عدن، 2009م. نشرت هذه الرسالة في دار الوفاق للدراسات والنشر، عدن 1433هـ/ 2012م. عبد الله محمد الحبشي، الصوفيّة والفقهاء في اليمن، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، 1396هـ/ 1976م. أيمن فؤاد سيّد، تاريخ المذاهب الدينيّة في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري، القاهرة، الدار المصرية اللبنانيّة، 1988م.

[2]- عبد الله محمد الحبشي، حياة الأدب اليمني في عصر بني رسول، صنعاء، منشورات وزارة الإعلام والثقافة، 1980م. حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، بيروت، 1399هـ/1979م. وضع علماء الزيّديّة الذين عاشوا خلال فترة الدراسة عدّة كتب في سير الأئمّة ومنها عدد كبير من السير المفردة، وأغلبها مؤلفات مخطوطة. أنظر: عبد الله محمد الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، أبو ظبي، 1425هـ/ 2004م، ص 468-558.

[3]- **أنظر على سبيل الذكر:** الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن. عبد الله بن حسين بن محمد العيدروس، عبد القادر بن صالح ابن شهاب، فهرس مخطوطات مكتبة الأحقاف بمحافظة حضرموت الجمهوريّة اليمنيّة، مكتبة اية الله العظمى المرعشي النجفي الكبرى، قم 1425هـ/ 2004م. حسين بن عبد الله العمري، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار، دمشق 1985م. أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، نشر المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1974م.

أمّا بالنسبة للمؤلفات التاريخيّة المنشورة التي تعود إلى فترة الدراسة فقد أحصينا أربعة عشر كتاب إخباريا من بينها أربعة كتب جمعت بين الأخبار والتراجم، مقابل سبعة عشر كتابا في تاريخ الرجال من ضمنها الكتب الأربعة الجامعة بين تاريخ الدول وتاريخ الرجال، فما هي هذه الكتب ومن هم أصحابها وما هي أهمّ الخصائص التي تتصف بها أعمالهم. [1]

تتضمّن هذه الدراسة إذا التعريف بسبعة عشر كتاب مختص في أخبار الرجال أو جامع بينها وبيه أخبار الدول، وقد ألّفها خمسة عشر مؤرخا باعتبار كتابين لكلّ من المؤرخ أبي الحسن علي الخزرجي والمؤرخ بامخرمة، وكلّ هذه المؤلفات محقّقة ومنشورة، [2] وقد ضبطناها في الجدول التالي الذي يتضمّن العناوين وأسماء المؤلفين ووظائفهم ومكانتهم العلمية وتواريخ وفياتهم مع ذكر مصدر من مصادر تراجمهم:

كتب التراجم والطبقات اليمنيّة ومؤلفوها

المؤلف	وظيفةالمؤلف ومكانته العلمية	عنوان الكتاب	مصدر ترجمةالمؤلف
عمر بن علي بن سَمُرَة الجعدي (ت بعد 586هـ /1190م)	مؤرخ فقيه، ولي القضاء في عدة أماكن من مخلاف جعفر وأبين	طبقات فقهاء اليمن	الجعدي، **طبقات فقهاء اليمن**، ص 1-4، ترجمة ذاتيّة.
أبو عبد الله بهاء الدين محمد الجندي (ت 732هـ/ 1332م)	فقيه، عالم، مؤرخ، تولى القضاء في بلدة موزع والحسبة في عدن،وزبيد وغيرهما،	السلوك في طبقات العلماء والملوك	**السلوك**، مقدمة المحقق،ج 1، ص 49-55.

---

[1]- أهملنا في هذه الدراسة كتابين هامين في تاريخ اليمن وتراجم رجالها هما: نجم الدين أبو محمد عمارى الحدقي الحكمي الشافعي اليمني، تاريخ اليمن المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد وشعراء ملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق محمّد بن علي الأكوع الحوالي، صنعاء، المكتبة اليمنيّة للنشر والتوزيع، 1405هـ/1985م، وقد توفي المؤلف سنة 569هـ/1174م، وهي سنة دخول الأيوبيين إلى اليمن. عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس الحسيني الحضرمي اليمني الهندي، النور السافر عن أخبار القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت 2001م، وقد توفي المؤلف سنة 978هـ/1038م أي بعد نهاية بني طاهر.

[2]- لم نتمكن من الاطلاع على تاريخ المعلم وُطَيْوِط الذي حقّقه الأستاذ الحبشي، واكتفينا بالرجوع إليه مخطوطا. الحسين بن إسماعيل البجلي، تاريخ المعلم وُطَيْوِط، مخطوط، مكتبة جامعة الملك سعود قسم المخطوطات، رقم 779، ف،2/1623. يذكر الحبشي وجود مخطوطات الكتاب في اليمن ومصر. الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص 498. والمؤلف هو فقيه ومؤرخ توفي بعد 800هـ/1397م، وينسب إلى قرية عواجة من عزلة الرامية العليا، في وادي سهام، في الجنوب الشرقي من مدينة الحديدة.

	وولي التدريس في عدة مدارس		
أبو المحاسن تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني (ت 743هـ/1342م)	مدرّس شاعر وزير ومؤرخ	إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين	الفاسي، **العقد الثمين**، ج 5 ، ص 321-324.
أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ثم المكّي الشافعي (768هـ /1366م)	شاعر ومؤرخ	مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة حوادث الزمان	الفاسي، **العقد الثمين**، ج 5، ص 104-115.
الأفضل عبّاس بن علي الرسولي (ت778هـ /1376م)	سلطان رسولي مؤلف	العطاياالسنّية والمواهب الهنيّة في المناقب اليمنيّة	الخزرجي، **العقود اللؤلؤيّة** ، ج 2، ص 111-138.
وجيه الدين عبد الرحمان بن محمد الحبيشي الجعبري الوصابي المذجحي (ت782هـ/1380م)	فقيه مؤرخ تولى القضاء في وصاب	تاريخ وصاب: الاعتبار في التواريخ والآثار	**طبقات الخواص**، ص 169-170.
الحسين بن إسماعيل البجلي (ت بعد 800هـ / 1397م)	فقيه ومؤرخ	تاريخ المعلم وُطَيْوِط	الحبشي،مصادر الفكر الإسلامي ص 498.
الأشرف إسماعيل الرسولي (ت 803هـ /1400م)	سلطان رسولي مؤلف	العسجد المسبوك	**العقود**، ج 2، ص 141-262.
أبو الحسن علي بن الحسن الخزرجي الزبيدي (ت 812هـ/1409م)	مدرّس وشاعر ومؤرخ بلاطي	ـ العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة ـ طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن ويعرف بـ "العقد الفاخر الحسن في طبقات	ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج 2، ص 441.

	أكابر اليمن "		
مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادي (729 – 817هـ)	فقيه لغوي وقاضي قضاة اليمن	البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة	الضوء اللامع، ج 10 ص 79-86
أبو زكريا يحي بن أبي بكر العامري الحرضي الشافعي اليماني (ت893هـ /1488م)	محدّث أديب ومؤرخ، له معرفة بعلوم عديدة.	غربال الزمان في وفيات الأعيان	الضوء اللامع، ج 10، ص 224
بدر الدين أبو محمد حسين بن عبد الرحمن (ابن الأهدل) (ت 855هـ /1451م)	"كان إماما علامة فقيها مفتيا متضلعا من العلوم راسخا في كثير من المنقول والمعقول مؤيدا للسنة قامعا للبدعة"	تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن	الضوء اللامع، ج 3، ص 145-147.
أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي الزبيدي الحنفي (ت 893هـ /1488م)	محدث البلاد اليمنية في عصره.	طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص	الضوء اللامع، ج 1، ص 214-215.
عبد الوهّاب بن عبد الرّحمان البريهي السّكسكي اليمني (ت 904هـ /1498م)	عالم، فقيه، ومؤرخ كثير التنقل للدراسة	طبقات صلحاء اليمن المعروف باسم تاريخ البريهي	الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي، ص 495-496.
أبو محمد الطيب بن عبد الله بامخرمة (ت 947ه / 1540م)	مؤرخ، فقيه شافعي، محدث، مدرّس ومفتي، تولى القضاء مدة في دولة بني طاهر	- تاريخ ثغر عدن - قلادةالنحر في وفيات أعيان الدهر	الضوء اللامع، ج 5، ص 8-9.

تعود أغلب المؤلفات المجدولة إلى العهد الرسولي الذي ألّف خلاله اثنا عشر كتابا، في حين ألفت أربعة كتب خلال العهد الطاهري، ووضع كتاب واحد خلال العهد الأيوبي، وهو ما يعكس الحركيّة الفكريّة التي تميّزت بها الدولة الرسوليّة مقارنة ببقيّة الدول اليمنيّة. أمّا على الصعيد الجغرافي فإنّ أغلب الكتب ألفت داخل اليمن باستثناء كتاب "مرآة الجنان" لليافعي و"إشارة

التعيين" لابن عبد المجيد، وسنبيّن تأثير ذلك على طبيعة هذه المؤلفات ونوعيّة الرجال الذين ترجمت لهم.[1]

أمّا المؤلفون فكلّهم من أبناء اليمن من حيث الأصل أو مكان الولادة باستثناء الفيروزأبادي صاحب القاموس الشهير والذي وفد في عهد السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي وعاش طويلا في اليمن وتوفي به،[2] وتولى منصب القضاء الأكبر، وهو ما يوحي بسعة علمه مثله في ذلك مثل أغلب المؤلفين الآخرين الذين تولوا القضاء أو التدريس والإفتاء، وكان من ضمنهم من تولى السلطنة ونعني بذلك كلّ من السلطان الأفضل عباس وابنه الأشرف إسماعيل.[3]

كما ينتمي كلّ المؤلفين الذين اعتمدنا كتبهم إلى المذهب الشافعي باستثناء الشرجي وهو فقيه حنفي، لذلك وجد العلماء الشوافع مكانة مرموقة في مؤلفات الطبقات والتراجم تجعلنا قادرين على معرفة ظروف ومناطق انتشار هذا المذهب في اليمن ومعرفة كبار رجاله والمؤلفات التي وضعت فيه ومعرفة علاقته بالسلاطين. كما كانت لأغلب المؤلفين علاقة قويّة بالصوفيّة من حيث الانتماء أو الميولات وهو ما يفسّر كثرة الحديث عن الكرامات وغيرها من المناقب في مختلف المؤلفات التي عدنا إليها، كما يفسّر كثرة المؤلفات التي خصّصت لنشر مناقب بعض العلماء وأهل التصوّف والتي لا تزال مخطوطة.[4]

---

[1]- أبو محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي ثم المكّي الشافعي، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان**، المعروف **بتاريخ اليافعي**، وضع حواشيه خليل المنصور، بيروت، دار الكتب العلمية ،1417هـ / 1997م، أربعة أجزاء. تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، **إشارة التعيين في طبقات النحاة واللّغويين**، تحقيق عبد المجيد دياب، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة 1406هـ/1986م.

[2]- الخزرجي، **العقود**، ج 2، ص 218-219، 229، 235، 238، 244، 249، 250 ،255. الأهدل، **تحفة الزمن**، ج 2، ص 327-328. البريهي، **صلحاء اليمن**، ص 293-298. شمس الدين محمد السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، دار الجيل بيروت، 1412هـ/ 1992م، ج 10، ص 79-86.

[3]- حكم الأفضل ضرغام الدّين عبّاس بن علي ما بين سنتي 764- 778 هـ / 1363- 1376م. انظر ترجمته في: الخزرجي، **العقود**، ج 2، ص 111- 138. محمّد عبد العال أحمد، **بنو رسول و بنو طاهر**، ص 208 - 216. وحكم الأشرف ممهّد الدنيا والدين إسماعيل بن العبّاس ما بين سنتي 778 - 803 هـ/ 1376- 1400م. انظر ترجمته في: الخزرجي، **العقود**، ج 2، ص 141- 262. محمّد عبد العال أحمد، **بنو رسول و بنو طاهر**، ص 217 - 232.

[4]- ألّف اليمانيون عدّة كتب في مناقب الأولياء والصلحاء وأئمة المذاهب خلال فترة الدراسة لكنّ هذه الكتب لا تزال مخطوطة، وقد ذكر الحبشي عددا منها مثل "خلاصة المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني" ويسمى أيضاً "أطراف عجائب روض البراهين" مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد برقم 133، 1 مجاميع أخرى أزهر 1596. و"مناقب الشافعي"، مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد 1885/2 وهما لعبد الله بن أسعد اليافعي المتوفى 768 هـ. الحبشي، مصادر الفكر الإسلامي في اليمن، ص486. عبد الله بن عبد الرحمن باوزير "التحفة النورانية في مناقب الشيخ عبد الله بن أبي بكر العيدروس" (ت 865 هـ) ضمنه استطرادات في مناقب السيدة فاطمة والإمام علي، مخطوط بمكتبة الحسيني بتريم بحضرموت. الحبشي، مصادر، ص 498.

أمّا بالنسبة لترتيب المادة التاريخية في الكتب المجدولة فتراوح بين الترتيب المعجمي والترتيب الزمني الذي يعتمد وفايات أصحاب التراجم، كما تراوح بين البساطة والتعقيد في بعض الأحيان، ذلك أنّ المؤلفات الخمسة التي رتّبت مادتها على حروف المعجم سهّلت على مطالعها مهمّة الوصول إلى التراجم المطلوبة، مثلها في ذلك مثل المؤلفات الأربعة التي رتّبت التراجم حسب السنين، حيث لا تتطلّب غير معرفة سنة وفاة صاحب الترجمة أو على الأقل العشريّة التي توفي فيها، وهو ما ينطبق أيضا على كتاب "قلادة النحر" لبامخرمة، فهذا الكتاب رتّب المادة التاريخيّة حسب الطبقات والسنوات في نفس الوقت وقسّم القرن إلى خمسة طبقات تمتدّ كل طبقة منها على عشرين سنة، وهو سهل الاستغلال أيضا رغم خلو طبعته من فهارس الأعلام. [1]أمّا بقيّة الكتب فألّفت حسب الطبقات دون تحديد المدّة الزمنيّة للطبقة، وهي من أصعب المؤلفات استغلالا لولا وجود فهارس الأعلام في آخرها حيث تتطلّب معرفة الفترة التي عاش خلالها صاحب الترجمة وفي أحيان كثيرة المدينة أو القرية التي توفي فيها نظرا لترتيب المادة على الطبقات والمنطقة الجغرافيّة في نفس الوقت مثلما هو شأن "تاريخ المعلم وُطَيْوِط" وتاريخ الجندي والأهدل والبريهي.[2]

ترتيب المادة التاريخيّة في كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة

مؤلفات رتبت التراجم على الطبقات	مؤلفات رتبت التراجم على الطبقات والسنين	مؤلفات رتبت التراجم على السنين	مؤلفات رتبت التراجم على حروف المعجم
طبقات فقهاء اليمن	قلادة النحر	غربال الزمان	العطايا السنّية والمواهب الهنيّة
السلوك		العقود اللؤلؤيّة	العقد الفاخر الحسن
طبقات صلحاء اليمن		العسجد المسبوك	طبقات الخواص
تحفة الزمن		مرآة الجنان	تاريخ ثغر عدن
تاريخ المعلم وطيوط			إشارة التعيين

1- بامخرمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر، سبق ذكره.

2- أبو عبد الله بهاء الدين محمد الجندي، السلوك في طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، ج 1، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1414هـ/ 1993م، ج 2، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، 1409هـ/ 1989م. بدر الدين حسين بن عبد الرحمن الاهدل، تحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، أبو ظبي، 2004م. عبد الوهّاب بن عبد الرّحمان السّكسكي البريهي اليمني، طبقات صلحاء اليمن المعروف باسم تاريخ البريهي، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، صنعاء، مكتبة الإرشاد، 1414هـ/ 1994م.

تاريخ وصاب			

أمّا أصحاب التراجم فهم من اصطلح على تسميتهم ب"الأعيان" أو "الفضلاء" أو "السادات"، والأعيان وهم حسب وصف الجندي "رؤساء الدارين"، [1] أي العلماء والملوك وهم كذلك حسب السلطان الأفضل عباس كبار "العلماء الراشدين، والكبراء الأمجدين، والرؤساء الأسعدين في إقليم اليمن، ولا سيما من كان في حكم واسطة القلادة وكان أهلا للعلم والإفادة"، [2] أو "الفقهاء الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية والملوك والأصوليين والنحاة والصوفية"، حسب الأهدل.[3]

على أنّ بعض المؤلفات اقتصرت على صنف من الأعيان أو الفضلاء مثلما هو شأن كتاب "البُلغة" للفيروزأبادي، و"أشارة التعيين" لابن عبد المجيد الذين اقتصرا على اللغويين والنحاة.[4] أمّا كتاب الشرجي المسمى "طبقات الخواص"[5] فترجم لأصحاب الفضل والمناقب من الأولياء والصلحاء مثله في ذلك مثل "تاريخ المعلّم وُطَيْوِط"، ومثل عدد من المؤلفات التي لم تصلنا سوى عناوينها. [6]

تصنيف المؤلفات حسب اختصاص أصحاب التراجم

تراجم الأعيان بما فيهم العلماء	تراجم العلماء أساسا	تراجم الصوفية	تراجم النحاة واللغويين
مرآة الجنان وعبرة اليقضان	طبقات فقهاء اليمن	طبقات الخواص	إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين
العطايا السنّية والمواهب الهنيّة	السلوك		البُلغة

---

[1]- الجندي، السلوك، ج 1، ص 59-67.

[2]- السلطان الأفضل عباس بن علي الرسولي، العطايا السنيّة والمواهب الهنيّة في المناقب اليمنيّة، تحقيق عبد الواحد عبد الله أحمد الخامري، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء 1425هـ/ 2004م، ص 141.

[3]- الاهدل، تحفة الزمن، ج1، ص 23.

[4]- مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد الفيروزابادي، البلغة في تراجم أئمة النحو واللغة، تحقيق محمد المصري، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1421هـ/2000م. (نقحها وتوسع فيها حسان أحمد راتب المصري.)

[5]- أحمد بن أحمد بن عبد اللطيف الشرجي، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، تحقيق عبد الله محمد الحبشي، صنعاء، الدار اليمنيّة للنشر والتوزيع، بيروت، دار المناهل للطباعة والنشر والتوزيع، 1406هـ/ 1986م.

[6]- من بين هذه الكتب: شهاب الدين أحمد بن بكر بن سلامة الموزعي (من علماء القرن الثامن)، "الروض الأغن في معرفة الصالحين بأرض اليمن". كمال الدين موسى بن أحمد الذؤالي (ت 904 هـ)، "طبقات الصالحين من أهل اليمن"، الحبشي، **مصادر**، ص 488، ص 499.

غربال الزمان في وفيات الأعيان	تاريخ وصاب: ملوك اليمن وفقهاء وصاب ومشايخها	تاريخ المعلم وطيوط	
العقود اللؤلؤيّة	تحفة الزمن		
العقد الفاخر الحسن	طبقات صلحاء اليمن		
العسجد المسبوك			
قلادة النحر			
تاريخ ثغر عدن			

ينتمي الأعيان أو الفضلاء الذين ترجمت لهم أغلب المؤلفات المدروسة إلى شخصيات يمنيّة أو شخصيات وفدت إلى اليمن وتوفيت به أو غادرته بعد مدّة وتركت فيه فضلا ومآثر تذكّر بها، وقد بلغ عدد المؤلفات المهتمّة بهذا الصنف من الرجال ثمانية، في حين اهتمت ستّة كتب بأعيان اليمن ضمن مجموعة واسعة تضمّ "أعيان" البلاد الإسلاميّة، بل أنّ أعيان المسلمين عامة أخذت المكانة الأولى في بعض المؤلفات كما هو الشأن في "إشارة التعيين" لابن عبد المجيد وفي "مرآة الجنان" لليافعي وكذلك في كتاب "البلغة" للفيروزأبادي، في حين اهتمت ثلاث مؤلفات بمدن أو جهات يمنيّة مثلما هو الشأن بالنسبة لكتاب "تاريخ ثغر عدن" لبامخرمة الذي ترجم للأعيان العدنيين أو الذين دخلوا المدينة من اليمن أو من خارجه، [1] واهتم كتاب "تاريخ وصاب" [2] برجال هذه المنطقة وخاصة منهم العلماء إلى جانب ذكره للملوك والسلاطين الذين حكموا الجهة، في حين اكتفى صاحب كتاب "تاريخ المعلم وطيوط" بمشايخ سهام وأعيان جهة ذؤال، واستطرد لغيرهم من المشايخ والملوك والسلاطين.

تصنيف المؤلفات حسب أصول أصحاب التراجم

تراجم يمنيّة وإسلامية	تراجم يمنيّة أو من دخل اليمن	تراجم رجال مدينة أو منطقة معيّنة
مرآة الجنان وعبرة اليقضان	طبقات فقهاء اليمن	تاريخ ثغر عدن
إشارة التعيين	السلوك	تاريخ وصاب

[1]- أبو عبد الله الطيّب بن عبد الله بن أحمد بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن وتراجم علمائها**، تحقيق علي حسن علي عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، دار عمّار، عمان، 1408هـ/ 1987م.

[2]- وجيه الدّين عبد الرّحمان الحبيشي الوصابي، **تاريخ وصاب**، المسمّى **الاعتبار في التّواريخ والآثار**، تحقيق عبد الله محمد حبشي، صنعاء، 1979م.

العسجد المسبوك	العطايا السنّية	
غربال الزمان في وفيات الأعيان	العقود اللؤلؤيّة	
البُلغة	العقد الفاخر الحسن	
قلادة النحر	تحفة الزمن	تاريخ المعلم وطيوط (مشايخ سهام وأعيان جهة ذؤال)
	طبقات صلحاء اليمن	
	طبقات الخواص	

يتضّح ممّا تقدّم أنّ كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة لا تختلف من حيث الموضوع ومن حيث الترتيب عن المؤلفات التي وضعت في بقيّة البلدان الإسلاميّة الأخرى، ولكنّ اهتمامها برجال اليمن هو ما يمثّل أهميّتها وإضافاتها الأساسيّة بالنسبة للباحثين المعاصرين، ذلك أنّ أهل اليمن لم يجدوا دائما الحظّ الوافر في كتب التراجم المعروفة باستثناء ما ورد في بعض المؤلفات الحجازيّة والمصريّة المتأخرة التي اهتمت باليمانيين نتيجة للعلاقات الوثيقة بين بلاد اليمن ومكة من جهة وبينها وبين مصر من جهة ثانية، ويعتبر كلّ من الفاسي وابن فهد وابن حجر العسقلاني والسخاوي أكثر من ترجم لأعيان اليمن من العلماء والملوك. [(1)] هذه النزعة المحليّة والمذهبيّة الطاغيّة على أغلب المؤلفات المجدولة تعتبر أهمّ ما يميّزها عن المؤلفات الإسلاميّة. كما تتميّز كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة بتدخّل السلاطين في التأليف في هذا الصنف سواء بطريقة مباشرة أو بالتأثير بشكل ما على المؤلفين رغم كثرة ما وقع تأليفه خارج البلاط، وهي مسائل تستحق النظر والدراسة.

غلبة النزعة المحليّة والنزعة المذهبيّة والابتعاد عن تأثير السلاطين في أغلب كتب التراجم والطبقات اليمنيّة:

بالنسبة لأسباب هذا التوجّه المحلي يمكن أن نفهمها من خلال مقدمات هذه الكتب التي يسعى بعضها من خلال كتابة التاريخ إلى أن نصرة المذهب الشافعي من خلال تبيين "وجه اتصال الفقه برسول الله (ص) مع ما يندرج فيه من ذكر تاريخ فقهاء اليمن وغيرهم" مثلما هو حال الجعدي صاحب أوّل

---

[1]- تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي، **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق محمد حامد الفقي- فؤاد سيّد، محمود محمد الطناحي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1406هـ/1986م. النجم عمر بن فهد بن محمد بن محمد، **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق وتقديم فهيم محمد شلتوت، ط 1، القاهرة، سفنكس للطباعة، الكتاب العشرون من سلسلة التراث الإسلامي، إصدار مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، 1404هـ/1983م. شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، طبعة دار الجيل، بيروت، 1414هـ/1993م. **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق حسن حبشي، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1389- 1419هـ /1969- 1998م. السخاوي، **الضوء اللامع**، سبق ذكره.

كتاب في تراجم فقهاء السنّة، [1] والذي "رسم لنفسه منهجا تاريخيا يتضمّن ذكر كلّ من تولى الأحكام والقضاء والفقه في هذه الفترة من الزمان مع إيراد ما أمكنه الحصول عليه من أخبارهم وحياتهم ومصنفاتهم وأهم الأحداث التاريخيّة المتصلة بذلك"، [2] ولكنّه مع ذلك "أضاف إلى ما أورده من تراجم الكثير من المعلومات التاريخيّة الهامة وبخاصة في أحداث العصر الذي عاش فيه ممّا لا يوجد عند غيره من المؤرخين"، [3] كما أضاف أخبار "بعض العلماء من غير اليمنيين ممن تلقى عنهم صاحب الترجمة التي يؤرخ لها، أو ورد ذكرهم استطرادا فيترجم لهم". [4]

أمّا من جاء بعد من المؤرخين وخاصة الجندي وابن الأهدل فكانت لهم نفس غايات الجعدي أي نصرة المذهب الشافعي، حيث يؤكدان على ما للتاريخ من فضل في إيصال "علم السلف إلى من خلف" وفي تمييز "ذوي الهداية عن أهل الصلف". كما تبرز عندهما النزعة إلى نشر المحاسن اليمانيّة من خلال شرح وتأكيد "قوله صلى الله عليه وسلم الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية". ومن هذا المنطلق يقول الجندي "فأحببت حينئذ وضع كتاب أجمع فيه غالب علمائه وأذكر مع ذكر كل ما ثبت من حاله مولدا ونعتا ووفاة بعد أن أضم إلى ذلك إشارة من اعتقد أن إشارته حكم وطاعته غنم، فاعتمدت ذلك متقربا بالإشارة وراجيا من الله الإعانة، ثم عرض لي أن متى عرض مع ذكر أحد من العلماء ذكر أحد من الأعيان ذكرت من حاله ما لاق ثم أضفت إلى ذلك طرفا من أخبار الملوك وجعلته مختصرا أريد بذلك جعل الكتاب جامعا لذكر الفريقين ورؤساء الدارين، وبدأت بالعلماء لقوله تعالى: (والملائكة وأولو العلم) وثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين". [5]

وقد وردت هذه الغايات ذاتها وبنفس العبارات تقريبا في مقدّمة الأهدل الذي كان تعويله كبيرا على كتاب السلوك للجندي: حيث قال مفسرا اختياره الترجمة للعلماء والملوك: "فلهذا الفضل الثابت للعلماء والملوك تكون الرغبة في ذكر تواريخهم لنقلهم السنن، وحاجة أهل العلم، وأصحاب الآثار إلى تحقيق أحوالهم لأخذهم العلم عنهم والاستضاءة بهم في دنياهم ودينهم، لنقتدي بالأحسن من هديهم". [6] ويمكن أن نضيف إلى هذه الرغبات عدم اهتمام المؤلفات المتقدّمة التي وضعت خارج اليمن بعلماء هذا البلد وفقهائه ممّا دفع بأهله إلى سدّ هذه الثغرة مثلما صرّح به الفقيه الحنفي الشرجي صاحب كتاب

---

[1]- عمر بن علي بن سمرة الجعدي، **طبقات فقهاء اليمن**، تحقيق فؤاد سيّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1401هـ/1981م، مقدّمة المحقّق.

[2]- **نفس المصدر**.

[3]- **نفس المصدر**.

[4]- **نفس المصدر**.

[5]- الجندي، **السلوك**، ص 59-67.

[6]- الأهدل، **تحفة الزمن**، ج 1، ص 26.

"الخواص" الذي وقف على كتب المتقدمين فوجدها قد أهملت ذكر أهل اليمن، ووقف على كتب أهل اليمن كالجعدي والجندي والخزرجي فوجدها لا تستوفي أحوالهم وأقوالهم ومناقبهم وكراماتهم، وفي ذلك يقول: "فلم أر أحدا منهم تعرّض لذكر أحد من أهل اليمن من السادة الصوفيّة الصادقين والعلماء الزاهدين وإنّما يذكرون أهل الشام والعراق والمغرب ونحو ذلك، وهذا ربّما يوهم عند من لا معرفة له بأحوال هذا الإقليم المبارك أنّه ليس فيه من هو مستحقّ الذكر ولا من هو متصف بصفات الأولياء، وأنّى يكون ذلك وغالب أهل اليمن أهل إيمان صادق، وقلوب واعية رقيقة وصلاح ظواهر وصفاء بواطن، بشهادة قول رسول الله (ص) "أهل اليمن أرقّ قلوبا وألين أفئدة، الإيمان يمان والحكمة يمانيّة" إلى غير ذلك مما روي عنه (ص) في فضائلهم على العموم، فكيف بالرجال منهم أهل العلم والعمل والمعرفة والأحوال..... فلما كان كذلك أحببت أن أجمع كتابا أفرد به ذكر الأولياء من أهل اليمن وأبيّن فيه أحوالهم وأقوالهم ومناقبهم وكراماتهم لعل الله تعالى أن ينفعني بهم وأن يشملني ببركتهم.... وإنّما تصديت لذلك واعتنيت به لما لم أجد من قد تعرّض لشئ من ذلك سوى ما يذكره المؤرخون على سبيل الاستطراد لا على سبيل التخصيص والإفراد، ولا يستوفون أحوالهم ولا أقوالهم كما ذكر الجندي في ترجمة الشيخ الكبير علي الأهدل والشيخ أحمد الصياد وغيرهم".[1]

وفي بعض الأحيان تضيق النزعة اليمنيّة إلى نزعة بلدانيّة أو إقليميّة مثلما هو الشأن في "تاريخ وصاب" الذي اختار مؤلفه أن يضع تاريخا إقليميا ينشر فيه محاسن موطنه من خلال تناول أخبار ورجال وصاب دون غيرها من الأقاليم، [2] وكذلك فعل الحسين بن إسماعيل البجلي في كتابه المعروف باسم "تاريخ المعلم وُطَيْوِط " والذي خصّصه لتاريخ وتراجم صلحاء وادي سهام، وقد قدّم لهذا الكتاب قائلا: "أمّا بعد فقد سألني بعض الإخوان أن أجمع كتابا مختصرا لطيفا في مناقب مشايخ سهام وما جرى به القلم واللسان من أعيان فضلاء جهة ذؤال وذكر شيء في نسب ذؤال وما أمكن من ذكر الأعيان ولم أكن قاصدا في كتابي جميع فضلاء اليمن بل ما خطرني بثثته وما خطر ببالي رقمته غير مستوعبا لما شرحت ولا موسعا فيما شرطت بل مرادي أرقم في ديوان محبي الصالحين وأنظم في سلك المحشر نفع الله بمن سأذكرهم وبجميع الصالحين أينما كانوا..."[3]

أمّا بامخرمة صاحب "تاريخ ثغر عدن" فاختار أن يؤرخ لمدينة عدن ويترجم لأبنائها ولمن دخلها من أعيان العلماء والملوك والتجار، وقد بلغ عدد من ترجم لهم مرتبين على حروف المعجم ثلاثمائة واثنان وعشرون. وقدّم

---

[1]- الشرجي، **طبقات الخواص**، ص 34-36.

[2]- الحبشي، **تاريخ وصاب**، سبق ذكره، ووصاب هي منطقة جبليّة تقع في الجبال الغربيّة المطلة على تهامة ضمن محافظة ذمار.

[3]- البجلي، **تاريخ المعلم وُطَيْوِط**، مقدّمة المؤلف.

كتابه على أنّه "تعليق لطيف يتعلق بتاريخ ثغر عدن حرسها الله تعالى، جاء على قسمين: القسم الأول في ذكر شيء ممّا جاء فيها من الآيات والأحاديث والآثار والأشعار وغير ذلك من ذِكْرها وذكر سورها ومشهور دورها وباب برّها وما يُنسب إليها ممّا هو حواليها من الأماكن والمواطن. القسم الثاني في ذكر تراجم من نشأ بها أو وردها من العلماء والصلحاء والملوك والأمراء والتجار والوزراء..." [1] وتجدر الملاحظة أنّ المؤلفين اليمنيين قد وضعوا مؤلفات تقتصر أحيانا على رجال أسرة من الأسر شأن أسرة الناشري التي أعطت عددا كبيرا من العلماء الذين تولوا التدريس والقضاء في عهد بني رسول وبني طاهر، وحظيت بكتب في التراجم من وضع أبنائها، على أنّنا لا نعرف عن هذه الكتب سوى ما ذكرته المصادر والمراجع.[2]

على أنّ هذه النزعة المحليّة تتراجع كلّما تقدمنا في الزمن أو كلّما كان المؤلف على صلة وثيقة بالعالم الخارجي مثلما هو الشأن بالنسبة لليافعي وابن عبد المجيد والعامري، فالأوّل وهو اليافعي صاحب "مرآة الجنان وعبرة اليقضان في معرفة حوادث الزمان" وضع كتابا في الأخبار وتراجم الفقهاء والصلحاء والأمراء المسلمين من السنة الأولى للهجرة إلى سنة 750هـ/1350م، وقد انتقاه من أمهات كتب التراجم الإسلامية مثل "مرآة الزمان في تاريخ الأعيان" لسبط بن الجوزي (ت654هـ/1256م)، وكتاب "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان" لابن خلكان (ت 681هـ /1282م)، ومؤلفات الذهبي (ت748هـ/1347م)، كما اعتمد على كتاب "طبقات فقهاء اليمن" للمؤرخ اليمني ابن سمرة الجعدي (ت بعد 1190/586م). وقد أراد من عمله أن يكون مختصرا عاما في التاريخ والتراجم، وهو ما عبّر عنه في مقدمة الكتاب حيث يقول واصفا عمله: "فهذا كتاب لخصته واختصره مما ذكره أهل التواريخ والسير أولو الحفظ والإتقان في التعريف بوفيات بعض المشهورين المذكورين الأعيان وغزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشيء من شمائله ومعجزاته ومناقب أصحابه وأموره وأمور الخلفاء والملوك وحدوثها في أي الأزمان على وجه التقريب لمعرفة المهمّ من ذلك دون الاستيعاب واستقصاء ذكر الأوصاف والأنساب ... مودعه أشياء من

---

[1]- بامخرمة، **تاريخ ثغر عدن**، ص 11. من ضمن المؤلفات البلدانيّة التي وصلتنا أخبارها كتاب الفقيه المدرس أبي عفان عثمان بن محمد الشرعبي (ت718هـ) والكتاب في تراجم فقهاء مدينة تعز. الحبشي، **مصادر**، ص 483.

[2]- الكتب المقصودة هي: "غرر الدرر في مختصر السير وأنساب البشر" لمحمد بن عبد الله الناشري المتوفى 821 هـ ، الحبشي **مصادر**، ص 491. "البستان الزاهر في طبقات بني ناشر" لعثمان بن عمر الناشري (ت 848هـ/1445م)، وذيله "البستان الزاهر في طبقات علماء بني ناشر" لتقي الدين أبو العباس حمزة بن عبد الله بن محمد الناشري (ت 926هـ/1520م)، السخاوي، **الضوء اللامع**، ج 5، ص 134-135، ج 3، ص 164.

الغرائب والنوادر والظرف والملح ملتقطا ذلك من نفائس جواهر نوادر الفضلاء ..." [1]

لقد كانت آفاق اليافعي أوسع من آفاق معاصريه من المؤرخين اليمنيين لأنّه عاش أكثر أيامه خارج اليمن متنقلا بين المراكز العلميّة الكبرى كالحجاز ومصر والشام دارسا ومُدرِسا في مؤسساتها العلميّة لذلك كانت اهتماماته أوسع من اهتمامات بقيّة المؤلفين مثله في ذلك مثل ابن عبد المجيد الذي وضع كتابا في تراجم النحاة واللغويين في القاهرة سنة 733هـ فجاءت اهتماماته إسلاميّة واسعة، حيث يقول: "فإنّي أحببت أن أضع مختصرا لطيفا، يترجم عن أحوال النحويين واللغويين، ممّن اشتهر بمصنّف مطوّلا كان أو مختصرا على سبيل الإمكان فيما بلغني علمه ليعلم الناشئ في الصناعة أرباب هذه البضاعة ومن تقدّمه من أؤلائك الجماعة على سبيل الاختصار متجنبا في الاطالة والإكثار مرتّبا على حروف المعجم ليكون أسهل للكشف...." [2]

ومثلما هو شأن كتاب "إشارة التعيين" كان كتاب "البلغة" للفيروزأبادي شاملا لنحاة ولغويين من مختلف البلاد الإسلاميّة ومن ضمنها البلاد اليمنيّة. على أنّنا لا نعرف بالضبط مكان تأليف الكتاب ولكنّ اتساع الآفاق العلميّة لهذا المؤلف ورحلاته العديدة واهتماماته اللغويّة قد جعلته ينوّع تراجمه ويوسّع آفاقها الجغرافيّة. ونشير إلى أنّ ابن عبد المجيد يعود إلى النزعة اليمنيّة عندما يضع كتابا إخباريا في تاريخ اليمن بطلب من أحد ملوكه وهو كتاب "بهجة الزمن" الذي ألفه بطلب من أحد ملوك بني رسول. [3] كما ظهرت النزعة اليمنيّة في كتاب ألّفه الفيروزآبادي في اليمن، وهو كتاب "تحفة القماعيل فيمن يسمى من الملائكة والناس اسماعيل"، وقد تقرّب به لولي نعمته السلطان الأشرف إسماعيل الرسولي.

ومثلما اتسعت آفاق اليافعي في تاريخه وابن عبد المجيد في تراجمه اتسعت أيضا آفاق المؤرخ محي الدين عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس الذي عاش وتوفي في الهند بعد فترة الدراسة (ت1038هـ/1628م)،

---

[1]- أبو محمد عبد الله بن أسعد اليمني المكي اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزّمان المعروف بتاريخ اليافعي، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ/1997م، ج 1، ص 7. لليافعي كتاب آخر يعكس اهتماماته الإسلاميّة والواسعة هو كتاب روض الرياحين في حكايات الصالحين الملقب بنزهة العيون النواظر وتحفة القلوب الحواضر في حكايات الصالحين والأولياء الأكابر، مكتبة ومطبعة مصطفة البابي الحلبي وأولاده، القاهرة 1955م.

[2]- ابن عبد المجيد، إشارة التعيين، ص 3. وقد ترجم فيه لنحوي يمني من عدن، كما ذكر بعض النحويين الذين دخلوا بلاد اليمن.

[3]- تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني، **بهجة الزّمن في تاريخ اليمن**، تحقيق عبد الله محمد الحبشي ومحمد أحمد السنباني، دار الحكمة اليمانيّة، صنعاء 1408هـ/ 1988م. وقد وضعه بطلب من الملك الظاهر الثائر على ابن عمّه السلطان المجاهد علي. ومن المعلوم أنّ عبارة "الملك" تطلق في العهد الرسولي على أبناء السلاطين.

وظهر ذلك في كتاب "النور السافر عن أخبار القرن العاشر" والذي يقول في مقدّمته: "وبعد هذا نموذج لطيف وعنوان شريف ذكرت فيه وفيات من ظفرت بتاريخ وفاته ممن مات في هذا القرن الذي أوله سنة إحدى وتسعمائة ختم بالحسنى من سائر العلماء والصلحاء والقضاة والأدباء والملوك والأعيان مصريا كان أو شاميا حجازيا كان أو يمنيا روميا أو هنديا مشرقيا أو مغربيا وضممت إلى ذلك ذكر بعض الحوادث والمجريات والحكايات العجيبة والملح الغريبة، ولا يعدم كل شخص من نادرة جرت له من الأخبار وشعر نظمه من الأشعار على وجه الاختصار وما يحصل من الاعتبار ممّا ذكرته، ...وأرجو أن يكون هذا الكتاب كتاب حديث وفقه وتاريخ وأدب." [1]

كما تضعف النزعة المحليّة عند بعض المؤرخين المتأخرين عن الجعدي والجندي والخزرجي مثلما هو شأن المؤرخ اليمني الشافعي يحي بن أبي بكر بن محمد العامري الحرضي (ت893هـ /1488م) صاحب كتاب "غربال الزمان في وفيات الأعيان" حيث جاء كتابه خلاصة شديدة الإيجاز في التاريخ والتراجم مرتّبة بحسب السنين من العام الأول للهجرة إلى عام 749 للهجرة دون أن يقتصر على أهل اليمن،[2] ولعلّ شعوره بأنّ أهل اليمن قد وجدوا حظّهم في ما تقدّم من المؤلفات عكس ما شعر به المؤرخون المتقدمون هو ما جعله يهتم بعلماء البلاد الإسلاميّة الأخرى إلى جانب علماء اليمن.

ومثلما كان المجال الجغرافي وتاريخ التأليف من العوامل التي تؤثر على اختيارات المؤلفين وعلى محتويات التراجم فإنّ العلاقة مع البلاط ساهمت أيضا في هذه الاختيارات، ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أنّ أغلب كتب الطبقات والتراجم المجدولة قد كتبت بعيدا عن تأثيرات السلاطين على عكس أغلب كتب الإخباريين اليمانيين. ويمكن أن نبيّن هذه التأثيرات من خلال ترجمة الشيخ أبي الفداء إسماعيل بن محمد الحضرمي (ت 676 هـ/ 1278م، التي تختلف بعض تفاصيلها بين المؤلفات البلاطيّة وعلى رأسها كتاب "العطايا السنيّة" و"العقود اللؤلؤيّة" وبقيّة المؤلفات المتعاطفة مع شيوخ العلم والتصوّف مثلما هو شأن كتاب "السلوك"، وكتاب "مرآة الجنان" وكتاب "طبقات الخواص". فلئن أجمعت هذه المصادر المتنوّعة على فقهه وصلاحه ونزاهته وشدّته في الحقّ ورغبته في تغيير المنكر، وعلى مكانته

1- عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس الحسيني الحضرمي اليمني الهندي، **النور السافر عن أخبار القرن العاشر**، تحقيق أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر، بيروت 2001م، ص17. لم نذكر هذا الكتاب ضمن الكتب المجدولة نظرا لأنّ صاحبه عاش كما ذكرنا خارج فترة الدراسة، ولكنّنا أشرنا إليه بمناسبة الحديث عن تأثير مكان التأليف على نوعيّة الرجال المترجم لهم.

2- يحي بن أبي بكر بن محمد العامري الحرضي اليماني، **غربال الزمان في وفيات الأعيان**، تحقيق محمد بن ناجي زعبي العمر، إشراف القاضي عبد الرحمان بن يحي الإرياني، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق 1405هـ/1985م.

بين العلماء والصلحاء والسلاطين، فإنّها لا تتعرّض إلى كراماته وإلى علاقاته بالسلطنة بنفس الكيفيّة والعبارات. في هذا المجال يذكر اليافعي أنّ العلماء كانوا يقبلون قدمه عند التحيّة،[1] ويضيف أنّه كان "صاحب كرامات باهرة وبركات ظاهرة"، حيث أنّه كان يخاطب الموتى في قبورهم، ويذكر له كرامات أخرى "منها وقوف الشمس له حتى بلغ مقصده لما أشار إليها بالوقوف في آخر النهار... ومنها أنّه شوهدت الكعبة في الليل تطوف بسريره في حال يقظة المشاهد، ومنها أنّه نادته سدرة والتمست منه أن يأكل هو وأصحابه من ثمرها، ومنها شفاعته في قوم سمعهم يعذبون في المقابر". [2]

على أنّ المصادر البلاطيّة التي لم تنكر فضل الشيخ وعلمه لم توغل في ذكر هذه الكرامات التي ترفع من شأنه، كما أنّها تختلف في رواية الأحداث الخاصة بالعلاقة بينه وبين المظفر يوسف، حيث تشير المؤلفات المنحازة للشيخ أنّه كان شديد الجرأة على السلطان المذكور، وأنّه قبِل منصب القضاء الأكبر في تهامة بطلب مُلحّ منه، وأنّه "كان هو السلطانُ ما أمر به السلطانَ كان". [3] أمّا سبب انعزاله عن القضاء فتعيده المصادر المتعاطفة مع الشيخ إلى تراجع السلطان عن وعده بإبطال الخمر، حيث يقول الجندي أنّ الشيخ لمّا علم بهذا الأمر "كتب اليه في شقف، وقيل بعظم: "يا يوسف قد عزلت نفسي"، وأمر بذلك الى أمير خاندار رسولا وقال ابلغ ذلك الى السلطان فلم يطق أمير خاندار كتم ذلك بل بعث به الى المظفر فحين وقف عليه علم ان لا طاقة على رده فأضاف قضاء التهايم إلى القاضي محمد بن اسعد الملقب ببهاء الدين مع قضاء الجبال". [4]

لكنّ المصادر البلاطيّة تسكت عن هذه الرواية وترجع انعزال الشيخ إلى ما رآه لدى زوج أخته قاضي زبيد من آثار النعمة نتيجة منصبه فقرّر خلعه من قضاء المدينة وانخلع بدوره من القضاء الأكبر خوف الوقوع في المحظورات. [5] ويضيف الخزرجي سببا غيبيّا ذكره الجندي وتغافل عنه صاحب "العطايا السنيّة" وهو أنّه "خوطب يا إسماعيل رضيت بالنزول عن التسمي بالفقه إلى التسمي بالقضاء.... وقيل بل كان كثير التردد إلى تربة الشيخ الصالح أحمد بن أبي الخير الصياد، وكان قد يجد عندها دليلاً على صلاح حالهِ فنوجي هنالك بذلك، فعزل نفسه من القضاءِ." [6]

كما تسكت المؤلفات البلاطيّة عن أخبار تجرؤه على السلطان المظفر يوسف في حين يذكر اليافعي ومن بعده الشرجي أنّ الشيخ كان يدخل على

---

[1]- اليافعي، مرآة الجنان، ج 4، ص 135.

[2]- نفس المصدر، ج 4، ص 134.

[3]- اليافعي، مرآة الجنان، ج 4، ص 135.

[4] - الجندي، السلوك، ج 1، ص 37. الشرجي، طبقات الخواص، ص 97.

[5] - الأفضل عباس، العطايا السنيّة، ص 262-263. الخزرجي، العقود، ج 1، ص 176 -177. هذه الرواية ذكرها الجندي أيضا إلى جانب الرواية المتعلقة بالخمر، الجندي، السلوك، ج 1، ص 36-39.

[6] - الخزرجي، العقود، ج 1، ص 176. الجندي، السلوك، ج 1، ص 37.

السلطان دون إذن ودون أن يتفطّن الحرّاس الذين أوكل إليهم السلطان مهّمة منعه من ذلك خشية أن يفاجئه في مجلس الشراب. (1) ويضيف اليافعي أنّ الشيخ كتب إلى المظفّر الرسولي في شقف من خزف مخاطبا: "يا يوسف، فعاتبه السلطان في ذلك، وقال: هب أنّك موسى، ولست بموسى وهب أنّي فرعون ولست بفرعون، وفي رواية أخرى: أرسل من هو خير منك إلى من هو شرّ منّي، وأمر الله تعالى باللطف به واللين إليه فقال تعالى: " فقولا له قولاً ليناً لعلّه يتذكّر أو يخشى"، أما تكتب إلي في ورقة بفلس؟". (2) وفي رواية الشرجي أنّه خاطبه قائلا: "كثر شاكوك وقلّ شاكروك، فإمّا عدلت وإلاّ انفصلت" (3)

إنّ هذه الأخبار المتعلّقة بالشيخ إسماعيل الحضرمي تثبت ما ذكرناه من تأثير العلاقة بالبلاط على نوعيّة المعلومات المتعلّقة بصاحب الترجمة، حيث رسمت له المصادر الرسميّة صورة الشيخ الفقيه المتعاون مع السلطنة رغبة من السلطان في الاستفادة بما يتمتّع به من كاريزما، في حين أكّدت المصادر التي ألّفت بعيدا عن التأثيرات البلاطيّة على أنّ تعاونه ارتبط بتشدّده في تغيير المنكر واشتراط العدل إلى درجة الانقباض عند فشله في مسعاه، كما أكّدت على علوّ مقامه أمام مقام السلاطين شأنه في ذلك شأن كبار الشيوخ الذين تظهرهم المؤلفات "المحايدة" أو المنحازة للعلماء ومشايخ الصوفيّة منقبضين عن السلطة التي تسعى إلى استزلامهم والاستفادة من مكانتهم، في حين تظهرهم المؤلفات البلاطيّة متعاونين ينعمون بالكرم السلطاني. (4) على أنّ للمؤلفات البلاطيّة غايات أخرى أوسع من علاقات السلاطين بالعلماء والمشايخ يمكن أن نفهمها من خلال العودة إلى ما كتبه كلّ من السلطان الأفضل عباس والسلطان الأشرف إسماعيل وكذلك المؤرخ البلاطي أبو الحسن الخزرجي.

مساهمة البلاط في كتابة الطبقات والتراجم

عمل سلاطين بني رسول على تلميع صورتهم وتفادي ما وقع رسمه في المؤلفات البعيدة عنهم وذلك بالمشاركة المباشرة في تأليف التراجم مثلما فعل السلطان الأفضل عباس في كتاب "العطايا السنيّة" وابنه السلطان الأشرف إسماعيل أو بتكليف مؤرخ بلاطي بالقيام بذلك مثلما هو الشأن بالنسبة للسلطان الأشرف إسماعيل الذي كان على صلة وثيقة بمؤلفات أبي الحسن علي الخزرجي.

تنسب للسلطان الأفضل عباس الذي حكم ما بين سنتي 764هـ/1363م و 778هـ/1377م عدّة مؤلفات في التاريخ والفلك والفلاحة والسياسة الشرعيّة

---

[1] - اليافعي، مرآة الجنان، ج 4، ص 134-135. الشرجي، طبقات الخواص، ص 98.

[2]- اليافعي، مرآة الجنان، ص 135. الآية 44، "سورة طه.

[3]- الشرجي، طبقات الخواص، ص 97.

[4]- أنظر أخبار الشيخ أبي الغيث بن جميل عند الخزرجي وعند اليافعي: الخزرجي، العقود، ج 1، ص 88، 103. اليافعي، مرآة الجنان، ج 4، ص 169.

خلّدت ذكره كسلطان عالم ومحب للعلم وللعلماء،[1] ومن ضمن هذه المؤلفات كتاب بعنوان "العطايا السنيّة والمواهب الهنيّة في المناقب اليمنيّة"، وهو كتاب في التراجم مرتّب على الأسماء وضعه سنة 770هـ/1369م، وذكر فيه مناقب "العلماء الراشدين، والكبراء الأمجدين، والرؤساء الأسعدين، في إقليم اليمن". [2]يعتبر الكتاب معجما لعلماء اليمن أو العلماء الذين وفدوا إليه في مختلف مراحل تاريخه منذ بداية الإسلام إضافة إلى سلاطين وملوك وأمراء بني رسول ورجال دولتهم وفقهائهم دون غيرهم من حكام اليمن، وضمّ تسعمائة واثنين وسبعين ترجمة وصفها المؤلف بالآلي المنثورة. وقد اعتمد المؤلف على ابن سَمُرة الجعدي في "طبقات فقهاء اليمن" والجندي في كتاب "السلوك في طبقات العلماء والملوك"، وأضاف إليهما ما جمعه من تراجم رجال عصره.

افتتح السلطان الأفضل كتابه بترجمة الخليفة أبي بكر الصدّيق رغم أنّ دخوله اليمن ليس محلّ إجماع المصادر، [3] مخالفا في ذلك مبدأه في ترتيب التراجم على الأسماء، وعلّل ذلك بشهرة كنيته على اسمه "عبد الله" وبرغبته في التبرّك بأوّل خليفة للمسلمين، [4] وأنهاه بترجمة السلطان المظفّر يوسف الذي تلقبه المصادر الرسوليّة بلقب "خليفة"، وذلك على الرغم من أنّ صاحب الترجمة ليس الوحيد الذي يحمل اسم "يوسف" في تراجم الكتاب، وهو ما يدلّ على غايته في تلميع صورة أسرته في هذا الكتاب.

هذه الغاية التي تلازم كلّ المؤلفات البلاطيّة الرسوليّة تظهر أيضا في حرصه على التغني بمآثر سلاطين الأسرة في مجال العلم والعدل والعمران

---

[1]- حول حياة السلطان الأفضل عباس ومؤلفاته أنظر: الخزرجي، العقود ، ج 2، ص 111- 138. الأفضل عبّاس الرسولي، نزهة الظّرفاء وتحفة الخلفاء، تحقيق نبيلة عبد المؤمن داود، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ/ 1985م، مقدّمة التّحقيق، ص 5-12. محمّد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 208 - 216 . شاكر محمود عبد المنعم، "الملك الأفضل عبّاس مؤرّخا "، مجلّة المؤرّخ العربي، اتحاد المؤرخين العرب، عدد 3، بغداد، 1977م، ص 63- 79. عبد الرحمن بن عبد الله الأحمري، "مخطوط الملك الأفضل العباسي بن علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول مقتطفات عربية وسيطة مختارة من اليمن"، مجلة الدرعية، السنة التاسعة، العدد 33، الرياض، 1427هـ/2006م. يوسف بن عبد العزيز بن محمد الحميدي، الملك الأفضل الرسولي: جهوده السياسيّة والعلميّة (764-778هـ/1363-1376م)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، إشراف بندر بن محمد رشيد الهمزاني، جامعة أم القرى، كليّة الشريعة والدراسات الإسلاميّة، المملكة العربيّة السعوديّة، 1429هـ/2008م. محمد عبد الحميد سعيد، "صورة السلطان في الكتابات الدعائيّة الرسوليّة: السلطان الأفضل عباس بن علي نموذجا"، حوليّة التاريخ الإسلامي والوسيط، جامعة عين شمس، المجلد السابع 2011-2012م، ص 236-275.

Varisco, (D. M.) and Smith (G. R.), *The Manuscript of al-Malik al-Afdal: al-'Abbâs b. 'Alî b. Dâwud b. Yûsuf b. 'Umar b. 'Alî Ibn Rasûl (d. 778/1377): A Medieval Arabic Anthology from the Yemen*, London: Gibb Memorial Trust, **1998**.

[2]- الأفضل عباس، **العطايا السنيّة**. سبق ذكره.

[3]- نفس المصدر، ص 151، الهامش عدد 5.

[4]- نفس المصدر، ص 141.

وفي حرصه على محو ما تعلّق بتاريخ الأسرة ونسبها من "شوائب" تعود إلى أصولها التركمانيّة التي أبدلها كما فعل من سبقه بأصول غسّانية يمنيّة عريقة في الملك والشرف، [1] وكذلك ما تعلّق بسير بعض السلاطين من أخبار تتنافى مع الصورة الناصعة التي حاول البلاط رسمها لسلاطين بني رسول وخاصة صورة والده المجاهد علي الذي حكم فترة مضطربة كادت تقوّض دولته تخلّلتها محنة الأسر في مكّة والإهانة في البلاط المملوكي. [2]

لقد تدخّل السلطان الأفضل عباس بنفسه في كتابة تاريخ اليمن عبر تراجم أعيانه من أجل تلميع صورته كسلطان عالم وصورة الأسرة من خلال محاولة بناء نسب غساني مترابط، ومن خلال نشر المآثر العلميّة والعمرانيّة للسلاطين، ومن خلال إهمال الأخبار السيئة الواردة في مصادر أخرى، وكل ذلك بغاية الدعاية لشخصه ولأسرته في الأوساط العلميّة والسياسيّة داخل اليمن وخارجه، وهذه الغاية ذاتها نجدها في الجهود الكبيرة التي بذلها ابنه وخليفته السلطان الأشرف إسماعيل بمساعدة شريكه الخزرجي. [3] لقد نُشر للسلطان الأشرف إسماعيل جزء من كتاب يجمع بين الأخبار وتراجم الرجال، وهو"العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك"، وينقسم هذا الكتاب حسب ما ذكرته المصادر والمراجع إلى

---

[1]- حرصت الأسرة الرسوليّة منذ أيام السلطان المظفر يوسف (حكم ما بين سنتي 647 - 694 هـ / 1249- 1295م) على التأكيد على أصولها اليمنيّة وبرّرت لقبها الذي ينسبها إلى التركمان بعلاقة الجوار مع إحدى قبائل هذا الشعب الذي التحق به جدّهم جبلة بن الأيهم الغساني. أنظر السلطان الأشرف عمربن يوسف الرسولي، طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب، تحقيق سترستين، بيروت ، دار صادر، 1412هـ/ 1992م. محمد عبد الحميد سعيد، "هاجس التيمّن والشرافة في سلسلة نسب الأسرة الرسوليّة من خلال العقود اللؤلؤيّة للخزرجي"، سبق ذكره. أعطى الأفضل لأسرته نسبا متسلسلا يربطها بجبلة بن الأيهم الغساني عبر ستّة أسماء هي: رسول وهارون وموسى وأبي الفتح وجبلة والحارث، واعطى للجدّ "رسول" اسما جديدا هو "الفتح" وجعل من رسول لقبا، كما ألغى اسمي يوحى ورستم الذين يوحيان بأصول غير عربيّة. الأفضل عبّاس، العطايا السنيّة، ص 318،441، 480، 691. وللمقارنة أنظر: الأشرف عمر، طرفة الأصحاب، ص 89. ابن عبد المجيد اليماني، بهجة الزّمن، ص 139. الخزرجي، العقود، ج 1، ص 17- 49.

[2]- وقع أسر السلطان المجاهد في مكّة بعد اتهامه بالرغبة في كسوة الكعبة ونزع الكسوة المملوكيّة من قبل أمير الركب المصري وحمل إلى القاهرة حيث تعرّض للإهانة والسجن ثمّ أطلق سراحه بعد تعهّده بإرسال الهدايا. وقد حاول الأفضل تلميع صورة والده فقال: "ثمّ سافر للحج في سنة إحدى وخمسين وسبعمائة، وجرت له القصّة المشهورة، ودخل مصر وحضر عند سلطانها في جماعة الفقهاء المفتين، فدار معهم في كلّ فنّ وباحثهم في كلّ علم، حتى أسلب قلوبهم وجلب عقولهم فعظموا قدره وسيدوا ذكره، وحينئذ خاف سلطان مصر من أن يبايعوه ويدخلوا تحت طاعته لما اتضح لهم من أهليته وكماله". الأفضل عبّاس، العطايا السنيّة، ص 480-482.

[3]- من ضمن العوامل التي دفعت سلاطين بني رسول إلى وضع المؤلفات العلميّة نذكر رغبتهم في التفوّق على أئمّة الزيديّة الذين كانوا ينافسونهم في حكم اليمن والذين كانوا من العلماء المؤلفين، كما نذكر محاولتهم للاستجابة لأحد شروط الفقه السياسي الشافعي التي تشترط العلم في الحاكم. أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزأبادي الشيرازي، **التنبيه في الفقه الشافعي**، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ/1983م، ص 249. أبو الحسن يحي بن أبي الخير العمراني، **البيان في مذهب الإمام الشافعي**، قاسم محمد النوري، بيروت، دار المنهاج، 1421هـ/2000م، المجلد الثاني عشر، ص 8-9.

قسمين أولهما في تاريخ الخلفاء، وهو في خمسة أبواب تشمل تاريخ الخلافة الراشدة والأموية والعباسية وأئمة الزيدية والإماميّة، وثانيهما في خمسة أبواب أيضا اهتمت الثلاثة الأولى منها بملوك مصر والشام والمغرب، أمّا البابان الرابع والخامس فهما في تاريخ لليمن وملوكه ودوله إلى زمن الأشرف إسماعيل بن العباس. [1] ولكنّ ما نشر من الكتاب لا يشمل سوى فصول خمسة من الباب الثالث من القسم الأول، وهي الفصول التي تؤرخ لخمسة من خلفاء بني العباس بداية من الخليفة الظاهر وصولا إلى الخليفة المستعصم مع فصل في ذكر عدد خلفاء بني العباس وتفصيل جمل من أحوالهم". [2]

وقد جاءت تراجم الرجال في هذه الفصول متناغمة مع موضوع الأخبار، لذلك اهتمت بمن عاصر خلفاء بني العباس الذين ذُكرت تواريخهم، فغابت بذلك النزعة اليمنيّة الضيّقة التي رأيناها في كتاب والده الأفضل عباس والتي طبعت أيضا كتاب معاصره وشريكه المؤرخ الخزرجي. يعتبر الخزرجي مؤلفا بلاطيا بامتياز، وقد كانت له صلة وثيقة بالسلطان الأشرف إسماعيل الذي كلّفه بوضع ما وضع من مؤلفات في تاريخ اليمن وتاريخ الأسرة الرسوليّة بل أنّ المهتمين بالشأن اليمني قديما وحديثا يذكرون أنّ بعض هذه الكتب هي من تأليف السلطان الرسولي ذاته بما في ذلك كتاب "العقود" المنشور باسم الخزرجي في مختلف طبعاته. [3] هذا الكتاب أي كتاب "العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية" والذي يبدو للوهلة الأولى من خلال عنوانه ومن خلال ترتيب مادته كتابا إخباريا، ليس سوى كتاب في سير

---

[1]- حول هذا الكتاب وعناوينه المختلفة ونسبته للسلطان الأشرف إسماعيل، أنظر: أيمن فؤاد سيد، **مصادر تاريخ اليمن**، ص 158، 162. الحبشي، **مصادر الفكر الإسلامي في اليمن**، ص 660.

[2]- الأشرف إسماعيل بن عباس الرسولي، **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**، تحقيق شاكر محمود عبد المنعم، دار التراث الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دار البيان، بغداد 1395هـ/ 1975م. (الفصول 36، 37، 38، 39، 40)

[3]- يقول السخاوي في ترجمة هذا السلطان: "وصنّف العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك، و"العقود اللؤلؤية في أخبار الدولة الرسولية"، إلى غير ذلك في النحو والفلك وغيرهما". السخاوي، الضوء اللامع، ج 2، ص 299. أنظر أيضا: شاكر عبد المنعم محمود، "حياة الملك الأشرف إسماعيل الغسّاني وجهوده الثّقافيّة"، مجلّة المؤرّخ العربي، عدد 8، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1978م، ص 100- 116. "تحليل مصادر العسجد المسبوك للغساني"، المؤرّخ العربي، عدد 20، ص 295-329. إسماعيل بن علي الأكوع، "أضواء على مؤلفات الخزرجي المؤرخ اليماني"، المؤرخ العربي، عدد 4، اتحاد المؤرخين العرب، بغداد، 1977م، ص 123-129. أيمن فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن، ص 157-161،158-165. راضي دغفوس، "اليمن في عهد الولاة: "الفصول الخمسة الأولى من الباب الرابع من كتاب "الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الإسلام" كراسات تونس عدد 107-108، تونس 1979م (اعتمادا على نسخة المكتبة الوطنيّة بباريس رقم 1، 5832 تاريخ، وهي منسوبة للخزرجي). علي حسن معيلي، دراسة وتحقيق الباب الخامس من كتاب "فاكهة الزمن ومفاكهة الآداب والفنن في أخبار من ملك اليمن على أثر التبابعة ملوك العصر والزمن"، تأليف السلطان الملك الأشرف أبي العباس إسماعيل بن العباس الرسولي الغساني، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، إشراف الأستاذ راضي دغفوس، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2004-2005م، ج 1، ص 29-49.

ملوك بني رسول وفي تراجم أعيان وعلماء دولتهم أو أخبار وفياتهم مرتّبة على السنين مثلما يتّضح من قراءته المعمّقة.

رتّب الخزرجي كتاب "العقود الؤلؤيّة" على ثمانية أبواب أوّلها "في ذكر انتساب الملوك بني رسول وكيف كان السبب في دخولهم اليمن واستقلالهم بالملك فيه"، أمّا بقيّة الأبواب السبعة للكتاب فهي مخصّصة لسلاطين بني رسول الذين حكموا ما بين سنتي 626-800هـ /1229-1400م وعددهم سبعة بداية من السلطان المؤسس نور الدين عمر وصولا إلى السلطان الأشرف إسماعيل، ويعتبر كلّ باب من الأبواب سيرة مطوّلة لسلطان من السلاطين بداية من تاريخ حكمه وصولا إلى وفاته تتضمّن أخبار سلطنته وحروبه وأهم الأحداث التي وقعت في أيامه مرتّبة على السنين، كما تتضمّن أخبار وفيات الأعيان من الملوك والأمراء والفقهاء.

ومن الجدير بالذكر أنّ حديثه عن وفيات الأعيان وخاصة الفقهاء يأتي في آخر كل سنة بالنسبة للفصول الأولى من الكتاب، حيث يعمد إلى ذكر البعض من أخبارهم ومآثرهم، فيقدّم ترجمة تتضمّن تواريخ ولادتهم وتعليمهم وشيوخهم ووظائفهم ومؤلفاتهم وشيئا من مآثرهم ويحدّد في نهاية كل ترجمة تاريخ الوفاة بدقّة تتفاوت بتفاوت المعلومات المتوفّرة لديه، وقد يكتفي في كثير من الأحيان بذكر خبر الوفاة وتاريخها ومكانها. أمّا بالنسبة للفصول الأخيرة من الكتاب فإنّنا نجد الوفايات متداخلة مع أحداث السنة مرتّبة معها على الأشهر مثلما يظهر في أخبار سنة 802هـ التي ذكر خلالها جملة من الأحداث تخلّلتها وفايات عشرة من أعيان اليمن وهم خمسة فقهاء من ضمنهم فقيه حنفي، إلى جانب ذكره لوفاة ملكين من أبناء السلطان الأشرف إسماعيل توفيا في أول العمر، كما ذكر وفاة أحد أمراء الدولة وكذلك وفاة شريفين من أشراف اليمن كان أحدهما يعيش في بلاد بني رسول إلى جانب ذكره لوصول الخبر بوفاة السلطان الملك الظاهر برقوق صاحب الديار المصرية في أول السنة والأمرالسلطاني بالقراءة عليه سبعة أيام في مدينة تعز وزبيد وعدن. [1]

أمّا نهايات أبواب الكتاب فخصّصها الخزرجي لوفايات سلاطين بني رسول ذاتهم مع الحرص على وصفهم بما يليق بمقامهم من "الظرف واللطف ومكارم الأخلاق وجمال الصورة وحسن السيرة والتودّد إلى الخلق"، [2] والتغنّي بعدلهم في الرعيّة ورفع المظالم الجبائيّة عنها والتذكير بمآثرهم العمرانيّة وخاصة ما له علاقة ببناء وصيانة المدارس والمساجد والخوانق والأوقاف التي تقوم بكفايتها وكفاية القائمين عليها والمنتفعين منها وكذلك مآثرهم العلميّة وعلاقتهم بالعلماء والعلم دراسة وتأليفا.

1- من النادر أن نجد تراجم لأعيان من خارج اليمن أو ذكرا لأخبار وفياتهم في كتاب العقود.

2- يتعلّق هذا الوصف بشخص السلطان الأشرف إسماعيل بن عبّاس. الخزرجي، العقود، ج 2، ص 260.

لم يقتصر الخزرجي على كتاب "العقود اللؤلؤيّة" بل وضع كتابا آخر في تراجم أعيان اليمن هو كتاب "طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن" والذي يحمل أيضا عنوانا آخر هو "العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن"، وقد استوعب فيه أهمّ كتابين في تراجم أهل اليمن، وهما "طبقات فقهاء اليمن" للجعدي و"السلوك في طبقات العلماء والملوك" للجندي، وأضاف إليهما الكثير من التراجم التي خلا الكتابان منها.

وقد جعل الخزرجي مؤلَّفه في ثلاثين باباً، منها ثمانية وعشرون لحروف الهجاء، والبابان المكملان للثلاثين أحدهما للكنى والآخر للنساء الشهيرات في اليمن، وقال في مقدّمته أنّ جماعة من إخوانه قد سألوه أن يجمع لهم "كتاباً مختصراً جامعاً محرراً، يحتوي على طبقات علماء اليمن وصلحائهم، وأزمان ملوكها وأكابرها وكبرائها. [1] جاء كتاب "طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن" ديوانا حافلا أو "عقدا فاخر في طبقات أكابر اليمن" مثلما يدلّ عليه عنوانه الثاني، فوفّر بذلك مادة غزيرة استعملها من جاء بعده من مؤلفي التراجم وأضافوا إليها أخبار من عاصروهم من الأعيان، وبذلك توفّرت للمشتغلين بتاريخ اليمن الإسلامي بفضل كتب الطبقات والتراجم معلومات هامة جعلتهم قادرين على خوض غمار البحث في مختلف الفترات وفي مختلف مظاهر الحضارة اليمنيّة، فكيف تعاملوا مع هذه المصادر وإلى أين وصلت جهودهم في هذا المجال؟

- **استغلال كتب الطبقات في الدراسات الحديثة**

مثّلت كتب الطبقات والتراجم كما ذكرنا أهمّ المصادر المعتمدة لدراسة التاريخ اليمني لذلك وجدت اهتماما خاصا من طرف الباحثين اليمنيين والعرب الذين قاموا بتحقيق أهمّ وأشهر المؤلفات المعروفة، كما قاموا باستغلال مادتها الغزيرة للقيام بدراسات وبحوث تناولت مختلف جوانب التاريخ اليمني وخاصة الجوانب الثقافيّة والاجتماعيّة. كانت البداية من خارج اليمن حين قام الباحث المصري محمد بسيوني بتحقيق كتاب "العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية" لعلي بن الحسن الخزرجي (ت 812هـ/1409م) سنة 1329هـ/ 1911م. [2]

كما تمّ في السنوات الأخيرة تحقيق مصدرين هامين هما "قلادة النحر" لبامخرمة (ت 947هـ/ 1540م) و"طراز أعلام الزمن" للخزرجي. فأمّا

---

[1]- أبو الحسن علي بن الحسين الخزرجي، العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن، وهو "طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن"، تحقيق ودراسة عبد الله بن قائد العبادي، مبارك بن محمد الدوسري، علي عبد الله صالح الوصابي، جميل أحمد سعد الأشول، مكتبة الجيل الجديد ناشرون، صنعاء 1430هـ/ 2009م، 5 مجلدات. كما قام الأستاذ عبد الله بن محمد الحبشي بتحقيق الكتاب بالاشتراك مع الدكتور مصطفى عبد الكريم الخطيب تحت عنوان: طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن، دار المنهاج، المملكة العربيّة السعودية، 1433هـ/ 2012م.

[2]- علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسل،1329هـ/ 1911م وهذا المحقق هو أحد خريجي دار العلوم الخديوية ومدرس اللغة العربية في جامعة كمبردج، وقد طبع الكتاب على نفقة أوقاف المستر جب.

المصدر الأول وهو كتاب "قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر" للمؤرخ بامخرمة فتمّ نشره سنة 1425هـ/ 2004م بعد تحقيقه من طرف ثلاثة باحثين يمنيين في إطار بحوث لنيل شهادة الماجستير. [1] وهذا الكتاب مؤلَف ضخم مرتّب على الطبقات والسنين يضمّ أخبار اليمن وتراجم رجالها من القرن الأول للهجرة إلى عصر المؤلِف، ويجمع بالتالي بين لمّ شتات أخبار الأحداث والرجال التي ذكرتها أحيانا مصادر متقدّمة وبين أخبار عاشها بامخرمة أو عاصرها. وأمّا كتاب "طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن" والمسمى أيضا "العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر أهل اليمن" فصدر سنة 1430هـ/ 2009م، وقد تعاون على تحقيقه أربعة طلبة قدّموا بحوثهم في جامعات مختلفة من ضمنها جامعة الملك عبد العزيز في جدّة وجامعة الملك خالد في أبها بالمملكة العربيّة السعوديّة، إلى جانب بحثين قدّما إلى جامعة صنعاء.[2] وما بين ظهور كتابي "العقود اللؤلؤية" و"العقد الفاخر الحسن" للخزرجي حقّقت عدّة مصادر يمنيّة أخرى في التاريخ والتراجم أو أعيد تحقيق مؤلفات سبق نشرها مثلما هو الشأن بالنسبة لكتاب "العقود"، [3] فتوفّرت بذلك مادة تاريخيّة غزيرة تناولتها عدّة أعمال حديثة درست هذه المؤلفات أو استعملتها لتناول جانب من جوانب التاريخ اليمني. لقد حظيت بعض كتب الطبقات والتراجم بدراسات جامعيّة قام بها طلبة عرب ويمنيون في جامعات اليمن أو في الجامعات العربيّة وتناولت عصر المؤلفين وحياتهم وتعليمهم وشيوخهم وأسلوبهم في الكتابة وكذلك مادة التراجم وأهميتها في دراسة التاريخ اليمني، وقد اطلعنا على أربعة أعمال في هذا المجال هي:

- دراسة جامعيّة قدّمت إلى جامعة الأمام محمد بن سعود للحصول على شهادة الدكتوراه وهي بعنوان "المؤرخ اليمني أبا الحسن الخزرجي وآثاره التاريخيّة"، [4] وقد تناول فيها الباحث بالدراسة أثار المؤرخ الخزرجي من حيث المنهج وأسلوب الكتابة وموارده في كتاباته وأثره في مدرسة التاريخ اليمني.

[1]- بامخرمة، قلادة النحر، سبق ذكره.

[2]- سبق ذكره. قام الباحث علي عبد الله صالح الوصابي بتحقيق القسم الخاص بحرف العين، في إطار رسالة ماجستير مقدمة لجامعة صنعاء، وفي نفس الإطار والجامعة قام الباحث جميل بن سعد الأشول بتحقيق قسم من الكتاب بداية من حرف الغين إلى آخر باب النساء. وقام الباحث عبد الله بن قايد العبادي بتحقيق جزء من الكتاب من باب الهمزة حتى نهاية باب الحاء، لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الملك عبد العزيز. وكان نصيب الباحث مبارك بن محمد بن راجس الشرافي الدوسري دراسة وتحقيق قسم يمتد من باب الخاء إلى باب الظاء في إطار رسالة ماجستير مقدمة لجامعة الملك خالد.

[3]- قام القاضي محمد الأكوع الحوالي بتحقيق هذا الكتاب ونشر بالاشتراك ما بين مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء ودار الآداب ببيروت سنة 1403هـ/1983م. كما قام الأستاذ الحبشي بإعادة تحقيقه ونشرته مكتبة الإرشاد بصنعاء سنة 1430هـ/2009م.

[4]- محمد بن علي بن مسفر عسيري، أبو الحسن الخزرجي وأثاره التاريخية، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الأمام محمد بن سعود، 1406هـ/1986م.

- دراسة جامعيّة قدّمت إلى معهد التاريخ العربي للدراسات العليا ببغداد وهي بعنوان "ابن سمُرة الجعدي منهجه وموارده في كتابه طبقات فقهاء اليمن" [1] وقد تناول الباحث بالدراسة كتاب "طبقات فقهاء اليمن وعيون من أخبار سادات رؤساء الزمن، ومعرفة أنسابهم، ومعرفة أعمارهم، ووقت وفاتهم" وهو للمؤرخ اليمني عمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت بعد 586هـ/1190م). [2]

درس الباحث حياة المؤلف ونشأته العلمية وشيوخه ووظائفه ووفاته، ثم تطرق للحياة السياسية التي عاصرها ومدى تأثيرها على تكوين شخصيته، ثمّ تناول منهجه من حيث دراسة التراجم وأنواعها وعناصرها وأُسس اختيارها، ثمّ تناولها عناصر التراجم ذاتها بدءاً بالاسم وانتهاء بالوفاة كما تناول موارد ومصادر ابن سمرة من الكتب والمصنفات السابقة، وختم عمله ببيان الأهمية التاريخيّة لطبقات الجعدي ودورها في معرفة الحركيّة الثقافيّة مثل الرحلات العلميّة والمصنفات وأماكن التدريس والمناظرات العلمية، ودخول المذاهب الفقهية إلى اليمن.

- دراسة جامعيّة أخرى قدّمت إلى معهد التاريخ العربي للدراسات العليا ببغداد تناولت بالدراسة كتاب طبقات الجندي (ت بعد 742هـ/1341م) [3] وهي بعنوان "بهاء الدين الجندي سيرته ومنهجه في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك" أنجزها طالب يمني في إطار بحث قدّم للحصول على شهادة الماجستير. [4] وقد تناول بدوره جوانب من حياة المؤلف وثقافته وعصره وكذلك مصادره ومنهجه في الكتابة واختيار التراجم وعناصرها مشيرا كذلك إلى أهميّة كتاب الجندي في دراسة الحركيّة الثقافيّة ومؤسساتها والفاعلين فيها.

- دراسة جامعيّة رابعة قدّمت إلى جامعة أم القرى وهي بعنوان "الملك الأفضل الرسولي: جهوده السياسيّة والعلميّة (764-778هـ/1363-1376م)، وقد تناول فيها الباحث حياة الملك المذكور وحكمه ومؤلفاته المخطوطة والمطبوعة ومن ضمنها كتاب "العطايا السنيّة" الذي خصّصه لتراجم أعيان اليمن. [5]. كما تناولت دراسات جامعيّة أخرى علم التاريخ في اليمن من خلال مؤلفي الطبقات والتراجم من ضمنها دراسة بعنوان "الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626-858هـ/1229-1454م)

[1]- عبد القادر محمد أحمد نعمان الجبلي، ابن سمُرة الجعدي منهجه وموارده في كتابه طبقات فقهاء اليمن، دار نشر الجامعات، صنعاء 2011م. هذا العمل هو في الأصل رسالة ماجستير نوقشت بمعهد التاريخ العربي للدراسات العليا، بغداد 2000 م.

[2]- الجعدي، طبقات فقهاء اليمن، سبق ذكره.

[3]- الجندي، السلوك، سبق ذكره.

[4]- أحمد محمد يحيي المطهر، بهاء الدين الجندي سيرته ومنهجه في كتابه السلوك في طبقات العلماء والملوك، رسالة لنيل شهادة الماجستير، معهد التاريخ العربي للدراسات العليا، بغداد2001م.

[5]- الحميدي، الملك الأفضل الرسولي، سبق ذكره.

الجندي والخزرجي أنموذجا". وقد تناول فيها الباحث حياة المؤرخ الجندي ومنهجه التاريخي في كتاب "السلوك في طبقات العلماء والملوك" واستعرض البناء الفني التعبيري وخطة الكتاب ومصادره وعناصر الترجمة لديه، وفعل نفس الأمر مع الخزرجي في كتاب "العقود اللؤلؤية". [1]

كما قدّم طالب يمني آخر دراسة لنيل شهادة الماجستير بعنوان "التدوين التاريخي في اليمن في القرن الثامن الهجري- الرابع عشر الميلادي"، [2] وقد تناول الباحث مسألة التدوين التاريخي ومناهجه واتجاهاته اعتمادا على المؤلفات العديدة التي تعود إلى هذا القرن الذي وضعت فيه عدّة مؤلفات في التراجم أشهرها كتاب طبقات الجندي وكتاب"العطايا السنيّة" للسلطان الأفضل عباس بن علي الرسولي. [3]

إلى جانب هذه الأعمال الجامعيّة التي تناولت التاريخ والمؤرخين أنجزت عدّة أطروحات استغلت بدرجة أولى وأساسيّة المعلومات الغزيرة التي توفّرها تراجم العلماء الواردة في كتب الطبقات والتراجم، وقد اهتمّت جلّ هذه الكتابات بناحية أو أكثر من نواحي الحياة الثقافيّة والعلميّة في اليمن ومؤسساتها ورجالها، ويمكن تصنيفها كما يلي:

- دراسات تناولت مؤسسات التعليم وخاصة المساجد والمدارس ودورها في التعليم خلال العهد الرسولي أو العهد الطاهري. [4]

- دراسات تناولت الحياة العلميّة والفكريّة في اليمن عامة في عهد من "الفترة السلطانيّة"[5] أو اقتصرت على بعض مدنه ونواحيه، [6] أو تناولت

---

[1]- علي عبد الكريم محمد بركات، الكتابة التاريخية والمؤرخون في اليمن في عصر الدولة الرسولية (626-858هـ/1229-1454م) الجندي والخزرجي أنموذجا، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كليّة الآداب، جامعة عدن، 2006م.

[2]- محمد أحمد محمد الكامل، التدوين التاريخي في اليمن في القرن الثامن الهجري- الرابع عشر الميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كليّة الآداب، جامعة صنعاء 2000م.

[3]- الأفضل عبّاس الرسولي، العطايا السنيّة والمواهب. سبق ذكره. وهذا العمل هو رسالة لنيل شهادة الماجستير، أشراف د. محمد عبده محمد السروري، كليّة الآداب، جامعة صنعاء 2001م.

[4]- السنيدي، المدارس اليمنيّة، سبق ذكره، وهذا العمل هو رسالة لنيل شهادة الماجستير من كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السعودية سنة 1990م. المطيري، أثر المساجد في الحياة العلمية في اليمن في عصر الدولة الرسوليّة، سبق ذكره. فاروق أحمد حيدر مجاهد، التعليم في اليمن في عهد دولة بني رسول خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، سلسلة إصدارات جامعة صنعاء، صنعاء1425هـ/ 2004م. وهو في الأصل رسالة دكتوراه قدّمت إلى كلية التربية بجامعة عين شمس سنة 1992م. رياض علي سعيد المشرقي، التعليم في اليمن في عصر الدولة الطاهريّة، سبق ذكره. محمد محمد صالح، الإدارة التربوية في عصر الدولة الرسولية، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كليّة الآداب، جامعة تعز، 2007م.

[5]- فضل محمد صالح، الحياة العلمية في اليمن في القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي، عصر عصر الدولة الرسولية، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، جامعة عدن، 2006م. عبد الغني علي الأهجري، الحياة العلمية في اليمن من بداية القرن التاسع الهجري حتى سيطرة العثمانيين عليها، رسالة دكتوراه، جامعة المنصورة، 2008م. حسين صالح حسين العنسي، الحياة الفكرية في اليمن في القرن السابع -الثالث عشر الميلادي، رسالة لنيل شهادة الماجستير، كليّة الآداب، جامعة ذمار 2005م.

[6]- محمد يسلم عبد النور يسلم، الحياة العلمية في حضرموت في القرنين (7-8هـ/13-14م)، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، كليّة الآداب، جامعة صنعاء، 2008م. الشرفي، الحياة العلميّة في مدينة تعز،

جانبا من جوانب هذه الحياة كالعلوم الدينيّة والعقائد والمذاهب الفقهيّة وخاصة المذهب الشافعي الذي انتشر في اليمن وتعزّز موقفه منذ قدوم الأيوبيين. [1]

ومن أبرز الدراسات التي اطلعنا عليها وأنجحها دراسة بعنوان "تطور الحياة الفكرية في اليمن من القرن الأول وحتى القرن السابع من خلال كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي"، أنجزها طالب يمني في إطار بحث قدّم للحصول على شهادة الماجستير، [2] وقد تناول الباحث مختلف مظاهر الحياة الفكرّية بما في ذلك المؤسسات العلميّة وأصناف العلماء وأصولهم الجغرافيّة ورحلاتهم العلميّة في الداخل والخارج وأصناف الكتب المؤلفة في مختلف الفنون مع بيان التطورات الحاصلة في كلّ قرن اعتمادا على إحصائيات دقيقة شملت الكتب والعلماء والمؤسسات، فأطلعنا بذلك على التيارات الفكريّة والمذهبيّة التي عرفها اليمن خلال فترة الدراسة.

وإلى جانب هذه الأعمال اعتمدت بحوث جامعيّة أخرى على كتب الطبقات والتراجم لتناول جانب من جوانب الحياة الإجتماعيّة والنخب الحضريّة الفاعلة وخاصة ما يتعلّق بمكانة العلماء ودورهم السياسي والإداري على غرار ما قام به طالب يمني من جامعة صنعاء، حيث تناول بالدراسة علماء العهد الرسولي في بحث جامعي بعنوان "دور العلماء في الحياة السياسية والاجتماعية في عصر الدولة الرسولية : 626- 858هـ / 1228-1454م". [3]

كما قامت باحثة سعوديّة من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بدراسة أثر نساء الأيوبيين والرسوليين في الحياة العامة في اليمن اعتمادا على ما ورد في تراجم الجندي والخزرجي والبريهي وفي كتب الإخباريين

سبق ذكره. عبد الله علي عبد الله العصيمي، تعز ودورها في الحياة العلمية من(626-858 هجري /1228-1454)، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة دمشق 2011م. العبادي، الحياة العلميّة في مدينة زبيد وأعمالها، سبق ذكره. حسن صالح ناجي المراني، الحياة العلمية في مدينة صنعاء خلال القرنين السابع والثامن الهجريين – الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء 2009م. حسين صالح حسين العنسي، الحياة العلمية في عدن من القرن الخامس حتى القرن الثامن الهجري – القرن الحادي عشر حتى الرابع عشر الميلادي، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء 2009م.

[1]- الكلدي، المذهب الشافعي في اليمن، سبق ذكره. عبير بنت علي بن عقلان، اتجاهات التفسير في اليمن من القرن الثالث الهجري وحتى القرن العاشر الهجري: دراسة نقدية، رسالة لنيل درجة الماجستير في التفسير وعلوم القرآن، إشراف أ.د. أمين بن محمد عطية باشا، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، 1428هـ/2007 م. وقد تناولت الباحثة مختلف المذاهب والعقائد التي عرفها اليمن وبيّنت تأثيرها على الدراسات القرآنيّة في مختلف الفترات.

[2]- العمري، تطور الحياة الفكرية في اليمن، سبق ذكره.

[3]- محمد عبد الله محمد المعلمي، دور العلماء في الحياة السياسية والاجتماعية في عصر الدولة الرسولية : 626- 858هـ / 1228-1454م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء 2009م.

من أخبار النساء، فعرّفت بنساء الأيوبيين والرسوليين وأثرهن في الحياة السياسية والإجتماعيّة والعلميّة. [1]

وكذلك تناول باحث سعودي آخر من جامعة الملك خالد قضاة الدولة الرسوليّة اعتمادا على نفس المصادر، فدرس أثرهم في الحياة السياسيّة من خلال علاقتهم بالسلاطين والمناصب الإداريّة والسياسيّة التي شغلوها وأهمها قضاء الأقضية والوزارة، ودرس أيضا دورهم في الحياة العلميّة والدينيّة من خلال مساهمتهم في التأليف والتدريس والإفتاء والإشراف على المدارس والمساجد والأوقاف، ومحاربة البدع، كما درس مساهمتم في الحياة الإقتصاديّة والإجتماعيّة سواء من خلال الإشراف على الأسواق أو المساهمة في جباية الأموال. [2]

وإلى جانب الدراسات الجامعيّة مثّلت الطبقات والتراجم مادة أوليّة لإنجاز مقالات ودراسات علميّة أو موسوعات خاصة بعلماء اليمن ومؤسساته ومراكزه العلميّة، ومن أهمّ هذه الأعمال التي اطلعنا عليها نشير إلى دراسة حديثة اعتمدت المنهج الإحصائي وقدّمت في إطار إحدى الندوات الفكريّة واهتمت بتطوّر الحياة العلميّة في مدينة عدن اعتمادا على كتب التراجم والطبقات وخاصة مؤلفات الجعدي والجندي وبامخرمة، حيث أحصت عدد العلماء في هذه المدينة في مختلف فترات تاريخها الإسلامي لتصل إلى نتيجة مفادها أنّ مدينة عدن لم تكن مدينة تجارة فقط بل كانت أيضا مدينة علميّة منفتحة على مختلف الأقطار والتيارات الفكريّة بفضل علاقاتها التجاريّة. [3]

كما نشير إلى الأعمال الناجحة التي وضعها القاضي إسماعيل الأكوع اعتمادا على كتب الطبقات والتراجم وخاصة كتابه "المدارس الإسلاميّة في اليمن" الذي تناول فيه نشأة هذه المؤسسات التعليميّة في اليمن السنّي، وعرّف فيه بمختلف المدارس المندثرة والباقيّة وبمؤسسيها وترجم لأهم مدرسيها، ونشر أجزاء من بصائر وقفياتها. [4]

أمّا كتابه المرجعي الثاني الذي اعتمد فيه أساسا على كتب الرجال فهو كتاب "هجر العلم ومعاقله في اليمن"، وهو عمل موسوعي هام يتكون من

---

[1]- حنان بنت قبع بن محمد جعوني، أثر نساء الأيوبيين والرسوليين في الحياة العامة في اليمن (569-858هـ/1174-1454م)، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي، إشراف د. محمد بن علي بن مسفر عسيري، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، 1429هـ/2008م.

[2]- علي بن صالح بن مانع آل سالم العمري، قضاة الدولة الرسوليّة ودورهم في الحياة العامة (626-858هـ/ 1228-1454م)، رسالة لاستكمال متطلبات الحصول على درجة الماجستير في قسم التاريخ كليّة العلوم الإنسانيّة جامعة الملك خالد، المملكة العربيّة السعوديّة، إشراف الأستاذ محمد بن منصور حاوي ،1430-1431هـ.

[3]- نزار عبد اللطيف الحدثي وسلوى علي قاسم المؤيد، "مكانة عدن من خلال صلاتها العلمية"، أشغال الندوة العلمية الدولية: عدن بوابة اليمن الحضارية، 18- 2011/1/19م، ص 131-160.

[4]- إسماعيل بن علي الأكوع، المدارس الإسلامية في اليمن، سبق ذكره.

خمس مجلدات تناول فيها المؤلف مختلف مراكز العلم في اليمن من أربطة وقرى مرتبة ترتيبا أبجديا، فذكر مواقعها وتاريخها ومؤسسيها، وتراجم من نسب إليها أو سكنها ممن هاجر إليها أو ولد بها. [1]

وفي مجال الموسوعات نشير إلى "موسوعة أعلام اليمن ومؤلفيه" التي أنجزتها "مؤسسة الإبداع للثقافة والآداب والفنون اليمنية" برئاسة الدكتور عبد الولي الشميري، [2] وقد اعتمدت هذه الموسوعة بشكل أساسي على كتب الطبقات والتراجم اليمنيّة حسبما يبدو من قائمة المصادر والمراجع التي اشتغل عليها المؤلف وهي تضمّ حوالي مائة وخمسين عنوانا، وقد وفّرت هذه الموسوعة معلومات هامة عن حوالي عشرين ألف علم من أعلام اليمن في مختلف العصور موزعين على ثلاثة وخمسين اختصاص.

وأهمّ ما في هذه الموسوعة هو نسختها الإلكترونيّة المنشورة على موقع خاص والتي تمكّن الباحث من الوصول إلى مداخلها عن طريق البحث في الترتيب الهجائي أو بالبحث حسب المكان أو الزمان أو بمجرّد كتابة اسم العلم المطلوب.

الخاتمـــة

تبيّن لنا من خلال هذا البحث أنّ مؤرخي اليمن في زمن الدراسة مثلهم مثل غيرهم في بقيّة الأقطار الإسلاميّة قد وضعوا عدّة مؤلفات في الطبقات والتراجم وكذلك في السير والمناقب اهتمّت خاصة بأعيان البلاد وبمن دخلها أو استوطنها من "رؤساء الدارين"، ونظرا لتحرّرهم في الغالب من وطأة الإملاءات البلاطيّة فإنّهم وفروا لنا مادة أوليّة غزيرة جديرة بالثقة تسمح بمعرفة تاريخ اليمن الاسلامي وخاصة بالنسبة للفترة السلطانيّة التي عاشوا خلالها، وهذا ما يفسّر العناية التي وجدتها مؤلفات التراجم والطبقات اليمنيّة، حيث تمّ نشر أشهرها وأغزرها مادة وتمّت دراسة بعضها دراسة نقديّة واستعمل أغلبها في ما وضعه الباحثون من دراسات متنوّعة وخاصة تلك التي اهتمت بالعلم والعلماء والمؤسسات العلميّة أو بالحياة الاجتماعيّة عامة أو ببعض النخب الحضريّة.

ولكنّ ما توفّره هذه المصادر يمكن أن يفتح الباب أمام مزيد من الدراسات وخاصة تلك التي تتعلّق بالنخب الحضريّة التي لم تجد حسب علمنا

---

[1]- القاضي إسماعيل بن علي الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، سبق ذكره.

[2]- هي "مؤسسة ثقافيّة يمنيّة خاصة. أنظر موقعها على الرابط التالي: http://www.ebdaa.com/about_us.asp

لم نتمكّن من الاطلاع على النسخة الورقيّة الصادرة سنة 2006م بالتعاون مع الهيئة العامة للكتاب في اليمن، ولكنّنا استعملنا النسخة الالكترونيّة الموجودة على الرابط التالي: http://www.al-aalam.com

حظّا من البحث يوازي مكانتها في كتب الطبقات والتراجم، حيث لا تزال معرفتنا بمكانة بعض الأسر الحضريّة المتنفّذة وتحالفاتها مع الأسر الحاكمة في حاجة إلى البحث، وتنطبق نفس الملاحظة على طائفة الأمراء المحليين والمماليك الذين لعبوا دورا كبيرا في تاريخ اليمن في مجال السياسة والحرب والثقافة، [1] وكذلك هو الشأن بالنسبة لأعيان التجار الذين ساهموا في التجارة الشرقيّة الكبرى ولعب بعضهم دورا سياسيا وقام بعضهم ببناء المساجد والمدارس لطلبة العلم.

كما أنّنا لا نزال ننتظر دراسة علميّة تتناول متصوّفة اليمن ومذاهبهم وعلاقتهم بالمجتمع وبالسلطة السياسيّة رغم كثرة ذكرهم في المصادر المنشورة، بل لا نزال ننتظر خروج عدد كبير من كتب المناقب الموجودة في المكتبات العائليّة وخاصة في منطقة حضرموت. ولا شكّ في أنّ نظرة مؤرخي الجيل الأول من أبناء الثورة اليمنيّة للتصوّف باعتباره عنوانا من عناوين التخلف والجهل كان وراء تأخر صدور هذه المؤلفات والبحث في موضوعها.

وما قيل عن مؤلفات الصوفيّة في حضرموت ينطبق على مؤلفات الزيديّة في اليمن الأعلى حيث أرتبط التراث الزيدي في أذهان الجيل الأول من المؤرخين بالإمامة وبالتالي بالرجعيّة التي ثار عليها الأحرار في ستينيات القرن الماضي.

ولكنّ هذا الموقف بدأ في التراجع، حيث بذلت في السنوات الأخيرة جهود كبيرة لإحصاء ورقمنة أو نشر هذه المؤلفات الموجودة في خزائن المكتبات الخاصة من قبل مؤسسات محليّة أو مؤسسات وبرامج عالميّة، ومن أهمّ هذه الجهود نذكر ما تقوم به مؤسسة "الإمام زيد بن علي الثقافية" التي تهتمّ بتحقيق ودراسة ونشر التراث الزيدي بما يحتويه من تواريخ وسير وتراجم ومؤلفات عقدية وفقهيّة، [2] كما نذكر البرنامج الذي أطلقه المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية بصنعاء (سيفاس) والذي يهدف إلى الوصول إلى الكتب الموجودة في المكتبات الخاصة بمدينة زبيد وفهرستها ورقمنتها وصيانتها، [3] أو "مشروع رقمنة المخطوطات اليمنية" الذي

---

[1]- ألّف الباحث حسين بن عبد الله العمري كتابا عن العبيد والمماليك ضمّنه فصلا بعنوان "نفوذ المماليك والعبيد في دولتي بني رسول وبني طاهر"، ورغم أهميّة هذه الدراسة فإنّها اقتصرت على الأحداث السياسيّة والعسكريّة وعلى دور المماليك في الانتفاضات والثورات. حسين بن عبد الله العمري، الأمراء العبيد والمماليك في اليمن: بحث تاريخي مقارن بين الشرق والغرب حتى القرن العشرين، دار الفكر المعاصر، بيروت 1409هـ/ 1989م.

[2]- قامت المؤسسة بفهرسة أكثر من ثلاثة آلاف مخطوط، في أربعين مكتبة خاصة. كما استطاعت اخراج مائتي كتاب مطبوع على الحاسب الآلي، وطباعة مائة وعشرين عنوانا. أنظر موقع المؤسسة على الرابط التالي: http://www.izbacf.org/arabic/

[3]- أطلق المعهد منذ سنة 2000م "برنامج زبيد" تحت إدارة الباحثة آن رغورد وهو يهدف إلى الوصول إلى المخطوطات الموجودة في المكتبات الخاصة بزبيد والتي يقدّر عددها بحوالي عشرة آلاف مخطوط.

يشرف عليه فريق من المختصين في دراسة التراث الإسلامي من جامعة Oregon أوريغون، ويتمثل هدفه الأساسي في صيانة المخطوطات العربية الموجودة في المكتبات اليمنية الخاصة. [1]

Vicissitudes de la figure du roi de Séville al-Muʿtamid A travers quelques notices biographiques andalouses

Cette étude a pour objet la biographie du roi de Séville al-Muʿtamid b. ʻAbbād, telle que celle-ci se dessine à travers les anthologies littéraires ou les ouvrages historiographiques médiévaux. Les principaux épisodes de cette vie tumultueuse sont bien connus : succédant à son père sur le trône de Séville, en 461/1068, al-Muʿtamid fut destitué par le chef berbère almoravide Yūsuf Ibn Tašfīn en 484/1091, puis envoyé en détention dans le Sud du

[1]- يعمل مشروع « The Yaman Manuscript Digitization Initiative, YMDI » بالتعاون مع جامعتين ألمانيتين وكذلك بالتعاون مع "المعهد الفرنسي للآثار والعلوم الاجتماعية" و"مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية"، أنظر الرابط التالي:
http://ymdi.uoregon.edu/

Maroc, à Aġmāt, où il mourut en 488/ 1095[1]. Au XIXe siècle, l'orientaliste R. Dozy, littéralement fasciné par le personnage, en fit le parangon du héros tragique, quasiment romantique[2]. Il nous semble néanmoins que les récits ayant façonné ce personnage méritent d'être réexaminés, pour tenter de cerner au plus près les stratégies narratives et rhétoriques mises en place par les auteurs des notices pour édifier cette figure. Nous précisons que notre approche sera plutôt littéraire, et que nous considérerons la biographie avant tout en tant qu'écriture créative.

Si l'on se réfère à la définition des ouvrages de *Ṭabaqāt* donnée par exemple par al-Wadad. al-Qāḍī, dans son texte intitulé :« Biographical Dictionaries : Inner Structure and Cultural signifiance »[3], qui caractérise un dictionnaire biographique comme : *« un ouvrage en prose dont la structure primaire est celle d'une série de biographies, indifféremment de l'ordre dans lequel ces biographies se succèdent »*[4], il est bien évident que les ouvrages dont il va être question ici ne ressortent pas de cette catégorie au sens strict. Néanmoins, aussi bien les anthologies littéraires que les ouvrages historiographiques accordent une importance significative à l'élément biographique[5], si

---

[1] Voir notamment A. Benabdesselem, *La vie littéraire dans l'Espagne musulmane sous les mulūk al-Ṭawāʾif* (Ve-XIe siècles), IFEAD, Damas, 2001, p. 178-179, ainsi que la notice de l'Encyclopédie de l'Islam (EI2): « al-Muʿtamid Ibn ʿAbbād », de E. Lévy-Provençal.

[2] Voir par exemple: Reinhart Pieter Anne Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Tome IV, Leyde, E.J. Brill, 1861.

[3] "Biographical Dictionaries: Inner Structure and Cultural significance", *in The Book in the Islamic world*, ed. By George N. Atiyeh, State University of N Y Press, the Library of Congress, 1995, p. 93-122.

[4] On pourra aussi se référer à celle proposée par Claude Gilliot dans l'article « tabakat » de l'Encyclopédie de l'Islam, ainsi qu'au chapitre consacré au genre biographique dans : *The Cambridge History of Arabic Literatur, Religion, learning and science in the 'Abbassid period*, edited by M. J. L. Toung, J.D. Latham and R. B. Serjeant, Cambridge University Press, 1990, p. 168 à 187.

[5] Maria Luisa Avila, dans son article intitulé : « El Génerо biografico en al-Andalus », *in Biografias y genero biografico en el occidente islamico,* M.L. Avila Navarro et M. Marin (coord.), Grenade, CSIC, 1997, p. 35 à 51, écrit à ce sujet : « *la littérature biographique ne se limite pas, en al-Andalus comme dans d'autres régions du monde*

bien que nous estimons ne pas nous éloigner démesurément de l'axe central de ce colloque par le choix de notre corpus.
Les notices consacrées à al-Muʿtamid sur lesquelles ont porté nos investigations sont au nombre de 7. Elles sont extraites des *Qalāʾid al-ʿIqyān* d'al-Fatḥ Ibn Ḫāqān (m. 529/1134)[1], de la *Ḏaḫīra fī-maḥāsin Ahl al-Ǧazīra,* d'Ibn Bassām (m. 542/1147)[2], du *Muʿǧib fī talḫīṣ aḫbār al-Maġrib* de ʿAbd al-Wāḥid al-Marrākuṣī (m.619/1223) [3], de la *Ḥulla al-siyarāʾ fī-ašʿār al-umarāʾ* d'Ibn al-Abbār (m.658/1260)[4], des *Wafayāt al-Aʿyān* d'Ibn Ḫallikān (m. 681/1282)[5], qui, contrairement à tous les autres auteurs, est un oriental, du *Bayān al-Muġrib fī Aḫbār al-Maġrib*, d'Ibn ʿIḏārī, daté de 1312[6], et enfin des *Aʿmāl al-Aʿyān* d'Ibn al-Ḫaṭīb (m. 776/1375)[7].
Du point de vue chronologique, on voit que ces textes s'étalent sur 2 siècles, al-Muʿtamid étant l'objet de notices biographiques à trois périodes clés d'*al-Andalus* : la période almoravide, la période almohade et la période nasride. Les *Qalāʾid* et la *Ḏaḫīra* se distinguent par le fait qu'il s'agit des ouvrages les plus anciens, composés sous

---

islamique, à la composition de dictionnaires de ce genre. Ce type d'organisation peut aussi se rencontrer dans des œuvres appartenant à d'autres genres, comme les anthologies littéraires, les chroniques historiques ou les livres de fahāris. On peut citer, comme exemples clairs de cette assimilation de la biographie dans d'autres contextes historiographiques, al-Maṭmaḥ al-anfus, de Ibn Ḫāqān, la Iḥāṭa fī-aḫbār Ġarnāṭa de Ibn al-Ḫaṭīb, certaines parties du Muqtabis de Ibn Ḥayyān ou le Muʿǧam aṣḥāb Abī ʿAlī al-Ṣafadī de Ibn al-Abbār » (p. 44 -45).

[1] al-Fatḥ Ibn Ḫāqān, *Qalāʾid al-ʿIqyān*, Librairie al-Atika, Tunis, 1966.

[2] Ibn Bassām, *Al-Ḏaḫīra fī-maḥāsin Ahl al-Ǧazīra,* Edition Iḥsān ʿAbbās, Dār al-Ṯaqāfa, Beyrouth, 1997.

[3] ʿAbd al-Wāḥid al-Marrākuṣī, *Al-Muʿǧib fī talḫīṣ aḫbār al-Maġrib,* Dār al-Kitāb, Casablanca, 1978.

[4] Ibn al-Abbār, *Al-Ḥulla al-siyarāʾ fī-ašʿār al-umarāʾ*, Edition H. Monès, 2 vol., Le Caire, 1963.

[5] Ibn Ḫallikān, *Wafayāt al-Aʿyān*, Edition Iḥsān ʿAbbās, Dār al-Ṯaqāfa, Beyrouth, 8 vol., 1968.

[6] Ibn ʿIḏārī, al- *Bayān al-Muġrib fī Aḫbār al-Maġrib,* Edition Iḥsān ʿAbbās, Dār al-Ṯaqāfa, Beyrouth, 1980.

[7] Ibn al-Ḫaṭīb, *Aʿmāl al-Aʿyān*, Edition Sayyid Kasrawī Ḥassan, Dār al-kutub al-ʿilmiyya, Beyrouth, 2003.

le règne des Almoravides, donc peu de temps après la mort d'al-Muʿtamid, et que, à ce titre, ils constituent la matrice des ouvrages postérieurs. C'est la raison pour laquelle nous avons décidé, dans la mesure où les limites de cette communication ne nous permettent, ni d'analyser en détail les 7 notices, ni de traiter tous les aspects de la biographie du roi de Séville, de focaliser notre analyse sur quelques points des notices de la *Ḏaḫīra* et des *Qalāʾid*, qui, comme nous l'avons vu, sans nous interdire, toutefois, de renvoyer, chaque fois que nécessaire, aux autres textes.

L'emplacement de la notice d'al-Mu'tamid dans chacune de ces 2 œuvres

La notice sur al-Muʿtamid ouvre les *Qalāʾid*. Elle est consignée dans un chapitre intitulé : « *min maḥāsin al-ruʾasāʾ wa-abnāʾi-him* » (« *Des qualités et des actions louables de ceux qui furent à la tête [d'un état] et de leurs fils* »), d'emblée orienté, comme on le voit, dans le sens de l'éloge. Elle est en outre la notice la plus volumineuse de l'ouvrage (31 pages).

Dans la *Ḏaḫira*, en revanche, la notice [1] s'insère dans la partie consacrée à Séville et à sa région, partie qui vient après celle dédiée à Cordoue. Cordoue occupe toujours, dans l'œuvre d'Ibn Bassām, la position du centre, même si à l'époque où il rédige son anthologie, cette centralité n'est plus vérifiée dans les faits, tandis qu'il assigne à Séville une position périphérique par rapport à ce centre. Après avoir mis l'accent sur la splendeur de la vie culturelle dans cette ville, l'auteur annonce qu'il évoquera en premier lieu les Banū ʿAbbād, « *du fait de leur prodigieuse renommée et de la qualité de leur poésie* » (« *li-nabāhat ḏikri-him maʿa ǧawdat šiʿri-him* »). Après avoir consacré quelques pages au fondateur de la dynastie, le *qāḍī Abū al-Qāsim Muḥammad b. ʿAbbād*[2], puis à al-

[1] *Ḏaḫīra*, *op. cit.*, p. 41-80.
[2] *Ibid*, p.13 à 23.

Muʿtaḍid li-llāh[1], il en arrive au règne d'al-Muʿtamid ʿalā-llāh Muḥammad b. ʿAbbād[2].
Le volume de la notice, pour être significatif (39 pages), ne situe pas celle-ci pour autant parmi les plus conséquentes de l'ouvrage. On rappellera, à titre d'exemple, que celle dédiée à Ibn Šuhayd dépasse la centaine de pages. Cette mise en perspective permet de se faire une idée quant à la hiérarchie établie par l'auteur entre les différentes personnalités figurant dans l'anthologie. Le titre de la notice :« *Faṣl fī-ḏikr* *al-Muʿtamid ʿalā-llāh Muḥammad b. ʿAbbād* *wa-iğtilāb ğumlatin min šiʿri-hi maʿa mā yataʿallaqu min-al-aḫbār al-sulṭāniyya bi-ḏikri-hi* » met l'accent sur la double qualité du ʻabbādide, poète et souverain.

Organisation générale des notices

Au premier abord, les deux notices réunissent, à l'instar des ouvrages d'adab, des éléments disparates qui peinent à faire émerger la cohésion de la figure d'al-Muʻtamid. Pourtant elles sont, en réalité, organisées autour de l'opposition entre les deux versants de la vie du souverain : les années de règne et les années d'exil. Dans la *Ḏaḫīra* : on note une certaine disproportion entre les deux moments de la vie du prince, puisque les 23 ans de règne occupent 11 pages[3], tandis que les 4 années d'exil se déroulent sur 28 pages.[4]. Dans les *Qalāʾid*: le traitement est plus équilibré puisque la première partie occupe 17 pages[5], contre 12 pages pour la seconde partie de la vie du prince[6].
Cette organisation binaire des notices remplit plusieurs fonctions.

---

[1] *Ibid*, p. 23-41.
[2] *Ibid*, p. 41-80
[3] *Ibid.*, p. 41 à 52.
[4] *Ibid*, p. 52 à 80.
[5] *Qalāidʾ*, *op. cit.*, p. 4 à 21.
[6] *Ibid*, p. 22 à 34.

Elle concourt d'abord à la dimension d'édification de la biographie : la vie du roi est érigée en *exempla* : l'opposition entre gloire et déchéance, richesse et pauvreté, pouvoir et impuissance, sur laquelle tous les auteurs de notices insistent avec une complaisance certaine quand il s'agit de narrer la vie d'al- Muʿtamid, vise à entretenir chez le lecteur la conviction de la fragilité et de la réversibilité de tous les honneurs terrestres, conformément au code en vigueur dans la culture arabo-islamique

La seconde fonction de cette organisation binaire est d'opérer une mise en intrigue du récit, qui nous montre le passage du bonheur au malheur par l'intermédiaire d'un renversement du sort. Le récit se mue en tragédie, et al-Muʿtamid en héros tragique de sa propre vie. Paul Ricoeur a montré, dans *Temps et récit,*[1]que le récit historiographique ne faisait pas exception à la règle de cette mise en intrigue, laquelle prend la forme d'un tout avec un commencement, un milieu et une fin. Le milieu, ajoute Ricoeur, « *dans le modèle tragique a sa logique propre qui est celle du « renversement » (metabolè) (…) de la fortune à l'infortune* »[2] et « *les renversements caractéristiques de l'intrigue complexe sont, comme il est bien connu, le coup de théâtre (péripétéia) (…) et la reconnaissance (anagnôrisis) à quoi il faut ajouter l'effet violent (pathos)* »[3]. Dans la présentation générale d'al-Muʿtamid, les biographes insistent sur ce moment où bascule la destinée du roi. Ainsi, Ibn Ḫāqān écrit-il : « *puis la fortune se détourna de lui : elle lui ravit sa splendeur et fana ses frondaisons dans leur pleine maturité (…) il connut la soumission après avoir exercé le pouvoir, chutant de la sphère céleste [où il résidait] pour mordre*

[1] Paul Ricoeur, *Temps et récit,* Tome 1, Paris, Le Seuil, 1983, chapitre 2 : « La mise en intrigue », p. 55 à 83, dans lequel le philosophe procède à une relecture de la Poétique d'Aristote.

[2] *Ibid,* p.66.

[3] *Idem.*

la poussière ; il devint fétu porté par le vent, un émigrant poussé par les pleurs et les lamentations [1]». Il faudrait tenter de déterminer de quelle catégorie ce renversement mis en avant par les biographes relève, ce que nous n'aurons pas le temps d'établir ici. Quoiqu'il en soit, la mise en intrigue qui, comme l'écrit Ricoeur, « *est l'opération qui tire d'une simple succession une configuration*. [2]» organise les événements de l'histoire en une « *totalité intelligible* ».

Organisation des matériaux à l'intérieur des notices

Parmi les études portant sur la structure des dictionnaires biographiques, celle de Harmut E. Fahndrich, auteur de : *The Wafayāt al-Aʿyān of Ibn Khallikān: a new approch*[3], nous semble offrir une piste intéressante. Pour cet auteur, une grande partie des matériaux de l'oeuvre majeure d'Ibn Khallikān relève de l'adab, ce qui fait des *Wafayāt* un genre hybride[4], ce qui vaut tout autant pour les anthologies andalouses *al-Ḏaḫīra* et les *Qalāʾid*.

Fahndrich considère en outre que l'interprétation de toute œuvre littéraire, y compris historiographique, doit commencer par l'analyse des structures dans laquelle celle-ci a été transmise[5]. Pour ce faire, il se propose, dans un premier temps, de décomposer les biographies individuelles en unités plus petites[6].

[1] *Qalāʾid*, *op. cit*., p. 5: "*Ṯumma inḥarafat al-ayyām fa-alwat bi-išrāqi-hi wa-aḏwat yāniʿ īrāqi-hi (...) fa-tumullika baʿda-l-mulk wa-ḥuṭṭa min falaki-hi ilā-l-falak, fa-aṣbāḥa ḫaʾāyiḍan taḥdū-hu al-riyāḥ wa-nāhiḍan yazǧī-hi al-bukā wa-l-niyāḥ.*". Ibn Bassām, (*op. cit*., p. 56) plus sobre, se contente de la phrase : « *ṯumma iltawat bi-l-Muʿtamid al-ḥāl ayyāman yasīra*. ».

[2] Paul Ricoeur, *Temps et récit op. cit.*, p.102.

[3] Harmut E. Fahndrich, *The Wafayāt al-Aʿyān of Ibn Khallikān: a new approach,* Journal of the American Oriental Society, vol. 93; n°4 (oct. dec 1973), p. 432-445.

[4] *The Wafayāt*, *op. cit*., p. 437. P. 441, l'auteur caractérise les *Wafayāt* comme une « forme ouverte ».

[5] *Ibid*, p. 432.

[6] Selon cet auteur, les ouvrages biographiques arabes, qui sont fort nombreux, et qui n'ont pas d'équivalent dans les autres cultures, et dont l'apparition est en relation directe avec la construction de la communauté islamique ne s'intéressent pas tant aux traits individuels des personnes qui font l'objet de biographies qu'au contexte dans

Il distingue ensuite dans les biographies 2 types de données :
-un matériel factuel, d'abord, présent dans toute biographie et établissant la personne du point de vue généalogique, historique, géographique, philosophique, professionnel... Ce sont des faits qui en général ne changent pas d'un ouvrage historique à l'autre.
- un « matériel illustratif », *aḫbār* et *nawādir*, ensuite[1], dont l'origine est à chercher dans l'adab[2].
Fahndrich souligne en outre que les matériaux introduits sont filtrés par l'auteur : on observe ainsi des insertions, des inversions, des omissions. Certains faits sont introduits car considérés comme importants, tandis que d'autres sont exclus car considérés comme négligeables, C'est exactement ce qui se passe pour notre personnage, ce que nous aurons l'occasion de montrer[3].

Les données factuelles :

Celles-ci sont bien présentes dans les notices qui nous intéressent. Mais peut-on affirmer cependant que ces données sont uniquement factuelles ? Observons celles qui

---

lequel celles-ci fonctionnent en réseau. Voir aussi à ce sujet : *El Género biografico en al-Andalus*, de Maria Luisa Avila, *op. cit.*.
Fahndrich montre que la structure des notices obéit généralement au schéma suivant : des éléments onomastiques, qui s'articulent bien entendu à la présentation de la généalogie du personnage, puis la présentation du statut de ce dernier dans la chaîne de transmission du savoir à travers l'évocation de ses maîtres et de ses disciples, puis des anecdotes sur sa vie, enfin la date et les circonstances de sa mort. Le type de notice qui nous occupe dans cette étude reprend une partie de ces rubriques, cependant il s'écarte sur un point important de ce schéma : les informations sur la formation n'ont pas lieu d'être quand il s'agit d'un roi. La non intégration du souverain au réseau des savants ne signifie pas pour autant l'absence d'insertion de celui-ci dans un réseau. Seulement, il s'agit de réseaux d'un autre type : en premier lieu celui, vertical, de la chaîne dynastique, dont il est primordial de monter la continuité, entre les ascendants/fondateurs de la dynastie et les descendants, les enfants, même si ceux-ci ne règnent pas, et en second lieu le réseau, cette fois horizontal, constitué par les autres souverains de son temps ainsi que, comme nous le verrons, par les lettrés.

[1] *Ibid*, p. 438-439.

[2] Néanmoins, l'auteur prend soin de préciser que différencier strictement les matériaux factuel et illustratif serait une erreur, la différence entre les deux types de matériaux n'étant pas tant une différence de contenu qu'une différence de présentation (*ibid*, p. 438).

[3] Harmut E. Fahndrich, *The Wafayāt, op. cit.,* p.433.

établissent al-Muʿtamid du point de vue généalogie et historique.
A une exception près, notoire il est vrai, puisqu'il s'agit des *Qalāʾid*, qui, à notre grande surprise, ne fait aucune allusion à la généalogie du souverain, les notices que nous avons consultées renferment toutes des données généalogiques. Néanmoins celles-ci figurent souvent, non pas dans la notice dédiée à al-Muʿtamid, mais dans celles consacrées aux premiers ʿAbbāddides, en particulier le fondateur de celle-ci, le *qāḍī* Abū al-Qāsim[1]. Cette disposition permet de mettre l'accent sur la continuité existant entre le fondateur de la dynastie et son dernier représentant, mais, dans le même temps, elle réduit considérablement l'autonomie de la notice personnelle d'al-Mu'tamid, puisque des éléments essentiels à la caractérisation du personnage figurent ailleurs que dans les pages qui lui sont exclusivement consacrées.
Les choses se passent de cette façon dans la *Ḏaḫīra*[2], ainsi que dans le *Bayān*[3], où ces informations figurent dans le chapitre intitulé : « *ḏikr ibtidāʾ al-dawla al-ʿabbādiyya ʿalā-l-ğumla..* », Ibn ʿIḏārī citant explicitement Ibn

[1] M. 433h/1042.
[2] *Ḏaḫīra, op. cit.*, p. 13 et 14. Ibn Bassām mentionne comme source : le vizir Abū Rāfiʿ al-Faḍl b. ʿAlī b. Aḥmad b. Ḥazm al-Fārisī, fils du célèbre théologien et généalogiste, qui mourut à Zallāqa, en 479, faisant référence à son ouvrage : « *al-Hādī ilā-maʿrifat al-nasab al-ʿabbādī* », tout en précisant qu'il a du complété cette source à propos du *qāḍī* Ibn ʿAbbād. Voici ces éléments :*« Il s'agit de Abū al-Qāsim Muḥammad b. Ḏī al-wizāratayn Abī al-Walīd Ismāʿīl b. Muḥammad b. Ismāʿīl b. Qurayš b. ʿAbbād b. ʿAmr b. Aslam b. ʿAmr b. ʿIṭāf b. Nuʿaym. ʿIṭāf est celui qui arriva en al-Andalus dans les rangs de Balğ b. Bišr al-Quṣayrī ; ʿIṭāf était originaire de Ḥimṣ en Syrie, de lignage purement laḫmī (ou ouvertement, déclaré), il venait plus exactement d'un lieu nommé al-ʿarīš qui se trouve dans la zone des derniers puits entre l'Egypte et la Syrie, en al-Andalus il s'est installé dans un village nommé Yūmīna dans la région de Ṭušāna qui appartient au territoire de Séville. »* (« *huwa Abū al-Qāsim Muḥammad b. Ḏī al-wizāratayn Abī al-Walīd Ismāʿīl b. Muḥammad b. Ismāʿīl b. Qurayṣ b. ʿAbbād b. ʿAmr b. Aslam b. ʿAmr b. ʿIṭāf b. Naʿīm. Et ʿIṭāf huwa al-dāḫil min-hum bi-l-Andalus fī-ṭāʿat Balğ b. Bišr al-Quṣayrī, wa-kāna ʿIṭāf min-ahl Ḥimṣ min-ṣuqʿi al-Šām laḫmī al-nasab ṣarīḥan, wa-mawḍiʿu-hu min-Ḥims al-ʿarīš wa-l-ʿArīṣ fī-āḫir al-ğifār bayna Miṣr wa-l-Šām, wa-nazala bi-l-Andalus bi-qaryatin Yūmīna min iqlīm Ṭušāna min-arḍ Išbīliyya.* »).
[3] *Bayān*, T.III, p. 193-194.

Ḥayyān, dans une version très proche de celle fournie par Ibn Bassām[1]. Dans la notice dédiée au même *qāḍī* Abū al-Qāsim, la *Ḥulla* d'Ibn al-Abbār[2] reprend à son tour quasiment mot à mot les éléments donnés par Ibn Bassām, avec la même référence à Abū Rafiʿ, quand il d'agit de donner le nom complet du *qāḍī*. Ibn al-Abbār ajoute cependant à la fin une phrase qui rend le lien généalogique entre l'andalou et le roi *laḫmide* encore plus explicite que dans les autres textes : « *wa-qāla ġayru Abī Rāfiʿ inna-hum min-waladi al-Nuʿmān b. al-Munḏir b. Māʾ al-samāʾ, wa-bi-ḏālika kānū yafḫarūna wa-yumdaḥūna* »[3].
Le *Muʿǧīb*[4], quant à lui, est beaucoup moins précis, puisque, présentant lui aussi le *qāḍī* Abū al-Qāsim, il se contente de donner son nom, qu'il raccourcit de surcroît[5].
Dans les *Aʿmāl*, Ibn al-Ḫaṭīb évoque la généalogie en tête du chapitre intitulé « *ḏikr ayyām Banī ʿAbbād bi-išbīliyya wa-ġayri-hā* »[6]. Il introduit ces données par une phrase : «*Wa-Banū ʿAbbād min al-ʿArab al- dāḫilīna ilā-l-Andalus min-Laḫm* », puis cite Ibn Ḥayyān, en résumant les propos tenus dans le *Bayān*. Dans la notice spécifiquement consacrée à Abū al-Qāsim, il mentionne le nom complet

[1] Il y est question d'une famille (« rahṭ ») laḫmide qui se serait dispersée en *al-Andalus* : deux frères : Nuʿaym et ʿIṭṭāf auraient rejoint la partie occidentale de la Péninsule et se seraient installés dans le village de Yawmīn. De là certains de leurs descendants auraient rejoint Séville, où ils seraient entrés au service des Omeyyades et auraient occupé de hautes fonctions jusqu'à l'époque du *ḥiǧāba*. Dans la notice consacrée à Abū Qāsim, l'auteur reprend les données de la *Ḏaḫīra*.
[2] *Ḥulla, op. cit*. T. II, p. 34-35. Cependant, l'auteur ajoute que, concernant ʿIṭāf, les informations concernant son arrivée en *al-Andalus* (identiques à celles de la *Ḏaḫīra*) proviennent d'une autre source (« *ʿan ġayr Abī Rāfiʿ* »). Une phrase est ajoutée par rapport à la version de la *Ḏaḫīra* : « *wa-qīla inna ʿiṭāf wa-Nuʿaym humā al-dāḫilān maʿan ilā al-Andalus* ».
[3]*Idem* : « *D'après une autre source, ils seraient les descendants de al-Nuʿmān b. al-Munḏir b. Māʾ al-Samāʾ, ce dont ils s'enorgueillissaient et qui leur valut de nombreux éloges* ». Il cite ensuite des vers d'Ibn Labbāna.
[4] *Muʿǧib, op. cit*. p. 139.
[5] *al-qāḍī* Abū al-Qāsim Muḥammad b. Ismāʿīl b. ʿAbbād *al-laḫmī*.
[6] *Aʿlām, op. cit*. T. II, p. 147-148.

de celui-ci tel qu'il nous est apparu dans les autres notices[1].

Enfin, Ibn Ḫallikān[2], déclinant le nom d'al-Muʿtamid dans la notice qu'il lui consacre, est beaucoup moins prudent, puisqu'il le caractérise comme « *al-laḫmī, min-waladi al-Nuʿmān Ibn al-Munḏir al-laḫmī, āḫir mulūk al-Ḥīra* ». Puis sans donner de source, il évoque le parcours de Nuʿaym et de son fils ʿIṭāf[3].

Nous voyons donc, qu'avec une belle unanimité, les biographes insistent sur le fait que le lignage des ʿAbbādides ne fait pas de ceux-ci seulement des Arabes, mais aussi des descendants directs des *Laḫmides,* rois arabes préislamiques d'al-Ḥīra, qui régnèrent environ trois siècles, de 300 à 600 après J.-C**.** Les notices concordent sur le fait que l'origine de la souche andalouse du lignage ʿabbādide remonte à l'arrivée de deux orientaux ayant rejoint l'Espagne à l'époque de Balǧ b. Bišr[4], les deux hommes étant tantôt présentés comme des frères, tantôt comme un père et son fils[5].

Cette insistance sur la généalogie *laḫmide* est tout sauf anodine. En effet, et c'est le premier point, contrairement aux Abbassides, ou, en *al-Andalus*, aux alides ḥammūdites, les ʿAbbādides ne pouvaient se prévaloir d'aucune parenté proche ou lointaine avec le Prophète, et, contrairement aux Omeyyades, ils n'étaient pas davantage rattachés à la tribu des Qurayš. De ce fait, leur légitimité demeurait très faible. Les rapprocher de la prestigieuse

---

[1] Il se contente d'ajouter : « *wa-ʿIṭṭāf huwa al-dāḫil maʿa Balǧ b. Bašīr* ».

[2] *Wafafāt*, *op. cit.* T.V, p. 21.

[3] « *Les premiers à arriver en al-Andalus, originaires d'al-ʿArīš, la vieille ville séparant la Syrie et le pays égyptien au début du [désert de]sable*. »

[4] Balǧ b. Bišr b. ʿIyāḍ al-Qušayrī, capitaine arabe qui commandait la cavalerie syrienne dans l'armée envoyée contre les Berbères en 123/741 par le calife Hišām b. ʿAbd al-Malik, Après leur arrivée en Ifrīqiya, *Balǧ* et ses Syriens s'attirèrent, par leur rudesse et leur orgueil, l'inimitié profonde des Arabes africains, voir la notice « *Balḏj* » de EI2.

[5] Quant au nom du village les ayant accueillis sur le sol ibère, sa vocalisation varie selon les sources.

lignée *laḫmide* qui, notons-le, accordait à ses souverains également le titre *malik* (roi), était de nature à redorer substantiellement le blason des maîtres de Séville.
En outre, et c'est le second point, l'horizon du récepteur médiéval convoquait nécessairement, à l'audition du nom des *Laḫmides*, d'autres éléments de nature à accentuer l'impression de continuité entre les deux lignées : les *Laḫmides*, en effet, s'illustrèrent dans le soutien qu'ils apportèrent à la poésie. Le dernier d'entre eux, Al-Nuʿmān b. al-Munḏir, qui régna à la fin du VIe siècle (vers 580-602 après J. C), fit de sa capitale le plus grand centre de culture arabe avant l'Islam, et il fut un grand mécène. Son nom figure dans les plus anciens recueils de poèmes arabes, ayant été le destinataire de nombreux panégyriques, en particulier de la part du fameux poète al-Nābiġa al-Ḏubyānī. Néanmoins, son règne, qui avait commencé sous d'heureux auspices, se termina d'une façon désastreuse, puisqu'il fut mis à mort par le souverain sassanide Parwīz, qui le suspectait de velléités d'indépendance, et qui le fit piétiner par des éléphants, ce qui mit un terme à la dynastie *laḫmide*[1]. Les raisons d'établir un parallèle entre la trajectoire d'al-Muʿtamid et celle de Nuʿmān ne manquaient donc pas.
Au regard de ces éléments, il semble évident que la présentation de la généalogie d'al-Muʿtamid ne saurait être réduite à des données purement factuelles, et qu'elle participe déjà de façon très claire à l'élaboration de la figure du personnage.
Aux données factuelles dont il vient d'être question, et aux données illustratives, autrement dit les anecdotes, que nous aborderons plus loin, s'ajoutent, à notre sens, deux autres types de données, qui ne sont pas répertoriées par Fahndrich, mais qui constituent pourtant une part non négligeable du matériel de la biographie,.

[1] Voir la notice : « lakhmide » dans EI2.

Il s'agit, d'abord, des extraits de poèmes composés, soit par al-Muʿtamid, soit, par des personnes de son entourage. Il faudrait pouvoir examiner le statut de ces vers, qui sont présentés, la plupart du temps, lorsqu'ils sont contextualisés, comme une illustration des anecdotes. En réalité, il semble bien souvent que ce soit, au contraire, le poème lui-même qui constitue la source, parfois unique, du micro-récit.

Le quatrième type de données devant, à notre sens, être pris en considération est constitué par tous les jugements appréciatifs, que ceux-ci soient émis directement par l'auteur de l'ouvrage, ou par ses sources, et qui ne sont ni des données factuelles, ni des récits. En ce qui concerne al-Muʿtamid, ces données relèvent la plupart du temps du registre épidictique, très proche de celui que l'on rencontre dans les panégyriques. Mais il faut noter que ce n'est pas le cas pour tous les personnages rencontrés dans les notices et que, au-delà de l'emphase propre à ce type de discours, ces jugements nous renseignent sur les options idéologiques ou politiques des différents auteurs. S'ils sont généralement suivis de données illustratives censées les confirmer, ils doivent, à mon sens, être nettement différenciés de ces dernières[1].

Les jugements exprimés sur al-Muʿtamid portent autant sur les dons littéraires[2] du personnage que sur ses vertus[3], et visent à l'élaboration d'une figure chargée de sens conforme aux valeurs régissant la société. En effet, les qualités accordées à al-Muʿtamid sont pour l'essentiel

---

[1] Paul Ricoeur écrit dans *Temps et récit (*1), *op. cit*., p. 93 : « *En fonction des normes immanentes à une culture, les actions peuvent être estimées ou appréciées, c'est-à-dire jugées selon une échelle de préférence moral (...) Ces degrés de valeur, attribués d'abord aux actions, peuvent être étendus aux agents eux-mêmes, qui sont tenus pour bons, mauvais, meilleurs ou pires*. ». Il ajoute (p. 94) : *« la compréhension pratique que les auteurs partagent avec leur auditoire comporte nécessairement une évaluation des caractères et de leur action en termes de bien et de mal. Il n'est pas d'action qui ne suscite, si peu que ce soit, approbation ou réprobation*. ».

[2] Chez Ibn Bassām, l'accent est mis, au début de la notice, sur les dons littéraires du souverain. Voir *Ḏaḫīra, op. cit*. p. 41-42.

[3] Ici, il s'agit de vertus mais, pour d'autres personnages, il peut s'agir de tares.

celles attribuées généralement au *mamdūḥ* dans la tradition arabe du panégyrique (et qui recoupent généralement les vertus arabes traditionnelles du *sayyid*), et ressortent donc du genre des *manāqib* : il s'agit principalement du courage, de la loyauté et de la générosité, vertus qui, dans les notices, apparaissent surdimensionnées par rapport à des qualités généralement attendues d'un souverain, tels que le sens politique, la bonne gouvernance, etc..
Ainsi, tout le début de la notice des *Qalāʾid* s'apparente à un panégyrique.
La convocation de ces vertus arabes cardinales ne sert pas uniquement à caractériser le personnage central de la biographie, mais également à le mesurer, implicitement ou explicitement, à certains de ses contemporains, ainsi qu'à caractériser tout un réseau de personnages secondaires. C'est là encore un fait qui réduit la portée de la biographie individuelle. Car en réalité, la figure du roi de Séville telle qu'elle apparaît dans les notices ne prend son sens que dans le cadre d'une constellation de figures possédant des traits distinctifs opposés. Ce qu'ont montré Tzvetan Todorov et Philippe Hamon[1] à propos du personnage de fiction, à savoir que les traits distinctifs des personnages d'un même récit se trouvent en rapport d'identité ou d'opposition, vaut sans aucun doute aussi pour les personnages des biographies qui nous intéressent.
Ainsi, de nombreux personnages gravitant autour d'al-Muʿtamid sont-ils classés, par exemple, en fonction du degré de leur générosité, le roi conservant néanmoins toujours la primauté en ce domaine. Ayant évoqué l'amitié unissant le poète Ibn al-Labbāna[2] à al-Muʿtamid [3], Ibn

[1] Voir, dans *Poétique du récit*, l'article de Philippe Hamon, « Statut sémiologique du personnage », Paris, Le Seuil, 1977, p. 115 à 180, en particulier p. 129-132.
[2] M. 507h/1113.
[3] *Ḏaḫīra, op. cit*, p. 61-62: « *wa-kāna Abū Bakr al-Dānī māʾilan li-banī ʿAbbād bi-ṭabʿi-hi* ».

Bassām raconte[1], que le poète, à l'issue d'une visite effectuée à Aġmāt, se vit offrir par le souverain déchu ses derniers *mi*t*qāl*[2]. La noblesse d'âme d'Ibn Labbāna lui fit refuser le présent[3]. Cette anecdote, que l'on pourrait intituler : « à généreux, généreux et demi » concourt à la caractérisation des 2 hommes.

Sur ce plan, la figure d'Ibn al-Labbāna s'oppose en tous points à celle d'un autre poète, al-Ḥuṣrī al-Makfūf al-Qarawī[4], venu en *al-Andalus* au temps des *Tawāʾif*[5]. Ibn Bassām nous montre celui-ci rendre visite al-Muʿtamid emprisonné à Tanger[6]. Al-Ḥuṣrī déclame devant le souverain déchu une poésie qu'il avait composée avant sa destitution, et, par conséquent, nullement appropriée à la circonstance. al-Muʿtamid tient néanmoins à le récompenser et lui offre tout ce qu'il possède, soit 30

---

[1] Prétendant tenir le propos de la bouche même d'Ibn Labbāna : *Ibid* : « *ḥaddaṯa al-Dānī ʿan-nafsi-hi qāla* ».

[2] *Ibid*, p. 62-63. Ibn Bassām cite les 9 v. (rime « *rī* ») composés par al-Muʿtamid en cette occasion.

[3] *Ibid*, p. 63-66 : Ibn Bassām cite l'échange de vers entre les 2 hommes à ce sujet.

[4] Il s'agit d'Abū l-Ḥasan ʿAlī b. ʿAbd **a**l-Ġanī **al**-Fihrī, «lecteur» et poète aveugle célèbre, né à Kairouan vers 420/1029; il quitta sa ville natale en 449/1057-8 lors de l'invasion hilālienne et se rendit en *al-Andalus* vers 462/1069-70, à l'invitation d'al-Muʿtamid. il demeura à la cour de Séville jusque vers 468/1075-6 Voir dans EI2 la notice de CH. Bouyahya qui écrit : « *Sollicité par les mulūk* ***al-****ṭawāʾif qui rivalisaient de générosité à son égard et fuyant les nombreux envieux et ennemis que la faveur des princes tout autant que son talent poétique, l'étendue de sa science, son orgueil hautain, son mépris à peine déguisé de l'Espagne, de certains de ses roitelets, de son peuple et de ses savants, ainsi que ses satires agressives et acerbes n'avaient pas manqué de dresser contre lui, il parcourut la péninsule, séjournant notamment à Malaga, Dénia, Valence, Alméria, Murcie, avant d'aller s'établir, en 483/1090-1, à Tanger où il mourut en 488/1095. (...)ʿAlī* ***al-Ḥuṣrī*** *est considéré comme l'un des meilleurs représentants de l'essor littéraire qui eut lieu sous les Zīrides et dont il contribua, avec d'autres exilés ifrīḳiyens, à répandre l'éclat en Espagne où il faisait figure de chef de file (zaʿīm d̲jamāʿa, dira Ibn Bassām)* ». Les panégyriques qu'il dédicaça à al-Muʿtamid sont groupés dans *al-Mustaḥsan min al-asšʿār.* Ch. Bouyahya présente une interprétation différente de l'épisode mentionné dans les biographies d'al-Muʿtamid, indiquant que le poète « *offrit [ces panégyriques] en un suprême et touchant hommage à son ancien mécène lors du passage de ce roi déchu à Tanger en 484/1091-2 sur la route de l'exil*. ».

[5] *Ibid*, p 66-67.

[6] *Ibid*, p 66 : « *qad taṣaddā ilā-al-Muʿtamid fī-ṭarīqi-hi wa-hwa fī-tilka al-ḥāl min al-iʿtiqāl* ».

miṯqāl, en s'excusant du peu. Al-Ḥuṣrī ne prend pas la peine de lui répondre[1]. La figure d'al-Ḥuṣrī apparaît nettement dans ce micro-récit comme la figure inverse de celle d'Ibn Labbāna**.** Il en va de même avec la figure, cette fois collective, d'un groupe de poètes « mendiants » résidant à Tanger, qui nous sont montrés, dans certaines notices, accourant auprès d'al-Muʿtamid dans le seul but de recevoir des subsides de la part du souverain déchu[2].
La figure d'al-Muʿtamid s'oppose-t-elle, comme on pourrait le penser, à celle du responsable de sa chute et de sa déchéance : Yūsuf Ibn Tāšfīn ? La figure du chef almoravide varie dans des proportions non négligeables dans les 7 notices que nous avons observées. Indéniablement, néanmoins, les succès remportés par Yūsuf b. Tāšfīn contre les Chrétiens assurent à ce dernier, en dépit de sa responsabilité directe dans la fin tragique d'al-Muʿtamid, un statut au moins ambigu.
Dans les deux notices que nous analysons en détail, il apparaît au premier abord comme un personnage aux traits valorisés. Cette valorisation s'explique aussi par le fait qu'aussi bien Ibn Bassām qu'Ibn Ḫāqān vécurent durant le règne des Almoravides et qu'il leur était donc très difficile de présenter ces derniers sous un jour négatif[3]. Un passage de la notice de la *Ḏaḫīra* a attiré particulièrement notre attention, qui témoigne de la volonté d'Ibn Bassām d'épargner la figure de Yūsuf b. Tāšfīn, de le dédouaner de sa responsabilité à d'al-Muʿtamid. On lit en effet dans

[1] *Ibid*, p .67 (3 autres vers de al-Muʿtamid. (rime « ah »).
[2] Cet épisode figure dans la *Ḏaḫīra, op. cit.,* p. 67, dans les *Wafayāt*, *op. cit.,* p. 36, dans la *Ḥulla*, *op. cit.,* p. 67, dans le *Muʿǧib, op. cit.,* p. 212. La figure d'Ibn Labbāna s'oppose aussi parfois à celle d'Ibn ʿAmmār, autre personnage central de la vie d'al-Muʿtamid.
[3] Les deux anthologues n'eurent néanmoins pas la même expérience de ce régime, puisque le premier, après avoir été chassé de Santarem par les Chrétiens, trouva à Séville un asile qui lui permit de se lancer dans la conception de son anthologie, tandis que le second ne réussit jamais à obtenir un poste prestigieux dans la chancellerie almoravide et finit assassiné.

les lignes évoquant la déportation d'al-Muʿtamid sur la rive du Maghreb:

«*Ils (*al-Mu'tamid et les siens*) demeurèrent là-bas sous sa protection, comblés par ses dons et ses bienfaits sans limite, jusqu'au jour de sa mort, qui s'empara de lui à l'issue d'une grave maladie ; son décès survint en Rabīʿ al-awwal de l'an 88 alors qu'il était né en Rabīʿ al-awwal de l'an 31.* [1] ».

Ces lignes expriment-elles toute l'ironie d'Ibn Bassām ? Ou bien témoignent-elles de l'extrême prudence de l'auteur ? Quoiqu'il en soit, le passage tranche de façon singulière avec la teneur de ceux évoquant les années de captivité à Aġmāt, où sont présentés, plus sombres les uns que les autres, des poèmes composés, soit par al-Muʿtamid, soit par Ibn Labbāna, et des anecdotes ne laissant aucun doute sur la nature du séjour du roi de Séville à Aġmāt, et dans lesquels une formule telle que : « *wa-hwa fī-tilka al-ḥāl min al-iʿtiqāl* [2]» (« *alors qu'il se trouvait dans cet état d'incarcération* ») vient en quelque sorte apporter un cuisant démenti au passage cité plus haut.

Nous verrons un peu plus loin comment la juxtaposition de micro-récits mettant en scène séparément al-Muʿtamid et Yūsuf b. Tāšfīn est un autre procédé employé pour permettre au lecteur de réévaluer sérieusement la figure du chef berbère.

La figure principale, en l'occurrence celle d'al-Mu'tamid, se révèle donc indissociable du réseau constitué par toutes les figures secondaires. Les anthologues disposent d'une certaine la latitude pour étendre ou restreindre les dimensions de ce réseau. Ainsi, nous observons qu'Ibn

---

[1] *Ibid*, p. 57: « *Fa-baqū hunālika fī-kanafi-hi wa-ḏarā faḍli-hi taḥta iḥsān ʿamīq wa-baḏl nāʾil ǧasīm, ḥattā inqaraḍat hunālika ayyāmu-hu wa-wāfā-hu ḥimāmu-hu, baʿda maraḍ šadīd aṣāba-hu, wa-kānat wafātu-hu fī rabīʿ al-awwal sanata 88 wa-kāna mawlidu-hu fī-Rabīʿ al-awwal sanata 31.* ».

[2] *Ibid*, p . 66.

ʿAmmār[1], personnage controversé mais central dans la vie d'al-Muʿtamid, tant du fait de ses activités politiques, de son talent poétique incontestable, que de celui de la relation étroite et tumultueuse qu'il entretint avec le roi, est absent de la notice dédiée à ce dernier aussi bien dans la *Ḏaḫīra* que dans les *Qalāʾid*. Les deux anthologies ont fait le choix de consacrer à Ibn ʿAmmār une longue notice personnelle, et c'est dans celle-ci que sont évoqués certains aspects de sa relation avec al- Muʿtamid[2].
Néanmoins, comme le note Hartmut E. Fahndrich : « *la différence essentielle entre un dictionnaire biographique, tel al-Wafayāt, et une monographie biographique, tel les Memorabilia de Xenophon tient au fait que, dans le premier type d'ouvrage, chaque individu est inséré dans un double contexte : celui de sa propre vie, telle que présentée dans sa biographie, et celui des vies de tous les autres individus dans le dictionnaire biographique, tandis que dans le second type d'ouvrage, il n'y a qu'un seul et unique contexte.*» [3]. Autrement dit, la notice consacrée à al-Muʿtamid ne prend tout son sens, pour le lecteur, qu'associé aux notices de tous ceux dont la vie fut mêlée à celle du roi de Séville.
Certaines œuvres plus tardives, tels les *Aʿmāl*, par exemple, intègrent en revanche les données sur Ibn ʿAmmār à l'intérieur de la notice dédiée à al-Muʿtamid, ce qui permet à Ibn al-Ḫaṭīb de déplorer que le souverain n'ait pas su exercer son pardon et éviter à Ibn ʿAmmār le châtiment suprême. Ainsi, après avoir rappelé que le roi avait lui-même, et sans aucune aide extérieure, exécuté son vieil ami, il cite l'énoncé sapiential suivant : « *Nous avons davantage de prise sur ce que nous n'avons pas commis que sur ce que nous avons commis et souhaiterions rectifier. Que Dieu nous permette de garder*

[1] Abū Bakr Ibn ʿAmmār, m. 478/1085.
[2] *Qalāʾid*, *op. cit.*, p. 93 à 111, et *Ḏaḫīra*, *op. cit.*, vol II, t. 1, p. 368 à 433.
[3] Hartmut E. Fahndrich , op. cit., p. 436.

le contrôle sur nous-mêmes et de préparer le lendemain la veille. » [1] . Ce manque de magnanimité à l'égard d'Ibn ʿAmmār qui est reproché au souverain est mis par l'auteur sur le compte de son impulsivité.

Enfin, la marge de manœuvre des auteurs des notices réside aussi dans le choix des récits illustrant la vie du personnage (« données illustratives ») sur lesquelles nous allons à présent nous arrêter. Nous remarquons d'abord que certains des épisodes de la vie du souverain sont communs aux notices des *Qalāʾid* et de la *Ḏaḫīra*, tandis que d'autres ne figurent que dans l'une des deux notices, et que les biographes postérieurs sélectionnent les récits tantôt dans le premier ouvrage, tantôt dans le second, tantôt dans les deux, en fonction de critères qui parfois nous échappent encore.

Nous avons choisi de nous intéresser à trois épisodes de la vie d'al-Muʿtamid, dont le traitement par Ibn Bassām et Ibn Ḥāqān nous a paru particulièrement significatif. Il s'agit, dans l'ordre chronologique, de :

-L'épisode de Malaga, qui figure d'ailleurs dans la plupart des notices ultérieures

-l'épisode de la conspiration ourdie contre le célèbre poète Ibn Zaydūn[2] à la cour d'al-Muʿtamid.

-le récit des derniers jours du règne et de la déportation du roi.

Observons en premier lieu comment les deux premiers épisodes sont présentés.

Ceux-ci figurent plutôt, comme la chronologie l'exige, au début des notices. Chez Ibn Ḫāqān, la conspiration Ibn Zaydūn figure en 6[e] position[3], immédiatement suivie de l'épisode de Malaga, lequel occupe 2 pages[4]. Chez Ibn

[1] *Aʿmāl, op. cit.,* p. 158-159*:* « *Anta ʿalā mā lam tafʿal-hu aqdaru min-ka ʿalā raddi mā-faʿalta-hu. Ǧaʿala-nā Allāhu mimman yamliku ʿinān nafsi-hi wa-yuqqadima l-ġadi-hi fī-amsi-hi.* ».

[2] M. 463h/1071.

[3] *Qalāʾid*, *op. cit*., p. 16-17.

[4] *Ibid,* p.20-21.

Bassām, les récits sont inversés, puisque l'épisode de Malaga figure en seconde position, tandis que celui de la conspiration intervient juste après (3e position).[1]
Le tableau ci-dessous montre l'emplacement des anecdotes que nous allons analyser dans les 2 notices :

Ḏaḫīra : 17 rubriques ***Qalāʾid*** : 20 rubriques 1-Mine joyeuse d'Abū Bakr b. Zaydūn lors du départ d'Ibn ʿAmmār à Silves 2-Episode Malaga 3-Conspiration contre Ibn Zaydūn 4-Vers de désespoir composés après la destitution et récit de la déportation 6 - Conspiration contre Ibn Zaydūn 7-Jugements très négatifs sur Bādis b. Ḥabbūs à Grenade, expédition de Malaga et son fiasco 10-Longue description de la lutte d'al-Muʿtamid durant le siège de Séville et de sa reddition 11- Départ des bateaux.

L'épisode Ibn Zaydūn :
Rappelons brièvement les faits : Abū al-Walīd Ibn Zaydūn, poète et homme politique de premier plan, avait été le maître d'Al-Muʿtamid dans l'art poétique, et celui-ci le tenant en haute estime. Or, au début de son règne, des « conspirateurs » tentèrent de ternir son image d'auprès du roi et de provoquer sa disgrâce. Al-Muʿtamid ne se laissa pas abuser : il déjoua la conspiration, et rassura Ibn Zaydūn au travers d'un poème. Celui-ci lui répondit par le même moyen pour lui témoigner sa gratitude.
Dans les *Qalāʾid*, Ibn Ḫāqān donne une certaine ampleur à cet incident, qui révèle de la part du roi une attitude

[1] *Ḏaḫīra, op. cit.*, p. 47 à 51.

exemplaire. Placé, nous l'avons vu en 6e position de la notice, l'épisode est précédé de récits qui lui donnent encore davantage de sens.
Dès la p. 4, en effet (1er épisode), l'auteur évoque[1] la mine joyeuse arborée par Abū Bakr Ibn Zaydūn[2], qui n'est autre que le fils du poète, le jour du départ à Silves d'Ibn ʿAmmār, vizir et compagnon intime du roi, pour y prendre la charge de gouverneur[3]. Ce passage est en fait investi d'une double fonction, puisqu'il est à la fois l'occasion pour l'auteur de nous montrer al-Muʿtamid sombrer en cet instant dans la nostalgie du séjour passé jadis dans cette même ville de Silves en compagnie d'Ibn ʿAmmār, et celle d'évoquer, de manière allusive, l'inimitié du fils d'Ibn Zaydūn à l'égard d'Ibn ʿAmmār. Lorsqu'on sait que les deux hommes se positionnèrent constamment en rivaux, et que, après la disgrâce d'Ibn ʿAmmār, Abū Bakr Ibn Zaydūn succéda à celui-ci à la tête de l'Etat, on comprend que ce genre de détail ne peut avoir été inséré fortuitement.
Abordant ensuite l'épisode de la conspiration ourdie contre Ibn Zaydūn, qui se produit au tout début du règne de al-Muʿtamid, Ibn Ḫāqān utilise une forme indéfinie (« *ṯārū ilā ṭalab Ibn Zaydūn wa-ǧāšū, wa-baraw fī-l-baġy la-hu…* »)[4], qui laisse dans l'ombre l'identité des auteurs du complot. Néanmoins, le lecteur est tenté d'établir une relation entre les deux micro-récits quasiment juxtaposés, et d'imaginer un lien de causalité entre l'antipathie l'égard d'Ibn ʿAmmār exprimée dans un sourire par Abū Bakr Ibn Zaydūn à, et la responsabilité du premier dans le complot.
Ibn Ḫāqān cite ensuite la diatribe composée contre Ibn Zaydūn, dans laquelle les conspirateurs incitent

---

[1] D'après le récit d'un contemporain, le *kātib* Ibn al-Qaṣīra, qui devait sa carrière au poète Abū al-Walīd Ibn Zaydūn.

[3] *Qalāʾid, op. cit.,* p. 5 :« *fī-l-yawm allaḏī ḫarağa fī-hi Ibn ʿAmmār ilā šilba maʿa-hu muftaqidan li-aʿmāli-hā* ».
[4] *Ibid,* p. 15-16.

notamment al-Muʿtamid à agir avec la même détermination que celle qui caractérisait son père avec ses ennemis. Or al-Muʿtamid n'accorde aucun crédit à ces rumeurs[1]. Pour Ibn Ḫāqān, La réaction du roi en cette occasion atteste de sa noblesse de caractère et de son aptitude innée à gouverner[2]. L'auteur énonce alors une sentence à portée générale : l'un des plus beaux attributs des rois est de savoir rester sourd aux propos calomnieux[3].

Or, cette phrase prend tout son sens si on la met en relation avec le récit précédant celui de la cabale contre Ibn Zaydūn, qui évoquait la conspiration ourdie par al-Muʿtaṣim Ibn Ṣumādiḥ, maître d'Alméria[4], contre al-Muʿtamid[5]. Al-Muʿtaṣim avait en effet, tout comme al-Muʿtamid, participé à la bataille de *Zallāqa*, aux côté de Yūsuf Ibn Tašfīn. Cependant il semble que le maître d'Alméria n'ait eu de cesse que de troubler les relations entre al-Muʿtamid et le chef almoravide[6]. Ce travail de sape entrepris auprès de Yūsuf Ibn Tašfīn sera, selon l'auteur, couronnée de succès.

Le crédit accordé par Yūsuf Ibn Tašfīn à ces calomnies constitue un trait opposant les figures du roi de Séville et du chef almoravide : le premier possède la faculté « royale » de déjouer les pièges des conspirateurs, contrairement au second, dont l'image apparaît ici ternie. Il semble bien donc que l'une des raisons d'être du micro-récit sur la conspiration menée contre Ibn Zaydūn soit

[1] *Idem*: « *ʿaffa ʿammā arādū-hu wa-kaffa alsinat allaḏīna kādū* ».

[2] *Idem*, p. 15: « *min-manāziʿi-hi al-šarīfa wa-maqāṭiʿi-hi al-munīfa wa-šiyamihi al-malakiyya wa-himami-hi al-falakiyya* », et p. 17: « *dallat ʿalā taḥaqquqi-hi bi-l-riyāsa* ». Cette réaction lui vaut en retour un long panégyrique de la part d'Ibn Zaydūn, lui aussi cité par l'auteur (*Ibid*, p. 18-19).

[3] *Idem : « fa-ağmalu ḥulliyyi al-mulūk al-taṣāmum ʿan samāʿ al-qadḥ fī walī, wa-l-hağr li-man baġā wa-l-zağr li-man naʿaba bi-makrūh »*.

[4] 443-484/ 1052-1091.

[5] *Ibid*, p. 14-15.

[6] *Ibid : « wa-yufsidu mā bayna-hu wa-bayna al-Muʿtamid ...* », l'auteur emploie plus plus loin l'expression: « *qubḥ saʿyi-hi* », pour qualifier l'attitude d'al-Muʿtaṣim.

aussi d'opposer les deux figures d'al-Muʿtamid et d'Ibn Tašfīn. Mais il revient au lecteur de faire le lien entre les récits, l'auteur, quant à lui, se contentant de juxtaposer ceux-ci.
Nous l'avons dit, l'épisode « Ibn Zaydūn » figure dans les *Qalāʾid* juste avant celui de Malaga, contrairement à l'ordre chronologique. Chez Ibn Bassām, en revanche, l'ordre chronologique est respecté. Dans la *Ḏaḫīra*, l'épisode Ibn Zaydūn est moins développé et plus condensé que dans les *Qalāʾid*[1]. En outre, il n'y est pas associé à l'anecdote montrant Abū Bakr Ibn Zaydūn se réjouir du départ de Ibn ʿAmmār. Le flou savamment orchestré par Ibn Bassām quant l'auteur de la conspiration contre Ibn Zaydūn, grâce à l'emploi du passif et de tournures impersonnelles, n'interdit pas néanmoins les soupçons de se porter sur Ibn ʿAmmār[2].

L'épisode de Malaga :

Cet épisode, qui a beaucoup retenu l'attention des biographes, est encore davantage représentatif. Comment l'interpréter ? Il nous semble voir dans cette débâcle de Malaga une sorte de répétition générale de l'issue du règne de al-Muʿtamid puisque, dans les deux cas[3], l'inconséquence du roi entraîne la victoire des Berbères avec, dans le second cas, la ruine de sa dynastie.

---

[1] *Ḏaḫīra, op. cit.*, p. 51.

[2] *Ibid : « wa-rufiʿa ilā-l-Muʿtamid, ṣadra dawlati-hi šiʿr, ʿuziya ilā-baʿḍ al-aṣḥāb mina-l-wuzarāʾ al-kuttāb, yuʿarriḍu bi-Abī -l-Walīd b. Zaydūn fī-hi »*(*« Au début de son règne, on fit porter à al-Muʿtamid un poème dont on attribua la paternité à l'un de ses amis vizirs et kuttāb, dans lequel Abū al-Walīd Ibn Zaydūn était calomnié.»*). Ibn Bassām se contente ensuite de citer le début de ce texte (6 vers), tandis qu'Ibn Ḫāqān en présente ce qui semble être l'intégralité (27 v). Il nous dit ensuite qu'al-Muʿtamid, ayant compris l'objectif visé par le poème, composa sa réponse versifiée au verso même de celui-ci. Cette fois, les deux auteurs citent les mêmes 7 vers. Mais, contrairement encore une fois à Ibn Ḫāqān, Ibn Bassām réduit le texte de la réponse d'Ibn Zaydūn à 8 vers, choisis à différents moments du poème.

[3] Citons, pour la fin de son règne, et selon les sources : son appel àYūsuf Ibn Tašfīn malgré les conseils de ses proches, ou encore sa demande d'assistance aux rois chrétiens.

L'épisode est précédé du rappel des troubles ayant suivi l'effondrement du califat[1]. Ibn Ḫāqān enchaîne ensuite directement sur l'évocation du règne du ziride Bādīs b. Ḥabūs, sur lequel il porte un jugement extrêmement sévère : « *A Grenade [durant ce temps], Bādīs b. Ḥabūs secondé par avec ses partisans, commettait ses crimes, tournant le dos à la voie de la justice, entreprenant des actions contre Dieu en toute insouciance, laissant libre cours à sa volonté, sans envisager les conséquences de ses actes.* »[2]. Fait encore plus grave, le berbère confie au juif Ibn Naġrīlla les rênes du pouvoir[3], ce qui ne tarde pas à arriver aux oreilles d'al-Muʿtaḍid. Comme c'est toujours le cas, l'accent est mis sur la vaillance de ce roi qui n'hésite pas à « *aller chercher les proies dans la gueule des serpents* », et qui dépêche derechef son armée, menée par son fils al-Muʿtamid, à Malaga. Tout se passe au début pour le mieux. La ville semble en effet accueillir l'armée du prince avec un certain soulagement[4]. A une exception près, cependant : sa citadelle, dans laquelle s'est retranché un groupe d' « hommes noirs maghrébins »[5]. C'est là l'expression consacrée dans les notices pour désigner ces hommes résistant à la conquête '*abbādide*. Inutile de dire que ces deux termes ont ici une connotation fort péjorative. Les occupants de la citadelle réussissent à prévenir Bādīs, qui lève aussitôt une armée. En un paragraphe, Ibn Ḫāqān décrit les erreurs commises par al-Muʿtamid[6] : celui-ci écoute les conseils que lui prodiguent ses « Berbères » (« *barābiru-hu* ») qui le dissuadent

[1]*Qalāʾid, op. cit.,* p.20.

[2] *Ibid*: « *wa-kāna Bādīs b. Ḥabūs bi-Ġarnāṭa ʿāṯiyan fī-farīqi-hi, ʿādilan ʿan sunan al-ʿadl wa-ṭarīqi-hi, yağtarī ʿalā-Allāh ġayr murāqib, wa-yağrī ilā mā yašāʾu ġay multafit li-l-ʿawāqib* ».On voit bien ici que les jugements prononcés par les biographes peuvent prendre la forme d'un dénigrement du personnage, donc être rapprochés du genre *hiğāʾ*.

[3] *Ibid* : « *ilā an wakala amra-hu ilā aḥad al-yahūd wa-stakfā-hu* ».

[4] *Ibid* : « *Fa-lammā aṭalla ʿalay-hā aʿṭat-hu Safqata-hā wa-amṭat-hu ṣahwata-hā* ».

[5] *Ibid* : « *illā qaṣbata-hā fa-inna-hā-mtanaʿat bi-ṭāʾifa min al-ṣūdān al-Maġāriba* ».

[6] *Ibid*, p.21.

d'attaquer le groupe retranché dans la citadelle. En outre, l'auteur nous montre al-Muʿtamid se réfugier en cet instant crucial dans les plaisirs, ce qui a pour conséquence la dispersion de ses hommes qui eux aussi lâchent la bride à leur goût pour les femmes et le vin, si bien que le prince n'a d'autre solution, au final, que de chercher asile dans un fortin. Cette défaite met son père dans une terrible colère : « *al-Muʿtaḏid éprouva [alors] une haine envers [son fils] qui s'était laissé distraire par les gens de la citadelle et qui avait prêté l'oreille à cette bande* »[1]. Ibn Ḫāqān cite alors les deux premiers vers du poème d'*iʿtiḏār* envoyé par al-Muʿtamid à son père [2] : *« Mon seigneur, je viens me plaindre à vous d'un mal qui a blessé mon cœurVotre colère a encore aggravé ma maladie, envoyez-moi une marque de votre assentiment qui me guérira »*.

Ces vers, nous dit Ibn Ḫāqān, lui font obtenir le pardon paternel. L'auteur ajoute qu'al-Muʿtamid avait auparavant déjà adressé un poème d'excuses à son père, dans lequel il attaquait les Berbères. Il cite ensuite un extrait de ce poème[3], qui figure parmi les pièces les plus célèbres d'al-Muʿtamid, puisqu'il sera pratiquement repris par tous les anthologues et historiens, et jouira de la réputation d'être une œuvre accomplie.

Dans la *Ḏaḫīra*, le récit de l'épisode « Malaga » est réparti dans deux rubriques. La première est intitulée : « *mā aḫrağtu-hu min-maqṭūʿāti-hi al-sulṭāniyya allatī ağrā-hā mağrā al-iḫwāniyya* » [4]. Ce titre annonce le caractère

---

[1] *Idem* : *« fa-ḥaqida la-Muʿtaḏid ʿalay-hi bi-tanfīsi-hi li-ahl al-qaṣba wa-iṣāḫati-hi ilā tilka al-ʾuṣba ..»*.

[2] *Ibid*, mètre *basīṭ mağzūʾ*. Les 2 vers cités dans les *Qalāʾid* sont le premier et le troisième vers du texte que l'on trouve dans le *Dīwān* d'al-Muʿtamid, p 33 (sur un total de 5 vers) :

Mawlāya aškū ilay-ka dāʾan aṣbaḥa qalbī bi-hi ğarīḥā / Suḫṭu-ka qad zāda-nī saqāmā fa-bʿaṯ ilayya-r-riḏā masīḥā

[3] Il cite 11 vers de ce poème qui en comprend 40 (*Ibid* , p .21-22) (mètre *basīṭ*) . Voir aussi *Dīwān*, p. 36 à 38.

[4] *Ḏaḫīra*, *op. cit*. p. 46-48 :« *Fragments de sa correspondance officielle à laquelle il a a donné la forme d'une correspondance privée* ».

« hybride » des textes présentés, textes en relation avec la vie publique et protocolaire du souverain, mais auxquels ce dernier confère un ton qui est celui habituellement dévolu à un contexte amical et intime. La seconde de ces rubriques est nommée : «*Ḏikr al-ḫabar ʿan ḥadīṯi-hi yawmaʾiḏin bi-Mālaqa wa-duḫūlu-hu iyyā-hā wa-nṣirāfu-hu maflūlan dūna-mā taḫayyala min al-taḫyīm fī-ḏurā-hā wa-amala mina-l-istibāḥa li-ḥimā-hā.*[1] », mais, en réalité, l'épisode de Malaga n'y occupe que 2 pages[2], et est suivi d'autres aspects de la vie du souverain, notamment, dès la p.56, du récit de sa destitution et de son départ en exil.
La première de ces deux rubriques nous frappe par le caractère hétérogène de son contenu. Elle débute en effet par trois micro-récits évoquant les relations d'al-Muʿtamid avec certaines personnalités de l'époque[3], accompagnés de courts fragments composées par le roi sur un registre plutôt léger. Passant ensuite à l'épisode de Malaga, Ibn Bassām aborde néanmoins celui-ci par la fin, citant trois extraits du poème d'excuse adressé par al-Muʿtamid à son père, extraits qu'il introduit comme suit : « *wa-la-hu yastaʿṭifu Abā-hu al-Muʿtaḍid iḏ daḫala Malaqa wa-uḫriğa min-hā, fī qaṣīd awwalu-hu* »[4]. Il s'agit du poème déjà en partie cité par Ibn Ḫāqān[5]. Nous pouvons émettre l'hypothèse que la raison d'être de cet ordre adopté par Ibn Bassām s'explique par le fait que ces vers illustrent

---

[1] *Ibid.*, p. 49 à 77 : « *Evocation du récit des faits survenus à ce moment-là à Malaga, de son entrée dans la ville puis de son retrait, vaincu, après qu'il avait imaginé pouvoir y établir son séjour, et nourri l'espoir de se voir autorisé à s'emparer de son espace* ».

[2]*Ibid*, p. 49-50

[3] *Ibid*, p. 46-47 : un message de bienvenue adressé à Abū al-Aṣbaġ b. Arqam, vizir d'Ibn al-Ṣumādiḥ, venu en délégation à Séville (voir la la notice de ce personnage dans *Ḏaḫīra,op. cit.*, III/1, p. 360), un échange de vers avec son proche Ibn ʿAmmār, et, enfin, un billet adressé à un autre vizir, Abū ʿAmr b. Ġaṭammaš.

[4] « *Voici le début du poème qu'il composa pour amadouer son père al-Muʿtaḍid lorsque, après être entré à Malaga, [il fut contraint d'en] ressortir* ».

[5] Celui-ci en avait donné 11 vers, Ibn Bassām en cite 3 de plus. Il est d'ailleurs intéressant de noter que les vers cités par les 2 anthologues diffèrent quelque peu, même si une partie est commune aux deux recensions.

justement le genre hybride annoncé dans le titre de la rubrique : le poème adressé au roi est en effet en relation étroite avec les affaires du royaume et ressort à cet égard de la correspondance officielle, mais, le roi étant aussi son père, le ton employé par le prince se rapproche de celui qui sied à l'égard des intimes. Il s'agit donc là d'un ton pour le moins singulier, ce que sans doute l'auteur cherche à indiquer à travers le titre donné à ces pages[1].

Immédiatement après la présentation du poème, débute donc la seconde rubrique[2] qui, nous l'avons dit, n'accorde en fait qu'une place réduite à l'épisode de Malaga. Néanmoins, tout se passe comme si ce récit se prolongeait, ou résonnait, jusqu'au dernier tronçon de la notice qui évoque tous ceux qui pleurèrent le roi sévillan, autrement dit comme si l'épisode de Malaga constituait une sorte d'événement fondateur de l'inaptitude d'al-Muʿtamid dans le domaine politique[3].

Mais d'abord, Ibn Bassām justifie l'absence du récit de la conquête de Malaga par le ziride Bādīs b. Ḥabbūs à l'issue de l'échec des Hammūdites, conquête qui va pourtant être à l'origine de la campagne décidée par al-Muʿtaḍid. Pour lui, ce récit n'est pas digne de figurer dans la *Ḏaḫīra* dans la mesure où il n'a laissé aucune trace littéraire méritant une mention[4]. Le mépris de l'auteur pour la dynastie ziride transparaît au travers de ces lignes et rejoint l'appréciation laissé par Ibn Ḫāqān sur cette même dynastie. Ibn Bassām passe donc directement aux faits concernant al-Muʿtamid qui, eux, ont donné lieu à des poèmes et textes d'adab. Il nous montre la population de Malaga espérer voir les

[1] En réalité, on pourrait aussi inverser les deux termes : un poème s'adressant à un père, mais prenant la forme d'un texte protocollaire.

[2] *Ibid*, p. 49-50.

[3] Nous verrons en effet que les pages décrivant l'attitude du roi lors de la tragédie finale entrent étonnamment en résonnance avec ce que nous allons découvrit dans l'épisode de Malaga.

[4] *Ibid*, p. 49: « *wa-lā ašraqa fī-layli-hi mimmā ḥaṣala fī yadiyya li-l-adab kawkabun wa-lā-badr, fa-li-ḏālika aḍrabtu ʿan-hu wa-aḫlaytu kitābī min-hu.* ».

ʿAbbādides prendre la place des Zirides, et ce malgré la réputation sulfureuse d'al-Muʿtaḍid. L'auteur ajoute que cet engouement des habitants d'Alméria pour les maîtres de Séville était avant tout dû à leur esprit de corps, allusion directe à l'antagonisme Arabes-Berbères[1]. Ibn Bassām narre ensuite comment al-Muʿtaḍid s'empressa de répondre à l'appel des gens de Malaga : « *wa-iḏā tuḥudditạ ʿan-hu ʿalā-l-buʿdi ḥaḍara* »[2]. L'armée qu'il envoie à Malaga est dirigée par ses deux fils : Ğābir et Muḥammad. Nous nous souvenons que les *Qalāʾid* n'avaient pas évoqué la présence de ce second fils auprès d'al-Muʿtamid. Les 2 princes sont d'abord victorieux. Mais un groupe de « Maghrébins noirs » (« *firqa min al-sūdān al-Maġāriba* »), et l'on voit ici que l'expression employée est rigoureusement la même que chez Ibn Ḫāqān, se réfugie au sommet de la citadelle, imprenable. Cette expression est traduite par Dozy par l'expression « *une garnison de nègres* »[3]. Des habitants de la ville préconisent alors la plus grande vigilance aux 2 frères[4], leur recommandant d'avoir recours à des espions et de tenir fermement toutes les forteresses situées dans les environs[5], mais ceux-ci ignorent ces conseils (« *ġafalā* »). Les insurgés appellent alors à leur secours Bādīs qui prend immédiatement le chemin de Malaga. La bataille engagée dès son arrivée surprend l'armée ʿabbādite et fait de nombreuses victimes dans ses rangs. Ceux qui échappent au carnage fuient, si bien que les deux frères sont

---

[1] *Idem* : « *tašayyʿan lam yakun la-hu aṣl illā šuʾm al-ḥamiyya wa-luʾm al-ʿaṣabiyya* ».

[2] Que l'on pourrait traduire par : « *A peine son nom était-il prononcé, au loin, qu'il apparaissait* ».

[3] Dozy, *Histoire des Musulmans d'Espagne*, Livre IV, Leyde, Brill, 1861, p. 109. On ne peut que s'interroger sur l'origine de cette expression extrêmement dépréciative, et en particulier se demander d'où aussi bien Ibn Bassām qu'Ibn Ḫāqān l'ont tirée.

[4] *Ḏaḫīra, op. cit.* T. III, p. 50: « *wa-qad kāna ahlu Malaqa ašārū ʿalā-bnay-al-Muʿtaḍid* ».

[5] *Idem* : « *bi-iḏkāʾi-l-ʿuyūn wa-isāʾati-ẓ-ẓunūn wa-ḍabṭi mā ḥawla-hā min al-maʿāqil wa-l-ḥuṣūn* ».

contraints de quitter la ville et de se replier à Ronda, morts de honte. C'est alors, ajoute Ibn Bassām, qu'al-Muʿtamid adresse à son père le poème précédemment cité[1]. La situation était grave puisque, selon l'auteur, sans l'intercession d'un membre influent de la famille ʿabbādide, les deux frères auraient connu le même sort qu'Ismāʿīl, autre fils d'al-Muʿtaḍid, tué par son père pour s'être rebellé[2].

Même si elles diffèrent dans le détail, on voit bien que les deux notices étudiées concordent à la fois sur le statut important qu'elles accordent à la débâcle de Malaga, et sur le fait qu'elles imputent sans ambiguïté ce fiasco à la grande négligence du prince ʿabbādide. Cet échec qui, en réalité, est davantage un échec politique qu'un échec militaire, inaugure en quelque sorte le règne d'al-Muʿtamid, avant même l'accession au trône de ce dernier. Il condense déjà tous les éléments qui seront déterminants dans la chute du souverain, et constitue même une sorte de répétition presque parfois mot pour mot de l'attitude du roi lors de l'assaut final des Almoravides contre Séville. En outre, les deux auteurs font grand cas du poème adressé par al- Muʿtamid à son père.

Parmi les sept notices que nous avons analysées, deux seulement reprennent l'épisode de Malaga : le *Bayān* d'Ibn ʿIḏārī et la *Ḥulla* d'Ibn Abbār.

- Dans le *Bayān*, le récit se situe dans une partie consacrée à l'évocation des nombreuses familles régnant sur les Taïfas. L'épisode est traité sur un peu plus de deux pages[3], et a pour titre : « *Ḏikr duḫūl al-ẓāfir Muḥammad b. Abbād Mālaqa wa-ḫurūği-hi maflūlan min-hā baʿda taqalluṣ al-*

[1] *Ibid* : « *ayant trahi le pacte [qu'il avait conclu avec lui]* » (« *wa-qad aḫfara ḏimama-hu wa-na-naḏara dama-hu* »).

[2] *Idem:* « *wa-law lā anna-hu istağāra -zaʿamū- yawmaʾiḏin bi-rağulin min al-ʿAbbād, kāna hunālika la-battat yadā-hu wa-laḥiqa ismāʿīl aḫā-hu.* ».

[3] *Bayān, op. cit.,* T.III, p. 273 à 275.

ẓilāl al-ḥammūdiyya al-ḥassaniyya ʿan-hā. »[1]. Ce récit ne prend donc pas place dans une notice biographique. Dès le titre de la rubrique, on note une grande similitude entre les termes choisis par Ibn ʿIḏārī et ceux d'Ibn Bassām dans la *Ḏaḫira*. Cette similitude se confirme dès les premières lignes du récit, repris quasiment littéralement de celui d'Ibn Bassām. L'auteur cite le poème d'excuse d'al-Muʿtamid[2], ce qui n'est pas anodin, du fait que le *Bayān*, ouvrage historiographique, inclut très peu de textes poétiques. Ceci confirme que ce poème semble avoir été doté d'un statut singulier dépassant sa seule valeur littéraire chez les auteurs traitant de l'épisode malheureux de Malaga. Ibn ʿIḏārī conclut son récit en mentionnant que, à la réception de ce poème, al-Muʿtaḍid pardonna à ses deux fils, les rappela à lui et désespéra de se rendre maître [un jour] de Malaga. Il conclut ensuite sa partie sur les Zirides en évoquant le massacre des Juifs ayant eu lieu à Grenade peu après.

- dans la *Ḥulla*, le traitement de l'épisode est cette fois fort différent, puisqu'il intervient dans la partie de la notice d'al-Muʿtamid consacrée au talent poétique hors-norme du prince[3]. Dans ce cadre, le poème d'excuse est convoqué pour témoigner de ce talent[4]. Il est introduit par une courte présentation : « *wa-la-hu yastaʿṭifu abā-hu al-Muʿtaḍid, lammā farraṭa fī-amr Malaqa wa-ḫazala-hu aṣḥābu-hu fa-uḫriğa min-hā wa-lağaʾa ilā Ronda fa-aqāma bi-hā muddatan taḥta mawğida abī-hi.* »[5].

---

[1] « Comment *Muḥammad b. Abbād après être entré triomphalement à Malaga, à la suite de l'effondrement du pouvoir des Hammudites, fut contraint de s'en retirer, défait*».

[2] *Ibid*, p. 275. Il omet cependant deux vers cités dans la *Ḏaḫira*.

[3] *Hulla, op. cit.*,T. II, p. 56 à 59.

[4] *Ibid*, p. 56 à 58. L'autre fragment poétique composé pour se faire pardonner de son père après cette défaite, est cité à la fin du commentaire sur le premier poème, mais ne fait l'objet d'aucun commentaire (p. 59, 5 vers).

[5] « *Voici un poème qu'il composa pour amadouer son père al-Muʿtaḍid, lorsqu'il fit preuve de négligence dans l'affaire de Malaga et que, ses compagnons l'ayant*

On notera que cette présentation prend encore davantage position que les précédentes quant à la responsabilité du prince, clairement accusé de négligence. Le poème, quant à lui, est présenté dans une version beaucoup plus longue que celles figurant dans les *Qalāʾid* et la *Ḏaḫīra*[1]. Mais, surtout, il est suivi par une anecdote très intéressante, que nous n'avons pas trouvée dans les autres notices[2]. Ibn al-Abbār s'appuie sur le témoignage d'Ibn al-Labbāna, ce qui pose d'ailleurs un problème souligné par l'éditeur de l'ouvrage: en effet, le contexte du *ḫabar* semble indiquer que les faits rapportés ne peuvent avoir eu lieu que longtemps après la fin du règne des ʿAbbādides. Voici donc ce que nous dit cette anecdote : un sévillan qui avait mémorisé ce poème se serait rendu chez des Arabes (Bédouins) vivant dans une contrée lointaine (« *ilā-aqṣā ḥayyin fī-l-ʿArab* »). Une nuit, lors d'une soirée sous la tente, il se serait remémoré le faste de la dynastie ʿabbādide[3] et aurait alors déclamé ce poème dans les règles de l'art. Le chef de la tribu, sous le charme, se serait alors enquis du nom de l'auteur de ce texte. Le visiteur lui aurait révélé qu'il s'agissait de l'un des rois d'*al-Andalus* connu sous le nom d'Ibn ʿAbbād[4]. Le *sayyid* aurait déclaré que ce roi avait sans doute disposé de peu de temps pour les affaires de l'état, une poésie d'une telle qualité ne pouvant être l'oeuvre d'un homme ayant d'autres occupations[5]. Le sévillan l'ayant démenti, en évoquant l'importance du rôle politique du roi, le bédouin, étonné, aurait demandé des informations sur la généalogie de ce roi. L'homme aurait alors révélé l'origine arabe et

abandonné, il en fut chassé et dut se réfugier à Ronda où il séjourna quelque temps menacé par la colère de son père. ».

[1] 35 vers sont cités dans cette version.

[2] *Ibid,* p. 58-59.

[3] *Idem* : « *taḏakkara al-dawlata al-ʿabbādiyya wa-rawnaqa-hā* ».

[4] *Idem* : « *huwa li-malik min-mulūk al-Andalus yuʿraf bi-bni ʿAbbād* ».

[5] *Idem* : « *fa-miṯlu hāḏa al-šiʿr lā yaqūlu-hu man šuġila bi-šayʾ dūna-hu* ».

laḫmide d'al-Muʿtamid[1]. Ivres de fierté, les Bédouins auraient alors manifesté bruyamment leur joie et offert à leur hôte de nombreux chameaux. Il est bien évident qu'un Andalou dont la poésie fait l'objet d'une telle célébration de la part des gardiens de la pureté de la langue, les « Arabes bédouins », ne peut que faire entrer son royaume, la *Ṭāʾifa* de Séville, et plus généralement *al-Andalus*, au « Panthéon » de l'arabité.

3- Le récit de la fin du règne et de la destitution

La *Ḏaḫīra* et les *Qalāʾid* sont les deux ouvrages à offrir les plus longs développements sur les derniers jours du règne d'al-Muʿtamid et sa défaite finale[2].

Le récit de la chute des Abbadides est beaucoup plus développé chez Ibn Ḫāqān, et débute immédiatement à la suite de celui sur l'échec de Malaga[3]. Y est évoquée en premier lieu la prise de Cordoue par les Almoravides, ville qui était dirigée par l'un des fils d'al-Muʿtamid : al-Maʾmūn. L'auteur loue la vertu de ce prince ne s'adonnant ni à la boisson, ni au libertinage[4], l'opposant ainsi implicitement à son père. Ibn Ḫāqān emploie le terme de « *fitna* » pour décrire la situation prévalant au moment du siège de la ville[5]. Il nous montre al-Maʾmūn retranché dans son palais, conscient de ne pouvoir compter sur personne pour assurer sa défense, ce qui en dit long sur la loyauté des Cordouans à l'égard des ʿAbbādides[6]. Se résolvant finalement à sortir à la tête d'un petit groupe, le prince est tué et décapité, et son cadavre est abandonné sur le sol. Les assaillants se dirigent alors vers Ronda, où un

[1] *Idem* : *« huwa fī-ṣ-ṣamīm min-laḫm wa-ḏ-ḏuʾāba min-Yaʿrub »*.

[2] A titre de comparaison, le *Bayān* ne consacre que 3 lignes à ces événements (T.IV, p. 122), c'est-à-dire à peu près autant que la *Ḥulla* (T. II, p. 55). Le *Aʿmāl*, quant à lui, expose les faits en une dizaine de lignes, dans lesquelles l'auteur indique clairement que les habitants de la ville en étaient arrivés à appeler les Almoravides (T.II ; p ; 159-160).

[3] *Qalāʾid*, *op. cit*., p. 22.

[4] *« kāna ašhar mulūk awāni-hi ḫayran…mā-štaġala bi-muʿāṭat al-mudāma wa-lā.. »*.

[5] *« lammā badati-l-fitna wa sāla saylu-hā »*.

[6] *« wa-qad ʿalimū quʿūd al-ǧamāʿa ʿani-l-ḥimāya la-hu wa-l-naṣr »*.

autre fils d'al-Muʿtamid, al Rāḍī, pense avoir trouvé un abri sûr. Mais après les événements de Séville[1], al-Muʿtamid envoie un message à son fils pour lui demander de se rendre. Celui-ci s'exécute, mué avant tout « par la piété filiale »[2]. Les Almoravides lui promettent la vie sauve, mais ne respectent guère cette promesse et le tuent. A la suite de ce récit, Ibn Ḫāqān cite le thrène dans lequel al-Muʿtamid pleure ses deux fils[3]. L'auteur revient ensuite à al-Muʿtamid et à l'assaut final mené par les Almoravides à Séville[4].

Dans la *Ḏaḫīra*, le récit sur ces derniers jours du règne commence, sans transition, après l'évocation de la conspiration menée contre Ibn Zaydūn, dont il a été question plus haut[5]. Ibn Bassām met l'accent sur la production littéraire inspiré par ces événements, en particulier sur les vers composés par al-Muʿtamid après sa destitution (« *wa-mimmā qāla-hu baʿda zawāl sulṭati-hi wa-taḍaʿḍuʿ binyāni-hi*»). Ces vers sont néanmoins introduits par une phrase faisant allusion aux derniers combats menés par al-Muʿtamid, le mardi du milieu du mois de *Rağab* de l'an 84, où l'on trouve une formulation non dénuée d'ambiguïté: « *lammā duḫila ʿalay-hi al-baladu* », qui semble vouloir indiquer que les assaillants n'étaient pas les seuls Almoravides, et que ces derniers étaient soutenus par une partie au moins des habitants de la ville. Cette interprétation semble corroborée par un texte d'Ibn al-Labbāna, repris par al-Maqqarī dans le *Nafḥ*[6], dans lequel l'ami fidèle d'al-Muʿtamid explique la

---

[1] *Ibid*, p. 23: *«ilā an inqaḍā fī-amr Išbīliyya mā-nqaḍā »*.
[2] *Ibid*, p. 23: *« birran bi-Abī-hi »*.
[3] *Ibid*, p. 23: 8 vers sur le mètre *ṭawīl*.
[4] *Ibid*, p. 23-24.
[5] *Ḏaḫīra*, *op. cit*. T. III, p. 52.
[6] Al-Maqqarī, *Nafḥ al-Ṭīb*, Dār al-kutub al-ʿilmiyya, Beyrouth, 1998, Vol. VI, p. 23-24: "*Wa-l-nās qad mallū al-dawla al-ʿabbādiyya wa-saʾamū-hā, ʿalā mā ğarat bi-hi al-ʿāda min ḥubb al-ğadīd, lāsiyyamā wa-qad ẓahara min-bni ʿAbbād min-al-tahattuk fī-l- šurb wa-l-malāhī mā lā yaḫfā amru-hu, fa-tamannā akṯaru-n-nās al-rāḥa min dawlati-him*."

lassitude des Sévillans à l’égard de la dynastie régnante. Ce texte fait dire à François Clément que la population était pour le moins partagée quant à l’attitude à adopter envers l’avancée des Almoravides[1]. Ibn Bassām nous montre le prince faire alors preuve, au combat, d’un courage désespéré[2]. En réalité, l’anthologue se fonde uniquement, pour émettre ce jugement, sur la teneur des vers composés a posteriori par le protagoniste[3], et qui trahissent un profond désespoir ainsi que le désir d’en finir avec la vie[4]. Ce poème est suivi d’une longue et surprenante digression d’Ibn Bassām qui occupe 3 pages[5], pages[5], digression dans laquelle il compare d’abord les vers d’al-Muʿtamid à un poème de semblable inspiration attribué à Qays b. al-Ḫaṭīm, poète préislamique[6]. L’auteur enchaîne ensuite avec une série d’anecdotes sur le poète abbasside Abū Dulāma, connu pour sa vulgarité[7], qui

---

[1] François Clément, *Pouvoir et Légitimité en Espagne musulmane à l’époque des Taïfas*, Paris, L’Harmattan, 1997, p. 200.

[2] *Ḏaḫīra, op. cit.* T. III, p. 52: *« ḫarağa mudāfiʿan ʿan-ḏāti-hi, wa-ḏābban ʿan-ḥuramāti-hi »*

[3] *Ibid*, p. 53, voir les 12 vers cités[mètre *kāmil*] (rime: *al-ṣadīʿu*). Effectivement, le souverain affirme dans ce poème qu’il aurait, à ce moment, préféré boire une coupe de poison plutôt que d’accepter de se soumettre (v.3), et être sorti combattre sans armure, vêtu d’une seule tunique (v. 7-8), sans nourrir l’espoir de sortir vivant du combat (v.11).

[4] *Ibid*: « *wa-ẓahara yawmaʾiḏin min-baʾsi-hi wa-min-tarāmī-hi –zaʿamū- ʿalā-al-mawt bi-nafsi-hi mā lā mazīda li-bašar ʿalay-hi* ».

[5] *Ibid*, p. 53 à 56.

[6] Qays b. al-Ḫaṭīm b. ʿAdī est un célèbre poète de Yaṯrib, né vers 580, mort assassiné en 620, voir : Blachère, *HLA*,T. I, p.310. Voir aussi la notice « *Ḳays* b. al-K̲h̲aṭīm » de T. Kowalski dans l’Encyclopédie de l’islam II. Il appartenait aux Banū Ẓafar des Aws qu’il défendit par la parole et par le sabre dans les combats livrés contre les Ḫazrağ. Son *Dīwān* apporte le témoignage de la part active qu’il prit aux opérations politiques et guerrières de sa tribu. Bien qu’il ait été encore en vie au début de la prédication du Prophète, son *Dīwān* ne montre en rien qu’il en ait eu connaissance, et tout ce que les sources postérieures rapportent de sa rencontre avec lui semble de pure invention. On peut dire que si Qays fut fort prisé de la postérité, c’est peut-être plus encore à cause de son caractère chevaleresque que de ses dons poétiques.

[7] **Abū Dulāma** (m.160/776-7 ou170/786-7) **était un esclave noir devenu poète à la cour abbasside où il occupa un rôle de bouffon**, qui adoptait volontiers un registre vulgaire, étalant toutes sortes d’ordures avec une joie cynique. Sa langue malveillante était crainte de tous. Il n’épargnait ni sa propre personne, ni ses parents proches. Il n’hésitait pas non plus à prendre pour cible les lois de l’islam de ses insolentes

mettent en scène sa couardise au combat et son refus de se distinguer. On peut se demander la raison de cette évocation qui intervient précisément juste après la citation des vers dans lesquels le roi sévillan exalte son courage. Plusieurs hypothèses sont envisageables : Ibn Bassām souhaite-t-il produire un effet de contraste, ayant pour effet de mettre davantage en valeur la bravoure d'al-Muʿtamid ? Ou bien, au contraire, cherche-t-il à faire apparaître l'emphase des vers du sévillan comme quelque peu disproportionnée[1] ?

Après cette digression, Ibn Bassām enchaîne sur une brève description de la frayeur régnant à Séville dans les derniers jours précédant la capture d'al-Muʿtamid[2] : les habitants de la ville, pris de panique, se répandent en cris, se jettent dans le fleuve ou du haut des fortifications, ou encore se cachent parmi les ordures, risquant tout pour sauver leur vie. Nous arrivons alors à la date du dimanche 20 *Rağab*. L'auteur reprend l'expression mystérieuse déjà utilisée : « *duḫila al-balad ʿalā-l-Muʿtamid* », cette insurrection survenant après le combat acharné des 2 armées. Ibn Bassām nous montre alors al-Muʿtamid, dans un état de totale confusion mentale (« *balbāl* »), composer des vers pour son astrologue favori Abū Bakr al-Ḫawlānī[3]. Puis, sans transition, et faisant preuve d'une grande concision, l'anthologue passe à l'évocation du départ du roi, le même jour, embarqué avec l'ensemble de ses gens sur une nef en direction du Maghreb[4]. Dans le même paragraphe, Ibn Bassām mentionne la date de la mort d'al-Muʿtamid, ne souhaitant pas visiblement s'étendre sur le versant événementiel de la chute du roi de Séville.

railleries. ***Voir la notice de l'Encyclopédie de l'islam de*** J. Horovitz ***qui lui est consacrée.***

[1] La propension à s'enivrer constitue un point commun réunissant les deux personnages, puisque Abū Dulāma se met en scène, dans l'un des récits, ivre (p. 55).

[2] *Ibid,* p. 56.

[3] 6 vers, rime : « *mā taʿidu* ».

[4] *Ibid,* p. 56-57: « *ʿumira bi-him markab fa-rakibū-l-baḥr wa-ruziqū-s-salāma fī-hi, ilā an waṣalū ilā amīr al-Muslimīn* ».

Néanmoins, nous observons qu'il dresse plutôt un portrait à charge du roi en ces derniers instants avant son arrestation : un homme agissant dans l'improvisation la plus totale, et acoquiné avec son astrologue.

Dans les *Qalāʾid,* Ibn Ḫāqān s'étend davantage sur les événements. Comme Ibn Bassām, il nous montre al-Muʿtamid, au moment le plus crucial, refuser de prêter attention aux nouvelles alarmantes qui lui parviennent, et préférant s'abîmer dans la débauche[1]. Le siège s'aggrave, les défenseurs de la ville sont impuissants et ses propres hommes le trompent[2]. Alors que l'anarchie règne dans la ville, une porte est ouverte dans laquelle s'engouffre un groupe d'assaillants[3]. Comme chez Ibn Bassām, une allusion est donc faite au fait qu'une partie de la population soutient les Almoravides. En apprenant la nouvelle, al-Muʿtamid sort sans cuirasse ni bouclier, armé de sa seule épée, dans un état de fureur proche de la démence[4]. Il se dirige vers la porte de la ville ouverte, et réussit à faire fuir provisoirement les assaillants. Une fois la porte réparée et refermée, al-Muʿtamid se retire, comme apaisé[5]. Ibn Ḫāqān cite ensuite les vers que le roi composera après sa destitution, comme l'avait fait Ibn Bassām, mais dans une version allégée[6]. Néanmoins, les assaillants finissent par pénétrer dans la ville par le fleuve[7]. La formule au passif employée par l'auteur fait que l'on ne sait si l'assaut est mené par les seuls Almoravides ou si ceux-ci sont assistés par une partie des

---

[1] *Qalāʾid, op. cit.*,p. 23: *« wa-hwa sāhin bi-rawḍ wa-nasīm, lāhin bi-rāḥ wa-muḥayyā wasīm, zāhin bi-fatāt tunādimu-hu, nāhin ʿan hadm uns huwa hādimu-hu… ».*

[2] *Idem* : *« dalasa ʿalay-hi wulātu-hu »*

[3] *Ibid,* p. 24: *« futiḥa bāb al-farağ wa-qad lafağa šiwāẓ al-harğ » (la flamme de l'anarchie, émeutes, troubles).*

[4] *Idem* : *« ḫarağa ḥāsiran min-mufāḍati-hi, ğāmiḥan (rétif) ka-l-muhr qabal-riyāḍāti-hi ».*

[5] *Idem* : *« wa-qad arāḥa nafsa-hu wa-šafā-hā, wa-abʿada Allāhu ʿan-hu al-malāma wa-nafā-hā ».*

[6] *Idem* : 7 au lieu de 12.

[7] *Idem* : « *duḫila al-balad min-wādī-hi".*

Sévillans. Nous retrouvons alors le roi dans l'état décrit précédemment : « *abandonné à ses plaisirs, s'y abîmant de tout son être, vautré parmi ses femmes, aveuglé par le pouvoir qui lui avait été confié et prêté* »[1]. Ce n'est que lorsque la percée ennemie devient générale que le roi se décide à sortir, toujours muni de sa seule épée, et qu'il se porte au combat dans la cour du palais, avec l'énergie du désespoir, effrayant et dispersant quelques assaillants[2]. Néanmoins, al-Muʿtamid ne se fait guère d'illusions sur l'issue des événements : retiré dans son palais durant un jour et une nuit, persuadé d'avoir perdu son trône,[3] il songe au suicide[4], et seule sa piété le détourne de ce projet. Il décide alors de se rendre et est aussitôt enchaîné[5]. Cette humiliation lui inspirera plusieurs fragments poétiques. Ibn Ḫāqān décrit ensuite dans un paragraphe le départ de la nef sur laquelle le prince est embarqué avec les siens : « *Puis il fut amené avec les siens sur de hauts vaisseaux, à l'intérieur desquels ils étaient confinés comme s'ils étaient morts, alors que leurs palais avaient été trop étroits pour les contenir tous, et qu'ils avaient été l'objet d'admiration du siècle ; les gens s'étaient massés sur les deux rives du fleuve et versaient des pleurs semblables à la pluie déchargée par les nuées du matin, les lamentations les poussaient en avant, et ils ne pouvaient s'empêcher d'exprimer au grand jour leur sentiment d'épouvante* »[6].

---

[1] *Idem* : « *wa-hwa mustamsik bi-ʿurā laḏḏāti-hi munġamis fī-hā bi-ḏāti-hi, mulqān bayna ğawārī-hi muġtarr bi-wadāʾiʿ mulki-hi wa-ʿawārī-hi* ».

[2] *Idem* : « *fa-ḥamala fī-him ḥamla ṣayyarat-hum firaqan wa-malaʾat-hum faraqan* .

[3] *Ibid*, p. 25: « *wa-qad ayqana bi-ntihāb māli-hi wa-ḏahāb mulki-hi wa-rtiḥāli-hi* ».

[4] *Idem* : « *wa-qad ʿazama ʿalā afẓaʿ amr* ».

[5] *Idem* : « *fa-nazala mina-l-qaṣr bi-l-qasr ilā-qubbat al-asr , fa-quyyida li-l-ḥīn* ».

[6] *Idem* : « *ṯumma ğumiʿa huwa wa-ahlu-hu wa-ḥamalat-hum al-ğawārī al-munšaʾāt wa-ḍammat-hum ğawāniḥu-hā kaʾanna-hum amwāt, baʿda mā ḏāqa ʿan-hum al-qaṣr wa-rāqa min-hum al-ʿaṣr wa-l-nās qad ḥašarū bi-ḍiffatay al-wādī, wa-bakaw bi-dumūʿ ka-l-ġawādī fa-sārū wa-l-nawḥ yaḥdū-hum wa-l-bawḥ bi-l-lawʿa lā-yaʿdū-hum.".*

L’auteur enchaîne directement par la citation du célèbre poème d’Ibn Labbāna évoquant le même départ[1], et l’on se rend alors compte à quel point le récit précédent le poème est en fait inspiré par celui-ci, l’auteur reprenant presque mot à mot les descriptions d’Ibn Labbāna[2], en utilisant en particulier la même citation coranique caractérisant les nefs[3]. Ibn Ḫāqān enchaîne ensuite sur la situation d’al-Muʿtamid au Maghreb, où, nous dit-il, « *son séjour sur la rive africaine [du Détroit] fut celui d’un enterré vivant* »[4].

Que ce soit dans la *Ḏaḫīra* ou dans les *Qalāʾid*, le parallèle entre ces événements de Séville et le fiasco de Malaga est saisissant. Dans les deux cas, al-Muʿtamid nous est montré incapable de réagir, et paralysé par un déni interrompu de rares éclairs de lucidité. La présence, dans les deux récits, de scènes presque semblables, nous amène à penser que les auteurs ont vu dans l’épisode de Malaga une répétition de la chute finale, comme si ce premier épisode contenait déjà en germe les éléments constitutifs du second.

L’attitude prêtée par les deux anthologues au souverain ʿabbādide lors des événements de Séville rappelle en outre étrangement celle du calife abbasside al-Amīn, confronté à l’assaut final de l’armée de son frère al-Maʾmūn, tel que ces journées ont été narrées par Ṭabarī[5], si bien que l’on peut se demander si les anthologues ne se conforment pas

[1] *Ibid*, p. 25-26.

[2] En particulier les vers 14 -15 et 18 :
« *Nasītu illā ġadāta a-nahri kawnu-hum fī-l-munšaʾāt ka-amwāt bi-l-ḥādī ;*
Wa-n-nāsu qad malaʾū-l-ʿabrayni wa-ʿtabarū min-luʾluʾin ṭāfiyātin fawqa-azbādī. » (...)
Sārat safāʾïn-hu wa-l-nawḥū yaṣḥabu-hā kaʾanna-hā ibilun yaḥdū bi-hā-l-hādī. »

[3] Coran, LV/24 : « *Wa-la-hu al-ğawārī al-munšaʾātu fI-l-baḥri ka-l-aʿlām.*” (“*Les vaisseaux, élevés sur la mer comme des montagnes, sont à lui* »).

[4] *Qalāʾid, op. cit.*,, p. 26 : « *uḥilla fī-l-ʿudwa maḥalla-d-dafīn* ».

[5] Voir dans Ṭabarī, *Tarīḫ al-Umam wa-l-mulūk*, le récit concernant les années 193-198h, et notamment cette dernière année, qui vit la chute d’al-Amīn.

ici à une sorte de topos de l'écriture historiographique musulmane.

Conclusion :

Dans un célèbre article intitulé : « l'Illusion biographique »[1], Pierre Bourdieu montrait que tout, dans les biographies, était fait pour présenter la vie comme un chemin, avec ses embûches, ses carrefours, ses embuscades…, autrement dit comme un parcours orienté avec des étapes et une fin. Il ajoutait : « *Le monde social tend à identifier normalité avec identité, entendue comme constance à soi-même d'un être responsable, (...) et génère donc toutes sortes d'institutions de totalisation et d'unification du moi, dont la plus évidente est sans doute le nom propre, « désignateur rigide* » », selon l'expression du philosophe Saul Kripke[2].

Au terme de notre étude, il nous semble que les auteurs ayant élaboré la figure d'al-Muʿtamid se situent bien dans cette logique, même si les codes d'écriture en vigueur dans la culture arabo-musulmane, et en particulier dans l'adab, semblent parfois aller à l'encontre de cette démarche.

Au cours de cette étude, il nous est donc apparu qu'il convenait de nuancer la stricte répartition proposée par Harmut E. Fahndrich entre données factuelles et illustratives des biographies, en complétant celles-ci par les données qui s'apparentent à un « discours estimatif », et dont nous avons tenté de montrer l'importance, ainsi que par les fragments poétiques cités dans les anthologies. Les limites imparties à cette communication ne nous ayant malheureusement pas permis d'aborder toutes les facettes de la biographie d'al-Muʿtamid, il faudrait revenir, dans

---

[1] Pierre Bourdieu, « l'Illusion biographique », Actes de la Recherche en sciences sociales, 62-63, 1986, p. 69-72. « *Par cette forme tout à fait singulière de nomination que constitue le nom propre, se trouve instituée une identité sociale constante et durable qui garantit l'identité de l'individu biologique dans tous les champs possibles où il intervient en tant qu'agent.* »

[2] Saul Kripke, La logique des noms propres, Paris, Ed. de Minuit, 1982.

une prochaine étude, sur une analyse plus fine des relations et des interférences existant entre les quatre types de données utilisés par les auteurs des notices. Il apparaît déjà néanmoins que la présentation qui est faite par Ibn Bassām et Ibn Ḫāqān de la vie d'al-Muʿtamid n'est pas aussi monolithique qu'on pourrait le penser au premier abord, et que les auteurs, tout à leur entreprise d'élaboration de cette figure incontournable d'*al-Andalus*, et certainement très soucieux de ne pas s'attirer les foudres du pouvoir almoravide, se livrent à un exercice d'équilibriste, et jonglent avec des représentations du roi parfois contradictoires.

Quoi qu'il en soit, on peut considérer sans nul doute qu'al-Muʿtamid s'est très tôt mué en « personnage patrimonial », suffisamment consensuel pour les Andalous d'abord, les Arabes ensuite, et portant une charge symbolique assez forte pour prendre une dimension identitaire pour ces groupes. L'échec total, sur le plan politique, et les responsabilités de ce roi dans la déroute de la fin des Taïfas, se sont trouvées de ce fait minimisés, par rapport au symbole d'un règne arabe qui disparut avec lui dans la Péninsule ibérique.

La société musulmane et ses élites
à travers les dictionnaires biographiques
(qutub al-tabaqat)

S. Boissellier
(U.Poitiers , Centre d'Etudes Supérieures de Civilisation Médiévale)

L'invitation à participer à ce volume est d'autant plus flatteuse que je risque fort de décevoir les spécialistes rassemblés à cette occasion, à la fois par mon manque de compétences, notamment comme arabisant, et par la généralité consécutive de mon propos. Je n'ai utilisé que de brefs extraits (traduits) de *tabaqat*, principalement andalouses[1] – alors que ces sources ne prennent sens que

1 Surtout « Trabalhos apresentados no simpósio internacional da Reconquista cristã da península ibérica. Évora. Outubro 1966. Varões ilustres do Andaluz

dans leur ensemble –, et le seul texte accessible en traduction dans sa totalité, les *Wafayat* d'Ibn Khallikan[1], n'est guère représentatif. En outre, l'approche la plus fructueuse, qui est de littérature comparée, ne m'est guère familière, et j'aborderai donc les problèmes en historien des faits sociaux et (un tout petit peu) dans la perspective des pratiques d'écriture (*literacy*). C'est dire que mon analyse restera très impressionniste et se limitera principalement à un exercice de typologie comparée des sources écrites.

Depuis un célèbre article de M. Bloch[2], on parle beaucoup d'histoire comparée, mais l'a-t-on réellement faite ? Certes, le courant actuel de la *World* (ou *Global*) *history* permet d'intégrer différentes aires culturelles (dont la définition mériterait parfois d'être discutée...) dans une approche commune, qui peut permettre certaines comparaisons, mais cela demeure très empirique[3]. Une véritable histoire comparée nécessite des recherches qui ne soient pas seulement la confrontation de deux études parallèles préparées par deux auteurs aux compétences techniques (notamment linguistiques) différentes, mais l'intégration, dans une réflexion sur un même objet, de sources émanant de cultures différentes.

Ceci pose de nombreuses difficultés, et tout d'abord celle de rassembler chez un seul chercheur des compétences

---

ocidental. Biogafias traduzidas das obras de Ibn al-Faradi et Ibn Bashkuwal » (trad. partielle Martim Velho) in. *Boletim da junta distrital de Évora* 7. Évora. 1966, pp 39-59.

[1] IBN KHALLIKAN : *Ibn Khallikan's biographical dictionnary* (trad. baron Mac Guckin de Slane). Librairie du Liban. Beyrouth. 1970 (4 vol.) (rééd. de l'éd. Paris 1842-1843).

[2] BLOCH (Marc) : « Pour une histoire comparée des sociétés européennes, 1928 » in. Idem : *L'histoire, la guerre, la résistance*. Edition établie par Annette Becker et Etienne Bloch. Gallimard. Paris. 2006, pp 347-380.

[3] Cette mode, ayant gagné la France, a engendré notamment le volume collectif *Histoire du monde au XVe siècle* (Patrick Boucheron dir.). Fayard. Paris. 2009 ; malgré ses grands mérites (notamment la multiplication des renvois), ce livre ne réussit pas à intégrer véritablement les histoires régionales en une analyse globale.

vastes. Mais plus difficile encore est le choix de ce qu'il faut comparer : les cultures productrices de la documentation de l'historien doivent être assez nettement différenciées pour justifier l'indispensable dimension d'altérité (comparer la paroisse en France au bas Moyen Âge et sous l'Ancien Régime, c'est certes briser le tabou académique des spécialisations chronologiques et « faire » de la longue durée, mais ce n'est pas comparer) ; en revanche, il faut que la documentation revête une convergence formelle assez forte pour que le dépouillement ne vide pas la comparaison de tout son sens (comparer les villages byzantins et latins[1] en se fondant respectivement sur des chroniques impériales et sur des chartriers, ce n'est pas comparer le même objet). Enfin, la nature de l'objet étudié (qui pose notamment le problème de l'échelle) est aussi à prendre en compte : on ne peut pas, au nom de leur spécificité politique irréductible, prétendre comparer des phénomènes de civilisation à l'échelle des royaumes latins médiévaux, même en synchronie, d'une part parce que leur culture est largement commune (cf problème de l'altérité), d'autre part et surtout parce que ce sont des contenants (potentiellement des fourre-tout) et non pas des objets pertinents d'étude – sauf à restreindre les royaumes à des cadres purement politiques et à limiter la comparaison aux rapports de pouvoir et à l'appareil administratif.

En ce qui concerne le comparatisme latino-arabe, la tendance est beaucoup plus d'étudier les relations mutuelles et d'éventuelles influences réciproques que d'écrire une véritable histoire parallèle ; les travaux de C. Cahen, dont sa célèbre synthèse sur *Orient et Occident au temps des Croisades*[2], qui sont les plus remarquables à cet

[1] Voir par exemple le volume *Les villages dans l'empire byzantin (IVe-XVe siècle)* (Jaques Lefort e.a. eds.) (coll. « Réalités byzantines » 11). Lethielleux. Paris. 2005.

[2] CAHEN (Claude) : *Orient et Occident au temps des Croisades* (« Collection historique »). Aubier Montaigne. Paris. 1983.

égard, constituent ce qui se rapproche le plus d'une véritable histoire comparée, mais ils ont été écrits à une époque où le décalage entre la tradition orientaliste d'étude du monde arabo-musulman et l'historiographie occidentaliste issue des *Annales* rendait toute comparaison extrêmement difficile. Depuis l'époque de Cahen, un demi-siècle d'études sur le monde arabo-musulman a heureusement permis de réduire ce décalage, et c'est maintenant qu'il faudrait envisager de confronter plus systématiquement les systèmes idéologiques, les articulations sociales, les dynamiques économiques...

Certes, les corpus documentaires respectifs de l'Occident latino-chrétien et du monde arabo-musulman opposeront toujours des obstacles. De fait, il est rare que les sources, notamment écrites, convergent formellement, bien que les acteurs de ces deux aires culturelles aient, sinon apporté les mêmes solutions, au moins affronté des problèmes identiques, propres aux sociétés complexes et aux religions monothéistes. Les travaux collectifs dirigés par D. Aigle dans une perspective d'hagiographie comparée islamo-chrétienne, notamment en confrontant *miracula* et *karamat*, constituent probablement le principal effort répondant aux impératifs énoncés précédemment, notamment la convergence des formes littéraires et des objectifs sociaux des sources (sauf que la comparaison s'est limitée à la confrontation entre des études menées par des historiens différents)[1]. Signalons qu'un autre champ de recherche extrêmement fructueux pourrait être une comparaison « islamo-chrétienne » des opinions émises par les *jurisperiti*, à travers les recueils de *fatwa*/s et de *consilia*.

En revanche, on considère généralement que la constitution de recueils biographiques de savants classés par générations (*tabaqat*) est une grande originalité de la

[1] *Miracle et Karama* (éd. Denise Aigle) (coll. « Hagiographies médiévales comparées »). Brepols. Turnhout. 2000.

production littéraire médiévale en langue arabe ; par l'ampleur, la diversité et les fonctions culturelles de ces ouvrages, cette originalité est indéniable et irréductible. Mais il n'est pas interdit de considérer certaines œuvres rédigées dans le monde latin comme ayant des caractères, au moins formels, ainsi que des fonctions qui les rapprochent des *tabaqat*. Dans cette contribution, j'évoquerai plus particulièrement les séries de notices biographiques d'évêques et d'abbés, que l'historiographie occidentale qualifie depuis deux siècles de *gesta* (*episcoporum* ou *abbatum*). Ce type d'écrit se caractérise par une mise en série, selon un ordre rigoureusement chronologique, de notices des chefs religieux ayant présidé aux destinées d'un même établissement ecclésiastique ; selon le développement des notices, on est entre le simple catalogue de dignitaires (du type *fasti ecclesiae*) et la véritable histoire[1].

Le vocable retenu par les historiens pour qualifier ces textes est purement conventionnel ; signifiant les « actions », les « choses réalisées », il est assez répandu parmi les auteurs médiévaux latins pour désigner des récits biographiques, concernant aussi des laïcs, que ce soient des individus (comme la *Geste de Louis VI* par Suger) – auquel cas, les titres sont plus fréquemment *vita* – ou des dynasties (comme les *Gestes des ducs normands* par Guillaume de Jumièges et ses successeurs) ; dans certaines de ces gestes, notamment les chroniques de peuple, la dimension biographique n'est pas toujours essentielle (telles que les *Gesta Hungarorum* ou les célèbres *Gesta Dei per Francos* de Guibert de Nogent). A l'inverse, on pourrait intégrer dans le genre des « gestes » des œuvres qualifiées traditionnellement de chronique (et intitulées *historia* par leurs auteurs) mais mettant en série

[1] Pour l'étude de ce genre littéraire, nous nous référons principalement à SOT (Michel) : *Gesta episcoporum. Gesta abbatum* (« Typologie des sources du Moyen Âge occidental », fasc. 37). Brepols. Turnhout. 1981.

des biographies, comme la chronique des premiers généraux Franciscains ou l'*Historia comitum Ghisnensium* de Lambert d'Ardres, et surtout de nombreux textes intitulés *acta* (qui est à peu près synonyme de *gesta*).

Au nombre de ces écrits, dont le dénominateur commun est la dimension mémorielle, on pourrait ranger aussi certaines œuvres généalogiques, quand elles offrent de véritables notices biographiques, puisque leur articulation, comme dans les *tabaqat* et les *gesta*, réside dans une transmission structurée par les générations[1]. Sans entrer dans le détail, remarquons que, pour le compilateur, la difficulté de l'enquête est particulièrement comparable quand il s'agit de reconstituer le réseau de disciples d'un savant ou la postérité biologique d'un aristocrate, puisque, dans les deux cas, les descendances y sont multiples et dispersées dans l'espace (surtout avec des familles aristocratiques cognatiques, qui sont moins clairement attachées à un lieu que les « topolignées »).

Certes, ce ne sont pas les seuls écrits latins à présenter des similitudes fonctionnelles avec les *tabaqat*. Les milieux universitaires occidentaux, les plus comparables aux savants arabo-musulmans, produisent des répertoires (« matricules »), par exemple d'étudiants, à partir du XIVe siècle, mais ce sont de simples listes élaborées dans un but purement administratif et statutaire et non pas intellectuel et mémoriel. Pour les artistes, il faut attendre les *Vies des peintres célèbres* de Vasari ; toutefois, une des rares œuvres à se rapprocher formellement des répertoires biographiques arabes de poètes est constituée par les *vidas*

1 J'avais déjà présenté, dans un précédent colloque en Tunisie, une des œuvres médiévales majeures du genre généalogique européen : BOISSELLIER (Stéphane) : « L'honneur nobiliaire, la lutte pour le pouvoir et la guerre dans les 'livres de lignages' médiévaux portugais » in. *Revue tunisienne de sciences sociales* 133 (n° spécial *Généalogie et honneur dans le monde arabo-islamique et les pays méditerranéens. Actes du 3^e^ colloque international [du Laboratoire du monde arabo-musulman médiéval], Tunis, décembre 2004,* Radhi Daghfous éd.). Tunis. 2007, pp 23-47.

des troubadours, textes en prose anonymes écrits au XIIIe ou au début du XIVe siècle, mais qui, introduites dans les chansonniers au début des poèmes de chaque auteur, ne sont pas rassemblées systématiquement, quoique constituant apparemment un véritable genre ; on est plus proche ici des anthologies historico-littéraires, à la manière de la *Dhakhira* d'Ibn Bassam[1].

Revenons à présent aux *gesta*. Notons dans un premier temps qu'il s'agit d'œuvres produites principalement dans l'Empire carolingien puis germanique (surtout en Lorraine et en Saxe), majoritairement entre IXe et XIIe siècles, c'est-à-dire au moment où le genre des *tabaqat* émerge et atteint sa pleine maturité ; ce n'est là, bien sûr, qu'une coïncidence chronologique, car il est difficile d'envisager un quelconque contact entre les producteurs de ces écrits. En première analyse, les deux types de texte peuvent être rangés dans une même catégorie, assez large, celle des sources historiographiques, c'est-à-dire pour lesquelles établir un lien entre le passé et le présent est une démarche importante, voire essentielle, avec la même méthode de critique littéraire des témoignages anciens que cela implique.

Mais, en tant que genres littéraires, les différences sautent aux yeux[2].

---

[1] Voir KOROLEVA – KAPYRINA (Elena) : « Acerca dos problemas de investigação de um monumento da literatura luso-árabe : a antologia de Ibn Bassam al-Shantarini (fal. em 542 / 1147) '*Al-dhakhira fi mahasin ahli l-djazira*' » in. *Arquivos do Centro cultural português* 35. Lisboa-Paris. 1996, pp 201-230.

[2] Les réflexions comparatives qui suivent se fondent, pour la partie arabo-musulmane, sur des travaux d'ensemble (principalement HAFSI (Ibrahim) : « Recherches sur le genre 'tabaqat' dans la littérature arabe » in. *Arabica* XXIII-3 (1976), pp 228-265, XXIV-1 (1977), pp 1-41 et XXIV-2 (1977), pp 150-186 et MEDIANO (Fernando R.) : « El género biográfico árabe : apuntes teóricos » in. *Biografías y género biográfico en el Occidente islámico* (María Luisa Avila et Manuela Marín éd.) (Estudios onomástico-biográficos de al-Andalus, VIII). CSIC. Madrid. 1997, pp 17-33), mais ma connaissance personnelle des sources est principalement andalouse ; à cet égard, nous renverrons seulement, outre le classique URVOY (Dominique) : *Le monde*

a/ Si l'on prend les *tabaqat* originels, ceux qui sont liés au *hadith*, avant l'élargissement du genre à divers types de savoirs et avant le passage d'une logique de transmission (classement chronologique et critique) à une logique d'accumulation (classement alphabétique), ils constituent un genre plus strictement défini que les *gesta*, à cause de leur ambition normative – en dépit du fait que leurs titres sont variables, n'incluant pas forcément le terme *tabaqat*, au profit d'intitulés plus fleuris, caractéristiques de la littérature arabe.
b/ Sur le plan de la représentativité des sources, les *tabaqat* sont infiniment plus nombreuses que les *gesta* d'institutions religieuses, ne serait-ce qu'en raison de la persistance du genre tout au long de l'histoire arabo-musulmane et de sa présence dans toutes les régions. Il y a là une différence culturelle qui est un vrai problème d'histoire comparée : pourquoi les séries de biographies sont-elles devenues l'instrument privilégié de l'organisation des connaissances dans le monde arabo-musulman, alors qu'un type d'écrit revêtant des fonctionnalités proches reste étroitement circonscrit dans le monde latino-chrétien ? Il faudra reprendre ce problème.
c/ En outre, chacun des dictionnaires biographiques, même limité à une ville ou à une école restreinte, est beaucoup plus copieux que les *gesta*, qui sont des œuvres brèves parce qu'étroitement focalisées sur une institution locale (3500 biographies d'*ulama* dans le *Kitab al-takmila* du Valencien Ibn al-Abbar, au XIII^e siècle !). En outre, embrassant de très nombreux savants, il est inévitable d'établir entre eux un palmarès, alors que cet esprit de mise en concurrence est forcément plus faible en

---

des ulémas andalous du Ve/XIe siècle au VIIe/XIIe siècle. Droz. Genève. 1978, à la mise au point de ÁVILA (María Luisa) : « El género biográfico en al-Andalus » in. *Biografías y género biográfico, op. cit.*, pp 35-51.

établissant une succession d’abbés ou d’évêques, dont l’œuvre est plutôt complémentaire.

d/ l’ambition universaliste des *tabaqat* – allant jusqu’au célèbre *Livre des catégories des nations* (*tabaqat al-umam*) de Sa’id l’Andalou, véritable histoire universelle du savoir – en fait un genre éminemment cumulatif, dans lequel chaque compilation recueille largement le travail des œuvres antérieures identiques ; de ce fait, le problème de l’inter-textualité formelle y est plus fort que pour les *gesta*, caractérisés par leur ancrage local et qui ne peuvent donc pas se recopier mutuellement : parmi les nombreux et très divers témoignages qui nourrissent les *gesta*, on ne trouve pas d'autres *gesta*. Toutefois, la différence ne doit pas être durcie : les *gesta* sont compilés à un moment précis, mais ils donnent souvent lieu à des continuations, de même que les *tabaqat* oscillent entre « suite » (*sila*) & « achèvement » (*takmila*) ; la reprise d’une œuvre antérieure par ces suites est finalement plus un problème de tradition manuscrite que de véritable méthode littéraire.

e/ l'initiative de compiler des vies semble logiquement plus institutionnelle dans les recueils chrétiens : c'est le plus souvent le responsable du monastère ou de l'évêché qui, quasiment ès qualité, fait rédiger la série biographique de ses prédécesseurs, et on peut comprendre que l'opération est réalisée principalement dans un but de « défense et illustration » de l'établissement, puisque cette rédaction intervient souvent à un moment de réorganisation ; en revanche, les compilateurs des *tabaqat* semblent être des savants plus autonomes, qui manifestent un souci plus large de diffuser la connaissance, sans véritable commanditaire, en insistant notamment dans leurs préambules sur la nécessité générale de connaître l'histoire – mais cette généralisation est peut-être hasardeuse.

Au-delà des divergences formelles et techniques, les ressorts et les objectifs sociaux des *gesta* et des *tabaqat* peuvent paraître également différents ; mais, dans ce cas,

l'esprit dans lequel ils sont compilés peut parfois converger.
Tout d'abord, les auteurs de ces textes, agissant exclusivement dans le milieu des religieux, sont animés uniformément par de pieuses intentions et peuvent recourir dans leur enquête à des méthodes de pensée communes. Certes, la recherche de l'authenticité devrait éloigner, *a priori*, les traditionnistes musulmans de la crédulité propre à l'esprit hagiographique qui anime les clercs chrétiens compilant les biographies d'abbés ou d'évêques d'autrefois. Mais, une fois encore, deux nuances rapprochent les auteurs de *tabaqat* et de *gesta,* dans une commune perspective d'histoire sainte providentialiste. D'abord, quand il ne s'agit plus de valider la transmission (*isnad*) de la parole divine, les nombreux recueils biographiques arabes de soufis, poètes, médecins… ont un objectif de panégyrique indéniable, comme dans le *Ruh al-quds* d'Ibn Arabi[1], véritable florilège hagiographique ; et d'ailleurs, même avec une rigoureuse critique des témoignages recueillis dans la *sunna*, les mérites personnels des transmetteurs constituent précisément un critère d'authenticité. A l'inverse, si les notices des *gesta* peuvent résumer de véritables vies de saints, il semble qu'elles s'en distancient notablement et explicitement, pour en éliminer les éléments merveilleux. Si l'on compare le contenu des biographies relatives à des « hommes de Dieu » (prélats et abbés chrétiens, vs. *fuqaha, 'ulama* et soufis musulmans), on observe que leurs auteurs, aussi bien les clercs latins que les compilateurs arabes, insistent sur les manifestations de la faveur divine accompagnant la vie et surtout la mort des biographiés. A cet égard, il serait intéressant de vérifier, pour les *tabaqat* ancrées dans un

[1] IBN ᶜARABI 1979 : *Les soufis d' Andalousie.* Ruh al-quds *et* Ad-Durrat al fâkhirah (trad. R. W. J. Austin et Gérard Leconte) (coll. « La bibliothèque de l'Islam. Témoins »). Sindbad. Paris. 1979.

lieu précis, si l'ensemble des mentions de pieux trépas ne constitue pas une espèce de topographie sacrée, dans le cadre d'un culte des morts, comme c'est manifestement le cas dans les *gesta*[1].

Gesta et *tabaqat* ont aussi en commun un fondamentalisme temporel ; que ce soit pour remonter la transmission d'un savoir jusqu'à la formulation première ou jusqu'au savant fondateur ou pour établir les origines des établissements religieux, il s'agit toujours de retrouver un temps primitif. Cette obsession chronologique fonde la structure générale des séries biographiques : à côté des tranches temporelles dites précisément « couches » ou « générations » (*tabaqat*), servant à classer beaucoup de recueils arabes, les titres de certains compilations latines (*series episcoporum, libellus de numero sive ordine, ordinatus libellus de ordine pontificalis successionis*) expriment la même notion de succession. Certes, le nombre de générations varie entre textes arabes et latins, car tous ces religieux cherchent à enraciner leur histoire dans la fondation même de leur foi, aux temps prophétique ou apostolique ; or, pour d'évidentes raisons historiques, les Apôtres précèdent de six siècles le Prophète et ses Compagnons – mais il y aussi de nombreux monastères chrétiens de fondation « tardive », que leurs historiens ne cherchent pas à vieillir fictivement et qui offrent donc des séries plus courtes.

En même temps, ce passé est largement une actualisation, faisant une large place au présent, comme aboutissement logique mais aussi comme période plus facile, techniquement, à traiter ; les différentes suites que donnent les compilateurs arabes aux *tabaqat* antérieures permettent parfois de compléter la connaissance pour les époques anciennes mais surtout d'actualiser les séries, et certains recueils recensent même seulement les hommes que l'auteur a connus personnellement (tels le bref

1 M. Sot, *op. cit.*, p 19.

catalogue de sufis d'Ibn Arabi). Pour les *gesta*, le présentisme est lui aussi largement méthodologique : les notices s'enflent en approchant de l'époque du compilateur, et celui-ci avoue parfois qu'il lui a été plus facile de rassembler des témoignages pour les biographies les plus récentes – outre la révérence due au commanditaire de l'œuvre, qui est le responsable en poste et qui bénéficie de la notice la plus longue. La méthode de l'enquêteur s'impose dans les deux aires culturelles, laquelle, malgré le culte de l'écrit commun aux hommes de savoir, privilégie l'expérience sensible et le contact direct avec les témoins, à travers des expressions du type « j'ai vu », « on m'a rapporté personnellement »...
Le souci biographique, jusqu'à travers la constitution de séries, est un autre point en commun évident ; à partir du moment où les compilateurs musulmans abandonnent la focalisation, qui est spécifiquement juridico-religieuse, sur l'authenticité des chaînes de témoins, ils ouvrent le champ des séries cumulatives de simples biographies (*taragim*) de savants, ce qui les rapproche des *gesta* latines quant au contenu des notices. On atteint là la dimension essentielle de tout récit historique : il s'agit toujours d'une « science des hommes » (*'ilm al-rijal*), certes principalement en tant qu'animaux sociaux mais aussi en tant qu'entités spécifiques. L'individu, s'il reste forcément inscrit dans une démarche collective, ne serait-ce qu'à cause de la mise en série propre au genre, prend dans ces œuvres un relief particulier et presque une autonomie, notamment pour les recueils biographiques de soufis, dont l'expérience mystique est éminemment individuelle. A cet égard, les *tabaqat* seraient un point de comparaison idéal pour les recherches menées actuellement dans les pays occidentaux sur la position de l'individu dans le Moyen Âge européen[1].

1 A la suite des pistes proposées par SCHMITT (Jean-Claude) : « La 'découverte de l'individu' : une fiction historiographique ? » in. Idem : *Le*

Certes, les séries biographiques latines valorisent leurs sujets comme incarnations successives d'une institution dûment localisée, tandis que les *tabaqat* pratiquent une véritable généalogie de la transmission du savoir : le rapport de maître à élève est presque absent dans les *gesta*, alors que, pour les *tabaqat*, « le commencement du disciple est la fin de son maître »[1] – ce qui confère à ces biographies arabo-musulmanes leur caractère prédominant de *curriculum* académique aux dépens d'une trajectoire psychologique[2]. Toutefois, dans les deux cas, la notion de continuité est importante, à travers la notion de tradition : à l'imitation du grand modèle qu'est le *Liber pontificalis* de l'église de Rome, les *gesta* cherchent à établir une chaîne ininterrompue de dirigeants – et, en ce sens, le genre est héritier des fastes consulaires romains – ; ainsi les *Gestes des abbés de St-Germain d'Auxerre* invoquent l'Evangile pour affirmer que « une génération remplace l'autre »[3]. Cette notion commune revêt, en outre, un caractère juridique[4] assez convergent ; la transmission du pouvoir effectif entre abbés ou évêques n'est pas totalement différente de la transmission des énoncés normatifs entre témoins des *hadith*. En outre, la diffusion de cette obsession quasi généalogique depuis les

---

corps, les rites, les rêves, le temps. Essais d'anthropologie médiévale. Gallimard. Paris. 2001, pp 241-262, on peut voir notamment *L'individu au Moyen Âge* (Brigitte Bedos-Rezak et Dominique Iogna-Prat dir.). Aubier. Paris. 2005 ; notons qu'un questionnement parallèle (mais pas spécifiquement médiévistique) existe et est même antérieur pour le monde arabo-musulman, avec *Individual and society in the mediterranean muslim world. Issues and sources / Individu et société dans le monde méditerranéen musulman. Questions et sources* (Robert Ilbert dir.). European science foundation. s.l. 1998, mais, comme souvent, les parallèles ne se rejoignent pas…

1 Cité par I. Hafsi, *op. cit.*, p 37.

2 F. Mediano, *op. cit.*, p 20.

3 *Generatio preterit et generatio advenit* (*Les gestes des abbés de Saint-Germain d'Auxerre*. Edition et traduction par Noëlle Deflou-Leca et Yves Sassier (Les classiques de l'histoire au Moyen Âge). Les Belles-Lettres. Paris. 2011, p 4).

4 I. Hafsi, *op. cit.*, p 6-7.

traditionnistes vers d’autres disciplines, pour recenser le maximum de savants mais aussi pour reconstituer de véritables « écoles », souvent définies par leur localisation, finit par rapprocher certaines compilations biographiques arabo-musulmanes des recueils latins associant les vies d’évêques, dans un objectif historiographique commun : dans les deux cas, il s’agit de la mémoire d’une ville, à travers une institution y jouant un rôle éminent, que ce soit un évêché chrétien ou une école de savants musulmans – à la différence que les évêques exercent parfois un pouvoir juridictionnel direct sur leur cité.

Il est vrai que les *tabaqat*, à l’instar des généalogies, sont beaucoup plus larges que les étroits « lignages » offerts par les *gesta* ; la gestion de l'abondance des données a des incidences sur l’articulation des notices : quand les « générations » sont classées par ordre alphabétique et deviennent donc de simples dictionnaires – dès 846, pour les « classes » de poètes –, on s’éloigne des compilations biographiques latines, dont l’optique institutionnelle implique une organisation purement historique, c’est-à-dire une succession chronologique. En d’autres termes, les *gesta* sont des chroniques découpées en biographies, tandis que l’ambition compilatoire des *tabaqat* leur donne une épaisseur sociale allant au-delà de la simple dimension chronologique – et c'est cela qui en fait une source prosopographique de premier ordre.

Il nous faut donc revenir au problème de typologie de nos textes, problème qui est à la fois fonctionnel et formel (autrement dit « littéraire »). On peut être tenté de définir les *tabaqat* comme un type en soi, irréductible à tout autre genre d'œuvre ; à l'inverse, nous avons proposé de les rattacher, avec les *gesta* latines, à la vaste catégorie des sources historiographiques. Il ne faut pas oublier que toute typologie est arbitraire, surtout en ce qui concerne les sources littéraires (au sens le plus large : celles dans lesquelles la rhétorique est essentielle et implique une

certaine originalité) ; cela les oppose aux écrits définis par le droit, dont les types sont « indigènes », c'est-à-dire définis par leurs auteurs mêmes. Il me semble que ce qui caractérise et unifie *gesta* et *tabaqat*, c'est d'écrire l'histoire à travers des notices biographiques fortement individualisées, autrement dit des unités qui gardent un certain sens même indépendamment les unes des autres. Le récit d'une vie est l'atome de la narration historique. Aussi bien dans le monde arabo-musulman que dans le monde latino-chrétien, cette solution technique a été expérimentée, avec plus ou moins d'abondance.

Notons que les *tabaqat*, malgré leur importance en volume, n'épuisent pas le récit du passé, même si elles en ont constitué un vecteur important – Ibn al-Muwaqqit de Marrakech ne prétend-il pas que « les biographies des grands personnages valent mieux que l'histoire elle-même »[1] ? En effet, l'univers documentaire médiéval arabo-musulman est d'une richesse nettement supérieure au monde latin en ce qui concerne les sources historiographiques, au moins jusqu'au XIIIe siècle ; la véritable chronique (*tarikh*) s'y décline en de multiples formes, notamment les annales, et s'accompagne de traditions (*akhbar*), d'autobiographies (comme celles d'Abdallah, roi ziride de Grenade, ou d'Usama b. Munqidh, prince de Shayzar), de relations (*rihla*), d'inscriptions épigraphiques... Dans l'Occident latin, le problème de la place des *gesta* dans la typologie est moindre, puisqu'elles restent de toute façon marginales par rapport aux formes plus nobles de l'écriture de l'histoire – tenues pour supérieures car tressant de nombreuses actions dans un discours savamment composé, au service d'une dialectique explicite.

---

1 Cité dans EL-HAMEL (Chouki) : *La Vie intellectuelle islamique dans le Sahel ouest-africain (XVIe-XIXe siècles). Une étude sociale de l'enseignement islamique en Mauritanie et au nord du Mali, avec traduction annotée de Fath ash-shakûr d'al-Bartilî al-Walâtî (m. 1805)*. L'Harmattan. Paris. 2002.

En fait, jusque dans la chronique universelle la plus spéculative, à l'image des célébrissimes « Prolégomènes » du *Kitab al-Ibar* d'Ibn Khaldun, l'histoire se fait par l'action des hommes ; quelle que soit l'action de Dieu en sous-main (ou même les véritables effets de système sociologiques), la biographie reste l'atome de l'histoire. La focalisation sur les dirigeants est d'ailleurs identique dans la chronistique latine et arabe. Entre *tabaqat* et *gesta,* la principale différence réside, à l'échelle du corpus historiographique tout entier, dans l'attention prêtée par les auteurs aux institutions, aux lieux et plus encore aux catégories sociales inférieures aux princes. Dans les régions du monde arabo-musulman où s'exerce un gouvernement sur une vaste étendue (comme dans l'émirat puis le califat andalou), des chroniques locales ou d'une institution particulière ne sont pas rédigées ou conservées, et ce sont les *tabaqat* qui peuvent en tenir lieu, ceci pour l'ensemble du Moyen Âge. A première vue, il en va de même dans le monde latin jusqu'à la fin de l'époque carolingienne, où ce sont les annales monastiques et les *gesta* qui mettent en œuvre l'histoire des institutions locales (qui ne sont pas encore de véritables pouvoirs). Mais, quelle que soit l'époque, la curiosité des historiographes latins médiévaux s'arrête à l'action des dirigeants, donc conserve toujours un prisme institutionnel – outre l'attention à des phénomènes atteignant l'ensemble de la population, comme les catastrophes environnementales –, tandis que les compilateurs de *tabaqat* étendent leur enquête à des élites qui n'exercent pas directement le pouvoir. Autrement dit, dans les pays arabo-musulmans, la focalisation extrême du pouvoir légitime sur l'étroite catégorie des princes, concrétisée sur le plan historiographique par la chronistique palatine, laisse une large place aux autorités morales, culturelles et scientifiques, qui plus est à travers le genre spécifique de la série biographique ; en comparaison, l'Occident latino-chrétien féodalisé diffuse plus largement les pouvoirs de

type régalien à partir du Xe siècle, dans les lignages aristocratiques, les établissements religieux et les communautés d'habitants, ce qui permet d'y développer le genre chronistique (dont les *gesta* ne sont qu'une modalité cléricale et peu usitée), mais aux dépens des autres élites. Dans l'histoire comparée des conceptions du pouvoir et dans leur effet sur la typologie des sources, la mutation féodale constitue bien une « révolution » qui introduit une divergence majeure entre les deux grandes aires culturelles.

Une analyse détaillée du contenu de notices biographiques, outre qu'elle serait peu représentative à cause de l'immensité et de la diversité de la matière (du côté arabe), nous entraînerait dans un domaine purement philologique, alors que c'est l'organisation d'ensemble des compilations qui est éclairante sur le plan fonctionnel. D'un point de vue rhétorique global, l'écriture biographique s'inscrit dans des schémas extrêmement proches, par-delà le génie propre aux langues arabe et latine. Au-delà d'éléments communs, tels que la modestie affichée par l'auteur dans son projet, la dialectique propre à l'écriture d'une vie s'impose identiquement à tous les auteurs : le compilateur des *Gestes des abbés de Saint-Germain d'Auxerre* cite lui-même les principaux éléments du genre, l'origine familiale, la patrie, le temps du gouvernement, la date et le lieu de sépulture[1]… qui sont également les critères structurant les biographies des *tabaqat* (outre, bien sûr, la formation intellectuelle, qui est présente dans les biographies latines, mais de façon moins obsessionnelle).

Il reste désormais à entreprendre une grande enquête pour comparer les sources d'information et surtout la façon dont les compilateurs les utilisent ; cette tâche purement technique pourrait être réalisée par des spécialistes de

1 *Genus, patriam, electionis et regiminis tempus, sepulture locum et diem obitus* (*Gestes des abbés*…, *op. cit.*, p 6).

chaque domaine linguistique travaillant séparément, avant confrontation des résultats. Quant à la méthode suivie par les compilateurs de biographies, il semble que la pratique de l'insertion de textes extérieurs à la narration biographique proprement dite soit employée aussi bien dans les *tabaqat*[1] que dans les *gesta*.

Plus immédiatement réalisable serait de suivre quelques pistes pour comparer la façon dont la réalité sociale s'insère et s'exprime dans le discours biographique. Prenons seulement deux exemples.

La division originelle des grammairiens en deux écoles, à Basra et Kufa[2], et des juristes en quatre « rites » interprétatifs, de même que l'adoption par les soufis d'une organisation confrérique à partir du XIIe siècle, conduit à une concurrence entre courants de pensée ou même entre disciples de maîtres différents ; cette concurrence est-elle comparable à celle qui peut exister entre Ordres religieux chrétiens, et se ressent-elle dans les notices biographiques prises isolément ou, plus encore, dans l'articulation des recueils ? On peut noter, comme élément préalable à cette réponse, que l'appartenance à un Ordre global n'est pas un thème prioritaire dans les *gesta abbatum*, dont l'ancrage est avant tout local.

Autre problème, qui peut conduire à différencier nettement le contenu factuel des biographies par les compilateurs de *gesta* et de *tabaqat* : dans les biographies d'abbés et d'évêques, la gestion des affaires matérielles (c'est-à-dire du temporel) occupe une place majeure, au point que les *gesta* sont parfois fondées sur les cartulaires ou sont rédigées en parallèle ou en complément de ceux-ci ; or, les intellectuels et juristes du monde arabo-musulman sont généralement attachés à des institutions sans en avoir la responsabilité économique, à cause de la

1 Sur la différence entre matériel factuel et matériel illustratif, voir F. Mediano, *op. cit*., p 23.

2 I. Hafsi, *op. cit*., p 155, pour la plus ancienne *tabaqat* de grammairiens au XI[e] siècle.

perfection des structures administratives, et l'on peut donc se demander si l'activité gestionnaire se retrouve dans leurs biographies, en particulier pour les responsables de *zawiya* ?
Pour finir, élargissons quelque peu le propos, pour adopter de point de vue de l'enquêteur en histoire sociale, comme nous y invite un des axes de réflexion proposés par les organisateurs de ce colloque – même si ma focalisation sur le monde rural m'interdit une pratique personnelle des sources véritablement biographiques.
Du point de vue méthodologique, qui est à mon sens essentiel, *tabaqat* et *gesta* peuvent être exploités également dans une perspective biographique et prosopographique : biographique, car il s'agit de récits courts, destinés à exalter les mérites terrestres d'hommes appartenant à une élite de religieux et jouant de ce fait un rôle fondamental dans l'encadrement de la société – les *faqih*/s produisent et mettent en œuvre la norme dans sa dimension intellectuelle, tandis que les abbés et évêques féodaux dirigent des établissements moteurs de l'économie et sont parfois seigneurs publics, les uns et les autres exerçant souvent des fonctions au service de l'Etat – ; prosopographique, car ces récits sont mis en séries plus ou moins longues et cohérentes par les compilateurs eux-mêmes – ce qui en fait un genre prosopographique « indigène » et non pas une méta-source constituée par l'historien, dans la tradition des études des élites romaines.
A cet égard, le Moyen Âge occidental est nettement moins riche en textes proprement prosopographiques ; certes, il offre de nombreuses autres listes d'hommes (quoique bien moins nombreuses que les listes de biens et de lieux), principalement parmi ceux appartenant aux élites (comme les livres de bourgeoisie allemands) ou ceux exerçant des fonctions particulières (comme les rôles militaires), mais elles n'ont rien de biographique, si l'on excepte les très courtes listes de serfs avec leur généalogie. Pour le problème, essentiel, des réseaux sociaux, que les *tabaqat*

éclairent particulièrement bien (en établissant les liens entre maîtres et élèves), les médiévistes de l'Occident ne disposent pas de sources explicitant la nature des relations entre un grand nombre d'acteurs – en-dehors bien sûr de la littérature généalogique nobiliaire, qui se restreint aux liens du sang – : l'historien en est réduit le plus souvent à généraliser des relations ponctuelles, d'alliance, de solidarité, d'association, de concurrence…, sans percevoir leur dimension réticulaire. Toutefois, pour le bas Moyen Âge, l'encadrement administratif se resserre jusqu'à signaler (mais ponctuellement) des membres des élites dans les principales étapes de leur existence ; pour les milieux urbains tardo-médiévaux, en particulier, il peut arriver que les registres notariaux consignent des relations avec une telle densité qu'elles finissent par esquisser un système réticulaire.

En conclusion, il convient de mesurer les limites de ce qui précède, avant de proclamer avoir ouvert une nouvelle voie… Mes propositions, issues d'une comparaison très générale (avec toutes ses limites techniques, énoncées précédemment) entre des corpus aussi vastes, peuvent être démenties ou fortement corrigées par n'importe quelle analyse de détail. En effet, si l'ensemble des *gesta* latins présente une certaine cohérence, l'immensité des *tabaqat* se décline en familles, dont il est difficile de maîtriser toutes les nuances, et en régions de production, dont les enjeux politico-culturels spécifiques ne doivent pas être gommés[1] ; peut-être serait-il donc sage de se limiter aux

[1] Même si les compilateurs sont relativement indépendants des dirigeants politiques, il leur est difficile de ne pas adhérer à une cause idéologique, dans des sociétés arabo-musulmanes où les enjeux de pouvoir sont dès l'origine fortement clivants ; c'est à la mesure de cette instrumentalisation que les dictionnaires biographiques constituent forcément une prise de position par rapport au pouvoir en place.

dictionnaires arabes d'une seule « région »[1] et relatifs aux seuls *qadi*/s et *faqih*/s. En revanche, on ne peut pas accepter des critiques qui viendraient d'un point de vue purement littéraire, fondées exclusivement sur la rhétorique des auteurs : telle n'était pas notre approche. Je me suis placé en tant qu'historien ; de ce point de vue, le niveau de construction à étudier est l'agencement des biographies entre elles, afin d'en dégager les conceptions sociologiques des hommes qui ont compilé ces livres[2]. Pour ce faire, l'étude devrait porter, en dépouillant des corpus assez vastes, sur les introductions générales des œuvres et sur les transitions énonçant les relations entre les biographiés. Nous ne prétendons pas avoir réalisé ce travail, considérable, mais nous espérons en avoir suggéré l'intérêt, afin de confronter, sur des bases solides, les différentes conceptions de la société qui ont prévalu dans l'Occident latino-chrétien et dans le monde arabo-musulman.

[1] A cet égard, il semblerait logique de restreindre la comparaison aux deux rives, latine et arabe, du bassin occidental de la Méditerranée ; mais il n'est pas sûr que le Maghreb, en relations intenses avec le Proche-Orient (beaucoup plus que l'Europe occidentale ne l'est avec l'empire byzantin), constitue un milieu culturel totalement spécifique, au moins en ce qui concerne la production et l'usage des grands types de sources écrites. Nous maintenons donc, pour ces réflexions préalables, la référence très large au monde musulman « en général ».

[2] C'est, rappelons-le, le principal apport de la démarche de D. Urvoy, *op. cit*.